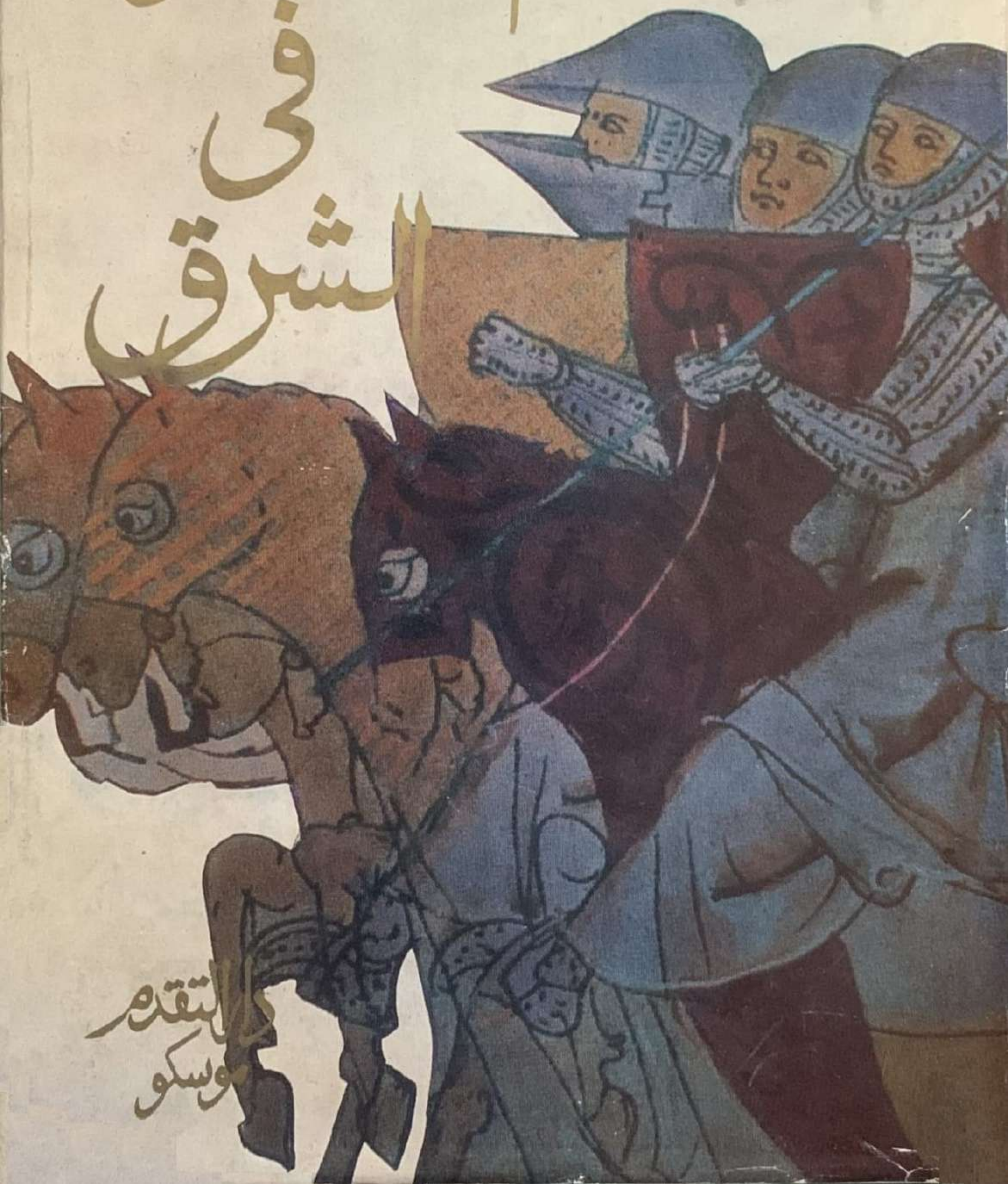
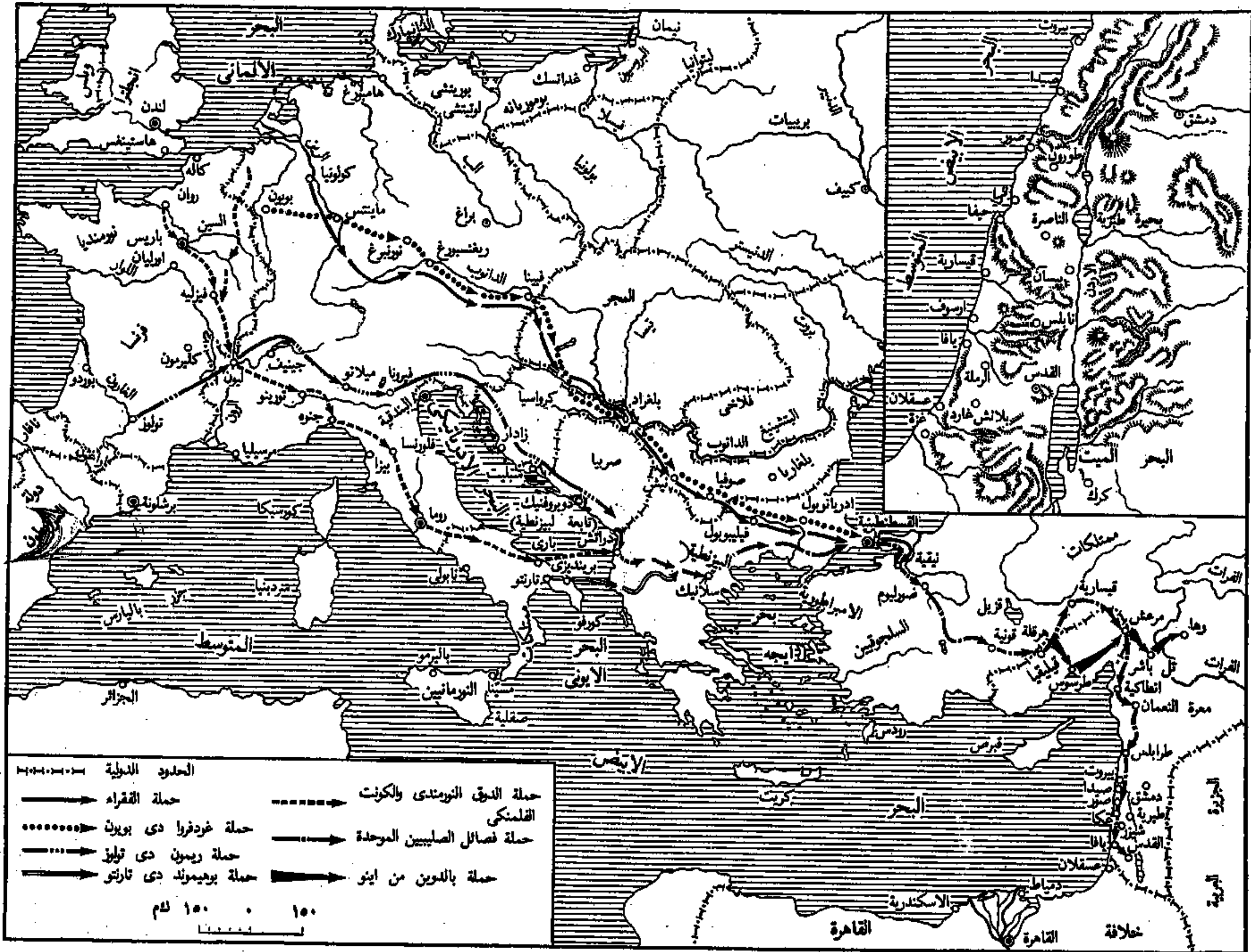
ميخائيل زابوروف

الصليبيون في الشرق



دار التقدم
موسكو

ميخائيل زابوروف (من مواليد سنة ١٩٢٠) ، مؤرخ سوفييتي معروف . دكتور في العلوم التاريخية . يعكف منذ سنوات عديدة على دراسة قضية الحروب الصليبية . وقد وضع بحوثا عديدة في هذا الموضوع ، وكذلك في مسائل تاريخ الدين في القرون الوسطى . ومن اشهر اعماله المؤلفات التالية : «الحروب الصليبية» (سنة ١٩٥٦) ، «البابوية والحروب الصليبية» (سنة ١٩٦٠) ، «الصليبيون وحملاتهم الى الشرق» (سنة ١٩٦١) ، «مقدمة في تاريخ الحروب الصليبية» (سنة ١٩٦٦) ، «علم تاريخ الحروب الصليبية (الادب من القرن الخامس عشر الى القرن التاسع عشر)» (سنة ١٩٧١) ، «تاريخ الحروب الصليبية في الوثائق والمواد» (سنة ١٩٧٧) ، «بالصليب والسيف» (سنة ١٩٧٩) ، «الصليبيون في الشرق» (سنة ١٩٨٠) . وقد ترجم عدد كبير من كتب زابوروف ومقالاته الى اللغات الانجليزية والبلغارية والاسبانية والالمانية واليابانية والتشيكية وغيرها من اللغات .



الحدود الدولية
حملة الفقراء
حملة غودفروا دى بويون
حملة ريمون دى تولوز
حملة بوهيموند دى تارنتو
حملة الدوق النورمندى والكونت الفلمنكى
حملة فصائل الصليبيين الموحدة
حملة بالدوين من اينو
١٥٠ ٠ ١٥٠ كم
البحر
الألمانى
لندن
هاستينغس
كاله
روان
باريس
نورمنديا
اورليان
فيزليه
فرنسا
كليرمون
ليون
بوردو
تولوز
برشلونة
جنوه
تورينو
ميلانو
فيرونا
بيزا
روما
نابولى
تارنتو
برنديزى
بارى
باليرمو
صقلية
سردينيا
كورسيكا
الجزائر
المتوسط
كولونيا
مايانس
بويون
نورنبرغ
ريغنسبورغ
فيينا
براغ
هامبورغ
غدانسك
كييف
البحر
بلغراد
صربيا
كرواسيا
زادار
بلغاريا
صوفيا
ادريانوبول
فيليبوبول
سالونيك
القسطنطينية
نيقية
دوريليوم
قونية
هرقلة
قيسارية
مرعش
الرها
تل باشر
طرسوس
انطاكية
معرة النعمان
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
عكا
يافا
القدس
عسقلان
دمياط
الاسكندرية
القاهرة
كريت
رودس
قبرص
البحر
الأبيض
الأيونى
ايجه
السلاجقة
خلافة
دمشق
حيفا
الناصرة
بحيرة طبرية
قيسارية
بيسان
نابلس
ارسوف
الرملة
غزة
البحر
الميت
كرك

ميخائيل زابوروف

الصليبيون في الشرق



دار التقدم
موسكو

ترجمة الياس شاهين

М. А. Заборов

КРЕСТОНОСЦЫ НА ВОСТОКЕ

На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

З $\frac{0504020000-248}{014(01)-88}$ без объявл.

ISBN 5-01-000748-7

شاهرو السيوف

(مقدمة)

الافرنج يجوسون المدينة . شاهرى السيوف .
لا يشفقون على احد ، حتى على الذين يتوسلون الرحمة . . .
سقط شعب الكفار تحت ضرباتهم مثلما
تسقط جوزات البلوط المهترئة من شجرة البلوط حين
يهزون اغصانها .

فى هذه الاشعار ، الصريحة ، والخشنة فى مسحتها الطبيعية ، والمفصحة بكل جلاء بالعداء «لشعب الكفار» ، يحكى مؤرخ قروسطى – نقلا عن اقوال شهود العيان – عن المآثم والفظائع التى اقترفهـــا الصليبيون فى القدس العربية حين احتلوها فى ١٥ تموز (يوليو) ١٠٩٩ .

من كانوا هؤلاء «الافرنج» (او «الفرنجة») الذيــن شهروا السيوف آنذاك ضد «الكفار» ؟ لاية اهداف ابدوا القساوة وعدم الرحمة ؟ اية مثل عليـــا كانت تلهمهم وتشجعهم ؟ وهل تطابقت مع هذه المثل العليا النتائج العملية لحروب «الفرنجة» التى استمرت حتى بعد الاستيلاء على القدس – على امتداد زهاء قرنين ، فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط ؟

ان الاجابة عن هذه الاسئلة وعن كثير من الاسئلة الاخرى التى تواجه حتما كل من يهتـــم بالعلاقات المتبادلـــة بين الغرب والشرق فى عصر الاقطاعية ، انما تعنى التحدث عن تاريخ مـــا يسمى بالحروب الصليبية (او الحملات الصليبية) .

وهل من داع الى ذلك ؟ افلا يتحدثون عن الحروب الصليبية فى الكتب الدراسية المدرسية والجامعية ؟ ثم لماذا نبعث امام انظار الجيل الحالى الذى يعيش فى عصر ترويض الفضاء الكوني والتحليقات الى القمر وحتى الى كوكب الزهرة ، فى عصر الآلات الحاسبة الالكترونية والمراكب الذرية ، تلك الازمان البعيدة التى كان فيها عقل البشرية يستيقظ للتو ؟ فما اقدم هذا الماضى ! قد يقول قارئ : ان الحروب الصليبية قد ولت الى الابد ، ولذا من المشكوك فيه ان يكون ثمة معنى لتذكرها ، وبالاحرى لتذكرها بتفاصيل كبيرة . . .

ان الآراء من هذا النوع خاطئة تماما ، مهما كانت جذابة من النظرة الاولى بالنسبة لمن يغيب عندهم حب الاستطلاع التاريخى ويحاولون ان يبرروا غيابه بشتى الوسائل . من الممكن ايراد الكثير من مختلف الادلة على ضلال الموقف العدمى او شبه العدمى من ملحمة الحروب الصليبية . لنكتف على الاقل بابسط الاعتبارات القائمة فى مستوى واحد – الحروب الصليبية والواقع المعاصر .

وبالفعل ، لا يزال تعبيرا «الحرب الصليبية» (او «الحملة الصليبية») و«الصليبيون» شائعين الى الآن فى الاستعمال اليومى ، رغم ان الحروب الصليبية فى الشرق تعود الى الماضى البعيد . وهذان التعبيران لا يستعملان بالمعنى المباشر ، التاريخى وحسب ، بل ايضا بالمعنى المجازى ، كمجاز ، كصورة ، كرمز . وغالبا ما يتضمنان شتى المعانى ، تبعا لمن ومتى ولاى غرض يستعملهما ، تبعا لمن وكيف يفهم الحروب الصليبية فى القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر . ولم يكن ثمة ابدا وليس ثمة اليوم اى وحدة فى الرأى من حيث تفسيرهما . فان المؤرخين الكاثوليك يعتقدون ان هذه الحروب كانت تعبيرا عن شعور دينى عميق وصادق شمل المسيحيين فى الغرب ، وايقظهم واستحثهم فتمنطقوا بالسيوف واندفعوا ، باشارة من يد بابا روما ، الى انقاذ المقدسات الفلسطينية . اما الاختصاصيون ذوو التفكير السليم ، غير المتحيزين دينيا وطائفيا ، فانهم يرون ان الغلاف الدينى للحروب من اجل «قبر السيد المسيح» ليس سوى قناع ، وان يكن من صنع العصر ، يستر مع ذلك مطامع الفرسان الاوروبيين الغربيين الدنيئة وبحثهم فى الشرق عن رقع جديدة من الاراضى وعن ثروات جديدة . كذلك ظهرت وجهات نظر متوسطة ؛ فاحيانا ترد فى المرتبة الاولى البواعث الدينية للحروب الصليبية ، واحيانا البواعث الاغتصابية ، ولكن هذه البواعث وتلك كانت تلقى الاعتراف . ولا يندر ان يسود التشوش حتى فى مؤلفات العلماء ذوى التفكير الواقعى . وهذا التشوش كبير احيانا الى حد ان بعض الباحثين ، مثل

الفرنسى بول روسه ، «الذى ضل بين ثلاث صنوبرات» ، يشيرون بشتى الوسائل الى طابع تعبير «الحرب الصليبية» الذى يبدو لهم «غامضا» ، «غير واضح» . وبين الفينة والفينة يستغرق بعض الباحثين فى نصوص القرون الوسطى ويحاولون عبثا ان يجدوا فيها معناه «الحقيقى» اى الاولى ، حسب رأيهم ، ويتعثرون عن غير قصد فى التفسير القروسطى ، الكنسى على الاغلب ، لظاهرة الحروب الصليبية .

اما فى الاستعمال اليومى ، فان كلمتى «الحرب الصليبية» ترتبطان قبل كل شىء منذ مئات السنين بالتصور عن غيظ دينى متطرف ، عن التعصب الاعمى الذى اسفر عن فظائع لا تصدق ، والذى كان سببا لسفك الدماء بلا مبرر ولا معنى ، ولهلاك اعداد ضخمة من الناس بلا جدوى فى الشرق الاسلامى وفى بيزنطية وفى اوروبا .

ان هذا التصور ينبع من نظرات المنورين الاوروبيين فى القرن الثامن عشر . فقد كتب المفكر الحر الفرنسى الشهير فى ذلك الزمن جان ميليه ان الايمان الاعمى يحمل المتعصبين على الدفاع عن دينهم حتى ولو تعرضوا لخطر الموت . ولهذا «يطاردون بعضهم بعضا على الدوام بالنار والسيف» ، و«ليس ثمة اية من الفظائع والمآثم لا يلجأ اليها بعضهم ضد بعض بذريعة رائعة ولائقة ، ذريعة حقيقة دينهم المتخيلة» . ان هذه الآراء والآراء المماثلة التى ترقى الى اكثر من قرنين ونصف قرن قد حددت زمنا طويلا المعنى المجازى الدارج المهيمن حتى الآن لتعبير «الحرب الصليبية» ولمفهوم «الصليبيون» (فيما يتعلق بجميع الحروب الدينية) . المهيمن ، ولكن ليس الوحيد !

ان تعبير «الحرب الصليبية» ومفهوم «الصليبيون» والمفاهيم والتعابير المماثلة لهما ، تطابق عادة ، بمعناها المجازى ، المتحول ، نداءات وافعال المتهوسين المتعصبين ، والمدافعين عن الافكار الرجعية (وان لم تكن الزاما دينية) .

وفى الوقت الحاضر يضمن الكتاب ذوو الاتجاه الماركسى اللينينى هذين التعبيرين معنى مجازيا ساخرا ، وسلبيا دائما . وهم من حيث جوهر الامر كانما يواصلون تقاليد التشهير والفضح التى ارساها ماركس وانجلس ولينين الذين استعملوا فى آرائهم تعبير «الحرب الصليبية» بمعنى مجازى سلبى . ان استعمال التعبير القروسطى المدرك على هذا النحو قد اتاح لمؤسسى الماركسية-اللينينية ان يكشفوا بسطوع المضمون الطبقى للافعال الرجعية التى قامت بها البرجوازية الاوروبية والتى ارتكزت عموما واجمالا ،

كما عند صليبيي الماضي ، عـــلى استشهادات بالدوافع الفكرية «السامية» وبواعث الفضيلة .

فى سنة ١٨٦٤ ، كتب ماركس فى «البيان التاسيسى لجمعية الشغيلـة العالمية» (الاممية الاولى) مشيرا الى دور البروليتاريا الانجليزية الفعال فـى درء تدخل انجلترا فى الحرب الاهلية بين الشمال والجنوب فـــى الولايات المتحدة الاميركية الى جانب مالكى العبيد : «فليست حكمة الطبقات السائدة ، بل المقاومة الباسلة من جانب الطبقة العاملة في بريطانيا لجنونها الاجرامـى هى التى انقذت اوروبا الغربية من مغامرة حملة صليبية مخزية لاجل تخليد ونشر العبودية فى الجانب الآخر من المحيط الاطلسى» * . وفى رسالة بتاريخ ٢٧ ايلول (سبتمبر) ١٨٧٣ الى زورغه ، الاشتراكى الالمانى البارز ، تحدث ماركس عن هجوم الاوساط الحاكمة الاوروبية على الطبقة العاملة بعد هزيمة كومونة باريس سنة ١٨٧١ ونعت اعمال القمع الحكومية هذه قائلا : «عندما تشن الرجعية حملتها الصليبية . . .» * * ؛ ذلك ان اعمال القمع كانـــت تتستر وراء دوافع حماية النظام العام ووقاية المجتمع المتمدن من «المشاغبين الحمر» ، وما الى ذلـــك . ومثل ماركس ، تحدث بالمعنى ذاتـــه الكتاب الديموقراطيون الذين تعاطفوا آنذاك مع قضية الكومونة .

واستعمل انجلس تعبير «الحملة الصليبية» فـــى النضال ضد اعداء الماركسية الذين يرتدون الالبسة الاشتراكية . وفى مقالته «عن السلطان» (سنة ١٨٧٤) قال ردا على حملات اولئك الاشتراكيين المزعومين عـلى فكرة ديكتاتورية البروليتاريا: «شن بعض الاشتراكيين فى الآونة الاخيرة حملـة صليبية حقيقية ضد ما يسمونه **بمبدأ السلطان**» * * * .

وهذا المعنى التشهيرى ضمنه لينين مفهوم «الحرب الصليبية» . مثلا ، فى معرض وصف نهوض الحركة التحررية لبروليتاريا ارلنده عشية الحرب العالمية الاولى ، وصم بالخزى والعار الاوساط الرجعية فى البرجوازيـــة الارلندية ، لانها ، بمبادرة من رب العمل مارفى من دوبلن ، وجهت سلسلة من الملاحقات ضد النقابات التقدمية وزعمائها لاركين والآخرين ؛ وقد كتـب

---

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . دار التقدم ، المجلد ٢ ، الجزء ١ . ص ١٣ .

* * ماركس ، انجلس . رسائل مختارة . دار التقدم ، ص ٢٠٧ .

* * * ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٢ . الجزء ٢ ، ص ١٦١ .

يقول : «لقد اعلـــــن مارفى الحرب الصليبية للبرجوازية على لاركيـــن و«اللاركينية»» .

وهذا التقليد فى استعمال تعبيـــر «الحرب الصليبية» قصد الفضـــح والتشهير قد واصله رجال الحركة الشيوعية البارزون ، انصار الديموقراطية والسلام فى العهد المعاصر ، نافخين فى هذه الصيغة القروسطية حياة جديدة ، ولكنها مغايرة تماما بالمقارنة مع الحياة السابقة .

وغير مرة لفت العالم المجيد ، مؤسس حركـــة انصار السلام فريدريك جوليو - كورى الانتباه الى خطر بعث جو «الحرب الصليبية ضد الاشتراكية» بعد هزيمة الفاشية فى الحرب العالمية الثانيـــة . وقد دعا الى «نبذ روح الحرب الصليبية»، ووضع حـــد لمحاولات اخصام التعايش السلمى «لاثارة التعصب بين السكان واعدادهم لافظع الحروب» . «بما اننا اعداء لجميـــع الحروب الصليبية ، فاننا سنناضل ضد الكذب ، ضـــد الخرافات والآراء الباطلة» . هكذا قال جوليو - كورى وظـــل امينا لهذا الشعار حتى ايامه الاخيرة . ومن الممكن ايجاد الكثير من الامثلة المماثلة فى اقوال قادة الحركة الشيوعية العالمية، وقادة الحزب الشيوعى السوفييتى البارزين .

ان ميدان الاستعمال الادبى والسياسى والعلمى المجازى لمفاهيم «الحلقة الصليبية» واسع ، ومن الممكن توضيحه بكثرة من الامثلة المشابهة .

ولكننا نجد احيانا ادراكا مغايرا ، مناقضا تماما «للمفاهيم الصليبية» ، وذلك حين يعنون قضية عامة طيبة ، صالحة ، خيرة ، عادلة .

وهذا يصح اساسا على الصحافة السياسية والادب فى اوروبا الغربيـــة والولايات المتحدة الاميركية ، حيث لا يزالون يفسرون الحروب الصليبية فى اغلب الاحوال بوصفها بالضبط مثالا على الخدمة المنزهة ، والمفعمة بالالهام الصادق ، لاهداف لائقة تماما . واحيانا يلجـــأ حتى الادباء والفنانـــون ذوو الميول التقدمية فى منتوجاتهم الى صور ومقارنات موشحة بهذا الضرب مـــن التصورات (التى ترقى الى زمن الرومانطيقية ، الى اوائل القرن التاسع عشر) .

البطل الرئيسى فى رواية الكاتب الاميركى العالمى الشهرة ارنســـت هيمنغواى «لمن تقرع الاجراس» ، الديموقراطى الاميركى ، المقاتل فى اللواء الاممى ، روبرت جوردان ، الذى حارب ببسالة كتفا الى كتف مع الجمهوريين الاسبان ضد الفاشيين فـــى اسبانيا (١٩٣٦-١٩٣٩) شعـــر ، كما يقول الكاتب ، بانه يشترك فى حرب صليبية . فقد كتب هيمنغواى كاشفا انعالات بطله قبل الاشتباك مـــع العدو : «انها الكلمة المناسبـــة الوحيدة مع ان الاستعمال قد بلاها وابتذلها الى حد ان معناها الحقيقى قد ضاع من زمان» .

ثم يصف هيمنغواى حالة المقاتل الاممى النفسية بالتعابير التالية : «شعر» روبرت جوردان «بذلك الشعور الذى كان يتوقعه فى يوم تناول القربان المقدس للمرة الاولى . كان ذلك شعور الواجب الذى اخذه على عاتقه امام جميع المظلومين فى العالم ، شعورا من المحرج والصعب التحدث عنه كما من المحرج والصعب التحدث عن النشوة الدينية ، ولكنه مع ذلك حقيقى مثل الشعور الذى تشعر به حين تسمع باخ او حين تقف وسط كاتدرائية شارتر او وسط كاتدرائية ليون وترى كيف يتساقط النور عبر الواح الزجاج الهائلة او حين تنظر الى لوحات مانتينيا وغريكو وبريغل فى برادو . ان هذا الشعور قد حدد مكانك فى شيء ما ، فيما آمنت فيه بلا تحفظ ولا تردد ، وفيما انت ملزم له باحساس القرابة الاخوية مع جميع الذين اشتركوا فيه مثلك . كان شيئا لم تعرفه اطلاقا من قبل ، ولكنك عرفته الآن ، واصبح مع الاسباب التى ولدته مهما بالنسبة لك الى حد ان موتك اصبح الآن لا معنى له ؛ واذا حاولت ان تتهرب من الموت ، فليس ذلك الا لكى لا يعيقك عن اداء واجبك» .

وهكذا نرى ان هيمنغواى يشبه بصورة مجازية مشاعر روبرت جوردان بانفعالات «المناضلين من اجل الايمان المسيحى» الذين كانوا يقاتلون اعداءهم حتى الموت ايفاء للنذر الدينى — اى لانقاذ المقدسات الفلسطينية .

للشاعر الالمانى البارع والمناضل ضد الفاشية برتولد بريخت قصيدة مفعمة بالمأساوية اسمها «حملة الاولاد الصليبية» (او الحملة الصليبية الطفولية) . وقد نظمها فور ان بدأت الجحافل الهتلرية تسفك دماء اوروبا . وقد كانت بولونيا من اولى البلدان التى تعرضت للغزو الفاشى .

فى بولونيا سنة ١٩٣٩
دارت رحى معركة دامية ،
محولة البيوت الى انقاض ،
حارقة القرى الى النهاية .
الاخت فقدت اخاها ،
الزوجة كفت عن الانتظار ،
الطفل لم يستطع وسط الركام
ان يجد والديه .

ويروى الشاعر اسطورة رهيبة مفادها ان اولادا يتامى تجمعوا من شتى انحاء الارض البولونية المعذبة التى داستها الجزمات الفاشية ، وشكلوا

فصيلة من زهاء خمسين شخصا ، واندفعوا الى حيث تنظر عيونهم ، بدافع واحد فقط ، هو ان يتخلصوا من الاهوال التى انقضت بها عليهم بلية الحرب .

انهم فى الطريق يحلمون
بالوصول الى موطن
لف النسيان فيه مخاوف الليل
وساد فيه السكون عوضا عن الحرب .

جميعهم («وكان بينهم الكاثوليكى والنازى والبروتستانتى») وحدتهم المصيبة المشتركة والسعى المشترك : ان يتخلصوا من الجوع والبرد والرصاص والقذائف والدبابات ، ان يجدوا مأوى فوق الرأس ، والخبز والسلام . تاهوا عبر العاصفة الثلجية ، من عزبة مدمرة الى عزبة اخرى ، دافنين الرفاق الذين ماتوا فى الطريق :

يبحثون عن ارض لا حرب فيها ابدا ،
وحل فيها السلام الى الابد ،
وابعد فابعد يتيهون ، وصفهم
يصبح لامتناهيا .

وفى آخر المطاف ، يموت الاولاد المتجمدون بردا وجوعا قبل ان يجدوا «موطنا وطريقا» . . .

ان قصيدة بريخت احتجاج غاضب ومر على الهمجية الفاشية والحرب التى رافقتها . ويسمى الشاعر بصورة رمزية المشتركين فى الحملة «بالصليبيين» . هذا التشبيه اوحت له به ذكريات تاريخية : فيما مضى ، فى القرون الوسطى وقعت بالفعل «حملتا الاولاد الصليبيتان» ؛ فان الاولاد من فرنسا والمانيا الذين تملكهم اليأس بسبب البؤس والجوع قد انطلقوا مع الكبار الى «انقاذ» الارض المقدسة من المسلمين املا فى ان يجدوا هناك ، فى الشرق البعيد ، كما اوحت الكنيسة ، مصيرا افضل . ومثل هؤلاء ، اتجه الصغار – «الصليبيون» سنة ١٩٣٩ هم ايضا باتجاه الجنوب . ومثل هؤلاء ، سقط الفتيان-«الصليبيون» سنة ١٩٣٩ ضحايا للحرب ، ووجدوا فى حملتهم الموت وليس الخلاص .

ان الحملة الصليبية هنا انما هى بنحو او آخر مفهوم يعنى شيئا ما منقذا ، موشحا بالحلم فى الخلاص من الاعباء والمشاق . ان النماذج

الماساوية التي ابتدعها خيال الشاعر لاولاد يسعون الى بيلغوراى حيث لا سفك الدماء ولا ويلات الجوع قد اكتسبت حياة جديدة فى موطن بريخت . ففى صيف ١٩٧٦ عرضت فى برلين ، فى معرض فن الصغار ، بين المعروضات الاخرى ، المجموعة النحتية المعبّرة ، التى صنعها تلامذة احدى مدارس جمهورية المانيا الديموقراطية «حملة الاطفال الصليبية (حسب بريخت)» .

عندما نشبت «الحرب الباردة» ، برز عازف الفيولونسيل والموسيقار الشهير من كاتالونيا بابلو كازالس فى عداد المناضلين الافذاذ من اجل السلام . وقد وضع اوراتوريو بكلمات قصيدة الشاعر الكاتالونى جوان الافدار الميلادية ، واخذ يطوف مع هذا الاوراتوريو على عواصم مختلف البلدان . وفيما بعد قال للكاتب الاميركى البرت كان : «فى هذه الموسيقى بحثت عن وسيلة لحمل الناس على امعان الفكر فى تلك الآلام التى تعانيها البشرية ، وفى خطر الحرب النووية الرهيب ، وفى امكانية التمتع بالسعادة فى الارض — حسب الناس فقط ان يتحدوا جميعهم كالاخوة فى العمل السلمى» . وقد نعت كازالس فى ذكرياته جولاته الفنية فى ذلك الزمن بانها «حرب صليبية من اجل السلام» ، حرب كانت الموسيقى سلاحه الوحيد فيها . وهكذا ، استعملت صيغة «الحرب الصليبية» فى هذه الحال ايضا كرمز لقضية نبيلة ، خيّرة تستهدف بلوغ الخير الاسمى الا هو السلام .

ولكن الكتاب والعلماء ورجال الثقافة التقدميين هم على العموم براء من هذه الارتباطات الذهنية . وهذه الارتباطات لم تترسخ كذلك فى الادب الاجتماعى والسياسى التقدمى .

اما المؤرخون والكتاب والساسة الذين يعملون فى خدمة الطبقات السائدة فى الغرب ويسترضون الاوساط الرجعية فى الكنيسة الكاثوليكية ، فلا يندر لهم حتى الآن ، على العكس ، ان يجهدوا لتضمين مفهوم «الحرب الصليبية» ومفهوم «الصليبيون» مضمونا ايجابيا . وبقلمهم يتحول المشتركون فى الحروب المقدسة للمسيحية الى معيار للنبل ، ويظهرون صورة مجسدة للاخلاص للمثل العليا ، ومثالا للتفانى والبطولة والنزاهة ، الناجمة ، كما يزعم ، عن الايمان الدينى الصادق .

أثمة مبرر لمحاولات تبرير الحروب الصليبية التاريخية وبالاحرى لتعظيمها ، وتصويرها بصورة مأثرة جديرة بالتمجيد اجترحتها المسيحية الغربية ، وقدمت للحضارة العالمية خدمة تفوق التقدير ؟ ام ان هذا ضلال ولربما حتى خداع واع ، مقصود ، ملفق لاجل تمجيد الفاتحين الذين ستروا

انانيتهم وجشعهم بعلامة الصليب ؟ أولم يكن على حق الملحد العظيم من القرن الثامن عشر الفيلسوف بول هولباخ حين كتب بسخرية فى مؤلفه «علم اللاهوت الجيبى» : «الحروب الصليبيـة حروب مقدسة منظمة بأمر من الباباوات بغية تحرير اوروبا من العديد من الانذال الاتقياء الذين مضوا بشجاعة يقترفون جرائم جديدة فى اقطار اخرى لكى يحصلوا من السماء على غفران الجرائم التى اقترفوها فى اوطانهم» ؟

وهكذا ينبغى تحليل الاحداث التى وقعت منذ قرون ، وذلك على الاقل ، لاجل فهم وضع الامور الفعلى فهما صحيحا . ان الحروب الصليبية التى صارت طى الزمن تتصرم بكليتها فى الماضى : فهى وثيقة الارتباط ، وان بصورة غير مباشرة ، بالعهد المعاصر ، ولا سيما بالصراع الايديولوجي والسياسى الجارى على الصعيد العالمى . وهذا ما يفسر ، فى كثير من النواحى ، الاهتمام المتواصل — سواء عندنا فى الاتحاد السوفييتى ام فى الخارج — بالحروب الدينية التى وقعت فى القرون الوسطى ، والخلاف الذى لا يزال قائما بين المؤرخين فى فهم الحروب الصليبية ، والمحاولات العديدة لتسليط النور كل مرة على تاريخها من جديد وفقا لاحدث منجزات المعرفة التاريخية . وليس من قبيل الصدفة ان ظهر فى السنوات الاخيرة عدد كبير من البحوث فى هذا الموضوع فى البلدان الاشتراكية وفى البلدان الرأسمالية وفى البلدان النامية . ان تاريخ الحروب الصليبية يشغل العقول كثيرا ، وليس فقط فى اوروبا والولايات المتحدة الاميركية ؛ فعنه يكتبون ايضا فى آسيا وافريقيا وحتى . . . فى اوستراليا . ولا يكتبون لاجل ترضية حب المعرفة العلمية فقط .

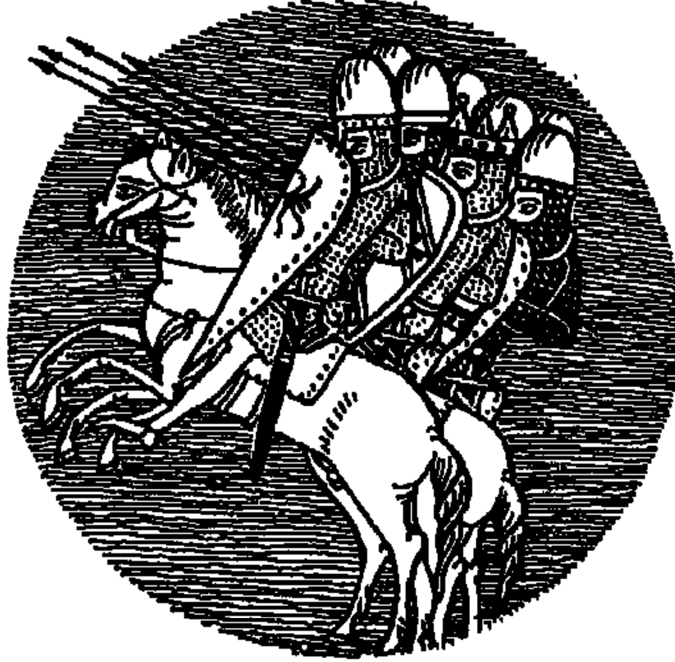
وبما ان سوريا ولبنان وفلسطين ومصر كانت هدف الحروب الصليبية المباشر ، فان تاريخ هذه الحروب قد اجتذب من قديم الزمان ، عدا العلماء ، الساسة والديبلوماسيين والجواسيس من الدول الامبريالية ، جميع الذين ساعدوا الاحتكارات بكل قواهم على ابقاء شعوب الشرق الادنى فى ربقة النير الاستعمارى . ولا يخلو من الطرافة ، مثلا ، ان الجاسوس الانجليزى الشهير لورنس ، الذى تظاهر طوال حياته كلها بانه «صديق العرب» ، قد اختار ، حين كان طالبا فى جامعة اوكسفورد ، موضوعا لاطروحة الشهادة ، «تأثير الحروب الصليبية فى الهندسة المعمارية الحربية القروسطية فى اوروبا» . ولاعداد هذه الاطروحة ، راح صاحبها ، المتخصص فى علم الآثار ، الى لبنان وسوريا ودرس فيهما جميع قلاع الصليبيين وقصورهم ، والاصح ، الانقاض التى بقيت منها .

وهكذا يتشابك العلم مع السياسة بكل وثوق فى دراسة تاريخ الحروب الصليبية . ولهذا نجد فى مؤلفات الباحثين البرجوازيين ، الحافلة بالوقائع ، تصورات مشوهة كثيرة عن تلك الصفحة من الواقع القروسطى التى دخلت التاريخ تحت اسم «الحروب الصليبية» .

ان هذا الكتاب الذى نقدمه للقراء لا يدعى بكمال عرض الوقائع ؛ فهو مفرط فى الصغر لهذا الغرض . ومهمته ان يستعرض بالخطوط الكبرى احداث «الحروب المقدسة» وان يساعد بالتالى فى توضيح طابعها الحقيقى وجوهرها الفعلى .

١

نشوب الحروب الصليبية



استمرت الحروب الصليبية فى الشرق مائتى سنة تقريبا ، من اواخر القرن الحادى عشر الى الثلث الاخير من القرن الثالث عشر . وقد كانت بصورة رئيسية حروب الفرسان . واسميت بهذا الاسم لان الذين اشتركوا فيها كانوا ، حين يتجهزون لمحاربة المسلمين (الاتراك والعرب) ، يخيطون على البستهم – على الصدر او على الكتف – علامة الصليب من قماش احمر ، رمزا للدوافع والاهداف والنوايا الدينية ، وقوامها تحرير فلسطين ، اى الارض المقدسة فى تصورات المسيحيين ، من سلطة الكفار ، لان يسوع المسيح ، مؤسس الدين المسيحى ، كما تقول الاناجيل ، قد ولد هناك ، وعاش وصلب وسُمّر على الصليب .

ولكن المعاصرين كانوا يجهلون تماما مفهوم «الحرب الصليبية» . ففى القرون الوسطى كان يشار الى هذه الحرب بمصطلحات اخرى – peregrinatio (الترحل ، التطوف ، التجوب) expeditio (الحملة) iter in Terram sanctam (الطريق الى الارض المقدسة) ، «التجوب ما وراء البحار» «السير على درب

الرب» . اما مصطلح «الحرب الصليبية» («الحملة الصليبية») ، فقد ظهر على تخوم الازمنة الحديثة . ففى فرنسا ، حسبما يبدو ، كان المؤرخ فى بلاط لويس الرابع عشر ، لويس ممبور ، اول من استعمله ، مسميا مباشرة بحثه فى هذا الموضوع «تاريخ الحروب الصليبية» (سنة ١٦٧٥) ؛ وفى المانيا ، كما يفترض ، يعود تعبير «الحرب الصليبية» الى المنور الشهير ليسينغ .

ولكن هل من الصحيح الظن ان الحروب الصليبية لم تكن تنطوى دائما وبالنسبة للجميع الا على الاهداف المعلنة فيها وعنها ؟ واذا لم يكن من الصحيح ، فما هى اذاً الاسباب الحقيقية لذلك النزاع الذى لا سابق له — من حيث الابعاد والمدة — بين الغرب والشرق فى القرون الوسطى ؟ وعمّ نجمت تطلعات اقطاعيى اوروبا الغربية في اواخر القرن الحادى عشر ومطامحهم العدوانية ؟ واى دور لعبه فى الوضع آنذاك الدين المسيحى الذى كان يسيطر على العقول والارواح فى اوروبا الغربية ، ولعبته الكنيسة الكاثوليكية التى كانت مركزا عالميا للنظام الاقطاعى ؟ كيف تكونت العلاقات المتبادلة بين الغرب الكاثوليكى من جهة ، والشرق الارثوذكسى والمسلم من جهة اخرى ؟ ان دراسة هذه المسائل فى صلتها الداخلية تتيح لنا ان نفهم المقدمات التاريخية والمنابع العميقة «للحروب المقدسة» التى خاضها الفرسان الاوروبيون فى الشرق .

ازمان الفتن

فى القرن الحادى عشر ، توطد نظام الاقطاعية والقنانة نهائيا فى بلدان اوروبا الغربية . وفى الوقت ذاته اخذت المدن تظهر وتتنامى ، ومعها بدأت العلاقات التجارية تتطور وتترسخ تدريجيا ، — لا بين المدينة واقرب المحلات الريفية اليها وحسب ، بل ايضا على نطاق اوسع ، اى بين تجار اوروبا الغربية (ولاسيما منهم الفرنسيون الجنوبيون والايطاليون) وتجار بلدان البحر الابيض المتوسط ومنها بيزنطية ومصر وسوريا ولبنان . ثم ان الاقتصاد الطبيعى (العينى) الذى كان من قبل يحدد كليا سيماء الغرب القروى الاقتصادية ، اخذ يتراجع شيئا فشيئا . وطفقت النقود تقتحم حياة المجتمع الاقطاعى — حياة الفلاحين الاقنان ، وحياة الفرسان العائشين من ثمار عمل هولاء الفلاحين — بقدر اكبر فاكبر من التسلط والتحكم . ونظرا لذلك ، تغير مستوى حاجات الطبقتين الطبيعية وتغيرت بنيتها . فمن قبل كان الاقطاعيون يكتفون بالجزية العينية والسخرة من الاقنان . ومع ظهور المدن ،

وتطور التجارة ، تعاظمت شهوات الاسياد الاقطاعيين ومطامعهم ، فصاروا اشد تطلبا ، وطفقوا يزيدون سنة بعد سنة من ابتزاز الاموال ، وادخلوا هنا وهناك فريضة المدفوعات النقدية عوضا عن الجزيات العينية ، الامر الذى كان مرهقا اقصى الارهاق بالنسبة للفلاحين . وعند جباية الفرائض كان الاقطاعيون يتحكمون ويستبدون بملء هواهم . ومن جراء ذلك ، كاد الفلاحون ، فوق ما هم عليه من فقر ، يتجاوزون باغلبيتهم حد البؤس المدقع ، وينزلقون الى مهاويه .

وكانت الحروب الداخلية المتواصلة التى نشبت فى كل مكان فى القرنين العاشر والحادى عشر فى الغرب عاملا لا يستهان به من عوامل املاق الريف . وفى ذلك الزمن ، كانت بلدان اوروبا تعانى من سوء المواسم الزراعية ، ومن شتى ضروب الكوارث الطبيعية . كما كانت المجاعة تسود فى كل المناطق . وبلغت الامور حتى اكل لحم البشر . فان الراهب المؤرخ رادولف غلابر ، مثلا ، يذكر حالات كانوا يأكلون فيها اجسام الموتى . وامسى الجوع يحل اكثر فاكثر فى الريف فى اواخر القرن الحادى عشر ، اى فى ذلك الزمن العصيب الذى سماه المؤرخون «بالسنوات السبع العجاف» . وهذه السنوات سبقت الحروب الصليبية مباشرة . ومن سنة الى سنة ، اخذت المدونات والحوليات التاريخية تذكر بضن وشح ، المعلومات ذاتها تقريبا . وقد نعت الراهب سيغبرت من جامبلو سنة ١٠٨٩ بسنة «الطاعون» ؛ فان وباء «الطاعون النارى» (المرض البذيرى) الذى ينشب عادة فى سنوات قحط الموسم الزراعى قد حمل الموت المؤلم الى العديدين من سكان اللورين ، وحول كثيرين آخرين الى مشوهين ومقعدين . وفى السنة ذاتها ، وقعت هزات ارضية فى المانيا الشمالية وفى برابان ؛ وفاضت الانهر فى بعض الانحاء ، الامر الذى اشارت اليه حوليات دير القديس يعقوب وغيرها من المدونات التاريخية . وتذمر سيغبرت من جامبلو من ازدياد جدوبة التربة فى سنة ١٠٩٠ واعرب عن المخاوف بصدد «الجوع الزاحف تدريجيا» . وكتب المؤرخ الالمانى ايكهارد من اوورا عن مرض رهيب اصاب الناس والمواشى معا فى سنة ١٠٩٢ ، ونجم عن الجوع وعن النقص الى المنتوجات الغذائية والاعلاف اللذين تسبب بهما القحط الناشئ بدوره من برد الربيع . ففى اول نيسان (ابريل) تساقط الثلج . وكان الصقيع والجليد ، على حد قول برنولد سان بليه ، كما فى الشتاء . وسنة ١٠٩٣ تميزت انجلترا بالعواصف وسوء الطقس : ففى الربيع فيضانات ، وفى الشتاء صقيع قارص ؛ وقد

تجمدت وهلكت جميع المبذورات . وفي السنة ذاتها كانت الغلة في المانيا ضئيلة ، وجاع الالمان .

وفي معرض الكلام عن الاحداث المشهورة في سنة ١٠٩٤ ، اشار المؤرخون الى الوفيات بالجملة من جراء الوباء الشامل الذي شمل بلدانا مختلفة . ففي ريغنسبورغ ، مات في ١٢ اسبوعا ٨,٥ آلاف نسمة ؛ وفي احدى القرى مات في ٦ اسابيع ١٥٠٠ شخص ، وفي قرية اخرى ٤٠٠ شخص . وانتقل الوباء من المانيا الى فرنسا وبورغونيا وايطاليا . ومن جديد تسببت الهواطل الغزيرة للموسم الزراعي بضرر فادح . وفي اراضي هولندا استمرت الفيضانات من تشرين الاول (اكتوبر) ١٠٩٤ الى نيسان (ابريل) ١٠٩٥ . وفي فرنسا الجنوبية ، وجزئيا في المانيا ، كان الجوع قد خف ، ولكنه انفجر بقوة جديدة في فرنسا الشمالية وفي انجلترا . ويفيد الراهب والمؤرخ النورمندي ، اورديريك فيتالي (الذي كتب ، والحق يقال ، في القرن الثاني عشر ، ولكنه اعتمد على شهادات شهود العيان ، وعلى وثائق كثيرة وعلى الادب المعيشي من زمن ابكر) ان «الجفاف الرهيب حرق العشب في المروج واباد السنابل والخضراوات وتسبب بالتالي بجوع فظيع» . وفي سنة ١٠٩٥ ، «كانت نورمنديا وفرنسا مرهقتين بنسبة عظيمة من الوفيات افرغت الكثير من البيوت[1] ، ودفع الجوع الاقصى البلايا الى اقصى الحدود» .

ويتحدث المؤرخون جميعهم تقريبا عن العوز الشديد الذي ساد في الغرب بسبب قحط المواسم الزراعية والكوارث الطبيعية والاوبئة الفتاكة وجائحة المواشي .

ولكن النير الاقطاعي كان يشتد اكثر فاكثر ، ويثير استياء الفلاحين المشروع . واحيانا كان الزراع الذين عذبهم العوز والجوع يحرقون الضياع ويخربونها وينكلون بالاسياد الاشد مدعاة للكره . ولكن احتجاج الفلاحين الاقنان العفوي كان في معظم الاحوال يتخذ اشكالا سلبية ، هامدة . واحيانا كان الفلاحون ينزحون قرى بكاملها من الاماكن المألوفة الى حيث تقودهم الصدف . كان فرار الفلاحين ظاهرة جماهيرية في القرن الحادي عشر . وعنها تروي الشهادات ومدونات الاخبار ، وسير القديسين ، وغير ذلك من الآثار الادبية . كان الفلاحون يفتشون في الفرار عن الخلاص من الابتزاز والبلص بالعنف ، ومن غارات العصابات الاقطاعية اللصوصية ، ومن الجوع الضاري والاوبئة الفتاكة . وفي الوقت ذاته ، كانت تشتد مختلف مظاهر التقشف والزهد الديني ، ويشتد الميل الى دخول الاديرة ، والنسك ، ولاسيما على امتداد «السنوات السبع العجاف» ، حين انتشرت في بلدان اوروبا «روح

النسك والزهد» الحقيقية . ان هذه السمة من سمات النفسية الاجتماعية السائدة في الفئات السفلى من المجتمع مهمة جدا لفهم اسباب الحروب الصليبية ؛ فهي تفسر في كثير من النواحي قابلية الجماهير الواسعة لفكرة المأثرة الدينية .

ان تعاظم الميول الدينية في الريف قد نجم عن ظروف حياة الفلاحين الاقنان التي لا تطاق . فان الاقنان كان يسحقهم العوز ، وتضغط عليهم التبعية الشخصية حيال السيد ، وكانوا مهانين واذلاء بسبب جهلهم . وهذا الجهل كان رجال الدين الكاثوليك يحافظون عليه ويطالبون الفلاحين بالصبر الطويل والاستكانة للاسياد ، ويبثون الخوف من نيران جهنم . وبموجب التعاليم المسيحية كانت عذابات جهنم تنتظر في «العالم الآخر» العصاة والمتمردين على السلطات . كان الفلاح الجاهل والامي الذي اعتاد على العوز والذي لم ير شيئا ابعد من كوخه ، يتقبل ويدرك البلايا الاجتماعية والطبيعية من خلال موشور مفهومه البدائي . قحط الموسم الزراعي ، الجوع ، «الطاعون الناري» الذي يسوق زوجته واولاده الى القبر – كل هذا كان يتصوره بصورة عقاب من السماء نزل عليه من اعلى بسبب خطايا مجهولة . ومن هنا نشأت عفو الخاطر فكرة ، والاصح القول ، شعور غامض بانه لا يمكن التخلص ، اغلب الظن ، من العذابات اليومية الدائمة الا بطلب الرحمة من الرب الغاضب . ولكن بأي نحو ؟ قبل كل شيء ، باجتراح مأثرة ما ، خارجة عن المألوف ، بطولية – ولكن بالمعنى الديني على وجه الدقة ، – لاجل «التكفير عن الذنوب» ، لاجل «غفران الخطايا» ، من نوع الاستشهاد باسم الايمان !

وهكذا انعكس التحرق الى الخلاص من اضطهاد الاسياد ، والسعي الى خلع سلاسل القنانة والتفلت من براثن العوز في دماغ الفلاح المرهق بمشقات العيش انعكاسا فاسدا ، مشوها ، وتحولا الى رغبة عارمة في اجتراح مأثرة دينية .

وكانت التطورات الاقتصادية ، كما سبق ان قلنا ، قد مست الطبقة السائدة ايضا . وكانت امكانيات تلبية الحاجات الجديدة على حساب الاقنان محدودة للغاية ، فسلك الاقطاعيون سبيل الاستيلاء على الاراضي . وكانوا ، بدافع اية ذريعة ، مهما كانت تافهة ، يشنون الحروب الدامية المتواصلة فيما بينهم – اى «الفيد» . ولاجل شن الحروب بنجاح كان يتعين على الاسياد ان يمولوا عددا عديدا من الاتباع – الفرسان (تابع مُقْطَع – vassal الملزمين باداء الخدمة العسكرية له . ولقاء الخدمة كان ينبغي المكافأة بعقار .

ولكن الاراضى الحرة فى الغرب لم يبق لها وجود . ولهذا دخل كثيرون من الاسياد الميالين الى القتال طريقا مسدودا : اين يحصلون على العقارات والاقنان ، من اين يأخذون الاموال التى لم يبق بمقدور الاقنان ان يؤمنوها ، رغم جميع الاسباب على اختلافها ؟

ثم ان الوضع ازداد تعقدا لكون عقارات المالكين الصغار والمتوسطين اخذت تصبح اكثر فاكثر غنيمة للطواغيت الذين كانوا يستولون على هذه العقارات فى زمن «الفيد» . وفى الحاصل تشكلت فى الغرب شريحة واسعة من الفرسان الذين لا يملكون ارضا . وهذا ما اسهم به كذلك نظام وراثة الاقطاعات — نظام البكورة (او حق البكورة) — ومفاده انه لا يجوز تقسيم ممتلكات السيد بعد وفاته على ابنائه ، بل يجب ان تعود بكليتها الى الاكبر (البكر) بينهم . اما الباقون ، فلم يكونوا يرثون سوى الاموال المنقولة — الخيل ، والدروع والخوذ ، والاسلحة ، والالبسة . وظهر فى عائلات الاقطاعيين عدد لا يستهان به من الابناء الاصغر سنا المحرومين من الارض — وكانوا احيانا يلقبونهم القابا سخرية ولكنها تتطابق تماما مع وضعهم الحقيقى ، وتصبح فيما بعد القابا عائلية : «بلا ارض» ، «المعدم» . وغدا اقتناء العقارات حلم اخلاف الاعيان هؤلاء . وكان الفرسان يعتبرون ، بالطبع ، العنف المسلح اسهل وسيلة لاصلاح امورهم . فعمدوا افرادا وعصابات الى التجوب فى الاراضى المجاورة والبعيدة ، واخذوا يهاجمون القرى ، وينتزعون من الفلاحين كل ما كانت تقع عليه ايديهم . بل انهم كانوا لا يترددون عن قطع الطرق وسلب المسافرين . وقد امست بعض القصور اوكارا لصوصية حقيقية ومأوى لعصابات الفرسان . واحيانا كانت هذه العصابات تتجاسر على شن الغزوات على العقارات الكبيرة ايضا . وقد كانت الممتلكات الغنية لدى الكنائس والاديرة الطعم الاكثر اغراء .

ان اعمال العنف التى كان يقترفها الفرسان المنحطون كانت تستكمل خراب الفلاحين ولكنها كانت تتسبب بالضرر لعقارات الكنائس والاديرة التى لم تكن تتوفر لها الحماية المسلحة الكافية . وفى قلب الطبقة السائدة نشب الصراع ، الامر الذى بث القلق فى اوساط الفئات العليا الحاكمة من المجتمع الاقطاعى فى الغرب ، واجبرها على البحث عن مخرج ما من المصاعب الناشئة . بوار المواسم الزراعية ، المجاعات ، الاوبئة ، فرار الفلاحين بالجملة ، واحيانا انتفاضاتهم («الفتن» ، حسب تعبير مدونى الاخبار) ، ناهيك عن لصوصية الفرسان «المعدمين» وتعسفهم ، والنزاعات بين الاقطاعيين والتكتلات الاقطاعية . . .

وقد نشأ فى اوروبا وضع مقلق ، وضـــع زمن الفتن : فان الحياة الاجتماعية اخذت تكتسب طابعا اقل فاقل استقرارا . وبعد فترة من الوقت ، كتب اورديريك فيتالى عن هذه العقود من السنين : «الفتن والهموم الحربية شغلت بال المعمورة كلها تقريبا (كان الغرب فى تصوره يعنى العالـــم كله ! — **المؤلف**) . وكان الناس ينزلون بعضهم ببعض بلا شفقة اقدح المصائب بعمليات القتل والنهب . وبلغ الشر بجميع صوره اقصى الحدود وتسبب لمن قام به ببلايا لا عدّ لها» .

ان مصالح الاقطاعيين الملحة والحيوية قد طرحت امامهم بوصفهم طبقة مهمة عاجلة قوامها البحث عن اسلوب لحل القضايا الناشئة يتيح لهم تلبية حاجاتهم المتعاظمة الى الاراضى والايدى العاملة الاجبارية والنقـود والثروات من كل نوع ، ويخلص كبار الاسياد من مآثم صغار الفرسان ، والفرسان من مصير ونصيب المعدمين و«الذين لا ارض عندهم» ، ويثبت ويوطد فى الوقت نفسه دعائم النظام القائم . وهذه المهمة لم يدركها بالطبع شخص ما بمثل هذه الصورة المحللة والمفهومة بدقة ووضوح ، بل ظهرت كضرورة **عملية** ، ناجمة فى هذا الصدد او ذاك ، ولكنها كانت على العموم تصبح اكثر فاكثر الحاحا .

وقد كانت الكنيسة الكاثوليكية الابعد نظرا فى المجتمع الاقطاعى ، فاخذت على عاتقها ان تنتشل وتخلص الطبقة السائدة من البلايا الزاحفة عليها .

كلونى وعدوان الفرسان

فى تلك الازمان كانت الكنيسة مالكة غنية للحقول والمروج والبساتين ، وكانت تستثمر الفلاحين الاقنان الذين يخصونها استثمارا وحشيا . وعدا ذلك ، كان رجال الدين يجبون بانتظام من جميع الزراع ، سواء كانوا من اتباعهم ام من الغرباء ، اتاوة عامة اخرى هى ضريبة العشر . وبما ان الكنيسة كانت اكبر ملاك عقارى اقطاعى ، فقد كانت حصنا روحيا لعموم طبقـــة الاقطاعيين ؛ وفى ذلك كانت تتلخص وظيفتها الاجتماعية . وكان رجال الدين يساعدون الاقطاعيين فى السيطرة على الفلاحين والحرفيين ، وذلــك بالوعظ بالتعاليم المسيحية التى تقول ان النظم الارضية هى من صنع الرب وانه لا يصح ولا يمكن بالتالى تغييرها ، وبمطالبة الكادحين بالخضوع التام لاسيادهم ، وبوعد الودعاء بالنعيم فى الجنة بعد الموت ، وبتهديد المتمردين والعصاة بالعذابات الابدية فى الجحيم . وكانت الكنيسة تدافع دائما وفى كل شىء

عن مصالـــح الاقطاعيين – سواء فى ميدان الايديولوجيـة او فى ميدان السياسة .

وعندما اخذ الاقنان فى القرنين العاشر والحادى عشر يهبون فى كل مكان ضد الاسياد او يلوذون بالفرار ، وعندما اخذت مآثم وموبقات الفرسان «المعدمين» تتسبب بضرر افدح فافدح للرهبان والاكليريكيين ، قلقت الكنيسة جديا ، وقبل كل شيء على ممتلكاتها بالذات . ولوقايتها من الخطر المزدوج (من جانب الرعاع ومن جانب الفرســـان) ، عمدت الاديرة حتى فى القرن العاشر – وكانت اقوى المؤسسات الكنسية من الناحية الاقتصادية – الى اجراء مختلف التحويلات . وكان مغزى هذه التحويلات العام توطيد مواقع الكنيسة ، المادية منها والمعنوية ، وتحسين تنظيمها ، وزيادة قواها ، ورفع مكانتها .

ان الحركة الكنسية الاصلاحية فى ذلك الزمن قد دخلت التاريخ تحت اسم الحركة الكلونية ، اذ ان دير كلونى فى بورغونيا كان المبادر اليها ، وقد حاول رجال كلونى ان ينشئوا بيئة كنسية ممركزة ولذا اسهموا فى رفع مكانة السلطة البابوية التى عانت الانحطاط زمنا طويلا . وفى عداد الاصلاحات التى قاموا بها ، يبرز واحد هو منـــع العمليات الحربية – سواء لآجال طويلة («السلام الربانى») ام لآجال قصيرة («الهدنة الربانية») ، مثلا ، من مساء السبت حتى صباح الاثنين . ان هذا الاجراء الموجه ضد عمليـات النهب والسلب التى يقوم بها صغار الفرسان وضد النزاعات المسلحة الاقطاعية ، لم يكن له مفعول بيّن . واذ ذاك طفقت الكنيسة تتلمس سبلا اخرى من شأنها ، برأى قادة الكنيسة ، ان تصون الفئات العليا من الاقطاعيين من غضب «الذين لا ارض عندهم» و«المعدمين» ، وان تحسن فى الوقت ذاته الى الاقطاعيين الفقراء ، وتروى عطشهم الى العقارات والثروات . ويقينا ان «البحوث» ذاتها كانت عبارة عن عملية عفوية كان يشترك فيها الاقطاعيون الاعيان والفرسان البسطاء . وفى كل حالة بمفردها كانوا يستهدفون اهدافهم القريبة ، المباشرة ، دون التفكير اطلاقا فى القضايا الكبيرة الابعاد ذات الطابع الاجتماعى والسياسى . ومع ذلك ، كانت اعمالهم التى تمليها اعتبارات آنية كانما تشق طريقا يؤدى فى المستقبل الى ايجاد حل للقضية التى تهـــم جميع الاقطاعيين . وهنا عاد دور كبير الى البابوية التى كانت تعزز مواقعها تدريجيا .

ان لوحة اعداد الاحداث التى اطلق نداء البابا «الى الشرق !» اشارتها فيما بعد كانت معقدة ومتعددة الابعاد . وهنا يشغل مكانا خاصا الحج من بلدان

الغرب الى فلسطين ومركزها المقدس ، القدس . ان هذا الطقس المسيحى القديم الذى ظهر فى القرن الرابع ، والذى قلما كان ملحوظا على العموم فى القرون التالية ، قد انتشر بقوة هائلة فى القرن الحادى عشر . فقد اخذ يشترك فى الحج الى القدس عدد اكبر فاكبر من الناس . واخذت عمليات الحج تتكاثر وتكتسب طابعا جماهيريا . ويقول رادولف غلابر الذى تلاقى مع كثيرين من الحجاج وسمع عن غيرهم ان «جموعا لا تحصى كانت تمضى من جميع انحاء الدنيا» الى القدس . واضاف هذا المؤرخ قائلا : «من قبل لم يكن من الممكن ان يصدق احد ان هذا المكان سيجتذب مثل هذا التجمع المدهش من الناس».

ان عمليات الحج ، او زيارات الاماكن المقدسة ، اى اسفار التقى والورع قد انتشرت على درجة من السعة بحيث ان هذا قد انعكس على كل نظام قيم المجتمع الاقطاعى الروحية وفى المقام الاول على التصورات عن القداسة ، التى كانت لها اهمية كبيرة فى الايديولوجيا الاقطاعية . واصبحت عمليات الحج بمثابة قسم الزامى من الزهد والنسك ، والمشى الى القدس سمة لا غنى عنها فى سيرة اى من ابطال الادب المقدس (سيرة القديسين) . وكل من كان يريد ان يخلق ويثبت لنفسه سمعة الطاهر «الفقير بالمسيح» كان يذهب الى القدس للهدف التالى – وذلك كان على كل حال الفهم العادى لهذا العمل – وهو تكريم المقدسات المسيحية المتواجدة هناك من قديم الزمان ، والصلاة فى كنيسة قبر السيد المسيح ، والتمتع باجلال ومهابة بمشاهدة جميع الاماكن التى وطأتها ذات يوم قدم المسيح . وقد ترابطت عادة الحج فى مفاهيم العهد بممارسة سلوك النساك المقدسين الحياتى بدرجة من الوثوق الى حد انه كان لا يندر لسير القديسين ان تنسب السفر الى القدس حتى الى الذين كانوا «يكرمونهم» باذاعة صيتهم كقديسين مع انهم لم يكونوا يوما فى فلسطين . واحيانا كانت سير القديسين تشير بكل بساطة الى نية قديس ما فى الذهاب الى القدس ، والى ان هذه الظروف غير المتوقعة او تلك قد حالت دون تحقيق هذه النية . وكأن النية كانت بحد ذاتها تصف الاستعداد لمأثرة التقى والورع العليا .

خلاصة القول ان السفر الى الارض المقدسة قد صار قانونا فى سرد سيرة القديسين وصار واقعة ثابتة ان لم يكن الواقعة المركزية . وحقا نقول ان هذا السفر على وجه الضبط هو الذى رمز الى «تحول» الانسان العادى نهائيا الى قديس . وكان الحج كان يشكل ذروة الصعود الى قمم تلك الحياة المكرسة كليا لهموم العالم الآخر . وقد صار اهم علامة على واقع ان الانسان قد قطع صلته بالعالم الباطل ، وغدا رمز التعود على العصمة عن الخطيئة

و«الطهارة» اللتين تؤمنان بالتأكيد الخلاص السماوى . ان الاسفار الى القطر الذى اجترح فيه فيما مضى يسوع المسيح العجائب ، والذى يحفظ الكثير من ذخائر حياته وموته ، انما كانت الكنيسة تعتبرهـــا مأثرة كبيرة امام الله . وكان يُنسَب الى الصلاة فى الارض المقدسة مفعول خاص . وكل هذا كان يضفى على القدس جاذبية كبيرة .

كانت اسفار التقى والورع الى هناك عاملا جوهريـا من عوامل نشوب الحروب الصليبية . وبفضل الحج بقدر كبير ، قام فى اوروبا الغربية جو مفعم بامزجة الانقطاع عن خيرات الدنيا والندم والتكفير عن الذنوب ، جو من الزهد الدينى نبع اصلا ، كما رأينا ، من اضطراب كل الوضع الاجتماعى فى الغرب ، الذى اسفر (فى المقام الاول بين الفئات الدنيا ، وجزئيا بين ممثلى الطبقة السائدة) عن ظهور الاحساس بالاضطراب والاعتلال وعن السعى الى التفلت من المصائب الحياتية ، وان على الاقل ، فى السبل التى يفتحها الدين . وكانت عمليات الحج تسهل كثيرا على البابوية اختيار وتعيين اتجاه عدوان الفرسان ، الاتجاه الذى كان من الممكن ان تتلاقى فيه الرغائب المتناقضة لمختلف فئات الاقطاعيين .

كانت عمليات الحج من حيث التركيب الاجتماعى للمشتركين فيها حركة مبرقشة جدا . فقد كتب رادولـــف غلابر يقول : «فى بادئ البـــدء مضى الى هناك (الى القدس — **المؤلف**) الشعب البسيط ثم الناس الميسورون» . وينبىء مدون الاخبار عن حالات الحج الذى قـــام به «الملوك الجبابرة» والكونتات والمركيزات والاحبار . كذلك كانت اهداف الحجاج الفعلية مختلفة . رغم ان الحج كان يبدو لهم انفسهم مشروعا دينيا صرفا . وكانت روح الحج عند المتحدرين من الفئات الدنيا فى القرى والمدن ، كما نعرف ، تعبيرا مغلفا بغلاف الدين عن امانى التحرر . وفى عيون الاسياد ، كان للاعتبارات الدينية كذلك وزن معين ، ولكن اكثر ما استحثهم على السفر ما وراء البحار انما هو البواعث الدنيوية ، اى الرغبة فى اكتساب سلع البذخ فى الشرق ، ورؤية اماكن جديدة ، والتخلص ، ولو موقتا ، من رتابة الحياة القروية مع همومها اليومية — الصيد ، والولائم الصغيرة ، والشؤون الاقتصادية . وليس عبثا يؤكد مدون الاخبار فى معرض حديثه عن حاج وجيه من هذا الطراز هو البورغوندى ليوتبالد من اوتن الذى سافر برفقة عدد كبير من الناس . ان هذا الحاج «قد قام بسفرته الى القدس ، لا بسبب الغرور مثل كثيرين غيره الذين يذهبون لكى يتباهوا بذلك بعد عودتهم» .

وبالفعل ، كانت اسباب المكانة حافزا مهمـــا بالنسبة لافراد الوسط

المذكور . وهذا ما يصح بالقدر نفسه على ذوى المراتب الكنسية العليا — الاساقفة ورؤساء الاديرة — ام على الاسياد الدنيويين . فان اودالريك ، اسقف اورليان ، قد اشترى ، اثناء وجوده فى القدس ، قنديلا نفيسا من بطريرك القدس مقابل رطل من الذهب . وقد كتب رادولف غلابر يقول ان الاسقف «حمله الى اورليان لاجل تجميل كنيسته حيث عاد على المرضى بكثير من النفع» . وهذا يعنى ان الاسقف استخدم الثروة لاجل رفع مكانة كنيسته . والدوق روبر الاول النورمندى (الشيطان) الذى انطلق الى الشرق فى سنة ١٠٣٥ اجبر اتباعه الكبار ، قبل بداية الحج ، على حلف اليمين والاعتراف بابنه غير الشرعى ، غليوم ابن الزنى (Guillaume le Batard) (الفاتح فيما بعد) وريثا له . وهكذا كان الحج فى هذه الحالة ذريعة مناسبة لاجل بلوغ هدف سياسى معين . واثناء السفر كان الحجـاج من الاعيان يوزعون شتى المجوهرات التى اخذوها معهم لهذه الغايـة . وكان الاعيان يعتبرون هذه التوزيعات وسيلة موثوقة لتوطيد نفوذهـم فى اوساط الشعب البسيط ، وكانت الكنيسة تشجع هذه التوزيعات بوصفها فعلا يرضى الله .

وعادة كانت جموع الفرسان تنضم الى كبار الاسياد . ففى سنة ١٠٦٥ انطلق من المانيا الى الحج زهاء سبعة آلاف شخص (او ١٢ الفا) . كان «الذين لا ارض عندهم» و«المعدمون» يفتشون فيما وراء البحار عن الفرص لاصلاح اوضاعهم ، وكان بعض منهم يرغبون فى غفران الجرائم التى اقترفوها فى بلدهم . وواقع ان الفرسان نهبوا فى بلدهم الكنائس والاديرة لم يمنعهم من ان يكونوا اناسا متدينين . فقد تقبلوا العقائد المسيحية على طريقتهم ، كما فهموها ، وكيفوها للمفاهيم المألوفة على الاقطاعيين . وكانوا يتصورون الرب بصورة المولى الاعلى الذى يكافئ اتباعه الارضيين بسخاء على خدمتهم الامينة ، ويغفر الخطايا ، ويمنح الغبطة الابدية فى الجنة . ان خلاص الروح كان مسألة تهم الفرسان الجهلة بقدر لا يقل عما تهم الفلاحين الاقنان . وكان الفرسان على العموم يتقيدون بكل دقة بالطقوس الكنسية ، حتى وان «كانت قواعد الاخلاق المسيحية» ، كما لاحظ احد المؤرخين بدقة وصواب ، «تمارس فيهم تأثيرا ضعيفا جدا» .

كل هذا يفسر واسع اشتراك الفرسان فى عمليات الحج . وهذه العمليات كانت تلقى التحبيذ التام من جانب رجال كلونى . وكانت اخوية دير كلونى تشجعها فى الواقع بجميع الوسائل ؛ فقد بنى رجالها على جوانب الطرق الفنادق لاجل الحجاج ، وكانوا يجمعون بانفسهم الحجاج فى فصائل ، ويساعدون بغيرة خاصة فى تجهيز الناس المقيمين فى جوار اديرة كلونى وفى ارسالهم الى

الحج . وبهذه الطريقة كانوا يستبعدون العناصر التى تشكل خطرا على ممتلكات الكنيسة . وبالنسبة للقتلة ، كان الحج غالبا ما يصبح ، بفضل خفة يد رجال كلونى ، اسلوبا مطبقا عمليا ، تقليديـــا تقريبا ، «للتطهير من الخطيئة المميتة» .

ان حركة الحج قد هيأت الحروب الصليبية فكريا وعمليا ؛ فقد اسهمت فى تعاظم الامزجة والميول الدينية الزهدية ، وعرفت الاوروبيين على الطرق الى الشرق ، وعلى الوضع فى البلدان الشرقية ، والرئيسى انها هيجت تعطش الاقطاعيين الذى لا يرتوى الى امتلاك الاراضى فيما وراء البحار .

وفضلا عن الحج ، هيأت الحروب التى نشبت فى القرن الحادى عشر فى الغرب بالذات والتى جرت احيانا هى ايضا تحت رايات دينية ، التربة من اجل التوسع الاقطاعى الواسع الى الشرق . فان الفرسان الفرنسيين ، مثلا ، قد انخرطوا فى الصراع من اجل استعادة الاراضى التى سبق ان احتلها العرب فى اسبانيا – الريكونكيستو (Reconquisto) . ففى سنتى ١٠٦٣ و١٠٦٤ انطلق الى ما وراء جبال البيرينئه فرسان دوقية أكيتين ودوقيـــة تولوز ، وهزموا العدو فى المعركة بجوار برباسترو . ثم قام الجديد تلو الجديد من الحملات على اسبانيا . وفى اوائل السبعينيات تحركت الى اسبانيا وحدات من الفرسان برئاسة الكونت ايبولى دى روسى * . وعندما انتزع ملك كاستيليا الفونس السادس الجرىء مدينة طليطلة من العرب فى سنة ١٠٨٥ ، لم يشترك فى هذه العملية الفرسان الفرنسيون وحسب ، بل اشترك فيها ايضا الفرسان الالمان . وبعد ان سحق العرب المرابطون القوات المسيحية فى المعركة بجوار الزلاقة عام ١٠٨٦ ، تشكلت فى فرنسا عام ١٠٨٧ وحدات اقطاعية قوية ، ترأسها هوغ (Hugues) الاول ، دوق بورغونيا وريمون دى سانجيل ، كونت تولوز ، القائد المقبل للفصائــل من بروفانس فى الحملة الصليبية الاولى . وقد اشترك فى اعمال هذه الوحدات سيد آخر مضى بعد بضــع سنوات يحارب من اجل القدس هو غليوم شاربانتيه ، فيكونت ميلون .

وليست اسبانيا وحدها هى التى اجتذبت الضوارى الاقطاعيين ، الصغار منهم والكبار . فمنذ سنة ١٠١٦ ، اخذ اخلاف الفيكينــغ السكاندينافيين (النورمانيين اى الشماليين) الذين سبق ان احتلوا نورمنديا (ولذا يسمونهم كذلك بالنورمنديين) فى اوائــل القرن العاشر يندفعون الى الاستيلاء على

* كتابة اسماء الاشخاص والمدن والمناطــق والبلدان تختلف فى المطبوعات العربية باختلاف المؤلفين والمترجمين . الناشر .

المناطق الخصبة فى ايطاليـــا الجنوبية ، وبعد صراع ضار ضد العـــرب وبيزنطية ، اسسوا هنا جملة من الامارات الاقطاعية ، ومن سنة ١٠٦١ الى سنة ١٠٧٢ استولى النورمنديون على صقلية ايضا . وفى سنة ١٠٦٦ ، تعرضت انجلترا ايضا لغزو كاسح قامت به فصائلهم القتالية . وفى سنة ١٠٧٣ ، استقر المغامـــر النورمندى روسل دى بايّل ، العامل فى خدمة بيزنطية قبل ذاك ، فى وسط آسيا الصغرى بالذات مع مقاتليه . وهنـا نشأت امارة نورمندية ، كانت النموذج المسبق للامارة التى اسسها نورمانيو* ايطاليا الجنوبية فى سوريا بعد مرور ٢٥ سنة . الا ان امارة روسل دى بايل (Roussel de Bayle) لم تصمد ، والحق يقال ، سوى سنة واحدة ؛ فان هذا الامير قد وقع ، من جراء خيانة احد ابناء قبيلته ، فى يد القائد العسكرى البيزنطى الكسيوس كومنينوس (الامبراطور فيما بعد) ، وزالت الدولـــة النورمانية فى آسيا الصغرى بعد حيـــاة قصيرة ، ولكن محاولة تأسيسها واسعة الدلالة بحد ذاتها .

حفل القرن الحادى عشر كله بمغامرات جماعات الفرسان وحملاتهـــم اللصوصية . فحيثما كانت تنشب الحرب ، كان دائما يتواجد عدد كبير من الراغبين فى اشهار السيوف املا فى غنيمة سهلة المنال . وهذه الحملات العدوانية الاغتصابية استرعت هى ايضا انتباه الكنيسة . فقد استحث رجال كلونى الاسياد والفرسان الفرنسيين بجميـــع الوسائل على الاشتراك فى (ستعادة اسبانيا (الريكونكيستو) . وحبذت البابوية بدورها هذه الحملات . فقد رأى الباباوات فى الريكونكيستو وسيلة يمكن بها رفع مكانة الكرسى الرسولى ، وارسال الفرسان الى طرف اوروبا الغربية ، وتدل محبى القتال المزعجين الى ميدان جديد للقتـــال ؛ فبفضل ذلك ، كانت عقارات الاعيان الدنيويين والكنسيين تتخلص ، وان جزئيـــا ، من خطر غزوات الفرسان «المعدمين» اللصوصية !

ولتسعير نيران حمية الفرسان القتاليـــة الدينية فى فرنسا ، حاولت الكورية الرومانية (البابوية) ان تحيط المشتركين فى الحملات الاسبانيـــة بهالة الاستشهاد من اجل الدين والايمان . ثم ان رجال كلونى الذين افلحوا

---

* فيما يلى ، اذ نستعرض تاريخ الحملات الصليبية التى اشترك فيها سواء النورمنديون من ايطاليا الجنوبية وصقلية ، ام النورمانيون من البلدان السكاندينافية . سنشير الى هؤلاء واولئك بالمفهوم التقليدى «النورمانيين» تحاشيا لضرورة التدقيقات المتكررة فى المصطلحات .

فى التسرب الى شبه جزيرة البيرينه وفى بناء اديرة لهم هناك ، اعلنوا الحروب ضد المسلمين فى اسبانيا حروبا مقدسة . واعلن البابا الكسندر الثانى ، الذى بارك حملة ١٠٦٣-١٠٦٤ ، ان الكنيسة تغفر خطايا كل من يذهب الى اسبانيا للقتال من اجل قضية الصليب ، بل انه ارسل نائبا (قاصدا رسوليا) عنه الى فرسان فرنسا الجنوبية الذين اعتزموا الذهاب الى اسبانيا . ان نشاط الكرسى الرسولى فى الريكونكيستو لم يغب عن نظر المعاصرين ؛ ومن الطريف ان المؤرخ العربى ابن حيّان ، فى معرض حديثه عن معركة برباسترو ، ينعت قائد القوات المسيحية بانه «رئيس فرسان روما» .

ولاجل حث الفرنسيين على القيام بمثل هذه الحملة ، سمح لهم البابا غريغوريوس السابع فى سنة ١٠٧٣ بامتلاك الاراضى التى ينتزعها المسيحيون من «الكفار» ، ولكن ، والحق يقال ، بشرط واحد هو اعتراف الفرسان الفرنسيين بالسلطة العليا لكاهن روما الاول على الاراضى المنتزعة ، ذلك ان اسبانيا ، كما قال غريغوريوس السابع ، كانت تخضع ، بزعمه ، منذ قديم الازمنة للقديس بطرس .

وهذا البابا غفر هو ايضا مقدما خطايا الذين يُقتلون فى المعارك من اجل الدين والايمان .

كانت حروب الفرسان الفرنسيين فى اسبانيا بمثابة حروب صليبية قبل الحروب الصليبية — من حيث الشعارات ، ومن حيث الالبسة والرايات ، ومن حيث المضمون . وقد نعت ماركس فى مؤلفه «نبذات تاريخية متسلسلة» حملة ملك كاستيليا الفونس السادس على العرب فى طليطلة بانها كانت «مقدمة للحرب الصليبية الاولى» .

كذلك دعمت البابوية ، وان لم يكن فى الحال ، مشاريع النورمنديين الاغتصابية العدوانية فى ايطاليا الجنوبية وصقلية ، واستغلتها فى اهدافها السياسية . وان قائد الفاتحين النورمنديين روبر غيسكار (Robert Guiscard) الذى صار دوق ابوليا وكالابريا ، قد اعترف فى سنة ١٠٥٩ ببابا روما مولى وسيدا له ، وتعهد بان يدفع له جزية سنوية ويقدم العون العسكرى ويدافع عن حرمة كرسيه ، الكرسى الرسولى ، دون تطاولات الاباطرة الالمان . وقد صادقت البابوية على هجوم الدوق فى سنة ١٠٦١ على صقلية التى انتزعها النورمنديون من العرب فيما بعد . كذلك ساعدت البابوية الفرسان النورمنديين التابعين لغليوم الفاتح الذين استولوا فى سنة ١٠٦٦ على انجلترا . وفى كل هذا ، يتبدى بكل جلاء خط سياسى واحد للكورية الرومانية قوامه تنظيم عدوان الفرسان فى اطراف اوروبا الغربية ، وبخاصة فى حوض

البحر الابيض المتوسط وتشجيعه الى اقصى حد . وفضــلا عن ذلك كانت روما لا تبارك فتوحات الفرسان وحسب ، بل ان اسطول مدينة بيزا التجارية في ايطاليا الشمالية الذى شن فى سنة ١٠٦٣ غارة على باليرمو قد اشترك كذلك في حروب النورمنديين من اجل صقلية . وفيما بعد ، انخرط التجار فى المدن الساحلية الاخرى فى ايطاليا فى النضال من اجل اقصاء العرب من حوض البحر الابيض المتوسط . وقد ساندت البابوية مبادرات سكان المدن هذه كل المساندة . وفى عام ١٠٨٧ ، عندما اقتحم الاسطول المتحد لمدن بيزا وامالفى وجنوه ميناء المهدية في افريقيا الشمالية واحتل المقاتلون الكاثوليكيون مدينة العرب هذه ، كرس البابا فكتور الثالث نهبها . ودليلا على عطفه الشديد ، ارسل الى القراصنة راية القديس بطرس وغفر لهم خطاياهم . وقد شكر اهالى بيزا الكرسى الرسولى ، بالتبرع بالاموال التى استحصلوها من نهب المهدية لاجل بناء كنيسة اخرى فى مدينتهم سموها تكريما للنصر المحرز بكنيسة القديس سيكست (وقد تطابق يوم الاستيلاء على المهدية مع يوم عيد هذا القديس) . وقد كان المشروع البحرى فى افريقيا الشمالية وثيق الارتباط بحرب الفرسان الدائرة رحاها آنذاك ضد المرابطين فى اسبانيا (وفيمـــا بعد ايضا ، فى سنة ١٠٩٢ ، ساعد اهالى بيزا ملك كاستيليا الفونس السادس فى محاربة المغاربة فى فالنسيا) .

وهكذا كانت الاصلاحات الكنسية فى القرن الحادى عشر احدى المقدمات المباشرة للحروب الصليبية في الشرق ؛ فقد ضمنت للبابوية مكانة راسخة لا جدال فيها واجبرت العالم الاقطاعى على الاصغاء بانتباه الى صوت الحبر الاول في روما .

ولكنه صار من الواضح نحو اواخر القرن الحادى عشر ان الطرائق التى لجأت اليها الكنيسة ولجأ اليها الاقطاعيون الدنيويون لاجل تامين مصالحهم كانت قليلة الفعالية . فقد منى الفرنسيون فى اسبانيـا بالاخفاقات ، لان الاقطاعيين المسيحيين الاسبان كانوا لا يرغبون فى ان يسلموا حلفاءهم لا اراضيهم ، ولا ثرواتهـم . ان النزاعات مع الاسبانيين — وكان هؤلاء حتى يتكتلون احيانا مع الامراء العرب * — قد حكمت بالفشل سواء على خطط الاعيان الفرنسيين ام على خطط البابوية المتعلقة باسبانيـا ، ناهيك بان العرب

* يستفاد من اقوال المؤرخ الالمانى اردمان ان الفونس السادس لم يكن مناضلا طليعيا من اجل الدين المسيحى : فحين دعا الفرسان الفرنسيين الى مساعدته (بعد هزيمته فى جوار الزلاقة) بلغ به الامر ان هدد باعتناق الاسلام اذا ما رفضوا مساعدته .

قاوموا هناك بصلابة وثبات . ولكن نحو ذلك الزمن بالذات ، بدأ يرتسم هدف جديد سيوجه اليه رئيس الكنيسة عما قريب افكار ومقاصد الاقطاعيين الميالين الى القتال . ان اختيار الهدف بالذات والوسائل لبلوغه قد حدد سلفا الوضع الدولى .

في الثلث الاخير من القرن الحـادى عشر ، اخذت خيوط السياسـة الاوروبية تمتد اكثر فاكثر الى الكورية الرومانية . وقد غدت هذه الكورية المركز الذى يستطيـع وحده دون غيره ان يوحد قوى الغرب الاقطاعي المتفرقة ، ذلك ان السلطة الملكية كانت لا تزال هناك ضعيفة جدا . ومنذ عهد حكم البابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣-١٠٨٥) ، سعت البابوية الى توطيد الوضع المبلوغ بصورة رئيسية بفضل نجاحات حركة كلونى ، ولذا طفقت تفصح بالحاف عن ادعاءاتهـا بالزعامة ، لا فى الكنيسة المسيحيـة وحسب ، بل ايضا على الحكام الزمنيين . فان البابا غريغوريوس السابع قد اعلن على المكشوف فى رسالته الشهيرة «امر البابـا» انه يحق للكرسى الرسولى ان يتصرف بالتيجان ويعين ويعزل الاساقفة والدوقات والملوك والاباطرة ؛ وكل سلطة ، ايا كانت ، لن تكون فعلية وحقيقية الا بقدر مـا تنجم من رئيس الكنيسة ، ممثـل العلى الاعلى فى الارض . وقد رسـم غريغوريوس السابع خطة لاخضاع جميع الدول المسيحية للكورية الرومانية اخضاعا تامـا . كذلك اتخذت تدابير عملية لاجل تنفيذ هذا البرنامـج التيوقراطى (من الكلمة اليونانية التى تعنى «حكم الرب») - وهو برنامج يرمى الى انشاء ملكية اوروبية عامة ، او ، حسب مصطلحات ذلك الزمن ، كلية ، اى عالمية ، على رأسها البابوية ، واجبار جميع الملوك المسيحيين على حلف اليمين الاقطاعي للكرسى الرسولى . ولكن هذه السياسة قوبلت بالصد من جانب كثيرين من الملوك ، وبخاصة من جانب الاباطرة الالمان ، الذين استمر النضال ضدهم ، بنجاح متقطع فى صالح روما ، فى عهد اخلاف غريغوريوس السابع .

ان سعى باباوات روما الى انشاء تيوقراطية كلية فى اوروبا دليل ساطع على الاهمية التى اكتسبتها هناك فى القرن الحادى عشر الكنيسة (الكاثوليكية الرومانية الغربية) ومركزها القيادى - الكورية البابوية . وبما ان الكنيسة كانت اغنى المؤسسات الاقطاعية ، فقد كانت لها مصلحة حيوية فى توطيد النظام الاقطاعي . ولهذا اعتزمت البابوية ان ترص تحت سلطتها العليـا قوى الاقطاعيين المتفرقة لكى تعزز بالتالى مواقع الملكية العقارية الاقطاعية حيال الفتن التى تتهددها .

وكانت فكرة القضاء على استقلالية الكنيسة الشرقية الارثوذكسية ، التى انفصلت نهائيا عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى سنة ١٠٥٤ ، جزءا لا يتجزأ من برنامج الباباوية التيوقراطى . ولمناسبة هذه المحاولات على وجه الضبط ، ظهرت الخطوط الاولى من مشروع حملة الفتح ضد الشرق الاسلامى .

بيزنطية والغرب والسلجوقيون

كانت بيزنطية ، وريثة الامبراطورية الرومانية ، قد فقدت من زمان بعيد الكثير من ممتلكاتها السابقة فى الشرق . وغدت مواقع القسطنطينية فى آسيا الصغرى اقل فاقل صلابة . وكان زحف الرحل الاتراك – السلجوقيين (او السلاجقة نسبة الى القائد سلجوق شبه الاسطورى الذى وحد فى النصف الثانى من القرن العاشر قبائل اوغوز فى آسيا الوسطى) الاشد خطرا على الدولة البيزنطية . وفى عهد السلطان ألب ارسلان (١٠٦٣–١٠٧٢) اقتحم السلجوقيون مقاطعة ارمينيا البيزنطية واشتبكوا فى حروب ضد جورجيا ، وتغلغلوا اوسع فاوسع فى اقليمى بيزنطية فى آسيا الصغرى – قبدوقية وفريجيا .

وقد حاول الامبراطور رومانوس الرابع ديوجين (١٠٦٨–١٠٧١) ان يضع حدا لتقدم السلجوقيين . فشنت القوات المسلحة البيزنطية ضدهم حملتين ناجحتين . وامكن عقد هدنة مع ألب ارسلان ولكن رومانوس الرابع دفع فجأة فيما بعد ضد العدو جيشا آخر ، من ٣٠٠ ألف رجل او يكاد ، اى اقوى جيش بين الجيوش التى جهزها قبل ذلك . كانت قواته المختلفة القوميات تتألف اساسا من المرتزقة وكانت داخليا هشة ، ضعيفة ، غير موثوقة . وعشية الاشتباك العام ، انتقلت الفصائل التركية من قوات رومانوس الى جانب اخوانها الاتراك . كذلك كانت الخيانة تعشعش بين القادة العسكريين البيزنطيين انفسهم .

فى ١٩ آب (اغسطس) ١٠٧١ دارت رحى معركة هائلة بمقاييس ذلك الزمن شمالى بحيرة فان (ارمينيا) ، غير بعيد عن المدينة-القلعة مانزكرت (باليونانية مانتسيكرت) . وقد منيت عساكر الامبراطورية البيزنطية بهزيمة ماحقة انزلها بهم السلجوقيون الذين لجأوا الى الحيلة التكتيكية التى سبق لهم ان خبروها مرارا : فقد تراجعوا فى الظاهر لكى يغروا البيزنطيين ثم ارتدوا فجأة عليهم وشنوا حملة عاصفة بالخيل على العدو . وقد ابيد جيش رومانوس الرابع كليا تقريبا ، ووقع الامبراطور نفسه فى الاسر – الامر

الذى لم يحدثا يوما قبل ذاك فى تاريخ بيزنطية ، وطرح ارضا عند قدمى السلطان الظافر . وسرعان ما اخلى السلطان سبيل الاسير النبيل ، ولكن نتيجة الكارثة فى معركة مانزكرت كانت وبالا على الامبراطورية ، اذ فقدت ممتلكاتها الغنية فى آسيـــا الصغرى . وبين سنة ١٠٧٨ وسنة ١٠٨١ ، رسخ السلجوقيون اقدامهم فى مناطقها الغربية ايضا ؛ وبالكاد استطاعـــت بيزنطية ان تحتفظ لنفسها بعدد قليل من المدن على ساحل بروبونتيدا (بحر مرمره) . ومن نوافذ القصر الامبراطورى فى القسطنطينية ، اخذت تبدو الآن الجبال فى الشرق التى لم تبق ملكا للفاسيلفس الجبار فى الماضى (الامبراطور البيزنطى) .

كانت بيزنطية تعانى من الفوضى فى اكمل مظاهرها . فقد كانت مختلف تكتلات الاعيان الاقطاعيين ، فى العاصمـــة والارياف على السواء ، تتخاصم وتتهاتر بلا نهاية بعضها مع بعض ، وتحاول بشتى المكائد والدسائس ان تزيد امتيازاتها وسلطتها . وكان من المستحيل تقريبا الاعتماد على الجيش المؤلف على الاغلب من المرتزقة . وكانت الخزينة تشكو على الدوام نقصا فى الاموال ؛ فمنذ ان تحول الفلاحون الاحرار الى اقنان طفق ينضب المصدر الرئيسى لواردات الضرائب . ومع مر الزمن ، صارت بيزنطية تتعرض بمزيد من الشدة للتقسيم الى ممتلكات اقطاعية شبه مستقلة فى الميدان السياسى . ومذ ذاك ، بدأت قوة الامبراطورية تتوقف على الفصائل العسكرية التابعة لملاكى الاراضى الجبابرة فى الارياف ! بل ان الهزيمة فى معركة مانزكرت كانت قبل كل شيء ثمرة الاقتتال بين الاريستقراطيين ؛ فان بعضا منهم كانوا على استعداد (وهذا ما حدث بالضبط فى سنة ١٠٧١ !) للخيانة السافرة شرط ان يحتفظوا ويكثروا امتيازاتهم . وعندما افرج السلطان السلجوقى عن رومانوس ، انفجرت فى الامبراطورية حرب حقيقية بين الزمر الاقطاعية . واضطر الامبراطور السابق الى الاستسلام للاقطاعيين ووضع نفســه تحت رحمتهم ، ولكنهم اسروه وسملوا عينيه .

ولم يلبث البابا غريغوريوس السابع ان استغل مصاعب بيزنطية التى اضعفتها وانهكتها الحروب ضد السلجوقيين والاضطرابات الداخلية ، وذلك لكى يجعل الكنيسة الارثوذكسية الشرقية تابعة للكرسى الرسولى ، ولكى يخضع فيما بعد بيزنطية نفسها ايضا للكرسى الرسولى ، الامر الذى كان من شأنه ان يوسع الموارد المادية لدى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ويسهل على البابوية تحقيق برنامجها التيوقراطى الكلى فى الغرب .

فى البدء لجأ غريغوريوس السابع الى التدابير الديبلوماسية : ففى صيف

١٠٧٣ بدأ يتفاوض مع الامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع دوكا . وقد قال البابا فى رسالة الى الامبراطور انه ينبغى تجديد الوفاق القديم بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينيـــــة . ولكن ادعاءات البابـــا لقيت الصدّ فى القسطنطينية . وآنذاك خطرت فى بال البابـــا فكرة التوصل الى الاهداف المنشودة بقوة السلاح وذلك بتنظيم حملة حربية يشنها الفرسان على الشرق بحجة حماية الدين المسيحى وتقديـــم العون للارثوذكس ضد المسلمين السلجوقيين . وبما ان العساكر الغربية ستكون كثيرة ، فمن المؤكد ان الامبراطور البيزنطى سيكون اكثر تساهلا وتنازلا ، وبعد ذاك ، من ذا الذى يعلم كيف ستتطور هذه المبادرة ؛ وخاصة اذا تكللت بالنجاح . والقدس ليست بعيدة جدا عن القسطنطينية !

فى سنة ١٠٧٤ وجه البابا رسالة الى الكونت غليوم الاول البورغونى والى الامبراطور الالمانى هنريخ الرابع الذى امسى فيما بعد عدوه اللدود ، والى ماتيلدا ، مارك-كونتية توسكانا ، واخيرا «الى جميع الاوفياء للقديس بطرس» ، دعاهم فيها الى تخليص الكنيسة الشرقية من البلية والى الاشتراك لهذا الغرض فى الحرب فى الشرق . ولم يضن غريغوريوس السابع بالوعود بالمكافآت السماوية على الذين يوافقون على محاربة «الكفار» . وقد نصح البابا الكاثوليك فى رسائله : «قاتلوا بجرأة ، لكى تناولوا فى السماء مجدا يتجاوز جميع توقعاتنا . تسنح لكم الفرصة لاكتساب الغبطة الابدية بعمل طفيف» .

وعلق غريغوريوس السابع اهمية جدّية على المشروع الذى حاكه . فقد ردد غير مرة فى رسائله انه ينوى ان يسير شخصيا فى طليعة قوات المسيحيين الغربيين ويمضى الى ما وراء البحار . وكان لا بدّ لهذا المشروع ان يستتبع صدى ملائما عند «المعدمين» و«الذين لا ارض عندهم» الذين سبق لهم ان حاربوا العرب تحت الراية الدينية وبموافقة البابَاوية . كتب البابا الى ماتيلدا من توسكانا : «اؤمن فى ان كثيرين من الفرسان سيساعدوننا فى هذه القضية» .

وبديهى ان شعار حماية الدين المسيحى من الانجاس (الوثنيين) لم يكن غير قناع ؛ فان نوايا روما لم تكن تمت بأى صلة الى انقاذ المسيحية ، الامر الذى لم يطلب احد من البابا فعله . ثم ان المصالح الدينية التى ابرزها غريغوريوس السابع بمثل هذا الاصرار فى المرتبة الاولى فى رسائله لم تلعب يوما على الاطلاق دورا اوليا بنظر هذا السياسى الكنسى . وكان البابا لا يرى من الضرورى الاصرار على اية خلافات مبدئية بين المسيحية والاسلام اذا كانت مصالح روما السياسية تتطلب ذلك ؛ ففى سنة ١٠٧٦ بلغ الامر

بالبابا غريغوريوس ان صرح فى رسالة الى امير مدينة بجاية الجزائرية الناصر «إننا نحن وانتم نؤمن فى اله واحد وان يكن بأساليب مختلفة» .
اما الجوهر الحقيقى لمشروع الحرب ضد السلجوقيين ، فقد كان مغايرا ، وقوامه اعادة الكنيسة البيزنطية ، الارثوذكسية الى حضن الكنيســـة الرومانية ، وتوسيع منطقة نفوذ الكاثوليكية ، بادراج بيزنطية بالعنف فى فلك التأثير البابوى ، وامتلاك ثروات الكنيسة الارثوذكسية .
ان نداءات البابا التقية الورعة قد سبقت من حيث الجوهر شعارات الحرب الصليبية المقبلة . اغلب الظن ان هذه النداءات قد لقيت التفهم من جانب الفرسان . على كل حال اكد البابا نفسه فى اواخر ١٠٧٤ للامبراطور الالمانى هنريخ الرابع انه تسنى له هو البابا ان يجمع جيشا من ٥٠ الف ايطالى وفرنسى لاجل المشروع فيما وراء البحار ضد الوثنيين . وقد لقى البابا الدعم ، مثلا ، من بعض الطواغيت الاقطاعيين فى فرنسا الجنوبية مثل غليوم البورغونى وريمون من تولوز .
ولكن غريغوريوس السابع لم يستطع ان يحقق مقاصده . فان الصراع الذى بدأ ضد الامبراطورية الالمانية قد صرف انتباهه عن بيزنطية لزمن طويل . ومع ذلك عاد فيما بعد غير مرة الى فكرة اعادة الكنيسة الارثوذكسية الى «حضن الام» . وعندما هاجم روبر غيسكار ممتلكات بيزنطية فى ايطاليا سنة ١٠٨٠ باركه البابا غريغوريوس السابع على هذه الحرب . وطلب البابا ان يدعو رجال الدين فى ايطاليا الجنوبية الفرسان المحليين الى الاشتراك فى حملة الزعيم النورمندى واعدا لقاء ذلك بغفران الخطايا . وبعد ان اقتحم النورمنديون شبه جزيرة البلقان فى سنة ١٠٨١ واستولوا على قلعة دراتش البحرية فى ابيروس وتغلغلوا فى اعماق البلاد ، هنأ غريغوريوس السابع روبر غيسكار بالنصر دون ان ينسى تذكيره بانه مدين بنصره الى حماية القديس بطرس . صحيح ان غريغوريوس السابع كان فى السنوات التالية مستغرقا كليا فى الصراع ضد هنريخ الرابع ، ولكن ثمة امر لا ريب فيه هو ان الاستعدادات التى قام بها البابا فى السبعينيات لشن حرب فرسانية كبيرة «لحماية بيزنطية» قد كانت نقطة انطلاق مهمة للخطة التى نضجت فيما بعد لاجل تنظيم حملة فتوحات واغتصابات فى الشرق .
ان القضية التى دبرها غريغوريوس السابع قد طورها فيما بعد اقرب خلفائه من البابوات . وكان الوضع الذى نشأ فى العقود الاخيرة من القرن الحادى عشر فى بلدان القسم الشرقى من حوض البحر الابيض المتوسط يناسب تحقيق مقاصد البابوية . وفى ذلك الوقت احتل السلجوقيون آسيا

الصغرى وسوريا وفلسطين . وفي سنة ١٠٧٠ احتلوا دمشق وحلب وغيرهما من المدن السورية وفي سنة ١٠٧١ احتلوا مركز الاديان الثلاثة بما فيها الدين المسيحي ، مدينة القدس ، التي كانت حتى ذاك خاضعة لسلطة خلافة الفاطميين في مصر (لم ترسخ اقدام السلجوقيين الى هذا الحد او ذاك في القدس الا نحو اواخر السبعينيات) . وفي سنة ١٠٨٤ ، انتزع السلجوقيون انطاكية من بيزنطية واستولوا عليها . وفي عهد ملكشاه (١٠٧٢-١٠٩٢) ، شملت ممتلكات السلجوقيين قسما كبيرا من اراضي سوريا ولبنان والاردن وفلسطين .

وهكذا شملت فتوحات السلجوقيين رقعا شاسعة من الاراضي . ولكنهم لم يؤسسوا دولة ممركزة . ولم تكن دولة السلجوقيين قائمة الا بالاسم . اما في الواقع ، فقد كانت عبارة عن اتحاد ضعيف العرى بين كثرة من الاقطاعات شبه المستقلة . واهمها كانت السلطنة الرومية (سلطنة سلاجقة الروم او دولة الروم السلاجقة) التي تشكلت سنة ١٠٧٧ في آسيا الصغرى ، وكان مركزها في البدء نيقية ، ثم قونية . وكان السلاطين يطمحون الى وراثة الامبراطورية البيزنطية ولذا سموا دولتهم بالدولة الرومية ، لان البيزنطيين كانوا يسمون انفسهم بالروم (بالرومانيين) . واخذ السلاطنة هذا الاسم كما اخذوا الادعاءات المناسبة . وبعد سنة ١٠٩٢ تداعت الدولة السلجوقية كليا . وتفجرت الخلافات والمخاصمات بين الحكام الكبار والصغار وصارت آسيا الصغرى مسرحا لحروب لا انقطاع فيها .

وبعد حقبة طويلة من الزمن ، اى بعد ان تعاظمت الحركة الصليبية ، اختلق مدونو الاخبار الغربيون لتبريرها مختلف الاساطير عن الملاحقات والمطاردات التي قام بها ، بزعمهم ، السلجوقيون ضد المسيحيين في البلدان الشرقية وعن اهانة وتدنيس الوثنيين للمقدسات المسيحية ، وبخاصة عن مطاردات الحجاج المتجهين الى القدس . وقد تلقف المؤرخون الاوروبيون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولاسيما منهم الكاثوليكيون ، هذه الاساطير وزينوها بشتى التفاصيل . وقد وصف مؤلفو «تواريخ الحروب الصليبية» - وهي تواريخ عديدة - الوضع بسمات متماثلة تقريبا : كان السلجوقيون يشكلون خطرا على المسيحية ، ولذا كان صد هذا الخطر يتطلب تدخل الكاثوليك المسلح . واخذ بابا روما على نفسه قيادة الكاثوليك . ومن هنا نشأت الحروب الصليبية . وهذا يعني ان هؤلاء المؤرخين ، رغبة منهم في تفسير منشأ حروب المسيحيين الغربيين ، نقلوا مركز ثقل الاحداث التي استتبعت الحروب الصليبية الى الشرق ؛ فمن وجهة نظرهم ، كان كل شيء

يعتمد على فتوحات السلجوقيين ، وبينها فى المقام الاول القدس ، مهـــد المسيحية .

وهذا الضرب من التصورات عن اقرب اسباب الحروب الصليبية لا يزال واسع الانتشار الآن في الغرب ، واليوم يصدر هناك عدد لا يستهان به من الكتب التى تبدأ ابدا ودائما بوصف العقبات التى اقامها السلجوقيون ، كما يزعم ، فى طريق الحجاج الاتقياء ، وبوصف المصاعب التى واجهها الحجاج فى الارض المقدسة . ان هذا التفسير للاحداث لا يتطابق البتة مع الوقائع التى قررها المؤرخون المسيحيون القروسطيون .

فان السلجوقيين لم يكونوا يتصفون اطلاقا بالتعصب الدينى الاعمى . يقينا ان فتوحاتهم قد رافقها هلاك الناس وآلامهم ، ورافقها الدمار ، اى رافقها كل ما يرافق اية حرب كانت . ولكن هذا لم يكن له البتة اية علاقة بالدين المسيحى . فحيال ذوى الاديان الاخرى ، انتهج السلجوقيون تلك السياسة الوفيـــة التى استقرت منذ زمن السيطرة العربيـــة . ذلك ان المسيحيين ، شأنهم شأن اليهود ، هم بموجب تعاليـــم محمد ، مؤسس الاسلام ، مؤمنون ، اذ انهم يؤمنون فى اله واحد ، ولكنهم انحرفوا عن الصراط المستقيم ، عن الكتب المقدسة . ولئن كان ينبغى ، بموجب تعاليم القرآن ، اما قتل الوثنيين ، واما ادخالهم بالقوة فى الاسلام ، فانه ينبغى التحلى بالصبر حيال المسيحيين واليهود باعتبارهم مؤمنين ضالين ، خرجوا عن «الصراط المستقيم» . وبالفعل ، كانت مستحدثات خاصية الجور فى البلدان التى وقعت ذات يوم تحت سيادة الفاتحين المسلمين تتلخص فى اقرار اتاوة عامة هى الخراج ؛ وكان الخراج يشمل جميع السكان بصرف النظر عن عقائدهم الدينية . وكان الفاتحون يبقون الباقى ، على العموم ، كما كان ، دون اجراء اى تغيير ؛ فبقدر ما ، كان يبقى حتى جهاز الدولة السابق الذى كان يمكن للمسيحيين واليهود كذلك ان يشغلوا وظائفه ؛ وكانت تتوفر للمسيحيين واليهود امكانية ممارسة شعائرهم الدينية بلا عائق . وقد واصل السلجوقيون تقليد التساهل هذا ولم يفرضوا اية عقبات جدية فى وجه المسيحيين تعيقهم فى شؤونهم الدينية .

وفضلا عن ذلك ، عنى الفتح السلجوقى بالنسبة لذوى العقائد المسيحية المهيمنين فى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين (الارثوذكس ، المونوفيسيين (القائلين بان للمسيح طبيعة واحدة) ، النسطوريين ، الغريغوريين ، وغيرهم) حتى نوعا من خير ونعمة ، اذ تخلصوا من مظالم الكنيسة البيزنطية ، الدينية والضرائبية . وهكذا بالذات يوضح الاوضاع المؤرخ الارمنى متى الرهاوى

(توفى سنة ١١٤٤) ، وصاحب «كتاب الحوليات» ميخايل السرياني (١١٢٦-١١٩٦) والمؤلف المجهول لكتاب «تاريخ بطاركة الاسكندرية» وغير ذلك من كتب المؤلفين المسيحيين الشرقيين .

ثم ان السكان انفسهم فى بلدان القسم الشرقى من حوض البحر الابيض المتوسط ، المنتمين الى مختلف التيارات والطوائف المسيحية ، لم يفتشوا يوما ، لا فى الغرب ولا فى بيزنطية ، عن الحماية من الملاحقات الدينية المنسوبة الى السلجوقيين . وكان بوسع الحجاج ان يزوروا القدس كما فى السابق . اما مشاعرهم الدينية فلم تكن تتعرض للاهانة من قبل الحكام السلجوقيين . بديهى انه كان يتعين على الحجاج ان يكونوا على يقظة : ففى فلسطين كانوا على كل حال فى ارض العدو . وليس عبثا اخذت عمليات الحج تتخذ شيئا فشيئا طابعا مسلحا . ولكن السلجوقيين لم يهتموا البتة بمصالح الحجاج الدينية وعبادتهم للمقدسات المسيحية فى القدس وبيت لحم وغير ذلك من الاماكن المقدسة . وكان الفاتحون يتقاضون من الحجاج جزية معينة لقاء زيارة المدينة المقدسة ، ولكن مثلما كان الحجاج ملزمين فى القسطنطينية ايضا بدفع ضريبة للسلطات البيزنطية . وفى القدس ظل يعمل كما من قبل فندقان بنتهما وظلت تشرف عليهما وتمولهما مدينة أمالفى الايطالية . وان المقدس الرئيسى - الانشاء المعمارى فى احدى كنائس القدس الذى سماه المسيحيون «القبر المقدس» (بموجب الانجيل ، حمل يوسف من الرامة تلميذ يسوع المسيح ، جثمان معلمه ودفنه سرا فى قبر محفور فى الصخر وغُطّي فيما بعد بالحجارة) ، - كان سليما تماما . صحيح ان الحجاج اضطروا الى الاستعاضة عن الطريق البرى بالطريق البحرى لان الوضع الحربى المقلق فى آسيا الصغرى كان يصعب الاسفار الى القدس فى البر ، ولكن هذا الظرف لم يكن يمت هو ايضا باية صلة الى المطاردات الدينية .

ان الاقاويل عن آلام المسيحيين الشرقيين فى ظل حكم السلجوقيين وعن العقبات التى اقاموها فى وجه الحجاج هى بقدر كبير ، اختلاقات باطلة تفتق عنها خيال كتاب كنسيين احدث عهدا الينا - هم جزئيا بيزنطيون ، ولكنهم غربيون وشرقيون - من امثال غليوم الصورى (١١٣٠-١١٨٦) . فاحيانا كثيرة كانوا قصدا وعمدا ينشرون الاشاعات عن مآثم السلجوقيين من كل شاكلة وطراز ضد المسيحية ، قائمين بذلك ، كما قد نقول اليوم ، لاغراض دعائية بحتة ، - لكى تسهم الاشاعة عن الخطر الذى يشكله «الكفار» على الاماكن المقدسة في تدفق قوات مسلحة جديدة من الغرب . وهذا الضرب من الاشاعات كان ينطلق وينتشر من روما البابوية . وقد استغل البابوات

ضعف اطلاع اوروبا الغربية على ما كان يجرى فعلا فى الشرق ؛ وبما انهم كانوا هم ايضا ، فضلا عن ذلك ، قليلى الاطلاع على الوضع فى الاراضى ما وراء البحار ، فقد انصرفـــوا ، من حيث جوهر الامر ، الى تضليـــل العالم الكاثوليكى . ويلاحظ المؤرخ المستشرق الفرنسى المعاصر كاين ان روما قد صورت الكارثة التى حلت ببيزنطية بصورة كارثة حلت ، بزعمها ، بالمسيحية الشرقية على العموم .

اما فى الواقع ، فان الفتح السلجوقى ، اذا كان قد شكل حجة لاعداد حرب الغرب ضد الشرق لاجل اهداف دينية كما يزعم ، فليس ذلك الا بقدر ما سدد ضربة الى بيزنطية التى كانت من زمان بعيد موضع مطامع الكورية الرومانية . ثم ان انتشار الفتوحات السلجوقية لاحقـــا فى السبعينيات والثمانينيات فى آسيا الامامية ، وتقسيم دولة ملكشاه الذى جرى فى الوقت نفسه ، لم يوفرا للباباوية فرصة التوصل الى تحقيق خططها القديمة الموجهة ضد بيزنطية وحسب ، بل اتاحا كذلك توسيع تطلعاتها التوسعية توسيعا كبيرا ، باشاعة كذبة بينة عن الخطر الذى يتهدد المسيحية اجمالا ، والذى يزحف ، حسب زعمها ، من الشرق .

ومشاريع غريغوريوس السابع بعثها بكليتها واكملها بصورة جوهرية خلفه البابا اوربان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩) ، الفرنسى الاصل . ووفقـــا لارشاداته كان ينبغى ان يخضع كل القسم الشرقى من حوض البحر الابيض المتوسط لحكم وسيطرة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وخدمها الامناء ، الفرسان الغربيين . ولكن اوربان الثانى احاط مشاريعه باللواحق الدينية بقدر اكبر بكثير من التفصيل والتبصر . وفى اداء هذه المهمة ساعده كذلك الوضع العصيب الذى واجهته بيزنطية فى الثمانينيات واوائل التسعينيات من القرن الحادى عشر .

فان النورمنديين الذين كان يقودهم روبر غيسكار ، واصلوا الفتوحات فى الاقاليم الاوروبية من الامبراطوريـــة البيزنطيـــة زارعين الذعر فى القسطنطينية . وكان بمقدور الفاسيلفس الجديد ، الكسيوس كومنينوس ، (١٠٨١-١١١٨) ان يقضى على الخطر النورمندى باللجوء الى قوة السلاح والى وسائل الديبلوماسية البيزنطية الماكرة الداهية ، ولكن السحب اخذت تتلبد فى ذلك الوقت فى شمال وشرق بيزنطية . فقد ثار عليها السلاف القاطنون على ضفاف نهر الدانوب فى بلغاريا ، بسبب ما كانوا يعانونه من بلايا من جراء ابتزازات الموظفين الامبراطوريين . فاستنجدوا بالرحل البتشينيغ . وفى سنة ١٠٨٨ انزل البتشينيغ بالامبراطور الكسيوس كومينوس هزيمة شنعاء

فى جوار سيليسترا ؛ ودمر الرحل ادريانوبول وفيليبوبول ، ووصلوا حتى اسوار العاصمة بالذات . وجهز الامير السلجوقى تشاهـا الذى استقر فى غرب آسيا الصغرى وفى بعض جزر بحر ايجـه ، اسطولا ضد العاصمـة البيزنطية . واجرى تشاهـا مفاوضات مع البتشينيـغ بشأن العمليات المشتركة . ووضعت خطة مشتركة لهجوم البتشينيـغ والسلجوقيين على القسطنطينية .

وخيل ان الايام الاخيرة قد حلت بالنسبـة للقسطنطينيـة . ولكـن البابوية ، كما منذ نحو ١٥ سنة ، قامت من جديد بمحاولة للضغط على القسطنطينية ، فان رسل اوربان الثانى الذين ارسلوا الى القسطنطينية فى اوائل سنة ١٠٨٨ تقدموا من الامبراطور بعرض زعموا فيه انهم يكرهون اللاتين (الكاثوليك) فى دولته على ممارسة الخدمات الكنيسة حسب الطقس الارثوذكسى . فرد الكسيوس الاول على البابا بلهجة المصالحة بل انه وافق ، من باب التظاهر ، على اجراء تنازلات فى صالح روما . وقد تحدد موعد انعقاد المجمع الكنسى فى القسطنطينية ، وذلك ، كما كان من المرتأى ، لاجل تسوية الخلافات العقائدية والطقسية بين الكنيستين . ومن جديد جرت مفاوضات بشأن الاتحاد . وقد اعربت الاوساط العليا الحاكمة فى بيزنطية ، على الاقل بالاقوال ، عن استعدادها لمساومة لاهوتية ولازالة اسباب الخصام بين روما والقسطنطينية ؛ فان ضغط البتشينيغ والسلجوقيين كان يشد الوثاق على بيزنطية حقا وفعلا ، وكان الكسيوس الاول المضغوط فى حلقة الاعداء يفتش عن حلفاء .

فى سنتى ١٠٩٠-١٠٩١ ، عندما كانت شئوون الامبراطورية فى البحر والبر فى وضع شاق جدا ، على حد قول المؤرخة البيزنطية حنة كومنينة (ابنة الكسيوس الاول) ارسل الامبراطور البيزنطى الرسائل الى ملوك وامراء الغرب مفادها ان بيزنطية تطلب معونة عسكرية . كذلك بعث الامبراطور كومنينوس بالرسل الى بابا روما . وكان يعلق عليه هو ايضا الآمال . كان ينبغـى مدّ عساكر الامبراطورية مهما كلف الامر . وقبل ذلك ، كان الغرب قد قدم لجيش الروم عددا لا يستهان به من المرتزقة ؛ فقد كان يخدم فيـه النورمنديـون والسكاندينافيون والانجلوساكسونيون . والآن احتاجت القسطنطينية مسيس الحاجة الى العساكر ، وكان بوسـع روما ان تقدم لبيزنطية مساعدة مهمة فى اجتذاب عصب المرتزقة . وهذا ما يفسر تنازل الحكومة البيزنطية (او اليونانية) الظاهرى فى المفاوضات مع البابوية بصدد

الاتحاد ، ومع ذلك لم يعتزم الفاسيلفس الاعتماد كليا على الكورية الرومانية ؛ فان ادعاءاتها بالزعامة كانت معروفة جيدا من زمان فى القسطنطينية .

ومع اجراء المفاوضات مع البابا بشأن اتحاد الكنيستين ، ومع اغراء الاسياد الغربيين بامكان نهب البلدان الشرقية ، اتخذت الحكومة البيزنطية تدابير اخرى اكثر وثوقا لاجل شق طوق السلجوقيين والبتشينيغ . فوجهت ضد البتشينيغ حلفاء الامبراطورية الجدد — البولوف (البولوفتسيين) . ففى ٢٩ نيسان (ابريل) ، نزلت هزيمة ماحقة بجحافل البتشينيغ الضخمة فى المعركة على ضفة نهير ماوروبوتام (رافد نهر ماريتسا) ؛ اذ ان اسطول الامير تشاها لم يفلح فى الوصول الى نجدتهم ؛ وفيمـــــا بعد ، انشد الغالبون ساخرين من المغلوبين ، «بسبب يوم واحد لم يتسن للسقيتيين ان يروا ايار» . وبعد حقبة وجيزة ، استطاعت بيزنطية ان تتخلص من الامير تشاها ايضا . فان الامبراطور قد حرض على تشاها سلطان نيقية قلج (او اقليج) ارسلان الاول (١٠٩٢—١١٠٧) فقتل تشاها اثناء وليمة . وهكذا ، باللجوء تارة الى القوة المسلحة ، وطورا الى الدسائس والرشوة ، تخلص الكسيوس الاول فى آخر المطاف من المخاطر التى تتهدد القسطنطينية . واعادت بيزنطية الى ما تحت سلطتها عددا من المدن الساحلية فى بروبونتيد ، وجزر هيوس وساموس ولسبوس . وازيح السلجوقيون . وفى هذه الحال لم يبق ثمة داع الى مغازلة روما . ودخلت المفاوضات بصدد الاتحاد طريقا مسدودا . ولم تقبل بيزنطية عمليا مقترحات اوربان الثانى ، لما فيه حزله وكدره . والمجمع المرسوم لم ينعقد هو ايضا ، وبقيت الخلافات الدينية معلقة .

ولكن النداء الموجه الى الغرب بطلب العون فى لحظة حرجة بالنسبـــة لبيزنطية لم يمر دون ان يترك اثرا . فان الشرق مع مدنه التجارية الكبيرة ، والمتطور فى الميدان الاقتصادى اكثر من الغرب ، القروى اساسا ، كان يبدو للفرسان المنحطين والطواغيت الاقطاعيين الطموحين مصدرا لكنوز عظيمة . وكانت اقاصيص الحجاج العائدين من القدس والقسطنطينية تصور بالخيال المعابد والقصور الرائعة فى المدن الشرقية وعجائب البذخ التى تغمر الاغنياء البيزنطيين والعرب . وعن هذه العجائب نشأت اساطير كان ينقلها المغنون القصاصون المتجولون الى قصور الفرسان . وها هى الغنيمة اللذيذة تقع فى ايدى السلجوقيين !

وهذا ما اقلق على الاخص النورمنديين الذين استقروا فى ايطاليا الجنوبية وفى جزر البحر الابيض المتوسط . وخلال عشرات السنين كانوا مرتبطين

مباشرة ببيزنطية — بصفة قراصنة تجار ، وبصفة محاربين مرتزقة . ومن ذا الذى كان بوسعه خيرا منهم ان يقدر ثروات القسطنطينية ؟

وكان مصير بيزنطية يثير القلق كذلك فى نفوس الكثيرين من الامراء والفرسان الآخرين فى الغرب ، الذين كانوا ينتظرون وحسب الفرصة لكى ينقضوا على ثروات الامبراطورية البيزنطية (او امبراطورية الروم) . ذلك ان الشرق كلـــه كان يبدو ارض الامبراطور البيزنطى بنظر البارونـــات والمارك-كونتات والدوقات والفيكونتات القليلى الاطلاع على الجغرافيا . ولم يكن من الجائز ان تصبح هذه الارض فى حوزة الهراطقة السلجوقيين !

ان البابوية التى كانت تبتغى اهدافها كانت تاخذ بالحسبان ، عن وعى او بلا وعى ، مصالح الاقطاعيين الغربيين المشتركة ؛ فلم تغب عن بالها الميول العدوانية المشتدة اكثر فاكثر بين الفرسان والطواغيت الى الفتوحات . وكان الوضع الذى نشا نحو اوائل العقد العاشر من القرن الحادى عشر صالحا للغاية لتحريك تلك النوابض التى جربت الكورية الرومانية تحريكها منذ عشرين سنة .

وكان الجو فى الغرب يزداد توترا باستمرار . فان مشقات الفلاحين فى غضون «السنوات السبع العجاف» قد بلغت الذروة ، وكان استياء الفئات الدنيا يتفاقم سنة بعد سنة . وكان الفرسان «المعدمون» ينهبون ويسلبون بجموح مشتد ابدا . وكان عدم الثقة بالغد يستحوذ بصورة اقوى فاقوى على الاسياد ، سواء منهم الكنسيون ام الدنيويون . وفى مثل هذا الوضع جاء نداء بيزنطية بطلب العون فى الوقت المناسب تماما . وكان الحجاج قد شقوا الطريق الى الشرق . وكانوا فى القصور الاقطاعية يظنون انه سيكون من السهل الاستيلاء على بلدان الشرق . والامـــل فى هذا خلقته الفوضى السائدة فى الدولة السلجوقية المقسمة الى اقطاعات شبه مستقلة . وكان الحكام السلجوقيون لا يضايقون بعضهم بعضا وحسب ،، بل كانوا يتنافسون كذلك مع الملوك والامراء العرب ، وعدا ذلك ، قامت فى مدن سوريا ولبنان فى العقود الاخيرة من القرن الحادى عشر حركة من اجل الاستقلال الذاتى ، وضد سيادة الخلفاء المصريين من سلالة الفاطميين ؛ وهذه الحركة شملت ، فيما شملت ، صور وطرابلس ، اللتين طلبتا حتى المساندة من السلجوقيين . واستغل السلجوقيون بدورهم الذريعة المناسبة لكى يستولوا على صيدا . وفى سنة ١٠٨٩ فقط ، استطاع الخليفة المصرى ان يستعيد السلطة على صور وسائر المدن التى انفصلت عنه . ولكن اضطرابات جديدة نشبت فى صور . وفى سنة ١٠٩٤ حاصرت القوات الفاطمية التى انطلقت باتجاه الشمال

هذه المدينة الميناثية الكبيرة واستولت عليها بعد مرور ثلاث سنوات بانقضاض عاصف ، واعملت فيها نهبا وسلبا .

ومن المؤكد ان الكثير من تفاصيل الوضع المتقلقل سياسيا فى بلدان القسم الشرقى من حوض البحر الابيض المتوسط لم يكن معروفا فى الغرب ، ولكن فكرة عامة عن سوء الاحوال فى هذه المناطق كانت تكونها الانباء التى يحملها الحجاج واخبار التجار العائدين من الشرق ، والتقارير الديبلوماسية التى كانت تتوافد الى الكورية الرومانية . ولهذا ، عندما طلبت بيزنطية من امراء الغرب ومن البابا العون ، لم يعمد الفرسان الى المماطلة فى الرد على هذه الطلبات . فقد فهموها وتقبلوها كدعوة إلى شن حملة على الشرق لانقاذ بيزنطية .

ولكن الاقطاعيين انفسهم كانوا فى حالة من التشتت المفرط فلم يكن بمقدورهم بالتالى ان يقوموا باعمال منظمة على مثل هذه الابعاد الكبيرة ، الاوروبية من حيث الجوهر . فكان لا بد من تدخل قوة كانت ، كما رأينا ، المعبرة الرئيسية عن مصالح الاقطاعيين الغربيين الطبقية — عنينا بهذه القوة الكنيسة الكاثوليكية ورئيسها ، وما لبث هذا التدخل ان ظهر . فان البابا اوربان الثانى ، وقد اقتنع بعقم المحاولات لتحقيق الاتحاد بالوسائل الديبلوماسية ، سلك سبيل غريغوريوس السابع . فقد عزز خططه بالضغط المسلح على بيزنطية بحجة تقديم العون لها ضد «الكفار» . واخذ البابا بالحسبان الميول العدوانية للحكام الاقطاعيين فى الغرب وحاول ان يستخلص من كل هذا اقصى النفع لاجل الكنيسة الكاثوليكية . فقد وفر تجمع الظروف وتطورها فرصة مناسبة لتحقيق المقاصد التوسعية القديمة للكورية الرومانية بمساندة الفرسان ، والقيام بخطوة مهمة لاجل تاسيس دولة تيوقراطية عالمية . وقررت البابوية ان تستغل الوضع الناشىء فى العلاقات الدولية وتبلغ اهدافها السياسية الخاصة مع تلبية حاجات الاقطاعيين الغربيين الناضجة على حساب الغير .

واخذ البابا اوربان الثانى على نفسه زمام المبادرة الى تنظيم حملة جماهيرية على الشرق كانت فكرتها قد انتشرت فى الاوساط الاقطاعية فى اوروبا الغربية . وفى سنة ١٠٩٥ طرح برنامجا واسعا لتوحيد الفرسان لاجل فتح البلدان الشرقية تحت شعار مساعدة الروم من الاخوة فى الدين وتحرير قبر السيد المسيح .

هكذا نضجت فكرة الحرب الصليبية . وقد وقعت فى تربة مهياة تماما .

٢

الحملة الصليبية الاولى



الدعوة الى الحرب واصداؤها . تكوين ايديولوجية الحرب الصليبية

فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٠٩٥ ، عقد بابا روما اوربان الثانى مجمعا لرجال الدين فى مدينة كليرمون فران الفرنسية . ان البابا لم يأت الى فرنسا لكى يضبط شؤون الكنيسة فيها وحسب . فعندما وطأت قدماه الاراضى الفرنسية ، انبأ كذلك انه ينوى ان يساعد الاخوان المسيحيين الشرقيين . اغلب الظن ان البابا كان قد رسم فى الوقت المناسب خطة ما للعمل ، قد لا تكون بعد كاملة الخطوط ، ولكنها واضحة الى هذا الحد او ذاك من حيث اهدافها ومغزاها العام . الا انه كان لا بد من بضعة اشهر لكى تكتسب هذه الخطة ملامح على ما يكفى من الدقة .

بعد ان وصل اوربان الثانى الى فرنسا ، اخذ يطوف على الاديرة الكلونية فى جنوب البلد واحداً بعد آخر (فقد سبق له فى حينه ان كان رئيس دير كلونى) . وهناك جرت مفاوضات اولية بصدد الحرب المقبلة التى كان لا بد لها ، من حيث ابعادها ، ان تتجاوز كثيرا حملات الفرسان الفرنسيين منذ امد قريب الى ما وراء جبال البيرينه . ومع من كان بمقدور البابا ان يتشاور

بشأن مشروعه وسبل تحقيقـــه ان لم يكن مع الرهبان الكلونيين ؟ كان الكلونيون لا يدركون وحسب ، خيرا من اى آخر ، ضرورة التدابير الجذرية التى من شأنها أن تقضى على الفتن الخطيرة التى تهدد الملكية العقارية الكبيرة فى الغرب ، بل كانوا كذلك يدركون بصورة اوضح من اى آخر تلـــك الوسائل العملية التى يمكن استعمالها لاجل بلوغ هذا الهدف . وقد تكدست عندهم تجربة لا يستهان بها فى الدعوة الى الحروب المقدسة والحج . وكان بمقدورهم ان يوحوا للبابا اوربان الثانى بامور وافكار كثيرة ، وما هـــو اهم ، ان يكونوا ذوى نفع فعال له فى تحقيق المشروع .

لم يكتف اوربان الثانى بزيارة ديور الرهبنة الكلونيـــة . فان الحرب المقدسة التى كان يهيئ لها الكرسى الرسولى كانت تحتاج ، بالطبع ، الى واعظين يرفعون بايديهم صليب البركة ، ولكنها كانت تحتاج فى المقام الاول الى مقاتلين يملكون السيوف والرماح ، وكذلك الى قادة ذوى مكانة . وفيما بعد فقط ، اعلن اوربان الثانى ان الاحداث التى وقعت بعد مجمع كليرمون هى «قضية السيد الاله» . هذه الكلمات وضعها مدون الاخبار فولهير مـن شارتر (فرنسا) على لسان البابا . من الممكن ان يكون البابا قد نطق فعلا بهذه الكلمات ، ومن المحتمل انه حتى آمن فى صحتها . ولكن تلميـــذ غريغوريوس السابع كان سياسيا على ما يكفى من ثاقب النظر لكى يفهـــم هذه الحقيقة المعيشية البسيطة وهى انه ليس من مصلحة المكانة البابوية ، بل ليس من المعقول القيام بمشروع قبل التأكد سلفا من ان هذا المشروع سيحظى منذ بادئ بدء بمساندة اوسع الاسياد الدنيويين والكنسيين نفوذا على الاقل . ولقد اجتهد البابا لنيل مساندتهم سلفا .

ففى الطريق الى كليرمون قام بزيارتين مهمتين . فـى آب (اغسطس) ١٠٩٥ تقابل اوربان الثانى فى مدينة بوى مع صاحب المقام الرفيع الكنسى البارز ، الاسقف اديمار من مونتيل (Adémar de Monteil) . يبدو ان البابا استطاع ان يتفق معه على ان يأخذ هذا الحبر الجليل على نفسه مهمة رئيس الصليبيين الدينى . كذلك زار اوربان الثانى ريمون الرابع كونت تولوز فى مقره الرئيسى – قصر سان جيل . وبنتيجـــة المفاوضات ، وافــق هذا السيد ، – وكان من اكبر الاسياد فى اوروبا الجنوبية – ، عـلى الاشتراك فى الحملة . وقد تجاوب الكونت ريمون الرابع بكل طيبة خاطر مـع رغائـــب البابا ؛ فان الحرب التى كانت تهيئ لها روما كانت تتطابق تماما مع مصالحه بالذات .

ولئن كان اديمار من بوى وريمون دى سان جيل مطلعين على مقاصـــد

البابا ، فان الاقطاعيين الآخرين ، كما يجب الظن ، كانوا يخمنون ان اوربان الثاني جاء الى فرنسا لاهداف اكبر من حل قضايا الكنيسة الداخلية . كذلك كان شعور مسبق غامض باحداث جدية ما ترتبط بوصول الرسول الاعظم (هكذا يسمي المؤرخون البابا احيانا) يستحوذ على الفئات الدنيا من الشعب التي ارهقتها واضنتها تماما بلايا السنوات الاخيرة .

فلا غرابة اذا كان قد توافد الى كليرمون آلاف الفرسان وعدد كبير من ذوي الالقاب الدينية ، واذا كانت قد تجمعت جموع لا تحصى من بسطاء الناس . وكل هذا الجمهور من الناس لم يكن من الممكن ان تتسع له المدينة حيث انعقد المجمع . ومع ان المجمع بحث في سياق اسبوع (١٨-٢٥ تشرين الثاني - نوفمبر ١٠٩٥) مواضيع عادية ومألوفة بالنسبة لمثل هذا الضرب من المداولات - وفي المقام الاول مسألة «السلام الرباني» ، الا انه ضم عددا استثنائيا من الناس . يستفاد من بعض المعلومات انه ضم اكثر من ٢٠٠ (وحسب معلومات اخرى اكثر من ٣٠٠) من الاساقفة و٤٠٠ من رؤساء الاديرة . ان عدد المشتركين فيه غير معروف بدقة ؛ فان الارقام التي ساقها في هذا الصدد فولهير من شارتر وغيبرت من نوجان وغيرهما من مدوني الاخبار تختلف بعضها عن بعض ، بينما الوثائق التي وردت فيها اسماء جميع رجال الدين الذين توافدوا الى كليرمون لم تسلم . والمواد الرسمية التي وصلت الينا لا تعطي تصورات وافية كافية عن عدد المشتركين في المجمع . مثلا . هناك وثيقة من الوثائق التي صادق عليها المجمع ، تحمل توقيع ١٢ من كبار الاساقفة ، و٨٠ من الاساقفة ، و٩٠ من رؤساء الاديرة ، ولكنه توجد معطيات اخرى . على كل حال ، تميز مجمع كليرمون بالفخامة وسعة التمثيل .

وبعد انتهاء جلسات المجمع الرسمية ، وبعد ان «وعد جميع الحاضرين ، سواء منهم رجال الدين او المؤمنون ، بمراعاة قرارات المجمع بأمانة» ، كما كتب احد مدوني الاخبار ، القى البابا اوربان الثاني في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٠٩٥ خطابا احتفاليا في الهواء الطلق مباشرة امام حشد الذين تجمعوا في السهل بجوار المدينة . وهذا الخطاب سبق ان فكر فيه البابا عميقا وجيدا ، ولم يكن البتة خطابا مرتجلا «من وحي الرب» . فقد دعا البابا الكاثوليك الى حمل السلاح لاجل الحرب ضد «قبيلة الاتراك الفارسية . . . الذين وصلوا الى البحر الابيض المتوسط . . . ذبحوا واسروا كثيرين من المسيحيين ، ودمروا الكنائس واجتاحوا مملكة الرب (المقصود هنا

الامبراطورية البيزنطية — **المؤلف**)» . وهذا يعنى انه اطلق فى كليرمون النداء الذى دعا الغرب الى الحرب الصليبية في الشرق .

وقد حاول اوربان الثاني ان يصور الحرب التى استحث «المؤمنين» على شنها بصورة مشروع يجب القيام به لتحرير قبر السيد المسيح فى القدس ولانقاذ «الاخوة العائشين فى الشرق» ، اى المسيحيين الشرقيين . ودعا البابا المستمعين باسم الرب العلى : «انا اقول هذا للحاضرين واكلف بابلاغ الغائبين — هكذا امر يسوع المسيح» .

وفى وقت كان فيه الفرسان لا يفكرون نهارا وليلا الا فى ايجاد مجال لميلهم الى القتال ، لم يكن من الممكن ان لا تجد دعوة اوربان الثانى التقية والورعة ، وقد وجدت فعلا ، صدى من التعاطف فى الجمهور الواسع الذى استمع اليها . ناهيك بان اوربان الثانى وعد المشتركين فى الحرب الصليبية ، «المناضلين فى سبيل الايمان» ، باسم الرب العلى مرة اخرى ، بغفران الخطايا ، كما وعد المقاتلين الذين يستشهدون فى المعارك ضد «الكفار» بالثواب الابدى فى الجنة السماوية . وهذا الوعد اضفى على اقوال البابا وزنا خاصا فى عيون ذلك الجمهور اللجب من الاسياد ومن حملة اسلحتهم الذى تجمع من جميع انحاء البلاد فى سهل اوفيرن ، كما قال مدون الاخبار من بريتانيا ، وشاهد عيان مجمع كليرمون ، بودرى دول . وكثيرون من هؤلاء الاسياد سبق ان حجوا للتكفير عن ذنوبهم وقاتلوا العرب فى حروب مقدسة . ان تحرير قبر السيد المسيح ، الذى صوره البابا بصورة هدف الحرب ، قد امّن بالتأكيد غفران جميع الجرائم التى اقترفوها من قبل ؛ فقد كان ذلك بحد ذاته مفرطا فى الاغراء بحيث لم يترك الفرسان عديمى الاكتراث باقوال ومصطلحات اوربان الثانى التقية والورعة ولم يكن من الممكن الا تفعل فعلها فيهم ملامات البابا الذى ضرب على وتر مشاعرهم الدينية وبسالتهم القتالية . وان الراهب روبر من مدينة ريمس الذى اشترك فى مجمع كليرمون قد نسب الى اوربان الثانى انه وجه الى الفرسان كلمات التملق والتزلف .

ولكن بواعث ودوافع اخرى انداحت من خطاب البابا . فان الذين يقطعون على انفسهم عهدا ونذرا بالذهاب الى الارض المقدسة لا ننتظرهم الخلاص فى الجنة السماوية وحسب ؛ فان النصر على «الكفار» سيعود عليهم كذلك بمنافع ارضية محسوسة . الارض هنا ، فى الغرب ، — كما قال البابا اوربان الثانى — لا تفيض بالثروات . اما هناك ، فى الشرق ، فانها تسيل عسلا ولبنا ، و«القدس انما هى محور الكون ، منطقة فائقة الخصب بالمقارنة مع المناطق الاخرى . . . جنة ثانية» . ومن المؤكد ان الوعود كانت اقوى حجه

فى خطاب البابا . «ان من لهم الحزن والفقر هنا ، فى الارض سيكون لهم الفرح والغنى هناك ، فى السماء» . هكذا يعطى فولهير من شارتر هذه الفقرة من خطاب البابا ، محورا احكام الانجيل . ويروى روبر من ريمس ان هتافات مدوية قاطعت هذه الفقرة من خطاب اوربان الثانى : «هذه هى ارادة الرب ! هذه هى ارادة الرب !» لربما كانت هذه الهتافات مقررة سلفا ، ولكنه ليس من المستبعد انها كانت رد فعل عفويا من المستمعين المتكيفين لهذا الجو .

وخاطب البابا اوربان الثانى فى المقام الاول الفرسان المعدمين الذين تكاثروا ! : «اجل ، لا يجتذبكم ملك ما اليه ، ولا تقلقكم شؤون عائلية ما ، لان هذه الارض التى تسكنونها انما يضغط عليها من كل جانب البحر وسلاسل الجبال ، **انها ضيقة بسبب كثرتكم** (الاشارة لنا – **المؤلف**) . . . ومن هنا ينجم انكم تعضون وتلتهمون بعضكم بعضا وتخوضون الحروب وتتسببون بعضكم لبعض بكثرة من الجراح المميتة» . وقد دعا البابا الفرسان الى وقف الحروب والمذابح ، والتحرك الى فتح البلدان الشرقية : «روحوا فى الدرب المؤدى الى القبر المقدس (هكذا كانوا يسمون آنذاك طريق الحجاج الى القدس) ، انتزعوا هذه الارض من الشعب الكافر ، افتحوها لانفسكم !» . صحيح ان صراحة البابا اوربان الثانى تبدو من النظرة الاولى غريبة نوعا ما على لسان الراعى المسيحى الاعلى الذى كأنما نسى وعظ الانجيل بحب القريب ، بحب الغير ، ولكن هذه الصراحة ليست مدهشة اطلاقا ، اذا اخذنا بالحسبان ان البابا كان يعرف جيدا من يخاطبهم ومن يتعامل معهم .

لم يكن للكنيسة ان تتوقع اى خير من قطاع الطرق النبلاء ، الامر الذى اقتنع به اوربان الثانى مرة اخرى اثناء اقامته فى فرنسا . فعشية انعقاد مجمع كليرمون تقريبا ، اضطر الى الاهتمام بقضية واحد من هؤلاء الفرسان الذين يعيثون فسادا ، هو المدعو غارنيه من ترنيل ، الذى اسر الاسقف لامبر من اراس . وكان هذا الحبر الجليل فى طريقه الى كليرمون حين اختطفه فى جوار مدينة بروفن بصورة لم يكن يتوقعها فارس كان يحسب ان يتقاضى فدية كبيرة عن اسيره الثمين ، الرفيع المقام . ان تدخل البابا الذى هدد مدنس المقدسات بالحرم من الكنيسة هو وحده الذى اجبر غارنيه على التخلى عن غنيمته «بخفى حنين» ، «لوجه الله» .

وامثال هؤلاء العلوج الذين كانوا من قبل مرتزقة لقاء جزاء زهيد هم الذين قصدهم البابا اوربان الثانى فى المقام الاول فى خطابه فى كليرمون . وبالطبع ، كانت الغبطة الابدية فى الجنة السماوية لا تكفيهم ؛ فقد كانوا يتحرقون الى الدور والعقارات ، والى القطع النقدية الرنانة ، وغير ذلك من

خيرات الارض ونعمها . والشيء نفسه يصح على الاسياد المالكين الذين اخذوا يشعرون بالضيق فى ممتلكاتهم والذين كانوا يسعون الى توسيعها بأى ثمن كان . وقد توجه اوربان الثانى فى خطابه الى هؤلاء الطواغيت الاقطاعيين ايضا ناعتا اياهم بتملق وتزلف «بالمقاتلين الجبابرة وباخلاف الاجداد القهّارين» .

يزعم بعض المؤرخين الغربيين المعاصرين ان البابوية كانت تهتم ، اكثر ما تهتم ، بتنظيمها الحملة الى الشرق ، بالسلام فى اوروبا ، وانها حملت ورفعت فكرة مجردة ما ، مسيحية من حيث جوهرها واصلها ، هى فكرة السلام . اما فى الواقع ، فان مطالب الاقطاعيين الاجتماعية والسياسية المحددة تماما قد قامت فى اساس الكرز البابوى بالحرب الصليبية (المعروضة ، طبعا ، بوصفها شرطا الزاميا للتصالح والسلام فى داخل الطبقة السائدة فى الغرب) . لقد ارادت الكنيسة الكاثوليكية ان توجه الى الشرق البعيد تطلعات الفرسان المعدمين الجشعة الانانية لكى تلبى تحرقهم الى الاراضى والنهب والسلب ولكن خارج حدود اوروبا . ولذا كان من شأن الحرب الصليبية ان توطد وتوسع سلطة الكنيسة الكاثوليكية بالذات ايضا ، وليس فى الغرب فقط ، بل ايضا على حساب بلدان الشرق .

وفى هذا ، والحق يقال ، تتلخص ، من وجهة نظر البابوية ، مهمات الحملة التى اعلنت فى سهل كليرمون . وليس عبثا اكد البابا اوربان الثانى على ضرورة وقف الحروب الاقطاعية الداخلية التى تتسبب بضرر فادح للملكية العقارية الكنسية : «ليكفّ الكره بينكم ، لتصمت العداوة ، لتهدأ الحروب ، وتندثر الخصومات والنزاعات على اختلافها !» .

لقى خطاب اوربان الثانى صدى حيا ، حماسيا بين المجتمعين . وحظى برنامج الزحف على الشرق بتحبيذ الاقطاعيين .

لن نبسّط التاريخ ؛ فان الفرسان لم يبقوا عديمى الاكتراث بشعارات الزحف الدينية التى صاغها البابا . فان الاقطاعيين كانوا باغلبيتهم يتصورون الاهداف الفعلية من الحرب ، اى اهداف النهب والسلب ، ملفوفة بغطاء دينى . ان انقاذ المقدسات المسيحية كان يرمز فى مخيلة السيد مأثرة تمتزج فيها الاهداف السامية ، الدينية ، مع التطلعات الدنيوية ، العدوانية والاغتصابية المحضة . وحسب التصورات القروسطية ، لم يكن ثمة اى تناقض بالفعل فى تمازج مبادئ متنافرة على ما يبدو . ان الحرب الصليبية كانت تبدو للفرسان مواصلة للحج اى ، بتعبير آخر ، ضربا من حج مسلح . وفى هذه الحرب كان يتجسد انكار الذات من اجل الاهداف العليا ، المرتبط

بالتخلي عن الاباطيل والبهارج الارضية وعن القيم المألوفة – لاجل انقاذ الروح بنحو اكيد للغاية ، وفعل الندم والتوبة ، والتكفير عن الذنوب ، علما بان الفرسان انفسهم كانوا يتوهمون انفسهم – وبمثل هذه المصطلحات بالضبط تعرب عن وعيهم الذاتي الاخبار المدونة وغيرها من شهادات معاصريهم – «فقراء بالمسيح» يزدرون ، «حبا للمسيح» ، المصالح العملية الدنيئة . وفي الوقت نفسه كانت الحرب الصليبية تجسد مأثرة المشتركين فيها امام الرب العلي الذي يجازي ابناءه المخلصين له بالنصر ، وبالغنيمة والثروة والاراضي مع النصر ، والذي يعرب لهم عن نيته الطيبة ، ويبرهن لهم عن اختيار الرب «للاوفياء» المستعدين للتضحية من اجله ، هو السيد ، «بارواحهم» .

منذ اواخر القرن الحادي عشر ، وبخاصة منذ زمن خطاب البابا اوربان الثاني ، اخذ ينشأ ايمانَ صليبي اصيل امتلأ به الفرسان ، ايمان كان يجمع نكران الذات الديني مع الافكار عن المكافأة الارضية السخية ، التي يجازي بها الرب جهود ابنائه المحبوبين القتالية . بهذا الباعث المزدوج كان مفعما خطاب اوربان الثاني في كليرمون ، وهذا الباعث يتبدى في جميع الاخبار التاريخية وفي سائر النصوص المحفوظة منذ زمن الحرب (او الحملة) الصليبية الاولى . ان خلاص النفس والاثراء الارضي لم يكونا يتناقضان ، بل كانا يكملان احدهما الآخر . «ليكلل الثواب المزدوج اولئك الذين كانوا (من قبل) لا يرحمون انفسهم لما فيه ضرر اجسادهم وارواحهم» . هكذا قال البابا داعيا الفرسان ، النهابين وقاطعي الطرق في الامس ، الى الاستيلاء على ثروات الاعداء وارض القدس التي يسيل فيها العسل واللبن انهارا ، مانحا غفران الخطايا ، وضامنا الغبطة السماوية للمقاتلين الصليبيين المقبلين .

ان العالم الايطالي المعاصر ميكولي الذي حلل تمازج دوافع الفرسان الدينية والاغتصابية ، المرفقة بالامل في الاثراء الحقيقي ، قد وصف هذا التمازج وصفا صائبا وفكها بانه نصل ذو حدين للدين الصليبي . وكان من الاصح القول – نصل ذو حدين للايديولوجية الصليبية ، لان تصورات الصليبيين القيمية كانت ترتكز في آخر المطاف على المفاهيم المسيحية العامة ، وان محولة وفقا لظروف حروب الفتح والاغتصاب في الشرق ، على الايديولوجية المسيحية .

وهذه الايديولوجية الصليبية اي مجمل النظرات التي صاغتها الكنيسة واستوعبها المقاتلون الصليبيون تطورت تطورا تاما ، فيما يخص اهداف الحروب الصليبية ومضمونها ، في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر ، في سياق توسع الحركة الحربية الاستعمارية والاستيطانية في القسم الشرقي

من حوض البحر الابيض المتوسط تحت الرايات الدينية . وآنذاك تحولـت جميع العناصر المبرقشة المتنوعة لهذه الايديولوجيـــة الى قوالب (معايير) قيمية دقيقة يشكل مجملها الترسانة الفكرية للدعاية الكنسية لجميع الحروب الصليبية . وهنا اجتمعت فى كل واحد تصورات مختلفة . فمن جهة ، التعليم الخيالى الغريب المعتمد على «رؤيا يوحنا» وعلى كتابات آباء الكنيسة (وبينهم بصورة رئيسية اوغسطين البار) عن القدس السماوية او مدينة الرب ، التى يشكل بلوغها اسمى دعوة للمسيحى الحقيقى (علما بان القدس السماويـة تماثلت فى مخيلة الفارس الجاهل مع القدس الفعلية ، الفلسطينية) ؛ ومن جهة اخرى ، انضمت الى هذا التعليم نظرية الخدمات والافضال المقدمـــة للكنيسة والتى تؤمن رحمة الرب ، علما بان رحمـــة الرب تصرف عقابات السماء ، وتعطى ، على العكس ، الخلاص الابدى . والى هذا انضمـــت فكرة اخرى ، فكرة الاستشهاد المقدس فى القتال ضد «الكفار» بوصفه آمن وسيلة لامتزاج روح المسيحى بالرب ، وافكار كثيرة اخرى .

وهذه الايديولوجية كانت منذ بادئ بدء عاملا جبارا جدا اسبـــل رداء دينيا على تطلعات الفرسان الفعلية ، الارضية تماما . واحاطت دوافع الفتح والاغتصاب بهالة القداسة فى عيون الفرسان انفسهـــم ، وصوّرت الحرب الصليبية بصورة مشروع لخلاص النفس وللفتح والاغتصاب فى آن واحد . وكانما عرضت على الفرسان تبريرا مقنعا لاعمالهم يشكل ، حسب تعبيـــر الباحثة الكاثوليكية الاوسترالية مورين برسل ، «مزيجا» اصيلا ، فريدا (لا مرد له ، كما ترى هذه الباحثة) «من مكافاة دينية ومكافاة دنيوية» . المكافاة الاولى يمنحها البابا ، المكافاة الثانية - الاستيلاء - يصادق عليها . وتزعم هذه السيدة العالمة من راهبات القديسة آنّا ان فكرة الحرب الصليبية فى ردائها المزدوج قد اصبحت فكرة من اوفر الافكار خصبا فى تاريخ البشرية . ويقينا انه لا تمكن الموافقة على هذا التقييم ، وسنرى فيما بعد ايـة ثمار حقيقية فعلية اسفر عنها تطوير الايديولوجية الصليبية وتطبيقها . وليس فى محاكمات مورين برسل من صحيح غير قولها ان البابوية فى شخص اوربان الثانى استطاعت بالفعل ان تجد على الصعيد النفسانى طريقة للتقرب مـــن الاقطاعيين ، استطاعت ان تضرب على الاوتار التى تجعل قلوبهم تنتفضـــ وترقص ، وتحمل اولئك الذين ، كما قال البابا ، «كانوا يحاربون فى الازمنة السابقة ضد الاخوة والاقرباء» ، على امتشاق السيف وتوجيهه الى هدف يبدو مفعما بالشهامة والنبل .

ولكن خطاب اوربان الثانى النارى لم يستمع اليـــه الفرسان والاسياد

وحدهم . فقد استمع اليه كذلك اهل الريف المتضورون جوعا والمعذبون فى العبودية القنية . وكان الفلاحون الفقراء يرغبون ، اشد ما يرغبون ، فى التخلص من نير الاقطاعيين ، ولهذا السبب بالذات كانوا يحلمون بالمأثرة التكفيرية . وان البابا ، سواء شاء ام ابى ، قد اوضح لهم الآن من حيث الجوهر ، مباشرة وصراحة ، ما يجب ان يكون عليه قوام هذه المأثرة . اوليس الى مشقاتهم ألمح حين قال ان هذه الارض بالكاد تطعم الذين يحرثونها ؟ وبالوعد بخلاص «الشهداء» الابدى ، بخلاص المناضلين من اجل القضية المقدسة ، واكثر من ذلك بالشقشقات عن بلد الحكايات حيث يسيل العسل واللبن انهارا ، اهاج البابا الفلاحين الفقراء ايضا . الارض والحرية . هذا ما كان يتراءى فى خطابه للزراع والكراميسن المغبونين والمحرومين . وهذه وتلك — الارض والحرية — كانتا تبدوان لهم ممكنتى البلوغ تماما ؛ ذلك ان البابا ، سعيا منه الى التعجيل فى حملة الفرسان الذين كانت مآثرهم اللصوصية تهدد رفاهية كبار المالكين الاقطاعيين وطمأنينتهم ، قد اكد للصليبيين المقبلين ان السبيل الى القدس ليس طويلا وان بلوغ المدينة المقدسة لا يتطلب جهودا جدية ما . ولربما كان هكذا يفكر ايضا بالفعل ؛ ذلك ان التصورات عن البلدان الآسيوية فى اوروبا كانت لا تزال فى ذلك الزمن غامضة جدا ومتغيرة على العموم ؛ ولكن لربما استصغر البابا قصدا وعمدا اعباء الحملة المقبلة امام المستمعين الذين كانوا يعرفون حقيقة الامر اقل من البابا نفسه ، لادراكه ان الهلاك المحتم يتهدد الآلاف «ممن لا ارض عندهم» ومن الفلاحين الفقراء الذين يدفعونهم الآن فى درب الرب العلى .

ومهما يكن من امر ، فقد سرى مفعول خطاب البابا اوربان الثانى فى كليرمون ، متجاوزا كثيرا توقعات البابا بالذات ، وحتى غير متطابق بقدر ما ، مع مصالح المبادرين الاقطاعيين الى الحرب الصليبية . اغلب الظن ان البابا حزر احتمال مثل هذا الصدى ، والا لما طفق ينصح الناس الضعفاء ممن لا يحسنون استعمال السلاح بالبقاء فى مطارحهم ؛ فان هؤلاء الناس ، كما قال البابا ، هم عقبة كبيرة اكثر منهم عون ، وهم بالاحرى عبء ، ولن يعودوا بالنفع . ولكنه كان من المستحيل ايقاف الفقراء وردعهم .

اما الفرسان والاسياد ، فان النداء الى تحرير الارض المقدسة قد وقع بينهم فى تربة صالحة تماما . ذلك ان الاحداث السابقة قد هيأت الاقطاعيين تماما لكى يتلقفوه فى الحال ويندفعوا الى فتح البلدان فيما وراء البحار بحماسة مشتدة اسهم فى تسعير نارها كون شروط «الهدنة الربانية» ، كما قرر مجمع كليرمون ، تشمل الصليبيين الذين يعودون من الحرب ، وتشملهم

لمدة ثلاث سنوات (او حتى طوال مدة غيابهم عن الوطن) . وكان هذا يعنى ان الكنيسة تأخذ على عاتقها حماية عائلاتهم واموالهم . وهكذا كان بوسع الفرسان ان ينطلقوا دون ان يشعروا بالقلق على اهلهم واموالهم .

حملة الفقراء

نشرت الشائعة على آلاف الالسن بسرعة فى عموم الغرب بما فيه الجزر البحرية الانباء عن مجمع كليرمون وعن الحملة العتيدة الى القدس . وقد بدأت الاستعدادات فى فرنسا قبل كل شيء لانه كان يسود فيها بالذات جو مفعم كليا بالانفعال الدينى . وقد ساعد نشاط رجال الكنيسة الوعظى بقسط كبير فى تسعير نيرانه . فان البابا اوروبان الثانى قد جمع الاساقفة فى اليوم التالى من القاء خطابه وعهد اليهم بان يشنوا «بكل الروح والقوة» حملة وعظ فى كنائسهم من اجل الحرب الصليبية . وبعد فترة قصيرة ، كلف خصيصا بمثل هذه المهمة بعضا من اوسع الاساقفة ورؤساء الاديرة نفوذا ؛ بعضهم كلفهم بالوعظ فى وادى اللوار وبعضهم الآخر ، فى نورمنديا ، والخ . .

والبابا اوربان الثانى نفسه بقى فى فرنسا ، وذلك لمدة ثمانية اشهر بكاملها . وفى هذه الحقبة ، راح الى ليموج وانجيه ، والقى خطابات فى مجمعى تور ونيم ، ودعا الى الحرب الصليبية . كتب مؤرخ فرنسى : «حيثما كان ، كان يأمر فى كل مكان باعداد الصلبان وبالتوجه الى القدس لاجل تحريرها من الاتراك (اى من السلجوقيين – **المؤلف**)» . كذلك ارسل البابا رسائل بمثل هذه الدعوات الى الفلاندر والى مدينتى بولونيا وجنوه الايطاليتين .

وفضلا عن ذوى المقامات الرفيعة فى الكنيسة ، اخذ يدعو الى الحرب الصليبية وعاظ متعصبون من عداد الاخوة الرهبان ظهروا فى مختلف الاماكن ، وكذلك مجرد معتوهين شرعوا يدعون المستمعين الى القتال من اجل المقدسات المسيحية . فان الحرب الصليبية ، كما كانوا يقولون ، عمل ربانى وليست عملا انسانيا ؛ وللبرهان على ذلك كانوا يروون شتى الخرافات والسخافات – عن الرؤى النبوئية ، وعن ظهور المسيح ومريم العذراء والرسل والقديسين ، وعن العلامات السماوية التى تنبىء بمعركة المسيحيين المقبلة ضد اتباع الاسلام .

ان رئيس الدير والمؤرخ الالمانى ايكيهارد من آوور ، الذى كتب فى

اوائل القرن الثانى عشر ، اى بعد الحرب الصليبية الاولى ، والذى كان مقتنعا حقا وفعلا بان حرب القدس لم يقررها الناس بقدر ما قررتها الافضال الربانية ، وبانها قامت وفقا للتنبؤات الانجيلية ، يورد فى الفصل العاشر من مؤلفه («عن اضطهاد وتحرير وبعث كنيسة القدس المقدسة») قائمة طويلة بالعجائب التى وقعت سنة ١٠٩٦ عشية الحملة . وفى هذه القائمة الفريدة نجد سحبا حمراء دموية تسبح من الشرق الى الغرب ثم تتصادم فيما بينها ، وبقع تظهر على الشمس ، ومذنبات متطايرة بسرعة خاطفة . وانبأ احد الكهنة رعيته انه رأى فى السماء فارسين يتقاتلان . وقد انتصر ذاك الذى قاتل حاملا بيده صليبا كبيرا . وكانوا يتحدثون عن هدير المعارك المنداح فى السماء وعن مدينة سماوية تراءت لاحدهم ولم تكن بالطبع سوى القدس .

وانتشرت على نطاق واسع شهادات زعم انها سقطت من السماء واعلن فيها الرب عن عزمه على حماية فرسان الرب ، المقاتلين من اجل الرب . ويؤكد ايكيهارد من آورور انه امسك فى يديه نسخة عن هذه الرسالة السماوية (اما الاصل ، فيزعم انه كان محفوظا فى كنيسة القبر المقدس فى القدس) . وكتب رئيس الدير المؤرخ ان بعض الناس «كانوا يعرضون علامة الصليب منطبعة من تلقاء ذاتها ، بطريقة ربانية ، على جباههم او على البستهم او على جزء ما من اجسامهم» ، وانها كانت حسب رأى الجميع ، اشارة من الاله العلى بانه يجب بدء الحرب ضد الهراطقة . والظاهرات غير العادية فى الطبيعة وفى الحياة البشرية ، ايا كانت ، ومنها ، مثلا ، وضع المرأة قبل الموعد ، كانوا يعتبرونها دليلا على اقتراب احداث رهيبة .

ولئن كانت مواعظ الاساقفة ورؤساء الاديرة معدة لاجل الفرسان ولاجل الاعيان الاقطاعيين ، فان الرهبان والمعتوهين كانوا يخاطبون الناس البسطاء . ان كبار رجال الكنيسة – والواقع ان بعضهم قد اخزى نفسه فى عيون الفقراء بالطمع السافر بالمال (ولم يكن من النادر ان يشترى الاساقفة بالنقود منصبهم الرابح) – لم يكونوا يوحون للفئات الدنيا بالثقة . وكانت هذه الفئات تتصور الراعى المثالى فى صورة انسان يقلد يسوع المسيح ورسله الذين كانوا لا يملكون شيئا . ولهذا اكتسب آنذاك اكبر قدر من الشعبية بين الجماهير الراهب روبير دابريسل ولاسيما الراهب بطرس الناسك من بيكاردى ، الواعظان المتعصبان لحرب المقدسة ، اللذان خطبا فى شتاء ١٠٩٥–١٠٩٦ بصورة رئيسية فى القسم الشمالى الشرقى من فرنسا وفى اللورين ، علما بان بطرس الناسك وعظ كذلك (بعد فترة من

الوقت) فى مدن منطقة الرين فى المانيا . وهذا وذاك عملا ، حسب كل احتمال ، بموجب تكليف من اوربان الثانى .

يصور مدونو الاخبار ومن بعدهم كثيرون من المؤرخين من القرن التاسع عشر والقرن العشرين بطرس الناسك بصورة متعصب متحمس مهووس . وهو ايضا عرض رسالة تلقاها ، حسب زعمه ، من الرب يطالب فيها الكلى القدرة بتحرير القدس . وكان بطرس الناسك يروى للجموع المحتشدة حوله انه ، اثناء الحج فى القدس ، رأى فى نومه الرب بذاته ، وان الرب امره ، هو الراهب الوضيع بان يوجه اقدامه الى بطريرك القدس ، وبان يعرف منه بلايا الارض المقدسة تحت نير الكفار ، وبان يعود الى الغرب ويوقظ فيه «قلوب المؤمنين لاجل تطهير الاماكن المقدسة» . وها هو ذا الآن ، بطرس ، الذى اجتاز البحر بمصاعب كبيرة ونقل ارادة الرب الى بابا روما ، يدعو مستمعيه الى امتشاق السلاح .

من قديم الزمان اثبت الباحثون بطلان هذه الخرافات . ولكنه من المعلوم كذلك ان بطرس الناسك (او بطرس من اميان ، كما يسمونه احيانا نسبة الى مسقط رأسه) كان يتحلى بموهبة خطابية ممتازة ؛ فان خطابات هذا الراهب لم تكن تؤثر فى الشعب وحسب ، بل ايضا فى الفرسان . ان نمط حياة بطرس الناسك ، وتقشفه وزهده ، ونزاهته وعدم تغرضه (كان يمضى مرتديا اسمالا صوفية على جسم عار ، ولم يكن يأكل لا الخبز ولا اللحم ، وكان يتغذى بالسمك فقط ، وكان ملكه الوحيد بغلا) ، وكذلك توزيعاته النقدية السخية على الفقراء (لا يذكر مدونو الاخبار المصادر التى كان يستمد منها الاموال اللازمة) — كل هذا ، مرفقا بالخطابات النارية ، كان يكسبه شهرة كبيرة بين الفلاحين ؛ فكانوا يرون فيه رجل الرب وكانت الجموع تسير وراءه كانما وراء قديس او نبى . كان يستهويهم فقره وسمعته كراهب براء من كل بذخ ، ويعرف كيف يصالح بين المتجادلين والمتنازعين . ويروى غيبرت من نوجان : «كان كثيرون ينتفون الصوف من جلد بغله لكى يحفظوه كذخيرة . . . انا لا اتذكر شخصا حظى ذات يوم بمثل هذا التشريف» .

وقد فهمت الجماهير الشعبية على طريقتها الاهداف التى نادت بها البابوية من الحملة الصليبية ؛ فان برنامج الكنيسة الكاثوليكية كان يتحول فى وعى الفلاحين وفقا لمصالحهم ، المعادية من حيث الجوهر لمصالح منظمى وملهمى الحملة الصليبية الكنسيين والاقطاعيين . ومع ان بطرس الناسك ، مثله مثل الواعظين الآخرين من امثاله ، كان يطبق خطط البابا فعلا

ورسميا ، الا انه كان يعبر فى الوقت نفسه على طريقته ، والى حد ما ، عن امانى الفئات السفلى . على كل حال ، من المشكوك فيه ان يكون البابا اوربان الثانى قد فكر فى انتزاع الكادحين من اماكنهم ، اى من حيث الجوهر ، الاسهام فى فرار الاقنان من الاسياد ؛ وفى افضل الاحوال ، كان يريد ، اغلب الظن ، ان يحمل الشعب على تقديم الدعم المادى للفرسان . وحين رأى رجال الكنيسة بعد فترة وجيزة اى غليان واسع استثارته فى الفئات الدنيا ، وفى المقام الاول بين الفلاحين ، النداءات الى الحرب الصليبية ، قاموا بمحاولات لحجز الاقنان ، ولكن عبثا .

فى شتاء ١٠٩٥-١٠٩٦ اجتمعت فى فرنسا قوات مدنية غفيرة من الفقراء المستعدين للذهاب الى المناطق البعيدة .

ان افعال جماهير الفلاحين قد اشترطها العوز المدقع والرهيب الذى كانت تعانيه القرى آنذاك واشترطها اقوى بكثير مما اشترطتها المواعظ النتقية . كان الجوع يجبر الفلاحين على التسرع ، ولذا كانت تجمعاتهم تجرى فى تسرع محموم . كان الفلاحون الفقراء يتركون اكواخهم ، ويبيعون بابخس الاثمان من اى كان كل ما يمكن بيعه . يتذكر شاهد عيان : «لم يكن احد يأبه لشح المداخيل ، او يحرص على بيع البيوت والكروم والحقول باسعار مناسبة . . . كان كل يحاول بجميع الوسائل جمع مبلغ ما من النقود ، فيبيع على يبدو كل ما كان عنده ، لا حسب قيمته ، بل بالسعر الذى يعيّنه الشراة ، شرط ان لا يكون الاخير فى السير على درب الرب» . كان كل امرئ ، كما يقول مدون الاخبار هذا ، «يبيع افضل قسم من امواله بسعر زهيد ، كأنما كان فى عبودية قاسية او كان معتقلا فى السجن وكان المقصود افتداءه باسرع وقت» .

يقينا انه لم يكن بمقدور غيبرت من نوجان ان يفهم الى النهاية دوافع الفلاحين الحقيقية . وقد نشأ عنده انطباع كأن الفلاحين الفقراء كانوا يخربون قصدا وعمدا انفسهم بانفسهم : «كانوا يشترون كل شيء باسعار غالية ويبيعون باسعار بخسة . . . كانوا يشترون باسعار غالية كل ما كانوا بحاجة الى استعماله فى الطريق ويبيعون باسعار بخسة ما يجب به تغطية التكاليف» . ويؤكد مدون الاخبار انهم كانوا يتسرعون ، وهذا التعبير يصف بكل دقة مزاج الجماهير الفلاحية . وعن التسرع الاعظم الذى كان يحاول الفلاحون الفقراء النزوح به يكتب آخرون من مدونى الاخبار . كان يخيل — وكان ذلك بالفعل — ان الفلاحين يتحرقون من فارغ الصبر للذهاب الى ملاقاة الخطر .

وبديهي ان كثيرين منهم كانوا منتشيـــن بالحماسة الدينية المفرطة ؛ كان الذاهبون يصلون بفائق الحرارة ، وكان بعضهم يوسم بالنار صليبا على جسمه ؛ وكان ذلك مطابقا تماما لروح الزمن . ولكـــن فقراء الريف كانوا يسرعون قبل كل شيء لانهم كانوا لا يريدون انتظار الاسياد . كـــان الاقنان يسرعون بالاحرى للخلاص من مضايقات الاسياد ، وهذا السعي كان يخنق جميع دوافع التقى في جماهير الفلاحين .

في آذار (مارس) ١٠٩٦ نهضت اول جموع الفلاحيــن الفقراء من فرنسا الشمالية والوسطى ومن الفلاندر ولورين والمانيا (من الرين الاسفل) ثم من بلدان اخرى في اوروبا الغربية (مثلا ، من انجلترا) الى «الحـج المقدس» . كان الفلاحون يمضون بلا سلاح تقريبا . كانت الهراوات والمناجل والفؤوس والمذارى تقوم عندهم مقام الرماح والسيوف ، ناهيك بان ليس الجميع كانوا يملكون ادوات العمل الزراعي هذه . «الجموع العزلاء مـــن السلاح» . هكذا ستسميهم فيما بعد الكاتبة والمؤرخة اليونانية حنة كومنينة . ولم يكن معهم اي حصان او اية احتياطيات تقريبا . كانوا يتحركون مثل حشود غير منتظمة من النازحين ، بعضهم مشيا على الاقدام ، وآخرون على عربات من عجلتيــن تجرها ثيران منعلة ، مع نسائهم واولادهم وامتعتهم البيتية الحقيرة . كان الاقنان يبتعدون عن الاسر الاقطاعي ، عن المضايقات والمجاعة ، آملين سرا في تدبير امورهم بنحو افضل في اماكن جديدة ، في «ارض الميعاد» . وعلى الطرقات التي سبق ان طرقها الحجاج — بمحاذاة نهر الريـــن ونهر الدانوب وابعد الى الجنوب الى القسطنطينية ، كانت تمتد ارتال العربات .

كانت ثمة طريقان كبيرتان تجتازان شبه جزيرة البلقـــان وتؤديان الى عاصمة بيزنطية . كانت احداهما تبدأ في دراتش وتمر عبر اوهريد وفودينا سلانيك (تسالونيكي) وريدستو وسليمفريا . وهذه الطريق القديمة سبق ان شقت في ازمنة روما القديمة ، وكانت تسمى كما من قبل بطريـــــق اغناطيوس . وكانت الطريق الثانية تمر اولا في اراضي المجر ثم تنطلق من بلغراد وكذلك عبر ممتلكات بيزنطية في بلغاريا ؛ وبمحاذاة الطريق كانت تنتصب مدينة نيش وسرديتس (صوفيـا) وفيليبوبول وادريانوبول . وفي هذه المناطق ، كما نعرف ، لم يكن الحال هادئا بسبب من غارات قبائـــل البتشينيغ ، وكان الحجاج يمضون عادة على طريق اغناطيوس . ولكن فصائل الفلاحين الفقراء كانت تندفع بالضبط عبـــر بلغراد — نيش ، الى الجنوب الشرقي ، الى القسطنطينية .

كان يمضي عشرات الآلاف من الناس . كانت فصيلة الفلاحين من فرنسا

الشمالية الذين كان يقودهم الفارس غوتيه المعدم (Gautier Sans Avoir) تضم زهاء ١٥ الفا (كان ٥ آلاف منهم فقط مسلحين كيفما اتفق) ؛ وكانت الفصيلة برئاسة بطرس الناسك تضم زهاء ١٤ الفا . وكان ٦ آلاف فلاح يسيرون بامرة الفارس الفرنسى فولهير من اورليان . والعدد نفسه تقريبا من الفلاحين سار وراء الكاهن غوتشالك الذى ليس عبثا نعته ايكيهارد من آوورا «بالخادم الكذاب للرب» ؛ وكانت الفصيلة الانجليزية اللورينية تتألف من زهاء الفين . وجميع فئات الصليبيين هذه كانت تتصرف متشتتة ، دون تناسق . وكانت محرومة من كل انضباط وطاعة .

وآنذاك ، حاول اشد الفرسان نزعة الى القتال استغلال الحركة الفلاحية فى اهدافهم . ومن هؤلاء كان الفرسان الفرنسيون غوتيه المعدم واخوته الثلاثة وعمه (واسمه غوتيه ايضا) ، وفولهير من اورليان ، وغليوم النجار ، وفيكونت ميلان وغاتينه (قد نال لقبه بسبب قوة الضربة ؛ وقبل ذاك ببضع سنوات كان الفيكونت قد سعى وراء السعادة فى اسبانيا) ، وكلاريمبود من الفنده ، ودروغو من نيل ، وغيرهم من القادة ذوى الالقاب ولكن المفتقرين . ومع الفلاحين الذين انطلقوا من المانيا ، توجهت كذلك جملة من الفرسان المغامرين — من مقاطعات الرين وفرنكونيا وشوابيا وبافاريا . وكان منهم المدعو فولكمار ، والكونت اميخ من لينينغن ، الذى لم يكن من فئة الفقراء (فان ممتلكاته كانت تقع بين ترير وماينتس وكان على قرابة مع رئيس اساقفة ماينتس) ، ولكنه كان يتميز ببخل لا يصدق وباخلاق اللصوص وقطاع الطرق ، وهوغ توبينغن ، والكونت هارتمان فون ديلليتغن .

اراد الفرسان ان يستولوا على قيادة الشعب البسيط ، وقد افلحوا جزئيا فى ذلك . فان الفرسان القادة من طراز غليوم النجار واميخ من لينينغن كانوا يبدون اثناء الزحف اكبر قدر من الوقاحة والقساوة . وللمناسبة نقول ان هذين الاثنين قد نهبا قبل سفرهما الكنائس فى ممتلكاتهما لكى يؤمنا لنفسيهما النقود للطريق .

صحيح ان فصائل الفلاحين كانت تتخللها عناصر اقطاعية ، ولكن طابع الحركة بمجملها لم يتغير ، بل انها احتفظت حتى بسيمائها الخارجية . ان حركة الفلاحين ، العفوية منذ نشأتها ، قد جرت بدون اى تنظيم صحيح ، بدون خطة عامة . كان الفلاحون الفقراء الصليبيون يتصورون تصورا غامضا للغاية مكان الهدف النهائى من حملتهم . ويستفاد من اقوال غيبرت من نوجان ان الاولاد الصغار الذين كانوا مع الكبار فى العربات والذين كانوا

يستمعون الى احاديثهم عن المدينة المقدسة المجهولة ، كانوا كلما رأوا فى الطريق قصرا او مدينة ما ، يسألون ما اذا لم تكن هذه القدس التى يمضون اليها .

فى مقدمة فصيلة من فصائل بطرس الناسك ، كانت تسير . . . وزة وعنزة . كانتا تعتبران مفعمتين بالهناءة الربانية وتتمتعان باحترام كبير بين الفلاحين ؛ يقول ألبر من آخن انهم كانوا «يبدون» ازاءهما «علائم الاحترام التقي فوق الحد ، وكانت العساكر العظيمة ، مثل الماشية ، تسير اثرهما مؤمنة فى ذلك من صميم الروح» . كان الفلاحون يرون فى الحيوانين زعيمين للفصيلة . ان الراهب البر من آخن الذى استبد به الغضب من «الجريمة الشنيعة التى يقترفها الجمع الماشي الغبى والمتهوس» قد ادرج فى حديثه الواقعة الشهيرة التى حدثت للاوزة والعنزة . فان هذا ، بنظره هو خادم الكنيسة ، ضلال وثنى . وبالفعل ، كانت تتشابك بشكل عجيب فى تصورات الفلاحين الدينية العقائد المسيحية والعقائد السابقة للمسيحية – فقد كان احترام الحيوانات الداجنة يتعايش تماما مع الايديولوجية الكنسية الرسمية . ذلك ان الفلاحين كانوا يتفهمون هذه الايديولوجية على طريقتهم الخاصة ؛ واربما فى بقايا الوثنية على وجه الدقة كانت تنعكس بنحو اصيل وفريد وجهة زحف الفلاحين الفقراء المعادية للاقطاعية .

صحيح ان الفرسان انضموا الى جموع الفلاحين ، ولكن الاقنان انفسهم كانوا يحاولون ان يتخلصوا قدر الامكان من رفاق الطريق النبلاء . وعندما وصلت فصيلة بطرس الناسك الى كولونيا (١٢ نيسان – ابريل ١٠٩٦) تابع جمهور الفلاحين سيره بعد ثلاثة ايام ، كما يفيد مدون الاخبار اورديريك فيتالى . وبقى مع بطرس الناسك فى كولونيا زهاء ٣٠٠ فارس فرنسى لم يغادروا المدينة الا بعد مرور اسبوع على الاقامة فيها . وكان من الجلى ان الاقنان لا تطيب لهم رفقة الفرسان فى الطريق . كان يتعين عليهم احيانا ان يقبلوا المغامرين الاقطاعيين بصفة آمرين عسكريين ؛ ولكن تطلعات الفلاحين الفقراء وتطلعات الفرسان كانت من حيث جوهرها متضادة تماما .

فى الطريق سلك الصليبيون سلوك النهابين . فاثناء مرورهم فى اراضى المجريين والبلغار ، كانوا ينتزعون المأكولات بالعنف من السكان ، ويسوقون الاحصنة والبقر والغنم ويقتلون ويغتصبون ويتعسفون . كان النهب بالنسبة للفقراء الاسلوب الوحيد لتحصيل ما يأكلونه . وكان الصليبيون يواصلون النهب والسلب بعد دخولهم اواضى بيزنطية . لم يكن لدى الفلاحين نقود لكى يدفعوا ثمن المؤونة المقدمة لهم بامر الامبراطور الكسيوس كومنينوس .

ناهيك بان عددا لا يستهان به من العناصر المتفسخة طبقيا اى من المجرمين الجنائيين الذين كانوا يرون فى المشروع الصليبى مجرد وسيلة ملائمة لاجل النهب والسلب ، - كان يشترك فى زحف الفلاحين الفقراء . «ان كثيرين من شتى الاوباش قد التحقوا بالعسكر الصليبى ، لا لكى يكفروا عن الخطايا ، بل لكى يقترفوا خطايا جديدة» . هكذا يصف احد مدونى الاخبار هؤلاء الصليبيين .

ويقع قسط كبير من المسؤولية عن النهب والسلب فى اراضى المجريين والبلغار على عاتق عصابات الفرسان التى انضمت الى جموع الفلاحين .

رد المجريون والبلغار واليونانيون ردا حازما على محررى قبر السيد المسيح غير المنتظرين . فقد كانوا يبيدون الصليبيين بلا رحمة ، وينتزعون منهم الغنيمة التى استولوا عليها ، ويطاردون الباقين . وفى الاشتباكات كان الصليبيون يكابدون خسائر كبيرة . ويستفاد من شهادة البر من آخن ان فصيلة بطرس الناسك التى اضطرت الى مقاتلة عساكر بيزنطيين فى جوار مدينة نيش قد غادرت المنطقة بعد ان خسرت ربع اعضائها .

اتجه الفلاحون الفقراء الصليبيون نحو عاصمة الروم متجنبين فيليبوبول وادريانوبول . وشرعت جموع الفلاحين تصل الى العاصمة منذ اواسط تموز (يوليو) ١٠٩٦ . وكانت قد نقصت كثيرا : ذلك انه كان قد تصرم اكثر من ثلاثة اشهر منذ بداية الحملة . كانت فصيلة غوتيه المعدم اول فصيلة تقترب ، ثم بعد اسبوعين ، فى اول آب (اغسطس) ، انضمت اليها فصيلة بطرس الناسك . ان كثيرين من الفلاحين الذين كانوا يأملون فى نيل الحرية فى اراضى العرب ، لم يتسنّ لهم حتى ان يصلوا الى القسطنطينية ؛ فان الصليبيين قد خسروا فى اوروبا زهاء ٣٠ الف رجل . وكادت تهلك كليا فصائل فولكمار وغوتشالك واميخ لينينغن ، رغم ان قادتها انفسهم سلموا ووصلوا الى القسطنطينية .

ان الصليبيين الذين فسدت معنوياتهم باعمال السلب والنهب السابقة قد سلكوا فى عاصمة الامبراطورية البيزنطية ايضا سلوكا منفلتا لا ضابط له . فقد كانوا يدمرون ويحرقون القصور فى ضواحى المدينة ، ويتخاطفون صفائح الرصاص التى كانت سطوح الكنائس مصنوعة منها .

فى البدء حاولت الحكومة البيزنطية ان تبدى التمالك والصبر حيال القادمين ذوى الثياب الرثة . حتى ان الامبراطور الكسيوس كومنينوس استقبل فى قصره بطرس الناسك وفولكمار . ويروى البر من آخن فى مؤلفه «تاريخ القدس» عن هذا اللقاء كما يلى : «كان بطرس ، على صغر قامته ،

يتحلى بعقل عظيم ويتميز بالبلاغة . وقد ساقه رسل الامبراطـور وحده فقط مع فولكمار الى الامبراطور ، لكى يتاكد من صحة الشائعة التى بلغته عـــن بطرس . ووقف بطرس بثقة امام الامبراطور وحياه باسم السيـــــد يسوع المسيح وحدثه بجميع التفاصيل عن مغادرته لوطنه بدافع حبه للمسيـــح ورغبته فى زيارة قبره المقدس . كذلك ذكر البلايا التى اضطر الى تحملهـا فى وقت قصير وقال للامبراطور ان الاسياد الجبابرة ، والكونتات ، والدوقات اللامعين سيظهرون عما قريب عـــلى اثره (اى على اثر بطرس — **المؤلف**) .
ونصح الامبراطور الكسيوس الاول بدوره زعيم الصليبيين ذوى الثياب الرثة بانتظار الصليبيين الفرسان . وقال : «لا تعبروا البوسفور قبل وصول القوات الرئيسية من العساكـــر الصليبية ، فانتم قليلون للغايـــة حتى تقهروا الاتراك» . بل ان الفاسيلفس زود الفقراء ببعض الاموال لكى يمكنهم مـــن البقاء بعض الوقت فى العاصمة . ولكن عبثا !

كان الفلاحـــون يندفعون الى «ارض الميعاد» ؛ وبمـــا ان الامبراطور الكسيوس الاول قد اقتنع بان لا جدوى من محاولات الاقناع ، فقد رأى ان من الافضل التخلص باسرع وقت من الحلفاء غير المدعوين . وبعد مرور اقل من اسبوع على وصول بطرس الناســـك الى القسطنطينية ، بدأ الامبراطور ينقل الصليبيين الى الساحل الآسيوى مـــن البوسفور . وقد جمعوا جموع القادمين واسكنوهم مخيما على الساحل الجنوبى من خليج نيقوميديا ، على بعد زهاء ٣٥ ك م الى الشمال الغربى من مدينة نيقية . ومن هنا ، اخذت بعض الفصائل تقوم على عهدتها ومسؤوليتها بغارات بعيدة الى هذا الحد او ذاك وتقاتل السلجوقيين . واخذ بطرس الناسك على نفسه مهمة القيادة العامة ، ولكنه لم يكن يصلح لها البتة ؛ وقد حاول ان يوقف عساكره ، ولكن عبثا . فعاد الى القسطنطينية .

وبعد فترة وجيزة سرت فى المخيم الرئيسى اشاعة مفادها ان النورمانيين احتلوا نيقية . فهيج هذا الخبر سائر الصليبيين الذين كانوا يخافون مـــن تفويت نصيبهم من الغنيمة . واندفعوا فى الحال الى نيقية . وقبل ان يصلوا اليها ، قابلتهم العساكر السلجوقية التى استعدت فى الوقت المناســـب للاشتباك مع عساكر المسيح (هكذا يسميهم فـــى المعتاد مدونو الاخبار الاثينيون) . وفى ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٠٩٦ سحـــق السلجوقيون فصائل الصليبيين من ٢٥ الف رجل . وفى عداد مـــن سقطوا ، كان بعض القادة وبينهم غوتيه المعدم . ووقع كثيرون من الفلاحين الفقراء فى الاسر وبيعوا عبيدا . واستطاع زهاء ٣ آلاف رجل تحاشى القتل والاسر بالفرار

العاصف الى القسطنطينية . وحاول بعضهم بعد بيع امتعته هنا ان يعود الى الوطن ، وبقى الآخرون ينتظرون وصول الكونتات والدوقات اللامعين .

هكذا كانت النهاية الفاجعة لمحاولات الاقنان الفرار من سلطة الاسياد .

ان حملة الفقراء الصليبية لم تكن فى اساسها سوى عمل اصيل ، مزين برداء الدين ، اعرب به الاقنان عن احتجاجهم الاجتماعى على الاوضاع الاقطاعية . وكانت نوعا ما مواصلة لنضالات الريف الفنى السابقة ، الهامدة ، ضد الاقطاعية . وتأتى لجماهير الاقنان ان تدفع ثمنا غاليا لمحاولتها تحقيق حلمها فى التحرر باجتراح مأثرة دينية . ان الاوهام الساذجة التى غذتها الكنيسة فى جماهير الاقنان المسحوقة تحت وطأة الفقر الفكرى قد تبددت لدن اول اصطدام بالواقع الفعلى . ان الفلاحين لم يكسبوا فى الشرق الارض والحرية ، بل كسبوا هلاكهم وحسب .

بداية حرب الفرسان

بينما كان الاقنان الذين اندفعوا نحو الشرق اما قد لقوا مصرعهم واما فى الطريق الى هذه النهاية ، بدأت حرب الفرسان والاعيان الصليبية ، والاصح القول ، الحرب التى كان يعود فيها الدور الحاسم اليهم ، اذ ان جماهير الفلاحين الفقراء التى كانت تابعة للكونتات والدوقات قد اشتركت فيها .

فى آب (اغسطس) ١٠٩٦ ، تحركت طوابير كبيرة من اللورين ومن على الضفة اليمنى من نهر الرين . وكان يرأسها دوق اللورين السفلى (وقد امتلكها منذ سنة ١٠٨٧) غودفروا دى بويون الرابع (Godefroy IV de Boulogne dit de Bouillon) (بويون قصر فى جبال الاردين) . الا ان اللقب الدوقى والاصل النبيل الاريستقراطى (دوقات بولون الذين يعود اصله اليهم كانوا ينتسبون الى الكارولينجيين) لم يؤمنا له ثبات ممتلكاته ؛ فلم يكن سيدا مطلق السيادة الا فى دوقية انفرس وفى قصر بويون ، بينما القسم الباقى من اللورين السفلى كان الامبراطور الالمانى قد انعم به عليه كاقطاع . وبفتح الاراضى فى البلدان الشرقية كان غودفروا الرابع يأمل فى شغل مواقع اشد رسوخا وثباتا فى العالم الاقطاعى .

والى غودفروا دى بويّون انضم اخوه الاكبر الكونت يفستافى من بولون واخوه الاصغر بودوان (Baudouin) ، من بولون ايضا . وهذا الاخير كان من قبل من رجال الدين ، ولم يكن يملك البتة فى الوطن اية ممتلكات ، وكانت الرغبة فى كسب الممتلكات تشكل الحافز الرئيسى الذى دفعه الى

الاشتراك فى الحرب المقدسة . والى دوق دى بويون انضم كثيرون من اتباعه ، بمن فيهم بودوان له بورغ ، ابن عم غودفروا الرابع ، والكونت بودوان من اينو ، والكونت رينو من تول . وكان كل منهم يقود فصائله المسلحة . وجميع هذه القوات الفرسانية (اساسا) اتجهت نحو نقطة تجمع الصليبيين – القسطنطينية – على طريق الرين – الدانوب التى سارت عليها قبل ذلك بقليل فصائل الفلاحين الفقراء .

ان الملك المجرى كولومان – الذى مرت للتو فصائل الفلاحين فى اراضيه قائمة بالنهب والسلب – لم يوافق على منح حرية عبور اراضيه الا شرط ان يعطوه ضمانات معينة قوامها ان لا تصاب المجر باية خسارة . ولدعم هذه الضمانات كان على غودفروا الرابع ان يبقى له رهائن . تقابل كولومان والدوق على جسر فوق نهر ليتا ، ثم مرة اخرى فى القصر الملكى ؛ وبعد مهاترات طويلة ، عقدا اتفاقية . وقد تركوا بودوان دى بولون مع اقرب الناس اليه رهائن فى يد كولومان . وعندما وصلت قوات غودفروا الى بلغاريا وعبرت نهر سافا ، اعاد المجريون الرهائن . وكان ذلك فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٠٩٦ . وواصل الصليبيون من اللورين سبيلهم الى الممتلكات البيزنطية . وبدون حوادث تذكر ، وصلوا قبيل عيد الميلاد الى ضواحى القسطنطينية .

ان الاساطير من زمن اقرب الينا قد جعلت من غودفروا الرابع البطل الرئيسى فى الحرب الصليبية . وقد نسبوا اليه غيرة دينية خاصة ، وشجاعة شخصية مدهشة وكفاءات بارزة كقائد عسكرى . وان البر من آخن ، الذى يشكل مؤلفه «تاريخ القدس» مديحا لدوق اللورين ، يعتبر ان هذا السيد كان يستهدى بدوافع تقية حصرا . وعندما اعتزم السير فى درب الرب ، «كان غالبا ما يطلق الزفرات ، لان زيارة مدينة القدس المقدسة ورؤية قبر السيد يسوع قبل كل شيء كانتا اكبر رغائبه ، وغالبا ما كان يكشف مكنون قلبه لاقربائه» . واثناء الحملة بالذات ، كان تدخل غودفروا الرابع تدخلا جريئا فى المعركة العامل الحاسم فى انتصار الصليبيين . حسبه ان يظهر على صهوة حصان حتى «يطلق» السلجوقيون «الاعنة لخيولهم ويولوا الادبار بسرعة عاصفة ، بعد تأكدهم من صلابة روح الدوق ومقاتليه» . ويتمتع الدوق باحترام جميع العساكر ، وهؤلاء يمتثلون جميعهم ، كبارا وصغارا ، لصوته ونصائحه . ويشبه مدون اخبار آخر غودفروا دى بويّون – من حيث القوة ، والضراوة فى القتال ، والالهام – بالبطل هكتور من ملحمة هوميروس .

ان جميع هذه المدائح لا تتفق مع الواقع . فمعلوم ان هذا السيد التقى كان فى موطنه يقوم بدأب وانتظام بنهب الاديرة فى جوار بويّون . ولكى يعزز غودفروا الرابع سمعته ومكانته ، عمد بنصيحة امه ، قبل انطلاقه فى الحملة ، حتى الى تقديم بعض الهدايا والتبرعات الى الاديرة التى نهبها . اما المواهب العسكرية ، فلم يتميز بها . وعلى العموم ، لعب غودفروا الرابع فى المشروع كله دورا متواضعا جدا ؛ واغلب الظن ان كفاءاته المتوسطة تماما ، وميله الى الحلول الوسط فى الجدالات الحادة ، — خلاصة القول ، انتماءه الى انصار الوسط الذهبى ، — كل هذا بالذات هو الذى قدم له خدمة معينة فى ترقيه ، الذى بدأ بنجاح بعد نهاية الحملة الصليبية ، ولكن الذى سرعان ما قطع الموت المفاجىء حبله .

وكان قائدا فصائل الفرسان من ايطاليا الجنوبية وفرنسا الجنوبية الامير بوهيموند من تارنتو Bohémond de Tarente ، وريمون دى سانجيل ، كونت تولوز ، شخصيتين ابرز من غيرهما فى الحرب الصليبية .

فقد ترأس الاول الفرسان النورمانيين الايطاليين . وكان ماضى هذا الامير مرتبطا بحروب النورمانيين ضد بيزنطية . وفى اوائل الثمانينيات اشترك فى حملة والده روبر غيسكار ، وسعى الى اقتطاع ارض لنفسه فى البلقان . الا ان الروم هزموه فى سنة ١٠٨٣ فى جوار لاريسا . والآن سنحت لهذا الامير فرصة ملائمة لتحقيق نواياه المزمنة . كانت ممتلكات بوهيموند فى ايطاليا الجنوبية تافهة ؛ فلم يرث غير امارة تارنتو الصغيرة ؛ اما جميع اراضى غيسكار الاخرى ، فقد ورثها ابنه من زواجه الثانى ، روجه بورسا . وتلاحظ حنة كومنينة التى تحدثت فيما بعد عن عساكر بوهيموند انها لم تكن كثيرة لان هذا القائد كانت تنقصه النقود . ان الحملة الى الشرق التى دعا اليها البابا جاءت توفر لامير تارنتو امكانيات واسعة ؛ وكان قد سمع الكثير عن ثروات البلدان الشرقية وعن الخلافات بين حكامها ؛ فقد كان يحمل الانباء عن كل هذا تجار بارى وامالفى ، بعد عودتهم من سوريا وفلسطين . وقد اصبح تأسيس امارة مستقلة فى الشرق هدف بوهيموند الحميم . وخلافا لغودفروا دى بويون ، كان يتحلى بكفاءات عسكرية وديبلوماسية غير عادية ، وبخبرة الآمر العسكرى طوال سنوات عديدة ؛ ومنذ بادىء بدء اخذ يطبق برنامجه بصورة منهاجية وبعد تفكير عميق .

ان صاحب الاخبار «افعال الفرنجة» ، الفارس النورمانى من محيط بوهيموند ، يصور ظروف انطلاق بوهيموند فى الحملة من باب الصدفة . فاثناء حصار امالفى المنتفضة ، رأى بوهيموند قوات الفرسان الفرنسيين تمر

على غير بعد كبير عنه ، وحيـــن علم انها تمضي للقتال من اجل القبـــر المقدس ، اعلن في الحال انه هـــو ايضا يأخذ الصليب (اى يأخذ النذر باشتراكه فى الحملة الصليبية) . ومزق الامير معطفه مزقا ، وصنع منهـا صلبانا وشرع يوزعها على الراغبين . وتواجد من الراغبين عدد كاف لانه كان فى ايطاليا ، كما يقول مدون آخر للاخبار هو غوفريد مالاتير ، كثيرون مـــن الفرسان الشبان المتحرقين الى المغامرات ، الامر الطبيعى جدا فى عمرهم .

اما فى الواقع ، فان بوهيموند ، كما بينت الاحداث اللاحقة ، كان يعرف من زمان عن المشروع البابوى وقد بنى فى هذا الصدد خططا بعيدة المدى . هناك امر صحيح واحد فقط ، هو ان كثيرين من الاسياد الصغار من ايطاليا الجنوبية وصقلية قد اقتدوا به بالفعل فـــى الحال ؛ فانها لمعروفة اسماء ابنى عمه ريتشار من ساليرنو ورواينولوف وابنـــه ريشار ومحاربيـــن نورمانيين آخرين . واخذ الصليب ابن اخى بوهيموند ، المقرب منه ، تنكريد (Tancréde) ، البالغ من العمر عشرين سنة ، والذى لم تكن له حصة من الارض ، ولذا كان فارسا يتميز بنزعة حادة ، خاصة ، الى القتال ، وكان بلا ريب جريئا وباسلا (ويشبه مدون الاخبار راوول من كايّان شجاعته بشجاعة الاسد) ، ولكنه كان مغامرا جشعا ، انانيا ، شقيا ، متغطرسا ، مكـــارا ، وخاليا تماما من صفات القائد العسكرى .

وهكذا رفع الحصار عن امالفي ؛ وفى تشريـــن الاول (اكتوبر) ١٠٩٦ ، ركب مقاتلو بوهيموند من تارنتو السفن فى بارى . اجتاز النورمانيون بحر الادرياتيك ونزلوا فى ثغر افلونيه فى ابيروس . ومن هناك ، تحركوا عبر مقدونيا وتراقيا الى عاصمة بيزنطية . ولا ريـــب فى ان قائد هذا الجحفـل بوهيموند من تارنتو كان من بين جميع زعماء الصليبيين اوفرهم موهبة وذكاء وفكرا سليما ، كما كان فى الوقت نفسه اكثرهم وقاحة وصفاقة فى وسائل بلوغ الاهداف المنشودة .

وكما عند غودفروا دى بويّون ، ظهر كذلك عند بوهيموند ، مع مـــر الزمن ، متملقون فى عداد مدونى الاخبار . فان النورمانى راوول من كايان يصوره بصورة صاحب المبادرة او يكاد الى الحرب الصليبية ، ويصوره على كل حال بصورة زعيم سانده شعب بلاد الغـــال بأسرها ، وشعب ايطاليـــا بأسرها ، وفضلا عن ذلك ، شعوب اوروبا بأسرها . «ليس ثمة بلد من ذلك الجانب من جبال الالب ، من ايليريا الى المحيط ، يمتنع عن تقديم المساندة المسلحة لبوهيموند» . هذه ، بالطبع ، مبالغة شديدة . ولكن بوهيمو نـــد لعب بالفعل دورا بارزا فى احداث الحرب الصليبية .

آنذاك ، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٠٩٦ ، انطلق جيش كبير من فرنسا الجنوبية . وكان ريمون دى سانجيل ، كونت تولوز ، على رأسه . ولقد سبق ان دفعه التحرق الى الفتوحات في الثمانينيات الى الاشتراك في الريكونكيستو الاسبانية ، ولكنه منى هناك بالاخفاق (مثلما بوهيموند من تارنتو لم يبلغ شيئا في بيزنطية) . غير ان هذا الفشل اسعر حمية الكونت كثيرا . ورغم تقدمه في السن (وكان قد تجاوز الخمسين كثيرا) ، كان اول من استجاب لخطاب اوربان الثاني في كليرمون .

يصف مدون الاخبار بودرى من دول وصفا معبرا المشهد الذي جرى في كليرمون بعد خطاب البابا . فقد ظهر هناك رسل ريمون دى تولوز ، واعلنوا امام الملأ عن رغبة الكونت في الدفاع عن قضية الايمان المسيحي استجابة لنداء الكرسي الرسولي . ولكن ما قام به رسل الكونت الفرسان في كليرمون لم يكن سوى مشهدية مؤثرة ظاهرية . فان الكونت ريمون دى سانجيل ، كما يسميه في المعتاد مدونو الاخبار ، كان قد تجنّد في عداد المشتركين في الحرب الصليبية قبل زمن طويل من اعلانها رسميا . وكان ريمون الرابع يقوم بكل اعماله وتصرفاته بالاتفاق مع البابا اوربان الثاني ؛ وقد تلاقى معه ، كما نعلم ، في كاتدرائية كليرمون . وفي البدء ، كان البابا قد اعتزم حتى تعيين الكونت رئيسا للقوات الصليبية ، ولكن التخوف من اثارة استياء الاسياد الآخرين ، المفعمين بالطموح ، المشتركين في الحملة ، حال دونه ودون تحقيق عزمه .

استعد ريمون الرابع سنة بكاملها للحملة . فقد كان يحسب ان يثبت قدميه ويستقر في الشرق ، بانشاء امارة له هناك . وليس عبثا اقسم الكونت اليمين قبل انطلاقه على ان يكرس ايامه الباقية بكليتها للحرب الصليبية وعلى ان لا يعود الى الوطن . وقد اخذ معه زوجته الفيرا من كاستيليا (التي ولدت له ابنا ثانيا اثناء حصار طرابلس) وعهد بممتلكاته في فرنسا الى ابنه برتران .

سار تحت راية ريمون دى سانجيل ، كونت تولوز المئات ولربما الآلاف من الاقطاعيين المتوسطين والصغار من فرنسا الجنوبية — من بورغونيا وغاسكونيا واوفرنيه وبروفانس وغيرها من المقاطعات ، بمن فيهم بضعة اساقفة . وبين كبار الاحبار ، برز نائب البابا (القاصد الرسولي) اسقف مدينة بوى ، اديمار . فقد عهد اليه بالسهر على مصالح الكورية البابوية السياسية اثناء الحملة . ولكن خادم الرب هذا كان في الوقت ذاته محاربا محنكا . يروى مدون الاخبار ان اسقف بوى كان يرتدى خوذة الفارس ودرعه

ويتسلح باسلحته ويقاتل الاسياد المجاورين الذين يعتدون على املاك الكنيسة فى ابرشيته . وكان يجيد استعمال السلاح ، وكان ، كما يقول معاصروه ، يجيد ركوب الخيل . ولكنه لم يكن بمقدور الاسقف ان يأخذ على عاتقه واجبات القائد العسكرى للمقاتلين الصليبيين . فان اديمار ، اسقف بوى ، مثله مثل ممثلين آخرين ارسلهما البابا اوربان الثانى ايضا الى الصليبيين ، لم يقم الا بدور الرئيس الروحى للصليبيين ، وكان يؤدى بعض الوظائف التنظيمية .

تحركت قوات فرنسا الجنوبية عبر جبال الالب وبمحاذاة بحر الادرياتيك ، وتجنبت استريا ودلماسية ، ثم واصلت سيرها على طريق اغناطيوس نحو العاصمة البيزنطية .

وفى الوقت نفسه تقريبا ركب فرسان فرنسا الشمالية والوسطى خيولهم . وقبل الجميع ، انطلق هوغ فرمندوا ـ(Vermandois) الشقيق الاصغر لملك فرنسا ، فيليب الاول ، الفارس المغرور ، الذى لم يكن يملك سوى كونتية صغيرة جدا ، كانت دوطة (صداق) زوجته ، ولذا كان يسعى بمثابرة وعناد وراء السلطة والثروة . وقد جمع فصيلة غير كبيرة من اتباعه واتباع الملك ، وانطلق فى آب (اغسطس) ١٠٩٦ الى ايطاليا . وفى الطريق ، عرّج على روما ، حيث سلمه البابا راية القديس بطرس ؛ هذه الراية كان القصد منها ان ترمز الى تطلعات الكونت الدينية ، فى طريقه الى الحرب المقدسة . ومن بارى سافر بحرا الى سواحل بيزنطية . الا ان هذا المغامر المنحوس لم يحالفه الحظ منذ الخطوات الاولى بالذات ؛ فان العاصفة قد حطمت مراكبه عند سواحل الادرياتيك الشرقية ، وهلك كثيرون من الفرسان والمجدفين ؛ وهوغ ذاته ، كما تقول حنة كومنينة ، قذفته الامواج الى ساحل بجوار دراتش . وكان قد سبق للكونت الذى سمى نفسه بفخامة وبلاغة «اعظم الاحياء تحت السماء» ان اعلم من بارى الحاكم البيزنطى فى هذه المقاطعة الدوق يوحنا كومنين ، ابن اخى الامبراطور ، عن قرب وصوله . والى هنا كان قد ارسل فى الوقت المناسب بعثة من ٢٤ فارسا فرنسيا . الا ان الابلاغ المسبق كان نافلا بكل جلاء ؛ فقد قادوا «البطل» الذى منى بغرق سفنه ، برفقة حرس امبراطورى فخرى ، الى القسطنطينية ، كاسير فخرى فعلا .

بعد فترة وجيزة ، انطلقت جموع الفرسان الفرنسيين المسلحة اللجبة بقيادة روبر ، دوق نورمنديا ، وايتيان ، كونت بلوا وشارتر ، المتزوج من

4—860

اخت الدوق اديل ، وروبر ، كونت الفلاندر (ابن الحاج المذكور سابقا ، روبر الاول من فريزيا) .

كان روبر النورمندى ، الملقب «بالسراويل القصيرة» ، والابن البكــر لغليوم الفاتح ، فى احوال حرجة جدا . كان يقاتل على الدوام ضد اخيه ملك انجلترا ، غليوم الثانى الاشقر ، وكان ينازعه عبثا على حقوقه فى العرش . وكان «السراويل القصيرة» يخسر نورمنديا ذاتها . وجاءت الحملة الصليبية تخلصه من جميع المشاكل والمخاصمات ، وتعده بفتح الاراضى .

وكانت دوافع مختلفة ، دنيوية وعادية تماما ، تدفع الى الاشتراك فى الحملة الصليبية ، ايتيان ، كونت بلوا من شارتر ، الميسور جدا ، ولكن الطامح الى اكثر ، وان يكن صغير النفس للغايــة ، وكونت الفلاندر روبر الثانى . ولم ينضم الى دوق نورمنديا اتباعه الفرنسيون وحسب ، بل انضم اليه بارونات وفرسان من انجلترا واسكتلنده . كذلك التحق عدد لا يستهان به من الصليبيين بقائدين آخرين . فعند كونت الفلاندر ، مثلا ، كان زهاء الف تابع ؛ وقد اشترك كثيرون منهم فى الحملة الصليبية .

جميع هذه الجحافل الفرنسية الانجليزية عبرت جبال الالب ووصلت فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٠٩٦ الى ايطاليا حيث بقى معظمها لقضاء الشتاء . وفى لوكّا ، تقابل روبر النورمندى وروبر الثانى من الفلاندر ، وايتيان دى بلوا «وغيرهم من جماعتنا ممن ارادوا» ، كما يكتب فولهير من شارتر ، مع البابا اوربان الثانى الموجود هناك وتحدثوا معه ، ونالوا بركتــه . وقد ذكرهم البابا بانه يجب على الصليبيين ان يعملوا حسب مصالح الكنيسة . وفى ربيع السنة التالية فقط ، وليس بدون مغامرات (فى برنديزى ، عشية الابحار ، انقلبت فجأة سفينة قرب الشاطىء بالذات ، كما يروى فولهير من شارتر ، ولقى اربعمئة شخص من ذكور واناث مصرعهم) ، انطلقوا بحرا الى دراتش ، ومن هناك على طريق اغناطيوس الى القسطنطينية .

وهكذا ، بسبل مختلفة ، ولكن بدوافع واحدة تقريبا ، انطلقت فى الحملة الصليبية فصائل الفرسان والامراء ، ومعها جموع ضخمة جديدة من الفقراء الذين كانوا يأملون كما من قبل فى مصير افضل فى البلدان البعيدة .

كان الفرسان مهيئين للحملة افضل بما لا قياس له من جموع النازحين من الفلاحين التى سبقتهم . فقد تزودوا للطريق . وكثيرون رهنوا او باعوا عقاراتهم واملاكهم الاخرى . وعقد غودفروا دى بويّون صفقات مع اسقف لييج واسقف فردان ؛ فقد باعهما مقابل ٣ آلاف مارك فضى بعضا من ضيعه ، بل انه رهن عند اسقف لييج قصر بويّون السلالى ، المتوارث ابا عن جد .

والشيء نفسه فعله ريمون دى تولوز وعدد من انصاره المقبلين من الانغيدوك ببعض ممتلكاتهم . كذلك روبر ، دوق نورمنديا ، اختطف ١٠ آلاف مارك فضى من اخيه المتوج ؛ وبحثا عن هذا المبلغ ، فرض هذا الملك بدوره ضريبة استثنائية على رعاياه بالذات بمن فيهم رجال الدين ، فاعرب هؤلاء عن تذمرهم . ثم ان الاقطاعيين من مرتبة ادنى باعوا هم ايضا حقوقهم (الحقوق القضائية ، حقوق الصيد) ورهنوا الاموال غير المنقولة .

ان رهبان كلونى الذين كانوا يذمون ببلاغة وبالاقوال الجشع والطمع ، لم يكونوا ضد اكثار ثروات اديرتهم على حساب الصليبيين . كذلك حاول الاساقفة ورؤساء الاديرة فى اللورين وفرنسا الجنوبية وغير ذلك من المقاطعات ، ان لا يفوتوا الفرص السانحة ؛ فقد كان الصليبيون بحاجة الى النقود ، بينما هبطت اسعار الاموال غير المنقولة . فاشترى احبار الكنيسة بالرخص ضيع الاسياد والفرسان الذين اعتزموا الذهاب الى الحرب الصليبية . وهكذا ، كما قال المؤرخ الاميركى دانكلف ، قامت الكنيسة ببزنس جيد فى المشتريات وفى رهن ممتلكات الصليبيين لقاء النقود .

تزود الفرسان بالنقود الرنانة ، واهتموا فى الوقت نفسه بالسلاح . كانت اسلحة القوات الاقطاعية واعتدتها ارقى بكثير مما لدى الفلاحين . كان لكل فارس سيف قاطع من الفولاذ ذو حدين . واحيانا كانوا يستعملون السيف من هذا النوع للاغراض الدينية . فان العارضة التى تفصل القبضة عن الشفرة كانت تضفى على السيف شكل الصليب وكان بوسع الفارس ، بغرز السيف فى الارض ، ان يصلى امامه . كذلك كان للفارس رمح خشبى ذو سنان معدنية ، شكله فى المعتاد بشكل المعين . وكان الرمح علاوة على الغاية المباشرة منه — طعن العدو — يؤدى وظيفة معاونة ؛ فتحت السنان كان الفارس يعلق راية ذات اشرطة طويلة كانت تخيف حصان العدو اذ ترف وتخفق اثناء ركض الحصان . كذلك كان الدرع (المستدير او المستطيل) الخشبى الملبس بصفائح معدنية من ضروريات سلاح الفارس . وكان الفارس يمسكه اثناء القتال بيده اليسرى . وكان الفارس يغطى رأسه بخوذة ، وجسمه بصدرة مزرّدة (مزدوجة احيانا) او بدرع . وكان يغطى كلا من ركبتيه بواقية جلدية او يحتذى حذاء مزودا بصفائح معدنية . وكان الفارس يبدو بكامل اسلحته اشبه بقلعة متحركة على حصان . وعلاوة على الاسلحة والاعتدة كان الفرسان يأخذون معهم كلاب الصيد والاقفاص مع الصقور (لاجل الصيد فى الطريق) .

كذلك كانت البنية التنظيمية لقوات الفرسان اصح نسبيا (بالقياس الى ما كانت عليه عند الفلاحين) . ومع ذلك لم تكن البتة ، منذ بداية الحملة حتى نهايتها ، عبارة عن قوات موحدة . فلم يكن ثمة شيء يربط مختلف الفصائل بعضها ببعض . وكان كل سيد يمضي مع عصبته . ولم يكن ثمة قادة ، لا كبار ولا صغار ، معينون رسميا من قبل احد ما ، ولم تكن ثمة قيادة واحدة ، مشتركة للجميع . ولم يكن يخطر في بال احد ان يرسم خطة عامة ، مشتركة ما للحملة ، او ان يقرر على الاقل مسيرة دقيقة لاجل الفصائل . وكان قوام مختلف الوحدات المتجمعة عفويا حول اشهر الاسياد يتغير لان الفرسان كانوا غالبا ما ينتقلون من قائد الى آخر بأمل الحصول منه على هذه الفوائد او تلك .

وهذه العساكر اللصوصية المزينة بالصلبان على صدورها بدأت تنهب وتغتصب قبل ان تصل الى القسطنطينية . فان الفرسان اللورينيين قد امضوا ثمانية ايام بكاملها في اعمال النهب والسلب في تراقيا السفلى ؛ وكانت الذريعة لمقاتلي غودفروا دي بويّون النبأ القائل ان هوغ فرمندوا اسير عند الامبراطور الكسيوس . ونكل الفرسان النورمانيون التابعون لبوهيموند من تارنتو تنكيلا قاسيا بسكان ابيروس ومقدونيا وتراقيـــا . ويعترف فارس مجهول دوّن الاخبار وكان في هذه الفصيلة بانهم كانوا ينتزعون من السكان كل ما يجدونه . وبين مدينة كاستوريا ونهر فاردار ، دمر النورمانيون مدينة بكاملها ؛ فقد كان يسكنها الهراطقة في ايام بولس الرسول وكان ذلك كافيا لأبادتهم عن بكرة ابيهم .

كذلك تميز مرور صليبيي كونت تولوز عبر دلماسية باعمال لصوصية لا تقل وحشية . فان مدون اخباره كابيللانه (ومعرّفه وامينه) ريمون من اجيل ، يروي في مؤلفه «تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس» كيف ان سكان دلماسية (سلافونيا) ، «البلد الصحراوي والجبلي والخالي من الطرق ، الذي لم نر فيه طوال ثلاثة اسابيع لا وحوشا ولا طيورا» ، قد رفضوا ان يبيعوا الفرسان شيئا ما وان يعطوهم الادلة ، وانهم كانوا يفرون من القرى لدن اقتراب الفرسان ويذبحون المواشي لكي لا تقع في ايدي المقاتلين ذوي الرايات المزينة بالصلبان ، وكانوا يتخفون ، لعلمهم جيدا بالاماكن ، في المغاور الجبلية والغابات الكثيفة ، حيث «لم يكن من السهل على فرساننا المسلحين ان يطاردوا قطاع الطرق هؤلاء غير المسلحين» — هكذا ينعت مدون الاخبار من بروفانس (فرنسا الجنوبية) سكان دلماسية المسالمين .

اما في الواقع ، فان الصليبيين انفسهم كانوا بالطبع قطاع الطرق .

فقد كسب ريمون دى تولوز لنفسه سمعة مؤسفة ، مخزية فى دلماسية بوحشياته : فذات مرة (وكابيللانه يروى الحادثة وليس بدون اطراء ومديح) امر بسمل عيون ستة من الدلماسيين اسرهم الفرسان وبتر انوفهم ، وقطع ايديهم وارجلهم . وفى مدينتى روسا وريدستو فى تراقيا ، استحصل فرسان الكونت ريمون دى سانجيل ، كما يقول مدون الاخبار ذاته ريمون من اجيل ، على غنيمة هائلة . فقد هاجموا مدينة روسا مطلقين الصيحة القتالية «تولوز ا تولوز ا» واقتحموها واعملوا بسكانها قتلا وذبحا .

ان تقدم الصليبيين فى شبه جزيرة البلقان قد رافقته اعمال النهب والسلب بلا حسيب ولا رقيب . ولكن هذا لم يكن سوى البداية . فان الصليبيين سيظهرون فيما بعد بكل قباحتهم وسفالتهم ووحشيتهم .

الصليبيون فى بيزنطية

قلق الامبراطور الكسيوس الاول وحاشيتـــــه اقصى القلق من الانباء القائلة ، كما كتبت حنة كومنينة فيما بعد ، ان الغرب كله ، وجميع قبائل البرابرة ، وجحافل الفرنجة التى لا عد لها تتجه الى القسطنطينية . ان زحف هؤلاء «المخلصين» المندفعين صوب الشرق بنوايا الفتح ، كان من الممكن ان يكون فادح الخطر على بيزنطية ؛ ذلك ان عدد الصليبيين لم يكن يقل عن ١٠٠ الف . ناهيك بانه كان بينهم قادة معادون من قديم الزمان لبيزنطية ، من امثال بوهيموند وانصاره ، وكانوا ، كما قالت حنة المذكورة اعلاه ، يتحرقون من قديم الزمان للاستيلاء على امبراطورية الروم . ان الكاتبـــة البيزنطية تتخذ موقفا احادى الجانب ، اذ افترضت — وغنى عن البيان ان هذا الرأى كان واسع الانتشار فى الاوساط الحكومية البيزنطية ايضا — ان «الكونتات وبخاصة بوهيموند كانوا يكنون عدواة قديمة للامبراطور وكانوا يترصدون الفرصة السانحة وحسب للانتقام منه لذلك النصر الباهر الذى احرزه على بوهيموند الذى تقاتل معه فى جوار لاريسا» (سنة ١٠٨٣) . وتعتبر حنة كومنينة خطأ انهم «كانوا يحلمون فى النوم كيف يستولون على العاصمة» .

اما فى الواقع ، فقد كان للصليبيين هدف آخر . ولكن ظهورهم ضمن حدود الامبراطورية اثار قلقا مشروعا فى اوساطها الحاكمة ، وقابل الامبراطور الكسيوس الاول الصليبيين بالحذر وعدم الثقة . واتخذ التدابير لاجل تجنيب الممتلكات البيزنطية التى تمر بها جموع الفرسان المسلحة انفلات اللاتينيين

قدر الامكان . فصدر الامر الى فصائل قبائل البتشينيغ العاملة فى خدمة الامبراطورية ، كما تفيد حنة كومنينة ، بان «تتبع وتراقب البرابرة ، وتطلق النار على فصائلهم وتطردها اذا ما شرعت تهاجم وتنهب الاراضى المجاورة» . وهذا الامر جرى تنفيذه بكل دقة ، الامر الذى يحكى عنه مدونو الاخبار اللاتين بامتعاض .

الا ان الامبراطور الكسيوس الاول ، رغم خوفه من المقاتلين الصليبيين ورغم اقامته مختلف العراقيل فى طريقهم ، لم يكن ضد استغلال قوات القادمين من الغرب فى مصلحة بيزنطية . فقرر ان يستميل زعماءهم الى حلف يمين التبعية الاقطاعية له عن جميع الاراضى التى سيستولى عليها الصليبيون والتى خسرتها بيزنطية من قبل نتيجة لنجاحات السلجوقيين وسائر الشعوب الشرقية : اى آسيا الصغرى وسوريا ولبنان وفلسطين . ولكى يجعل الفاسيليفس زعماء الفرسان اسهل للانقياد ، بدأ (حتى عندما كان الصليبيون لا يزالون يعيثون فسادا فى البلقان) يسدد اليهم ضربات محسوسة بوساطة خيالة البتشينيغ . وقد هزم البيزنطيون فى جوار ويدستو بضعا من فصائل ريمون دى تولوز ؛ وقد فر الصليبيون من ساحة الوغى رامين السلاح والحمولة .

وفى الوقت نفسه ، بدأت الديبلوماسية البيزنطية تعمل بكل مهارتها وفنها ؛ وكان البيزنطيون اساطينها الذين لا يضاهيهم احد . فقد ارسل الامبراطور الى لقاء فصائل الصليبيين موظفيه ، وامرهم ، كما كتبت حنة كومنينة ، بان «يقابلوا بمودة الذين عبروا البحر (بحر الادرياتيك — **المؤلف**) ويضعوا فى طريقهم وفرة من احتياطيات المؤن» . وعندما قذفت العاصفة البحرية فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٠٩٦ الى الساحل هوغ فرمندوا ونقلوه الى القسطنطينية ، «استقبله» الكسيوس الاول ، كما تروى ابنته ، «باجلال واعرب له بجميع الوسائل عن عطفه ، واعطاه الكثير من المال ، واقنعه فى الحال بان يصبح تابعا له ، ويقسم له اليمين العادية عند اللاتين» . وبذلك تحقق ضرب من سابقة .

ولكن فرض علاقات التبعية على سائر قادة الصليبيين كان مع ذلك اصعب . فعندما اقتربت فصائل غودفروا دى بويون من اللورين ومن المانيا فى ٢٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٠٩٦ من القسطنطينية ، واقامت معسكرا لها فى جوار مدخل خليج القرن الذهبى ، نشأ وضع نزاعى حاد . فقد تهرب الكونت من حلف اليمين التبعية الاقطاعية للامبراطور البيزنطى رغم ان هوغ فرمندوا

نفسه استماله الى ذلك باسم الامبراطور . آنذاك ، طرح الكسيوس الاول الملابسات الديبلوماسية جانبا ، وطوق معسكر غودفروا بخيالة البتشينيغ .

في ٢ نيسان (ابريل) ١٠٩٧ ، وقــع اشتباك بين فصائل الامبراطور وفرسان اللورين ؛ فقد انهال عليهــم قواسو الكسيوس الاول من اسوار القسطنطينية بوابل من الاسهم . صحيح ان الامبراطور ، كمـــا تزعم حنة كومنينة ، امر «التصويب خطأ بصورة رئيسيــــة» ، لاجل تخويف اللاتين وحسب ، ولكن معركة حقيقية نشبت ، وليس البتة صورة عنها ، كما يتبين من وصف حنة كومنينة نفسها للاحداث : «دارت رحى معركة ضارية ورهيبة ؛ فبعناد قاتل الفرسان خارج المدينة وقاتل الذين وقفوا على الاسوار . وزج الامبراطور في المعركة بقواتــه الخاصة (حرسه الشخصي — **المؤلف**) وحمل كتائب اللاتين على الفرار» .

مني الصليبيون بهزيمة شنعاء ، فاضطر غودفروا دي بويون الى التراجع والتنازل : «عندما جاء اليه (الى الفاسيلفس — **المؤلف**) ، حلف اليمين التي طلبها منه» . ويستفاد من شهادة البر من آخرن ان الكسيوس مضى حتى الى تبني تابعه الاقطاعي الجديد ، وفقا للعادات البيزنطية . وخصصوا له الكثير من الاموال ، واقامــوا على شرفه المآدب الفاخرة ثم نقلــوه بتسرع عبر البوسفور . ومن جديد صدر الامر بتأمين الوفرة من شتى المؤن للصليبيين الذين انطلقوا من خلقيدون في الطريق الى نيقوميديا ونصبوا مخيمهم فيما بعد في بيليكان .

كان للتسرع في عبور البوسفور اسبابه ؛ فان الكسيوس لم يشأ ان يسلم باقامة جميع فصائل الصليبيين في آن واحد بجوار القسطنطينية ، اي باقامة تجمعات المقاتلين البرابرة الذين كانوا يهددون باحباط مشاريعه . وقد تخوف الامبراطور على الاخص من قوات عدو بيزنطيــة المزمن ، قائد النورمانيين الايطاليين الصقليين بوهيموند من تارنتو ، — وكانت هذه القوات تقترب من العاصمة . ولكن بوهيموند بالذات ، في الأونة الاولى على الاقل ، هو الذي تسبب للامبراطور باقل عدد من المشاكل والهموم . فقد وصلت فصائله الى القسطنطينية في ٩ نيسان (ابريل) ١٠٩٧ ، وبما انه «فهــم وضعه» ، كما تقول حنة كومنينة ، فقد وافق بدون تردد ودون مماطلة على ان يصبح من اتباع الكسيوس الاول .

وبديهي ان الامبراطور اضطر كذلك الى التنازل عن شيء ما ؛ فمع عدو غدار من طراز بوهيموند كان ينبغي التصرف باحتراس وبعد النظر . ان مدون الاخبار النورماني الذي اطرى مآثر بوهيموند في الحملة الصليبية ، قد كتب

فيما بعد ان بطله اخذ الصليب بدوافع الروح الدينية لاعتبار الحملة على الشرق «حربا مقدسة» . اما الامبراطور الكسيوس كومينوس ، وهو ابعد نظرا ، فقد حكم على نوايا القائد النورماني حكما اصح من حكم مداحيه الغربيين ؛ فاثناء المفاوضات بشأن يمين التبعية الاقطاعية ، وعد ، كما يعترف مدون الاخبار نفسه ، بان يمنح بوهيموند ارضا على مقربة من انطاكية «طولها ١٥ يوما مشيا وعرضها ٨ ايام» . ان هذا الوعد قد طاب بقدر ما للقائد النورماني ، الذي كان ، كما يكتب ريمون من اجيل ، «يتحرق بدافع الغرور والطموح الى ان يصبح امير مدينة انطاكية» ، رغم انه كان يطمع في اكثر . وسعى بوهيموند الى نيل لقب «دومستيك الشرق الاعظم» اي بالفعل لقب آمر جميع القوات المسلحة البيزنطية في آسيا ولكن طلبه قوبل بالرفض .

ومهما يكن من امر ، فقد عقدت الصفقة . ولكن الباحث النورماني عن الغنائم لم يعلق اية اهمية على يمينه ، رغم انه اغدق بالتأكيدات الودية («جئت اليك كصديق لجلالتك») . الا ان الكسيوس الاول ، مع اغداقه الوعود والنعامه على بوهيموند بالجواهر ، احتفظ باليقظة والريبة حيال التابع الجديد ، ولم يعتزم — كما بينت الاحداث اللاحقة — ان يأخذ على محمل الجد التعهدات الناجمة بالنسبة له من وضعه كملك سيد .

في اواخر نيسان (ابريل) انتقلت قوات امير تارنتو ايضا الى آسيا الصغرى .

في هذه الاثناء ، ظهرت في جوار ريدستو فصائل مهيبة بقيادة ريمون دي تولوز . كذلك اخذت تقترب من القسطنطينية فصائل اخرى من الفرسان . واحتشدت عند اسوار العاصمة قوات كبيرة جدا من الحجاج المسلحين . وعاشت المدينة اياما حافلة بالقلق . الا ان الكسيوس الاول ، والحق يقال ، حرص على ان لا يغمر «مخلصو قبر السيد المسيح» العاصمة . فلم يسمح لهم بدخول المدينة الا زمرا صغيرة . ولكن تدابير الاحتراز هذه كانت قليلة الفعالية . فلم يكن من النادر ان تقع في الشوارع مصادمات بين الروم والصليبيين . وقد بدا الفرسان للاريستقراطية البيزنطية متوحشين ، وكأن القادمين حاولوا بسلوكهم ان يؤكدوا هذه السمعة ؛ كانوا يتصرفون تصرفا فظا ، متحديا ، صلفا . فاثناء حفل استقبال في القصر الامبراطوري ، مثلا ، جلس احد اصحاب الالقاب الجهلاء الغربيين على عرش الفاسيلفس . وكان الصليبيون ينهبون ضواحي القسطنطينية ، وينتزعون من الروم المؤن . وما كانت تقدمه السلطات كان قليلا لسد نهم حشود الصليبيين الذين كانوا لا

يميلون الى الانهماك فى الركوع والصلوات فى الكنائس وحسب ، بل كانوا ايضا يتحرقون الى جميع ثروات المدينة العظيمة . لقد احدثت هذه المدينة فى نفوسهم انطباعا قويا ؛ وليس من قبيل الصدفة ترك مدون الاخبار فولهير من شارتر الذى اشترك فى الحملة وزار القسطنطينية وصفا عنها حافلا بالتفاصيل الواقعية . وهذا الراعى التقى لا يكل من الاعجاب ومن تعداد الهبات التى نالها الفرسان من الملك البيزنطى الذى اعطاهم «وفرة من كنوزه — الالبسة الحريرية والخيول والنقود» .

كان الامبراطور ، مع تملقه البعض ، ومع اغداقه الوعود والهدايا على البعض الآخر ، ومع اخفائه مخاوفه بمهارة ، يسير بثبات على خطه ؛ فقد طلب من رؤساء الصليبيين ان يقسموا اليمين بان يعيدوا الى بيزنطية جميع المدن والاراضى التى يفلحون فى استرجاعها من السلجوقيين . ولكن ليس فى الحال وافق الكثيرون على الاستجابة لهذا الطلب . ورفض ريمون دى تولوز قطعا ان يحلف يمين التبعية الاقطاعية ، معلنا انه اخذ الصليب لا لكى يصبح هو نفسه سيدا ولا لكى يحارب من اجل احد غير الرب وحده ؛ فمن اجل الرب ، ترك اراضيه وثرواته . واضطر بوهيموند من تارنتو الى اقناع البروفنسى العاصى الذى لم يكن يتحلى بالمرونة النورمانية . ومع محاولة اقناع ريمون الرابع ، ومع استشفافه فيه منافسا (ذلك ان كونت تولوز كان يجهد لكى يصبح الآمر الاعلى لعموم القوات الصليبية) ، كان بوهيموند نفسه يأمل فى كسب ثقة الامبراطور . ولكن محاولات الاقناع اخفقت .

واذ ذاك حاول الكسيوس الاول ان يلقن ريمون درسا بالقوة ، باللجوء الى الاسلوب الذى عاد عليه بالثمار المنشودة اثناء المفاوضات مع غودفروا دى بويون . ولكن عبثا ! فان كونت تولوز — وكان ، حسب تعبير احد المؤرخين ، تقيا ورعا مثل الراهب ، وطماعا وبخيلا مثل النورمانى ، — كان يتخوف من ان يحرمه يمينه للامبراطور الاراضى التى كان الاستيلاء عليها هدفه الحميم .

وفى آخر الامر ، وافق ريمون الرابع فى ٢٦ نيسان (ابريل) ١٠٩٧ على تعهد مائع فقط ، قوامه ان لا يتسبب بضرر للامبراطور وحياته وشرفه . كان هذا اشبه بيمين التبعية الاقطاعية ، لا اكثر . ومع ذلك ارضت هذه اليمين المصطنعة الامبراطور الكسيوس الاول . وسرعان ما تقارب الامبراطور وكونت تولوز بوثوق ؛ فان عدواتهما المشتركة لبوهيموند من تارنتو كانت التربة لهذا التقارب .

فى الآونة الاولى ابدى تنكريد ، ابن اخى بوهيموند العناد والتشبث .

ولكى يتجنب حلف يمين التبعية الاقطاعية ، غير لباسه ، وغادر القسطنطينية ليلا مع فريق من الفرسان وعجل فى عبور المضيق . ويقول راوول من كايان ان هذا الفارس المغامر تأسف اقصى الاسف لكون بوهيموند قد اقسم يمين التبعية والولاء للامبراطور البيزنطى ؛ لان الامير «مضى لكى يحكم فوجد نيراً . راح لكى يرتفع ولكنه ساعد فى رفع غيره بينما انحط هو نفسه» . وكان تنكريد يعتقد ان ممتلكات الروم السابقة فى الشرق ، المتواجدة حاليا تحت حكم السلجوقيين ، يجب ان تنتقل الى الصليبيين . وبما ان الروم فقدوا هذه الممتلكات بتسليمها للسلجوقيين ، فلا داعى ، بعد تثبيت الدين المسيحى هناك الى اعادة هذه الاراضى الى حماة بمثل هذا الضعف . لا يمكن ان يؤمن الدفاع عنها غير الفرنجة . ان اعادة المدن والقلاع الى الروم تعنى اعادتها الى الاتراك . تلك كانت وجهة نظر تنكريد .

وفى آخر المطاف كانت الغلبة لاحابيل البيزنطيين الديبلوماسية على عناد القادة الصليبيين وجشعهم . فقد غدوا جميعهـــم تقريبا اتباعا للامبراطور الكسيوس الاول . وفى هذا المجال لعبت بالطبع دورها حيل الديبلوماسى المحنك – الفاسيلفس . فان ايتيان دى بلوا كتب باعجاب غير متصنـــع بسخائه ولباقته الى زوجته اديل عن اقامة الفرسان فى القسطنطينية : ان الامبراطور «يهدى امراءنا بفائق السخاء ، ويخفف وضع الفرسان بالعطايا ، يطعم الفقراء بالتوزيعات . ان والدك ، يا حبيبتى (غليوم الفاتح – **المؤلف**) قد وزع الكثير وعلى الكثيرين ، ولكن من المشكوك فيه ان يكون وزع بالقدر ذاته» . ولكن امرا آخر كان يتسم باهمية كبيرة ، فقد اضطر الفرسان الى الاقدام على مساومة ، لانه كان واضحا لابعد قادتهم نظرا ان نجاح الحرب ضد السلجوقيين يتوقف بقدر لا يستهان به على العلاقات بين الصليبيين وبين بيزنطية الباقية فى مؤخرتهم . وغنى عن البيان ان اتباع الفاسيلفس الجدد ، اذ كانوا يتذكرون الاوضاع السائدة فى اوطانهم ، قد فهموا باغلبيتهم امرا آخر هو ان النسبة الفعلية بين القوى ، وليس الشكليات الحقوقية ، هى العامل الحاسم الذى يقرر مصير الفتوحات المقبلة .

معركة نيقية

فى نيسان وايـــار (ابريل ومايو) ١٠٩٧ ، نقلت فصائل الفرسان الى آسيا الصغرى .

دارت رحى المعركة الاولى ضد السلجوقيين من اجل نيقيـــة ، عاصمة

السلطان الرومي قلج ارسلان ابن سليمان . وكان الاستيلاء عليها شرطا ضروريا لتقدم الصليبيين لاحقا بنجاح عبر منطقة الاناضول ، التى كانت الطريق العسكرية اليها تمر بهذه المدينة . كذلك كان الاستيلاء على نيقية مهما بالنسبة لبيزنطية ايضا ؛ فان مخمس الاسوار الجبارة فى نيقية مع ابراجها الـ٣٠٠ كان عبارة عن استحكام قوى كان من الممكن ان يشكل ، فيما اذا خسره السلجوقيون ، حماية مأمونة للقسطنطينية من اية اعتداءات من جانبهم .

غادرت جحافل الفرسان بيليكان ونيقوميديا ، واقتربت الواحد تلو الآخر فى ٦ ايار (مايو) ١٠٩٧ من نيقية وشرعت تحاصرها . سدت فصائل غودفروا دى بويون منافذ المدينة من الشمال ، وسد نورمانيو تنكريد (وسرعان ما انضم اليه بوهيموند مسرعا من القسطنطينية) ، منافذ المدينة من الشرق ، وسد كونت تولوز الذى وصل فى ١٦ ايار مع رجاله من بروفانس منافذ المدينة من الجنوب . لم يكن تطويق المدينة كاملا ؛ فقد بقى قسمها الجنوبى الغربى حرا ؛ ومن هنا كانت تمتد بحيرة الى نيقية ؛ وعلى الماء لم يكن ثمة شىء يقطع الطريق الى المدينة .

آنذاك ، كما يروى المؤرخ الارمنى متى الرهاوى ، كان السلطان قلج ارسلان ابن سليمان يحارب امير قبدوقية حسن دانشمند من اجل مدينة مَلَطية . وقد بوغت السلطان بنبأ محاصرة الصليبيين لمدينة نيقية ؛ فآملا فى مناعة اسوارها ، ترك فى المدينة عائلته وقسما كبيرا من الخزانة . وكان من المستحيل نقل الجيش فى الاتجاه المعاكس من ملطية الى نيقية فى وقت قصير . ومع ذلك ، وقع قلج ارسلان الصلح بسرعة مع حسن دانشمند واسرع الى الغرب .

فى ٢١ ايار وصل السلجوقيون الى مشارف المدينة من الجنوب ؛ ودون ان يتوقفوا ، انقضوا على مواقع البروفانسيين القتالية هناك . فهبت فصائل اللورين الى نجدة البروفانسيين . استمر القتال يوما بكامله . ولحقت خسائر كبيرة بالصليبيين (نحو ثلاثة آلاف رجل !) وخسائر اكبر بالسلجوقيين ؛ وقد اضطر هؤلاء الى التراجع . وادرك قلج ارسلان انه لا جدوى من مواصلة بذل الجهود ، فسحب قواته الى الجبال وترك المدينة للقدر . وابلغ حماة نيقية بان يتصرفوا مستقبلا كما يرون مناسبا .

هلل الصليبيون رغم ان اسوارا رهيبة كانت لا تزال تنتصب امامهم ورغم ان حامية نيقية كانت تصمد بصلابة . وقد تلقت الحامية مددا عبر البحيرة . ومع ذلك ، كان النصر يبدو قريبا . وتروى حنة كومنينة ان السلت (هكذا

تسمى اللاتين احيانا – **المؤلف**) ، «كانوا يعودون (من ساحة الوغى – **المؤلف**) غارزين رؤوس الاعداء بالرماح وحامليها مثل الرايات لكي يراها الاعداء (السلجوقيون – **المؤلف**) من بعيد ويخافوا من هذه البداية ويقلعوا عن العناد في القتال» . ولكن هذه المظاهر المرعبة لم تسفر عن اية نتيجة . واذ ذاك حاول ريمون دى تولوز ان يحفر نفقا تحت احد الابراج بواسطة اساطين شؤون الحصار ، محطمي الاسوار وغيرهم ممن يستطيعون ان يصدعوا الابراج من اسسها بواسطة الادوات الحديدية . وهذه المحاولة ايضا لم تتكلل بالنجاح .

واخيرا في ١٩ حزيران (يونيو) ١٠٩٧ ، شن الصليبيون هجمة مشتركة عامة . وكانت قد انضمت الى الفرسان قوات بيزنطية بقيادة الدوق مانوئيل فوتوميت ؛ فقد ارسل الامبراطور الكسيوس الاول بضع سفن (نقلوها على العربات من نيقوميديا وانزلوها في البحيرة) لاجل قطع حامية نيقية من الجنوب الغربي . كذلك ارسل قوات برية . وقد فعل الامبراطور ذلك بالحاح من الصليبيين انفسهم ، وكذلك ، على الاغلب ، سعيا منه الى بلوغ اهدافه بالذات ، مع تقديم المساعدة لهم .

انتهت المعركة بصورة لم يكن يتوقعها الصليبيون انفسهم . ففي اوج الهجوم ، عندما اخذ الفرسان ، كما تروي حنة كومنينة ، يتسلقون الاسوار ، سمح لوحدات الروم ، لما فيه دهشة المهاجمين ، بدخول المدينة ؛ وفي الحال سدت الابواب امام الصليبيين . وعلى ابراج نيقية ، خفقت الرايات البيزنطية ، و«حيا» فوتوميت «الملك باصوات الابواق والاصوار» . ولم يكن الصليبيون على علم باللعبة المزدوجة التي لعبها الامبراطور الكسيوس كومنينوس . فقد كان الامبراطور يدرك جيدا قيمة تعهدات زعمائهم التبعية ، وكان يعتقد ، وليس بدون مبرر ، ان الصليبيين ، ما ان يستولوا على المدينة ، حتى يمتنعوا عن تنفيذ شروط المعاهدة مع بيزنطية ، فاجرى مفاوضات من وراء ظهورهم مع قيادة الحامية السلجوقية . وقد وافق السلجوقيون على تسليم المدينة للبيزنطيين . ناهيك بانهم كانوا قد تلقوا تعليمات مناسبة من قلج ارسلان .

وهكذا استولى الروم – من وجهة نظر الفرسان – على نيقية بالغدر . وقد تبددت توقعات الصليبيين ؛ فقد كانوا يأملون في غنيمة كبيرة وكذلك في فدية عن السلجوقيين المأسورين . وعوضا عن ذلك تفضل فوتوميت وسمح لهم بدخول المدينة (لكي يصلوا في الكنائس) جماعات كل جماعة من عشرة اشخاص . فقد كان ، على حد قول حنة كومنينة ، يعرف جيدا اخلاق

السلت . وكانت قوات الروم تحمى المدينة . واشد مـــا اهان الصليبيين واغضبهم ، ان عائلة قلـــج ارسلان والاعيـــان السلجوقيين سيقوا الى القسطنطينية ، وانه سرعان ما اطلق سراحهـــم للالتحاق بالسلطان قلج ارسلان .

وقد توقع الامبراطور الكسيـوس كومنينوس استياء اتباعه الغربيين وتذمرهم ، فاتخذ التدابير اللازمة لتهدئتهم ؛ فتعويضا عن الخسائر التى لحقت بهم ، اعطاهم الكمية الزهيدة من الفضة والذهب التى استولى عليها الروم فى خزينة السلطان . ان الاستيلاء على نيقية كان يساوى تقاسم شيء ما مع البرابرة اللاتين . كتب كونت دى بلوا الى زوجته : «جميع الاشياء النفيســة مثل الذهب والالماس والفضة والالبسة والخيول وما شابه كانت من نصيب الفرسان ؛ اما المأكولات فمن نصيب المشـــاة . وعلاوة على ذلك ، وعد (الكسيوس الاول — **المؤلف**) باعطاء الامراء من الكنز» . وللمناسبة نقول ان الفاسيلفس طلب فى بيليكان حيث اجتمع قادة الصليبيين حلف يمين التبعية الاقطاعية من جميع الذين لم يحلفوها بعد . وهنـــــا فقط استطاع بوهيموند ، مثلا ، ان يحمل تنكريد على ان يصبح تابعا للامبراطور . فان شهامة الكسيوس كومنينوس ازاء السلجوقيين ، وازدواجية سياسته قوضتا ثقة الصليبيين فى حليفهم . ومذ ذاك طفقـــوا يعتبرونه خائنا للقضيـــة المسيحية .

ان معركة نيقية قد كانت فى تاريخ الحروب الصليبية المعركة الوحيدة التى انتهت وفقا لخطط بيزنطية . واستغلالا للنصر فى نيقية حاول الامبراطور الكسيوس الاول ان يعزز سلطتـــه قبل كـــل شيء فى الاراضى المجاورة للقسطنطينية . وبقدر ما كان الصليبيون يتوغلون فى الشرق وبقدر ما كانت الاوساط الحاكمة فى الامبراطوريـــة تفكر اقل فاقـــل فى تقديـــم العون للصليبيين ، بقدر ما كانت تتقلص امكانيـــات تحقيق خطط الفاسيلفس الواسعة المرتبطة بالحملة الصليبية . وبعد الاستيلاء على نيقية ، سحب قسم كبير من قوات الروم المسلحـــة الى العاصمـــة ؛ ووراء ستار الصليبيين المندفعين الى الامام ، شرع الكسيوس الاول يستعيد الاراضى البيزنطية على الساحل الغربى والساحل الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ومن بينها فى المقام الاول مقاطعة امارة ازمير (سميرنا) . ولم يبق مع الصليبيين سوى فصيلة مسلحة صغيرة من الروم بقيادة البريميكير (لقب عسكرى بيزنطى) الاعظم تتيكيوس .

عبور آسيا الصغرى

في ٢٦ حزيران (يونيو) ١٠٩٧ ، اتجه الصليبيون من نيقية في جيشين (احدهما اثر الآخر على مسافة يوم واحد تقريبـــا من السير) نحو الجنوب الشرقي . وبدا زحف حافل بالمشقات والمصائب والحرمانات عبر المناطق الداخلية من آسيا الصغرى . ناهيك بان الخطر المشترك حمل قلج ارسلان على التصالح وحتى على الاتحاد مع الذين كانوا اعداءه منذ وقت غير بعيد — أمراء قبدوقية . وفي ٣٠ حزيران رابطت القوات السلجوقية في وادي نهر غير بعيد عن ضورليوم (دوريله) ، بانتظار العدو .

في اول تموز (يوليو) اشتبكت قوات السلجوقيين المتحدة التي شغلت ليلا مواقع على التلال المجاورة ، مع الصليبيين . فقد هاجمت مخيمهـم في الصباح الباكر ، منقضة على الوحدات الامامية التي يقودها بوهيموند من تارنتو وروبر السراويل القصيرة . وانهال السلجوقيون على الصليبيين بوابل من الاسهم من جميع الجوانب . صد بوهيموند الهجوم . واخذت المعركة تكتسب طابعا اقسى فاقسى . ونحو منتصف النهـــار ، وصلت طليعة القسم الثاني من جيش الفرسان ، السائر في الاثر ؛ وكان برئاسة ريمون دي تولوز ، الذي ارسلوا اليه منذ الصباح ، ما ان نشب القتال ، رسولا ينبئه بالخطر الذي يتهدد النورمانيين والفرنسيين . وكان الدوق غودفروا دي بويـــون والكونت هوغ فرمندوا يأمران الطليعة التي اسرعت الى النجدة . وفي الحال ، دخلت المعركة . وبعد فترة وجيزة وصلت بقية القوات ؛ والى مقاتلي بوهيموند انضم البروفانسيون . وهكذا صار التفوق في العدد الى جانب الصليبيين . واستطاعوا ان يزحزحوا العدو كثيرا . وتبين ان السلجوقيين الواثقين في الهجوم لم يكونوا مستعدين للدفاع .

وقد اثرت الاعمال التي قامت بمبادرة من اديمار دي بوي ، نائب البابا ، تاثيرا لا يستهان به في مآل المعركة . فقد تسلح هذا الاسقف بدبوس وانقض على رأس فصيلـــة كبيرة من البروفانسيين ، بصورة مفاجئة (حتى للزعماء الصليبيين الذين لم يتمكن من التشاور معهم) على السلجوقيين من المؤخرة . واذا السلجوقيون ، وقد اشتد عليهم الضغط من جانبين ، يولون الادبار بخوف وذعر ، بل انهم تركوا كل المعدات وحتى خيام السلطان والامراء مع الاشياء النفيسة المتواجدة فيها . وفيما بعد كتب مؤلف «افعال الفرنجة» بشعور من الرضى والسرور : «واخذنا غنيمة كبيرة — الذهب والفضة والخيول والحمير والجمال والغنم والثيران واشياء كثيرة اخرى» .

وهكذا منى السلجوقيون فى جوار ضوروليوم بهزيمة ماحقة ، قررت من حيث جوهر الامر سير الحرب لاحقا فى آسيا الصغرى . وامام الصليبيين انفتح الطريق الى سوريا . وللمناسبة نقول ان هزيمة السلجوقيين قد ضمنت سلامة بيزنطية وامنها لزمن طويل .

وبعد ان استراح الصليبيون يومين ، انطلقوا فى ٣ تموز (يوليو) ، دون ان يبعثروا قواتهم ، الى ابعد ، نحو قونية ثم اتجهوا جنوبا نحو هرقلة . وبصعوبة كبرى ، تم عبور الانحاء الجبلية ، الصحراوية ، الفارغة ، غير الآهلة احيانا ، فى قيظ تموز اللهاب . وقد اضنى القيظ الصليبيين . وكان السلجوقيون يعيقون بجميع الوسائل تقدمهم ؛ كانوا يدمرون الجسور فوق الانهر ، ويجعلون الآبار غير صالحة ، ويكتسحون الحقول ، ويسوقون سكان المدن والقرى الواقعة فى طريق الصليبيين . ونقصت الفرسان والفقراء المرافقين لهم المأكولات ، وكان نقص الماء يعذ بهم بنحو خاص . وبسبب نقص الماء كانت تهلك الخيول . واضطر بعض الفرسان الى الترجل رغم ثقل طواقمهم وتجهيزاتهم ، واضطر بعضهم الآخر الى ركوب الثيران ، وشحن المعدات والذخائر على عربات قرنوا بها رؤوس الماعز والغنم وحتى الكلاب .

وقد تحدث البر من آخن بصورة معبرة عن مشقات الصليبيين فى صحراء تراقيا ، ووصف العذابات القاسية التى كابدها الرجال والنساء بسبب العطش . «وفى وسط السهل ، تراكم الرضع الموتى وشبه الاحياء . . . والرجال ، الذين انهكهم العرق الغزير والقيظ الخارق ، كانوا بالكد يمشون بافواه مفتوحة يتلقفون الهواء النقى للغاية ، لكى يخففوا العطش» . ومن العطش كان يموت الناس ، كما كانت تموت «الصقور وسائر الطيور الكاسرة التى تشكل سلوى الاعيان والنبلاء فى ايدى الذين يحملونها مباشرة ؛ وحتى الكلاب المروضة لفن الصيد الرائع كانت تموت بالنحو نفسه بسبب العطش فى ايدى اصحابها» .

وفى هذا الوضع لم يكن خال الادلة الروم سهلا ؛ فقد اخذوا اكثر فاكثر يرتابون فى خيانتهم .

فى ١٥ آب (اغسطس) ١٠٩٧ وصل الصليبيون الى قونية (وبعد بضع سنوات صارت قونية عاصمة السلطنة السلجوقية) . وهنا توقف الصليبيون لمدة اسبوع ، اذ اخذت الامراض تحصدهم . ان الواحة التى كانتها هذه المحلة كانت تصلح تماما لاجل راحة المقاتلين وبعث قواهم . ثم واصل الجيش سيره . وقرب هرقلة ، انزل بوهيموند هزيمة اخرى بالامراء السلجوقيين الذين كانت عساكرهم تنتظر الصليبيين هنا من جديد ، وذلك اغلب الظن ،

بأمل ان تفلح في اجبارهم على العودة الى جبال طوروس ؛ وفي هذه الحال ، تبقى ممتلكات السلجوقيين انفسهم بعيدة عن مجال زحف الفرنجة . الا ان حملة بوهيموند الجريئة بددت هذه الآمال . واضطر السلجوقيون مرة اخرى الى التراجع . وبعد احراز النصر فى جوار هرقلة ، سمح القادة العسكريون لانفسهم بفترة استراحة قصيرة وقرروا الصيد .

فى ايلول (سبتمبر) اتجهت جحافل الصليبيين الرئيسية من هرقلة نحو الشمال الشرقى من آسيا الصغرى ، عبر قيصرية وكومانا ، لكى تطل على مرعش ، متجنبة سلسلة جبال انتى طوروس . وهذا الطريق اوصى به آمر الفصيلة البيزنطية تتيكيوس . وكان يبتغى اهدافا تمليه مصالح الامبراطورية السياسية ؛ وهى ان يحاول اعادة الامراء الارمن الى الخضوع لسلطتها ، لانهم كانوا اسميا فقط يعتبرون تابعين للقسطنطينية البعيدة عنهم . وعمل قادة الصليبيين بنصيحة تتيكيوس لان الطريق التى دلهم عليها كانت مع ذلك اقل خطرا من طريق اخرى ، وان اقصر ، تمر عبر جبال طوروس وتؤدى راسا ، عبر الممرات الجبلية فى قيليقيا وسوريا ، الى وادى نهر العاصى ، الى انطاكية . وكانت آنذاك طريقا ضيقة جدا ، وعسيرة الاجتياز فى اوقات المطر ناهيك بان الانحاء التى كانت تمر بها كانت فى سلطة السلجوقيين بينما كان الارمن ، المسيحيون من حيث العقيدة الدينية ، يعيشون فى المناطق التى نصحهم تتيكيوس بعبورها .

لم تطب نصيحة الآمر البيزنطى لبعض الصليبيين ؛ فقد تذكروا غدر الامبراطور الكسيوس كومنينوس عند الاستيلاء على نيقية ، وكانوا دائما يرتابون بالروم وبتدبيرهم لخيانات جديدة ، فعمدوا الى التصرف كما يرتأون . ونحو العاشر من ايلول (سبتمبر) انفصل تنكريد مع مئة من الفرسان النورمانيين ومائتين من المشاة عن الجيش الرئيسى قرب هرقلة ، وغادر معسكر الجيش ، واستدار بحدة صوب الجنوب ، صوب بوابات قيليقيا . وبعد بضعة ايام عمل على غراره بودوان دى بويون وبودوان له بورغ وغيرهما من فرسان اللورين ، وزهاء ٥٠٠ فارس ، كما انطلق معهم ايضا زهاء الفين من المشاة .

وفى قيليقيا الارمنية نشب خصام ضار بين تنكريد وبودوان دى بويّون بسبب مدينة طرسوس . فى البدء عرض الكونت بودوان بما يكفى من الوقاحة على تنكريد ان يهاجما معا هذه المدينة المسيحية ، رغم وقوعها آنذاك فى حوزة السلجوقيين وتحت سيادتهم ، وان ينهباها ويتقاسما الغنيمة التى يمكن اخذها هناك : «لنهاجم معا هناك ، ولنهب المدينة ، ومن

يستطيع الحصول على اكثر يحصل ، ومن يستطيع ان ياخذ اكثر ياخذ» . هكذا كتب مؤلف نورماني مجهول عن مقاصدهما . ولكن هذه المقاصد اللصوصية لم تتحقق . فبعد ان خرج السلجوقيون من المدينة الى لقـــاء الصليبيين ، ردهم الصليبيون على اعقابهم ، فولوا الادبار ليلا ، وبعد ان فتح سكـــان المدينة المسيحيون البوابات امام تنكريد ورجاله النورمانيين ، رأى بودوان على الابراج رايات خصمه ، فطالب بتسليمه المدينة . واضطر المغامـــر النورماني ، رغم حنقه وسخطه ، الى التراجع ، فان عدد فرسانه كان يقل كثيرا عن فصيلة بودوان المؤلفة من الفين وخمسمئة مقاتل . واثبت بودوان مواقعه في طرسوس ؛ وبعد فترة وجيزة حظي بمساندة اسطول القرصـان البحري غينيمر من بولون الذي وصل الى مرفأ لونغياد ؛ فان طاقم السفـن كان يتألف من دانماركيين وفلمنكيين وفريزيين . واقسم غينيمر يميـــن التبعية الاقطاعية لبودوان ، فعينه هذا حاكما على طرسوس . وصار اسطول القرصنة اول اسطول عند الصليبيين .

وفي هذه الاثناء اغار تنكريد على مدينتين اخريين في قيليقيا هما ادنة ومميسترا . وتعين تسليم ادنة للفارس البورغوني فلف الذي احتل قلعـة المدينة . وفي جوار مميسترا اشتبك تنكريد وبودوان على المكشوف . ولم يحالف التوفيق تنكريد في المعركة . ففي سياق القتال سقط عن حصانـه ووقع في اسر ريشار دي ساليرنو الذي سبق له ، كما افاد البر من آخن ، ان دعا تنكريد ببالغ الالحاح الى الرد على بودوان لقـــاء طرسوس . وكان ريشار خاطب تنكريد قبل المعركة ولامـــــه على تردده قائلا : «انت ترى امامك بودوان الذي حرمك طرسوس بسبب جوره وحسده . آه ، لو كنت تتحلى بقدر ما من البسالة ، لكنت جمعت جميع مقاتليك وانتقمت للاهانـــة الموجهة اليك بضربه على جبهته !»

وفي آخر المطاف سوى المتخاصمان خلافاتهما ؛ فقد عقدا صلحا ابقـى على وضع الامور المتكون فعلا ، او ، كما لاحظ مدون الاخبار راوول مــن كايان ، اقام المتخاصمان وضعا بموجب المثل القائل : «من يملك ، فهـــو يملك ، ومن خسر فقد خسر» . وبعد ذلك ، استولى تنكريد ، وهذه المرة بمساعدة غينيمر من بولون واسطوله على مرفأ الاسكندرونة ، وابقى فيه فصيلة من فرسانه . كان للاستيلاء على الاسكندرونة اهمية كبيرة بالنسبة لاعمال الصليبيين اللاحقة . واجمالا لم يبق اقتحام قيليقيا بدون عواقب على مصائر المشروع الصليبي . فان حاميات الافرنج المتروكة في المدن الارمنية قد حالت لاحقا دون السلجوقيين ودون الاعتماد على هذه الاراضي بوصفهـا

قاعدة للاحتفاظ بانطاكية . ومن جهة اخرى ، كان التنافس بين القائدين الصليبيين بمثابة درس مرئى محسوس للسكان المحليين ، من مسيحيين ومسلمين ، اذ ادركوا ان علاقات الفرنجة فيما بينهم لابعد من ان تكون على خير ما يرام ، وان من الممكن عند الاقتضاء استغلال هذا الظرف .

لم يكن الخصام بين تنكريد وبودوان فى قيليقيا غير نزاع من اولى النزاعات بين «الصليبيين المتحدين فى الايمان» ، رغم ان مدونى الاخبار اللاتين الميالين الى الاطراء والمديح حاولوا ان يشيروا بجميع الوسائل الى وحدتهم وتلاحمهم فى النضال من اجل المثل العليا الدينية . فان فولهير من شارتر ، كابيللان بودوان من بولون ، مثلا ، قد كتب : «صحيح اننا كنا نتكلم لغات مختلفة . ولكن تبين اننا اخوة واقارب واهل ، متحدين فى حب الرب» . ان بعض المؤرخين البرجوازيين المعاصرين ينظرون الى هذا الضرب من الفقرات فى مؤلفات مدونى الاخبار اللاتين نظرة غير انتقادية ، فيصورون الحروب الصليبية بصورة عرض «لعظمة الغرب ووحدته» فى الصراع ضد الشرق الاسلامى . ولكن الوقائع التى يورد منها مدونو الاخبار انفسهم وفرة وفيرة ، تقوض من الاساس المحاولات لاضفاء اجماع استثنائى ما على الصليبيين ، قائم فى تربة الدين . فان مطامع الاغتصاب والفتح قد صدعت غير مرة التضامن الوهن بين النهابين والغزاة . وان مخاصمات تنكريد وبودوان فى قيليقيا مثال ساطع على الصدام بين مصالح الصليبيين الفعلية ؛ فكان الزعيمين نسيا ، لا تعهداتهما التبعية ازاء بيزنطية وحسب ، بل ايضا وحدة العقائد الدينية . وهذا المثال لابعد من ان يكون المثال الوحيد .

وقد تفجرت النزاعات بملء قوتها فيما بعد ، وهذه المرة فى صفوف جيش الصليبيين الرئيسى .

اجتاز الصليبيون قيصرية التى اكتسحها السلجوقيون كليا ، واستداروا نحو مدينة كومانا الارمنية . ومنها اندفعت فصائل بوهيموند تطارد ، — عبثا ، والحق يقال — بقايا جيش دانشمند المهزوم . وبعد ثلاثة ايام دخل الصليبيون كوكيسوس . وبما ان كونت دى تولوز سمع ان الاتراك غادروا انطاكية ، فقد ارسل الى الامام على جناح السرعة فصيلة من ٥٠٠ بروفانسى بقيادة بيار دى كاستيون لكى يسبق الآخرين ويستولى على المدينة طالما كان بوهيموند مشغولا بالعمليات الحربية فى مكان آخر ما . الا ان الاخبار عن رحيل السلجوقيين من انطاكية لم تثبت صحتها . ومع ذلك ، استولت وحدة من فصيلة ريمون دى تولوز ، برئاسة الفارس بيار دى روى ، على بضع قلاع فى طريقها . وعندما علم بوهيموند بغدر ريمون دى تولوز ، لم

يكن لغضبه حدود . وهذه الحادثة ارست بداية العداء السافر بين امير تارنتو والكونت ريمون دى سانجيل – اى بين اثنين من ابرز زعماء الصليبيين – وهذا العداء لم تهدأ ناره على امتداد الزحف اللاحق كله .

كذلك اندفع الفرسان من مرتبة ادنى فى السباق الى كسب الممتلكات من الاراضى . فان الفارس البروفانسى بيار من اون تقدم من القادة ، بعد خروج القوات المسلحة من قيصرية ، بطلب منحه السلطة على كومانا (بلاستينيتسا) ، «المدينة الجميلة والفائقة الغنى» التى تعهد بالدفاع عنها «خادما الرب والقبر المقدس بأمانة ، وكذلك الاسياد والامبراطور» .

بنصيحة تتيكيوس (الذى كان يعرف ان بيار من اون قد خدم الفاسيلفس فيما مضى) ، استجاب زعماء الصليبيين بطيبة خاطر لطلب الفارس ؛ فقد تنازلوا له عن كومانا ، رغم ان وعوده بالدفاع بامانة عن القبر المقدس لم تكن بالطبع سوى ستار لائق لادعاءات من الجلى انها غير لائقة ، لادعاءات اغتصابية بحتة .

وتحركت قوات الصليبيين الرئيسية ، متجنبة مدينة كوكيسوس ، نحو مرعش ، عبر جبال عالية ، «شيطانية» ، كما يقول مدون اخبار نورمانى ، حيث كانت ظروف العبور حتى فى افضل اوقات السنة ، خارقة الصعوبة . وحل شهر تشرين الاول (اكتوبر) . وانهمرت الامطار ؛ وجرفت المياه الدروب الجبلية الضيقة . وسار عليها الصليبيون ، تارة صاعدين صعدا ، وطورا منزلقين على الجروف الساقطة .

واحيانا كان الناس والخيول على السواء يتدهورون ويسقطون فى المهاوى العميقة . والمصير ذاته كان من نصيب مواشى الجر . جربوا ربطها بعضها ببعض ، ولكنها كانت بين الفينة والفينة تسقط فى المهاوى جارة بعضها بعضا . كتب مدون اخبار نورمانى مجهول عن احدى عمليات الصعود والنزول هذه : «لم يتجرأ احد منا على ان يكون اول من يسير فى درب يمتد على حافة الجبل . . . كانت الخيول تتدهور هناك ، وكان طاقم من الدواب يجر آخر» . ولم يكن من النادر ان يعمد الفرسان الغارقون فى الوحل الى رمى عتادهم العسكرى ، اذا لم يفلحوا فى بيعها باسعار رخيصة من المشاة .

وباسف وكآبة كتب مدون الاخبار المذكور اعلاه : «كان الفرسان يقفون فى كل مكان حزانى ، ويضربون انفسهم بسبب من خارق الاسف والمرارة ؛ وبسبب عدم علمهم بما سيحل بهم وسلاحهم ، كانوا يبيعون دروعهم وخيرة صدراتهم المزرّدة مع الخوذ مقابل ثلاثة او خمسة دنانير (مدون الاخبار

الفارس لا ينسى فدقيق الثمن ! – المؤلف) او بقدر ما يستطيع ان يحصل . والذين كانوا لا يفلحون في بيعها باسعار زهيدة كانوا يرمونهـا جانبـا ويمضون (الى ابعد)» .

دولة الصليبيين الاولى

في تشرين الاول (اكتوبر) ١٠٩٧ وصلت جحافل الصليبيين الى مرعش . واليها جاء ايضا بودوان من بولون مع الفوارس المائة الباقين لديـه . ان الخصام مع تنكريد قد قوض سمعة الكونت بين الصليبيين ، ففضل مغادرة قيليقيا ليبحث عن السعادة في مكان آخر . وبالفعل لم يقض الفاتح الذى لا يكل فى مرعش سوى يومين ؛ ثم اتجه ، بناء على نصيحة اخيـه ، دوق دى بويون ، باتجاه الجنوب الشرقى ، نحو الفرات . ولم تفارقه فكرة تاسيس امارة خاصة به . ولا وفاة زوجته ، ولا اية اعتبارات اخرى استطاعـت ان توقفه . وبالاعتماد على دعم بعض الحكام الارمن ، استولى كونت دى بولون ، دون ان يلقى مقاومة الا من جانب بلدوخ ، امير سميساط ، ناهيك بانهـا مقاومة ضعيفة ، على قلعتين مهمتين بين عين تاب والفرات – هما قلعتـا راوندان وتل بشير (ومدونو الاخبار اللاتين يسمونهما على الطريقة الفرنسية رافندل وتوربيسل) ، وفى ٦ شباط (فبراير) من السنة التالية ، سنـة ١٠٩٨ دخل مدينة الرها الارمنية الغنية التى احتلها السلجوقيون قبل ذلك باحدى عشرة سنة (سنة ١٠٨٧) .

وهذا المركز الكبير للحرفة وتجارة القوافل ، الرها او اورفا ، الواقعة على طريق من بلاد ما بين النهرين الى سوريا ، كان يحكمه (فى البدء باسم حاكم سوريا السلجوقى تتش ، ثم بصورة مستقلة) الامير الارمنى طوروس الذى سبق ان منحته بيزنطية اللقب الرفيع – «كوروبالات» . وقد جـاء بودوان ، مع ٨٠ فارسا فقط ، بوصفه محررا للارمن مـن سيطرة الكفار ، فكسب بالدهاء والحيلة ثقة الامير طوروس ، بل انه افلح فى حمل الاميـر طوروس وزوجته على تبنيه . ولمناسبة هذا التبنى اقيمت علنا حفلة خاصة وصفها البر من آخن ؛ فان الامير «شده (اى شـد بودوان – المؤلف) الى صدره العارى ، ثم التف برداثه الملقى على مقربة ، وعانقه ، وهكذا اقسما يمين الولاء احدهما للآخر وهما ملفوفان بالرداء .»

اصبح بودوان شريكا فى الحكم للامير طوروس ، فاثبت اقدامه فى الرها وطفق يتقرب من قسم الاعيان الارمن المعادى للامير طوروس ، وبدأ يضطهد بجميع الوسائل سكان المدينة وزراع الضواحى . وبعد فترة وجيزة ، حاكت

جماعة من الاريستقراطية المحلية مؤامرة ضد طوروس ، واثارت ضده سكان المدينة . وقد اشترك ابن طوروس بالتبنى وشريكه فى الحكم ، بودوان ، فى المؤامرة سرا . وبالنتيجة نكل «اناس غدارون ومجرمون» ، كما يسميهم مدون الاخبار الارمنى متى الرهاوى ، بالامير طوروس . واذا الامير الذى «تحاشت الرها بفضل ذكائه وحكمته وشجاعته ودهائه وحذاقته وضع دافع الجزية والخادم» للسلجوقيين يسقط ضحية للمتآمرين . وحين حاول ان يهرب من القلعة ، «ثقبت آلاف السهام جسده فى لحظة واحدة ، فلقى مصرعه» .

وجعل بودوان من نفسه حاكما وسيدا لمدينة الرها . واستجابة لدعوته جاء الى الرها بعض من الاسياد الافرنج الآخرين : فان الرها القريبة قد اغرتهم اكثر بكثير من القدس البعيدة آنذاك . ويقول مدون الاخبار ان بودوان «يغدق الكثير من الهدايا من البيزانطات والتالانتات (قطع نقدية بيزنطية — **المؤلف**) الذهبية والآنية الفضية» . كان ينهب المدينة حقا وفعلا . وكان اتباعه يسرقون ويختلسون الضيع والوظائف والخزينة .

فى كانون الاول (ديسمبر) ١٠٩٨ ، تمرد الشعب البسيط الذى اضطهده واذله «المحررون» — الصليبيون . بل ان الارمن استغاثوا بالسلجوقيين . بأمر من بودوان اعتقلوا المبادرين الى التمرد واعدموهم ، واحالوا اموالهم الى الفرسان الافرنج . وزجوا فى السجون بالكثيرين ممن اشتركوا فى الفتنة . وافلح بعض من الموسرين فى الافلات من السجن بدفع فدية تتراوح بين ٢٠ الف بيزانط و٦٠ الف بيزانط ومذ ذاك ، لم تعد تستند سلطة بودوان فى الرها الا على الارهاب ضد الارمن «المحرّرين» ، وقد كتب متى الرهاوى عن ثبوت اقدام الافرنج فى الرها : «وقد اقترفوا هذه الاعمال التى لا عد لها والتى لا سابق لها لاجل نهب الكنوز ، وانزلوا بالبلد الخراب الشامل ، وبالناس العذابات القاسية . ولم يكونوا يفكرون الا بالشر ، وكانوا يفضلون درب المآثم والموبقات» .

وقد بذل بودوان جهده ، بعد ان اصبح سيد المدينة ، لكى يوسع قدر الامكان حدود ممتلكاته . ففى الجنوب الغربى شغل مدينة سروج وحولها الى حصن لممتلكاته الجديدة . ثم استولى الفرسان على مناطق تقع غربى وشرقى المجرى الاعلى لنهر الفرات .

وهكذا ارسيت بالقوة والعنف بداية اول دولة للصليبيين فى الشرق ، — كونتية الرها . وقد اصبحت هذه الكونتية مخفرا اماميا مهما للدول الصليبية الاخرى التى تشكلت فيما بعد .

فتح انطاكية

فى ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٠٩٧ وصلت قوات الصليبيين الرئيسية التى دخلت سوريا الى مشارف انطاكية . كانت انطاكية الواقعة على بعد ١٢ ميلا عن البحر ، على الضفة الشرقية من نهر العاصى ، من اهم مدن القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط (من الناحية الاقتصادية والعسكرية والسياسية) . وكان تاريخ انطاكية يرقى الى زمن الامبراطورية الرومانية . ومنها انتقلت الى بيزنطية ، ثم احتلها العرب فيما بعد . وفى الثلث الاخير من القرن العاشر ، احتلها البيزنطيون من جديد ، ولكن لزمن قصير ؛ ففى ١٠٨٤–١٠٨٥ احتلها السلجوقيون . ومنذ سنة ١٠٨٧ حكمها الامير ياغى سيان الذى استغل العداوة بين دقاق صاحب دمشق ورضوان بن تتش صاحب حلب ، وتوصل فعلا الى الاستقلال السياسى .

كانت انطاكية عبارة عن قلعة من صنع الطبيعة بالذات : ففى الجنوب الغربى ، كانت تحميها الجبال ، وفى الشمال الغربى كان يحميها النهر والمستنقعات ، وفى الغرب كان يحميها البحر . وفى عهد الامبراطور يوستينيان (القرن السادس) بنوا حول المدينة – فى الانحاء المستنقعية وفى السفوح الجبلية – اسوارا منيعة . وبعد استرجاع المدينة من العرب ، عززوا الاسوار اكثر من ذى قبل ؛ فقد بلغت من السماكة بحيث انه كان من الممكن ، كما قال المعاصرون ، ان يتسع اعلاها لاربعة احصنة وبنى فى الاسوار ٤٥٠ برجا . وفى القسم الجنوبى الشرقى من المدينة ، فى اعلى منطقة فيها ، – على سفح جبل سيلبيوس ، كانت تقع قلعة داخلية عززها السلجوقيون باتقان ومتانة .

كانت انطاكية الموصولة بالبحر ، عبر خليج القديس سمعان ، بمدن الساحل الميناثية الاخرى ، تضطلع من قديم الزمان بدور كبير فى تجارة المشرق . ولهذا كان الاستيلاء عليها بالنسبة للصليبيين امرا مغريا جدا . ولكن كان الدفاع عن المدينة – القلعة من الداخل اسهل من اخذها من الخارج ؛ فان العوائق الطبيعية وكذلك الاسوار والابراج كانت تجعلها عسيرة المنال رغم ان حامية ياغى سيان لم تكن كبيرة .

ان النبأ القائل ان بودوان صار كونت الرها قد اجج شهوات الامراء الباقين ، وفى المقام الاول بينهم بوهيموند من تارنتو وريمون دى تولوز . وقد اقترح هذا الاخير مهاجمة انطاكية فى الحال . الا ان هذا الاقتراح المحفوف بالمخاطر لم يلق الدعم من جانب القادة الآخرين . فقد كانوا يخشون

الخسائر فى الارواح ، وفضلوا انتظار المـــدد ؛ اذ سرت شائعات عن قرب وصول تنكريد من الاسكندرية ، وفصائل جديدة من الصليبيين من الغرب .

كان منظر اسوار المدينة وابراجها يخيـــف الصليبيين . وكان جليا للاغلبية انه لا يمكن الاستيلاء على المدينة بدون تطويقها باكثف ما يمكن ، وبدون ضرب حصار دائب . وعلى هذا الح بصورة خاصـــة بوهيموند الذى كان يحلم بان يصبح اميرا لانطاكية .

اصغى الفرسان الى رأيه ولكنهم تصرفوا بدون ايـــة معرفة وحذاقة . وبما انهم كانوا يجهلون طرائق حرب الحصار ، فقد اقترفوا الكثير مـــن

مخطط انطاكية (سنة ١٠٩٨)

الهفوات والاخطاء . فمن الجنوب لم يسدوا البتة مداخل المدينة ومخارجها . وبالنتيجة كانوا يمنون بالاخفاق تلو الاخفاق . وكان بوســـع المحاصرين ان

يخرجوا من المدينة ويقلقوا المحاصرين ويثبطوا معنوياتهم بغاراتهم . ولكي يحمى الصليبيون انفسهم من هذه الطلعات والغارات ، بنوا على مقربة من باب الحديد برجا حصاريا هو برج بالريفار ؛ وقد بنوه على سفح جبل سيلبيوس ، غير بعيد عن سور القلعة . وفي الشهر الثالث من الحصار ، حين اقترب الشتاء وانهمرت الامطار الباردة اللامتناهية ، تبين ان المأكولات عند الصليبيين توشك ان تنتهى ؛ وحتى ذاك ، كانوا يؤمنون لانفسهم الطعام ناهبين الضواحى الغنية لانطاكية ودون ان يحرموا انفسهم من اى شيء . وبدأ الجوع فى المعسكر . ويستفاد من مدون للاخبار ان واحدا من كل سبعة من الصليبيين قد مات جوعا . ولم يستفد المقاتلون من اللحوم والفواكه والخمور التى ارسلها لهم من قبرص ، بناء على طلب من اديمار ، نائب البابا ، البطريرك سمعان ، بطريرك الروم للقدس ، الموجود آنذاك فى قبرص . فان هدايا البطريرك لم تكف الا لمدة قصيرة . اما سكان المناطق المجاورة ، من ارمن ويونانيين وسوريين (وهؤلاء مسيحيون من شتى الطوائف والتيارات . وهؤلاء جاء الصليبيون «يحررونهم» من نير الكفار !) فقد كانوا يبيعون المنتوجات الغذائية باسعار مفرطة الغلاء . ويورد فارس نورمانى اشترك فى حصار انطاكية قائمة كاملة باسعار الخبز والدجاج والبيض والجوز والخمور ولحوم الحمير ، والخ . ، ويعتبر هذه الاسعار غالية جدا . ويقول : «بل ان كثيرين منا ماتوا هناك لانه لم تكن معهم اموال يستطيعون بها ان يشتروا بمثل هذه الاسعار الغالية» . ان اولئك الذين كانوا ينهبون ويخربون ضواحى انطاكية بوحشية وهمجية غير آبهين بالعواقب ، شرعوا الآن يجنون ثمار لصوصياتهم .

وهبطت معنويات الفرسان والفقراء بسرعة كبيرة . وطفق اصغرهم نفسا يفارقون العساكر . وفي صباح من شهر كانون الثانى (يناير) ١٠٩٨ اختفى من المعسكر بطرس الناسك (وكان قد انضم الى الفرسان فى القسطنطينية) ومعه صديقه الحميم الفيكونت غليوم النجار (الذى سبق له ان فر مرة من اسبانيا) وغيره . فجهزوا تنكريد لمطاردة الفارين ، واعادوا الفارين ، بل انهم اجبروا الفيكونت على حلف اليمين بان يحتفظ بالصلابة حتى نهاية المشروع . ولكن «صغر النفس السقيم» ظل «يسيل من عساكرنا» ، كما كتب مدون الاخبار البروفانسى ريمون من اجيل ، لائما الفارين لا على انهم كانوا بسلوكهم يقللون عدد المحاصرين وحسب ، بل ايضا على اعطائهم مثلا سيئا .

الا ان الامدادات بدأت تصل ، والحق يقال ، من الغرب . فمن سواحل

الاطلسى والقسم الغربـــى من البحر الابيض المتوســـط ، الدفع التجار والقراصنة الى انطاكية على سفنهم كأنما ، احسوا بالنفع المقبل . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٠٩٧ رمت ١٤ سفينة من جنوه مراسيها فى خليج القديس سمعان . وفى آذار (مارس) ١٠٩٨ ، ارست ٤ سفن انجليزية بقيادة ادغار ايتلينغ . وقد عرجت هذه السفن فى طريقها على القسطنطينية وشحنـــت ادوات ومعدات للحصار ومواد لاجل تركيبها . وعـــلى متن هذه السفـــن وصلت كذلك فصيلة من المقاتلين من ايطاليا . كذلك هرع غينيمر مـــن بولون (من الاسكندرونة) الى مساعدة الصليبيين واخذ الصليبيون انفسهـم يطوقون انطاكية بابراج الحصار .

ولكن ياغى سيان استنجد بالحكام السلجوقيين الآخرين . وارسل على الاخص ابنه شمس الدين الى دقاق ، صاحب دمشق ، فارسل هذا الى انطاكية قوات كبيرة . وفى الاشتباك السافر برهن الفرسان الصليبيون ذوو الاسلحة الثقيلة عن تفوقهم على العدو ؛ ولم يستطع السلجوقيون تحريك الخيالـــة الخفيفة . وفى اواخر كانون الاول (ديسمبر) ١٠٩٧ ، منيت قوات دقاق فـى جوار البارة بهزيمة انزلتها بها فصيلة متحدة تضم عشرين الف عنصر مـــن قوات بوهيموند من تارنتو وروبر من الفلاندر ، اللذين قاما آنذاك بغارة فى الجنوب من انطاكية بحثا عن المأكولات . الا ان المنتصرين تكبدوا خسائـر خطيرة ؛ فان فصيلة روبر من الفلاندر السائرة فى المقدمة طوقوها وبالكاد استطاعت ان تخرج من الطوق . نهب الصليبيون قريتين وعادوا الى المعسكر فى جوار انطاكية بدون نجاحات خاصة فيما يتعلق باحتياطيات المؤن . وبعد فترة وجيزة ، فى شباط (فبراير) ١٠٩٨ ، استطاع الصليبيـــون ان يصدوا قرب جسر الحديد ضغط القوات التى دفعها الامير رضوان صاحب حلب الذى وقع معه ياغى سيـــان الصلح بعد ان كان معاديا له قبـل ذاك . واكره الصليبيون السلجوقيين على التراجع . وقد لعب بوهيمونـــد الدور الرئيسى فى هذه الانتصارات الجزئية على السلجوقيين . فقد ابدى كل همته وكفاءتــه كقائد عسكرى ؛ ذلك ان امير تارنتو كـــان يأمل بكل رسوخ بان انطاكية ستكون له وحده دون غيره !

ومع ذلك ، ضعفت بكل جلاء مواقع الصليبيين المتجمدين بردا . وكانت تنقص الاعلاف . ولم يبق فى المعسكر غير ٧٠٠ حصان ، بينما ماتـــت الاحصنة الاخرى .

حاول البارونات ان يستغلوا فى مصلحة الحرب الصليبيـة التناقضات بين السلجوقيين والفاطميين فى مصر . ففى اوائل آذار (مارس) ١٠٩٨ وصل

من مصر الى جوار انطاكية رسل الوزير الافضل . ولكـــن الخليفة الفاطمى المصرى عرض على زعماء الصليبيين شروطا غير مقبولة ابدا بنظرهم : تقاسم سوريـا وفلسطين على ان تبقـى القدس لمصر . رفض البارونـــات هذه العروض . ولكنهـم قرروا ان يواصلوا المفاوضات مع المصريين فى القاهرة . والى القاهرة راح مع رسل الافضل مفوضو الصليبيين . وكان قادة الصليبيين يأملون فى عقد معاهدة تحالف مع مصر ضد السلجوقيين .

ويتبين من هذه الوقائع ان الاعتبارات الدينية لم تمنع الصليبيين مـن الدخول فى علاقات ديبلوماسية من الجلى انها غير جائزة ، على ما يبدو ، بالنسبة لاخصام الاسلام عن اقتناع . ولكـــن . . . الايمان هو الايمان ، والدين هو الدين ، بينما المنافع السياسية الفعلية تعلو مع ذلك على كـــل شىء ! ومن الطريف ان ريمون من اجيل ، الذى افاد عن هـذه المفاوضات ، يزعم ، رغبة منه فى تبريرها كيفما اتفق ، ان السلطان المصرى اتخذ تدابير فى صالح المسيحيين وان رسله ابلغوا الصليبيين بذلك .

وهناك تفصيل آخر من نوع مغاير تماما وواسع الدلالة ، هو ان جشـــع الصليبيين لم يقل رغم كل ما عانوه من شقاء وبلايا . ويروى مدون الاخبار البروفانسى الواقعة التالية : بعد ان دفن السلجوقيون فى مدفن ما وراء نهر العاصى مقاتليهم الذين لقوا مصرعهم فـــــى الاشتباك مع الافرنج (آذار — مارس ١٠٩٨) ، اندفع الفرسان الصليبيون فى صباح اليوم التالى الى المدفن ونزعوا المجوهرات عن الجثث !

واستغل بوهيموند من تارنتو فى الحال مصاعب فصائل الفرسان ، وكان من زمان يحلم فى تنصيب نفسه اميرا على انطاكية . فوجه جميع افكاره الى امتلاك هذه المدينة . قبل كل شىء حاول ان يتملص بالحيلة والدهاء مـــن وصاية الفاسيلفس . كانت قوات الروم المسلحة بقيادة البريميركير الاعظم تتيكيوس المرابطة فى معسكر بجوار انطاكية اداة سياسة الفاسيلفس حيال الصليبيين . وكان بوسع تتيكيوس ان يحول دون تحقيق مشاريع الاميـــر النورمانى ؛ ذلك ان هدف اقامة الروم هناك مع الصليبيين لـــم يكن يتقوم البتة فى مساعدتهم ، كما كانت تفترض الاتفاقيات الرسميـــة . فان فصائل الروم المسلحة كانت مفرطة فى القلة لاجل تقديم مساندة جدية . وكانـــت مهمة تتيكيوس الرئيسية تتلخص فى صيانة مصالح الامبراطورية البيزنطية : ففى كل حالة بمفردها ، لدى كل نجاح يحرزه الصليبيون ، كان على تتيكيوس ان يطالب زعماء الصليبيين بان يعيدوا الى الامبراطور البيزنطى المدن التـى «يعيدها الرب» ، حسب تعبير حنة كومنينة .

استطاع بوهيموند ان يخيــــف تتيكيوس بابلاغه «مــن باب الائتمان والثقة» ، ان البارونات يحيكون الخطط السيئة النية ضده ، هو القائـــــد العسكرى البيزنطى ؛ فهناك شائعة مفادها ان السلجوقيين يهرعون الى نجدة انطاكية ، وان هذه العملية هى من صنع تتيكيوس ، وان هناك مؤامرة تهدد حياة البريميكير الاعظم . وآنذاك كان القائد العسكرى الرومى نفسه يميــل اكثر فاكثر الى فكرة ضرورة سحـــب فصائله من المعسكر نظرا لوضع الصليبيين المتقلقل للغاية ، ان لم يكن الميؤوس منــه ، اذ انهم حاصروا عبثا انطاكية طوال سبعة اشهر . كذلك اقتنع تتيكيوس بامر آخر ، هو انه ليس بمقدوره فعلا ان يؤثر بقواتـــه القليلة فى مجرى الاحداث . والامر الوحيد الذى افلـــح فيه الرومى الغدار – وليس عبثـــا امل الامبراطور الكسيوس الاول فى مهارته الديبلوماسية – هو اثارة وتأجيج نيران العداوة بين بوهيموند من تارنتو وريمـــون دى تولوز ، بسبب امتلاك انطاكيـــة مستقبلا .

على كل حال ، غادر القائد العسكرى الرومى المعسكـر وراح الى قبرص فى شباط (فبراير) ١٠٩٨ منسقا موقفه بالتأكيد مـــع رغبة الامبراطور الكسيوس الاول ، وواجدا حجة مناسبة : سيجلب للفرسان مساعدة قوية . وقبل السفر ، انعم تتيكيوس ، باسم الفاسيلفس ، على بوهيموند بقيليقيـا كلها تقريبا ، مضفيا بالتالى الصفة الشرعية على فتوحات تنكريد ، وملمحا فى الوقت نفسه للنورمانيين ان العامل البيزنطى هو الذى يتصرف بقيليقيا على كل حال .

ادى رحيل تتيكيوس الى استمرار انتشار الشائعة عن الخيانة البيزنطية ، الامر الذى كان ينخدم مآرب بوهيموند : فليفكر فيما بعـد قادة الصليبيين الآخرون فى طرح مسألة تسليم انطاكية للامبراطور الكسيوس الاول بوصفه سيدهم الاعلى !

وبعد ذلك ، اجرى امير تارنتو الداهيـــة مفاوضات سرية مع الامـــر السلجوقى فيروز الذى كان مكلفا بحراسة ثلاثة ابراج فى الجانب الغربـــى من اسوار انطاكية ، واستطاع ان يستميل فيروز الى الخيانة : فلقاء رشوة معينة ولقاء الوعد بمكافاة اخرى ، اكبر ، وافق فيروز على السماح للفرسان الصليبيين بدخول الابراج التى يحرسها .

فى اواخر ايار (مايو) ١٠٩٨ ، عندما يئس الصليبيون تماما وقد عذبتهم آلام الجوع وتملكهم الخوف من المستقبل ، ابلغ بوهيموند فى مجلس القادة انه يعرف وسيلة للاستيلاء بسرعة عـــلى انطاكية ولكنه اشترط وضـــع

المدينة تحت سلطته بعد فتحها . فى البدء قابل زعماء الصليبيين بالرفض القاطع عرض المغامر النورمانى وشرطه الوقح . ذلك ان بعضا منهم ، مثل ريمون دى تولوز ، كانوا يرغبون هم ايضا فى ان يصبحوا امراء انطاكية . انهم ، كما يروى الفارس مدون الاخبار القريب من بوهيموند ، «قد عارضوا قطعا وردوا هذه المقترحات واعلنوا : «هذه المدينة لن تكون من نصيب احد بمفرده ، بل سنملكها جميعا بانصبة متساوية ! وبمـــا اننا بذلنا بالقدر نفسه فى هذه القضية جهودنا القتالية ، فينبغـــى ان نحصل على تشريفات واحدة» . ولكن امير تارنتو لم يعتزم التراجع عن مساعيه . وحيـن اصطدم بمعارضة قادة الصليبيين ، تظاهر بانه يتخلى عن هذا المشروع ، وحتى صرح علنا وجهارا انه ينوى العودة فى الحال الى الوطن ، اذ ان الشؤون البيتيـة تتطلب ، بزعمه ، وجوده فى تارنتو . ويقينا ان ذلـــك كان مجرد مناورة وابتزاز . ولكن مفعولهما سريا لسبب بسيط ، هو ان نبأ رهيبا اذهل آنذاك بالضبط الفرسان مثل البرق هـــو ان الاعداء سيلقون عونا من الشرق . وبالفعل ، كان جيش اسلامى لجب يقترب من انطاكية بقيادة اتابك الموصل كربقا . ١

ذلك ان زحف الافرنج اقلق الاعيان السلجوقيين . فارسل كثيرون من حكام السلجوقييـــن قواتهم الى كربقا ، ومنهم امراء القسميـــن الاوسط والشمالى من بلاد ما بين النهرين ، ودقاق صاحب دمشق ، وامراء المقاطعات الفارسية . فى البدء تحرك هذا الجيش من آلاف المقاتلين نحو الرها . فقد اراد كربقا قبل كل شيء ان يقضى على المخفر الامامى للسيادة الفرنجية التى اخذت ترتسم بجلاء فى الشرق . وكان يتخوف من وجود كونتية الرها التى كان بمقدورها ان تقطع مواصلات السلجوقيين . ولكن جيش اتابك الموصل لم يتوقف فى جوار الرها سوى ثلاثة اسابيع ، واستدار فى اتجاه انطاكية دون ان يبلغ هدفه (فقد تبين ان اسوار المدينة منيعة لا تؤخذ) .

ان الشائعة التى انتشرت بين الصليبيين عـــن هذه الاحداث قد بذرت الرعب فى صفوفهم . ويروى مدون الاخبار البروفانسى شاهد العيان ريمون من اجيل منددا بصغار النفوس ان كثيرين من الجبناء شرعوا يهربون مـــن جوار المدينة ، وبينهم فر الكونت ايتيان دى بلوا ، السيد الملاك الكبيـــر الذى كانوا يقولون عنه فى فرنسا ان عنده من القصور بعدد ايام السنة . واثناء الحملة ، اكثر من املاكه . وقد كتب ايتيان دى بلوا الى زوجته مـــن جوار انطاكية : «صدقينى ، يا عزيزتى ، ان عندى الآن من الذهب والفضة ضعفى ما كان عندما فارقتك» . ان هذا الصليبى الرفيع المقام الذى اغتنى

لم يرغب فى ان يعرض للخطر الغنائم التى نهبها فى الشرق ، من اجل قضية معلقة وموضع شك ، قضية تحرير قبر السيد المسيح ؛ فركب سفينة مع الفرسان الذين التحقوا به ، وراح الى الاسكندرونة ، ومنهـا عاد الى بيته عبر آسيا الصغرى .

اضطر زعماء الصليبيين ، وقد اقلقهم اقتراب كربقا ، الى التنازل لا دعاءات بوهيموند الوقحة . فقد وافقوا «بقلب مفتوح» ، اذا صدقنا مدون الاخبار ، ولكن قسرا بالفعل ، على منحه المدينة ، اذ كان يستطيع ان يستولى عليها وحده او بمساعدة احد ما فى القريب العاجل ؛ الا انه تم الاتفاق ، والحق يقال ، بصدد تحفظ مفاده انه سيتعين لاحقا على كل حال ، بموجب المعاهدة مع الامبراطور البيزنطى ، احترام حقوقه فى انطاكية ، التى كانت فيما مضى تخص ملوك القسطنطينية . بيد ان التحفظ كان غامضا : «اذا وصل الامبراطور الى نجدتنا فى الوقت المناسب» .

على كل حال شرع بوهيموند ، وقد نال من القادة الموافقة المطلوبة على امارة انطاكية ، ينفذ فورا ما فكر فيه . ففى ليلة الثانى الى الثالث من حزيران (يونيو) ١٠٩٨ قاد فصيلته عبر الابراج التى فتحها له الآمر فيروز ، واقترب الفرسان النورمانيون من السلم التى كان قد سبق نقلها وتثبيتها بكل رسوخ الى سور المدينة ، وصعد ٦٠ منهم عليها وتوزعوا على الابراج التى يحرسها فيروز . وفى الوقت نفسه هاجم الصليبيون المدينة من اماكن اخرى .

أخذ السلجوقيون على حين غرة ، وانتقلت المدينة النائمة الى ايدى الصليبيين . ولم تستسلم القلعة القائمة قرب اعلى قسم من السور ، على سفح جبل سيلبيوس ؛ فقد دافعت عنها بصلابة الحامية السلجوقية وكذلك اولئك الاتراك (نحو ٣ آلاف) الذين استطاعوا الاحتماء فيها . وقد كتب المؤرخ العربى ابن القلانسى : لقد تحصنوا هناك «وسلم من كَتَب الله سلامته» * . ويقول مؤرخ عربى آخر ، هو ابن الاثير ان الامير ياغى سيان قد لقى مصرعه اثناء الاستيلاء على انطاكية . وعن هذا تفيد المراجع اللاتينية ايضا . ولكن ظروف مصرعه توصف بصور مختلفة . وحسب جميع الدلائل ، حاول ان يهرب ، ولكن حراسه فارقوه وقتله السكان المحليون . وفى رسالة الى البابا اوربان الثانى ، مكتوبة بعد فترة من الزمن ، تباهى

---

* تاريخ ابن معلى حمزة ابن القلانسى . بيروت ، ١٩٠٨ ، ص ١٣٥ .

قادة الصليبيين بانتصارهم ونسبوا مصرع الامير ياغى سيان الى بسالتهم بالذات («وقسبيان اى ياغى سيان نفسه امتناه») .

ومهما يكن من امر ، فقد استولى الصليبيون على مدينة انطاكية . ولم يضيع بوهيموند الوقت ، كما يقول مدون الاخبار : فما كاد المحاصرون يقتحمون المدينة حتى «امر» الامير النورمانى «الفرسان بنصب رايته على المرتفع ، المقابل مباشرة للقلعة» .

واضعافا مضاعفة كافأ المنتصرون انفسهم على الحرمانات التى عانوها فى اشهر الحصار . فقد نهب الصليبيون المدينة كليا وتماما . ويوضح ريمون من اجيل خبره عن اعمال النهب التى قام بها الصليبيون بعد الاستيلاء على المدينة : «ليس بمقدورنا ان نقول كم من الغنائم اخذت اجمالا فى انطاكية ؛ فاذا تصورتم باقصى ما يسمح خيالكم ، فاحسبوا اكثر من ذلك» . واقام الصليبيون حفلات ومآدب تهتكية ، واكلوا – لما فيه مصيبتهم – جميع الاحتياطيات التى كانت لا تزال فى انطاكية بعد حصار دام سبعة اشهر ، رغم كل قلتها . وقتلوا المئات من سكان المدينة . وانتشوا بسيول الدماء التى سفكوها ، ولم يفرقوا بين مسيحى ومسلم . وافاد ريمون من اجيل : «لم يأسروا ايا ممن التقوا بهم فى الطريق» . وقد امتلأت جميع الساحات ، كما يشهد شاهد عيان آخر ، بجثث القتلى ، «بحيث ان احدا لم يكن بوسعه ان يتواجد هناك بسبب الرائحة الكريهة القوية ؛ ولم يكن بوسع احد ان يمر فى الشوارع الا (بالسير) على الجثث» . وينعت مدون الاخبار الارمنى متى الرهاوى المذابح التى اقترفها الفرسان الصليبيون فى انطاكية بالمجزرة الرهيبة . ويقول ابن القلانسى ان عددا لا يحصى من سكان المدينة من رجال ونساء واولاد قد قتلهم الصليبيون او اعتقلوهم وساقوهم الى الاسر .

«معجزة الحربة المقدسة»

فى ٥ او ٦ حزيران (يونيو) ١٠٩٨ ، اى بعد مرور ٣ او ٤ ايام على احتلال الصليبيين لمدينة انطاكية ، اقترب من المدينة جيش كربقا الموصلى – كما يقول مدون للاخبار – «كثرة لا نهاية لها من الاتراك توزعت فى الحقول» . طوق الاتراك المدينة من جميع الجوانب ، واذا الصليبيون الذين كانوا امس يحاصرونها يصبحون هم انفسهم محاصرين . وفيما بعد ابلغ الصليبيون بابا روما ان السلجوقيين «طوقونا من كل مكان بدرجة من الاحكام بحيث ان احدا منا لم يكن بوسعه ان يخرج وان احدا لم يكن بوسعه ان

يتسرب الينا» . وفي الحال شعر المحاصرون بمشقات الوضع . لم يكن ثمة مأكولات . كان الفرسان يموتون جوعا ويهلكون من شتى البلايـا الاخرى . وكانوا يذبحون خيولهم وحميرهم الهزيلة ويأكلون لحومها . هكذا ابلـــغ الصليبيون روما فيما بعد . وقد اجبر العوز الكثيرين على استهلاك العشب وقشر الشجر والحبال وطقوم الخيل الجلدية ، بعد غليها . بل انهم لم يأنفوا عن اكل الكلاب والقطط والفئران الميتة وشتى الجيف .

واستحوذ اليأس على المحاصرين . واخذ الفرسان البواســــل والاجرياء يفرون من انطاكية بالعشرات والمئات ، افرادا وجماعات . وعادة كان الفارون ينزلون ليلا على الحبال المتدلية من الاسوار ويحاولون تحت ستار الليل ان يصلوا الى السفن الراسية قرب ارصفة خليـــــج القديس سمعان ؛ ولهذا نعتوهم في صفوف العساكر بالفارين الحبليـــين . وكان قريب بوهيموند ، غليوم دى غرانمينيل ، اول الفارين من انطاكية ؛ وفيما بعد انضم الى ايتيان ى بلوا . وسار على منواله بعض المقاتلين الاقطاعيين الآخرين الذين خافوا من احتمال الوقوع في الاسر وفقدان ما نهبوه .

واخذ مزاج اليأس يتغلغل اعمق فاعمق في اوساط الصليبين ، المحصورين في المدينة التي فتحوها . بعضهم كان ، بدافع القنوط ، تتملكه النشــوة الروحية الدينية فيركع من الصباح الى المساء في كنائس انطاكية ، مكررا الركعات امام تماثيل وايقونات يسوع ومريم العذراء والقديسين المفضلين . وكانت بلايا الحصار تؤثر في الآخرين باتجاه مضاد تماما ؛ فقد فقدوا الثقة في مآل ملائم ، ففقدوا بالتالي الحماسة الدينية التي كانت تتملكهم من قبل الى هذا الحد او ذاك .

وغني عن البيان ان الدوافع الدينية كانت عند البعض منذ بادئ بـدء ظاهرية وسطحية في شيء ما ، وان الغنائم والمكتسبات من الاراضي كـانت بنظرهم الامر الرئيسي ؛ ومع ذلك ، كان جمهور القوات مـــن الفرســـان والفلاحين لا يدرك الواقع الا من خلال موشور المزاج الديني . وان البلايا في انطاكية قد ادت الى نشوء ميول الوهن والانحطاط ، والهبت الخيال الديني لدى اغلبية الفرسان والفلاحين ، واسفرت عن تفاقم عدم الثقة في ربانية الحملة الصليبية : فمن الجلي ان الرب قد حكم بآلام وعذابات مفرطة في المشقة على الذين كانوا يعتزمون التضحية بحياتهم من اجله . وفي جو النشوة الدينية التي استحثتها وعززتها المجاعة ، اخذت تحدث في الخيال المشوش عند بعض المشتركين في الحملة الصليبيـــة تطورات ملحوظة ؛ فقد بدات تظهـــــر الهلوسات : وفي الليالي ، كان هؤلاء او اولئك من الصليبيين ، كمـا كان

يتبين في الصباح ، يحلمون فى النوم احلاما غير عادية ، نبوئية كما كانوا يزعمون . كان يتراءى لهم القديسون والرسل ، وعلى السنة هـؤلاء ، كان الرب ينبىء بارادته فى هذه الاحلام . وطفقوا يعتبرون ابسط ظواهر الطبيعة علائم ربانية .

يقينا ان البحوث بعذاب وألم عن مخرج من المصاعب الفعلية التـــى انقضت فجأة على المنتصرين منذ امد قريب قد انعكست بنحو معاكس فى لعبة الخيال الموجه توجيها دينيا ، ولكن الوقائع من هذا النوع كانوا يفسرونها فى بيئتهم — وتلك خاصة عادية من خواص الوعى الدينى والنفسية الدينية على العموم ! — كشىء نبوى . وفى الدين كان الخداع الذاتى والايحاء الذاتى يضطلعان دائما بدور بالغ . وباكبر قدر من القوة كانت هذه العوامـــل تفعل فعلها حين كانت الانفعالات الدينية من جراء ظروف خارقة تتلقى دفعة قوية من الخارج .

وهكذا بالذات حصل اثناء وجود الصليبيين فى انطاكية التى طوقهـــا واغلقها كربقا ، فى حزيـــران (يونيو) ١٠٩٨ . وقد بدا كان المؤمنيـــن المتعرضين كليا للتخدير الذاتى عاجزون عن التمييز بين ثمار خيالهم الدينى الملتهب وبين الخداع المتعمد الذى لجأ اليه بنجاح كبير فى مثل هذا الوضع خدام الكنيسة الذين استسلموا هم ايضا — وبقوة خاصة ! — لهذا التخدير الذاتى ، ونقلوا هذا الخداع الى عقول رعاياهم .

وبالفعل اخذ رجال الكنيسة المشتركون فى الحملة يوحون بدورهـــم ، ببالغ الجهد ، «بالرؤى النبوئية» التى تراءت لجنود المسيح ، وبالعجـــائب المفسرة بانها علائم على رضى الرب وعطفه ، وبذلك كانوا يؤججون اجـواء التهييج الدينى فوق ما هى عليه من سعير . وانقض سيل متواصل هائل من العجائب فى فترة وجيزة على المحاصَرين ! ان الهدف من هذه التمثيليـات الدينية ، الذى كان مستورا عن الملهمين والمشتركين ، والذى كانـــوا لا يدركونه ، كان يتلخص ، اغلب الظن ، فى امر واحد ، هو درء خيبة الامل ، المحتمة فى ظروف الاخفاقات الشاقة ، لدى المشتركين فى المشروع الصليبى المقدس ، انهاض روحهم القتالى ، تسعير اوار التعصب الدينى القتالى فوق ما هو عليه من تأجج . عن هذا الطريق فقط كان يمكن رص صفوف الفرسان الصغار ، والفلاحين الفقراء ، حول الامراء القادة ، وتجميل الايام المضنيـــة واعباء الحملة المنهكة بآفاق الحياة فى الجنة بعد الموت ، وحمل المشتركين فى الحملة ، فى آخر المطاف ، على صد السلجوقيين بهمة وعزم . . .

. . . اليكم حادثة يرويها البروفانسي ريمون من اجيل فى مؤلفه «تاريخ

الفرنجة الذين استولوا على القدس» . ان هذا المعلم الكنسى لم يكن مجرد شاهد حيادى للاحداث التى يصفها ، بل كان يؤدى كذلك وظائف الكابيللان عند ريمون دى تولوز ، وكان ينفذ بنشاط وهمة خطته السياسية اثنـــاء الحملة . اليكم هذه الحادثة .

حين بلغ الصليبيون المحاصَرون فى المدينة حد اليأس وطفقت هلوسات الجوع تعكر صفو عقول الكثيرين منهم ، اعتبر ريمون دى تولوز ، المدعى بانطاكية ، ان الفرصة قد سنحت لكى يرفع مكانته وسمعته بالذات فى عيون المقاتلين الصليبيين – على حساب منافسه بوهيموند من تارنتو . ولهـــذا الغرض قرر ان يستفيد من خدمات كابيللانه ، الرجل التقى الورع والفاره ، الذى يعرف كيف يسهر على مصالح سيده . ان تأجج عواطف الصليبييـــن الدينية قد خلق وضعا ملائما جدا لاجل تنفيذ العملية الدينية السياسيـــة المخططة فى محيط الكونت والهادفة الى زيادة حظ ريمون دى سانجيل ، كونت تولوز ، فى الصراع ضد بوهيموند من اجل امتلاك انطاكية . لقـــد هبطت معنويات الصليبيين ولذا يجب القيام بامر خارق لكى ينتعشوا ويتشجعوا ، علما بان مصدر الهامهم (الربانى الاصل بالطبع) يجب ان يكون على مقربة من الكونت ريمون دى سانجيل . والافضل ان يقودهم الى هذا المصدر رجـــل صادق يعيش بخوف الله .

حاول كابيللان الكونت ان ينفذ بكل مهارة وحذاقة نوايا سيده ، التى كان يفهم جيدا مغزاها على ما يبدو . فقد وجد فى صفوف الجحفل البروفانسى فقيرا اسمه بيار بارتيليمى (Barthélemy) واذا بهذا الرجل يعلن ذات مرة لرفاقه فى السلاح انه رأى فى المنام – وليس مرة واحدة بل خمس مرات ! – الرسول اندراوس وان الرسول اسر اليه بما يلى : فى كنيسة القـديس بطرس بمدينة انطاكية توجد حربة مطمورة هى الحربة التى طعن بها ، كما جاء فى الانجيل ، المحارب الـــرومانى فخذ يسوع المسيح المصلـــوب على الصليب . فاذا وجد الصليبيون هذه الحربة المقدسة المغمسة بدم ابـــن الاله ، فقد خلصوا ! تلك كانت الارادة السماوية التى نقلها اليه ، هو بيار بارتيليمى ، الرسول اندراوس فى حلم الليل .

وعلى الفور ، حسبما روى ريمون من اجيل ، راح الرجل البروفانسى الذى استحق رسالة السماء يروى لريمون دى سانجيل ، عن هذه الرسالـــة . وبالطبع استقبل الكونت استقبالا حارا النبأ المشجع الذى حمله له مواطنه صاحب الرؤيا والنبوءة . يقينا ان بيار بارتيليمى قروى بسيط والبستـــه ممزقة ، ولكن هذا افضل بكثير مما لو ظهر الرسول اندراوس للفارس . فان

الصليبيين الذين يحلمون نهارا وليلا بالخلاص سيصدقون هذا الرجـــــل البسيط بصورة اسرع ! عهد الكونت ببيار بارتيليمى الى الكابيللان ريمون من اجيل ، وامر فى الحال بالتنقيب فى الكنيسة .

ارسلوا الى الكنيسة فصيلة من ١٢ رجلا ، من فرسان وكهنة ، فضـــلا عن بيار بارتيليمى نفسه . واخرجوا جميـع الناس الآخرين من الكنيسة . رفعوا صفيحة وطفقوا يحفرون الارض تحتها . حفروا زمنا طويلا جدا ، يوما كاملا (١٤ حزيران ١٠٩٨) واخيرا — يا للعجيبة ! — ظهرت فى الغسق ، فى قاع الحفرة ، قطعة من حديد صدئ . وكما كتب ريمون من اجيل ، «تعطف الرب على شعبه التقى واظهر لنا الحربة . وانا الذى كتبت هذا قبلتها حين ظهر بالكاد طرف الحربة من الارض» .

وهكذا تحققت اشارة الرسول اندراوس «النبوية» ، وعثر على الحربة المقدسة التى «اعلم» عنها فى الحلم بيار بارتيليمى ، واستخرجت من الارض . ومع هتافات التهليل ، وبمصاحبة انشاد النشيد الكاثوليكى «الحمد لك ، يا الله» ، وضعوا الذخيرة على مذبح كنيسة القديس بطرس . وسرعان مـــا انتشر نبأ اللقية فى معسكر الصليبيين . فارتفع فى الحال مزاج الصليبيين . كتب الفارس انسلم دى ريبمونته الى الاسقف منسّى فى ريمس (فرنسا) : «ان لقية الحربة المقدسة قد انعشت قلوبنا من جديد» . ويقول مدون اخبار فرنسى : «فرحت جميع العساكر واى فرح ، وكان كل يستحث الآخر عـــلى الشجاعة ، ولم يكن من الممكن ان يشبعوا مـــن التحدث عن العون الربانى الذى جاءهم» . ويردد مدون اخبار آخر : «الشعب كله ، ما ان سمع بذلك ، حتى حمد الرب» .

ان الصليبيين الذين كانوا يتحرقون رغبة فى شق الحصار ، والذيـــن احسوا بنهوض العواطف الدينيـــة ، قد امتلأوا بالحماسة القتالية . فمن المؤكد ان الحربة العجيبة ستنتشلهم من المصيبة !

وبالفعل ، بعد اسبوعين ، — فى ٢٨ حزيران ١٠٩٨ ، — تحقق الفصل الثانى من المعجزة التى انبأ بها الرسول اندراوس «بصورة نبوئية» فـــى الحلم . فان الصليبيين الواثقين بان الرمح المقدس سيؤمن لهم النصر عـلى عدوهم كربقا ، قد اندفعوا الى القتال بالبلط والسيوف والرماح ، مستعدين للاقدام على اية مجازفة وتهور لاجل قهر الوثنيين . قاتل الصليبيون بضراوة وعنف . كذلك اشترك الكابيللان ريمون من اجيل فى المعركة : فقد حمـــل فى يديه ، ساندا اثناء سيره رداءه الكهنوتى ، حربة السيد المسيح ، فكان لا بد لمنظره ان يبعـــث القوى فى المهاجمين . وفى ذلـــك اليوم ، هزم

الصليبيون ، وقد شجعتهم لقية الذخيرة النفسية ، جيش كربقا في معركة فاصلة . وقد فر جيش كربقا ؛ ومذ ذاك انتقلت انطاكية نهائيا الى ايدى الغزاة الغربيين . !

الا ان المقاصد السياسية التى رسمها ريمون دى سانجيل ، كونت تولوز ، والتى اخرجت من اجلها المسرحية الدينية قبل المعركة ، لم يكتب لها النجاح . فان بوهيموند من تارنتو ، منافس ريمون دى سانجيل ، هو الذى كان عمليا ، هذه المرة ايضا، منظم النصر على كربقا . وعهد الاسياد الى النورمانى ، رغم عدم رغبتهم ، بالقيادة العليا ؛ وله بالذات كان الصليبيون مدينين من جديد بالنصر على السلجوقيين . وعجزت الحربة المقدسة عن توفير كسب سياسى للكونت ريمون .

اما الدور الرئيسى فى نجاحات الصليبيين ، فلم تلعبه بسالتهم الحربية بقدر ما لعبته الخلافات التى نشبت بين الامراء السلجوقيين عشية المعركة . فقد تأزمت العلاقات بين كثيرين منهم وبين الموصل . وفارق دقاق ، صاحب دمشق ، كربقا ، عندما ابلغوه ان المصريين يستعدون لمهاجمة فلسطين من الجنوب ، كذلك فارقه بعض القادة العسكريين السلجوقيين الذين استاؤوا ، كما يفيد المؤرخ العربى ابن الاثير ، من غطرسة القائد العام الاعلى فى معاملتهم . وانخفض كثيرا عدد افراد قوات المسلمين . وللمناسبة نقول ان الصليبيين لم يعرفوا شيئا عن هذه الخلافات ؛ ففى ٢٧ حزيران اجروا مع كربقا مفاوضات بشأن رفع الحصار عن انطاكية (وكان بطرس الناسك احد المفوضين المرسلين الى السلجوقيين لاجراء المفاوضات) . اخفقت المفاوضات ؛ وفى اليوم التالى قسم بوهيموند جيش الصليبيين الى ست فصائل ، وساق هذه الفصائل الى الهجوم ، وتكلل الهجوم بالنجاح . فعند رؤية الصليبيين يخرجون صفوفا منتظمة من باب انطاكية ، استحوذ الذعر على السلجوقيين الذين كان قد قل عددهم كثيرا . وسرعان ما ولوا الادبار .

فيما بعد كتب الصليبيون الى البابا : «ما ان احرزنا النصر حتى طاردنا العدو طوال اليوم بكامله ، وقتلنا كثيرين من مقاتلى العدو ، ثم تحركنا الى المدينة بفرح وابتهاج» . وهذه المرة استولوا كذلك على قلعة المدينة . فقد حاصرتها فصيلة كونت تولوز ، ولكن آمر القلعة احمد ابن مروان استسلم مع المحاربين الالف الموجودين فى القلعة لبوهيموند عند وصوله الى القلعة ؛ اغلب الظن انه كان قد تم الاتفاق معه بشأن شروط الاستسلام .

بعد ان هزم الصليبيون العدو ، نهبوا كليا معسكر كربقا الذى كان مقاتلوه قد «تركوا خيامهم والذهب والفضة وكثرة من المجوهرات وكذلك

الاغنام والابقار والاحصنة والبغال والجمال والحمير والحبوب والخمور وكثيرا من الاشياء الاخرى التى كنا نحتاج اليها» ؛ هكذا يعدد مدون نورمانى للاخبار الغنائم بنشوة وابتهاج .

الا ان قصة الرمح المقدس ظلت زمنا طويلا تثير المجادلات بين المعاصرين ، بما فى ذلك بين الصليبيين انفسهم .

ان المشتركين فى الحملة الصليبية واولئك الذين عرفوا عن لقية الحربة المقدسة من شهود العيان او من اشخاص ثالثين ، يروون هذه الحادثة باشكال مختلفة . والفوارق فى السرد تعكس الفوارق فى مواقف المؤمنين فى اواخر القرن الحادى عشر واوائل القرن الثانى عشر ، فى مواقفهم من هذا الضرب من الخداع الذاتى الدينى ، الخداع التقى .

عن لقية الحربة المقدسة يحكى باكبر قدر من التفاصيل ملهم اللقية ومنفذ المعجزة ، الكابيللان – مدون الاخبار ريمون من اجيل . فهو يخفى بعناية ودقة الجانب غير المنظور من كل هذه الحكاية التى تثير بالغ الشكوك . فهو يصور فى حكايته لقية الذخيرة المكتشفة بامر من الاعلى بصورة حدث عجائبى حقا ، بصورة ثمرة وحى ربانى وصل الى الصليبيين بواسطة الرسول اندراوس . فرغبة فى «تعزيتهم فى اقصى الحزن» ، اعرب الرب عن عظيم عطفه وطيبته وجبروته «باختياره (لهذا الغرض) فلاحا فقيرا ، بروفانسى المولد» . «بواسطته قوانا الرب جميعنا» . ذلك هو جوهر حكاية ريمون من اجيل البسيطة ظاهريا .

فان بعض الباحثين ممن جاؤوا بعده ، مثل فون زيبل ، قد اعتبروه متعصبا يؤمن حقا وفعلا فى وحى الرب ، وفى الطابع العجائبى لما حدث . وعلى العكس يرى آخرون ، ومنهم كلاين ، انه كذاب «جزويتى حقيقى قبل لويولا» * ، لاعتبارهم انه لم يكن البتة تقيا على العمياء ، بل لجأ عن كامل الوعى والمعرفة ، قصدا وعمدا ، الى الاحتيال الدينى ثم صوره فى مؤلفه بصورة حدث سماوى الاصل حقا . اما الحقيقة فقد كانت بالفعل بين بين . فان ريمون من اجيل كان هذا وذاك . فاذا كان قد لجأ الى الحيلة والكذب ، فان هذا لا ينفى صدق عقائد الكاهن البروفانسى الدينية . لقد تصرف بعميق اليقين والاقتناع بان لقية الحربة المقدسة التى انبأ بها بيار بارتيليمى بصورة نبوئية فى الرؤيا الرسولية معجزة ربانية . ان التخدير الذاتى من قبل المتعصب قد اجتمع بصورة متناقضة عند الرجل الواحد ذاته مع ممارسة

* مؤسس الرهبنة اليسوعية .

الخداع الديني . وفي هذا تكمن السمة الاصيلة الملازمة للوعي الذاتي الديني وللفعل الديني النابع منه لدى المؤمنين من هذا الطراز في القرون الوسطى . فقد كانوا اشبه بالاطفال .

ان المؤمن الذي كان يدوخه في تلك الازمنة هيجان خياله ، مثل الكاهن ريمون من اجيل الذي كان يملك خيالا متوقدا على الطريقة البروفانسية ، كان من الممكن تماما ان يؤمن في حقيقة وصدق الرؤية التي رآها بيار بارتيليمي ، لكن كان من الممكن تماما ان يمثّل بضمير نقي البحث عن الحربة المقدسة التي سبق ان اوحي الرسول اندراوس بموقعها ، كما يقال . وفضلا عن ذلك ، اراد ريمون من اجيل حتى ان يثبت بمؤلفه التاريخي صحة وحقيقة معجزة الحربة المقدسة . ان الهدف من مؤلفه «تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس» يتلخص بالضبط في تبديد شكوك معاصريه بشأن هذه القصة . وبامتعاض جلي ، كتب في «مقدمة» مؤلفه عن اولئك الصليبيين الجبناء وغير الصالحين للحرب ، الذين فروا من صفوف القوات المسلحة ، وشوهوا ويشوهون باقاصيصهم ، حسب زعمه ، الحقيقة التي يعرفها كليا ويعرضون الكذب على انه حقيقة .

لا تناقض هنا ؛ فكان اصدق وجوه الايمان ، واسمى انطلاقات الخيال الديني واعمق التخدير الذاتي تلقى مواصلة واضافة لها في الخداع المباشر . وهذا الانتهاك للفكر السليم والمنطق الاولي هو من سياق الامور بالنسبة للمؤمن في القرون الوسطى ؛ فان الحاجز بين الخيال والواقع ، بين الخيالي والفعلي ، بين الظاهري والحقيقي محطم عنده .

ومع ذلك ، لم يقض الايمان الاشد حرارة قضاء تاما في وعي المؤمنين على المبدأ العقلاني ، ولم يقض لعب الخيال الاشد انفلاتا في التربة الدينية على الفكر السليم حقا ، الامر الذي تدل عليه حادثة ذخيرة انطاكية وعرض وتوضيح هذه الحادثة في مؤلفات مؤرخي القرن الثاني عشر . لقد احتفظ المؤمنون بقسط من الفكر السليم ، متفاوت القدر ، واحتفظوا بالقدرة على النظر الى «المعجزة الربانية» نظرة انتقادية .

في قصة الحربة المقدسة يتبدّى بجلاء التصادم بين النزعة الدينية والنزعة العقلانية الذي صار سمة تميز التفكير المسيحي في ذلك الزمن . فمن جهة ، يتواجد الوعي الديني ، المتجذر عميقا ، التقليدي ، المدفوع الى اقصى حد ، والنفسية الدينية ، ونشوة الخيال الذاتية التي تؤدي الى الاستعاضة عن العلاقات والروابط الفعلية بعلاقات وروابط متخيلة ؛ ومن جهة اخرى ، يتواجد موقف من الواقع ارضي ، منطقي ، عقلاني يتغلغل

بصورة ارسخ فى العقول ، علما بانه ينشأ وينصقل فى حضن هـذه النظرة القديمة نفسها الى العالم وينتشر فى الميدان الدينى .

ولقد تواجد فى معسكر الصليبيين عدد لا يستهان به ممن ارتابوا فى صحة خبر بيار بارتيليمى عن الرؤيا النبوئية كما ارتابوا فـى صحة ظروف البحث عن الذخيرة وايجادها فى كنيسة القديس بطرس . يستفاد من اقوال فارس ومدون ايطالى نورمانى مجهول للاخبار ، اشترك مباشرة فى الاحداث ، وصاحب المؤلف التاريخى المسمى «افعال الفرنجة وغيرهم من القديسين» ، ان الشعب لم يصدق بيار بارتيليمى عندما روى عن ظهور الرسول الدراوس ونبوءته . «كيف يمكننا ان نصدق هذا ؟» . مثل هذه الاحاديث كانت تدور بين الفرسان ذوى الميول التقية تماما . وعندما وجدوا الذخيرة — وبالضبط فى المكان الذى اشار اليه الرسول الدراوس — لم يبدد هذا البتة الشكوك فى صحة المعجزة التى حدثت ، هذه الشكوك التى ترسخت فى نفوس بعض الصليبيين منذ بادئ بدء . واكتسبت وجهة النظر الارتيابية الانصار حتـى بين رجال الدين بمن فيهم كبار اصحاب المقامات الكنسية ممن رافقوا قوات الصليبيين . فقد رفض اديمار ، اسقف فولتيـــل ، رفضا قاطعا ان يصدق المعجزة ، مع انه كان يقوم فعلا بواجبات ممثل البابا لدى قوات الصليبيين ، ومع انه كان على مقربة من الكونت ريمون دى سانجيل ! أن الاسقف ، كما كتب بامتعاض واستياء مؤلف «تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس» ، لم ير فى قصة بيار بارتيليمى «شيئا غير مجرد كلمات» . ان ريمون مـن اجيل لم يستطع ان يكبح غضبه ، واذا به ، كمؤرخ ، يعاقب الاسقف الجزيل الاحترام بارسال روحه . . . الى جهنم . وتبيّن فيما بعد ، بعد وفاة الاسقف (فى اول آب — اغسطس —١٠٩٨) ، انه هو نفسه روى عن المصير المر الذى لقيه بعد وفاته بسبب عدم تصديقه فـــى قصة الحربة المقدسة ، وروى ذلك لا لاى كان بل بالضبط لبيار بارتيليمى الذى ظهر له فى الحلم فى كنيسة الرسول بطرس حيث دفن . وقد اعترف اديمار لبيار بارتيليمى انه رحل الى جهنم حيث عذبوه بقساوة وقال له : «حرقوا رأسى ووجهى كما بوسعك ان ترى» . هذا هو ، برأى ريمون من اجيل ، الذى كتب مؤلفـه التاريخى لارشاد المعاصرين والاخلاف ، المصير المعد بعد الموت لمـن يرتابون فى صدق قصة الحربة المقدسة !

ولكن الاسقف اديمار دى بوى لم يكن المرتاب الوحيـد . فهناك وجه دينى آخر هو فولهير من شارتر (الذى اكد ، كما نقول للمناسبة ، ان اديمار دى بوى قد اعتبر الحربة التى وجدوها فى الكنيسة مصطنعة ، مقلـدة) ،

وكان ، اغلب الظن ، من عداد المرتابين فى صحة قصة الحربة المقدسة ؛ وعلى كل حال ، يكتب هذا المؤرخ الكاهن بخارق الشح وبدون اية حماسة فى مؤلفه «تاريخ القدس» عن اللقية العجيبة . اما مدون الاخبار ورئيس الدير غيبرت من نوجان ، الذى كان يبنى وجهة نظر معاكسة تماما ، فقد روى فيما بعد باستياء وسخط ان بيار بارتيليمى كان ، برأى فولهير ، «مذنبا فى تقليد الحربة» . ان كتاب «تاريخ القدس» يخلو ، والحق يقال ، من مثل هذا النص ، ولكن ارتياب مؤلفه يتبدى فيه (وليس عبثا يصوغ غيبرت من نوجان نفسه وجهة نظر فولهير ببالغ الاحتراس : «كما يقولون عنه . . .») .

بعد وفاة الاسقف اديمار دى بوى بفترة وجيزة ، ترأس المرتابين الاسقف ارنولف ، كابيللان روبر ، دوق نورمنديا . وقد اخفقت جميع محاولات الذين كانوا يؤمنون فى المعجزة (او يتظاهرون بالايمان فيها) لحمل ارنولف على التخلى عن شكوكه .

وهكذا تنوعت ردود فعل الرأى العام فى صفوف الصليبيين على قصة الحربة المقدسة : فان اكثرهم سذاجة – وهؤلاء كانوا الاغلبية – قد اعتبروها بدون اى تحفظ معجزة حقيقية اجترحها الرب ، بينما ارتاب آخرون من ذوى التفكير السليم بوجود حيلة بارعة . كتب المؤرخ والشاعر النورمانى راوول من كايان فى مؤلفه «افعال تنكريد» عن التفسيرات بصدد الحدث العجيب الذى آلم جميع المقاتلين : «كان البعض يمجدون ، وكان الآخرون ينددون ، بحيث ان احدا لم يبق فى معزل» .

وفيما بعد ، تزايد عدد المتشككين وذلك على الاخص لان اهل السماء الذين كانوا «يزورون» بيار بارتيليمى المرة تلو المرة ، غيروا فجأة وجهتهم : فان الرسول اندراوس الذى كان فيما مضى يخاطب الكونت سانجيل بواسطة هذا الفقير ، نصح فى احدى الرؤى الصليبيين باعطاء بوهيموند انطاكية . يبدو ان بوهيموند قد استطاع ان يستغل «موهبة الرؤيا» عند هذا الفلاح فى مصلحته .

تحت ضغط الصليبيين الذين انكروا وحى الرب بنبوءات البروفانسى ، اضطر منظمو المعجزة الى الاقدام بعد مرور فترة وجيزة من الزمن على اخراج تمثيلية دينية جديدة لاجل اقناع قليلى الايمان . وبما ان الرسل والقديسين لم يكفوا فيما بعد عن الظهور لبيار بارتيليمى لكى ينقل ارادة الرب الى زعماء الصليبيين ، تقرر احالة هذا التعيس الى ما يسمى بمحكمة الرب . ففى نيسان (ابريل) ١٠٩٩ ، عرّضوا بيار لامتحان النار . وهكذا اصبح صاحب لقية الحربة المقدسة ضحية لهلوساته بالذات وللمؤامرات الدينية

السياسية التى حاكها زعماء الصليبيين المتنافسين بعضهم ضد بعض ، ومات بعد مرور ١٢ يوما على محكمة الرب من الحروق التى اصيب بها اثناء الامتحان .

لماذا لم يعترف رجال الدين النافذون بصحة معجزة الحربة المقدسة ؟ كان السبب بسيطا : فحتى فى مرحلة ازدهار الصوفية الدينية ، كان رجال الكنيسة يبدون على الدوام قدرا معينا من التعنت حيال العجائب . ومن زمان كان الاباطرة البيزنطيون يطمحون الى امتلاك الحربة المقدسة . وبموجب التقاليد البيزنطية ، نقلت هذه الذخيرة الى القسطنطينية بعد استيلاء الفرس على القدس فى سنة ٦١٤ . وفى القرن الحادى عشر كانت محفوظة فى كنيسة والدة الاله بمدينة فاروس . ويقول مدون الاخبار الفرنسي روبير دى كلارى ان الفرسان الذين اشتركوا فى الحملة الصليبية الرابعة واستولوا فى نيسان (ابريل) ١٢٠٤ على العاصمة البيزنطية قد وجدوا هناك ، فيما وجدوه من مقدسات ، الحربة «التى طعن بها سيدنا المسيح» . ولربما رأى رجال الدين الذين كانوا فى صفوف صليبيى الحملة الاولى الذخيرة ، مثل الاسقف اديمار دى بوى او عرفوا بمكانها . ومهما يكن من امر ، فقد تخوفوا من ان تؤدى الاختلاقات والاحابيل الدينية البيّنة الكذب والسهلة على الدحض والتشهير ، الى تقويض مكانة الكنيسة في صفوف الشعب وليس الى توطيدها . ان ما كان يتحلى به الاسقفان اديمار دى بوى وارنولف النورمندى ، والكاهن فولهير من شارتر وغيرهم من القادة الدينيين لجنود المسيح من فكر سليم له خلفية ووجهة اجتماعية ، مرتبية وقائية ؛ وفى هذه الحالة ، انقذ عدم الايمان بمعجزة الحربة المقدسة مكانة الكنيسة .

ان التمييز بين العجائب الحقيقية والعجائب الكاذبة ، وروح النقد حيال العجائب من الفئة الثانية ، والسعى الى التنصل من الخرافات المقدسة الجلية الخراقة والسخافة التى يختلقها المتعصبون في حمّى الهذيان ، ومن اقاويلهم البعيدة عن التصديق كل البعد – كل هذا كان على العموم سمة مميزة للوعى الدينى فى اواخر القرن الحادى عشر واوائل القرن الثانى عشر ، تتبدى بوضوح فى كثير من اخبار المؤرخين الكنسيين . ولا ريب فى انهم كانوا اناسا مؤمنين ، ولكنهم لم يكونوا براء من عناصر ضرب من العقلانية تطور فى قلب التفكير الدينى نفسه (وقد انعكست هذه العقلانية بتتابع فى الكلامية – السكولاستية – بسبيل النشوء آنذاك) .

وكانت النزعات العقلانية الارتيابية تلازم بقدر اكبر نظرات بعض الفرسان الدنيويين والامراء ممن اشتركوا فى الحملة الى الشرق وممن كان

افقهم الفكرى غير مغلق كليا بالاوهام الدينية ، كما عند بيار بارتيليمى وريمون من اجيل مثلا .

ان واقعة العثور على الحربة المقدسة بفضل بيار بارتيليمى هى بنظر المؤرخ والفارس النورمانى راوول من كايّان مجرد خداع من اعداد ريمون دى تولوز ومقربيه . والفلاح بيار بارتيليمى الذى زعم ان الرسول اندراوس كشف له فى رؤى عديدة مكان الذخيرة وتنبأ له بالنصر على الكفار فى حال العثور على هذه الذخيرة المقدسة («بهذه العلامة تنتصر !») كان مجرد «مخترع داه للكذب» . ولقية الحربة المقدسة فى الكنيسة هى نفسها من صنع هذا الكذاب . وقد كتب راوول من كايان بسخرية عن البحث الذى استمر يوما كاملا عن الذخيرة تحت بلاط الكنيسة والذى لم يتكلل بالنجاح فى الآونة الاولى . وغير ذلك لم يكن من الممكن توقعه ، «لان الارض الرطبة لم يكن بوسعها ان تعيد ما لم يعهد اليها به يوما ، ما لم تتلقاه يوما» .

ويستطرد راوول من كايّان : اما اذا كانوا قد عثروا فى آخر المطاف على الحربة فى كنيسة القديس بطرس ، فليس ذلك الا لان بيار بارتيليمى قام بتقليد جلى ؛ فلاجل الكذب والخداع ، استعمل حربة عربية عثر عليها صدفة واخفاها عنده ، قصد استعماله للخداع . وكان هذا البروفانسى يحسب على الاخص استغلال قطعة الحديد هذه لانها لم تكن تشبه من حيث شكل الحربة وقياسها الحربة العادية . ثم يورد المؤرخ راوول من كايّان التفسير الذى شاع ، اغلب الظن ، فى اوساط المرتابين والذى كان ، كما ينبغى الظن ، غير بعيد عن الحقيقة . «كان (بيار بارتيليمى - **المؤلف**) مسلحا بمعول ؛ وقد اختار اللحظة المناسبة لاجل خداعه ، وقفز الى الحفرة (المحفورة تحت بلاطة فى الكنيسة) مع المعول واقترب من حافة (الهوة) ، وقال «هنا يجب الحفر» . وضرب بيار الارض مرارا عديدة بالمعول وبلغ اخيرا الهدف المنشود : فان الحربة التى دفنها بنفسه بالخداع قد ظهرت فى التربة» . «العتمة ساعدت فى الخداع ، وتجمع الناس ساعد العتمة ، وضيق المكان يسّر تجمع الناس» . بمثل هذه التعابير يكشف راوول من كايّان سر المعجزة ، مجلببا بالخزى والعار بيار بارتيليمى وكذلك - وهذا مهم جدا - الذين كانوا يقفون وراءه .

ومن هنا ينجم ان القصة المغلفة بالضباب الدينى عن لقية الحربة المقدسة ، بوحى من الاعلى ، كما زعم ، تبدو فى مؤلف المؤرخ النورمانى فى ضوء عقلانى بحت ، وتبدو مختلقة سلفا . ويبدو بيار بارتيليمى مجرد

«خالق للخداع» (وهذا التعبير يردده مؤلف «افعال تنكريد» مرتين) .
وهناك واقع آخر واسع الدلالة . ان اللوحة التي رسمها الكاثوليكي راوول من كايان تتطابق في الرئيسي والجوهري مع اللوحة التي رسمها المؤرخ العربي من القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر ابن الاثير ، الرجل من عالم مغاير تماما ، عالم الشرق وعالم الاسلام . ففي معرض الحديث في مؤلفه «الكامل في التاريخ» عن المصائب التي عاناها الفرنجة في انطاكية التي احتلوها ، كتب يقول : «وكان معهم راهب مطاع فيهم . . . فقال : ان المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بانطاكية . . . فان وجدتموها فانكم تظفرون وان لم تجدوها فالهلاك متحقق وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفا اثرها وامرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة ايام ، فلما كان اليوم الرابع ادخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم وحفروا في جميع الاماكن فوجدوها كما ذكر فقال لهم ابشروا بالظفر» * . ثم يتحدث المؤلف عن هزيمة السلجوقيين في جوار انطاكية ويفسرها بالخلافات بين الامراء وكربقا .
اما ان قصة لقية الحربة المقدسة كانت حيلة بدائية بنظر المؤرخ المسلم ، والعدو المقتنع والمتيقن للافرنج الصليبيين ، والمشترك في حروب السلطان المصري صلاح الدين الايوبي ضد مملكة القدس ، فلا داعي الى استغراب ذلك . ولكن من اين تنبع هذه النظرة السليمة الصائبة عند راوول من كايان ، الرجل الذي يقف عموما في تربة العقيدة المسيحية القائلة بالعناية الالهية ؟ ان موقفه العقلاني الى هذا الحد من المعجزة ينبع بقدر كبير من عامل سياسي بحت . فان راوول من كايان قد اعرب قبل كل شيء وبصورة رئيسية عن نظرات القادة النورمانيين في الحملة ، بوهيموند من تارنتو واتباعه وحلفائه . فان امير الايطاليين - النورمانيين بوهيموند ، الطامع بمدينة انطاكية ، قد استقبل ، طبعا ، بعدم الثقة وحتى بالعداء قصة الوحي الرباني بلقية الحربة المقدسة ، اذ انها صدرت من بيئة الصليبيين البروفانسيين ، من وسط افراد قريبين من منافسه في الادعاءات بمدينة انطاكية ريمون دي سانجيل . وكان هذا كافيا لكي ينظر النورمانيون بحذر واحتراس الى قصة الحربة المقدسة .
وفي مجلس الزعماء حيث احتدم الجدال بصدد ظروف العثور على الذخيرة

---

* ابن الاثير . «الكامل في التاريخ» . المجلد ٨ . القاهرة ، عام ١٩٤٠ ، ص ١٨٧ .

وقيمتها الحقيقية ، سخر امير تارنتو على المكشوف من حيلة منافسه . والقى خطابا طويلا حلل فيه هذه الظروف بفائق الدقة ، اذا صدقنا راوول من كايان ولم يترك حجرا على حجر من القصة البروفانسية . وخطوة فخطوة بعــث بوهيموند جميع تفاصيل المسرحية التقية التي اخرجها ريمون دى سانجيل ، وابان خرافة القصة المقدسة التى اشاعها عن المعجزة . ونعت بوهيموند هذه القصة «بالاختلاق الرائع» . وظهور الرسول اندراوس لبيار بارتيليمى كان ايضا بنظره اختلاقا من هذا النوع . ويقــال ان امير تارنتو صاح فــى المجلس : «يا للغباوة القروية ! يا للسذاجة الفلاحية !» .

ان راوول من كايّان ، اذ يروى هذه الواقعة ، لا يكتفى بتفسير بواطن المعجزة ، بل يمضي كذلك الى ابعد ويبيّن لماذا احتاج كونت تولوز بالضبط الى الخداع الورع . فان الكونت اراد ان يستخلص فوائد مادية وسياسية ومعنوية معينة من اختلاقه . فبعد النصر على كربقا ، اخذ ريمون ، كونت تولوز ، وافراد محيطه الذين كانوا قبل ذلك يؤكدون على مآثر البروفانسيين في اكتشاف الحربة المقدسة ، وبالتــالى على تثبيت انطاكية للصليبيين ، يؤكدون بمزيد من الاصرار والمثابرة على ان الكونت ريمون دى سانجيــل بالذات هو الذى يجب ان ينسب اليه مجد هذا النصر ؛ ففى معمعان المعركة حمل المقاتلون الى الامام الحربة بمصاحبة هتاف البروفانسيين .

وهذا يعنى ان ترهة الحربــة المقدسة قد رات النور ، برأى راوول من كايان ، لاجل تعليل ادعاء الزعيم البروفانسى بمدينة انطاكية . و«الكونت دعمه بعض من الامراء الذين تملقهم او قيدهم بروابط التبعية» .

ولكن بوهيموند الذى كان كذلك من جهته على اقتناع بان النصر على كربقــا هدية من الرب العلى للصليبيين اعرب عن استيائــه من كون البروفانسيين يلجؤون الى كذب مهين للمقاتلين و«ينسبون نصرنا الى قطعتهم الحديدية» وصاح امير ترانتو باعتزاز : «لينسبه الكونت البخيل الى حربته . ليسلك الشعب الغبى هكذا ايضا . اما نحن ، فقد انتصرنا ولسوف ننتصر باسم السيد الاله يسوع المسيح» .

امامنا نموذج ساطع من نمــاذج النزعة الدينية المزينة بالعقلانيــة والمدعمة بالعقلانية . فان ازدواجيــة الوعى الدينى القروسطى المشرب بالمبادئ العقلانية الى هذا الحد او ذاك ، تظهر بما يكفى من البروز والسطوع فى الواقعة الموصوفة . ولهذه الازدواجية تفسيرها ؛ فهى تنبع من خصائص فلسفة العناية الالهية التى تعرضت فى اواخر القرن الحادى عشر واوائل القرن الثانى عشر للتفسير السكولاستى (الكلامى) . ثــم ان الارتيابية حيــال

مسرحيات المعجزات ، المسرحيات المصطنعة او المتفننة بنحو غير كاف ، قد نشأت فى آخر المطاف وقبل كل شيء عن ضرورة تأمين مصالح الكثلكة بدأب وتتابع . ولم يكن من شأن دعم المعجزات الكاذبة ، كما يرى رجال الدين ، سوى ان يضر بالايمان والدين . ان الشك فى صحة وحقيقة هذه المعجزة او تلك او حتى انكارها ، كان يستهدف من حيث الجوهر ، التوصل الى اكمل واعمق فهم لاشتراك القوى السماوية «الحقيقى» ، «الفعلى» فى الشؤون الارضية . ولكن ادخال العناصر العقلانية فى تفسير الاحداث التاريخية من وجهة نظر العناية الالهية ادى موضوعيا ، خلافا لنوايا الذين حاولوا توطيد الايمان ، الى تقويض دعائم التصورات الدينية السائدة . تلك كانت نتيجة التغلغل المتبادل والمواجهة بين مبدئين متضادين من حيث الجوهر لتفهم الواقع وتقبله وادراكه : مبدأ الادراك المشوه ، الخيالى (المبدأ الدينى) ، ومبدأ الادراك السليم منطقيا ، النابع من الفكر السليم ، مبدأ الادراك العقلانى .

فى تلك الازمنة التى نتحدث عنها ، كان المبدآن يتعايشان فى اطار عقيدة دينية مشتركة تسود على العقل والمشاعر . ولكن لا المتعصبون الدينيون ، ولا العقلانيون الذين حملوا الى ايمانهم هذه القيود او تلك ، التى يمليها العقل ، كانوا يملكون على الصعيد الاخلاقى والمعنوى اية مزايا يتفوقون بها بعضهم على بعض ؛ فان الناس الاتقياء بغيرة وحماسة من طراز ريمون من اجيل ، والفرسان الميالين الى القتال وذوى التفكير المعيشى الارضى من طراز تنكريد ، كانوا فى آخر التحليل يعتنقون ايمانا واحدا ، ودينا واحدا ، ونظرات واحدة وكانوا يتمسكون باخلاق واحدة ، فى ذلك الزمن كان فجر العقل لا يزال فى مطلعه * .

امارة انطاكية . مواصلة الحملة

بقى الصليبيون فى منطقة انطاكية نصف سنة . واسباب ذلك مختلفة : التعب العام ، والرغبة فى تجنب قيظ الصيف المضنى الذى لا يطاق ، ونقص المأكولات ، والسعى الى الخروج من المدينة ، وان موقتا ، نظرا للوباء الذى

---

* تجدر الاشارة الى ان الكردينال بروسبيرو لامبرتينى ، الذى صار فيما بعد البابا بنديكتوس الرابع عشر (١٧٤٠-١٧٥٨) قد انكر رسميا فى القرن الثامن عشر صحة قصة الحربة المقدسة الانطاكية .

نشب هناك (اغلب الظن ، وباء التيفوس ؛ وفى اول آب — اغسطس ، كما سبق ان قلنا ، توفى الاسقف اديمار دى بوى نفسه) . ولذا صارت الاقامة فى انطاكية محفوفة بالمخاطر . اما السبب الرئيسى ، فقد تلخص فى تحرق الدوقات والفيكونتات الى تثبيت الاراضى المجاورة للمدينة لانفسهم . والى هذه الاراضى راحوا مع فرسانهم وحملة سلاحهم . اتجه بوهيموند الى قيليقيا — لاجل تعزيز الحاميات المتروكة هناك — وغودفروا دى بويّون الى تل بشير ورافندان ، وروبر النورمندى الى اللاذقية ، من حيث سرعان ما طرده السكان المحليون مفضلين على فرسان الدوق الحامية البيزنطية التى قدمت من قبرص .

ولم يرجع رؤساء المقاتلين الصليبيين مع فصائلهم الى انطاكية الا فى ايلول (سبتمبر) ، ولكن الوقفة فى الحملة استمرت بعد ذلك . وتورط الصليبيون هنا بضعة اشهر اخرى . وفى ١١ ايلول (سبتمبر) ١٠٩٨ وضع القادة ، تبريرا لموقفهم ، رسالة طويلة الى البابا اوربان الثانى ، فتحدثوا بالتفصيل عن حصار انطاكية وفتحها وعن قصة الحربة المقدسة وظروف هزيمة كربقا . وختاما ، خاطب «قديسو يسوع المسيح» ، كما سمى اصحاب الرسالة انفسهم ، البابا داعينه الى ان ينجز بشخصه بالذات المشروع الذى قاموا به استجابة لندائه : «تعال الينا ، واقنع جميع من تستطيع اقناعهم بالمجيىء معك» . وآنذاك ، كما وعد الصليبيون البابا ، «سيخضع العالم كله لك» . وبانتظار الجواب ، لم يستعجل الامراء التحرك من مكانهم . ولكن هذا ايضا لم يكن سوى ذريعة لاجل التأخر . من ذا الذى سيملك انطاكية ؟ ذلك هو السؤال الذى واجه الزعماء على المكشوف واثار خلافات عميقة بينهم . وهذا بالذات هو ما حال دون الصليبيين ومواصلة الزحف .

كان بوهيموند من تارنتو وريمون من تولوز المدعيين الرئيسيين بانطاكية . وكان فرسان الاول يشغلون قلعة المدينة وقسما كبيرا من المدينة ؛ وكان فرسان الثانى يشغلون قصر ياغى سيّان والبرج قرب الباب ، وقرب جسر نهر العاصى . وفى كنيسة القديس بطرس بانطاكية كانت تجرى مداولات لا نهاية لها لرؤساء الصليبيين ؛ كانوا يتناقشون حتى البحاح فى الحل العادل لاهم قضية بالنسبة لهم فى اللحظة المعنية ، قضية تسليم السلطة على انطاكية . وكان كل من المتنافسين يحاول ان يثبت ، والزبد على شفتيه ، مقدار اهمية القسط الذى اسهم به فى فتح المدينة ، وبالتالى حقوقه المفضلة بالذات فى امتلاك المدينة . حظى بوهيموند بدعم الفرسان النورمانيين والفرسان الفرنسيين الشماليين ، والكونت ريمون دى سانجيل

بدعم الفرسان البروفانسيين . كتب راوول من كايّان : «الناربونيون ، والافرنيون والغاسكونيون – جميع هذه القبائل التحقت بالبروفانسيين ؛ اما الى الابوليين (اى النورمانيين – المؤلف) ، فقد مالت كل بقية بلاد الغال فى المؤامرات» .

لم تكن اغلبية الاسياد ترغب فى مشاطرة وجهة نظر ريمون دى تولوز ، الذى كان يؤكد بعناد غير مفهوم انه يجب تسليم انطاكية – بموجب التزامات التبعية – الى الامبراطور البيزنطى . ذلك انه هو بالذات ، الكونت ريمون دى سانجيل ، رفض قطعا منذ وقت قريب حلف يمين التبعية للامبراطور الكسيوس الاول ! وها هو الآن يفضل بكل وضوح زعامة بيزنطية الاسمية على انتقال السلطة فعلا الى بوهيموند من تارنتو .

ان موقف كونت تولوز بدا لغودفروا دى بويّون ، وروبر من الفلاندر ، وروبر من نورمنديا وغيرهم من الاسياد والاساقفة البارزين غير مقبول ، خصوصا وانه اصبح من الجلي فى ذلك الوقت انه لا يمكن توقع اية مساعدة فعالة نوعا ما من بيزنطية . وبالفعل ، عندما ارسلوا هوغ فرمندوا (وكان يرغب فى العودة نهائيا الى فرنسا) – الى الامبراطور الكسيوس كومنينوس لاستيضاح نواياه (وكان ذلك فى تموز – يوليو ١٠٩٨) وجد الامبراطور فى القسطنطينية . وتبين ان الامبراطور لا يفكر البتة فى مساعدة الصليبيين . وبينما كان الصليبيون يقاتلون فى سوريا ، استغل الفاسيلفس الداهية وضع السلجوقيين الصعب ، وانتزع منهم واعاد الى الامبراطورية ازمير وافسس وبعض المدن والمناطق الاخرى سواء فى الغرب ام فى المقاطعات الداخلية من آسيا الصغرى . واخذ يعتبر الآن انه لا امل فى احتمالات نجاح الحملة الصليبية ؛ فان الفارين الذين غادروا انطاكية اثناء حصارها من قبل كربقا وفى المقام الاول الكونت ايتيان دى بلوا ، كانوا ينقلون الواحد تلو الآخر الى الكسيوس الاول اخبارا سيئة عندما كان مع قواته فى اعماق آسيا الصغرى ، قرب فيليوميل . لم يبق من الممكن انقاذ الصليبيين ! وان بيار من اولن ، ذلك الفارس الذى سعى الى الحصول على كومانا ونالها ، قد ابلغ الامبراطور ان الروم ، اذا ما مضوا الى انطاكية ، قد يتعرضون قبل الوصول اليها لهجوم جيش سلجوقى آخر يتجه الى ابادة الصليبيين . كذلك اوصى مستشارو الفاسيلفس بالاجماع ان يتخلى عن الصليبيين ، فانطلقت قواته شمالا ، الى عاصمة الامبراطورية . مصالح بزنطية – ذلك ما يجب مراعاته فى المقام الاول ! وانقطعت عمليا جميع الاتصالات مع الفرسان .

فى هذه الحالة اقترف الامبراطور البيزنطى خطأ سياسيا ؛ فقد ترك

الصليبيين وشانهم ، لحكم القدر ، وبذلك قوض الثقة فيه ، فوق ما هي من ضعف وتقلقل . ثم ان رفض الامبراطور مساعدة الصليبيين زاد من حظ بوهيموند في خلافه مع ريمون دي سانجيل ؛ فان قادة الصليبيين وقفوا بمعظمهم الى جانب امير تارنتو . وبعد مهاترات طويلة في المجلس في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٠٩٨ (وكادت الامور ، حسب ما قاله مدون الاخبار البروفانسي ، تصل الى حد التضارب) تقرر تسليم بوهيموند انطاكية . الا ان ريمون دي سانجيل ، ظل حتى رغم مرضه الشديد الوطأة ، يحتفظ بعناد في المدينة بالمواقع التي يشغلها . وكان الجميع يكرهون الكونت ريمون دي سانجيل ، كما يقول معرّفه ، بسبب جشعه الذي لا حد له ! ومهما يكن من امر ، كانت ثلاثة ارباع انطاكية تقع فعلا تحت رقابة الخصم النورماني . صحيح ان بوهيموند اقسم اليمين امام الملأ — كما طالب ريمون دي تولوز — بان يشترك في الحملة حتى القدس بالذات ، ولكن كان من الواضح للكثيرين انه قد بلغ هدفه في سوريا .

وهكذا ، في اواخر سنة ١٠٩٨ ، تأسس كيان كبير ثان للصليبيين في الشرق ، عنينا به امارة انطاكية .

الا ان سائر زعماء الصليبيين لم يستعجلوا هم ايضا في مواصلة الزحف ؛ فقد انصرفوا كليا الى عمليات الاغتصاب والنهب والسلب في المناطق المجاورة لانطاكية . فان منال بودوان من الرها وبوهيموند من انطاكية كان معديا . وقد خيل ان الفرسان نسوا تماما الارض المقدسة . وبقدر ما كان يمر الزمن ، بقدر ما كان يتجلى طابع الحملة الصليبية العدواني الاغتصابي . واكثر فاكثر كانت تنشب الخلافات والخصومات بين الغزاة . كتب احد مدوني الاخبار : «كل مكان اعطانا اياه الرب كان يثير الجدال» .

كان كبار القادة وبسطاء الفرسان على السواء يعادون بعضهم بعضا ، «بحيث انه كان ثمة قليلون من الناس» — كما لاحظ ريمون من اجيل — «لم يتخاصموا مع زملائهم او مع خدمهم بسبب الغنيمة او بسبب المسروق» . كان كل يجهد لاستباق الآخرين في الاستيلاء على القرى والمدن والقلاع السورية . وكانت حصة الاسد من الغنيمة من نصيب الاقوياء . ولم تكن المخاصمات تنشب بسبب الاراضي الشاسعة نسبيا وحسب ، بل ايضا بسبب رغبة كل من الطامعين في ان يثبت لنفسه دائرة معينة من مدينة ما ، او افيد استحكاماتها وابراجها وبواباتها وجسورها موقعا .

وقد شق نزاع حاد صفوف قوات الصليبيين في قلعة معرة النعمان

السورية (جنوب شرقى انطاكيـة) الى حيث راحت فى اواخر تشرين الثانى (نوفمبر) فصائل البروفانسيين التابعة لكونت تولوز . فان بوهيموند لم يشأ ان يتنازل لخصمه عن هذه القلعة المهمة واسرع فى اثره . استمر حصار القلعة اسبوعين . وتم فتح المدينة فى وقت واحد تقريبـــا — من جوانب مختلفة — من قبل النورمانيين والبروفانسيين (١١ كانون الاول — ديسمبر ١٠٩٨) . نهبوا المدينة بلا رحمة وابادوا السكان بلا شفقة . قال فارس من حاشية بوهيموند : «كان الافرنج يقتلون كل مسلم ، سواء كان رجلا ام امرأة ، حيثما يجدونه» . وقد تميز بوهيموند فى معرة النعمان ببالغ القساوة والجشع والغدر . فعند احتلال المدينة ، امر بواسطة المترجمين بان «يجتمع» سكان المدينة «مع نسائهم واولادهم واموالهم فى القصر القائم اعلى من البوابة واعدا شخصيا بانقاذهم من الموت» . وعندما اجتمع السكان هناك ، «قبض عليهـــم الامير وانتزع منهم كل مـــا معهـــم اى الذهب والفضة ومختلف المجوهرات . . . امر بقتل بعضهم ، وبسوق البعض الآخر الى انطاكية لاجل البيع» . كذلك برهن خصمه ريمون دى سانجيل عن القساوة ذاتها . بل ان البروفانسيين تفوقوا على النورمانيين فى نهب المدينة ؛ فقد قرروا اجبار السكان الذين اختبأوا فى الاقبية على الخروج منهـا بفعل النار والدخان . ويعرب مدون اخبار ريمون من اجيل عن الاسف لكونهم «وجدوا القليل من الغنائم» هناك .

قتلوا جميع سكان المدينة : «كانوا يرمونهم من اسوار المدينـــة» . ويروى المؤرخ العربى ابن القلانسى ان الافرنج « نهبوا ما وجدوه وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به» * . فى ذلك الوقت حاول كونت دى تولوز ان يأخذ فى يده قيادة جميع المقاتلين . وعلى سبيل الرشوة ، عرض الكونت مبالغ نقدية كبيرة على سائر القادة ؛ فقد حسب ان يرشو غودفروا دى بويّون بـ١٠ آلاف سوليد ، وروبر من الفلاندر بـ٦ آلاف سوليد ، وتنكريد بـ٥ آلاف سوليد وحصانين ، والزعماء الآخرين «تبعـا لمن كانوا» . الا ان الامراء ، ما عدا تنكريد ، رفضوا هذه العروض .

بعد مرور فترة وجيزة على فتح معرة النعمان التى بقى فيها الغزاة اكثر من شهر ، نشبت الخلافات من جديد بين النورمانيين وبين الفرسان من فرنسا الجنوبية . وقد بدأت هذه الخلافات ، كما يروى مدون اخبار بروفانسى ، لان

---

* اسامة بن منقذ . «كتاب الاعتبار» . بريستون ، الولايات المتحدة ، عام ١٩٣٠ . ص ١٣٦ .

فرسان بوهيموند استولوا على معظم الابراج والبيوت والاسرى مع انهم لم يقاتلوا بما يكفى من الضراوة فى المعركة .

ان هذه الوقائع وغيرها من الوقائع التى نعرفها من شهود العيان تقدم البرهان الساطع على ان تلك الوحدة التى اطراها مدونو الاخبار اللاتين الذين رووا احداث الحملة الصليبية واى اطراء لم تكن تتوفر بأى قدر كان فى صفوف القوات المسلحة الاقطاعية الغربية . ولذا يتعين الكلام اقل من ذلك عن الوحدة التى تمليها ، كما يزعم ، اهداف المشروع الدينية ، عن «وحدة الايمان فى المسيح» . ان تلاحم الغزاة والنهابين كان فى منتهى الضعف والهشاشة ، وكان يخلى المكان بكل سهولة للتطاحن والتكالب حين كانت تتصادم المصالح الدنيئة والانانية لزعماء عصابات الصليبيين بعضها ببعض . وفى سوريا ، تبدى بكل جلاء تقلقل «وحدة الغرب» المزعومة فى الحملة الصليبية . وهذا التقلقل لم ينعكس فى النزاعات الدائمة بين الاسياد ، بين هذه او تلك من فصائل الفرسان وحسب ؛ ففى صفوف المقاتلين ، بدأت تتكشف ، ثم سرعان ما تفجرت كليا تناقضات من نوع آخر ايضا – هى التناقضات بين الفلاحين الفقراء وبين الاقطاعيين .

التناقضات الاجتماعية فى صفوف الصليبيين

يصف مدونو الاخبار الكاثوليك بكل جهد وحمية العلاقات الاخوية التى كانت تربط ، بزعمهم ، جميع الصليبيين ، بصرف النظر عن انتمائهم الاجتماعى ، فى جيش واحد متراص ، هو جيش جنود المسيح . ويرسم المداحون صورا مؤثرة عن زوال الفوارق الاجتماعية نظرا للهدف الدينى المشترك – وهو تحرير قبر السيد المسيح . كتب غيبرت دى نوجان يقول انه يجدر العجب من «ان الصغار والكبار» فى هذا الجمع اللجب من ابناء بلدان مختلفة «قد وافقوا بالقدر نفسه على حمل النير الواحد نفسه تحت سلطة السيد الاله ، بحيث ان القن لم يعد يعتبر السيد سيدا وبحيث لم يعد السيد مرتبطا بالقن بروابط غير روابط الاخوة» . واذا اخذنا باقوال فولهيير من شارتر ، كان الصليبيون على اختلاف مراكزهم الاجتماعية نزهاء غير مغرضين ، حسنى النية بعضهم حيال بعض ، مستعدين دائما لمساعدة بعضهم بعضا . «اذا اضاع احد شيئا ما ، كان الذى يعثر عليه يحفظه عنده بعناية اياما عديدة الى ان يجد بعد السؤال والبحث الشخص الذى اضاعه ويعيده اليه» .

بيد ان الاحداث التي جرت في سوريا بعد فتح انطاكية تبيّن ان هذه الاوصاف لا تتطابق البتة مع الواقع . فان قوات الصليبيين لم تكن متراصة ومتماسكة اجتماعيا ، ولم تكن تمثل البتة «شعب الله» الواحد ، كما يصورها المؤلفون الكنسيون من القرن الثاني عشر . بل بالعكس . فان هذا الجيش ، كما سبق ان قلنا ، كان عبارة عن خليط من فئات اجتماعية مختلفة ذات مصالح متناقضة تماما احيانـــا . فالى جانب الفرسان اشترك في الحملـــة الصليبية عشرات الآلاف من الفلاحين الاقنان . كان التحرق الى فتح الاراضي يهيج الفرسان ، بينما كان الفلاحون يتحرقون الى الحرية . ومع ان هؤلاء واولئك ساروا تحت الرايات الدينية الواحدة نفسها ، الا ان حركتين مختلفتين على الصعيد الاجتماعي تشابكتـــا من حيث الجوهر في الحملة الصليبية ، احداهما تحررية اساسا هي حركة الفلاحين الاقنـــان ، والثانية عدوانية اغتصابية هي حركة الاقطاعيين . وكانت الاوساط العليا الاقطاعية تستهدف مصالحها الطبقية وقلما كانت تهتم بمصير جمهور الفقراء .

اثناء الحملة ضاعف الصليبيون الاريستقراطيون ثرواتهم اضعافا . وعن ريمون دي تولوز ، كتب كابيللانه : «بينما انفق الآخرون اموالهم ، تعاظمت ثرواته» . ولم يكن الاسياد ليتورعون حتى عن استغلال مصاعب الصليبيين العاديين من صفوف الفقراء لاجل الابتزاز . وكان الفرسان من محيط ريمون ذاته ، كونت دي تولوز ، يقتلون الاحصنـــة سرا ، ويبيعون لحم الخيول باسعار باهظة من الفقراء الجياع .

ومن جهة اخرى اشتد املاق جمهور الفرسان «المعدمين» في الطريق ، وبخاصة في ايـــام حصار الصليبيين لانطاكية ، وحصار انطاكية من قبـــل السلجوقيين . وواجه آلاف الزراع الذين التحقوا بحملة الفرسان حالة في منتهى الحرج . وكان بينهـــم عدد لا يستهـــان به من الشيوخ والنساء والمشوهين . وفي كثير من الاحيان ، كانـــوا يتاخرون عن غالبية الجيش ويسيرون في اثره على بعد معين . ونادرا ما نجد في الاخبار وصفا لمنظر هذه الجموع الخارجي . وحين روى ريمون من اجيل عن ظهور القديسين بطرس واندراوس لبيار بارتيليمي ، وقال انهما ظهرا له في الحلم «في لباس قذر مهترئ . كان القديس اندراوس يرتدي قميصا قديما ، ممزقا على الكتفين ، وكانت مزقة تطل من شق على الكتف اليسرى ، ولم يكن ثمة شيء على الكتف اليمنى ؛ وكان يحتذي حذاء رديئا . اما بطرس ، فقد كان في قميص خشن طويل حتى العقب» ، فان مدون الاخبار ، على ما يبدو ، قد صور رسوليه نقلا عن اشخاص واقعيين ، عن الذين كانوا ينتمون الى الفقراء والبسطاء .

اثناء الحملة اشتدت المتضادات بين اوضاع الفقراء واوضاع النبلاء ، وعمقت اعباء الحرب الهوة بين الشعب البسيط الذى امسى ضحيتها الاولى من جهة ، وبين الفرسان ، وبالاحرى قادة الصليبيين ، من جهة اخرى . وبالنتيجة اخذت العلاقات بين عناصر القوات الصليبية ، المختلفة من حيث الطبيعة الاجتماعية ، تتوتر اكثر فاكثر . وتدريجيا شرع الفلاحون ، وكذلك الفرسان الصغار الذين وجدوا انفسهم عمليا فى وضع قريب من وضع الزراع الذين تركوا حقولهم ، يمتلئون بالحذر وعدم الثقة حيال الاسياد .

وقد تجلت خضومة هؤلاء واولئك فى البنية التنظيمية بالذات للجحافل الصليبية . فان بعض جماعات الفقراء ، المفعمة ، على ما يبدو ، بعداوة خاصة حيال الاسياد والفرسان ، قد حاولت السير بمعزل عن سائر الصليبيين ـ ان «الشعب الحافى» ، كما كتب غيبرت من نوجان ، سار امام الجميع وشكل فصائل خاصة ، سماها غيبرت من نوجان بالطافورات . كذلك جاء ذكر الطافورات فى الملحمة «نشيد انطاكية» التى انشئت فى القرن الثانى عشر . ويرى غيبرت من نوجان ان كلمة «طافور» «بربرية الاصل» ومعناها «الافاقون» ، «المتشردون» . وحتى الآن لم يثبت المؤرخون اصل هذه الكلمة ، ومنهم من يعيدها الى فعل «طفر» العربى ومعناه اصلا «وثب فى ارتفاع» ، ومعناه فى الاستعمال الشعبى «تشرد» ، «افق» ، «ترك ربعه وخرج على غير هدى ساعيا وراء امر ما» . ولكنه معلوم على كل حال ان الطافورات كانت تتألف من الفقراء ، وان سلاح هؤلاء كان يتألف من الهراوات والخناجر والمطارق الحجرية . وكان رجال الطافورات لا يعترفون بالقيادة الاقطاعية (وهذا ايضا سمة من سلوكهم ذات دلالة واسعة جدا) . يقول غيبرت من نوجان انهم «كانوا يسيرون بدون السيد ، وانهم كانوا ينظرون الى الفرسان والى الاعيان بعداء غير مخفى . وكانوا يختارون بانفسهم لانفسهم الآمرين» . ويعتقد غيبرت الذى نقل فى هذه الحال اسطورة وليس واقعا فعليا ، ان «ملك الطافورات» كان نورمنديا ، «كما يقولون ، انسانا غير مجهول النسب ، تحول من فارس الى ماش ، ورأى انهم يسيرون بلا رئيس ، فتخلى عن سلاحه وعن لباسه العادى ، ورغب فى ان يصبح ملكهم» . وبين الفينة والفينة كان هذا الآمر يستعرض قواته ويتفحصها : «كانت عنده عادة مترسخة ، مفادها ما يلى : عندما كان الشعب السائر بقيادته يقترب من جسر ما او من ممر ضيق ، كان («الملك» — **المؤلف**) يسرع ليشغل المدخل وكان هنا يفتش الجميع واحدا تلو آخر تفتيشا فى غاية الدقة» . واذا ما تواجدت مع احد ما نقود او قيم ما ثمنها سوليدان ، فقد كان الآمر يفصله على الفور

بسلطته ، ويأمره بشراء السلاح ويجبره على الانتقال الى المقاتلين المسلحين . اما الذين كانوا - حسب اقتناعه - «يحبون النظام العادى (فقرهم - **المؤلف**) ، والذين لم يكن معهم نقود ، ولم يتزودوا بها ولم يعتزموا التزود بها ، فقد كان يضمهم الى رجاله» .

اغلب الظن ان هذه التفاصيل شبه اسطورية ، ولكنها ذات دلالة واسعة جدا : فان الصليبيين الفقراء لم يكونوا يصبرون في بيئتهم على كل من كان ، من حيث وضعه المادى ، قريبا - لدرجة ما ، وان من نفقات الاقطاعيين الدنيا . كانوا يطردونه ويرسلونه الى الفرسان . كتب غيبرت من نوجان : «كان ملك الطافورات يميل الى الظن ان امثال هؤلاء الناس لا يصلحون لاجل القضية المشتركة ، وانه لو كان عند الآخرين نافل ، لانفقوه بدون اى نفع» . ولذا كان المقاتل الميسور لحد ما يبدو في عيون الفقراء غريب الاطوار . وكانهم كانوا يشعرون بانه عدو بالقدرة - على الصعيد الاجتماعى بالطبع . وكان الصليبيون الاقطاعيون بدورهم يخافون بعض الخوف من الطافورات ، رغم سلاحها البدائى . ويستفاد من بعض ابيات «نشيد انطاكية» ان زعماء فصائل الفرسان كانوا لا يتجاسرون على الاقتراب منها الا بعد اتخاذ جميع تدابير الاحتراس والحيطة .

وفى معرض الكلام عن الطافورات ، يشير مدون الاخبار الفرنسى الى دورها الكبير في العمليات الحربية ، والى جلدها . ومن روايته ينجم بكل وضوح ان الاقطاعيين كانوا يستغلون جمهور الفقراء المتعصبين كقوة خشنة ويلقون عليه اشق اعمال القتال . وقد كتب غيبرت من نوجان يقول : «وليس من الممكن القول الى اى حد كانوا ضروريين عند نقل المؤن ، وتقديم العون ، ورمى الحجارة اثناء حصار المدن ، لانهم كانوا دائما ، اثناء نقل المشحونات ، يسيرون في مقدمة الحمير وماشية الجر ، وكذلك عندما كانت ضربات الحجارة تدمر منجنيقات العدو وسلاحه» .

ان الوقائع التى ينقلها مدونو الاخبار وتنقلها الملحمة مغلفة بضباب الاسطورة ، ولكنها تبين مع ذلك بوضوح ان خصومة اجتماعية حادة كانت بارزة فى صفوف القوات الصليبية . ولم يكن الفقراء يميلون الى ابداء الحب المسيحى حيال الاسياد . وفى اللحظات الحرجة من الحملة ، عندما كانت التناقضات الاجتماعية تتبدى بصورة احد من المعتاد ، وعندما كان اختلاف الدوافع والاهداف يفرق ببالغ العمق والبعد بين الصليبيين الاقطاعيين والصليبيين الفقراء مع قسم من الفرسان الفقراء المنضمين اليهم ، كانت هذه التناقضات تبرز بصورة سافرة تماما . وهذا بالذات ما حدث فى انطاكية

ثم فى معركة النعمان فى اواخر سنة ١٠٩٨ عندما نشبت فى صفوف القوات الرئيسية اضطرابات معادية للاقطاعيين (يسميها مدونو الاخبار ، طبعا ، «بالفتن») .

فى منطقة انطاكية ، ظهرت تطلعات الاسياد والفرسان الاكتسابية البحتة بكل جلاء ؛ فان نزاعاتهم على كل قطعة صغيرة من الاراضى المغتصبة قد حجبت كليا اهداف المشروع المشتركة ، اى التقية الورعة ، كما كانت تصورها البابوية . ولكن امانى الفقراء التحريرية — السبب الاهم لاشتراكهم فى الحملة — لم تنطفئ شعلتها ؛ وقد ظلت ترتدى ، كما من قبل ، بين الصليبيين البسطاء ، الشكل الدينى . ان تحرير القدس من «الكفار» هو الذى كان فى عيون الجمهور الهدف الحميم . وبلوغه كانت تقترن آمال غامضة فى حياة افضل فى ارض الميعاد .

ان النزاع الذى نشب بين بوهيموند ، امير تارنتو ، وريمون ، كونت تولوز ، بسبب امتلاك انطاكية ، والذى اخر الحملة الصليبية نصف سنة ، كاد يثير انفجارا سافرا من الاستياء والغضب فى صفوف العامة من الصليبيين . فقد تأكد الفقراء مرة اخرى من ان الاسياد لا يهتمون البتة بشؤونهم وان «مصالح الفقراء لا يؤبه لها اطلاقا» ، كما كتب احد مدونى الاخبار . فشرعوا يطالبون بمواصلة الزحف . ولكن ريمون من اجيل لم ير سبب الاستياء الا فى كون الفقراء كانوا يسترشدون حصرا بالرغبة فى بلوغ القبر المقدس بأسرع وقت . اما فى الواقع ، فان المسألة لم تكن مسألة الغيرة الدينية عند «الشعب الحافى والرث الثياب» بقدر ما كانت مسألة التنافر الجلى بين ادعاءات الزعماء الاغتصابية وامزجة الفقراء المعادية للاقطاعيين والمغلفة بالغلاف الدينى .

ان التذمر ضد الزعماء الذى تبدى اثناء وجود القوات المسلحة فى انطاكية اخذ يهدد بالخطر . وبعد فترة وجيزة شمل كل جمهور الصليبيين البسطاء . قال ريمون من اجيل : «عندما رأى الشعب ان الحملة تتأخر ، طفق كل يقول بصراحة لرفيقه وجاره ، الى ان تذمر الجميع : «اذا كان الزعماء ، اما بسبب الخوف ، واما بسبب اليمين التى اقسموها للامبراطور ، لا يرغبون فى قيادتنا الى القدس ، فهيا بنا ننتخب بانفسنا لانفسنا مقداما من الفرسان نتمكن ، بخدمته بوفاء واخلاص ، من ان نكون فى امان ، ونصل بقيادته ، وبرحمة الرب ، الى القدس» . واخذت اصوات الاستياء والغضب ترتفع وتدوى اكثر فاكثر : «ما هذا حقا وفعلا ؟ الا يكفى قادتنا ، يا ترى ، اننا مكثنا هنا سنة كاملة وان مائتى الف مقاتل قد لقوا مصرعهم هنا ؟» .

واقتحم مقاتلون عاديون مجلس الاسياد المنعقد فى كنيســة القديس بطرس وقالوا : «ان من يريد ان يملك ذهب الامبراطور ، فليملكه ، ومن يريد ان يحصل على دخل من انطاكية فليحصل عليه . اما نحن الذين نمضى الى القتال من اجل المسيح ، فاننا سنواصل السير بوحيه . وليمت شرا اولئك الذين يرغبون فى العيش فى انطاكية ، كما مات سكانها مؤخرا» .

وحين استعمل الفقراء تعبير «سنواصل السير بوحى المسيح» ، كان ذلك احتجاجا اصيلا ، مزينا بالرداء الدينى ، على القيادة الاقطاعية ، بل كان ، فضلا عن ذلك ، احتجاجا على الاهداف العدوانية والاغتصابية من الحملــة الصليبية ، الغريبة عن الفقراء . وكان هذا التعبير يشبه تقريبــا الصيغة التى استعملها غيبرت من نوجان حين قال عن رجال الطافورات انهم كانوا يسيرون بدون سيد . ولكن الفقراء المتاججين بالغضب اخذوا الآن يهددون القادة على المكشوف . «اذا استمر كل هذا ، فاننا سنهدم اسوار انطاكية . . . واذ ذاك ، بعد دمار المدينة ، سيسود بين الزعماء ذلك السلام الذى كان بينهم قبل فتح انطاكية» . والى هذا التهديد اضيف تهديد آخر ليس اقــل جدية هو التهديد بوقف الحملة كليا والعودة الى الوطن . «والا ، فانه سيتعين علينا ان نعود الى بيوتنا قبل ان نموت جميعنا جوعا او حزنا» . ولا جدال فى ان الجمهور كان يميل الى التمرد والعصيان : ففى الشعب ، كما لاحظ غيبرت من نوجان ، بدأت تتبدى «حريات لا يصح لهـــا ان تكون» . كف الصليبيون البسطاء عن الخضوع لاى كان . وظهرت حتى افكار تمردية تماما مفادها ان الجميع متساوون فيما بينهم .

ان غضب الجمهور فى منطقة انطاكية كان رهيبــا الى حد انه ارعب المسؤولين الرئيسيين عن التاخر — كونت تولوز وامير تارنتو . وقد «عقدا فيما بينهما صلحا غير وطيد ؛ وفى اليــوم المعين صدر الامر الى الشعب بالاستعداد للانطلاق فى مسيرة النذر» .

اوقفت المساومة بين الزعيمين المتنافسين انفجــار التمرد المهدد من جانب العامة .

وفى منطقة معرة النعمان تكرر الوضع كما كان فى منطقة انطاكية ، ولكن بشكل احد ، اذ ان شيئا لم يستطـــع ان يحول دون الفقراء والانتفاضة السافرة . فردا على المجادلات غير المنقطعـــة بين بوهيموند وريمون دى سانجيل بسبب هذه المدينة ، تفجر فى شتاء ١٠٩٨-١٠٩٩ الغضب المكبوح زمنا طويلا .

... وغضب الفقراء حين علموا ان الكونت ينوي ان يبقي في معرة النعمان عددا كبيرا من الفرسان والمشاة من جحفله لاجل حمايتها ، دوت الخطابات : «كيف هذا ؟ جدال بسبب انطاكية وجدال بسبب معرة النعمان ! وبسببه كل مكان اقد يعطينا اياه الرب سينشب خصام بين القادة ، وسيقل عدد جنود الرب ؟ كلا .. لتكف نهائيا الخلافات في هذه المدينة : لننهض ونتدمر اسوارها ، واذ ذاك سيسود السلام بين الصليبيين ، ويكتسب الكونت بالتأكيد الثقة في انه لن يخسر المدينة» .

.. هذه المرة نفذت العامة تهديداتها ، كتب مدون الاخبار : «وهب المقعدون وعن مضاجعهم ، واندفعوا الى الاسوار متكئين على العكازات ، واذا رجل مستضعف بالجوع يقتلع هناك بسهولة من السور ويدحرج بعيدا حجرا بالكاد كان بوسع ثلاثة او اربعة ازواج من الثيران ان تجره» .

وعبثا حاول اسقف البارة بيار النار بوني (اول اسقف لاتيني في امارة انطاكية ، وقد سامه بطريرك انطاكية للروم اسقفا في ٢٥ ايلول - سبتمبر ١٠٩٨) والمقربون من الكونت ، متجوبين في عموم المدينة ، ان يهدئوا الفقراء المتهيجين والغاضبين ، لم يكن لغضب الشعب حدود ؛ وقد ابتدأوا تدمير الاسوار بلا كلل . ويختم مدون الاخبار وصف هذه الاحداث قائلا : «ومن المشكوك فيه ان كان في صفوف الشعب شخص مفرط في الضعف او مريض بقي في معزل عن هدم الاسوار» . ولم يبق حجر على حجر من جميع الاسوار والابراج وسائر الاستحكامات في معرة النعمان ، ولم يبق ثمة شيء يتجادل بسببه الاسياد .

في هذه الاعمال العفوية التي قامت بها الفئات الدنيا ، بلغ الاحتجاج على سياسة الاقطاعيين الانانية الجشعة الذروة . وقد اضطر الكونت ريمون دي سانجيل ، لما فيه استياء مقربيه ، ان يخضع لمطلب الجمهور ؛ بل انه امر بتدمير الاسوار الى النهاية . ان مقاومة «الرعاع المتمردين والذين لا اصلاح لهم» (هكذا ينعت مدون الاخبار البر من آخن المقاتلين العاديين الفقراء) قد اجبرت القادة على دفع القوات المسلحة في اتجاه القدس . وقد اعلن ريمون دي سانجيل ، كونت تولوز ، ان هذه الرغبة الحماسية الصارمة في السير الى المدينة المقدسة انما هي من وحي السماء وحسب ؛ وفي ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٠٩٩ غادرت فصائله ، ثم بعد بضعة ايام غادرت فصائل روبر النورمندي وتنكريد وبعض الزعماء الآخرين ، معرة النعمان . كذلك استدعى الصليبيون البروفانسيون الذين اقامهم ريمون دي سانجيل في انطاكية .. ومذ ذاك صار بوسع بوهيموند ان لا يخشى من المنافس ؛ فقد صارت

المدينة في قبضته كليا . ذلك ان امير تارنتو ، خلافا للميمين التي سبق ان حلفها ، قد بقي في انطاكية .

وهكذا اكره ضغط السواد الاعظم من المقاتلين البسطاء القيادة على دفع الجحافل الى القدس . لقد سعى الفقراء بعناد ومثابرة الى الامام ، املا في بلوغ «الجنة الارضية» التي وعد بها البابا اوربان الثاني في كليرمون .

فتح القدس

اسرع الصليبيون جموعا الى الهدف محاولين ان يسبقوا بعضهم بعضا . وكانت الوحدة الداخلية مفقودة بين حكام سوريا وفلسطين السلجوقيين ، كما من قبل ، وكان الامراء السلجوقيون في خلافات دائمة . ثم ان هزيمة كربقا في انطاكية قوضت تنظيم قوات السلجوقيين ، ناهيك بان الحروب بين الاقطاعيين السلجوقيين لم تهدأ نيرانها امام العدو المهاجم من الشمال . وكان الخصام بالغ الحدة بين رضوان ابن تتش صاحب حلب ودقاق صاحب دمشق .

كان الامراء العرب في المدن الساحلية يتخوفون من السلجوقيين ؛ وكانوا لا يرون في الصليبيين اعداء بقدر ما كانوا يرون فيهم حلفاء بالقدرة في الصراع ضد الاعداء من ذوي الدين نفسه . ومع ان الحكومة المصرية لم تكن تنوي البتة تسليم فلسطين للصليبيين ، الا ان الفشل الذي مني به السلجوقيون في انطاكية كان يناسبها تماما . واستغلت مصر هزيمة كربقا ، فارسلت قواتها الى فلسطين وسوريا ؛ وفي آب (اغسطس) ١٠٩٨ استولى الفاطميون على القدس ، ووصلت قوات العرب المسلحة الى بيروت . وادرك الوزير الافضل حتمية الصدام مع الصليبيين ولكنه بذل جهده لتجنبه ؛ فاثناء المفاوضات مع زعمائهم حاول ان يعرض عليهم شرطا مناسبا تماما من وجهة نظره ، وهو حرية الدخول الى القدس . ولكن هذا العرض قوبل بالرفض ؛ اذ ان القادة الافرنج كانوا لا يعتزمون البتة الاكتفاء بمدينة الرها ومدينة انطاكية ؛ واذ ان هدفهم كان امتلاك فلسطين ومنها القدس في المقام الاول .

كان الصليبيون يتقدمون باتجاه الجنوب في طابورين كبيرين . كانت الجموع السائرة بقيادة ريمون ، كونت تولوز ، تسير شرقي جبال النصيرية ، والجحافل السائرة بقيادة غودفروا دي بويون وروبير الفلمنكي بمحاذاة الساحل . ولصرف هذه الفصائل عن القيام بعمليات عدائية ، ارسل حكام

طرابلس وبيروت وصيدا وصور العرب اليها شتى الهدايا - النقود ، والمنتوجات الغذائية ، وبراميل ماء الشرب - وبعثوا الرسل ؛ وعرض هؤلاء على الصليبيين حرية العبور بلا عائق في ممتلكات امرائهم الراغبين في وقاية مدنهم وضواحيها والكروم الغنية وبساتين الخضراوات والفواكه من ضراوة القطعان الافرنجية وجشعها . وهكذا لم يلق الصليبيون اية مقاومة تقريبا . ولم تحدث اشتباكات كبيرة مع السلجوقيين الا من اجل طرطوس وجبلة وعكا ؛ وعبثا حاول كونت تولوز امتلاك هذه القلعة الاخيرة ، الا ان الزعماء الآخرين لم يدعموا مقصده .

في اواخر ايار (مايو) ١٠٩٩ دخلت جحافل الفرسان الارض اللبنانية ثم الارض الفلسطينية . من الجلي ان النجاحات اضاعت صواب بعض القادة ؛ فبعد فتح الرملة التي صارت اسقفية ، اخذت ترتفع بينهم اصوات تطالب بالتوجه الى مصر وبابل . «اذا تغلبنا برحمة الله على ملك مصر ، فاننا لن نتمكن من فتح القدس وحسب ، بل ايضا الاسكندرية وبابل وكثير من الممالك» . هكذا ينقل مدون الاخبار هذه المشاريع الخيالية التي تزاحمت في رؤوس اشد جنود المسيح جشعا وغرورا . وكأنهم نسوا «مساعدة الاخوان المسيحيين» ؛ ولم يكونوا يفكرون الا بامكان فتح «كثير من الممالك» . وبما ان الخطط من هذا النوع كانت خيالية تماما ، فانها لم تحظ بالدعم وظلت بمثابة امنيات طيبة .

تحاشى الصليبيون المدن الساحلية الكبيرة (طرابلس ، بيروت ، صيدا ، صور ، عكا ، حيفا ، قيسارية) ، واتجهوا من ارسوف الى القدس . وفي الطريق استولت فصائل تنكريد وبودوان له بورغ على بلدة بيت لحم حيث ولد يسوع المسيح كما جاء في الانجيل . وسرعان ما اعلن تنكريد ادعاءاته بالبلدة واثبت رايته على مسلة كنيسة والدة الاله في البلدة ، ولكن نشب نزاع بينه وبين بودوان له بورغ في الحال من جراء ذلك . الا ان الظروف لم تسمح للنزاع في التفاقم ، اذ كان ينبغي الاسراع الى ابعد .

في فجر ٧ حزيران (يونيو) ١٠٩٩ ، اقترب الصليبيون من القدس . تكشف منظر المدينة المقدسة امامهم من الجبل العالي الذي سموه مذ ذاك مونجوا («جبل الفرح») . حاصر الصليبيون المدينة التي كانت تعتبر مقدسة بنظر الشعوب التي تعتنق المسيحية والاسلام واليهودية . وقد جعل الموقع الجغرافي من القدس عسيرة المنال على العدو . كانت تقع على سهل مرتفع عال ولم تكن مفتوحة الا من الجهة الشمالية ، وكانت تحميها من الجهات الاخرى جبال ناهيك بان حاكم القدس المصري افتخار الدولة كان قد اتخذ

التدابير الضرورية لحماية المدينة بوثوق ، نظرا لاقتراب الافرنج . فقد طرد من المدينة جميع السكان المسيحيين وسييج مزاغل الابراج بحزم من القطن والتبن ، وملأ خزانات المدينة بكمية كافية من المياه ، وامر ، على العكس ، بتخريب جميع الآبار حول المدينة . وسيقت قطعان المواشي بعيدا في الجبال . بل ان افتخار الدولة رمم الاستحكامات الدفاعية الرومانية القديمة . صحيح ان حامية القدس لم تكن كبيرة ؛ فلم تكن تضم اكثر من الف مقاتل ، ولكن جيشا كبيرا هب من مصر الى مساعدتهم بقيادة الوزير الافضل .

كان الصليبيون الذين تملكهم الانتعاش والالهام الديني يأملون سرا في ان تسقط استحكامات القدس من تلقاء نفسها ما ان يقتربوا منها . وبدءا من ١٢ حزيران (يونيو) حاول الفرسان مرارا ان يستولوا على المدينة انقضاضا ، ولكن عبثا . فكان لا بد من الشروع في الحصار . وقد امتد الحصار خمسة اسابيع . ولم يكن الصليبيون يملكون ما يكفي من القوى لاجل الاستيلاء على القدس المحصنة عنوة ؛ فلم يكن عندهم من الرجال الصالحين للقتال ، كما حسبوا انفسهم ، اكثر من ١٢ الفا ، «ناهيك بانه كان عندنا — كما كتب ريمون من اجيل — جمهور ضخم من المقعدين والفقراء . اما الفرسان في صفوف قواتنا ، فكان عددهم ١٢٠٠ او ١٣٠٠ ، لا اكثر كما اعتقد» . وفي الآونة الاولى تبدى كذلك بصورة ملحوظة النقص الى السلالم وسائر معدات الحصار ، ولاسيما منها ادوات الرماية .

والى نجدة الفرسان جاء الجنويون والانجليز ؛ فقد رست بضع سفن في يافا ، فغادرها المصريون على الفور تجنبا للقتال . وقد حمل التجار على السفن الى الصليبيين الحبوب والخمور وكذلك الحبال والمسامير والفؤوس وغير ذلك من الادوات ومن مواد البناء الضرورية لصنع ابراج حصارية ، وادوات لهدم الاسوار — اى الكبوش والسلالم . ولكن سرعان ما حاصر الاسطول الفاطمي ميناء يافا . وبما ان القوات البحرية المصرية كانت متفوقة بكل جلاء ، فقد كان من الميؤوس فيه خوض القتال ضدها . وفك الصليبيون سفن جنوه والسفن الانجليزية واستعملوا اقسامها لاجل المنشآت الحصارية .

رغم المعركة من اجل الهدف المشترك ، كما كان يبدو ، فضلا عن انه الهدف النهائي ، لم يوقف الزعماء النزاعات الداخلية فيما بينهم . فاضطر رجال الدين الى التدخل لتهدئة الخلافات بين المتنافسين الذين اقتسموا جلد الدب قبل قتله . ومن جديد ، اقيمت مسرحية الرؤيا النبوئية ؛ وهذه المرة «ظهر» الاسقف اديمار دى بوى على المقاتلين المتواجدين في غمرة الانجذاب الصوفي وذكرهم بضرورة الوحدة في النضال من اجل المدينة المقدسة . وفي

٨ تموز (يوليو) اعلن رجال الكنيسة الصوم، ونظموا مسيرة بالصلبان حول القدس، واتجهت مواكب الصليبيين الحفاة الى جبل الزيتون . وهنا القى بطرس الناسك وغيره من رجال الكنيسة مواعظ نارية لاجل اثارة حماسة المقاتلين .

في ١٣-١٤ تموز ، قامت القوات الصليبية بمحاولات جديدة للهجوم ، دفعوا الى السور برجين حصاريين مائلين برئاسة غودفري دى بويون وريمون دي سنجيل . وكانوا قد صنعوا البرجين من جذوع قصيرة، وكسوها بالجلود الخام . ولكن عبثا ! فما كاد الصليبيون يبدأون دفع البرجين نحو الاسوار ، حتى تطايرت من جميع الجوانب الاحجار المطلقة من ادوات الرماية، والسهام التي لا عد لها كالبرد . دارت رحى المعركة دون ايه علائم على النصر . كتب مدون اخبار من شهود العيان : «حين دفع رجالنا الادوات نحو الاسوار ، اخذوا من هناك (اي من الاسوار - المؤلف) يرمون الحجارة ويطلقون السهام ، كما اخذوا يقذفون جذوع الاشجار ورزم القش الملتهبة ، ثم شرعوا (اي العرب - المؤلف) يقذفون على ادواتنا عيدانا واخشابا مطلية بالقار والشمع والكبريت ، لافتيتها في مزق مشتعلة ... وكانت العيدان والاخشاب من جميع النواحي ... محشوة بالمسامير ، لكي تعلق حيثما تقع ، ولكي تحرق (السلالم وادوات الرماية) حيثما تعلق . وكانوا يرمون الاشجار والقش لكي يوقف اللهيب على الاقل اولئك الذين لم تستطع ايقافهم لا السيوف ولا الاسوار العالية ولا الخندق العميق» . ان مدوني الاخبار اللاتين ، اذ يغدقون المدائح على الصليبيين الشجعان ، لا يستطيعون ان يخفوا الحقيقة عن صلابة حماة المدينة العرب . كتب فولهير من شارتر : «اخذ المسلمون يعملون ضدهم (اي ضد الصليبيين - المؤلف) ويسكبون الزيت والدهن الغالي ويرمون المشاعل المتأججة على البرج المذكور وعلى الفرسان الموجودين فيه . وهكذا كان الموت السريع وقبل الاوان يحصد الكثيرين من المقاتلين من هذا الجانب وذاك» .

بلغ الانقضاض ذروة الضراوة في ١٥ تموز . فنحو الظهر ، اقتحم المهاجمون القدس وسرعان ما سقطت المدينة . تكبد الغزاة خسائر فادحة ، اثناء الحصار المديد وفي ايام الانقضاض بالذات ، تحت وابل الحجارة والسهام والقذائف المحشوة بالمواد السريعة الالتهاب التي انهال بها المقاتلون المصريون على رؤوس الصليبيين المحاصرين .

وقد ابدى العرب الذين كانوا يدافعون عن المسجد الاقصى او «هيكل سليمان» كما يسميه مدونو الاخبار اللاتين ، والعرب الذين استحكموا في

برج داود الواقع فى القسم الغربى من المدينة ، مقاومة باسلة بالغة الشجاعة والجرأة فى وجه الغزاة . وفى آخر المطاف ، سلم افتخار الدولة الصليبيين القلعة وفتح باب يافا بعد ان ضمن لنفسه الحق فى مغادرة المدينة بحرية .

ان «مخلصى قبر السيد المسيح» الذين تملكهم التعصب الاعمى وتحرقوا الى الانتقام من الكفار الذين تسببوا لهم بمثل هذا القلق والاضطراب بصلابتهم وبسالتهم وكبدوهم مثل هذه الخسائر ، قد انقضوا بقساوة ووحشية وضراوة همجية على سكان المدينة المفتوحة وثرواتها . ان حمامات الدم وعمليات النهب الشاملة المقترفة فى القدس قد حجبت المآثم والوحشيات المقترفة فى انطاكية . يقول مدون اخبار ايطالى نورمانى : «عندما دخل حجاجنا المدينة ، ساقوا وقتلوا المسلمين حتى هيكل سليمان بالذات ؛ وقد تجمع المسلمون فيه وخاضوا ضدنا معركة فى منتهى القساوة طوال اليوم كله ، ولذا سال الدم فى الهيكل كله . واخيرا ، تغلب رجالنا على الوثنيين واعتقلوا عددا من الرجال والنساء فى الهيكل ، وقتلوا منهم قدر ما ارادوا ، وابقوا منهم قيد الحياة قدر ما ارادوا» . وفى المسجد الاقصى ذبح الصليبيون ما لا يقل عن ١٠ آلاف شخص ؛ هذا العدد يذكره على كل حال شهود العيان اللاتين .

كان تنكريد وغودفروا دى بويون السباقين فى اقتحام المسجد الاقصى ؛ ويعترف المؤلف المذكور بما يلى : «اما اى قدر من الدماء سفكا فى ذلك اليوم ، فمن المشكوك فيه ان يكون من الممكن التصديق» .

والمجازر وعمليات النهب والسلب تخللتها الصلوات المحمومة امام قبر السيد المسيح .. ومن الصلوات كان الفرسان ينتقلون فى الحال الى الاعمال الدموية . كانوا يقتلون الجميع من رجال ونساء ، واطفال وشيوخ ، واصحاء ومقعدين ، «لم يكن ثمة مكان كان بوسع المسلمين ان يتحاشوا فيه القتلة» .. وكانوا يسحقون رؤوس الرضع على الحجارة .

بعد المجزرة العظيمة ، — كما يواصل البروفانسى فولهير من شارتر الحديث ، — تفرق الصليبيون على بيوت سكان المدينة ونهبوا كل ما وجدوه فيها . وفى هذه الحال قامت عادة مفادها ان كل من يكون اول الداخلين الى البيت ، سواء كان غنيا ام فقيرا ، يتلقى ويملك البيت او القصر وكل ما فيه ، بوصفه مالكا .

وفضلا عن المسلمين ، سقط يهود القدس ضحية لجنون الصليبيين وبربريتهم . فقد اجتمعوا فى كنيس كبير ، وفيه ابادهم الصليبيون عن بكرة ابيهم : فقد احرق الصليبيون مبنى الكنيس بمن بحث عن ملجأ فيه .

ولقد اشير الى فتح المدينة المقدسة فى ١٥ تموز (يوليو) ١٠٩٩ فى جميع المؤلفات التاريخية من اوائل القرن الثانى عشر بما فى ذلك فى المؤلف الروسى «قصة السنوات المنصرمة» . ان مدونى الاخبار ومؤرخى الاحداث سنة بعد سنة الغربيين يصفون هذا الحدث بقدر متفاوت من الاسهاب والتفصيل ، ويتحدثون بتفاصيل طبيعية عن اعمال «جنود الرب» التى تبدو لهم جديرة بالمديح والثناء اما مدونو الاخبار والمؤرخون الشرقيون (ابن القلانسى ، ابن الاثير ، وغيرهما) ، فانهم يلوحون بفتح القدس من قبل «اعداء الله» بايجاز وتمالك ، ولا يشيرون الا الى انفلات الغزاة وجنونهم ووحشياتهم الهمجية ، والى انهم ، كما يقول ابن القلانسى ، قتلوا كثيرين من سكان القدس .

لمن السيادة ؟ حملات المؤخرة

مع فتح القدس تحقق الهدف الرسمى من الحملة الصليبية . ولكن سرعان ما برزت المصالح الفعليسة للمشتركين فيها ؛ ونظرا لذلك نشبت احتكاكات خطيرة بين زعماء الصليبيين ، وكذلك على الاخص بين قادتهم العسكريين ورعاتهم الدينيين .

لم يترك البابا اوربان الثانى (توفى فى ٢٩ تموز - يوليو ١٠٩٩ قبل ان يتلقى نبأ «تحرير» القدس) اية اوامر بصدد نظام الارض المقدسة المقبل . ومع ذلك حاول رجال الدين ان يؤمنوا فى المقام الاول مصالحهم بالذات وان يشغلوا مكان الصدارة فى ممتلكات الغرب الجديدة . وقد الحت الاوساط العليا من رجال الدين على تحويل القدس الى دولة كنسية . ولهذا الغرض كان ينبغى فى المقام الاول ، كما كانوا يعتقدون ، انتخاب بطريرك جديد من اللاتين وتسليمه السلطة بكليتها . ولكن منذ وفاة اديمار دى بوى ، لم يبق عند الصليبيين قائد كنسى يتمتع بما يكفى من النفوذ والمكانة ، وبمقدوره ان ياخذ على عاتقه اداء مثل هذه الرسالة . وقد عينوا رئيس الاساقفة دايمبرت من بيزا خلفا للاسقف اديمار فى وظيفة القاصد الرسولى (نائب البابا) ، وقد وصل الى القدس بالاعتماد على مساندة اسطول بيزا ، وبدأ يعمل بخارق الجهد لكى يصبح البطريرك على وجه الدقة ، وليس اميرا دنيويا ، صاحب السلطة فى القدس . ثم ان البابا الجديد ، باسكال الثانى (١٠٩٩-١١١٨) ، المح من جهته الى الاسياد الصليبيين بانه يجب مكافأة الكنيسة الكاثوليكية بصورة مناسبة لانها هى التى كانت صاحبة المبادرة الى الحملة الصليبية .

اما الامراء ، فكانوا يعتقدون بالعكس انه يجب تسليم واحد منهـــــم السلطة على القدس . من بالذات ؟ التهبـــت المشاعر وبخاصة اثناء انعقاد مجلس اوسع القادة الدنيويين والكنسيين نفوذا ، وذلك فـــــي ٢٢ تموز ١٠٩٩ . وقد بلغت الخلافات درجة من الحدة بحيــــث ان الصليبيين كادوا يصلون الى عتبة الحرب فيما بينهم . كان هناك ، من حيث الجوهر ، طامحان جديا اثنان الى منصب رئيس الدولة الجديدة هما ريمون دي تولوز ، والدوق غودفروا دي بويون . وقد الملح زعماء الصليبيين في التوصل الى حل وسط للمسألة ، خصوصا وان ريمون ، كونت دي تولوز ، الذي لم يكن يتمتـــع بعطف الاسياد ، وحتى استثار شكوكهم بسبب عواطفه الموالية لبيزنطية ، قد سحب بنفسه ترشيحه .

ان الحل الوسط الذي توصل اليه زعماء الصليبيين كان يتألف مما يلي : احيلت القدس شكلا ورسميا الى حكم البطريرك (وبعد فترة مـن الوقت صار دايمبرت من بيزا بطريرك القدس) ، ولكن انتخبوا من عداد الامراء الحاكـم الفعلي للمدينة المقدسة ، — غودفروا دي بويون ، ومنحوه لقب حامي قبـر السيد المسيح . يبدو ان غودفروا دي بويون رفض التاج الملكي بايعاز من ريمون دي تولوز . وقد رفض ان يرتدي تاجا من الذهب فـــي المكان الذي ارتدى فيه المسيح تاجا من الشوك . وبدافع مـن روح التنازل والتساهل ، وافق الدوق دي بويون على اعطاء البطريرك دايمبرت ربع القدس ويافا وحتى على اعتبار نفسه تابعا للبطريرك . فهل كان يصح الخـــــلاف مع الكنيسة بسبب هذه الشكليات ؟ فان تفوق القـــــوى بقي على كل حال الى جانــــب الفرسان . ان ادعاءات الكرسي الرسولي بالسلطة المدنية الدنيوية على بعـد آلاف الاميال عن روما كانت تبدو في عيون الفرسان ورؤسائهم غير مقنعة . ناهيك بان غودفروا دي بويون ، اذ اقدم على تنازلات في صالـح دايمبرت المحب للسلطة ، كان يسعى في الوقت نفسه (وليس عبثا) الى نيـل الدعم العسكري من جانب منافسة بيزا ، — البندقية . فان اسطول البندقية الذي هزم في طريقه اسطول بيزا ، كان قد وصل الى يافـا . الا ان البندقيين ، والحق يقال ، طالبوا بدورهم ، غودفروا دي بويون ، مقابـــل هذا الدعم ، ببدل لا يستهان به هو منحهم في كل مدينة ساحة سوقية ، والاعفاء من شتى الضرائب والمكوس ، وثلث الغنيمة ، وما الى ذلك .

ولكن بينما كان الاسياد يحاكمون ويساومون ، ويبنون الخطط ويحيكون المؤامرات ، اضطر الصليبيون الى امتشاق السلاح من جديد . فمن الجنوب اقتربت العساكر المصرية ، بامرة الوزير الافضل . ورغم جميـع الخلافات ،

اضطر الفرسان وقادتهم – للمرة الاخيرة او يكاد ! – الى العمل معا من جديد ؛ فضدهم كان يقف عدو بالغ الخطر . نشبت المعركة ضد المصريين في صباح ١٢ آب (اغسطس) في واد الى الشمال من مدينة عسقلان . احرز الصليبيون الغلبة في القتل . ويروي ابن القلانسي : «وتمكنت سيوف الافرنج من المسلمين» ... «وانهزم العسكر المصري الى ناحية عسقلان ودخل الافضل اليها» * . وبعد ان نهب المنتصرون المعسكر المصري ، عاد الوزير مع مقربيه الى مصر ، ومنذ ذاك توطد وضع الصليبيين في فلسطين نسبيا . لذا قلت دوافع الفرسان للسير في ركاب الساسة الكنسيين وتلبية ادعاءاتهم .

في ١٨ تموز (يوليو) ١١٠٠ توفي غودفروا دي بويون . ولم يحترم الفرسان من فرنسا الشمالية واللورين احناء الرأس امام ابناء بيزا وبطريركهم . فبلغوا في الحال عما حدث بودوان ، كونت الرها ، (اخا غودفروا) ودعوه الى القدس ، ومنيت بالاخفاق محاولات دايمبرت اخذ المبادرة بيده والحيلولة ، بمساعدة بوهيموند ، امير انطاكية ، دون وصول بودوان الى القدس ؛ فقد اوقفوا سفراء البطريرك في اللاذقية . ناهيك بان بوهيموند نفسه وقع آنذاك في اسر السلجوقيين . وهكذا ورث بودوان ، امير الرها ، عرش القدس . ولم يبق لدايمبرت الذي لم يلق اي سند من اي كان غير امر واحد هو وضع التاج على رأس بودوان . وهذا ما فعله في كانون الاول (ديسمبر) ١١٠٠ في كنيسة ميلاد المسيح في بيت لحم .

وبعد ان اصبح بودوان ملكا ، رفض قطعا ادعاءات رجال الدين السياسية . وقد لقب نفسه رسميا في وثائقه : «انا ، بودوان ، الذي نال مملكة القدس بمشيئة الله» .

كانت هذه المملكة تشغل في البدء رقعة صغيرة من الارض – القدس وبيت لحم ومرفأ يافا مع دوائرها . وكانت القوات المسلحة لدى دولة الصليبيين الجديدة تافهة . فقد كان لدى غودفروا دي بويون من العساكر نحو الفين من المشاة و٣٠٠ من الفرسان – من اولئك الذين حسبوا ان يستقروا جديا وزمنا طويلا في الارض المقدسة . واعتبر كثيرون من كبار الاسياد ومنهم روبر النورمندي ، وروبر الفلمنكي ، وريمون دي تولوز ، وبودوان له بورغ ، ان رسالتهم قد تحققت وانتهت . وعادوا مع اتباعهم الى الوطن ؛ وغادر آخرون القدس وراحوا الى سوريا الشمالية حيث عكفوا على اغتصاب الاراضي . واحتاج بودوان الاول (١١٠٠–١١١٨) الى العساكر . في

* تاريخ ابن معلى حمزة ابن القلانسي ، ص ١٣٧ .

8*

البدء علق آماله على تدفق مجموعات جديدة من الصليبيين من الغرب . ولكنه لم يكن مكتوبا لهذه الآمال ان تتحقق رغم ان علائم مؤملة اخذت تتراءى . ذلك ان موجة جديدة من الحركة الصليبية نهضت في اوروبا في سنة ١١٠٠ واعتبرت صدى مباشرا ومواصلة لحملة القدس التي كانت قد انتهت للتو .

فقد اخذت نبأ فتح المدينة المقدسة انطباعا قويا في الغرب . وان اقاصيص العائدين من سوريا وفلسطين عن الغنائم الخارقة الغنى المحققة في الشرق قد هيجت كثيرين ممن بقوا في معزل عن الاحداث . وبامر من البابا باسكال الثاني ، شن رجال الدين حملة نشيطة من المواعظ . وعقد ممثلو الكرسي الرسولي الذين وصلوا الى فرنسا مجمعا كنسيا في فالنس اولا ، ثم في بواتيه . وقد لعب هذا المجمع دورا كبيرا جدا في ظهور وانتشار قوات الصليبيين الجديدة : افتتح المجمع في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٠٠ ، في يوم الذكرى السنوية الخامسة لمجمع كليرمون ، وببلاغة اقنع مفوضو البابا الكاثوليك الغربيين «بتقديم العون للمؤمنين في حرب الرب» .

وبالنتيجة ، تحركت باتجاه الشرق في سنة ١١٠٠ جماهير جديدة ، كبيرة جدا من الناس . وقد انطلقت بصورة رئيسية من المناطق التي كانت حتى ذاك قد تأثرت بصورة ضعيفة نسبيا بالنهضة الصليبية التي شملت اوروبا في سنة ١٠٩٦ .

اجتمع اكبر عدد من العساكر في لومبارديا ، بامرة رئيس الاساقفة انسلم من ميلانو . وكانت العساكر تتألف اساسا من فقراء الارياف والمدن اشبه بجموع بطرس الناسك . وفي ربيع سنة ١١٠١ ، بلغ اللومبارديون القسطنطينية . ورغم فشل التجربة مع الحملة الصليبية الاولى ، قرر الامبراطور الكسيوس الاول ان يجرب هذه المرة ايضا استغلال عساكر الغرب في مصلحة بيزنطية ، ضد سلجوقيي آسيا الصغرى ؛ بل انه حاول اقناع ريمون دي تولوز ، الموجود آنذاك في القسطنطينية ، بترؤس العساكر اللومباردية . وامد الامبراطور اللومبارديين بفصيلة من الروم تضم ٥٠٠ فرد . وبعد فترة وجيزة انضمت الى الصليبيين الجدد جموع من بورغونيا وشامبانيا ، بامرة ايتيان ، كونت دي بلوا ، الذي سبق له ان فر من جوار انطاكية . والآن انطلق من جديد في البحر لكي لا يسيء الى سمعة عائلته ومكانتها . وفي القسطنطينية ظهر كذلك فرسان المان ونقلوهم الى آسيا الصغرى ؛ وكانوا بامرة المدعو كونراد الذي كان في خدمة الملك

الالماني هنريخ الرابع والذي كان يسمى في المصادر والمراجع التاريخية بالكونيتابل .
ولكن الاحداث تطورت بنحو مغاير تماما لما حسب الفاسيلفس . فان اللومبارديين الذين كانوا يؤلفون السواد الاعظم من العساكر كانت تتملكهم فكرة تحرير مواطنهم في المقام الاول – اى امير انطاكية الذي وقع في صيف سنة ١١٠٠ في اسر الامير السلجوقي غازي المالك ابن دانيشمند السيواسي . وكان الاسير في نيكسار غير بعيد عن ساحل البحر الاسود . واخفقت جميع جهود الامبراطور الكسيوس الاول وريمون دى تولوز وايتيان دي بلوا في صرف اللومبارديين عن هذه الفكرة السخيفة . وفي ٢٣ حزيران (يونيو) ١١٠١ فتح الصليبيون انقره وسلموها لبيزنطية ، وفقا لقسم التبعية الذي سبق ان حلفه رؤساء جحفلهم للامبراطور .
في ذلك الوقت ، تشكل تحالف قوى من الحكام السلجوقيين لمواجهة زحف الافرنج الجديد ؛ فضد الصليبيين هب سلطان قونية قلج ارسلان الاول والاميران غازى المالك السيواسي ورضوان صاحب حلب . وفي اواسط تموز (يوليو) ١١٠١ ، منى الصليبيون بهزيمة ماحقة في جوار مارسيوان (مرزفون) ، على بعد نحو ٢٥٠ ميلا من نيكسار . كذلك لم تنفع هذه المرة الحربة المقدسة التى اخذها ريمون دى تولوز معه . ولم ينج من الموت سوى القادة الذين ولوا الادبار «في الوقت المناسب» علما بان حامل الذخيرة النفيسة كان بالذات اول من فارق ساحة الوغى . وسقط عشرات الآلاف من اللومبارديين والفرنسيين والالمان تحت ضربات السيوف والرماح السلجوقية ، واما وقعوا فى الاسر وبيعوا عبيدا .
والمصير الفاجع ذاته كان من نصيب طابورين آخرين من المؤخر (الساقة) الصليبى انطلقا من فرنسا والمانيا . كان احد الطابورين بامرة فيكونت نيفر ، غليوم الثانى والدوق اودو البورغوندى ، الذى اشترك قبل ذاك بقليل فى الحرب ضد العرب في اسبانيا ، والذى حرمه البابا من الكنيسة لنهبه ضياع دير كلونى . وكان الطابور الثانى الذى انضم اليه الصليبيون من فرنسا الجنوبية والمانيا الجنوبية بامرة غليوم التاسع دوق اكيتين ، الذى اشتهر كشاعر ومغن جوال ، وفلف الرابع ، دوق بافاريا ، الذى كان فى سنوات الصراع من اجل العرش خصما للملك الالمانى هنريخ الرابع . وبين هؤلاء الصليبيين ، برز هوغ فرمندوا الذى سبق ان عرفناه ، والماركغرافينيا ايدا النمساوية ، وتييمو ، رئيس اساقفة سالزبورغ .
سار الطابوران وتصرفا كلا منهما بمعزل عن الآخر . وبعد محاولة

فاشلة باقتحام قونية فى آب (اغسطس) ١١٠١ ، منى غليوم ، فيكونت نيفر ، بهزيمة ماحقة على يد السلجوقيين الى الشرق من قونية ، قرب هرقلة ؛ الا ان بقايا قواته استطاعت ان تهرب ، ووصلت فى آخر المطاف الى انطاكية . ثم ان صليبيي غليوم ، دوق اكيتين ، الذين قاموا بمسيرة عسيرة فى ربوع آسيا الصغرى ، وانهكهم الجوع والعطش ، وتكبدوا خسائر كبيرة فى الارواح ، لقوا المصير الفاجع نفسه بعد بضعة اسابيع : ففى جوار هرقلة ، وقعوا فى كمين نصبه قلج ارسلان .

وهكذا اخفقت كليا الحملة الصليبية المؤخرية (الساقية) فى سنتى ١١٠٠-١١٠١ (ونظرا لسعة ابعادها وكبر عدد المشتركين فيها ، بلغ الامر بمدون الاخبار فولهير من شارتر ان سمى هذه الحملة الصليبية بالحملة الثانية) . وقد هلكت اغلبية عناصرها فى آسيا الصغرى ، الا ان بضع مئات من الصليبيين استطاعت الوصول الى القدس .

نحو ذلك الزمن ، كانت قوات الصليبيين الذين استولوا على القدس فى سنة ١٠٩٩ قد انخفضت بصورة ملحوظة ؛ فان كثيرين منهم قد عادوا الى الوطن . ومع ذلك ، واصل الباقون شن الغارات الاغتصابية فى اراضى سوريا ولبنان وفلسطين . وقد استرعت المدن الساحلية الغنية التى كانت مراكز تجارة المشرق انتباه الصليبيين . ولكن فتحها لم يكن سهلا ؛ فقد لقيت المدن العون من ثرواتها بالذات ومن مصر . ذلك ان حكام المدن المينائية كانوا يعرضون على زعماء الصليبيين فدية كان هؤلاء يقبلونها احيانا كثيرة . ومع ذلك ، استطاع الصليبيون ، بمساندة اسطول البندقية واسطول جنوه اللذين قطعا المواصلات بين موانىء القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط وبين السفن المصرية ، ان يرسخوا اقدامهم ، خلال السنوات التى اعقبت فتح القدس ، فى عموم ساحل سوريا ولبنان وفلسطين . وقد فتحوا المدن واحدة تلو اخرى : فى سنة ١١٠١ حيفا ، ارسوف ، قيسارية ؛ فى سنة ١١٠٤ عكا ؛ فى سنة ١١٠٩ طرابلس (بعد حصار دام زهاء سبع سنوات) ، صيدا ، بيروت ؛ واخيرا فى سنة ١١٢٤ صور .

وعلاوة على الدول الثلاث التى انشئت من قبل ، تأسست فى الاراضى المفتوحة دولة اخرى ، هى كونتية (او امارة كما تسمى فى بعض المراجع العربية) طرابلس (الى الشمال من مملكة القدس) .

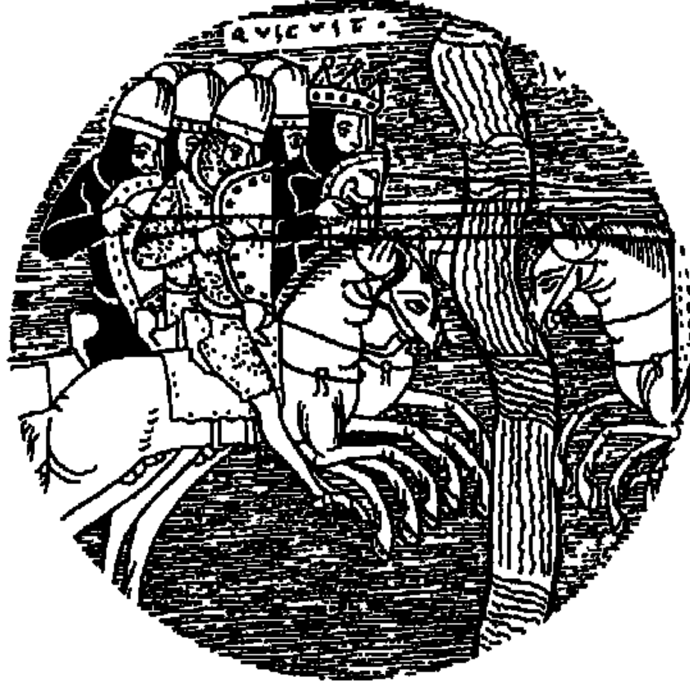
اخذت اراضى دول الصليبيين تتسع تدريجيا ؛ فقد اشتملت على مناطق فى المجرى الاعلى من نهر الفرات ، ثم على رقعة ضيقة فى سوريا الغربية ، ثم على عموم فلسطين وكذلك على قسم فيما وراء الاردن ومن شبه جزيرة

سيناء . وجميع هذه الدول (اى مملكـــة القدس وكونتية الرها وكونتيـــة طرابلس وامارة انطاكية) يجمعونها عادة فى الادب تحت اسم واحد – مملكة القدس اللاتينية . وفى هذه الدول ، اصبح ابرز زعماء الصليبييـن حكاما : فى الرها – بودوان ثم ورثته بعد ان صار ملك القدس ؛ فـــى انطاكية – بوهيموند الذى حادل بجميع الوسائل فيما بعد ان يوسع ممتلكاته ؛ فى طرابلس ، ورثة منافسه ريمون دى تولوز (فان ريمون نفسه قد مات فى سنة ١١٠٥ اثناء حصار هذه المدينة) ؛ وقد احتفظ بتاج ملوك القدس اخلاف غودفروا دى بويون ، ملوك سلالة الاردين – انجو (ومرد الاسم المزدوج الى ان عرش القدس قد شغله فى سنة ١١٣١ صهر بودوان الثانى (١١١٨–١١٣١) ، الفرنسى فولك دانجو (Foulgues) ، الذى اخذ ورثتـــه مذ ذاك يحكمون فى القدس) .

ان الصليبيين الاوائل كانوا مدينين بانتصاراتهم الى تلاحمهم ووحدتهـم اللتين يتحدث عنهما مدونو الاخبار اللاتيـــن باسهاب اقل مما الى انقسامات العالم الاسلامى فى المقام الاول . ففى الشرق لم يواجهوا كتلـة متكاملة ، واحدة موحدة من الاعداء ، بل واجهوا خليطا متنافرا ومبرقشا مـــن كيانات السلجوقيين والعرب الدولية ، ومن امرائهم الكبار والصغار الذين لا لحمـــة بينهم . كان العالم الاسلامى منقسما على نفسه . وكـــان تمزقه السياسى يرافقه التبعثر الدينى ؛ فان السلجوقيين السنيين لم يجدوا لغة مشتركـة مع الشيعيين المصريين ، ناهيك بان الصراع كان محتدما بدوره فى صفوف الشيعيين بين مختلف التيارات والملل . وبالنتيجة لم يلـــق الفاتحون الرد اللازم فى الشرق ، واستطاعوا ، وان بثمـــــن خسائر كبيرة ، ان يوطدوا سيطرتهم لعشرات السنين فى الاراضى الغنية فى سوريا ولبنان وفلسطين .

لبّى امتلاك القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط المطامع المغرضة لبضع مئات من الاقطاعيين المدنيين والكنسيين فى اوروبا الغربية . وضُحّي بالجماهير الشعبية لاجل هذه المطامع ؛ فان المشتركين فى الحملة الصليبية الاولى – وكذلك فى حملات الساقة (المؤخر) التى منيت بالهزائم الماحقة – لم يكونوا بنصفهم او حتى باغلبيتهم من عداد الاقطاعيين ، بل كانوا مـــن الفقراء ، وبصورة رئيسية من الفلاحين ، ممن انطلقوا الى اقطار يجهلونهـــا بحثا عن نصيب افضل ، ولكنهم لم يجدوا هناك غيـــر الموت . لقد كانت الحملة الصليبية الاولى ذبيحة هائلة كانت شعوب الغـــرب ضحيتها وقدمتها ومثلت مسرحيتها البابوية والكنيسة الكاثوليكية والاوساط العليا من الطبقة الاقطاعية خدمة لاهدافها الاغتصابية المستورة بالرايات الدينية .

٣
دول الصليبيين فى الشرق



الجديد والقديم فى النظم الاقطاعية

بعد ان استقر الاسياد والفرسان الغربيون فى الممتلكات الجديدة ، نقلوا اليها الاوضاع الاجتماعية والسياسية المألوفة القائمة فى وطن اغلبيتهم – فرنسا . ولكنهم اضطروا عند الاقتضاء الى مراعاة بعض خصائص النظام الاقتصادى والعلاقات الاجتماعية المتجذرة فى المناطق المحتلة . ونحو ذلك الزمن كانت النظم الاقطاعية تسود ايضا فى الشرق الادنى ، ولكنها كانت تتميز باصالة معينة . كانت الاقطاعية فى هذه البلدان تتميز ، فى عداد ما تتميز به من سمات رئيسية خاصة ، بواقع ان الحياة المدينية كانت آنذاك متطورة فيها ، بينما كانت قد رأت النور للتو فى الغرب . كذلك كانت اشكال العلاقات الزراعية مختلفة ، ومن هنا نظام العلاقات المتبادلة فى داخل الطبقة السائدة .

ان العلاقات الاجتماعية التى تكونت فى دول الصليبيين او دول الافرنج

(الفرنجة) ، كما سماها السكان المحليون ، كانت ، فى آخر التحليل ، عبارة عن تركيب او جميعة بين البنيان (سنن الحكم) الاقطاعى الاوروبى الغربى — فى صيغته الفرنسية على الاغلب — وبين البنيان الذى ترسخ فى سوريا ولبنان وفلسطين قبل ظهور الفاتحين الغربيين . ومنذ زمن السيادة العربية ثم السلجوقية انتشر هنا نظام الاقطاع العسكرى ؛ فهكذا كانت تسمى الحيازة المشروطة (bénéfice) التى تمنحها سلطة الدولة للموظفين العسكريين والمدنيين . وكان الاقطاع امّا يتشكل من قطعة ارض (حصة من الارض) اخذت تتحول تدريجيا الى حصة وراثية — كان حائزها او مالكها (اقطاع دار) ملزما بان يدفع اتاوة عقارية الى الخزينة ، واما يتلخص فى تخويل الحائز الحق فى جباية مختلف الاتاوى (وفى المقام الاول بينها الخراج — وهو اتاوة عقارية للدولة) والضرائب فى صالحه . وبعد استيلاء الصليبيين على الشرق الادنى ، تغير نظام الاقطاع العسكرى بصورة جوهرية ؛ فقد تشابكت فيه تلك النظم الاقطاعية التى حملها الافرنج معهم ، علما بان مؤسسات الاقطاعية الغربية هى التى هيمنت ، بينما العناصر الشرقية ، اذا ما بقيت ، فذلك ، اولا ، بصورة معدلة الى هذا الحد او ذاك ، وثانيا ، فى المستوى المحلى بوجه الحصر . ففى القرى التى يقطنها المسيحيون ، مثلا ، لم يكن من النادر ان يواصل الموظفون المسمون بالرؤساء اداء وظائفهم . وكانت صلاحياتهم تشمل حل الدعاوى الصغيرة المدنية (كان القضاء الجزائى من صلاحية الاسياد) ؛ وكذلك كان الرؤساء مسؤولين عن تحصيل الضرائب العينية فى صالح الاسياد .

وهنا وهناك ، وبخاصة فى امارة انطاكية ، بقيت وظيفة قديمة اخرى هى وظيفة القاضى الذى يقضى فى الدعاوى الصغيرة بين المسلمين .

ولكن حتى النظم الاقطاعية ذاتها كانت تختلف باختلاف دول الصليبيين . ففى النظام السياسى فى امارة انطاكية النورمانية الايطالية ، مثلا ، ظهرت آثار ملحوظة من التأثير البيزنطى (فقد كانت انطاكية حتى عام ١٠٨٤ تحت حكم بيزنطية) ، وكان تنظيمها السياسى يختلف اجمالا عن التنظيم السياسى الذى تكوّن فى مملكة القدس ، اللورينية اساسا (مثلا . فى انطاكية كانت السلطة الاميرية تنتقل بالوراثة ، بينما كان مبدأ وراثة التاج فى مملكة القدس يأتلف مع مبدأ انتخاب السلطة الملكية) . كذلك كانت ثمة فوارق معينة بين نظم مملكة القدس ونظم كونتية طرابلس ، البروفانسية من حيث قوام فئتها الحاكمة ، وما الى ذلك . ومع ذلك ، يمكن فرز ابرز خصائص النظام الاجتماعى والسياسى فى الدول الفرنجية .

وضع الفلاحين

كان الزراع يشكلون في هذه الدول السواد الاعظم من الكادحين . وكان قسم تافه جدا منهم يتألف من اولئك الزراع الاوروبيين الذين تسنى لهم مع ذلك ان يؤمنوا لانفسهم قطعة صغيرة من الارض في بلدان بعيدة . في الآونة الاولى حسّن بعض منهم وضعه بالمقارنة مع ما كان عليه . ولكن سرعان ما شرع الاسياد ينتزعون منهم الفوائد الاولية ويفرضون عليهم فرائض متنوعة ومتعددة ذات طابع عيني ونقدي . ان قصر عمر دول الصليبيين ذاتها هو وحده الذي جنّب الفلاحين الافرنج العبودية التامة .

كانت اغلبية الزراع من السكان المحليين ، المختلفين على الصعيد الاثني ؛ كانوا من السوريين واللبنانيين وغيرهم من العرب ومن الارمن واليونانيين . وجميعهم كانوا يتكلمون بلغات مختلفة ويعتنقون اديانا مختلفة : العرب - الاسلام ؛ والارمن واليونانيون والسوريون واللبنانيون - المسيحية بمختلف اشكالها الموروثة من القرون الوسطى الاولى ؛ فقد كان فريق منهم من الارثوذكس ، والفريق الثاني من الغريغوريين ، والفريق الثالث من النسطوريين ، والفريق الرابع من الموارنة ، والخ . .

وعندما استقر الاسياد الجدد في الاراضي المغتصبة ، المفتوحة ، حولوا الفلاحين العائشين في القرى من مسلمين ومسيحيين الى اقنان . وقضى القادمون على آخر بقايا حرية السكان القرويين الشخصية ، ناهيك بان الوضع المادي والنظام الحقوقي للزراع ومربي المواشي والكرامين والبستانيين في سوريا ولبنان وفلسطين سواء كانوا مسيحيين ام مسلمين . كانا متماثلين تماما . وبالمقارنة مع الازمنة السابقة ، تلخص الفرق كله في كون الكادحين المسيحيين (وليس فقط في الارياف بل ايضا في المدن) الذين كانوا يمارسون شعائرهم الدينية بلا عائق في ظل حكم السلجوقيين ، اخذوا يواجهون انعدام الصبر عند رجال الدين الكاثوليك الذين كانوا يعتبرون جميع غير الكاثوليك انصاف هراطقة . والى النير الاجتماعي انضمت الاعباء الطائفية .

اثناء فتح سوريا ولبنان وفلسطين من قبل الصليبيين تعرضت جماهير السكان العرب في القرى والمدن للابادة . واضطر قسم من المسلمين - الزراع والحرفيون - الى مغادرة اماكنهم الدائمة . اما الكثيرون ممن بقوا ووقعوا في اسر الصليبيين ، فقد باعوهم عبيدا . وقد كتب فولهير من شارتر ان الصليبيين ، عندما استولوا على قيسارية ، قلما رحموا الرجال ؛ اما اولئك الذين اشفقوا عليهم ولم يقتلوهم ، وكذلك النساء ، من حسناوات

وقبيحات ، فقد باعوهم اذ كان عليهم ان «يديروا رحى الطواحين» . وفى المدن الكبيرة قامت اسواق النخاسة ؛ ففى عكا كان تجار البندقية يشترون العبد ببيزانط واحد (بينما كان ثمن الحصان ٣ بيزانطات !) . كذلك كانت الاديرة تشترى العبيد .

وفى السنوات الاولى بالذات من تاسيس دول الافرنج ، انتشرت اعمال ضرب العبيد وشتى اعمال التعذيب والاهانة بحقهم انتشارا واسعا الى حد ان المجمع الكنسى المنعقد فى نابلس سنة ١١٢٠ اقر عقوبات ضد المذنبين فى التعذيب . وهذا القرار املاه فى المقام الاول الخوف من احتمال غضب العبيد . وكان للقرار ما يبرره ؛ فليس من قبيل الصدفة اقام الغزاة نظاما كانوا بموجبه يشنقون العبد الذى يقتل مسيحيا ، ويحرقون العبدة التى تقتل مسيحيا ، كما كتب فولهير من شارتر . واحيانا كان بعض العبيد يفلحون فى خلع سلاسل العبودية باعتناق الدين المسيحى ، فكانوا يصبحون اذ ذاك من المعتقين libertins كان وضع هؤلاء متقلقلا ؛ حسب المعتق ان يهين سيده السابق حتى يعود الى حالة العبودية بموجب «الكوتوم» اى بموجب التقاليد (العادات) الحقوقية المتناقلة من جيل الى جيل فى مملكة القدس .

ولم تكن ظروف حياة الاقنان افضل بكثير من ظروف حياة العبيد . فقد كانوا يتعرضون للاستثمار القاسى من قبل اسيادهم ومن قبل السلطة المركزية . وكانت اراضيهم تعتبر ملكا للفاتحين . وكانوا يربطون الاقنان بقطع الارض التى كانوا يبيعونها ويشترونها معهم (واحيانا بمعزل عنهم) . وكانوا يفرضون على الاقنان فرائض عديدة ومتنوعة ، عينية ونقدية . وكانوا يكلفونهم ايضا بضرائب الدولة . وفى دول الافرنج (خلافا لبلدان اوروبا الغربية) ، لم تكن السخرة موضع تطبيق تقريبا ؛ وبهذا المعنى احتفظ النظام الريفى بالسمات السابقة ؛ فان الدومين (الاستثمارة) الاقطاعية القائمة على كدح الاقنان ، كانت ظاهرة نادرة جدا . ولم تكن تتواجد فى المعتاد الا حيث كان الاقطاعيون يملكون مزارع قصب السكر ؛ فهنا كانوا يلجأون كذلك الى السخرة ؛ ففى اراضى استثمارات ملوك القدس ، مثلا ، كان على الاقنان ان يشتغلوا فى الشهر مدة تتراوح بين اربعة ايام وستة ايام .

وعلى العموم كانوا يجبون من الفلاحين المحليين شتى الجزاء والمدفوعات . وفى اغلب الاحوال كانت القرية تدفعها ، وان باسماء اخرى ، قبل الفتح ايضا ؛ فان الضريبة النقدية القديمة «المؤونة» صارت تسمى الآن «مونة» ، وضريبة «الخراج» (ضريبة الارض) صارت تسمى الآن «تراج» ، والخ . . وفى هذا المجال كانت تتبدى كذلك استمرارية معينة . ولكن عبء الفرائض

التى كان ينبغى تحملها فى صالح الاسياد الجدد قد اشتد لأن مقدار هذه الضرائب كان رهنا بتعسف الاسياد وكان كبيرا جدا . وعدا ذلك ، كانت المدفوعات مشروطة بطابع الملكية التى تتحملها ؛ فقد كانوا يدفعون ضرائب مختلفة عن الحقل المحروث ، والمرعى ، والبستان . وان الرحالة المسلم ابن جبير ، الذى زار مملكة القدس فى سنة ١١٨٤ ، قد كتب فى وصف رحلاته ، بايجاز ولكن ببالغ التعبير ، عن مقدار الجزاء المفروضة على الاقنان ؛ فقد كتب ان الاسياد كانوا يجبون من الاقنان قدرا من محاصيلهم يتراوح بين الثلث والنصف . كذلك كان للسيد نصيب من غلة الاشجار المثمرة واشجار الزيتون ، ولم يكن من النادر ان يبلغ نصيبه نصف محصول العنب . كذلك كان الاقنان يدفعون ضرائب الدولة (عن الاشجار المثمرة) فضلا عن شتى الرسوم (لقاء نقل المنتوجات الزراعية الى اسواق المدن ، لقاء بيع هذه المنتوجات ، الرسوم القضائية ، وخلافها) . وكانت ضريبة الرأس ظاهرة جديدة شديدة الوطاة على السكان الكادحين . وكما فى الغرب ، منح الاسياد انفسهم هنا حقوقا احتكارية فى امتلاك المعاصر ، وافران الخبز ، والمطاحن .

ولكن الاقنان لم يكونوا يتحملون ما لا عدّ له من الفرائض والمدفوعات وحسب بل كانوا كذلك محرومين تماما من الحقوق ، علما بان الاسياد الغربيين لم يكونوا يقيمون اى فرق من حيث الانتماء الدينى بين السكان الخاضعين لسلطتهم ؛ فقد كانوا يعاملون المسيحيين بنفس القدر من القساوة الذى كانوا يعاملون به المسلمين ؛ وكان الفلاحون المسيحيون والفلاحون المسلمون اقنانا (فيلانين) . وقد تحدث الكاتب العربى من القرن الثانى عشر أسامة بن منقذ عن زمن حكم بوهيموند الثانى فى انطاكية (١١٢٦ — ١١٣١) وكتب يقول : «وخرج على الناس من ذلك الشيطان ابن ميمون (اى بوهيموند — المؤلف) بلايا عظيمة» * .

يزعم بعض المؤرخين البرجوازيين ان الاسياد الافرنج قد خفضوا الجزاء عن الزراع المسلمين بالمقارنة مع الجزاء التى كانوا يؤدونها من قبل . ولكن لا وجود لاية براهين موزونة نوعا ما لدعم هذا الضرب من الاستنتاجات . ولا مجال للتحدث هنا لا عن تخفيض الاستثمار الاقتصادى ولا عن عدم وجود اذلال الفلاحين الشخصى . ان العلاقات بين مالكى الاراضى والزراع كانت علاقات بين الغالبين والمغلوبين ، وبعد دفع الفرائض للسيد لم يكن يبقى للفلاح الا قدر زهيد كان بالكد يكفي لاطعام عائلته وللبذر المقبل .

* اسامة بن منقذ . «كتاب الاعتبار» ، ص ٨٢ .

نضال الاقنان ضد الاضطهاد الاقطاعي

من الطبيعي ان الاقنان ، سواء كانوا من السوريين واللبنانيين ام من غيرهم من العرب ، كانوا ينظرون الى الغزاة الاجانب نظرة عداء ، وانهم ردوا عليهم غير مرة ردا حازما . وتاريخ دول الافرنج في سوريا ولبنان وفلسطين يحفل كله بنضال الزراع المحليين ضد الاسياد الغربيين . وعن انتفاضات الكادحين يتحدث ، وان بصورة جزئية ، ناقصة ، كثيرون من مدوني الاخبار والكتاب من القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، سواء منهم اللاتين ام الشرقيون[1] .

يفيد فولهير من شارتر الذي عاش في مملكة القدس زهاء ٣٠ سنة ان سكان الارياف كانوا دائما الى جانب الدول والامارات الاسلامية ، حين كانت هذه تحارب الصليبيين . ولم يكن من النادر ان تستثير هزائم الاسياد في الحروب ضد مصر او ضد الامراء السلجوقيين الاضطرابات الفلاحية . ففي سنة ١١١٣ ، مثلا ، بعد اخفاق الفرسان في معركة سن النبره ، هاجم الزراع من منطقة السامرة مدينة نابلس واجتاحوها ونهبوها . وفي سنة ١١٢٥ ، نشبت انتفاضة فلاحية كبيرة في منطقة بيروت وصيدا . وقد افاد فولهير بايجاز : «رفض الزراع المسلمون ان يدفعوا الاتاوى» . آنذاك لجأ سيد بيروت غوتيه الاول الى القوة . ذهب ملك القدس الى مساعدته ؛ فلاجل ضمان خضوع المسلمين لسيد بيروت ، بنيت قلعة مون غلافيان ، كسند ضد سكان الضواحي .

في سنة ١١٣١ نشبت انتفاضة في كونتية طرابلس ؛ وقتل السيد بونتي الطرابلسي ، الامر الذي نوه به مدون الاخبار ، رئيس الاساقفة غليوم الصوري . وفي القرن الثالث عشر واصل مدون اخبار ثان لم يترك اسمه مؤلف غليوم الصوري «الافعال في الاراضي ما وراء البحار» ، فتحدث عن فتنة فلاحية في طرابلس نشبت سنة ١٢٦٦ : «في الليل اباد الاقنان القرويون الفرسان الافرنج» .

وقد بقي من المعلومات غير المباشرة ايضا عدد لا يستهان به يدل على مبلغ ضراوة المقاومة التي ابداها الفيلانون (الاقنان) في وجه الاسياد ، اما برفض جني الغلال ، واما بالهجوم مباشرة على اسيادهم وقتلهم . ومما له دلالته ان مجموعة قوانين ملك القدس بودوان الثاني (١١١٨ — ١١٣١) قد نصت على التدابير الواجب اتخاذها في حال فتنة الاقنان . فاذا ما دعم احد اتباع السيد اقنانه المتمردين (وهذا ما كان يحدث في احوال كثيرة جدا اذ

كان الاقطاعيون غالبا ما يتعادون) ، فقد كان من حق السيد ، كما جاء فى هذه القوانين ان يحرم التابع من اقطاعته . وبموجب اصول قانونية صدرت لاحقا فى مملكة القدس ، كان من حق السيد ان يلاحق الاقنان الهاربين ويعيدهم بالقوة ، علما بان هؤلاء الاقنان كانوا احيانا يؤلفون فصائل من قطاع الطرق تجوس ربوع البلد وتنكل بالافرنج المكروهين .

وفى عيون السكان المحليين لم يكن جميع الحجاج الذين يتوافدون من الغرب سوى غزاة لم يكن من المتوقع منهم فعل الخير . ولهذا كانوا يقيمون فى وجوههم شتى العوائق . وفى سنة ١١١٣ زار فلسطين الراهب الهيغومن (اى رئيس الدير) الروسى دانيال وكتب عن انطباعاته من رحلته . وقد قال هذا الراهب ان «اماكن مقدسة» كثيرة كانت مستحيلة المنال على الذين «كانوا يريدون الوصول اليها بقلة (اى بعدد قليل – **المؤلف**)» : «الى هناك يذهب كثيرون من المسلمين ويقتلون هؤلاء فى الجبال والادغال» . ودانيال نفسه لم يستطع ان يقوم بالحج بسلامه الا لانه انضم الى عساكر الملك بودوان الاول الذى شن حملة على مدينة دمشق . ويدقق الهيغومن فى مذكراته قائلا ان الامير «ضمه الى عساكره» و«هكذا اجتزت تلك الاماكن الرهيبة مع عساكره بدون رهبة وبدون ضرر» . ويضيف الهيغومن : «بدون رجاله لا يستطيع احد ان يمر فى هذه الطريق» .

ان مدونى الاخبار اللاتين يصورون السوريين ، على العموم ، بالوان قاتمة . ان هذا التقييم المتحيز لا يثير الدهشة ؛ فان الاقنان الذين كان الصليبيون يضطهدونهم لم يعتزموا طأطأة الرأس امامهم . والمسلمون والمسيحيون سواء بسواء ، على اختلاف مللهم ونحلهم ، كانوا مفعمين بالحقد على الصليبيين وعلى النظم التى اقاموها ، وكانوا مستعدين للاقدام على كل شيء لكى يجعلوا اقامة البارونات الصليبيين واتباعهم لا تطاق ولكى يجبروا هؤلاء واولئك على الرحيل عاجلا ام آجلا .

كان التوتر فى العلاقات بين الافرنج والسكان الاصليين يفقأ عيون جميع الذين زاروا مملكة القدس . وفى عهد الملك آمورى الاول (١١٦٣ – ١١٧٤) زاره حاكم قيليقيا الارمنية طوروس الثانى . وعندما تقابل طوروس الثانى مع آمورى الاول ، قال الاول للثانى ، كما كتب مدون الاخبار السورى ارنول : «فى جميع مدن بلادك ، يعيش مسلمون يعرفون جميع السبل والاسرار . واذا ما اقتحمتها العساكر الاسلامية ، ذات يوم ، فانها ستستفيد من مساعدة ونصيحة الناس البسطاء فى البلاد الذين سيساعدون المسلمين بالمأكولات وبقواهم بالذات . واذا ما حدث ومنى المسلمون بالهزيمة فان رجالك بالذات

(اى المسلمين - **المؤلف**) سيخفونهم فى اماكن موثوقة . واذا ما انتصروا عليكم ، فانهم سيتسببون لكم بكل شر» . وحتى اذا افترضنا ان هذه الكلمات لم ترد على لسان طوروس الثانى بهذا الشكل بالضبط ، فمن الواضح ان المعاصرين كانوا يدركون كل الادراك وضع الامور الفعلى فى دول الافرنج .

وانها لمعبرة الاسطر التالية للراهب الدومينكانى الالمانى بورخارد الصهيونى التى تعكس مزاج السكان السوريين حيال الاسياد الغرباء : «صحيح انهم (اى السوريين - **المؤلف**) مسيحيون ، ولكنهم لا يصدقون اللاتين اطلاقا» . ويروى الكاتب الفرنسى من اوائل القرن الثالث عشر جاك دى فيترى ، الذى عاش فى فلسطين (كان اسقف عكا) ان السوريين كانوا يفضون باسرار الصليبيين العسكرية الى المسلمين . ويلاحظ بامتعاض بالكد يكون مستورا فى كتابه «تاريخ القدس» «انهم غالبا ما يطلبون العون ضد المسيحيين من اعداء ديننا ولا يستحون من ان يبددوا لما فيه ضرر المسيحية القوى والاموال التى يجب انفاقها لمجد الرب ضد الوثنيين» .

ويحفل المؤلف البارز فى الادب العربى «كتاب الاعتبار» للكاتب العربى المذكور اعلاه اسامة بن منقذ بادلة ساطعة على عداوة السكان المحليين للغزاة الصليبيين . فهو يروى ، مثلا ، انه عندما وصل مسلم تفلت من اسر الافرنج الى قرية بجوار عكا ، اخفاه سكانها «ثم اوصلوه الى بلاد الاسلام» * ، اى انهم ساعدوه على الذهاب الى ذويه . وفي احد الفصول يكتب اسامة عن شاب مسلم جمعه القدر به فى نابلس : «ان امه كانت مزوجة برجل افرنجى ، فقتلته . وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وامه على قتلهم» ** .

ويتضح من قصص اسامة مبلغ عظمة الحقد الذى كان يكنه السكان المحليون للاسياد الغرباء . فان الفلاحين ، حتى العزل من السلاح ، كانوا يشتبكون مع الفرسان . وذات مرة جاء الى قريب للكاتب فلاح من محلة الجسر واضعا يده تحت ردائه ، فسألوه : ««اى شيء بيدك ؟» قال «يا مولاى ، تقابضت انا والافرنجى وما معى عدّة ولا سيف فرميته ولكمت وجهه وعليه اللثام الزرد حتى اسكرته ، واخذت سيفه فقتلته به»» *** .

ويروى الكاتب ذاته قصة تنكيل وحشى اقترفه الافرنج بفلاح كهل ارتابوا بانه قاد بعضا من الحرامية (قطاع الطرق) المسلمين الى قرية فى

* اسامة بن منقذ . «كتاب الاعتبار» ، ص ٨٢ .
** المصدر نفسه . ص ١٣٩ .
*** المصدر نفسه ، ص ١٤٩ .

جوار نابلس . حاول الفلاح ان يهرب ، فقبضوا على اولاده بامر من الملك فولك دانجو (١١٣١ - ١١٤٣) . ولانقاذ العائلة اقدم الفـــلاح على اقصى الوسائل . عاد وقال للملك : «انصفني ، انا ابارز الذى قال عنّى انــى دللت الحرامية على القرية» . فقال الملك لصاحب القرية المُقْطع «احضر من يبارزه»» * . ثم يصف اسامة المبارزة السخرية المنظمة عقابا للمتهم ، فقد اجبروه على مقاتلة الحداد من القرية ذاتها . «فجاء البسلند (الفيكونت - **المؤلف**) وهو شحنة البلد (عادة كان الفيكونتات يحاكمـــون فى المدن - **المؤلف**) واخذ كلٌ منهمـــا العصا والترس ، وجعل الناس حولهم حلقـة والتقيا . وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم» ** . وهذه المبارزة القضائية التى نظمها ملك القدس والتى قصد منها بكل جلاء تخويف القرويين ، انتهت بمقتل الفلاح المتهم بالاتصال مع الحرامية ؛ وبعد ذاك رموا «على رقبة الشيخ حبلا فى الحال وسحبوه وعلقوه» . ويختم اسامة بن منقذ قصته بصرخــة غاضبة : «وهذا من جملة فقههم» (فقـــه الافرنج - **المؤلف**) «ولعنهــم الله !» *** .

وقد بنى الصليبيون فى المناطق التى فتحوها القلاع والحصون لاجــل ضمان امنهم وسلامتهم . وقد بقيت انقاضها الى اليوم . وهذه القلاع والحصون (وتشتهر بينها على الاخص كراك بلانشغارد وكراك دى مونريال وكراك دى شيفاليه) لم تكن مخافر امامية عسكرية ضد الدول الاسلاميـــة المجاورة وحسب ، بل كان القصد منها كذلك ان تحمى الاسياد من «العدو القريب» . من غضب «حراث الحقول» المظلومين .

النظام السياسى

كان النظام السياسى فى دول الصليبيين عبارة عن تسلسل مراتبـــى اقطاعى من الاسياد من مختلف المراتب والمراكز ، يشبه تقريبا التسلسل القائم آنذاك فى الغرب . وكانت مملكـــة القدس تعتبر الاولى بيـــن دول الصليبيين ، ولكن ملوك القدس لم يكونوا يملكون ، من حيث جوهر الامر ، اية مزايا وافضليات بالنسبة للامراء الآخرين الثلاثة الحاكمين فى طرابلس وانطاكية والرها . وكان هؤلاء الامراء مستقلين فعلا عن الملك ، رغم انهم

* المصدر نفسه ، ص ١٣٨ .
** المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .
*** المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .

كانوا شكلا مربوطين به برباط الخضوع والطاعة . وعمليا كان الملك يشغل وضع رئيس اسمى لاعضاء متساوين فى الحقوق فى ضرب من كونفيديراسيون (اتحاد كونفيديرالى) من الدول .وكان حكام انطاكية والرها وطرابلس يملكون فى اماراتهم ودوقياتهم نفس السلطة التى كان يملكها سيدهم فى مملكة القدس .

كانت الدول الاقطاعية الرئيسية تنقسم الى وحدات اصغر من الحيازة الاقطاعية — البارونيات . وكانت البارونيات تنقسم بدورها الى وحدات اصغر — هى فيودات الفرسان ، من مختلف المقاييس ، كان من الممكن ان يشمل الفيود Feod (Fief الاقطاع او الاقطاعة) بضع قرى او قرية واحدة ، او قسما منها ، ولذا كانت القرية مقسومة على بضعة اسياد .

ففى مملكة القدس ، مثلا ، كانت ثمة اربع ممتلكات : فى شمال فلسطين ، امارة الجليل (ومركزها طبرية) ؛ فى الغرب ، بارونيات صيدا وقيسارية وبيسان ، وكذلك دوقية يافا وعسقلان (وقد تم انتزاعها من مصر فى سنة ١١٥٣) ؛ فى الجنوب بارونية كراك دى مونريال وسان ابراهام . وكان اسياد هذه الممتلكات يعتبرون تابعين مباشرة للتاج . وكان لكل منهم اتباع بشخص مالكين اصغر نالوا منهم اقطاعاتهم مع حق التوريث : كان بارون (سيد) الرملة تابعا لدوق يافا وعسقلان ، والخ . . وعدا الاقطاعيين الكبار الاربعة ، كان تحت حكم الملك اكثر من عشرة اقطاعيين اصغر شأنا هم اصحاب ارسوف واريحا والخليل وعبلين وغيرها من المحلات ومن النقاط المحصنة . وفى مملكة القدس كان بالاجمال ٢٢ سيدا . علما بان كل حيازة فى دول الصليبيين كانت عبارة عن «فيود» (اقطاعة) ، وكل فارس كان تابعا .

هذا التنظيم للطبقة السائدة قد تكون وتطور بقدر ما كان الاقطاعيون الغربيون يستقرون فى الشرق . فان الملك بودوان الاول ، كما يفيد البر من آخن ، طالب فى اليوم الخامس من صعوده على العرش ، بان يحلف جميع فرسان مملكة القدس يمين التبعية والولاء له ويقدموا معلومات عن اقطاعاتهم وعن ايراداتهم بما فيها المبالغ النقدية التى يدفعها سكان المدن .

ومنذ ان شرع المسلمون يزحزحون الصليبيين من الاراضى المحتلة ، طرأت بعض التغيرات على وضع الفرسان . فعوضا عن الضياع او فضلا عنها شرع الملوك يمنحونهم على سبيل الاقطاع مختلف ابواب الدخل — بعضهم الحق فى جباية ضريبة السوق ، والبعض الآخر الرسوم الجمركية ، والبعض الثالث احتكار حيازة الموازين والمعايير لاجل الصفقات التجارية ، وغير ذلك . وقد جرى ، حسب تعبير الباحث الفرنسى كاين ، تحويل الاقطاعات الى عنصر من

مالية الدولة ، الامر الذى نجم بمقدار كبير عن اصالة اقتصاد القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، وتجارته المتطورة ، وحياته المدينية المكثفة . ان الفرسان الذين كانوا يحوزون هذه الاقطاعات النقدية (الريعية) او «اقطاعات البيزانط» كانوا يعيشون فى المدن . لم تكن مداخيلهم مرتبطة بالارض ، وكانوا بهذا المعنى فرسانا من ذوى الريع ، وليس مالكى ارض من الطراز الاقطاعى العادى .

كان ملك القدس اكبر اقطاعى . كان يملك الكثير من الضياع والعقارات . وكانت الاملاك الملكية تمتد فى الشرق حتى نهر الاردن والبحر الميت . وعدا ذلك ، كانت بضع مدن كبيرة تخضع للملك هى القدس (الا ان البطريرك كان يملك ربعها) ، ونابلس حيث كانت تقوم تجارة واسعة ولا سيما تجارة الكتان والخمر المنتوجين فى السامرة وكذلك المدينتان الميناثيتان المهمتان صور وعكا مع ضواحيهما ودوائرهما ؛ وهناك كانوا يتعاطون زراعة القطن ، وكانت تنتصب اشجار الزيتون ، وتمتد الكروم ؛ وقرب عكا كانت تنتشر مزارع قصب السكر . وكانت الضياع والمدن تعود على الملك بمداخيل كبيرة . وفى صالح التاج كانوا يجبون مختلف الرسوم فى اسواق المدن وفى الموانئ : الرسوم الجمركية ، ضريبة المرساة (مارك فضى عن كل سفينة قادمة) ، ضريبة من الحجاج (الترسيارى — ثلث كلفة مرور الحجاج) ، وغيرها . وعلاوة على ذلك ، كان الملوك يطالبون بدفع الرسوم من قوافل التجار الشرقيين الذاهبة من القاهرة الى بغداد ، ومن دمشق الى القاهرة ومكة والمدينة . وكان الملوك يجبون جزية لا يستهان بها من الرحالة البدو فيما وراء الاردن عن حق الانتفاع بالمراعى التى انتزعها الصليبيون منهم .

ولم يأنف ملوك القدس عن القرصنة والسلب والنهب وقطع الطرق على المكشوف ، الامر الذى كان يتوافق كليا مع روح ذلك الزمن حين كان يسود حق الاقوى . ويروى اسامة بن منقذ حادثة ، امر فيها الملك بودوان الثالث (١١٤٣–١١٦٢) باعتراض السفينة التى كانت فيها عائلة الكاتب (زوجته واولاده) تمضى على متنها من مصر الى سوريا ، واغراقها غير بعيد عن عكا ، وذلك لمجرد حيازة الحمولة القيمة الموجودة فى السفينة . ويقول اسامة : «فلما دنوا من عكا والملك ، لا رحمه الله ، فيها نفّذ قوما فى مركب صغير كسروا البطسة بالفؤوس واصحابى يرونهم وركب ووقف على الساحل ونهب كل ما فيه . . .»* فقطعوا (هكذا جاء فى الترجمة — المؤلف)

* اسامة بن منقذ . «كتاب الاعتبار» ، ص ٣٤ .

السفينة .ثم سيق جميع ركاب السفينة الى الساحل وتعرضـــوا للتفتيش . انتزعوا من النساء كل ما كان معهن . واخذ خدم الملك فى السفينة «حـــلى اودعه النساء وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو مـــن ثلاثين الف دينار» * . وقد وضع الملك يده على كل هذا واعطاهم خمسمئة دينار قائلا : «توصلوا بهذه الى بلادكـــم» ** . اما هـــم ، اى الرجال والنساء ، كما كتب اسامة بن منقذ بغضب ، فقد كان عددهم زهاء خمسين .

ان المداخيل المحصلة باساليب شرعية وغير شرعية ، والكبيرة نسبيا كانت تؤمن لملوك القدس تفوقا معينا على الاسياد الآخرين – اتباع واتباع اتباع التاج ، ولكن الاملاك الملكية اخذت تتقلص تدريجيا بقدر ما كـــان يجرى توزيع اراضى التاج على الفرسان على سبيل الاقطاع ؛ ونحـــو اواسط القرن الثانى عشر ، لم يكن الملك يملك فى جوار صور ، مثلا ، سوى ثلث الاراضى ؛ وعلى العموم ، كان اكثر من ثلثى اراضى المملكة فى حوزة الاسياد الاقطاعيين .

كان واجب الاتباع الرئيسى تأدية الخدمة العسكرية فى صالح سيدهم . وكان من حق الملك ان يطالب بادائها فى اى وقت من السنة : ذلك ان دول الصليبيين كانت فى حالة حرب دائمة تقريبا ضد الجيران ناهيـــك عن ان الوضع الداخلى كان مضطربا جدا . ولم يكن من حق التابع ان يغادر املاكه لمدة طويلة . ففى السنوات الاولى من قيام مملكة القدس صدر قرار مفاده ان من يترك اقطاعته بدون اذن من الملك ولا يعود اليها فى غضون سنـــة واحدة ويوم واحد يفقد حقوقه فى اقطاعته (ما يسمى «اسيز» سنة واحدة ويوم واحد) . وكان يتعين على التابع ان يستجيب لامر الملك ويأتى عـــلى صهوة حصانه وبكامل سلاحه وعتاده القتالى . وكان ملزما بان يجلب معه رجاله المسلحين ويخدم السيد (الملك) حيث وبقدر ما يقتضى الحال مـــن الوقت (اما فى اوروبا الغربية ، فان مدة خدمة الاتباع كانت تقتصر على ٤٠ يوما فى السنة) .

كذلك كان من واجبات البارونات وسائر اتبـــاع الملك الاشتراك فى المجلس الاقطاعى – الكورية او الآسيز . وكانت الكورية الملكية تسمـــى المجلس الاعلى .

الآسيز (Assise) كان محكمة اقطاعية تنظر فى دعاوى الفرســـــان

* اسامة بن منقذ . «كتاب الاعتبار» ، ص ٣٤ .

** المصدر نفسه .

وشكاواهم . وفى الوقت ذاته كان الآسيز هيئة عسكرية سياسية تبحث قضايا الحرب والسلم والديبلوماسية وتفصل فيها . كان المجلس الاعلى يحدّ من سلطة الملك ويراقب اعمال الملك حيال الاتباع . وكانت الكورية تقوم بدور حافظة وحارسة للكوتوم (الاعراف والعادات) الاقطاعية . كتب الامير العربى اسامة بن منقذ فى مؤلفه «كتاب الاعتبار» : «ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية الا للفرسان ، ولا عندهم ناس الا الفرسان — فهم اصحاب الراى وهم اصحاب القضاء والحكم» * . «وهذا الحكم ما يقدر الملك ولا احد من مقدمى الافرنج ان يغيره ولا ينقضه . فالفارس امر عظيم عندهم» ** .

اسيز دى جيروزالم

كان لمفهوم الاسيز فى الشرق الافرنجى معنى آخر ايضا ؛ فهكذا كانت تسمى المجموعات القضائية التى لم تكن سوى تعداد ، قائمة ، لقرارات الكورية الاقطاعية المعنية ذاتها . وقد وصل الينا اثر تاريخى شاسع يثبت قواعد الحق الاقطاعى العادى المطبق فى دولة الصليبيين الرئيسية هو اسيز دى جيروزالم («Assise de Jérusalem» ، «اسيز القدس») اى مجموعة الاحكام التشريعية التى تعتبر الزامية بالنسبة للطبقة السائدة فى هذه المملكة . وقد وردت بدون اى نظام معين وبدون اى تتابع دقيق ، ولذا كانت «اسيز دى جيروزالم» بهذا المعنى مجموعة هشة جدا من اعراف وعادات لها قوة القانون وتتناول شتى جوانب حياة الاقطاعيين الافرنج والعلاقات فيما بينهم . ولكن بقيت صيغة عن هذا الاثر موضوعة بعد حقبة طويلة جدا من الصيغة الاولى ، وتثبت بصورة معبرة جدا سمات النظام السياسى وسمات تنظيم الطبقة السائدة فى مملكة القدس فى القرن الثالث عشر ، اى عندما اخذت شمسها تميل بكل جلاء الى الغروب . اما القواعد الحقوقية القديمة التى كانت تعكس الوضع القائم فى العقود الاولى من تاريخ دول الصليبيين ، فقد ضاعت . ولكنه معلوم فقط ان «اسيز دى جيروزالم» قد سبقتها آثار تشريعية اقدم عهدا وان «الاسيز» ذاتها قد تكونت تدريجيا ، اغلب الظن ، فى سياق حقبة مديدة من الزمن . بادىء بدء ، لم يكونوا يسجلون الاعراف والعادات الاقطاعية ، وكان جيل من الفرسان ينقلها شفويا الى جيل آخر :

* اسامة بن منقذ . «كتاب الاعتبار» ، ص ٦٤ .

** المصدر نفسه .

الاباء الى الاولاد ، الجدود الى الاحفاد . ثم شرعوا يسجلون الاعراف والعادات . وقد حدث ذلك للمرة الاولى ، اغلب الظن ، فى سنة ١١٢٠ ، عندما جمع بعضها فى مجموعة عامة ، كانت تتالف من ٢٤ فقرة او مادة ، تحدد صلاحيات الكورية الملكية . وقد حظيت الاحكام المناسبة فى هذا الصدد بمصادقة مجلس البارونات والاحبار والملك بودوان الثانى فى نابلس .

كذلك حفظ التقليد التاريخى اشارات الى القوانين والاوامر الملكية المطبقة فيما مضى ؛ فان مجموعتها ، حسب كل احتمال ، قد بقيت فى كنيسة القبر المقدس فى القدس ولذا اسميت «كتابات القبر المقدس» . ان هذه «الكتابات» ، والاصح ، هذه «الوثائق» قد ضاعت ، كما يفترضون ، عندما استعاد صلاح الدين الايوبى القدس فى سنة ١١٨٧ .

بعد الحملة الصليبية الثالثة ، احتاجت السلطة المركزية من جديد الى مجموعة ثابتة من القوانين . فحاول الملك آمورى الثانى ، بدافع روح المبادرة ، ان يبعث بمساعدة احد «الناس المطلعين» - راوول من طبرية (راوول الطبرى) - «كتابات القبر المقدس» . ولكن البارونات لم يابهوا لبعث الاعراف والعادات التى كانت تمنح السلطة الملكية امتيازات اكبر نسبيا ؛ فان راوول الطبرى الذى كان ينتمى الى طغمة البارونات ، قد رفض ان ياخذ على عاتقه امر بعث مواد المجموعة السابقة . ومع ذلك ، امكن فى حقبة سنوات ١١٩٧-١٢٠٥ البدء بتسجيل الاعراف والعادات الاقطاعية ، من جديد ، او قوننة الحق ؛ فقد وضع «كتاب لاجل الملك» ، وهو الذى يشكل اقدم قسم من الصيغة المحفوظة لـ«اسيز دى جيروزالم» . وفيما بعد ، فى الخمسينيات والستينيات من القرن الثالث عشر على الارجح ، اكتمل «كتاب لاجل الملك» بتسجيلات اخرى قام بها المشرعان المشهوران من مملكة القدس فيليب النوفارى وجان ديبيلين . فقد جمعا فى كل واحد جميع الاعراف والعادات التى كان بوسع الاسياد الاستفادة منها لاجل تعليل امتيازاتهم .

وقبل ذاك بقليل ، في الاربعينيات من القرن الثالث عشر على ما يبدو ، جرى تسجيل قواعد حقوقية مطبقة خصيصا لاجل حل النزاعات القضائية بين سكان المدن هى «كتاب اسيز مجلس سكان المدن» .

وهكذا تكونت مع مر الزمن مجموعة قوانين مملكة القدس . ولذا ترقى «اسيز دى جيروزالم» ، فى بعض اقسامها ، الى مراحل مختلفة من تاريخ الشرق اللاتينى .

وفى دول الصليبيين كان يسرى مفعول مجموعات تشريعية اخرى ؛

والواقع انه كانت توجد فى كل من هذه الدول «اسيز» خاصة بها ، ولكننا لا نملك اية معلومات تقريبا عنها .

ان «اسيز دى جيروزالم» — تعين بصورة مفصلة جدا نظام الخدمة العسكرية الاقطاعية ، وحقوق الاسياد ، وواجبات الاتباع (المقطعين) ، وتضبط العلاقات المتبادلة فيما بينهم ، وتصوغ بصورة مسهبة الشروط التى يقدم الاتباع بموجبها الخدمة العسكرية للسيد ، وتقرر الحالات التى يحق فيها للملك او لاى آخر ان يحرم التابع من اقطاعته . مثلا ، اذا انتزع السيد من التابع اقطاعته بصورة غير شرعية ، فان جميع اتباع هذا السيد الباقين ملزمون حتما بمساعدة المنكود على استعادة املاكه . وفى وسعهم ان يمتنعوا عن اداء الخدمة العسكرية للسيد ، وان كان الملك بالذات ، ما دام قد انتهك حقوق اى من اتباعه . ولم يكن بوسع الملك ان ينتزع من التابع اقطاعته الا بحكم من الكورية . وفى بعض الظروف ، كان الاتباع يتمتعون حتى بالحق فى منع الملك من عبور املاكهم .

كان الاقطاعيون الصليبيون يحرصون كل الحرص على ان لا يتقدم منهم السيد بمطالب مفرطة ، وان لا يمس مبادرتهم . وكان على ملك القدس ان ينسق جميع اعماله مع اتباعه بالذات ؛ ولم يكن بمقدووه ان يتخذ اى قرار بدون موافقة البارونات ، مثلما لم يكن بمقدورهم هم ايضا أن يتخذوا اى قرار بدون موافقة اتباعهم .

وهذا يعنى ان وضع التجزؤ الاقطاعى قد لقى اكمل تعبير عنه او التعبير الكلاسيكى ، كما قال انجلس ، فى نظام مملكة القدس السياسى المثبت فى «اسيز» . وفى ظل هذا الوضع ، كان محكوما على السلطة الملكية بالعجز . ولكن هذا الوضع لم يصبح نموذجيا بالنسبة للبنيان السياسى فى مملكة القدس الا فى القرن الثالث عشر . اما فى العقود الاولى من تاريخ مملكة القدس ، اى عندما كان يتعين على الفرسان ان يرصوا صفوفهم فى سعيهم الى توسيع اراضى ممتلكاتهم ، فقد لوحظت بعض العلائم على توطد السلطة المركزية . وحتى فى عهد بودوان الثالث (١١٤٣–١١٦٣) ، سرى مفعول قاعدة كان فى مقدور الملك بموجبها ان ينتزع فى ١٢ حالة نص عنها القانون الاقطاعة من التابع دون ان يطلب موافقة المجلس الاقطاعى . ولكن الميول من هذا النوع تطورت بصورة متناقضة ؛ وعلى العموم ، اخذت القوى النابذة تحرز الغلبة بكل وضوح نحو اواسطة القرن الثانى عشر ؛ وهذه القوى كانت تجسدها الاريستقراطية الاقطاعية الناهضة فى الربع الثانى من القرن . ومع ذلك كانت الميول الى المركزية تتبدى من حين الى آخر فيما بعد ايضا ، بقدر

ما كانت علاقات الفاتحين مع السكان المستعبدين ومـــع الدول الاسلامية المجاورة تكتسب المزيد والمزيد من التوتر ، وبقدر ما كان الصراع الاجتماعي الداخلي يتأزم ، متخذا في المعتاد شكل العداوة الاتنية الدينية ، ناهيك بـأن الحروب ضد السلجوقيين والعرب صارت اكثر فاكثر تواترا وامتدادا . وفي هذه الاحوال ، سعى المالكون الصغار والمتوسطون الى التراص حول التاج الملكي . كذلك السلطة الملكية حاولت من جهتها ان تربط الفرسان مـــن مختلف المراتب بها بمزيد من الشدة والثبات .

وقد قامت احدى هذه المحاولات في عهد الملك آموري الاول . فعندمـا اقدم البارون المتغطرس والمستبد جيرار من صيـــدا (١١٦٢) ، الذي حول صيدا الى وكر للقرصنة (ومن هنا تسبب ، كما قـــال ميخايل السرياني ، بكثير من الضرر للمسيحيين والاتراك على السواء) على حرمان احد اتباعه من اقطاعته بدون سبب او مبرر ، عارض الفرســـان قطعا هذا التعسف الجلي . ووقف الملك آموري الاول الى جانبهم . وفي سنة ١١٦٣ صدرت «اسيـــز بصدد دورية خدمة الاتباع العسكرية» ، اعلنت الملك السيد الاعلى بالنسبة لجميع الاقطاعيين في مملكة القدس ؛ كما الزمت كل صاحب اقطاعة من الآن وصاعدا ، ايا كان سيده المباشر ، بان يصبـــح تابعا مباشرة للملك وان يخضع له بوصفه السيد الاعلى . ان هذه «الاسيز» التي تشبه احكاما مماثلة اتخذت ، مثلا ، في عهد غليوم الفاتح في انجلترا ، قد انتقصت كثيرا مـن حقوق البارونات الكبار ، ووسعت على العكس امتيازات السلطة الملكية .

وهكذا تكونت في النظام السياسي لدول الصليبيين واخذت تفعل فعلها عناصر مركزية الدولة . ولكن خلافا للعملية المماثلة التي تطورت في الغرب وانتهت هناك بنشوء الملكيات الاقطاعية التي ظلت فيها السلطة الملكيـــة تتوطد باطراد ، لم يحدث شيء من هذا القبيل في الشرق الافرنجي ؛ فان هذه العملية قد انقطعت هنا وهيمنت في آخر المطاف ميول الانفصالية الاقطاعية . وان «اسيز بصدد دورية خدمة الاتباع العسكرية» قد انقلبت على السلطـــة الملكية في صالح الاريستقراطية الرفيعة المقام ، مهما يكن ذلك متناقضا . وفي الكورية الملكية التي اخذوا يدعون اليها جميع اصحاب الاقطاعات (بصرف النظر عن نوع هذه الاقطاعات) عاد التفوق عمليا الى الاعيان ، اذ ان صغار الفرسان صاروا رهنا كليا بارادة البارونات الكبار .

كان الاسياد ضمن حدود املاكهم مستقلين تماما . وكانت تعود اليهـــم السلطة القضائية العليا ، وكانوا يحاكمون وينفذون الاحكـــام ، وكان لهم الحق في اعلان الحرب وعقد الصلح ، وكان كثيرون يملكون الحق حتى فـي

سك نقود خاصة بهم . وكان الوضع العام في دول الصليبيين لا يلائم تطور الميول المركزية تطورا كاملا نوعا ما ؛ وفى القرن الثالث عشر ، عندما اخذت ممتلكات الاسياد الغربيين فى الشرق تتقلص تدريجيا ، اندثرت هذه الميول نهائيا .

ان المخاصمات الدائمة بين الاقطاعيين المتنافسين ، والخلافات بين الاتباع والاسياد ، والفتن الاقطاعية ضد الملوك ، والصراع من اجل السلطة الذى كانت ترافقه المؤامرات والذى كانت تخوضه الزمر والتكتلات من البلاط الملكى - تلك هى السمات المميزة للحياة السياسية فى دول الافرنج . ولم تتوقف المؤامرات حتى فى الازمان المشؤومة على وجود هذه الدول . فحين تلبدت فوق مملكة القدس غيوم العاصفة - فان دولة صلاح الدين الايوبى المصرية اخذت فى اوائل الثمانينيات من القرن الثانى عشر تهدد سيادة الصليبيين فى الشرق اكثر فاكثر - احتدمت نيران العداوة الحادة بين حزبين اقطاعيين بكل قوة . احد الحزبين ترأسته والدة الملك بودوان الرابع الضعيف الصحة والارادة اغنيس دى كورتينه (التى سبق لها ان غيرت ازواجها اربع مرات) واخوها السينيشال (وزير العدالة) جوسلين الثالث ؛ والحزب الآخر ترأسه ريمون الطرابلسى .

وفى تلك السنوات على وجه الضبط ، اخذت ترتفع بسرعة فى مملكة القدس اسهم البارون غى دى لوزينيان (Lusignan) الذى وصل مؤخرا من بواتو . وقد حظى بحماية الملكة الام ، وتزوج فى سنة ١١٨٠ من اخت الملك بودوان الرابع سيبيل المترملة ؛ وبالاعتماد على علاقات القربى التى اكتسبها عن هذا السبيل ، شرع يشق لنفسه طريقا الى التاج الملكى . الا ان مطامعه اصطدمت بمقاومة البارونات من قدماء السكان ؛ فقد اقتحمت قوات ريمون الطرابلسى وحليفه بوهيموند الثالث ، امير انطاكية ، حدود مملكة القدس . وقد حظى كونت طرابلس بمساندة اسياد بارزين من عداد اخلاف الذين قدموا من زمان وترسخت اقدامهم فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط - بودوان من الرملة ، باليان ديبيلين ، رينه من صيدا ، وكثيرين آخرين . وفى هذه الاثناء كانت مملكة القدس تمنى بالفشل اثر الفشل فى الحروب ضد المسلمين . وتهيج الملك بودوان الرابع من الخسائر التى كانوا يعتبرون غى دى لوزينيان مسؤولا عنها ، علما بانه كان قد توصل الى منصب وصى المملكة (بايلى baili المملكة) ، فعين فى هذا المنصب ريمون كونت طرابلس ، ومنحه بيروت علاوة على ممتلكاته . وبعد هذا ،

تفجرت العداوة بين الحزبين الاقطاعيين من جديد بكل قوة . وقد جرت هذه الحوادث فى السنوات التى كان يتقرر فيها مصير مملكـــة القدس بالذات ؛ فقد صارت ايامها معدودة من حيث جوهر الامر ، ولكـــن هذا لم يحل دون مشاحنات الحاشية الملكية .

التجارة

كان غياب علاقات اقتصادية متينة ودائمة نوعا ما بين دول الصليبيين ، وكذلك فى قلب كل منها من الاسباب التى حالت دون التمركز السياسى .
ولقد لعبت التجارة دورا كبيرا فى بنيان مملكة القدس الاقتصادى ، ولكـن هذه التجارة كانت بصورة رئيسية اما تجارة مع اوروبا الغربية ، واما تجارة مع «الهينترلند» (القسم الداخلى من البلد) الاسلامى . وكانت على الاغلب فى ايدى التجار من ايطاليا ومن بروفانس – من البندقية وجنوه وبيزا وانكون وامالفى ومرسيليا .
وفى حينه قدم هؤلاء التجار (وظلوا يقدمون فـــى القرنين الثانى عشر والثالث عشر) للفرسان الصليبيين خدمات لا يستهان بها مزودينهم بالسلاح والمؤن وآليات الحصار ، وناقلين المدد بالرجال . وجميـــع هذه الخدمات تقاضوا عنها اجورا ممتازة . ونال التجار الغربيون فى المدن المينائية فـــى سوريا ولبنان وفلسطين حقوقا وامتيازات واسعة جدا .
وهذه الحقوق والامتيازات كانت من انواع ثلاثة . كان لبعض منها طابع اقليمى : فان التجار الايطاليين وغيرهم من التجار الاوروبيين كانوا ينالون فى المدن الساحلية احياء فيها بيوت سكنية ومستودعات ، وفيها حتما مسبح وحمام وفرن وكنيسة ، وسوق بالطبع . وكانت الفئة الثانية من الامتيازات من الميدان الحقوقى الصرف ، وكانت جوهرية جدا بالنسبة للذين يعقدون الصفقات التجارية بداب وانتظام . وكانت الامتيازات من هذه الفئة الثانيـة ، عبارة عن استثناءات متنوعة من النظام القانونى المحلى . فان التاجر او الحرفى من جنوه ، مثلا ، اذا اقام فى الشرق ، فى حى مخصص للقادمين مـــن هذه المدينة ، جنوه ، لم يكن من الممكن محاكمته الا بموجب قوانين جمهوريته ، والا من قبل قنصله . وفضلا عن ذلك ، كان كل من سكان هذا الحى يخضع على العموم لفعل قوانين جنوه . ومن حيث جوهر الامر ، كان التجار يتمتعون فى الموانئ التى يختارونها بحقوق الحصانة ، سواء كانوا مـن جنوه او بيزا او البندقية ، وبقدر اقل ، من مرسيليا او برشلونة ، والخ . .

ان مقامات التجار الايطاليين المميزة ، القائمة عادة اشبه بنصف دائرة في جوار الميناء ، كانت تشغل احيانا زهاء ثلث ارض المدينة . وقد غدت نقاط ارتكاز للعلاقات التجارية بين الغرب والمشرق (بالفرنسية Levant) .

من البندقية وجنوه وبيزا ، من مرسيليا ومونبيليه ، من سواحل بريطانيا المضببة وبرشلونة المشمسة ، كانت الاساطيل الصغيرة من سفن التجار تتجهز في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وتنطلق بانتظام الى الشرق . كانوا يشحنونها بشتى البضائع ، ولاسيما الطحين (لأن الحبوب من الانتاج المحلي لم تكن تكفي في دول الصليبيين) ؛ كذلك كانوا يشحنون خشب البناء والمعادن (النحاس والقصدير من انجلترا) ، والجلود والجوخ (من مدن فرنسا الجنوبية) والخيول ، واخيرا ، البضاعة الحية اى العبيد ؛ وكان تجار البندقية في المقام الاول موردي هذه البضاعة .

وفي عكا ويافا وصور وصيدا وبيروت كان التجار الغربيون يبيعون ما جلبوه ويملأون سفنهم الشراعية المجدافية ببضائع جديدة كانوا يمضون احيانا ، سعيا وراءها ، الى اعماق المناطق الاسلامية ، الى الاسواق المحلية . وكانوا ينقلون الى اوروبا البضائع المشتراة في مدن المشرق البحرية او في مراكز ابعد للتجارة الاسلامية ؛ كانوا ينقلون الاقمشة الحريرية والقطنية من صنع الحرفيين السوريين المهرة ، والسلال بالفواكه ، وجوز الطيب ، واكياس سكر قصب السكر ، وقرب وبراميل الخمور . كذلك كان الغرب يتلقى من المشرق الحرير الخام ، وبالات القطن من آسيا الداخلية ، والمسك من التيبت ، والزجاج المصري ، والمصنوعات الزجاجية والاصباغ والتوابل من الهند (الفلفل ، البهار ، القرفة) ، والصمغ الشجري ، والبخور والعنبر من الجزيرة العربية ، واللؤلؤ والحجارة الكريمة ، والعاج من بلدان افريقيا . وكل هذا وكثير غيره كان يتم تصريفه في الاسواق الاوروبية الغربية بكسب كبير .

كانت التجارة تدر ارباحا كبيرة جدا وكان يتعاطاها في المقام الاول التجار من ايطاليا الشمالية . وعلاوة على الامتيازات الاقليمية والحقوقية ، كانوا يملكون شتى الامتيازات ذات الطابع التجاري والمالي والضرائبي ، وقد بقيت الى ايامنا كثرة من المواثيق (الشهادات ، الوثائق) التي منح بموجبها الملوك والامراء والاسياد الكبار والمتوسطون ، الحاكمون في هذه او تلك من مدن القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط ، التجار الغرباء هذه الامتيازات ، رغبة في تطوير نشاطهم العملي في ممتلكاتهم ؛ وقد كانت للحكام الاقطاعيين في تعزيز النشاط التجاري مصلحة حيوية ، اذ ان العمليات

التجارية كانت تعود بدخل ما على خزائنهم . مثلا . بقيت مواثيق تخفض رسوم التصدير والاستيراد فى المراسى وفى الاسواق داخل المدن : فى صالح تجار بيزا فى يافا ؛ فى صالح تجار البندقية وامالفى وبيزا فى انطاكية ؛ والخ .

وعادة لم تكن الامتيازات التجارية الممنوحة للتجار تعنى الاعفاء التام من دفع اية ضرائب على العموم ، رغم ان حالات من هذا النوع قد حدثت . ولكن الامتيازات التجارية كانت تنحصر فى الاعفاء الجزئى من الرسوم التجارية . فان جان ديبيلين ، سيد بيروت ، مثلا ، اعفى فى احدى وثائق المنح تجار جنوه من رسم المرفأ ، ولكنه الزمهم بدفع الرسوم عند بيع وشراء الخمور والحبوب والآنية . واحيانا كانت تجبى رسوم خاصة على تجارة الخيل والعبيد . واحيانا كانوا يعفون التجار من دفع الرسوم عند بيع البضاعة ، ولكنهم كانوا يجبون الرسوم عند شرائها او العكس بالعكس .

كان حق التجار في ان يستعملوا فى الشرق المقاييس ووحدات الوزن المستعملة فى مدنهم امتيازا تجاريا مهما ؛ وامتيازا كهذا نال تجار البندقية فى عكا سنة ١١٢٣ . وهذه الامتيازات ، مثل جميع الامتيازات الاخرى ، كانت تمنح بصور مختلفة ، وكانت تلازمها تدرجات متنوعة . مثلا . كان بوسع تجار بيزا ان يستعملوا المقاييس والموازين المستعملة فى مدينتهم ، ايا كان الذين يتاجرون معهم ، بينما لم يكن يحق للتجار من بروفانس ان يستعملوا مقاييس وموازين موطنهم الا حين كانوا يعقدون صفقات مع ابناء موطنهم ، والخ . . وفى المدن البحرية كان يعمل موظفون مختصون ومؤسسات خاصة لتحصيل الرسوم التجارية فى المرافئ وفى الاسواق . ولم يكن من النادر ان تسد سلسلة (يرفعونها وينزلونها عند الاقتضاء) مدخل المرفأ . ولهذا السبب كانت هذه المؤسسات (وكانت تقوم كذلك بفض الدعاوى بصدد تحصيل رسوم المرفأ ، وبحل النزاعات بسبب الارصفة ، وغير ذلك من القضايا البحرية) تسمى «مجالس السلسلة» . وفى عهد الملك آمورى الاول ، انشئت مؤسسة خاصة ، هى غرفة السوق ، التى احيلت اليها مع من الزمن الوظائف القضائية حيال سكان المدينة من دين آخر . ونادرا ما كانت تحال الرقابة على تحصيل الرسوم التجارية فى المرفأ او فى السوق الى ادارة (قنصل) الحى المتمتع بالحصانة ؛ وبمثل هذا الحق كان يتمتع تجار بيزا فى عكا .

ومهما يكن من امر ، لم تسفر التجارة المنتعشة الجارية فى مدن الشرق اللاتينى البحرية عن المقدمات الاقتصادية اللازمة لاجل توطيدها سياسيا ؛

فان هذه التجارة كانت موجهة الى الخارج ، صوب الاسواق الخارجية ، وكانت عمليا تجارة الوساطة ، علما بان التجار من ايطاليا ومن فرنسا الجنوبية كانوا ينافسون بعضهم بعضا مباشرة . واحيانا كانوا يشنون بعضهم على بعض حروبا ضارية ويجتذبون اليها الاسياد الاقطاعيين . وفى زمن حرب من هذه الحروب ، شنها تجار جنوه فى اواسط القرن الثالث عشر ، تدمر نصف مدينة عكا ، وهلك فيها زهاء ٢٠ الف نسمة . وفى مثل هذه الاحوال لم يكن من الممكن ان تتطور المركزية السياسية بصورة ثابتة ومستقرة الى هذا الحد او ذاك ؛ اذ لم يكن لها اساس اقتصادى .

الكنائس والاديرة

كانت الكنيسة تشغل مكانا خاصا فى دول الصليبيين . ففى مملكة القدس انشئت خمس ابرشيات وتسع اسقفيات ، كما انشئت اديرة عديدة . ونالت الكنيسة ، مكافاة على اشتراكها فى الحملة الصليبية ، نصيبا لا يستهان به من الاراضى ؛ فقد انتقلت الى الاحبار الكاثوليك الاملاك التى كانت تخص من قبل رجال الدين المسلمين ، وكذلك جزئيا الاملاك التى كانت تخص الكنائس المسيحية ، بما فيها كنيسة الروم الارثوذكس . وكان بعض من الاملاك الكنسية لا يقل من حيث المقاييس عن املاك الامراء الزمنيين . فان ابرشية الناصرة ، مثلا ، كانت تملك فى القرن الثالث عشر زهاء عشرين ضيعة وعقارا . وكان بطاركة اورشليم (القدس) واكليروس كنيسة القبر المقدس يملكون عقارات شاسعة .

واصبح كبار رجال الدين الكاثوليك قسما نافذا من الاقطاعيين فى الشرق . وكان الاساقفة يتصرفون فى املاكهم مثل الاسياد المطلقى السلطة ، مثل الدوقات والبارونات . بل ان الفرسان كانوا اتباع بعض الاساقفة (مثلا . كان لدى اسقف اللد عشرة فرسان من الاتباع) . وكان الاسياد الدنيويون الذين لهم مصلحة فى مساندة الكنيسة ، يهبونها الاراضى والاموال المنقولة . ناهيك بان رجال الكنيسة انفسهم كانوا يغتنمون كل فرصة سانحة لكى يضعوا ايديهم على اكبر عدد ممكن من الاقطاعات ، وبخاصة اقطاعات الفرسان الذين كانوا لا يعارضون فى الحصول على النقد الرنان عوضا عن العقارات . وقد اضطر ملوك القدس حتى الى اتخاذ الاجراءات لتبريد مشاعر الجشع والطمع الحارة عند خدم الرب ؛ فقد منعوا مؤسسات الكنيسة من امتلاك

القدس تحت حكم الصليبيين

الاقطاعات ، ومنعوا الفرسان من الوهب ، لان عمليات البيع والشراء كانت تتم احيانا بهذا النحو .

وكانت ايرادات مؤسسات الكنيسة من ضريبة العشر كبيرة جدا . هذه الضريبة كانت مجهولة فى بلدان القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، وقد ادخلوها فى مصلحة الكنيسة حصرا . واحيانا كان الملوك والبارونات يغتصبون حق الكنيسة فى ضريبة العشر فكانت تنشب بالتالى نزاعات عاصفة بين مالكى الاراضى المدنيين والكنسيين . كذلك كان الملوك والامراء يجهدون

لبتر الابواب الاخرى من مداخيل كبار رجال الدين : ففى سنة ١١٠١ ، مثلا ، طلب بودوان الاول من البطريـــرك بان يتنازل للخزينة عن نصيب مـــن الايرادات التى كانت تتوارد على البطريركية مـــن الحجاج . وغالبا ما كان طواغيت الكنيسة انفسهم يتخاصمـــون فيما بينهم بسبب اى ضرب مـــن المداخيل . وقد بقى عدد لا يستهان به من المعلومات ، سواء فى الوثائق ام فى قصص مدونى الاخبار ، عن ضخامة اموال المؤسسات الكنسية . كتـب المؤرخ العربى ابن الاثير ان الله وحده كان قادرا على تقييم كنوز بطريرك القدس . كذلك كانت الاديرة تملك قيما كبيرة ، ومنها دير صهيون ، ودير يوشافاط .

حاولت البابوية ان تفرض رقابتها على الممتلكات الجديدة للكنيســة الكاثوليكية . وكان ممثلو الكرسى الرســولى يتوافدون سنويا تقريبا الى الارض المقدسة . وكان الباباوات يتدخلون بواسطة رسلهم فـــى انتخابات البطاركة ، رغم ان هذا الحق كان يعود شكلا وصراحة بكليته الى رجال الدين والبارونات فى مملكة القدس . واحيانا كانت الظروف تتطور بحيث ان بضعة اشخاص كانوا يترشحون فى الوقت نفسه الى كرسى البطريركية . وفى هذه الاحوال كان ممثلو الكرسى الرسولى يحاولون تمريـــر وانجاح المرشح الذى يناسب روما . ان بطريـــرك القدس الاول ، دايمبرت من بيزا (١٠٩٩ — ١١٠٢) الذى اختلف مع بودوان الاول ، قد اقيل واعيد الى منصبه اربـع مرات . وهذا يعنى ان الباباوات ، فـــى سعيهم الى توطيد مواقع الكنيسة الرومانية فى ممتلكاتها الجديدة كانوا يحرصون بلا كلل على مراعاة مصالــح نواب القديس بطرس فى الارض .

اسباب ضعف مملكة القدس اللاتينية

لم تكن سيادة الفاتحين الغربيين فى الشرق مكينة . فقد كانت دولهـــم عبارة عن امارات صغيرة ، ضعيفة الترابط فيما بينها . وكانت تمتد شريطا ضيقا بمحاذاة ساحل القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط وكانت موزعة فى رقعة كبيرة من الارض ، فقد كانت انطاكية تبعد اكثر من ٣٠٠ كم عـــن القدس ، والرها زهاء ٢٠٠ كم عن انطاكية . وكانـــت الخدود الشرقية لهذه الدول (وهذه الخدود كانت تتغير على الدوام) تمتد عموما اكثر من الـــف كيلومتر . ثم ان الصليبيين انفسهم كانوا يعيشون بصورة رئيسية فى المدن وفى القصور المحصنة ، اذ لم يكونوا يشعرون بانهم فى امان . وحتى قرب

القرى الصغيرة مثل البيرة فى ضواحى القدس او دبورية عند قدم جبل الطور (ثابور) اقتضى الحال بناء ابراج وغير ذلك من التحصينات . وكانت عرى التبعية الواهية الاساس الوحيد الذى يجمع الاقطاعيين المحليين بالسلطة المركزية . وفى عهد الملك آمورى الاول ، توقف نمو عدد الاقطاعات — العقارات ، بسبب قلة الارض . ومن هنا محدودية الموارد لاجل ازدياد صفوف الفرسان وضعف فرق الفرسان بالذات فى دول الصليبيين .

كانت مصر تهدد مملكة القدس من الجنوب . وكان يتعين صد هجوم المصريين كل سنة تقريبا سواء من البر ام من البحر . ولم تكن ثمة مدينة ساحلية لم تهاجمها السفن المصرية ، واحيانا بنجاح . وغير مرة حاول الصليبيون ان يستولوا على مصر . ففى سنة ١١٠٤ تنازل الملك بودوان الاول لحكام جنوه عن ثلث «بابل» (القاهرة) وذلك لان ملك القدس كان واثقا كل الثقة فى انتصاره على مصر ، الا ان هذا الانتصار لم يتحقق يوما .

ولم يتحقق بعض النجاح فى هذا الاتجاه الا فى اواسط القرن الثانى عشر ؛ ففى سنة ١١٥٣ ، احتل الصليبيون عسقلان . وفى الستينيات قام الملك آمورى الاول بعدد من المحاولات لفتح وادى النيل ولكنه لم يستطع ان يحرز اية نجاحات طويلة الامد نوعا ما حتى ضد مصر المستضعفة فى ذلك الزمن . احيانا فقط ، كان الصليبيون يتوفقون فى تحصيل غنيمة غنية ، وابتزاز جزية من الحكام المصريين ، ونيل امتيازات تجارية . وفى سنة ١١٦٧ احتلت قوات آمورى الاول الاسكندرية بالذات ، ورفعت الراية الملكية على منارة فاروس ، ولكن سرعان ما اضطرت الى مغادرة الاسكندرية .

من جهة الصحراء السورية ، كانت فصائل الاتابكة والامراء السلجوقيين تشن الغارات على دول الصليبيين . صحيح انه بنيت على الحدود قلاع جبارة مثل «صخرة الصحراء» ولكنها لم تكن قادرة على حماية امارات الافرنج كليا ، وبخاصة منها الامارات الشمالية ، من هذه الغارات الحازمة ، والمفاجئة احيانا . ومرارا عديدة بذل الصليبيون الجهود لامتلاك المدينتين السوريتين الكبيرتين دمشق وحلب ، ولكن جميع جهودهم باءت بالفشل .

كان الغزاة الغربيون يعادون بعضهم بعضا ابدا ودائما . وكان تقسيم الغنيمة وتوزيع الاقطاعات والوظائف يوفران الذرائع لمخاصمات لا نهاية لها بين الصليبيين من جميع الاجيال . ففى عهد تأسيس السيادة اللاتينية فى الشرق ، كانت وحدة الاهداف الدينية ، وان تكن وحدة سطحية ، تربط البارونات فيما بينهم نوعا ما ؛ اما فيما بعد ، فقد اخلت هذه الوحدة المكان لتناقضات بين مصالح الغزاة الفعلية اخذت تتفاقم يوما بعد يوم . فان

الاعتبارات المتعلقة بالمنافع السياسية او العسكرية او الاقتصادية كانت دائما تتغلب على الدوافع الدينية . ولذا كان الامراء الافرنج والامراء المسلمون - كما يقول المؤرخ الاميركي فينك - ينسون بسرعة عدواتهم المتبادلة ويصبحون حلفاء اذا اقتضت ذلك المصالح الديبلوماسية والعسكرية . صحيح ان علاقات الصداقة بين الافرنج والمسلمين لم تكن تدوم هى ايضا زمنا طويلا . ان الهدوء الذى كان يجرى فى اثنائه تبادل الاسرى وتقام فيه العلاقات الديبلوماسية ، ويتبادل فيه البارونات والامراء الزيارات ويتبارون فيه بالاعراب عن الاداب والمجاملات الفروسية ، كان فى المعتاد ينقطع بسرعة ، وكانت الحرب تفصل من جديد بين الذين كانوا منذ امد قريب حلفاء او اصدقاء . ويروى اسامة بن منقذ ان اميرا وصل الى الحج واقام فى بلاط الملك فولك ، «فانس بى وصار ملازمى يدعونى «اخى» وبيننا المودة والمعاشرة» * . ولكن حين اقترح الاجنبى على الكاتب ان يرسل ابنه المحبوب مرهف الى اوروبا - «ليبصر الفرسان ويتعلّم العقل والفروسية» - رفض اسامة قطعا . وكتب : «فطرق سمعى كلام ما يخرج من أنس عاقل . فان ابنى لو أسر ما بلغ به الاسر اكثر من رواحه الى بلاد الافرنج» ** .

كانت العلاقات بين القادمين الغرباء والاعيان المحليين مفعمة اجمالا بالحذر وعدم الثقة . وصار الاقطاعيون الشرقيون الذين كان اخلاف الصليبيين الاوائل يتقربون منهم احيانا يحتقرون دائما من صميم الروح الافرنج المتغطرسين والمتصلفين . وكان الافرنج يبدون فى عيونهم برابرة وهمجيين . وكان اسامة بن منقذ ، وهو من اعلم أهل زمانه ، ومحب كبير للكتب (كانت مكتبته تحتوى ٤ آلاف مجلد ، وعندما ضاعت جميع امواله بسبب الافرنج ، تحسر ، اكثر ما تحسّر ، على ضياع المكتبة ، وكتب ان هذا بالذات سيبقى جرحا فى قلبه طوال حياته كلها) ، يرى فى الافرنج «بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما فى البهائم فضيلة القوة والحمل» *** .

كانت الطبقة السائدة فى دول الصليبيين صغيرة جدا من حيث التعداد . فتحت قيادة ملوك القدس ، كما يتبيّن من الوثائق ، لم يتجمع يوما اكثر من

---

* اسامة بن منقذ . «كتاب الاعتبار» ، ص ١٣٢ .

** المصدر نفسه .

*** المصدر نفسه .

٦٠٠-٧٠٠ فارس (من اتباع واتباع اتباع) ، اما فى المعتاد ، فكان يتقدم للخدمة عندهم عدد من المحاربين اقل بكثير . ان عدد افراد قوات بودوان الاول لم يكن يزيد على ٢٠٠-٢٥٠ فردا ، وكانت حامية مدينة متوسطة تضم ٣٠-٨٠ فارسا . وحتى فى حال «التعبئة العامة» للاتين القادرين على حمل السلاح ، لم يكن بوسع المملكة ان تجند اكثر من الفى فارس ثقيل السلاح و٢٠ الفا من الرماة الخفيفى السلاح . وكانت الاوساط العليا المميزة فى الشرق اللاتينى تعيش بين السكان المحليين المعادين ، فضلا عن انهم اكثر تعدادا بكثير من الافرنج ، وكانت اشبه بمعسكر يطوقه ، ويحاصره العدو على الدوام . ونحـــو اواخر الثمانينيات من القرن الثانى عشر ، كان عدد المستعمرين الافرنج المقيمين فى المدن والقلاع ، كما حسب المؤرخون ، لا يربو على ١٠٠-١٢٠ الفا . وكانت قوى الاتباع وحدهم لا تكفى فى آن واحد لابقاء هؤلاء السكان فى حالة الخضوع ولصد هجمات الجيران المسلمين .

الحجاج الجدد وخدمتهم

حاول الملوك والامراء ان يسدوا النقص فى مواردهم القتالية بان يضموا الى الفرسان الاتباع المرتزقة من عداد اولئك الحجاج الذين اخذوا يتكاثرون فى الارض المقدسة بعد الحملة الصليبية الاولى دون ان يكون لاغلبيتهم نية فى البقاء هناك الى الابد . كان الملك يدفع للفارس الحاج مبلغا كبيرا (حسب معطيات اقرب عهدا الينا ، ٤٠٠-٥٠٠ بيزانط فى السنة اى اكثر مما تعود به اقطاعة متوسطة من قريتين على صاحبها) . ولكن الفرسان الحجاج لم يزيدوا كثيرا من القدرة الدفاعية لدول الافرنج . فان هؤلاء الفرسان كانوا يبقون فى فلسطين حقبة قصيرة .

كان عدم استقرار السكان الكاثوليك سمـــة مميزة من سمات الحياة الاجتماعية فى دول الصليبيين . وفى العقود الاولى من القرن الثانى عشر ، ظل الفقراء والفرسان ينطلقون من الغرب الى الشرق بحثـــا عن الاراضى والغنائم . وان المصير الفاجع الذى لقيه الفلاحون الصليبيون تحت قيادة بطرس الناسك وجموع الفلاحين والفرسان سنـــة ١١٠١ لم يثبط عزم المغامرين الاقطاعيين ناهيك بان وضع الزراع الشاق فى اوروبا كان يدفعهم كما من قبل الى درب الرب . وكل سنة ، قبل الفصح وفى اواخر الصيف ، كانت سفن تجار البندقية وبيزا وامالفى ومرسيليا تنقل الى المدن البحرية فى دول الافرنج دفعات من الحجاج من فرنسا الجنوبية وايطاليا والمانيـــا

والفلاندر . وعلى اكتاف الحجاج كان يظهر صليب مخيط ، ولكن الحجاج كانوا يمضون باغلبيتهم الساحقة الى فلسطين ، لا للصلاة فى كنيسة القبر المقدس وحسب ، ولا للاستحمام فى مياه نهر الاردن وحمل غصن من النخيل من على ضفتيه الى الوطن وحسب . فقد كان بعضهم ، اكثرهم دهاء يأخذون فى الطريق بضائع مختلفة لكى يصرفوها فى الاماكن المقدسة ويعوضوا بالتالى نفقات السفر (ومن الشرق كانوا ينقلون كذلك البضائع التى اشتروها لكى يبيعوها بربح فى الوطن) . وكان آخرون يركبون فارغى الايدى تقريبا فى سفن الايطاليين والبروفانسيين الرحبة ولكنهم كانوا يعللون انفسهم سرا بأمل الاثراء فى البلدان الشرقية بكل وسيلة واسلوب .

وبين الحجاج كان ثمة عدد لا يستهان به ممن ضلوا السبيل فى الحياة . فان الكنيسة الكاثوليكية ، ابداء «للرحمة» المسيحية ، كانت تستعيض احيانا عن اعدام الذين اقترفوا الجرائم الجنائية بالحج الى القدس : فلينهبوا ويقتلوا هناك ، فى ارض الميعاد ، فى صالح الكثلكة ، ذلك كان مكنون هذه «الرحمة» الحقيقى . واذا «الذى فعل شرا ما» — كما كتب المؤرخ الالمانى بورخاردت الذى زار الاماكن المقدسة فى سنة ١٢٨٢ — «القاتل ، الناهب ، اللص ، الحانث بيمينه — يمضى الى ما وراء البحار ، الى الشرق ، بحجة غسل الجريمة ، ولكن فى الواقع كان البقاء فى الوطن يعرضه لخطر الانتقام . كانوا يندفعون الى هناك من جميع الانحاء ، ولكنهم كانوا لا يغيرون سوى السماء التى يعيشون تحتها ، وليس الاخلاق والعادات . وبعد انفاق اموالهم ، يشرعون فى اقتراف افعال اكثر شرا مما كانوا يفعلونه من قبل» . وبالروح نفسها تقريبا يصف جاك دى فيترى هؤلاء الحجاج ، فهو يذكر ايضا بينهم اللصوص والقتلة والقراصنة والسكارى والمقامرين ، والرهبان والراهبات الفارين ، والضالات ، والخ . ومن هؤلاء «القديسين» كانت تتشكل بقدر كبير الامدادات التى كانت ترسلها الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الى دول الصليبيين .

ان الحجاج القادمين حديثا كانوا يعودون بعد فترة قصيرة الى اوروبا . وكان الفرسان الذين استقروا من قبل فى الشرق ينظرون بنفور سافر وعداء مكشوف الى الباحثين عن الابتزاز هؤلاء . كانت الاستفادة من مساعدتهم ضد السلجوقيين او ضد المصريين شيء ، اما السماح لهم بالاغتراف زمنا طويلا من مصدر الاثراء — نهب السكان — فشيء آخر . وكانوا بنظر قدماء المقيمين عناصر غير مرغوب فيها . وعن هذه الامزجة كتب بصورة معبرة مؤلف «مواصل حوليات سان بليز» المجهول : كان الافرنج يخافون من شجاعة اللاتين القادمين

من الغرب اشد مما يخافون من غدر الوثنيين ، ولذا كانوا يحاولون ان يكونوا البادئين فى اقامة اكثر ما يمكن من العوائق .

وغالبا ما كان يحدث ان تنتهي بلا جدوى الحروب ضد السلجوقيين التى كان يشنها الفرسان الصليبيون مع الحجاج القادمين حديثا الى نجدتهم وذلك لسبب واحد : بينمـــــا كان الحجاج يعاركون «الانجاس» ، كان حلفاؤهم يتسرعون ، دون انتظار لمآل المعركة ، وبعد نصف انتصار ، الى عقد الصلح مع العدو .

«فرسان المسيح الفقراء»

توطيدا لوضع دول الصليبيين من الداخل ومن الخارج ، تأسست فى اوائل القرن الثانى عشر فى فلسطين منظمتان عسكريتان رهبانيتـــان او جمعيتان Ordres : جمعية الاوسبيتاليـــــة Hospitaliers de Saint-Jean de Jérusalime (اوسبيتالية القديس يوحنـــا فى القدس) ، وجمعية الهيكليين Templiers . وفيما بعد ، فى مرحلة الحملة الصليبية الثالثـــة تأسست الجمعية التوتونية التى ضمت الفرسان الالمان . وفضلا عن ذلك ، نشأت على امتداد العقود الاخيرة من القرن الثانى عشر وفى القرن الثالث عشر اخويات دينية — هى اتحادات عسكرية لسكان المدن قريبة من حيث طابعها من الجمعيات (وفى بعض الحالات ، كانت حتى مرتبطـــة شكليا بها بعرى التبعية) . وانها لمعلومـــة ثمان من هذه الاخويات التى انبثقت ابتداء من اواسط السبعينيات من القرن الثانى عشر : اخويـــة القديسين اندراوس وبطرس التى تأسست فى عكا ؛ اخوية البيزيين ؛ الاخوية الايطالية للروح القدس ؛ الاخوية الاسبانية للقديس يعقوب ، الاخوية الانجليزية المسماة باسم الملك ادوار المعترف ، وغيرها . كانت الاخويات ، خلافا للجمعيات ، عبارة عن روابط موقتة تضم فى قوامها الحجاج من ابناء منطقة واحدة ، وبصورة رئيسية التجار والمعلمين الحرفيين ، الذين قدموا الى مملكة القدس لتصريف شؤونهم والذين اضطروا بحكم الظروف الى الاشتراك فى النضال ضد المسلمين (مثلا . كان معلمان حرفيان فى شؤون الذهب فى حقبة من الزمن عميدين اى رئيسين او قائدين لاخوية الروح القدس) . وهناك ميزة اخرى تختلف بها الاخويات عن الجمعيات هى ان بعضا منها (مثلا ، اخوية القديس جرجس فى اللد وبيت لحم) كان يضم ايضا المسيحيين الشرقيين — النسطوريين والملكيين الكاثوليك .

كانت الجمعيات من حيث سيماؤها الخارجية جمعيات دينية . فقد كان الفرسان الذين ينضمون اليها يعطون العهود الرهبانية التقليدية الثلاثة : العفة والفقر والطاعة ، اى انهم كانوا يتعهدون بعدم تأسيس عائلات ، وعدم السعى الى تكديس الثروات ، والخضوع بلا قيد ولا شرط لمن هم اكبر واقدم فى المرتبة في الجمعية . كذلك كان منظر فرسان الجمعية الخارجي يشبه منظر الرهبان ؛ فان الهيكليين كانوا يرتدون معطفـــا ابيض مثل الرهبان السيسترسيين (cisterciens نسبة الى سيتو Citeaux) عليه صليب احمر . وهذا الحق منحهم اياه البابا اوجين الثالث فى سنة ١١٤٧ اثناء الجلسة الاولى لكابيتول (الاجتماع العام) الجمعية الذى انعقد آنذاك فى باريس . كان لباس الاوسبيتاليين يتألف فى البدء من معطف اسود ، وفيما بعد ، من معطف احمر عليه صليب ابيض ، وكان الفرسان التوتونيون يرتدون معطفا ابيض عليه صليب اسود . ولكن جميع هذه اللواحق لم تكن اكثر من رمز ، فان عباءة «فرســـــان المسيح» الرهبانيــــــة كانت تستر درع الفارس ، وكان الرمح والسيف ، وليس كلمة الوعظ (رغم انه كان للجمعيات كهنتهـــــا ايضا) ، سلاح الفرسان الرهبان .

فى البدء ، كان يوجد ، والحق يقال ، بعض الفرق بين الاوسبيتاليين وبقية الجمعيات . فقد انبثقت جمعية الاوسبيتالية بوصفها منظمة للاحسان . ونمت على اساس بيت لاستقبال الضيوف الغرباء (ضيافــــة Hospitalité — مضيف Hospitaliers) سبق ان بناه حوالى سنة ١٠٧٠ فى القدس تجار من مدينة امالفى الايطالية . وهذا البيت او hospitalier (من الكلمة اللاتينية hospitalis — «ضيف») اطلقوا عليه اسم بطريرك الاسكندرية من القرن السابع ، القديس يوحنا . وفى جوار المضافة (وكانت تقع بين السوق وكنيسة القبر المقدس) كان يعيش الرهبان الذين يخدمونه ، والذين انضموا فيما بعد الى جمعية بالاسم ذاته ، ومن هنا اسمها جمعية الاوسبيتاليين . وقد اخذوا على عاتقهم امر العناية بالحجاج الذين يتوافدون الى فلسطين ، فكانوا يؤمنون لهم المأكل والمسكن ، ويعالجون الذين يمرضون فى الطريق . وفيما بعد بنوا مضافات مماثلة فى انحاء اخرى من مملكة القدس وكذلك فى مدن من اوروبا الغربيـــــة صارت نقاط انطلاق للحج — فى مرسيليـــــا وبارى واوترانتو ومسّين ، وايضا فى بيزنطية (مضافـــــــة القديس سمعان فى القسطنطينية وغيرها) . ولكن واجبات الاحسان المترتبة على الاوسبيتاليين تراجعت الى المرتبة الثانية ، بعد مرور بضع سنوات على فتح فلسطين من قبل الصليبيين الذين اشتركوا فى الحملة الصليبية الاولى ؛ وفى عهد الاستاذ

الاكبر الثانى ريمون دى بوى (١١٢٠-١١٦٠) صارت جمعيتهم على الاغلب جمعية عسكرية ، فرسانية .

اما الهيكليون ، فلم يعرفوا هذا التطور . فان جمعيتهم قد اتسمت منذ بادئ بدء بطابع عسكرى صرف تقريبا ، وقد اسسها فريق من الفرسان الفرنسيين فى سنتى ١١١٨-١١١٩ . ويستفاد من انباء غليوم الصورى الذى كتب بعد مرور ٥٠ سنة ، ان تسعة فرسان فقط برئاسة سيد غير غنى من مقاطعة شامبانيا اسمه هوغ دى باينس قد وقفوا ، حسب زعمه ، عند مهد الجمعية . اما فى الواقع ، فقد كان عددهم اكبر . وعلى كل حال ، كان اعضاء الجمعية «اهل السيف والرمح» . اما اسمهم – الهيكليون – فقد تلقوه بكل بساطة ، لان الفرسان الذين اسسوا الجمعية اتخذوا مقرا رئيسيا لهم مبنى قريبا جدا من قصر ملك القدس من جهته الجنوبية الغربية . وهذا القصر كان ، والحق يقال ، المسجد الاقصى العربى السابق الذى حوله الملك بودوان الثانى الى بيت للسكن ببناء بضع غرف فيه . اما المبنى المجاور ، المتجه بواجهته صوب الجانب الجنوبى من «هيكل السيد» المهيب والجليل ، ذى القبة شبه الكروية ، فقد كان هو ايضا جامعا اسلاميا (جامع قبة الصخرة) حولــــه الصليبيون الى كنيسة سموها «هيكـــل السيد» «templum Domini») — وخصصها ملك القدس وبطريرك القدس للهيكليين . ان المسجد الاقصى عبارة عن مبنى فخم كبير يعتمد على ٢٨٠ عمودا ضخما . وكان المعاصرون يشبهونه بجامع قرطبة الشهير ؛ اما فى الواقع ، فانه يوازى مثليه من حيث مقاييسه . وعندما فتح الصليبيون القدس ، تعرض المسجد لتدميرات شديدة . وقد سبق ان قلنا انه لم يكن بنظر الفرسان سوى «هيكل سليمان» . فقد كان من المعتبر ان هيكل الملك سليمان ، الوارد ذكره فى التوراة ، كان يقع هنا منذ قديم الزمان .

ان الغزاة الغربيين الجهلاء والاميين كانوا فى هذه الحالة (كما فى كثير من الحالات الاخرى) على خلاف مع الجغرافية التاريخية الكنسية وكانوا يؤمنون فى الخرافات التى يبتدعها خيالهم الدينى بالذات . اما فى الواقع ، فان هيكل سليمان القديم الذى محاه من على وجه الارض الامبراطوران الرومانيان فسباسيان وتيتوس فى السبعينيات من القرن الاول ميلادى ، اثناء حرب اليهودية ، كان يقع ابعد قليلا الى الشمال . وفيما بعد ، بنيت هنا هياكل اخرى : ففي القرن الثانى بنى الامبراطور الرومانى هيكل جوبيتر الكابيتولى ؛ وفيما بعد ، فى القرن الرابع حول الامبراطور قسطنطين ، بعد اعتناقه المسيحية ، هذا الهيكل الوثنى الى كنيسة مسيحية . وبعد ان فتح العرب

فلسطين (سنة ٦٣٧) ، اعيد بناء الكنيسة ، وصارت جامع قبة الصخرة . ثم جاء الصليبيون وجعلوا من الجامع بدورهم «هيكل السيد»/. ان مدون الاخبار من القرن الثانى عشر غليوم الصورى الذى روى الكثير من الطرائف عن الحملة الصليبية ١٠٩٦-١٠٩٩ وعن الدول التى نشأت في الشرق نتيجة لهذه الحملة ، يزعم ان الرهبان الفرسان ، الهيكليين (من الكلمة الفرنسية «temple» ومعناها «الهيكل») قد اشتقوا اسمهم من «هيكل السيد» الذى كان يطل عليه مقرهم فى القصر الملكى . ولكن الهيكليين اخذوا يتسمون بهذا الاسم ، كما يستفاد من معطيات وثائقية أصح وأثبت ، حسب الاسم الذى ابتدعه الصليبيون انفسهم للمسجد الاقصى حين اعتبروا خطأ انه «هيكل سليمان» . ومن هنا ، من هذا «الهيكل» ، نبع اسم الجمعية ، جمعيـة «الهيكليين» او ، كما سموا انفسهم بانفسهم ايضا ، «فرسان المسيح وهيكل سليمان الفقراء» .

كان الدفاع عن دول الصليبيين وتوسيعها ، والنضال ضد الممتلكات الاسلامية المجاورة ، وكذلك ، عند الاقتضاء ، تهدئة غضب السكان المحليين الذين قهرهم الغرباء الغربيون ولكن الذين لم يستكينـوا ولم يستسلموا لهم ، من المهمات الرئيسيـة التى واجهت اقدم واهم جمعيتين للفرسان (وكذلك ، فيما بعد ، جمعية الفرسان التوتونيين) . وهذا ما قرر بنيان الجمعيات العسكرية الرهبانية التسلسلى المراتبى المركزى ، المثبت فى انظمتها الداخلية . فعلى رأس كل جمعية ، كان يقف الاستاذ الاكبـر (وفى جمعية الفرسان التوتونيين كان يسمى بالالمانية «غروس ميستر») . وكان يخضع للاستاذ الاكبر آمرو الاقسام المحلية للجمعية — البايايات والمحافظات (فروع اقليمية اكبر تضم بضعـة بايايات)/ اى الاساتذة (المعلمون) والبريسيبتورات (المؤدبـون Précepteurs والكومتورات (الكومندورات Commendeurs) وهؤلاء تبعتهم سُلّم طويلة من الموظفين بقدر ما كانـت تتنامى الجمعيات . فعند الهيكليين ، مثلا ، كان رئيس مطعـم الهيكل ، والمارشال — آمر الخيالة — وكثير من الرؤساء الآخرين ذوى الالقاب ، من كبار وصغار . ومنهم كان يتألف المجلس لدى الاستاذ الاكبـر ، الكابيتول (الاجتماع العام) . ومنذ اواسط القرن الثانى عشر اخذت تنتخب الماجيستر الاعظم هيئة خاصة من ١٣ ناخبا ، كما اخذ يشغل وظيفته للعمر كله . وكان للجمعيات الاخرى تنظيم مماثل .

وقد اشترك الكرسى الرسولى بصورة مباشرة وبدافـع المصلحة فى تأسيس الجمعيات العسكرية الرهبانيـة وفى مصائرها لاحقا . وكان على

الجمعيات ، برأى باباوات روما ، ان تكرس نفسها كليا لقضية «الدفاع عن المسيحية» . وكان اعضاء الجمعيات يربطون حياتهم كلها بالنذور الرهبانية لكي لا تصرفهم اية مصالح واهتمامات دنيوية عن اداء هذه الرسالة . وكانت انظمة الجمعيات ، المكملة والمعدلة مرارا ، تضفي على النذر اهمية خاصة . فان المادة ١١ من اقدم نظام داخلي للهيكليين - وقد وضع في سنـــة ١١٢٨ في مجمع تروا باشراف الظلامي الكنسي الشهير برنار رئيس كليرفو - مثلا ، قد نصت على ان يأكل كل اثنين من الاخوة الفرسان من صحن واحد . ولكن بموجب المادة ٣٠ من الوثيقة ذاتها ، كان ينبغي ان يكون لكل فارس راهب ثلاثة احصنة . ولكي لا يدفع اى شيء الفرسان الرهبان في غمرة الاغراءات الدنيوية ولكي لا يصرفهم عن اداء الواجب الديني ، كانت ممنوعة عليهم كل تسلية دنيوية ، فلم يكن بوسعهم ان يمارسوا الصيد بالصقور ويلعبوا بالنرد ، ويشاهدوا المسرحيات والمشهديات ، وحتى ان يغنوا شيئا مضحكا ، او - والعياذ بالله ! - ان يضحكوا ضحكا مدويا . وفضلا عن ذلك ، كان الكلام الفارغ محرما عليهم . وعمومـــا ، كان كل نمط حياة الفارس الراهب منظما بدقة وصرامة ، وكان الذين يخالفون هذه المواد او تلك من النظام يتعرضون للغرامة (كان نظام الهيكليين يتضمن اكثر من ٤٠ مادة تعدد الغرامات عن كل من مختلف ضروب المخالفات) .

وقد منحت البابوية الهيكليين والاوسبيتاليين الكثير من الامتيازات ، سعيا منها لحمل الجمعيتين على خدمة اهدافها كليا (ونظام الاوسبيتاليين الداخلي صادق عليه البابا باسكال الثاني سنة ١١١٣) . وقد اعفيت الجمعيتان من الخضوع للادارة المحلية في مملكة القدس - الزمنية والكنسية . وكانت السلطة العليا على الجمعيتين تعود مباشرة الى الكرسي الرسولي في روما . وفي حزيران (يونيو) ١١٣٥ فرض البابا اينوشنتيوس الثاني في مجمـــع بيزا ضريبة سنوية دائمة (تتراوح بين مارك فضي واحد ومارك ذهبي واحد) في صالح الهيكليين كان ينبغي ان يدفعها جميع رؤساء الاساقفة ، والاساقفة ، ورؤساء الاديرة ، دون استثناء البابا ذاته . ولكن تبرعات روما المادية «لفرسان المسيح الفقراء» كانت شحيحة جدا ، الا ان الباباوات ابدوا قدرا اكبر بكثير من الكرم فيما يتعلق بمنح شتى الاستثناءات .

وفي سنة ١١٣٩ ، اصدر البابا نفسه ، اينوشنتيوس الثاني ، بوللا (bulle) (مرسوما) نص على ما يلي : لا يحق لاحد ان يطلب يمين التبعية من الاستاذ الاكبر للهيكليين ومن الرهبان الفرسان ، لا يحق لاحد ، عدا البابا ، ان يحاكم عضو الجمعية ، ويفرض المنع (Interdiction) على ملكه (اى منعه

من حرية التصرف باموالة) ، يعفى اعضاء الجمعيـــة من دفع العشر وسائر الضرائب الكنسية ، حياة الهيكليين واعمالهم لا شأن لاحد بها ، وليس لاحد ان يأمرهم ، بوسعهم ان يحتفظوا لانفسهم بالغنيمة الحربية ، وما الى ذلك .
وهذا البوللا اكده باباوات روما فيما بعد غير مرة . بل انهـــم وسعوا امتيازات الهيكليين الاولية . فان البابا سيليستن الثانى ، مثلا ، قد قرر فى سنة ١١٤٤ انه يحق للهيكليين ، فيما اذا فرض المنع على محلة ما ، ان يقيموا القداس مرة واحدة فى السنة فى هذه المحلة اذا كانت لهم بيوت فيها ، الامر الذى حد بالتالى بقدر معين من فعـــل المنع بالنسبة لفرسان الجمعيات (وهذا ما كان يمس بالطبع مصالح كهنة الرعيات ، اذ حرموا من مصادر الدخل) . وثلاث او اربع مرات ، جدد البابا اسكندر الثالث الامتيازات التى وهبها البابا اينوشنتيوس الثانى ومنح عددا من الامتيازات الجديدة ، ومنها انه سمح للهيكليين بامتلاك العقارات والضيـــع واستثمارها بكدح الاقنان .

ومثل هذه الامتيازات اخذ الاوسبيتاليون ينالونها من الباباوات ابتداء من سنة ١١٥٤ . وكان الباباوات يوجهون الى الاسيـــاد الاقطاعيين شهادات ورسائل يطالبونهم فيها بمراعاة الحقوق والامتيازات التى منحوها للجمعيات مراعاة تامة . وكانت البابوية تحرص فى المقام الاول على مصالحهـــا السياسية ، فقد كانت الكورية البابوية تحسب ان تستغل الرهبان الفرسان ولاسيما الهيكليون منهم ، كقوة قتالية فى خدمة الكرسى الرسولى فى الشرق .

ورغبة فى رفع مكانة الجمعيات ، لم يكن الباباوات ليبخلون بتوجيـــه المدائح العلنية اليهم . واستجابة لامنية مؤسس جمعية الهيكليين وضـــع برنار ، رئيس دير كليرفو ، المديح الطويل «لمجد العساكر الجديدة» . وفى هذا المديح رحب بحرارة بظهور المقاتلين – الاكليريكيين ، «الرهبـــان بالروح ، المقاتلين بالسلاح» . وفى هذا المديح عارض برنـــار الفارس الدنيوى المنعم ، المغرور ، الفاخر الاثواب ، ذا الشعر الكثيف المنفوش ، بالراهب الهيكلى الذى لا يعتنى البتة بمظهره الخارجى والذى حتى لا يغتسل ، والغريب عن كل جسدى ولكنه بالمقابل يعيش عيشة قتالية نشيطة لاجل هدف رفيع هو خدمة الرب .

وقد اطرى صاحب المديح ، اشد ما اطرى ، تلاحم وانضباط العساكر الجديدة التى «لا يتبع البتة كل فرد منها ارادته بالذات ، بل يحرص اكثر ما يحرص على الخضوع لمن يامره» .

ان كل هذه المدائح ، كما بيّن التاريخ ، لم يكن لها اى اساس . فان

المعاصرين يشهدون على ان نشاط رهبان الجمعيات كان يتخلف كثيرا عن مثل الرهبان العليا وعن الاهداف التى كان يبتغيها حماة المقاتلين الرهبان . وكان الملوك والامراء الكاثوليكيون يسعون فى كل مكان الى توطيد يسر الجمعيات المادى بأمل ان يساعد الرهبـــان الفرسان الاقطاعيين الافرنج فى الحفاظ على القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط تحت سيطرتهم . الا ان هذه الآمال كانت مبنية على الرمال . فان جمعية الهيكليين قد منيت فى العقود الاولى من وجودها بجملة من الهزائم الخطيرة فى قتال المسلمين (فى سنة ١١٢٩ ، فى سنة ١١٥٣ – فى جوار عسقلان حيث سقط فى المعركـــة جميع الهيكليين الاربعين الذين اشتركوا فيها ، والخ . .) . ومع ذلك ، كانت الهبات والمنح تتدفق كانما من قرن الوفرة . ومن جميع الانحاء كانت تتوارد على الهيكليين التبرعات السخية ، والهدايا ، وهبات الاراضى . وكانوا يتلقون من الاعيان المدنيين والكنسيين ، على سبيل الهبة ، عقارات وضيعا غنية ، سواء فى الشرق ام فى الغرب . وعندما كان استاذ الهيكليين الاكبر روبر البورغونى فى فرنسا فى سنتى ١١٣٨–١١٣٩ اهدى الملك لويس السابع الجمعية طاحونين وبيوتا فى مدينة لا روشل ، واعفى الهيكليين من الضرائب ، وسمح بنقل البضائع بلا رسوم تلبية لحاجات الجمعية . كذلك وهب صاحب اراغون ، الكونت ريمون بيرنجير (Berenger) الرابع الهيكليين سبعة قصور ومنحهم عشر الايرادات الملكية ، والخ .

وكان الحجاج النبلاء الراغبون فى السفر من البلدان الغربية الى فلسطين ، يكلفون الجمعيات بان تشترى من اجلهم فى سوريا ولبنان وفلسطين عقارات وقصورا وبيوتا فى المدن تمكنهم من ان يحلوا فيها اثناء وجودهم فى الارض المقدسة ، وكل هذا كان يعود بعد رحيلهم الى ملكية الجمعيات . واحيانـــا كانوا يقدمون لها كذلك مبالغ نقدية ضخمة . فان الملك الانجليزى هنرى الثانى بلانتاجينه (Plantagenêt) مثلا ، تكفيرا منـــه عن اغتياله رئيس الاساقفة توماس بيكت ، قد اوصى للهيكليين بـ٤٢ الف مارك فضى و٥٠٠ مارك ذهبى . وحفظ ملك فرنسا فيليب الثانى خزانة الدولة عند هيكليـــى باريس . وفى سنة ١٢١٧ وهب الملك المجرى اندراش الثانى الهيكليين قيما كبيرة . خلاصة القول انه لم يكن للرهبان الفرسان مبرر للتذمر من فقرهم .

ومع ذلك لم يكونوا يكتفون بالعطايا ، فان الاوسبيتاليين والهيكليين على السواء قد ركزوا كل همتهم تقريبا ، بعد تاسيس جمعيتيهما بفترة وجيزة ، على الطمع الخالى من كل حياء . جميع الوسائل ، على اختلافها ، كانـت جيدة.

بنظرهم – الحرب والنهب والسلب ، التجارة وصفقات المضاربة . كانوا لا يأنفون من شيء . ويروى غليـــوم الصورى كيف كان الهيكليون يهاجمون القوافل العربية الآمنة ويسلبون التجار ، وكيف أسرت زمرة من الهيكليين فى سنة ١١٥٤ ناصر الدين نصر ، ابن الوزير الاكبر عباس ، الذى فرّ من مصر ، ثم باعته من العرب بـ٦٠ الف قطعة نقدية ذهبية . وفى القرن الثانى عشر ، اتهموا الهيكليين فى الغرب على المكشوف بالجشع – فلقاء النقود كانوا على استعداد حتى لخيانة «قضية المسيح» . ويعتبر مدون الاخبار من فورتسبورغ ان المحاصرين قد رشوا الهيكليين اثناء حصار دمشق فى سنة ١١٤٨ من قبل فرسان الحملة الصليبية الثانية ، وان الهيكليين ساعدوا المحاصرين سرا ، الامر الذى كان من اسباب فشل الحصار .

وكان الهيكليون والاوسبيتاليون على السواء يسيئون بجميع الوسائل استعمال امتيازاتهم لاجل الاثراء والابتزاز . ان رجل الكنيسة تيودوريكوس الذى تجوب فى مملكة القدس قد كتب ، وليس بدون عجب ، فى مؤلفه «كتاب عن الاماكن المقدسة» (سنة ١١٧٢) ، عن ثروات الجمعيتين ، وعن المبانى السكنية والاقتصادية التى تخصهما ، وعن كنائسهمـــا فى القدس ، وعن حصونهما وقلاعهما : «ليس مكتوبـــا لاحد ان يعرف كم من الثروات عند الهيكليين» . ويعتقد تيودوريكوس ان الهيكليين والاوسبيتاليين على السواء قد اخضعوا لانفسهم تقريبا جميع المدن والقرى التى كانت تزخر بها اليهودية فيما مضى والتى دمرها الرومانيون ، ناهيك عن الممتلكات الكثيرة فى البلدان الاخرى .

ومع مر الزمن بنى «فرسان المسيح الفقراء» العشرات من سفن الشحن ومن سفن الركاب . ومقابل اجر كبير ، كان الهيكليون ينقلون الحجاج من اوروبا الى الشرق ذهابا وايابـــا . وامسى الهيكليون مضاربين نموذجيين بالنسبة لزمنهم . ويروى مؤرخ مجهول لسيرة حياة البابـا اينوشنتيوس الثالث كيف باعوا فى سنة ١٢٠٨ فى صقلية حبوبا كان ينبغى ايصالها الى الارض المقدسة ، فآنذاك كان سعر الحبوب فى صقلية ارفع مما فى فلسطين ، اما حاجات الافرنج فى فلسطين ، فقلما كانت تشغل بال الهيكليين .

وبعد ان كدس الرهبان الفرسان ثروات طائلة ، اخذوا يقومون كذلك بالعمليات الربوية والمصرفية . كانوا يقرضون اشرف الحجاج واعلاهم مقاما النقود . وعندما رفضوا فى جنوه وبيزا منح لويس السابع قرضا اثناء حملته الصليبية ، راجع لويس السابع استاذ الهيكليين الاكبر ابرار دى بارو ،

فارسل هذا من انطاكية الى الملك الفرنسي «النقود الضرورية لنا» — كما افاد الملك في رسالة ارسلها الى فرنسا — اى مبلغا ضخما جدا .

وفي الظروف الاستثنائية ، كان الاقطاعيون الدنيويـــون والكنسيون يعهدون الى الهيكليين بحفظ مجوهراتهم ونقودهم وقيمهم ، ولم يكن الهيكليون يستحون من الاستئثار بمبالغ ضخمة من الاموال المعهود بها اليهم . وفي سنة ١١٩٩ حرم اسقف صيدا الهيكليين من الكنيسة بدافع الغضب لانهم لـــم يعيدوا الى اسقف طبرية ١٣٠٠ بيزنط وغير ذلك من الاموال التي كان سلفه قد عهد بها اليهـــم لحفظها . وارسل الشكوى الى روما على مصرفيين غير شرفاء . ولكن البابا اينوشنتيوس الثالث اخذ جانب مقاتليه ، فقد كرر القرار الذي سبق ان اتخذه البابا اسكندر الثالث بمنع فرض العقوبات الكنسية على الهيكليين . ومما له دلالته ان البابا اينوشنتيوس الثالث ذاته عاتب الهيكليين على جشعهـم ، ذلك ان كهنتهم كانوا يقيمون قداديس على نفوس الموتى من الخطاة والاشرار الراسخين في النذالة في المدن الخاضعة للمنع مقابل دينارين او ثلاثة دنانير . وفي القرن الثاني عشر بدأ الهيكليون تقديم القروض المضمونة بالرهونات العقارية .

وقد تحولت بيوت الاخوة الفرسان في باريس ولندن وفي مدن فرنسا الجنوبية الى مراكز اصيلة للعمليات المالية ، وقد تعلم الهيكليون ادارتها من اهل المال في لومبارديا . بل ان احد اساتذة الجمعية الاكابر (وبالاجمال بلغ عددهم ٢٣ في تاريخ الجمعية) كان على صلة قربى بعائلة شهيرة من مصرفيي لومبارديا . وكان الباباوات انفسهم يستفيدون بكل طيبة خاطر من خدمات «الفرسان الفقراء» النقدية ، فقد كانوا يعهدون اليهم ، بوصفهـــم مصرفيين ، بحفظ ودفع النقود الرنانة التي يجمعها عملاء البابا لاجل حاجات الحملات الصليبية ، كما يزعمون ، وقرض النقود للاسياد الذين يتجهزون للسفر الى فلسطين ، وما الى ذلك . وترى الباحثة المعاصرة بولست تيلي من المانيا الغربية ان الهيكليين امسوا في دور المرابين منافسين خطرين على المصرفيين الايطاليين . ومن الطريف ان الهيكليين انفسهم اخترعوا وطبقوا نظاما معقدا لاعمال الكتابة المالية ، فقد نظموا سجلات المحاسبة ، ووضعوا وثائق حساب الداخل والخارج ، والخ . .

وقد توفقت جمعية الهيكليين على الاخص في مضمار «البزنس الصليبي» . ولكن الاوسبيتاليين ايضا احرزوا الكثير . فقد عكفوا خصوصا ببالغ الجهد على اكثار عقاراتهم وضيعهم . واخذت تتزايد ثروات الجمعيتين . وبعد مرور بضعة عقود على تأسيسهما ، كانتا تملكان آلاف القرى والمروج والكروم

واستثمارات الملح ، وقطع الاراضي في المدن ، بما فيها الاسواق ، وشتى المداخيل من الاموال المنقولة وغير المنقولة . ان قائمة وثائق الهيكليين الاسبان ، مثلا ، العائدة الى اواخر القرن الثاني عشر ، تشمل ٤٤٤ وثيقة بالهبات ، والمشتريات والوصايا ، والخ . .

وكان للجمعيتين مقاطعاتهما ، لا في مملكة القدس اللاتينية وحسب ، بل ايضا في فرنسا والمانيا واسبانيا والبرتغال وبلاد التشيك والمجر وانجلترا وصقلية وسلافونيا (دلماسية) . وابان الحملة الصليبية الثالثة باع (او رهن) الملك الانجليزي ريشار قلب الاسد ، لحاجته الى النقود ، من الهيكليين جزيرة قبرص التي انتزعها من بيزنطية ، وقد دفع له الهيكليون لقاءها في سنة ١١٩١ مبلغ ٤٠ الف بيزنط نقدا وتعهدوا بدفع ٦٠ الف بيزنط فيما بعد .

وكان فرسان الجمعيات مستثمرين في منتهى القساوة حيال الفلاحين الاقنان في ضيعهم . وغير مرة نشبت الانتفاضات هناك ضد «جنود السماء» التابعين للكرسي الرسولي . واقوى هذه الانتفاضات نشبت في ربيع سنة ١١٩٢ ، وبالذات في قبرص . ان الهيكليين الذين لم يتسنّ لهم ان يستوعبوا الملكية التي اكتسبوها للتو والذين كانوا قليلي العدد ، لم يتمكنوا من التنكيل «بالمتمردين» واضطروا قسرا الى التنازل عن الجزيرة لملك القدس الاسمي غي دي لوزينيان (الاسمي ، لان الفرسان ، كما سنرى ، كانوا قد فقدوا آنذاك القدس) .

في القرن الثاني عشر شغلت الجمعيات مكان الصدارة في دول الصليبيين في الشرق . وقد احيلت اليهم حصون وقلاع كثيرة ، ولاسيما منها الحصون والقلاع الحدودية ؛ ففي سنة ١١٥٠ ، مثلا ، اعطى الهيكليون الى الابد ، بوصفهم «اكثر الناس جرأة وحنكة في الشؤون القتالية» ، قلعة غزه ، التي بنيت للدفاع ضد مصر ، وفي سنة ١١٥٢ ، بعد ان انزل نور الدين هزيمة بقوات كونت طرابلس ودمر قلعة طرطوس ، سلموا الهيكليين ايضا بقاياها . ووضعوا تحت تصرفهم قلعة طورون دي شيفاليه وقلعة جبيل وغيرهما . وكانت حاميات الرهبان الفرسان موزعة في مدن مملكة القدس جميعها تقريبا ، وكذلك في مدن امارة طرابلس وامارة انطاكية ، وفي كل مكان كانت لهم بيوت او ثكنات .

ومرارا عديدة لام المعاصرون الفرسان اعضاء الجمعيتين على التكبر ، وليس عبثا . فان هاتين الجمعيتين كانتا تشيران بكل الوسائل الى استقلالهما عن البارونات والاساقفة . ويؤكد المركيز كونراد دي مونفيرات

(Conrad de Montferrat) ، الذى دافع عن صور دون صلاح الدين ، ان الهيكليين اضروه بحسدهم اكثر مما اضره الوثنيون . واحيانا كان الهيكليون يسمحون لانفسهم بنزوات وقحة حيال كبـار رجال الكنيسة المحلية ايضا . واثناء المواعظ فى كنيسة قبر السيد المسيح ، كان الاوسبيتاليون ، مثلا ، يقرعون الاجراس فى كنائسهـم بكل قوة لكى يطمسوا الخدمات الدينيـة والصلوات التى يشرف عليها بطريرك القدس ، وذات مرة بلغ بالبطريرك الامر ان تشكى لبابا روما من تصرف الاوسبيتاليين البالغ التحدى والاستفزاز . واحيانا كان الرهبان الفرسان يدخلون فى نزاعـات سافرة مع السلطات الكنسية والمدنية . وفى سنة ١١٥٥ شن الاوسبيتاليون هجوما مسلحا حتى على كنيسة القبر المقدس . واحيانا كان فرسان الجمعيتين يتسببون باعمالهم اللصوصية بضرر مباشر لتاج القدس بالذات ، وكان الملوك يضطرون الى تهدئة جنود الكرسى الرسولى بالقوة .

ومع ذلك ، كان ينبغى حسبـان الحساب لجمعيتى الفرسان الرهبانية لان مجمل عدد الغزاة الصليبيين الذين استقروا فى الشرق لم يكن كبيرا . وقد لعب اعضاء الجمعيتين دورا خطيرا فى مشاريع الصليبيين الحربية ، سائرين عادة اما فى مقدمة وحدات الفرسان واما فى مؤخرتهـا ، مغطين انسحابها . وبعد فقدان القدس فى سنة ١١٨٧ بقيت الجمعيتـان من حيث الجوهر القوة الوحيدة القادرة على القتال فى دول الصليبيين . ومفهوم ان اية خطوة سياسية لم تكن تتخذ فى هذه الدول دون مشاركة الاساتذة الاكابر .

ولكن اهمية الجمعيتين فى حيـاة الشرق الافرنجى ضعفت كثيرا لان الجمعيتين كانتا ، على العموم ، تعيشان فى خلاف بينهما . فان جشع الهيكليين والاوسبيتاليين كان يخلق مخاصماتهم المتبادلة ، وكانوا على استعداد لابادة بعضهم بعضا بسبب امتلاك مطحنـة او سوق ما ، وفى سنة ١١٧٩ اجبر البابا اسكندر الثانى الجمعيتين على توقيع صلح رسمى كأنما كانتا دولتين متعاديتين .

نحو اواخر القرن الثانى عشر ، تحولت جمعيتـا الفرسان الرهبان الى قوة سياسية عسكريـة نافذة سواء فى الشرق ام فى الغرب . وفى ايدى الجمعيتين تركزت ثروات هائلة — من الاراضى والنقود . وكان الفرسان الصغار من البلدان الغربية ينضمون بطيبة خاطر الى هاتين الجمعيتين ، وقد اجتذبتهم امكانيات واحتمالات تلبية تطلعاتهم العدوانية بواسطتهما .

ولكن على الرغـم من ان الجمعيتين كانتا القوة الاوفر تنظيمـا عند الاقطاعيين الغربيين فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، الا ان

الوضع المستقل الذى يخل بالتسلسل المراتبى الكنسى المألوف ويحول الجمعيتين الى ضرب من دولة فى قلب الدولة ، وسوء استعمال الامتيازات ، والمغامرات اللصوصية ، والنزاعات المتواصلة سواء مع الادارة المحلية ام فيما بينهما ، وغطرسة الرهبان الفرسان - كل هذا اخذ يثير ضدهم تدريجيا الاقطاعيين الدنيويين والاقطاعيين الكنسيين ، كما اخذت ثروات الجمعيتين تثير الحسد . ويستفاد من قول مدون اخبار ان فرسان الجمعيتين كانوا لا يبحثون الا عن منفعتهم ، وانهم لم يكونوا يعيشون البتة «بشؤون المسيح» . ولهذا كانت الجمعيتان ، بالطبع ، عاجزتين عن توطيد فتوحات الافرنج فى الشرق بشكل راسخ ومتين نوعا ما اذ كانتا منهمكتين فى جمع المال .

٤

الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر



انتقام السلجوقيين . موعظة برنار من كليرفو

بينما كان صليبيو الاجيال الاولى يستقرون فى ممتلكاتهم فيما وراء البحار ويجهدون لتوطيد سيادتهم بالذات هنا ، بدأت الامارات الاسلامية تتراص وتتلاحم تدريجيا . ففى الشرق ، تأسست اتحادات دولية للسلجوقيين متفاوتة الكبر . واخذ الدخلاء الغربيون يواجهون من جانبها ردا مشتدا اكثر فاكثر . وسنة بعد سنة ، كانت تتفاقم العلاقات بين الصليبيين وبيزنطية . وفى بيزنطية كانوا يرمقون بعين الحذر الى مملكة القدس التى كانت اراضيها تخص الامبراطورية فيما مضى . وكانت الامارة النورمانية فى انطاكية تثير امتعاضا قويا جدا فى اوساطها الحاكمة . وكان اسطول الروم وقواتهم البرية تعتدى بين الفينة والفينة على حدود هذه الدولة التى اسسها بوهيموند اى امارة انطاكية . وقد توتر الوضع بالغ التوتر عندما استولى الامبراطور البيزنطى يوحنا الثانى كومنينوس (١١١٨-١١٤٣) على قيليقيا الارمنية واقترب مع قواته من انطاكية فى آب (اغسطس) ١١٣٧ واكره

اميرها ريمون دى بواتيه على ان يصبح من اتباع القسطنطينية . صحيح ان يوحنا نفسه تعهد بان ينتزع لاجل انطاكية بضع مدن من السلجوقيين (حلب ، شيزر ، حماه ، حمص) ، ولكنه لم يف بوعده . وفى ايلول (سبتمبر) قام حتى بمحاولة للاستيلاء على انطاكية ، الا ان اقتراب الشتاء اجبره على التراجع . وفى سنة ١١٤٣ ، قتل سهم سام يوحنا الثانى اثناء الصيد . ولكن الخطر البيزنطى على القدس ظل مخيما .

فى آب وايلول ١١٤٤ شن خلف يوحنا الثانى ، الامبراطور مانويل (عمانوئيل) كومنينوس (١١٤٣-١١٨٠) حملة على انطاكية على درجة من الشدة بحيث هزم الامير ريمون واجبره على المجىء الى القسطنطينية وتجديد يمين التبعية .

وفى هذه الاثناء ، سدد السلجوقيون الى الصليبيين اول ضربة جدية . وبداية انتقامهم ترقى ايضا الى سنة ١١٣٧ ، حين اقتحم قائد قوات دمشق كونتية طرابلس وسحق الفرسان هناك . ووقع بونتى كونت طرابلس اسيرا ، وقتل . وفى صيف ١١٣٧ دخلت قوات اتابك الموصل عماد الدين زنكى طرابلس . وهذه المرة اسر السلجوقيون الكونت ريمون الثانى مع عدد كبير من الفرسان . وفى السنوات التالية اخضع عماد الدين زنكى لسلطته عددا من الامارات السلجوقية فى بلاد ما بين النهرين (العراق حاليا) وسوريا الشمالية . ومن الطريف ان مملكة القدس قد ساندت دمشق فى سنة ١١٣٩ اثناء حروب عماد الدين زنكى ضد دمشق ؛ وآنذاك كان الملك فولك هو الذى اجبر قوات الموصل على التراجع . ومع ذلك ، احرز عماد الدين زنكى الهيمنة فى سوريا فيما بعد ، لاجئا حينا الى القوة المسلحة وحينا الى الديبلوماسية وعقود الزواج . وكل هذا اتاح له دفع قواته فى تشرين الاول (اكتوبر) ١١٤٤ الى اراضى كونتية الرها ومحاصرة الرها فى ٢٨ تشرين الثانى (نوفمبر) . فهرعت الى نجدة المدينة فصائل الفرسان من مملكة القدس ، وقد ارسلتها الوصية على العرش ميليساندا التى كانت تحكم اثناء حداثة بودوان الثالث ، ولكن هذه الفصائل وصلت متأخرة جدا . ففى ٢٤ كانون الاول (ديسمبر) ١١٤٤ استولى عماد الدين زنكى على المدينة ودمر قسما كبيرا منها ، ثم استولى على كثير من مناطق الكونتية . ان عملية طرد الافرنج من ممتلكاتهم ، التى بدأها عماد الدين زنكى فى كونتية الرها قد واصلها ابنه نور الدين محمود ابن زنكى (١١٤٦-١١٧٤) الذى وسع كثيرا اراضى السيادة الاسلامية . وحرر وادى الفرات من سيطرة الافرنج .

خلق سقوط الرها خطرا جديا على جميع دول الصليبيين الاخرى فى

الشرق الادنى ، وفى المقام الاول على انطاكية . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١١٤٥ أرسل رسل من القدس وانطاكية الى بابا روما اوجينوس الثالث . ووصل الى مدينة فيتربو (ايطاليا) اسقف جبلة بطلب اتخاذ التدابير لكى تحمى «بسالة الافرنج المظفرة» ، ممتلكات الكونتات والفيكونتات الشرقية من الاعتداءات الجديدة .

فى ذلك الوقت كان الوضع السياسى الداخلى فى اوروبا يتطور فى غير صالح البابوية ؛ فمن جديد تأزم ما يسمى بالصراع من اجل تعيين الاساقفة Investiture وتعقدت العلاقات مع مملكة صقلية ، وفى روما نفسها وقفت ضد البابا الفئات الدنيا من ذات المزاج الجمهورى من سكان المدينة (وهذه الحركة ترتبط باسم ارنولد دى بريشيا — Arnold de Brescia — الواسع الشهرة) ؛ وكان يخيل ان البابا لا يمكن ان يفكر فى مغامرات جديدة فى الشرق . ومع ذلك ، وقع فى اول كانون الاول (ديسمبر) ١١٤٥ بولا" (مرسوما) يدعو الى الحرب الصليبية . وكان ذلك اول مرسوم صليبى فى التاريخ تتخذه البابوية . وقد وجه البابا اوجينوس الثالث هذا المرسوم الى فرنسا داعيا الملك لويس السابع الى النهوض للدفاع عن الدين والايمان . وطالب البابا بتجهيز القوات لاجل الانتقام من المسلمين ، ووعد المشتركين فى الحملة بحماية الكرسى الرسولى التامة ، وغفران الخطايا ، والاعفاء من الاتاوى . وللحصول على الاموال للاشتراك فى الحرب ، سمح للفرسان برهن عقاراتهم وضياعهم . ومن جديد ، كما منذ ٥٠ سنة ، قامت فى الغرب حملة واسعة فى صالح الحملة الصليبية : قبر السيد المسيح فى خطر !

كان برنار ، رئيس جمعية الرهبان السيسترسيين البورغونى الواسع النفوذ ، رئيس دير كليرفو (١٠٩١–١١٥٣) من اكبر ملهمى الحملة الجديدة الى الشرق همة وعزيمة ، ومنظمها المباشر . واليه بالذات عهد اوجينوس الثالث بالدعوة الى الحرب المقدسة . اما البابا نفسه ، المستغرق فى شؤونه الايطالية والاوروبية العامة ، فلم يكن بمقدوره ان يهتم مباشرة باعداد هذا المشروع . اما برنار ، رئيس دير كليرفو ، المتعصب تعصبا قتاليا اعمى ، والذى لقبه معاصروه بالذات «غول زماننا» ، والذى رفعته الكنيسة فيما بعد الى مصف القديسين ، فقد كان يبدى من زمان بعيد اهتماما كبيرا بمصائر دول الصليبيين . وقد اسهم ، كما عرفنا من قبل ، فى تأسيس جمعية الهيكليين . وقد دعاهم برنار الى ابادة المسلمين بلا شفقة ولا هوادة ، والى الاستيلاء على اراضى «المسيح» لما فيه مجد الكنيسة ، والى نشر سلطة

الكرسى الرسولى هناك . وقد كتب برنار فى مؤلفه «كلمة ثناء على قوات فرسان الهيكل الجديدة» : «قد لا يصح قتل الوثنيين لو كان من الممكن منعهم بوسيلة ما اخرى عن ضمر عداوة مفرطة فى الكبر للمؤمنين او عن اضطهاد المؤمنين . اما الآن فمن الافضل ابادتهم» . وكان ذلك احد البنود الاساسية فى برنامج الكاثوليكية المقاتلة ؛ وهذه البنود تقدم بها هذا الحبر الذى اخذ على عاتقه دور الواعظ الرئيسى بالحملة الصليبية الجديدة .

وفى القرن الثانى عشر ، كما فى عشية الحملة الصليبية الاولى ، تأجج جو الصراع الاجتماعى فى الغرب من جديد . فقد استاء الاقنان من الاتاوى التى لا تطاق ومن استبداد الاسياد . ونهض فى وجه الاقطاعيين الدنيويين والكنسيين خصم جدى جديد هو المدن التى ابدت فى القرن الحادى عشر اولى علائم الحياة وحسب ، وذلك فى ايطاليا الشمالية وفرنسا بصورة رئيسية . ونحو ذلك الزمن كانت قد نمت نموا عاصفا فى المانيا وانجلترا . وكان الفلاحون الاقنان الساعون الى نيل الحرية يهربون الى المدن للاحتماء داخل اسوارها . وكان ثمة مثل شعبى يقول : «هواء المدينة يجعل الناس احرارا» . وهؤلاء الفلاحون الهاربون الذين اخذوا يمارسون الحرف هم الذين هبوا ضد نير الاسياد ؛ واحيانا كانوا ينالون الاعتراف بحرياتهم فى غمرة الكفاح المسلح السافر ضد الكونتات والاساقفة .

كانت روح الفتنة والعصيان تنتشر بصورة اوسع فاوسع . كانت حركات الهراطقة التى تفصح عن احتجاج الفئات الدنيا من سكان الارياف والمدن على النظم والاوضاع الاقطاعية تنشب تارة هنا وطورا هناك . كان ذلك زمنا ولدت فيه «الف هرطقة» كما قال المفكر الحر ابيلار (Abélard) . وقد نشأت الهرطقات وتنامت في فرنسا والفلاندر وانجلترا ومناطق المانيا على ضفاف نهر الراين . وعكفت الكنيسة الكاثوليكية بكل حزم وعزم على استئصال الهرطقات ؛ وكان برنار ، رئيس دير كليرفو ، على وجه الضبط ، قد خلق لنفسه قبل الحملة الصليبية شهرة خانق شرير وحقود لحرية الفكر . فانقض بجميع العقوبات على ابيلار «الكافر» الذى تجاسر على تمجيد قوة العقل خلافا لمكانة العقائد الكنسية ، وعلى اتباعه العديدين . وفى القرن الثانى عشر كانت تتاجج المواقد التى كانت الكنيسة تحرق فيها الهراطقة . ولكن روح التمرد والعصيان استعصت على النار .

وفى هذا الوضع ، جاءت الهزيمة التى انزلها السلجوقيون باحدى الدول الصليبية فى الشرق مناسبة تماما للكنيسة . فقد قررت الاوساط العليا الكنسية ان تؤجج من جديد نيران التعصب الدينى القتالى ، حاسبة ان

تتمكن بواسطته من وضع حد لامزجة التمرد والعصيان فى الغرب : فلتغرق موجة الحماسة الصليبية التى تثيرها الكنيسة حريق الاستياء الشعبـــــى المتوهج .

وقد تم استغلال سقوط الرها لاجل اطلاق النداء من جديد الى حرب الخلاص ضد «الكفار» . وكما فى اواخر القرن الحادى عشر ، جعلت الاوساط العليا فى الكنيسة الكاثوليكية مهمتها الاساسية تامين ازدهار ويسر الطبقة الحاكمة فى الغرب ؛ وكما فى ذلك الوقت ، حاولت فى الوقت ذاته ان تلبى مصالح الاقطاعيين الدنيويين والكنسيين الانانية الجشعة وان تعزز مكانتها بالذات .

فى ٣١ آذار (مارس) ١١٤٦ وصل برنار من كليرفو الى مداولة للبارونات الفرنسيين وكبار رجال الكنيسة والفرسان الاعيان فى فيزليه (بورغونيا) . ومن على مرتفع اقيم فى حقل مفتوح ، تكلم امام جمع الناس ، وتلا البول (المرسوم) الصليبى الذى اقره البابا ، والقى خطابا ناريا بصدد ضرورة حرب مقدسة جديدة . كذلك اخذ برنار يوزع فى الحال هناك شارات الصليب ، المعدة سلفا . وحين لم تكف الشارات ، مزق برنار لباسه الرهبانى وصنعوا منه كذلك صلبانا .

بعد المداولة فى فيزليه قام برنار من كليرفو بجولة فى مدن فرنسا ؛ وفى تشرين الاول (اكتوبر) ١١٤٦ زار المانيا الجنوبية والمناطق الالمانية المتاخمة لنهر الراين . وفى كل مكان ، استحث الفرسان والشعب البسيط على الاشتراك فى الحملة الصليبية . ان خادم الكنيسة الرومانية هذا لم يتوجه فى رسائله وفى خطاباته الى «الكاثوليك الطيبين» وحسب ، بل توجه كذلك الى اللصوص والقتلة والمجرمين من كل شاكلة وطراز ناصحا اياهم بان يكسبوا غفران الخطايا بالقتال من اجل الارض المقدسة . وهكذا جندت الكنيســـة الكاثوليكية عساكرها الجديدة .

واشترك رهبان الجمعية السيسترسينية بكل همة ونشاط فى الدعايــة للحملة الصليبية . بل ان بعضهم كانوا حتى منافسين من نوع فريد لبرنار من كليرفو .

استجاب كثيرون من الفقراء ولاسيما من تلك الانحاء التى اصابها القحط والجوع مؤخرا لدعوات برنار من كليرفو والوعاظ الكنسيين الذين وزعهم فى جميع الاتجاهات . ومع ذلك ، لم تلاحظ على العموم فى امزجة الريف آنذاك تلك الحماسة الدينية التحررية العفوية والجماهيرية التى رافق نهوضها بداية احداث سنة ١٠٩٦ . بل ان اخبار المعاصرين تعكس حتى اصداء الاستياء

الشعبى الذى تبدى هنا وهناك لمناسبة تحضير الحملة الصليبية . وكـان فرض اتاوة على جميع سكان المملكة الفرنسية لسد حاجات الحملة الصليبية سببا جوهريا من اسباب هذا الاستياء . وهكذا بدأت الحرب المقدسة ، كما قال احد مدونى الاخبار ، بخزى وعار ، اى بنهب الفقراء .

حظى البول" البابا وى ومواعظ برنار من كليرفو فى اوساط الاقطاعيين بصدى واسع نسبيا وان لم يكن البتة شاملا . وبين الفرسان ، تواجد ، كما من قبل ، عدد لايستهان به من الراغبين فى الاثراء من الحرب ضد «الكفار» . واعلن بعض كبار الاسياد فـى فرنسا عن الرغبة فى السير تحت رايـة الصليب ، ومنهم الفونس جوردان ، كونت تولوز ، ابن ريمون دى سانجيل (وقد ولد اثناء حصار والده لمدينة طرابلس) ، والكونت تيبيرى من الفلاندر ، ووريث الكونت تيبو دى بلوا هنرى ، واخو الملك لويس السابع الكونت روبير البرشى (La Perche) ، والبارونات انغيران دى كوسى ، وجوفروا رنسون وهوغ لوزينيان ، وغيرهم . واليهم انضمت شخصيات دينية بارزة — الاساقفة نوايون وليزيه وغودفروا من لانغر الذى تدرب فى حينه عند برنار فى دير كليرفو. وبمثالهم اقتدى فيما بعد كثيرون من الاقطاعيين الالمان ، كبارا وصغارا ، وعلى الاغلب من المقاطعات الواقعة على «درب الكهنة» اى على نهر الراين ، الذى كانت تقـع على ضفتيه ممتلكات كبار رجال الكنيسـة (ابرشيات ترير وماينتس وخلافهما) ، وكذلك من شوابيا . واخذت تتشكل فصائل الصليبيين فى انجلترا ايضا .

وهذه المرة ايضا التحقت بالفرسان جموع من الفلاحين الاقنان . وعـن دوافعهم كتب مدون الاخبار غرخو من رايخسبرغ بصورة معبرة : «امـا الفلاحون ، والاقنان التابعون للسادة ، فقد طرحوا جانبا محاريثهم **وتناسوا الفرائض** (التأكيد لنا — **المؤلف**) . . . فقد قام سوادهم الاعظم بصورة غير معقولة بهذه الحملة البالغة المشقة ، أملا فى ان يأكل فى هـذا المشروع المقدس للغاية مأكلا مثل الذى نزل من السماء على شعب اسرائيل» (يقصد مدون الاخبار حكاية التوراة عن خروج اليهود من مصر ؛ ففى الصحراء انعـم الرب عليهم «بخبز من السماء» او «بالمن») . ولكن ، كما يستخلص مدون الاخبار بصورة قاطعة ، «حصل تماما غير ما كانوا يأملون فيه» .

فى هذا المقطع يتبدى بكل وضوح السبب الذى ظل يدفع الاقنان الى درب الرب ، وهو السعى الى قطع علاقات التبعية حيال الاسياد ، «تناسى» الفرائض .

فى الحملة الصليبية الثانية ، اشترك الملوك للمرة الاولى : الملـك الفرنسى الشاب لويس السابع الذى استجاب فى الحال لبول" البابا اوجينوس

الثالث ، والملك الالماني كونراد الثالث هوهنشتاوفن (ولكن ، والحق يقال ، ليس بدون ترددات كبيرة) . فان برنار من كليرفو الذى تجوب فى المانيا والقى هناك الكثير من الخطابات النارية حول اهمية الحملة الصليبية لاجل خير المسيحية ، قد تمكن من اقناعه . فأخذ الملك الالماني الصليب رغم انه كان مشغولا بالحرب الداخلية ضد كتلة آل فلف الاقطاعية المعادية لآل هوهنشتاوفن . وقد حدث ذلك فى ٢٧ كانون الاول (ديسمبر) ١١٤٦ فى ريخستاغ شبيير حيث القى برنار خطابا صادقا مؤثرا . ونعت برنار ، رئيس دير كليرفو ، نجاحه «معجزة المعجزات» . اما فى الواقع ، فلم يكن ثمة اية معجزة .

وبدءا من اواسط القرن الثاني عشر ، اخذت القوى المنظمة للدول الاقطاعية فى اوروبا الغربية تنضم تدريجيا ، وان بصورة غير منتظمة ، الى قوام المشتركين فى الحملات الصليبية ؛ ومذ ذاك اخذت تتوطد السلطة الملكية فى هذه الدول ، وتنشب اشتباكات كبيرة بين هذه السلطة وبين كبار الاسياد ، ويتكون الجهاز الملكي للادارة والحكم ، وتتشكل القوات المسلحة الدائمة ، النظامية . وعلى هذه القوات فى المقام الاول يعتمد الملوك فى سعيهم الى قطع اجنحة الانفصالية الاقطاعية . هكذا كانت الحال فى مملكة الكابيتين (Capetiens) فى فرنسا وفى مملكة سلالة هوهنشتاوفن فى المانيا وفى المملكة النورمانية الصقلية ، وفى انجلترا حيث كانت تحكم سلالة بلانتاجينه .

واخذت السلطة الملكية تحتاج اكثر فاكثر الى الوسائل المادية لاجل تطبيق سياستها التمركزية بنجاح ، الامر الذى كان يدفع الملوك الى سبيل الفتوحات . وغدا التوسع الاقليمي الواسع السمة المميزة لسياسة دول اوروبا الغربية . ومنذ اواسط القرن الثاني عشر صار البحر الابيض المتوسط اهم اتجاه فى هذا التوسع . ونحو سواحل افريقيا الشمالية ، ونحو بيزنطية وممتلكات الاقطاعيين الاوروبيين الغربيين فى سوريا ولبنان وفلسطين التى كان يتهددها خطر انتقام السلجوقيين ، صوّب حكام اهم الملكيات الاوروبية انظارهم . وصار اخضاع هذه المناطق هدفا من الاهداف المركزية لسياستهم العدوانية .

ان اهتمام الملوك بقضية الحملات الصليبية انما مرده جزئيا ، بالطبع ، الى اعتبارات المكانة ، ولكنه نبع بصورة رئيسية من بواعث عادية تماما ذات طابع اقتصادي .

فان البحر الابيض المتوسط غدا طريقا رئيسيا للتجارة المنتعشة .

وكان السعى الى فرض الرقابة على المناطق التى تضطلع فيه بدور جوهرى الى هذا الحد او ذاك السبب الذى حمل ملكيات اوروبا الغربية الى صفوف المشتركين النشطاء في الحملات الصليبية . وقد كان لكل من لويس السابع وكونراد الثالث مصلحة مباشرة فى صيانة سيادة مواطنيهم فى سوريا ولبنان وفلسطين وحتى فى توسيع حدودها . وبفضل زواج لويس السابع من ايليونور ، وريثة دوقية اكيتين (Eleonora d'Aquitaine) ضمت الى التاج الفرنسى مقاطعة شاسعة فى جنوب فرنسا ؛ كانت مدن اكيتين تشترك بنشاط في تجارة المشرق . وبهذه التجارة كانت ترتبط كذلك ، بواسطة ايطاليا الشمالية ، المدن الالمانية فى ممتلكات آل شتاوفن . وهكذا بدأت تجارة البحر الابيض المتوسط تعود بمنافع محسوسة على السلطة الملكية سواء فى فرنسا ام فى المانيا .

ولكن ليس جميع الاعيان الفرنسيين تحرقوا الى الاشتراك فى الحملة الصليبية . وحتى فى ذلك الوقت ، ابدى قسم كبير من الفرسان قدرا من اللامبالاة . وعلى الحملة الصليبية اعترض بكل حدة رجل الدولة البارز ، وواحد من اقرب مستشارى الملك ، رئيس الدير سوجر . اما الملك كونراد الثالث ، فقد اشترك فى الحملة الصليبية ، وان يكن بغير حماسة كبيرة ، لاسباب اخرى ايضا ؛ فان الملك الالمانى الاول من السلالة الجديدة ، سلالة شتاوفن ، كونراد الثالث ، اقتبس من سابقيه تطلعاتهم التزعمية فى اوروبا ولم يشأ ان يتنازل عن قصب السبق للملك لويس السابع . ومما سهل وضعه ، ان الدوق فلف السادس ، الخصم الرئيسى للملك فى المانيا ، قد اخذ الصليب هو ايضا .

وكانت الاوساط العليا من الكنيسة الكاثوليكية تعتبر بدورها من الجوهرى تأمين اشتراك هذين الملكين فى الحملة الصليبية . ان التنافس بينهما كان من شأنه ، على الارجح ، ان يقلل من حظ الحملة فى النجاح ، ولكن كان من شأنه ان يزيد احتمالات رفع مكانة البابوية كقوة سياسية اوروبية .

الحملة الصليبية الثانية
وتصادم مصالح الدول
الاوروبية فى البحر الابيض المتوسط

القرار النهائى بصدد بداية الحملة وموعدها – ١٥ حزيران (يوليو) ١١٤٧ ، وكذلك القرار بخط سير الصليبيين ، اتخذهما اجتماع الاعيان الفرنسيين الذى انعقد فى ١٦ شباط (فبراير) ١١٤٧ فى مدينة ايتامب

(فرنسا) . وقد حضر رسل المانيا هذا الاجتماع . اشرف على الاجتماع برنار من كليرفو ، وانبأ الحاضرين بنجاحات المواعظ الصليبية فى اسبانيا وايطاليا وانجلترا . وفى ١٥ آذار (مارس) ١١٤٧ عقد الريخستاغ الالمانى جلسة فى فرانكفورت وقرر موعد السير بالحملة فى اواسط ايار (مايو) ١١٤٧ .

ونحو الصيف كان قد تشكل فى فرنسا والمانيا جحفلان كبيران من الصليبيين . وكان كل منهما يضم حوالى ٧٠ الف فارس ، التحقت بهم جموع ضخمة من الفلاحين الفقراء ، بمن فيهم النساء والشيوخ والاولاد .

انطلق الصليبيون الفرنسيون من مدينة متز ، وعلى رأسهم الملك لويس السابع ؛ وقد ارسل البابا اليه نائبا عنه الكاردينال-الشماس غويدو الفلورنسى . ومع الملك لويس السابع ، راحت الملكة ايليونور داكيتين . وعلى رأس الجحفل الالمانى الذى انطلق من نورنبرغ وريغنسبورغ ، سار الملك كونراد الثالث ؛ وكان الكاردينال-الاسقف تيوديفين ممثل البابا عنده . تحرك الالمان اولا ، وبعد شهر سار الفرنسيون .

فى البدء اجتاز الفرسان الالمان المجر بعد ان اعطى الملك غيزا الثانى موافقته الرسمية على مرور الصليبيين فى بلده . ثم ساروا فى ممتلكات الروم علما بان الصليبيين الالمان نهبوا السكان بلا رحمة ولا هوادة ، رغم علاقات التحالف بين الامبراطورية الالمانية وبيزنطية .

قام التحالف بين الامبراطوريتين – الالمانية والبيزنطية – على اساس وحدة مصالحهما السياسية ، وبصورة رئيسية بسبب التناقضات مع مملكة روجه الثانى النورمانية الصقلية . فقد ضم هذا الملك صقلية الى ايطاليا الجنوبية وواصل انتهاج سياسة الاقطاعيين النورمانيين الايطاليين القديمة المعادية لبيزنطية . وفى الوقت نفسه اقام شتى العقبات فى وجه سلالة هوهنشتاوفن فى محاولاتها لتوطيد سيادتها فى ايطاليا . وان التناقضات مع مملكة صقلية فى مضمار التوسع فى البحر الابيض المتوسط هى التى ادت الى التقارب بين المانيا آل شتاوفن وبيزنطية . وفى سنة ١١٤٦ ، ترسخ التحالف بين الامبراطوريتين بزواج مانويل كومنينوس من سلفة (اخت زوجة) كونراد الثالث ، الكونتيس برتا زولسباخ .

ومع ذلك عانت بيزنطية الكثير من المزعجات من حليفتها الالمانية . وقد تضررت تراقيا على الاخص من تهور الفرسان الالمان ، فاضطر الامبراطور مانويل كومنينوس حتى الى تهدئة الصليبيين بالسلاح . وكذلك انتقم السكان المحليون انفسهم على طريقتهم من النهابين ؛ فلم يكن من النادر ان يقتل البلغار واليونانيون المقاتلين الالمان السكارى حتى الغيبوبة والمتخلفين فى

الطريق ؛ ولذا حين وصل الفرسان الفرنسيون الى هناك ، كما يشهد شاهد عيان ، «كان كل شيء مسمما بنتانة جثثهم (اى جثث الالمان - **المؤلف**) غير المدفونة» . وفي جوار فيليبوبول ، حدثت اشتباكات ضارية بين القوات الالمانية والقوات البيزنطية . وعرض مانويل على كونراد الثالث توجيه القوات الصليبية بمعزل عن القسطنطينية ، عبر هيليسبونت (الدردنيل) لاجل تجنيب العاصمة مآثم الفرسان وموبقاتهم ، ولكن الحليف رفض هذا الاقتراح . وساق قواته فى الطريق القديم الذى سبق ان سار عليه الصليبيون الاوائل .

احتفل الفرسان الالمان بوصولهم الى القسطنطينية (١٠ ايلول - سبتمبر ١١٤٧) باعمال النهب والسلب ، واجتياح القصر الامبراطورى الواقع غير بعيد عن العاصمة ، وولائم العربدة والسكر . ويروى مدون الاخبار الفرنسى اودو من ديل ، الذى اشترك فى حملة لويس السابع الصليبية بوصفه كابيللانه ، ان الالمان احرقوا بضعا من ضواحي المدينة . لن يفوت القسطنطينية القصاص حين ينضم الى الفرسان الالمان المشاغبين والعنيفين الفرسان الفرنسيون القادمون فى الطريق . ولكن مانويل استطاع بالتملق والقوة ان يقنع حليفه الالمانى بعبور البوسفور الى الساحل الآخر ، الشرقى . ثم ان كونراد الثالث لم يكن يتحرق كذلك ، من جانبه ، الى اللقاء مع الصليبيين الفرنسيين ؛ فقد كان يخشى الانسياق فى دوامة سياسة العداء للقسطنطينية .

وفى اواخر تشرين الاول (اكتوبر) ١١٤٧ ، منى الصليبيون الالمان ، غير المنضبطين وغير المنظمين ، والذين لم يتحلوا لا بالاحتراس ولا ببعد النظر (فلم يأخذوا من احتياطى المأكولات الا لمدة ٨ ايام) بهزيمة نكراء فى القتال ضد فصائل الخيالة التابعة لسلطان قونية فى جوار ضوريليوم . وجاءت المجاعة والامراض التى قضت على افراد الجموع المسلحة الالمانية تستكمل هزيمة الصليبيين . وقد اضطر كونراد الثالث الى ان يطلب بمذلة ومهانة من لويس السابع الذى تلاقى معه فى نيقية الاذن بضم هذه البقايا السالمة من جيشه الى الجموع المسلحة الفرنسية . ولم يقرر مواصلة الحملة الصليبية غير جماعة صغيرة من الصليبيين الالمان ، بينهم كونراد الثالث وابن اخيه فريدريك ، دوق شوابيا (فيما بعد ، امبراطور المانيا فريدريك بربروسّا) . والباقون ، ممن سلموا ، عادوا الى الوطن بخزى وعار .

منذ بادئ بدء ، تعقد الوضع الدولى الذى جرت فيه الحملة الصليبية الثانية خارق التعقد . فقد انتهج روجه الثانى سياسة اغتصابية واسعة فى منطقة البحر الابيض المتوسط . استأنف الهجوم على بيزنطيا ، مجددا تقاليد

روبر غيسكار وبوهيموند من تارنتـــو . وعندما سار الاستعداد للحملـــة الصليبية على قدم وساق فى فرنسا ، وصل رسل من صقلية الى بلاط لويس السابع ؛ وقد حملوا معهم ، من جهة ، مقترحات مغرية لاجـل الصليبيين — فقد تعهد روجه الثانى بتأمين المأكولات ووسائط النقل لهم ، ومن جهـــة اخرى ، حاولوا اقناع لويس السابع بان يختار الطريق الى الشرق عبر ابوليا وصقلية . فان روجه الثانى ، «حامى المسيحية» ، كما لقّب نفسه رسميا ، كان يريد سرا ان يجتذب الى جانبه الاعيان الفرنسيين وعلى رأسهم الملك ، لاجل فتح القسطنطينية . الا ان جهود رسل صقلية لم تتكلل بالنجاح . فان الملك الفرنسي وباروناته فضلوا الانطلاق على نفس الطريق الذى انطلقـت عليه القوات الالمانية ، اذ ان الطريق عبر ممتلكات الامبراطور البيزنطى ، حليف كونراد الثالث ، كان يبدو لهم اكثر امانة . ناهيك بانه كان معلومـا ان روجه الثانى يطمع بامارة انطاكية ، فى حين ان سيد هذه الامارة ، ريمون دي بواتيه ، كان عم الملكة ايليونور وكان من اتباع الامبراطور البيزنطى . ولذا كان من شأن التقارب مع روجه الثانى ان يعقد علاقات فرنسا سواء مع الامبراطوريتين ام فى العائلة الملكية . ولذا قوبلت مقترحات ملك صقليـــة بالرفض .

واذ ذاك عمد روجه الثانى الى العمل على عهدته ومسؤوليته . فعندمـــا كان الصليبيون الالمان يتقدمون فى اراضى بيزنطيا ، شـــن ضدها عمليات عدائية . وفى صيف ١١٤٧ ، استولى اسطول صقلية على جزيرتى كورفـــو وسيفالونيا ، وهدم كورنتس وثيبة ولربما آثينا ، واجتاح الجزر الايونيـــة . وتحالف «حامى المسيحية» مع مصر لكى يضمن لنفسه مؤخرة مأمونة . وكان الحاصل ظاهرة طريفة جدا : راح الفرسان الغربيون يشنون حربا مقدسة ضد الاسلام ، واذا دولة من الدول المسيحية الكبيرة تتكتل فى الوقت نفسه مع سلطان مسلم ، لكى تستغل بصورة غيـــر مباشرة الحملة الصليبية فـــى مصلحتها اى ضد بيزنطيا المسيحية . وهكذا تجلت بالفعل ، فى بادئ بدء هذا المشروع ، الوحدة الموهومة بين مصالح المسيحيين الغربيين .

ان افعال روجه الثانى قد وضعت الصليبيين الفرنسيين ، المتجهين الى القسطنطينية ، والقائمين باعمال السلب والنهب فى اليونان ، فى وضع مبهم جدا حيال بيزنطية . وقد تفاقم الارتياب فى بيزنطيا بصدد نوايا الصليبيين الحقيقية . من كان يعرف على ما اتفق رسل روجه الثانـى ولويس السابع ؟ وفى القسطنطينية كانوا لا يزالون يتذكرون كيف حاول بوهيموند منـذ ٤٠ سنة ان ينظم حملة صليبية ضـــد الامبراطورية البيزنطية . ولكن مانويل

كومنينوس حاول ان يتظاهر بالرضى . وقد وعـــد رسله الذين مضوا الى لويس السابع بانه سيسمح للصليبيين بشراء احتياطيات الماكولات بحرية فى اراضى الامبراطورية . وكانت رسائله الى الملك الفرنسى مكتوبة بلهجة حسن النية وحتى بلهجـــة الصداقة . ولكن الحكومـــة البيزنطية اتخذت تدابيرها . ويروى اودو من ديل ان الفرنسيين واجهوا المصاعب عند شراء الماكولات ؛ فان اليونانيين «لم يسمحوا لهم بدخول مدنهم وبلداتهم ، ومـــا كانوا يبيعونه كانوا ينزلونه بالحبال على الاسوار» . وقد مضى الفرنسيون الى العاصمة البيزنطية كأنما فى الصحراء ، «رغم انهـــم دخلوا ارضا غنية للغاية ، مليئة بالوفرة تمتد حتى القسطنطينية بالذات» .

ردا على هجوم رئيس القراصنة النورمانيين الصقليين روجـــه الثانى ، حشدت بيزنطية قواتها . وفى الغرب تحالفت مع البندقية مانحة اياهـــــا امتيازات تجارية جديدة ؛ فالى عداد المناطق التى كان لتجار البندقية الحق فى المتاجرة فيها بدون دفع رسوم جمركيـــة ، اضيفت كريت وقبرص . كذلك عمد الامبراطور مانويل كومنينوس ، الحليف «الامين» للصليبيين بقدر ما هم حلفاء «امناء» للامبراطورية البيزنطية ، سعيا منه لاطلاق يديه فـــى الشرق ، الى عقد الصلح مع سلطنة قونية التى بدأ الفرسان الالمان النضال معها والتى كان عليها مستقبلا ان تقاتل الصليبيين الفرنسيين .

وهكذا رأى الصليبيون انفسهم بين نارين . فمن جهة ، سدد اليهم ضربة فى الظهر ملك صقلية الذى يعتنق مثلهم الدين نفسه ؛ فهو لم يوقع اتفاقية مع مصر وحسب ، بل هاجم بيزنطية كذلك ، الامر الذى كان اشد وقعـــا عليهم ، اذ انه اثار فـــى بيزنطية عميق الحذر والريبـــة حيال الفرسان الصليبيين وقادتهم . بـــل ان روجه الثانى استطـــاع بمختلف الحيـــل الديبلوماسية ان يقنع الحكومة البيزنطية بان لويس السابع يتعاطف مـــع سياسته هو روجه . ومن جهة اخرى ، تعرضت خطط الصليبيين للخطر لأن بيزنطيا نفسها عقدت الصلح مع السلجوقيين . وكان هذا يعنى ان «الحجاج» لن يتمكنوا من الأمل فى دعم بيزنطية فى الحرب ضد سلطنة قونية .

فى هذا الوضع ، اخذت اهمية الدوافع الدينية عند الصليبيين تقل اكثر فاكثر بينما اخذت الاعتبارات السياسية تشغل المرتبة الاولى . وعندمـــا اقتربت القوات الفرنسية فى ايلول (سبتمبر) ١١٤٧ مـــن القسطنطينية ، واغلق الامبراطور امام الفرسان ابواب المدينة ، «لأن الفرنسيين ، — كمـا يعترف اودو من ديل — احرقوا لهم (اى للروم — **المؤلف**) الكثير من البيوت ومزارع الزيتون — امّا بسبب نقص الوقود ، وامّا بسبب دناءتهم وفى حالة

السكر الغبى» ، تعالت بين الصليبيين اصوات تدعو الى الاستيلاء على عاصمة امبراطورية الروم (اى بيزنطية) والى القضاء بالتالى على هذه العقبة فـــى الطريق الى بلوغ الهدف من الحملة .

وفى محيط الملك لويس السابع ، كما يفيد مـــدون الاخبار المذكور ، اخذوا يعربون اكثر فاكثر عن الفكرة القائلة انــــه ينبغى الاتصال بروجه الثانى الذى يخوض الحرب ضد بيزنطية ، وانتظار وصول اسطول صقلية ، وفتح القسطنطينية مع النورمانيين . وهذا المشروع طرحه ودافع عنه بالحاح كبير الاسقف غودفروا من لانغر . وقد لفت انتباه الفرسان الى ان تحصينات العاصمة البيزنطية متداعية ، وان قوات الروم للدفاع عـــن المدينة قليلة ؛ فاذا حاصر الصليبيون القسطنطينية ، فانها سرعان ما تسقط فى ايديهم . ان هذا الاسقف التقى الورع لم يأبه البتة لكـــون بيزنطيا دولة مسيحية . ان اسقف لانغر ، رجل «الاخلاق المقدسة» و«البالغ الحكمة» ، كما يقول مدون الاخبار ، قد تفنن الى اقصى حدّ فى اختلاق الادلة على ان فتح العاصمـــــة البيزنطية لن يلحق اى ضرر بقضية الصليبيين وان فتح القسطنطينية ليس الا فى الظاهر عملا يناقض المسيحية ، ولكنه لا يناقضها البتة فى الواقع : ذلك ان الامبراطور البيزنطى دعم المسلمين غير مـــرة وحارب الصليبيين المستقرين فى سوريا محاولا ان يحتل امارة انطاكية . وها هو الآن قد تواطأ مع عدو الصليبيين ، سلطان قونية !

صحيح ان غودفروا من لانغر وجد عددا لا يستهان به من الانصار ، الا ان البارونات القادة الفرنسيين صدوا خطط الكتلة المعادية لبيزنطيا ؛ فقـد كانت مفرطة فى المجازفة . . .

اشاع الامبراطور مانويل كومنينوس ان الصليبيين الالمان احرزوا نصرا كبيرا فى آسيا الصغرى وحتى استولوا على عاصمة سلطنة قونية ، وبذلك حمل الصليبيين الفرنسيين الذين اهاجهم الحسد عـــلى الاسراع فى عبور البوسفور مع ملكهم . وفى الحال طلب الفاسيلفس من رؤسائهم حلف يمين التبعية الاقطاعية والوعد بتسليم بيزنطية المناطق التى تخصها ما ان يستولى عليها الصليبيون . وهذا المطلب عزز ، اكثر مـــن ذى قبل ، التوتر فى العلاقات بين بيزنطية والفرسان الفرنسيين . ثم ان الكونـــت روبر البرشى انفصل عن الباقين دون ان ينسق اعماله معهم واندفع نحو نيقوميديا فـــى الحال . ورغم ان البارونات اقسموا ، باغلبيتهم ، يمين التبعيـــة للامبراطور مانويل ، الا انه لم يقدم لاحقا اية مساندة فعلية للصليبيين ، بل حاول على

العكس ان يعرقلهم ، لان نجاحاتهم كانـــت تهدد بانتهاك السلام مـــع السلجوقيين .

في اوائل تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٤٧ التقى الصليبيون الفرنسيون في نيقية ببقايا الجموع المسلحة الالمانية الحقيرة التي كانت برئاسة فريدريك من شوابيا ثم مع الفصائل السالمة القليلة التابعة لكونراد الثالث (وقـــد جرح هو نفسه في القتال ضد الاتراك) . وسارت القوات الصليبية الالمانية والفرنسية الى الامام ، ولكن لا نحو اعماق البلاد ، بل بسبيل غير مباشر — في المقاطعات الغربية والجنوبية من آسيا الصغرى . ان الخوف هو الذي اجبر الصليبيين على اختيار هذا السبيل ؛ فقد تخوفوا من التعرض للمصير الفاجع الذي حل بالقوات الالمانية التي هزمها السلجوقيون . صحيح ان الطريـــق كانت تمر في المدن البيزنطية (ازمير ، برغام ، افسس) ولكن عبور الجبال العالية والسيول العاصفة رافقته خسائر كبيرة .

ان الصليبيين الالمان الذين اوهنت الاحداث السابقة عزيمتهم والذيـــن ساروا لذلك في اواسط العساكر ، لكي لا يتعرضوا لخطر غارات فصائـــل الخيالة السلجوقيين ، لم يكن ليستهويهم احتمال القيام بدور ذيل للجموع الفرنسية . ولهـــذا اتجه الالمان من افسس بحرا فـــي طريق العودة الى القسطنطينية ، لجمع القوى بعد الهزيمة التي انزلها بهـــم «الكفار» . ثم ان الوحدة مع الفرسان الفرنسييـــن لم تتحقق ؛ فان هؤلاء قد سخروا عـــلى المكشوف من اخوتهم في الدين . ناهيك بان كونراد الثالث اصيب بمرض . خلاصة القول ان الذرائع لاجل التراجع قد توفرت . وفي القسطنطينية قابلوا عودة كونراد الثالث بعين الرضا ، اذ انه ، وهو المحروم فعلا من العساكر ، لم يعد يشكل خطرا على الامبراطور مانويل . بل ان الفاسيلفس جدد المفاوضات معه بصدد الاعمال المشتركة ضد مملكة صقيلة .

فشل المغامرة الصليبية

في اوائل سنة ١١٤٨ ، تحركت الجموع الفرنسية التي انهكتها المسيرة من لاودقية (اللاذقية) على الدروب الصخرية الى ابعد باتجاه الجنوب . وكانت المسيرة صعبة . ويروي اودو من ديل ان فصائـــل الفرسان السلجوقيين «كانت تتخفى بمهارة وخفة ، مثيرة قلقنا» . وكـــان الادلة الروم يدلون الصليبيين قصدا وعمدا الى دروب كان فيها خطر التعرض لهجوم القواسيـــن

السلجوقيين على اشده . وفى كانون الثانى (يناير) ١١٤٨ منيست القوات الفرنسية بهزيمة خطيرة بجوار خونة .
وانهك السلجوقيون بغاراتهم المتواصلة الصليبيين الذين خسروا عددا عديدا من الارواح وفقدوا احتياطيات المآكل والاعلاف ، اذ انتزع العدو منهم العربات . واضطروا الى ترك مواشي الجر لأنه لم يكـــن لديهم ما يعلفونها به . وكابد الفلاحون الفقراء وضعا فى منتهى المشقة واضطروا الى تحمـــل افدح البلايا اثناء هذه المسيرة .
الا ان الاسياد الاقطاعيين لم يمتنعوا عن تلبية اهوائهم العادية فى هذه المسيرة ايضا ، رغم كل مصاعبها ومشقاتها . فان ايليونور داكيتين ، زوجة لويس السابع الطائشة ، استغرقت اثناء الطريق فى مختلف التسليات بين الفرسان الشبان . ان الموكب الفخم ، موكب الملـــك والبارونات الاعيان ، المحاطين بحاشية باهرة ، والالبسة الساطعة لمرافقاتهم النبيلات ، والخدم العديدين الذين يخدمون هؤلاء السيدات (وبينهم ايضا خادمات وعازفون) — كل هذا كان يناقض تناقضا حادا جموع الفقراء المنهوكة والمعذبة ، التـــى اندفعت الى مناطق مجهولة سعيا وراء مصير افضل .
وكما فى زمن الحملة الصليبية الاولى ، لم يبد الاقطاعيون اية عنايـــة برفاقهم البؤساء والفقراء ، بل كانوا يرون فيهم بالاحرى عبئا ثقيلا . وما لبثوا ان اغتنمـــــوا الفرصة للتخلص من هذا العبء . ففـــى اوائل شباط (فبراير) ١١٤٨ وصلت جموع الصليبيين الى مدينة اتالا البحرية البيزنطيـــة فى بامفيليا . استقبل الروم الافرنج ببالغ العداء . ويقول اودو من ديل انهم «سلخوا جلودهم فى الاسواق» . واضطر الفرسان الى بيـــــع خيولهم او الى مبادلتها بالخبز واللحم . «وكان وضعنا بحيث اننا كنا نبيع بابخس الاسعار ونشترى باسعار غالية لا سابق لغلائها» . وعندما كان الصليبيون يفاوضون السلطات المحلية بصدد تأمين السفن لنقلهم الى سوريا ، طلب الحاكـــم الرومى لاندولف سعرا لم يسمع بمثله من قبل عن السفن وعـــن الاشياء الاخرى . وسرعان ما اتضح على العموم ان سفن الروم بالكد تكفى لشحـــن الاعيان وحدهم على متونها .
الا ان الفرسان النبلاء ، حرصا منهم على انقاذ جلودهم قبل كـل شىء ، وتناسيا منهم للموعظة المسيحية بحب القريب ، لم يمعنوا الفكر طويـلا : فقد تركوا الفقراء وشأنهم ، ورفعوا الاشرعة وغادروا اتاليا . وحاول المتبقون ان يواصلوا طريقهم الى الشرق بصورة مستقلة ، بالسير بمحاذاة الساحل ، ولكن اغلبيتهم اما ابادها السلجوقيون واما سقطت ضحية الجوع والحرمانات .

في ١٩ آذار (مارس) ١١٤٨ ، وصلت قوات الصليبيين الفرنسيين الى انطاكية بعد ان نقصت الى النصف . وبعد فترة وجيــزة ، وصل بحرا من القسطنطينية الى عكا فصيل صغير من الاقطاعيين الالمـــان بقيادة كونراد الثالث ؛ ومن عكا انطلق الصليبيون الى القدس . استثارت اعمــال كونراد الثالث الحذر والارتياب فى نفس لويس السابع ؛ ولهذا السبب بالذات لــم يقم هذا الاخير بايـــة محاولة ، رغم وصول مدد فـــى شخص الفرسان البروفانسيين برئاســة الكونت الفونس-جوردان ، لكـــى يستعيـــد من السلجوقيين المناطق التى استولوا عليها بين انطاكية واعالى الفرات . وفضلا عن ذلك ، مضى هو ايضا الى القدس بحجة الايفاء بالنذر الدينى الذى اعطاه . وللمناسبة نقول ان حماسة الملـــك القتالية قد خففــت كثيرا من هوجاء المغامرات الغرامية التى اندفعت فيها زوجته ايليونور داكيتين التى اقامت ، كما يشير مدونو الاخبار ، علاقة اجرامية مع عمها ريمون ، امير انطاكية .

فى ٢٤ حزيران (يونيو) ١١٤٧ ، تلاقى لويس السابع وكونراد الثالث ومقربوهما مع وصية العرش ميليساندا واعيان القدس . وعـــن هذا اللقاء تغيب – لاسباب مختلفة – اسياد دول الصليبيين فى سوريــا الشمالية – ريمون من انطاكية ، ريمون من طرابلس ، جوسلين من الرها . تناول البحث خططا مختلفة للعمليات الحربية . واخيرا تخلى قادة الصليبيين عــن اقرب اهدافهم – استعادة الرها ، – ونسوا الحرب ضد الموصل ومضوا ، مـــع القوات التى تشكلت فى مملكة القدس ، يحاصرون مدينة دمشق المحصنـــة تحصينا منيعا ، لأن فتحها كان يبشر بغنيمة وافرة ! دام الحصار خمسة ايام (٢٣–٢٧ تموز – يوليو) ولكن عبثا .

ولم تتوقف المخاصمات والمشاحنات بين الفرسان الفرنسيين والالمان والاهم هو ان احتمال فتح دمشق لم يكن يطيـــــب للقسم الابعد نظرا من بارونات مملكة القدس . ففى المقام الاول كانت تـــرد عندهم هموم مغايرة تماما . كان ينبغى الاحتفاظ على الاقل بالاراضى الفلسطينية المحتلة سابقا . وبقدر ما كانت تتوطد مواقع آل زنكى فى الصراع ضد الصليبيين ، كانــت التربة تميد اكثر فاكثر تحت اقدام بارونات مملكة القدس . وكان تحسين العلاقات مع دمشق واستغلال التناقضات بين حكامها وآل زنكى يبدوان لهم افضل بكثير . وبالعكس ، لم يكن انتصار الصليبيين الفرنسيـــن والالمان يبشر الصليبيين القدماء باى خير ، اذ كان الكونت تييرى من الفلاندر موعودا بدمشق . وبالنتيجة نضجت بين بارونات مملكة القدس «خيانة القضيـــة المسيحية» .

ان غياب وحدة الفكر بين المحاصرين لم يبق سرا على حكام دمشق . ويروى المؤرخان الشرقيان ابو الفرج الاصبهانى وميخايل السريانى انـــه أرسلت من المدينة الى معسكـــر المحاصرين ، الى ملـــك القدس بودوان الثالث ، بعثة سرية . وكان مغزى نصائح المبعوثين يتلخص فيما يلى : على بودوان ان لا يامل فى البقاء فى القدس اذا «ثبت كونراد العظيـــم (كونراد الثالث - **المؤلف**) قدميه فى دمشق» . وعرض المبعثون على الملـــك ٢٠٠ الف دينار ، وعلى بارون طبرية ١٠٠ الف دينار لكى يقنعا الملك الالمانـــى بالانسحاب . وفى اواخر تموز (يوليو) ١١٤٨ تخلى فرسان الصليب عـــن مشروعهم ، دون ان يحصلوا على شىء ، بناء على اصرار هؤلاء البارونات الذين رشاهم واشتراهم الوزير الدمشقى معين الدين النور ، فضلا عن ذلـــك ، بالذهب (الذى كان مزيفا ، كما اتضح فيما بعد) . وقد اضطروا الى ذلك ، خصوصا وان معين الدين النور قد دعا ، من جهته ، وان لم يكن بطيبـــة خاطر ، قوات الموصل الى نجدته . ومن الشمال اخذت تقترب من المدينـــة المحاصرة قوات سيف الدين الموصلى واخيه نورالدين من حلب . وبما ان الصليبيين كانوا قد خسروا عددا كبيرا من الناس ، فقد تراجعوا الى حدود مملكة القدس . وبما ان كونراد الثالث قد اقتنع بان الوضع ميؤوس منه ، فقد عاد الى المانيا مع اتباعه القلائل فى ربيع ١١٤٩ عبر القسطنطينيـــة وسلانيك . وبعد بضعة اشهر عاد لويس السابع الى بلاده .

لم تعط الحملة الصليبية الثانية اية نتائج عمليـــة . فان هذه المغامرة التى كانت سيئة التنظيم والتى جرت بصورة أسوأ لم تسفر الا عن ضحايا بشرية وخسائر مادية جديدة ، اكبر من ذى قبل . والاموال الطائلة التـــى جمعت بالضغط الفائق القساوة على الجماهير الشعبية أنفقت عبثا . كذلـــك تسببت الحملة بضرر سياسى مباشر للسلطة المركزية ، سواء فى فرنسا ام فى المانيا . واجتاحت فرنسا موجة من الحروب الاهلية الاقطاعية ، واستدان لويس السابع الاموال ، ولاسيما من الهيكليين الذين اخذ منهم مبلغا كبيرا لتلبية الحملة ، ولحق ضرر لا يستهان به بمواقع السلطة الملكية فـــى المانيا ، فوق ما هى عليه من تزعزع .

وقد قدمت الحملة الصليبية الثانية ، مثلها مثل الاولى ، البرهان الجلى على غياب الوحدة بين الغزاة الاقطاعيين الغربيـــــن . واخذت الاعتبارات الدينية ، كما بينت ذلك ببالغ الوضوح مشاريع احتلال القسطنطينية ، تفقد اهميتها اكثر فاكثر . وقد تذمر مدونو الاخبار فى القرن الثانى عشر من ضعف الحماسة الدينية ابان الحملة الصليبية الثانية . ولم تحمل هذه الحملـــة

اكاليل الغار الى الكنيسة الكاثوليكية . ثم ان التناقضات التى تفاقمت بين دول اوروبا الغربية بسبب التطلعات والمطامع التوسعية فى منطقة البحر الابيض المتوسط ، اخذت تعارض قطعا هذه الدول بعضها ببعض . وفى الوقت نفسه اشتدت المصادمات مع بيزنطية . وابان الحملة الصليبية الثانية تحطمت المشاريع الكونية الكلية التى واصلت البابوية حبكها لاجل بسط سيطرتها على العالم كله ، اذ اصطدمت بتعاظم ميول التفرقة والتقسيم والتفتيت . كذلك اسهم بقسط كبير فى فشل الحملة انعدام الوفاق والوئام بين زعماء الجموع الصليبية ، وخلافاتهم مع بارونات سوريا وفلسطين .

وبما ان الحملة الصليبية الثانية قد منيت بالاخفاق التام ، فقد قوضت مكانة البابوية . وبدأوا فى الاوساط الكنسية العليا يفتشون عن المذنب فى فشل المشروع الذى يرضى الرب . وقد القى البابا اوجينيوس الثالث كل المسؤولية على برنار من كليرفو . اما برنار ، فقد صرح انه تصرّف بامر من البابا . ولانقاذ سمعة الكرسى الرسولى ومكانته ، طفقت اوساطها العليا تتشاجر ؛ ومن كل مكان اخذت تنهال الملامات والاهانات المتبادلة . ونعت البابا برنار «القديس» بالغبى . فعمد برنار آنذاك الى الكتابة ، ووضع مؤلفه «فى التأمل» وخصص فصلا كاملا منه لتوضيح اسباب هزيمة القوات الفرنسية والالمانية ، وحاول ان يصور دوره فى مصائر الحملة الصليبية باحسن صورة . اما المسؤولون عن فشل الحملة ، فهم الصليبيون انفسهم ، كما قال برنار . ذلك انهم لم يستطيعوا بلوغ هدف الحرب المقدسة ، برأيه ، بسبب خطاياهم بالذات . اما هو برنار ، فانه ، مثل موسى التوراة الذى قاد شعب الله المختار الى ارض الميعاد ، قد استنهض المقاتلين الى مقاتلة اعداء الرب ، ولكن خطايا الصليبيين ، كما حدث فيما مضى لشعب اسرائيل ، قد اغلقت امامهم الآن مجال الوصول الى الارض المقدسة . فان الرب الغاضب قد عاقبهم ، وهل من داع للاستغراب ؟ من هنا ، لا ينجم البتة ، كما زعم برنار فيما بعد ، ان نوايا جنود المسيح لم تكن تتطابق مع الارشادات الربانية . ان الحملة الصليبية هى الآن كما من قبل ، من حيث المبدأ ، عمل من مشيئة الرب الى اقصى حد ، وسوف تبقى كذلك مستقبلا . والاخفاق لا يدل الا على ان منفذى ارشادات الرب العلى المباشرين ، اى مقاتلى فصائل لويس وكونراد الثالث ، ظهروا غير جديرين بهذه المهمة العظيمة التى عهد اليهم الرب بتنفيذها ، ولذا منوا بالهزيمة .

لم يعد من الممكن آنذاك انقاذ سمعة روما ومكانتها بمثل هذه التعليلات . ففى اوساط الغرب الواسعة ، ارتفعت اصوات التذمر سواء من البابا ام

من برنار ، رئيس دير كليرفو ، اللذين تسببا بموت كثيرين من الناس . وبرنار الذى تنبأ بنجاح المشروع نعتوه بالنبى الكذاب ، والبابا اوجينوس الثالث الذى كان المبادر الى الحملة الصليبية والذى بارك هذه المغامرة ، نعتوه بالمسيح الدجّال .

وعندما قام برنار من كليرفو فى سنة ١١٥٠ بمحاولة اخرى لتنظيم حملة صليبية ، لم يلق التاييد حتى من البابا ، رغم ان بعض البارونات الفرنسيين وبعض كبار رجال الكنيسة (ولاسيما بطرس المكرم – Pierre le Vénérable رئيس ومصلح دير كلونى) اقترحوا ان يترأس برنار نفسه الحرب المقدسة الجديدة . وبموجب مجمع شارتر (ايار – مايو ١١٥٠) ، صادق البابا اوجينيوس الثالث ببولا" (مرسوم) بتاريخ ١٩ حزيران (يونيو) على تعيين برنار ، رئيس ومصلح دير كليرفو ، قائدا للصليبيين . ولكن لم يذهب الامر الى ابعد من الاحاديث .

اخفقت الحملة الصليبية على الشرق اخفاقا تاما ؛ وبعد وفاة برنار ، دفنت لزمن طويل شتى الخطط للقيام بمشاريع من هذا النوع .

كان النجاح فى الريكونكيستو فى شبه جزيرة البيرينه النجاح الوحيد وغير المباشر الذى احرزه رجال حملة سنة ١١٤٧ . فان قسما من الصليبيين الذين ابحروا فى ايار (مايو) ١١٤٧ على السفن من مرفأ دارتموث الانجليزى – وكانوا من الفلمنكيين والفريسلانديين والانجليين والاسكتلنديين – قد استرجعوا ليشبونة من العرب . وتوقف الصليبيون فى بورتو ، واستجابوا لنداء اسقف بورتو بتقديم العون لملك البرتغال ، الفونس ، الذى كان يحاصر ليشبونة منذ ثلاثة اشهر . وبما ان الصليبيين قد نالوا موافقته على نهب المدينة فى حال فتحها ، فقد قرروا ان يتوقفوا برهة . وفى ٢٦ ايلول (سبتمبر) ١١٤٧ استولوا على ليشبونة وغنموا فيها بالفعل غنيمة وفيرة . ومذ ذاك ، صارت هذه المدينة التى ظلت اكثر من ٤٠٠ سنة تحت حكم العرب ، جزءا من المملكة البرتغالية .

المرحلة الجديدة فى هجوم السلجوقيين المضاد . صلاح الدين واستعادة المسلمين للقدس

اخفقت الحملة الصليبية ١١٤٧–١١٤٨ . وفى غضون ذلك ، كانت ميول التلاحم والتوطد تتعاظم وتشتد فى الشرق الاسلامى رغم التناقضات . وفى السبعينيات من القرن الثانى عشر ، تشكلت هناك دولة كبيرة جمعت

قسما كبيرا من آسيا الامامية . وقد لعب دورا بارزا فى تأسيسها القائـد العسكرى والسياسى الفذ يوسف صلاح الدين (١١٣٨-١١٩٣) . كان صلاح الدين كردى الاصل . وقد سبق له ان ترقى وبرز عندما كان والده ايوب وعمه اسد الدين شيركوه يشغلان مناصب رفيعة فى بلاط عماد الديـن زنكى . كان ايوب فى البدء عامل بعلبك ، ثم انتقل الى خدمة اتابك دمشق وساعد كثيرا شيركوه فى احتلال دمشق فى سنة ١١٥٤ بتكليـف من نور الدين زنكى .

كان الشاب صلاح الدين من افراد حاشية شيركوه ؛ وبعد فترة وجيزة اظهر كفاءات عسكرية ممتازة . ففى اواخر الستينيات تميز صلاح الدين ، كآمر عسكرى ، فى حروب شيركوه ضد مصر الفاطميين وضد الافرنج الذين حاولوا فى عهد الملك آمورى الاول ان يستولوا على مصر . وفى سنة ١١٦٩ صار شيركوه وزيرا فى مصر ، ولكنه توفى فى السنة ذاتها . وكان صلاح الدين ابن اخيه ، قد صار بالفعل الشخصية الاولى فى بلاط الخليفة الضعيف العادل . وعندما توفى العادل فى سنة ١١٧١ ، استولى صلاح الدين على زمام السلطة العليا مباشرة . وقد قضى الوزير الجديد بدنيا على انصار الخليفة الاخير ، ونظم الشؤون المالية ، واعاد تنظيم القوات المسلحة . ومـذ ذاك صار المقاتلون من الاكراد والسلجوقيين (الذين حلوا محل السودانييـن والبربر والارمن) عماده . وفى سنة ١١٧٥ منح خليفة بغداد صلاح الدين لقب السلطان .

فى حقبة قصيرة ، وحّد صلاح الدين مصر وقسما كبيرا من سوريـا وبلاد ما بين النهرين ؛ ففى سنة ١١٧٤ استولى على دمشق وحماه وحمص وغيرها من المدن ؛ وفى سنة ١١٨٢ فتح حلب ، وفى سنة ١١٨٦ ، اعتبر حاكم الموصل زنكى الثانى نفسه تابعا للسلطان صـلاح الدين الذى صار اقوى حاكم فى العالم الاسلامى . ومن حيث الجوهر ، وقع الشرق الافرنجى فى طوق دولة صلاح الدين . وقد وجه صلاح الدين ، الذى اسس سلالـة الايوبيين ، جميع موارد الدولة الى النضال ضد الافرنج . وبما انه استهدف فى المقام الاول القضاء على مملكة القدس ، فقد تعهد بشن الجهاد على اعداء الاسلام .

فى البدء ، كانت رحى النضال ضدهم تحتدم حسب الصدف ، بيـن الفينة والفينة . فعندما كان صلاح الدين وزيرا ، شـن ، فى كانـون الاول (ديسمبر) ١١٧٠ ، غارة على غزة ، الحصن الواقع على حدود مملكة القدس . وبعد ذاك ، استولى المصريون على ايلة ، المرفأ الواقع فى خليج العقبـة على

ساحل البحر الاحمر . وفى سنة ١١٧٩ ، انزل فاروق الشاه ، القائد العسكرى العامل فى خدمة صلاح الدين ، خسارة جسيمة بقوات ملك القدس بودوان الرابع فى معركة بلفور . وبلغت بعض فصائل المسلمين صيدا وبيروت . وفى سنة ١١٨٠ انتزع اسطول السلطان صلاح الدين الذى اقلع من الاسكندرية ، جزيرة ارواد من الصليبيين .

واخذت الغيوم تتلبد اكثر فاكثر فوق مملكة القدس . ودخل الانتقام الاسلامى المرحلة الحاسمة .

ادرك البارونات الصليبيون ما يمكن ان تؤدى اليه حملة صلاح الدين لاحقا . ففى سنة ١١٨٣ قررت الكورية الملكية فى القدس فرض ضريبة استثنائية عامة ؛ وكان ينبغى انفاق الاموال المحصّلة جميعها تقريبا على تعزيز الدفاع دون «الكفار» الذين اشتد نشاطهم . كان مقدار الضريبة يتوقف على قيمة الاموال ، وكان الجميع ملزمين بدفعها بصرف النظر عن الجنس والانتماء الدينى والاثنى . وقد عهد الى الاسياد بتحصيل النقود من اقنانهم . وفى ١١٨٤-١١٨٥ مضى بطريرك القدس والاستاذان الاكبران للجمعيتين العسكريتين الرهبانيتين الى اوروبا للقيام بجولة للدعاية والتجنيد ؛ لقد سافروا لطلب المعونة ضد «الكفار» .

بدأ ضغط المسلمين المنتظم والدائب على ممتلكات الافرنج منذ النصف الثانى من الثمانينيات فى القرن الثانى عشر . ان غياب التلاحم بين الاقطاعيين الصليبيين المستغرقين كليا فى الهموم الدنيوية ، وفى المخاصمات بسبب الاراضى والالقاب ، وفى الحيل والمؤامرات الديبلوماسية ، قد اتاح لصلاح الدين فى سنة ١١٨٧ ان يقتحم بقواته المقاطعات الداخلية من مملكة القدس .

كانت الغارة اللصوصية التى شنها احد بارونات الافرنج البارزين ، رينو دى شاتيّون (De Châtillon) الذريعة المباشرة لاجل هجوم المسلمين . فان رينو هذا كان مغامرا وقحا ، كسب شهرة مخزية «بمآثره» اللصوصية . وقد سبق له ان اجتاح قبرص البيزنطية فى سنة ١١٥٥ واعمل فيها النهب والسلب . ثم تزوج هذا السيد زواج مصلحة من وريثة امارة انطاكية ، واكتسب بهذه الطريقة بعضا من الممتلكات على نهر العاصى . واخيرا وقع ذات مرة فى اسر نور الدين وامضى فى الاسر ١٦ سنة . وبعد اخلاء سبيله ، لم تخفّ البتة ميوله الى المغامرة ، فاستقر فى حصن الكرك ، شرقىّ البحر الميت ، وعكف على نهب وسلب قوافل التجار المارة فى الجوار ، لأن الحصن كان يقطع الطريق من سوريا الى مصر والى الحجاز . وفى اواخر سنة ١١٨٦ ولربما فى اوائل سنة ١١٨٧ ، شن رينو دى شاتيون ، مكرا وغدرا ،

وخلافا لشروط الهدنة السارية المفعول آنذاك بين مصر ومملكة القدس (وقد سبق ان عقدت الهدنة فى سنة ١١٨٠) غارة على قافلة متجهة من القاهرة الى دمشق بقيم كبيرة . ونهب كليا القافلة التى كانت فيها اخت صلاح الدين . واذا السلطان صلاح الدين ، الذى اصيب بنكبة مزدوجة ، يطالب فى الحال ملك القدس آنذاك غى دى لوزينيان (١١٨٦-١١٩٠) بالتعويض عن الضرر والافراج عن الاسرى ومعاقبة الناهب . ولكن الملك لم يجازف بمس واذلال تابعه القوى ، وان يكن قد تواقح . فاستغل صلاح الدين رفض مطالبه وشن عمليات جبهوية حاسمة ضد «اعداء الله» . فى البدء اجتاحت قواته فى الربيع الباكر من سنة ١١٨٧ مناطق قلعتى الكرك وكراك دى مونريال ؛ وبعد شهرين بدأ الجهاد ضد الافرنج . واحتشدت قوات المسلمين الموحدة - من دمشق وحلب والموصل ومقاطعات ما بين النهرين - فى رأس الماء وباشرت العمليات الحربية .

انقضت الضربات المؤلمة على مملكة القدس الواحدة تلو الاخرى . وفى إيار (مايو) ١١٨٧ ابيدت الى الشمال الشرقى من الناصرة فصيلة كبيرة مؤلفة اساسا من الفرسان الرهبان ؛ وقد لقى الاستاذ الاكبر لجمعية الاوسبيتاليين روجه دى مولان مصرعه . وفى الثانى من تموز (يوليو) استولى جيش صلاح الدين على طبرية ثم ضرب طوقا مكثفا حول قوات كبيرة من الصليبيين قرب قرية حطين ، بين الناصرة وبحيرة طبرية . والى هنا ، الى المرتفع ، اندفع الصليبيون - رغم النصائح الحكيمة التى تقدم بها ريمون الثالث ، كونت طرابلس ، الذى رأى وهن هذا الموقع من الناحية الستراتيجية - بدافع من عناد الاستاذ الاكبر لجمعية الهيكليين جيرار دى ريدفور ، وحمية رينو دى شاتيّون اللذين عمل ملك القدس برأيهما بعد ترددات طويلة .

فى القتال الدامى الذى دارت رحاه فى ٤ تموز (يوليو) ١١٨٧ ، انتصر المسلمون . وقد جرت المعركة فى وضع غير ملائم للصليبيين ، فى قيظ رهيب . وكان ينقص ماء الشرب . وفى كل مكان احرق المسلمون الاعشاب والشجيرات ، واذا الفرسان الصليبيون الذين انتظموا على المرتفع فى ثلاثة طوابير قتالية تلفهم سحب الدخان المتصاعد الى اعلى . . . دامت المعركة نحو ٧ ساعات على التوالى . وسقط مئات الفرسان وآلاف المقاتلين المشاة فى ساحة الوغى . ووقع فى اسر صلاح الدين الملك غى دى لوزينيان ، والاستاذ الاكبر لجمعية الهيكليين جيرار دى ريدفور ، وقائد الجيش الفرنسى اموری دی لوزینیان ، وكثيرون من البارونات - غليوم دى مونفيرات ،

وغيره . ولم ينج سوى بضع مئات من الاشخاص فروا الى صور واحتموا وراء اسوارها .

حفظ السلطان صلاح الدين حياة اغلبية الاسرى بمن فيهم الملك والاستاذ الاكبر (بأمل فدية كبيرة) ، ولكن زهاء ٢٠٠ من الفرسان الهيكليين والاوسبيتاليين اعدموا بامر منه . اما البارون المتغطرس رينو دى شاتيّون ، فقد قطع السلطان الظافر بسيفه راسه عندما رفض اعتناق الدين الاسلامى .

كان انتصار حطين مقدمة للنجاحات التى احرزها المسلمون فيما بعد . فسرعان ما احتل صلاح الدين المدن الساحلية كلها تقريبا جنوبى طرابلس : عكا ، بيروت ، صيدا ، يافا ، قيسارية ، عسقلان . وقطع اتصالات القدس مع اوروبا . كذلك استولى المسلمون على اهم قلاع الصليبيين جنوبى طبرية ، ما عدا الكرك وكراك دى مونريال . وفى النصف الثانى من ايلول ١١٨٧ حاصرت قوات السلطان صلاح الدين القدس . ولم يكن بمقدور حاميتها الصغيرة ان تحميها من ضغط جيش مؤلف من ٦٠ الفا رجل . وحين رأى السكان عقم مواصلة المقاومة ، قرروا بعد ستة ايام من النضال ان يستسلموا لرحمة الظافر . وفى الثانى من تشرين الاول (اكتوبر) ١١٨٧ فتحت الابواب ، واحتل المسلمون المدينة . وفوقها اخذت تخفق راية السلطان الصفراء باعتزاز .

برهن صلاح الدين انه رجل دولة حكيم ، فعامل القدس وسكانها معاملة ارق واخف بكثير مما عاملهم الغزاة الصليبيون حين انتزعوا المدينة من حكم مصر قبل ذاك بنحو مائة سنة . فلم تقع قساوات لا معنى لها ، ولم تحدث تدميرات . الا ان السلطان ، والحق يقال ، عيّن ، لقاء «رحمته» ، ثمنا عاليا جدا ، ولكنه سمح مع ذلك للسكان المسيحيين بان يغادروا القدس فى غضون ٤٠ يوما بعد دفع الفدية : عن كل رجل ١٠ دنانير ذهبية ، عن كل امرأة ٥ دنانير ، عن كل طفل دينارا ذهبيا واحدا . لم يستطع زهاء ٢٠ الف فقير جمع نقود الفدية . ورفض الفرسان الرهبان الهيكليون والاوسبيتاليون الذين يملكون الاموال بوفرة ان يقدموا هذه النقود لاجل افتداء الفقراء ، وذلك بحجة انه لا يحق لهم التصرف بالنقود التى عهد اليهم الغير بحفظها . الا ان خطر الاستياء والغضب اجبر الفرسان الرهبان على فتح صرّاتهم ، فدفعوا ١٤ الف دينار ذهبى عن ٧ آلاف فقير (كانت فدية امرأتين او عشرة اولاد توازى فدية رجل واحد) . وهكذا لم يستطع زهاء ١٥ الف شخص ان يفتدوا انفسهم فبيعوا عبيدا .

ان الرقة النسبية التى ابداها القائد العسكرى صلاح الدين الايوبى بعد



حجاج ، من نساء ورجال ، في الطريق . منمنمة
من مخطوطة فرنسية (المكتبة الوطنية في باريس)



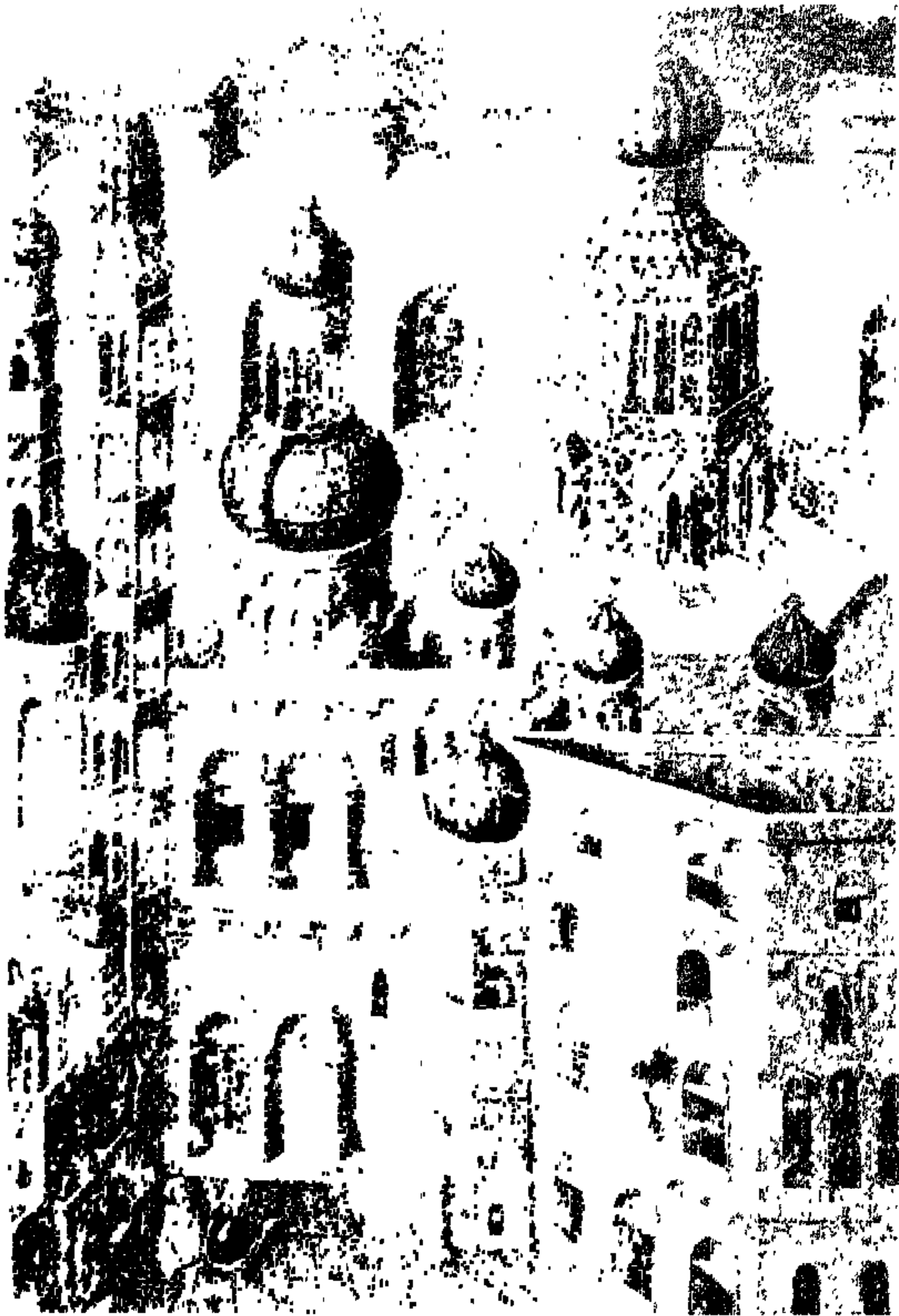
[illegible] في الحملة الأولى إلى الشرق [illegible]
من مخطوطة فرنسية (المكتبة الوطنية في باريس)



استيلاء صليبيي الحملة الاول على انطاكية في ٢٨ حزيران (يوليو) ١٠٩٨ .
مأخوذة من مخطوطة اخبار غليوم الصوري (المكتبة الوطنية في باريس)



استيلاء صليبيي الحملة الاولى على القدس في ١٥ تموز (يوليو) ١٠٩٩ .
مأخوذة من مخطوطة غليوم الصوري (المكتبة الوطنية في باريس)



كنيسة القبر المقدس في القدس . الى اليمين ، وخلفها ،
جامع وقبة الصخرة . منقولة من اخبار من اوائل القرن
الخامس عشر.

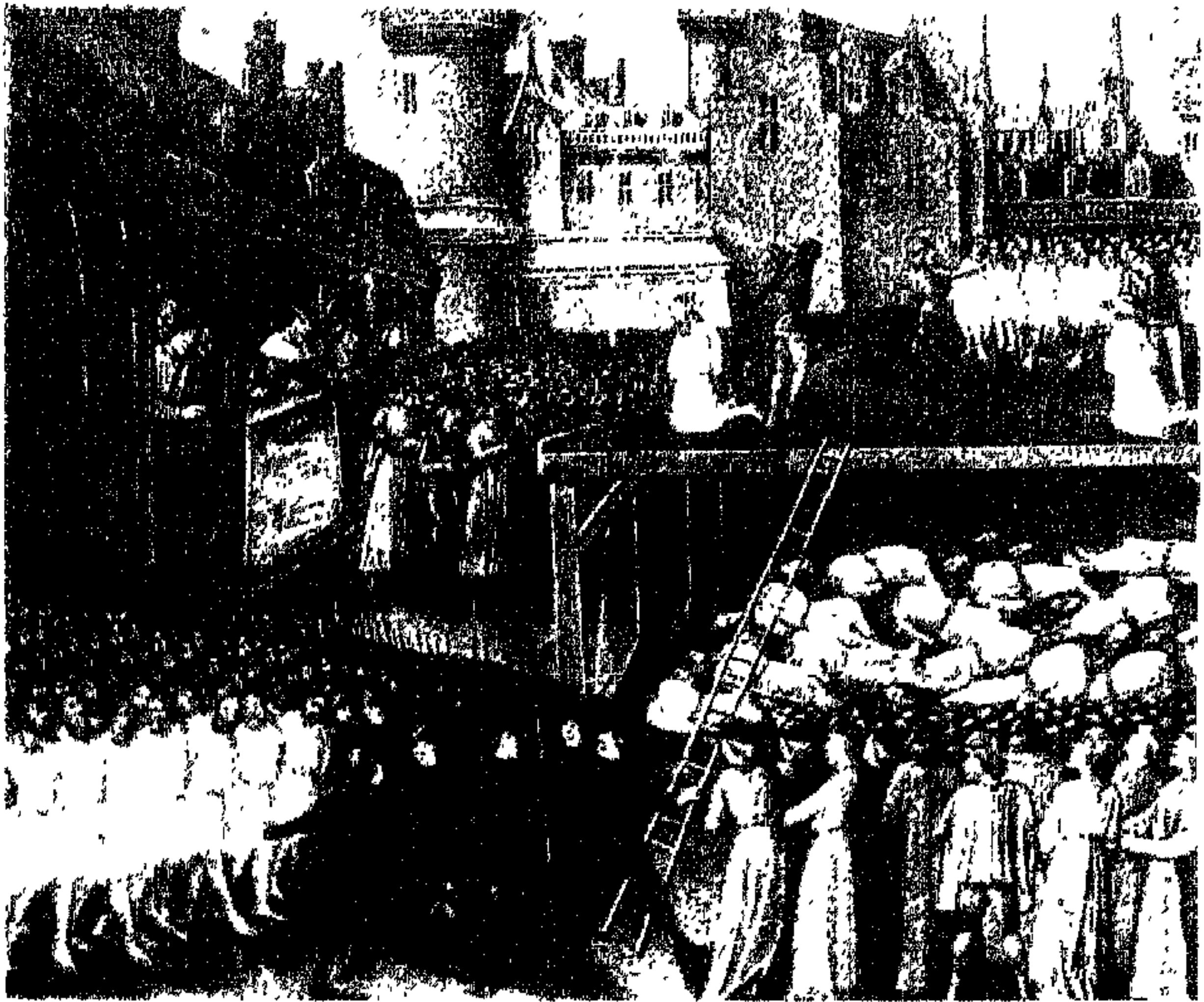
برنار ، رئيس دير كليرفو يبشر بالحملة الصليبية الثانية ، في
حضرة الملك لويس في فيزلاي في سنة ١١٤٦ ، منمنمة من مخطوطة
فرنسية (المكتبة الوطنية في باريس)



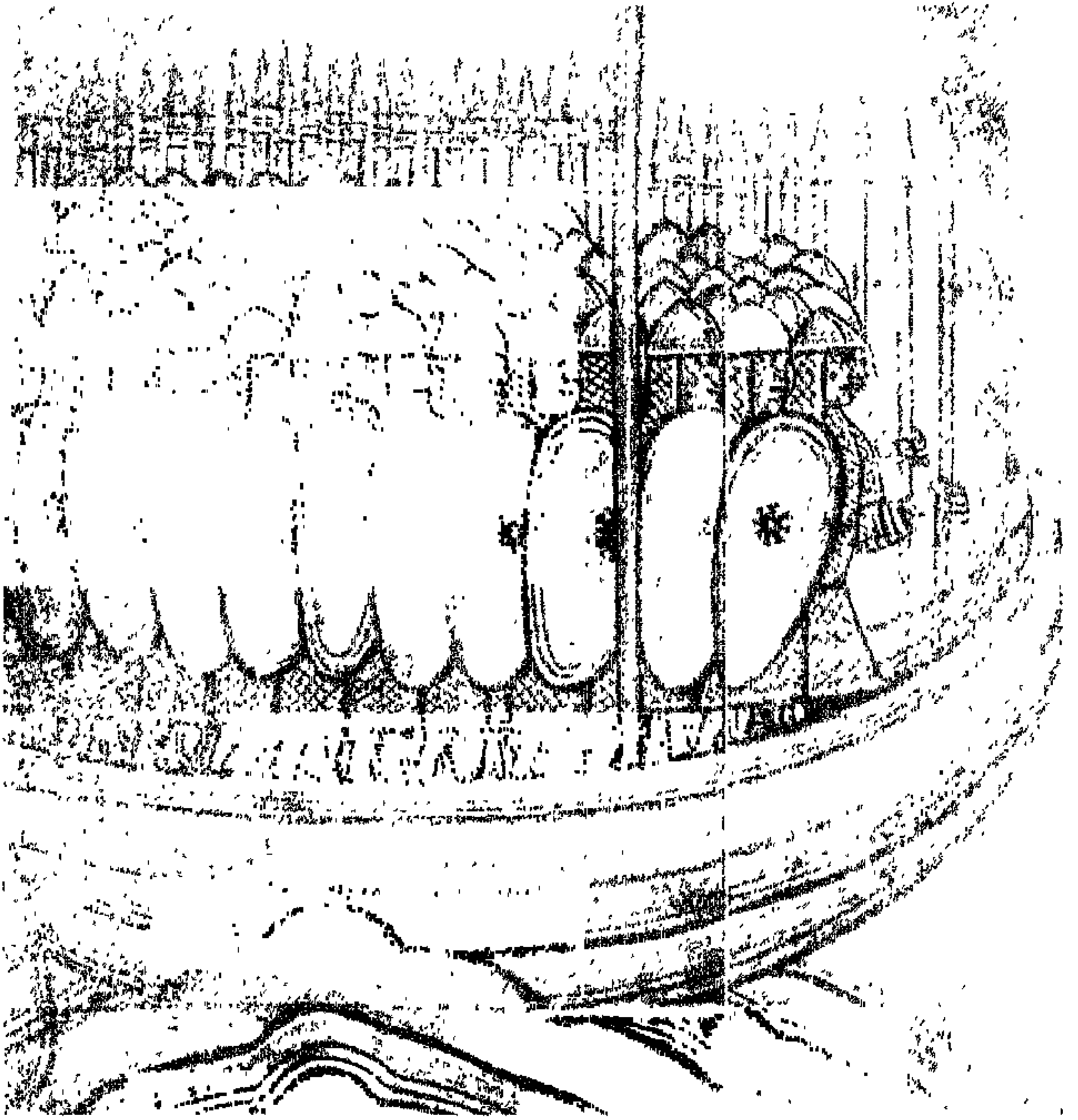
مشاهد من تاريخ الحملة الصليبية الثانية . في أعلى – لويس السابع ، ملك في فرنسا ، وكونراد الثالث (في الوسط) ، ملك ألمانيا . في أسفل – حصار الصليبيين لمدينة دمشق . منقولة من مخطوطة أخبار غليوم الصوري، (المكتبة الوطنية في باريس)



الامبراطور الالماني فردريك الاول بربروسا في لباس الصليبي
منسوخة من مخطوطة بروسلية (مكتبة الفاتيكان)



مشهد من تاريخ الحملة الصليبية الثالثة ، قتل
الرهائن المسلمين بالجملة في عكا سنة ١١٩١ بأمر
من الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد . منقولة من
دليل لاحد الحجاج (القرن الخامس عشر)



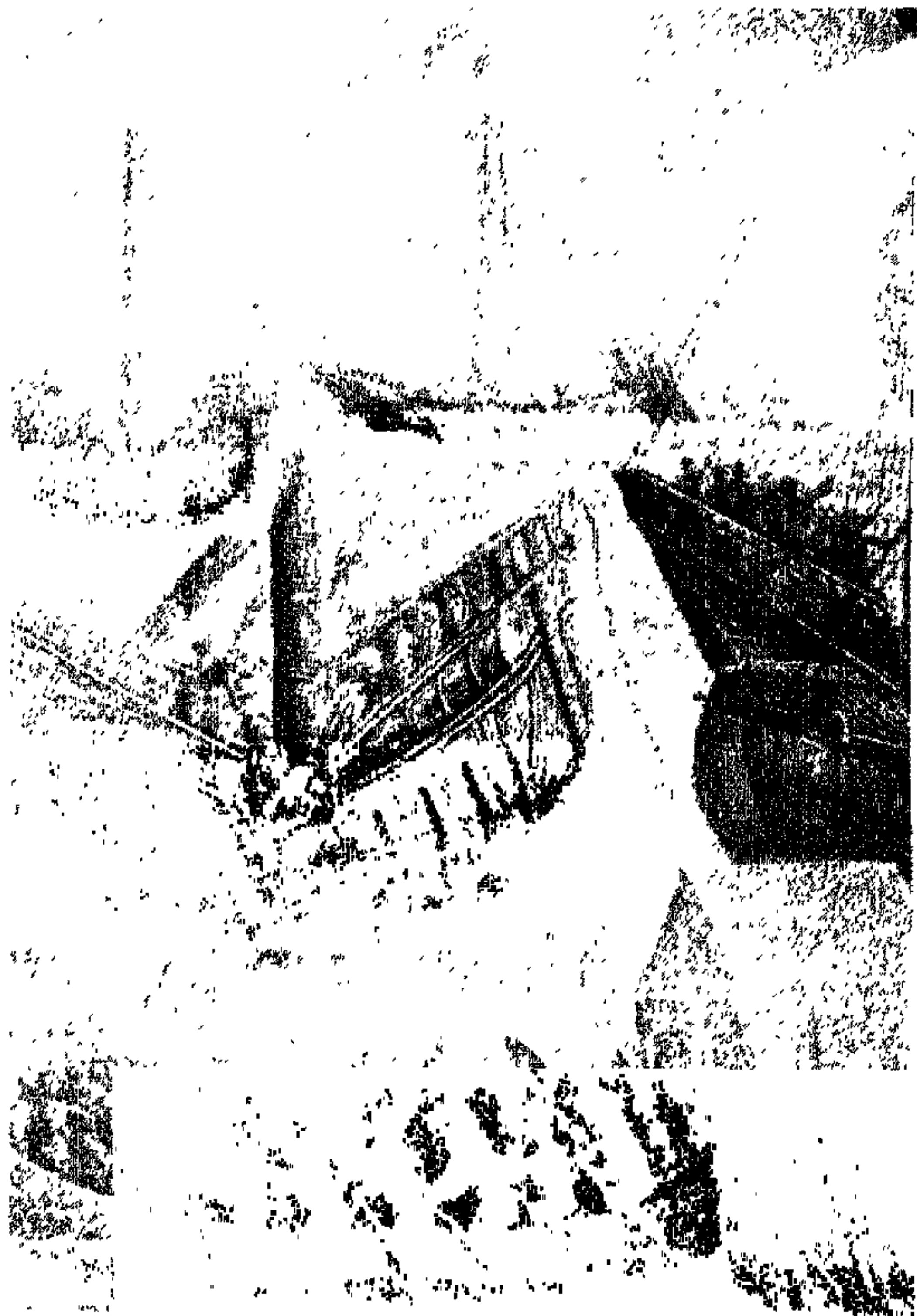
صليبيون ذاهبون بحرا الى فلسطين . منمنمة
من مخطوطة فرنسية (المكتبة الوطنية في باريس)



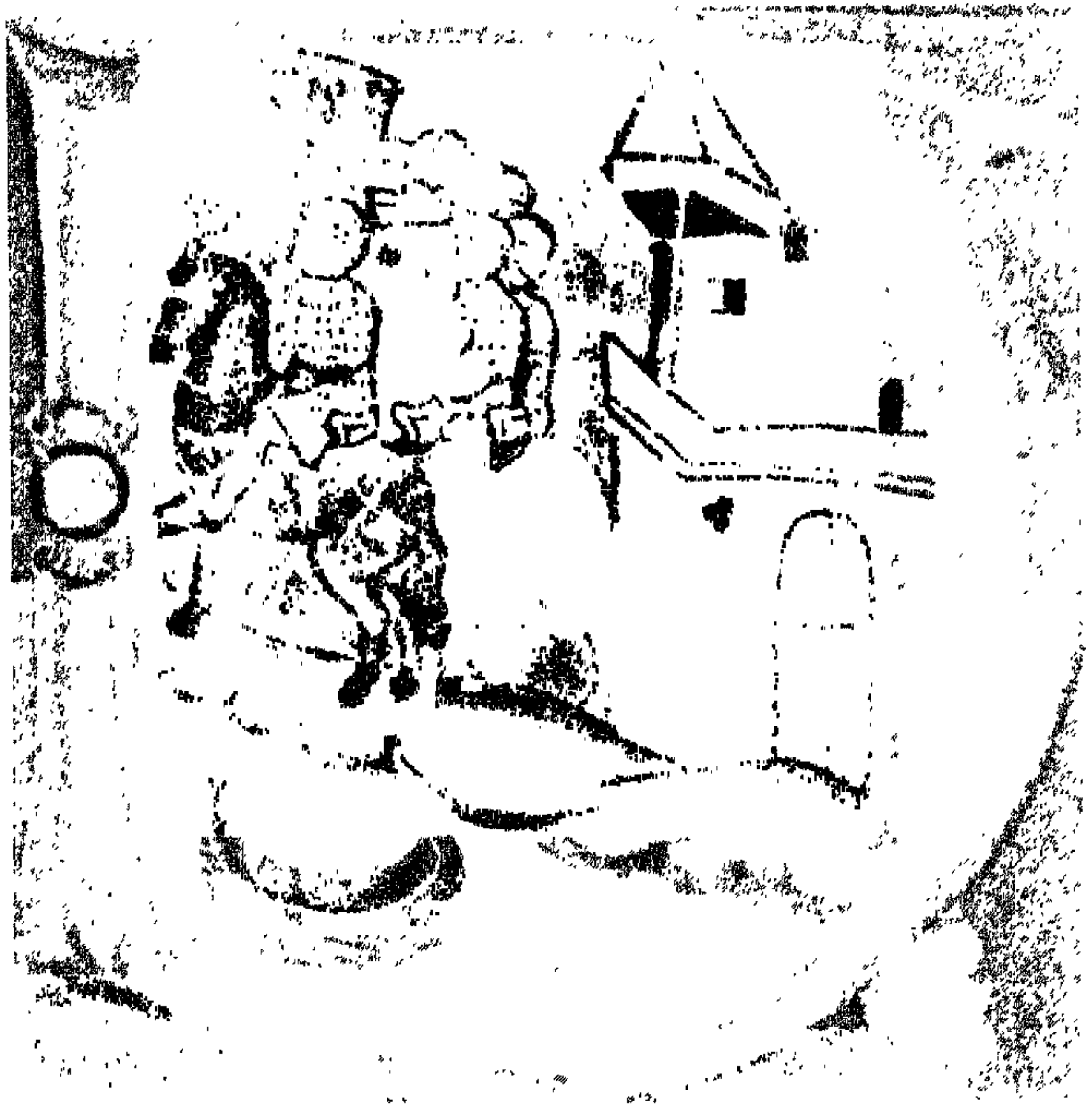
مشهد معركة يخوضها الصليبيون ضد خصومهم . مصرع الفرسان بالجملة . منمنمة من اناجيل صادرة في اوائل القرن الثالث عشر



منجنيق استعمله الفرسان بنجاح في حصار المدن . مستنسخة من مخطوطة من القرن الثالث عشر



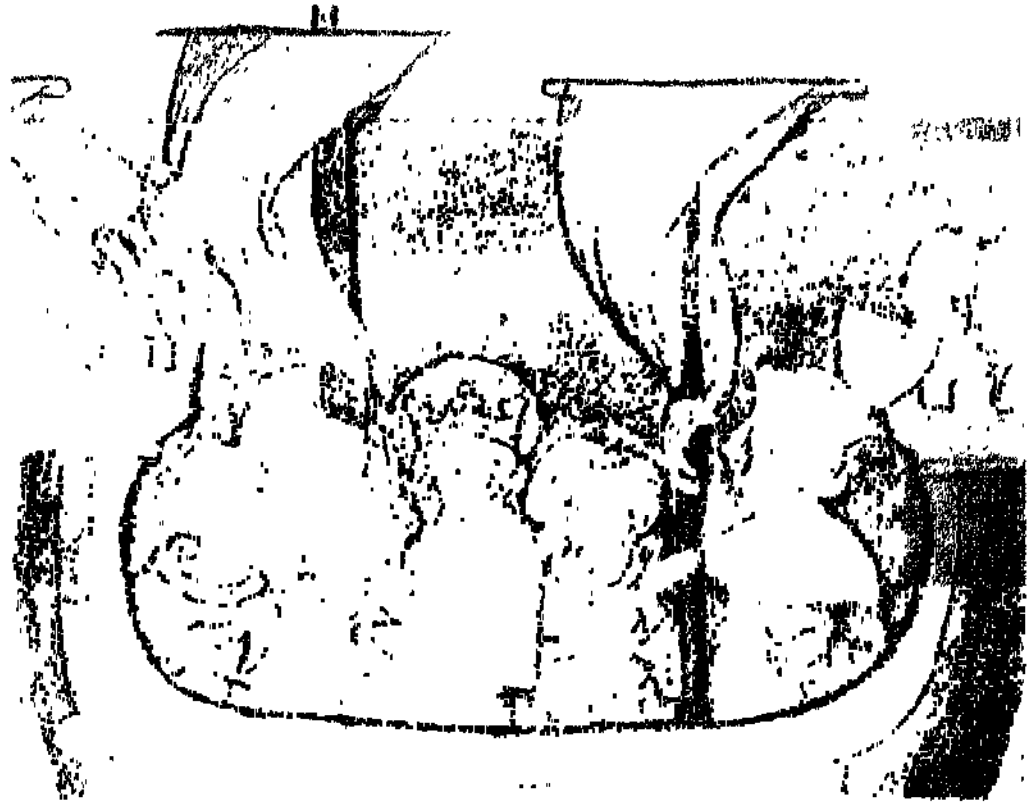
أسطول البندقية وصليبيي الحملة الرابعة قرب القسطنطينية (سنة ١٢٠٣)، منمنمة من مخطوطة قروسطية (المكتبة الوطنية في باريس)



صليبيو الحملة الرابعة يهاجمون القسطنطينية ، منسوخة من أخبار
أروسلمة (المكتبة الوطنية في باريس)



مشهد من تاريخ الحملة الصليبية السابعة سنة ١٢٤٨ .
لويس التاسع (القديس لويس) يغادر باريس . منقولة من مخطوطة فرنسية من اوائل القرن الرابع عشر



اسطول صليبي الحملة السابعة برئاسة لويس التاسع الى دلتا النيل (سنة ١٢٤٩) . منقولة من مخطوطة فرنسية (المكتبة الوطنية في باريس)



صليبيو الحملة السابعة يفتحون دمياط في ٦ حزيران (يونيو) ١٢٤٩ . منمنمة من مخطوطة فروسطية (المكتبة الوطنية في باريس)



وفاة لويس التاسع (القديس لويس) ، قائد الحملة الصليبية الثامنة ، في تونس (سنة ١٢٧٠) . منمنمة من مخطوطة فروسطية (المكتبة الوطنية في باريس)

استيلائه على القدس قد كانت ، فيما كانـــت ، سببا لتزيين تاريخ صلاح الدين في الغرب فيما بعد بشتى الاساطير التي تطرى شهامته غير العادية.
اما في الواقع ، فان اعتدال صلاح الدين قد املته الاعتبارات السياسية ؛ ذلك انه كان عليه ان يضم اراضي دول الصليبيين الى قوام الدولة المصرية ، ولم يكن من شأن شراسة الظافر الا ان تسيئ الى هذه القضية .

ولكن بعد فتح القدس ، والقضاء على مقاومة اواخر الفرسان الصليبيين في فلسطين ، حاول صلاح الدين عبثا ان يستولى على صور التي كان يشرف على حمايتها المركيز الايطالي كونراد دي مونفيرات الذي وصل في اواسط تموز (يوليو) ١١٨٧ من القسطنطينية . حاصر المسلمون المدينة من البر ومن البحر (فمن عكا وصل الاسطول المصري) ، ولكن المسلمين اضطروا الى التراجع في اوائل كانون الثاني (يناير) ١١٨٨ . كذلك لم يتمكنوا من اخضاع المراكز الرئيسية لسيادة الصليبيين في الشمال — اي طرابلس التي هرع الى نجدتها اسطول صقلية النورماني (زهاء خمسين سفينة) بقيادة الاميرال القرصان مرغريتون ، وانطاكية رغم ان قسمـا كبيرا من كونتية طرابلس وامارة انطاكيـــة تعرض للاحتلال . ونحو تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٨٨ استسلمت حاميـــة الكرك ، وفي نيســان (ابريل) — ايار (مايو) ١١٨٩ استسلمت حامية كراك دي مونريال . وكان حصن بلفور آخر حصن يسقط . ومذ ذاك صارت مملكة القدس بصورة كلية تقريبا في يد صلاح الدين . ولم يبق للصليبيين سوى مدينتي صور وطرابلس ، وبضعة استحكامات صغيرة وحصن الاوسبيتاليين المنيع كراك دي شيفاليه .

الحملة الصليبية الثالثة

ان نبأ سقوط مملكة القدس الذي وصل الى اوروبا الغربية قد كان بمثابة صاعقة في سماء صافية . فان البابا اوربان الثامن ، ما ان عرف بما حدث ، حتى توفي من وقع الصدمة . ودعا خليفته ، البابا غريغوريوس الثامن ، بمنشور بابوي بتاريخ ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١١٨٧ وزعه من فيرارا ، الكاثوليك الى حملة صليبية جديدة ، وامرهم بالصيام كل اسبوع في يوم الجمعة على امتداد خمس سنوات كما امرهم بالامتناع كليا في هذه الحقبة من الزمن عن اكل اللحم مرتين في الاسبوع . والدعوة الى الحرب الصليبية — وقد قام بها بيالغ الهمة الكاردينال انريكو من البانو — تلقفها البابا التالي كليمنت الثالث ، الذي حل بعد شهرين محل البابا غريغوريوس

الثامن . كان ينبغى دعم مكانة البابوية ، المتداعية بسرعة . ولاجـل ايقاظ الحماسة الدينية ، نذر اخلص خدم الكرسى الرسولى من عداد الكاردينالات بالتطواف مشيا على الاقدام فى عموم فرنسا وانجلترا والمانيا .

قامت الحملة الصليبية الثالثة من سنة ١١٨٩ الى سنة ١١٩٢ . واشترك فيها بوجه الحصر تقريبا الاقطاعيون الكبار والفرسان من بلدان اوروبـــا الغربية . ونحو اواخر القرن الثانى عشر صار الفرسان القوة الجماهيريـــة الاساسية فى الحركة الصليبية . كذلك اضطلعت بدور فعـــال ونشيط فى الحملة الصليبية الثالثة الدول الاقطاعية التى كانـت مصالحها التجارية فى الشرق قد اكتسبت مكانا مهما فى سياستها .

اخذت الاهداف الدينية من الحملات الصليبية تتراجـــع اكثر فاكثر الى المؤخرة . وعلى العكس اخذت مطامع الفتح عند المشتركين فيها تبرز اكثر فاكثر من خلال الغلاف الصوفى الذى حاولت الكنيسة الكاثوليكية ، كما من قبل ، ان تموه به الحركة . وقد اعترف رئيس الاساقفة غليوم الصورى بمرارة فى مؤلفه «تاريخ الافعال فى اراضى ما وراء البحار» — وهو اول تاريخ كامل عن الحروب الصليبية وعن مملكة القدس (حتى سنة ١١٨٤) — بانه لا يجد بين اعمال «امرائنا اى شيء يعتبر الحكيم جديرا بوصفه ، ويعود على القارئ بالرضى والارتياح ، ويشرّف الكاتب» . وقد صور غليوم الصورى صليبيى اواخر القرن الحادى عشر بصورة مثالية ، وابرز حماستهم الدينية وانضباطهم وشجاعتهم فى المعارك ، وعارض بهم معاصريه المتنعمين والمخنثين الغارقين فى الشؤون الدنيوية ، ولاسيما اولئك الذين تأقلموا فى الشرق ؛ فهم ، كما قال غليوم الصورى ، «على نحو بحيث انه اذا حاول احد ان يصف بكل دقـــة اخلاقهم ، والاصح القول ، عيوبهم المريعة ، لناء من وفرة المواد ، ولكتب ، بالاحرى ، حسبما يبدو ، هجاء وليس تاريخا» .

ولكن اذا كانت دوافع الفرسان الدينية قد اخذت تتضاءل ، فان سعى دول اوروبا الغربية الى السيادة فى منطقة البحر الابيض المتوسط اصبح من أهم الحوافز الداخلية الدائمة للحملات الصليبية منذ اواخر القرن الثانى عشر . وهذا السعى رص فى الظاهر ، وبقدر معين ، صفوف فرسان الغرب ، وعارض بلدان اوروبا بالشرق . ولكنه اسفر كذلك عن نشوء العداوة بين دول اوروبا الغربية ذاتها . ان «وحدة العالم الغربى» التى كانت وهمية ، من حيث جوهر الامر ، حتى فى المشاريع الصليبية الاولى ، والتى يشير اليها ببالغ الجهد الباحثون البرجوازيون ، ولاسيما منهم الباحثون الكاثوليك ، فى النصف الثانى من القرن العشرين ، رغبة منهم فى ان يرجعوا بالتالى الى الازمنة

القديمة مصادر «الاطلسيـــة» وان يصوروا «الحضارة المسيحية الغربية» بصورة حضارة لها تقاليد قديمة جدا ، اخذت تنهار بكل جلاء فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر . فان المرتبـــة الاولى فى الحملات الصليبية بدأت تشغلها المنافسة بين الدول الاوروبية الغربية فى صراعها من اجل الهيمنة الاقتصادية والعسكرية والسياسية فى منطقة البحر الابيض المتوسط علما بان هذه المنافسة كانت تتخذ احيانا طابعا فى منتهى الضراوة .

وكل هذا ظهر بوضوح فى زمن الحملة الصليبية الثالثة .

فقد استقبلت الجماهير الشعبية دعوات باباوات روما بقدر من التعاطف اقل بكثير من ذى قبل . وعندما فرضت فى اوائل سنة ١١٨٩ فى انجلترا ثم فى فرنسا اتاوة عامة قدرها عشر جميع المداخيـــل ، لاجل تغطية حاجات الحملة — عشر صلاح الدين — استثار ذلك بين سواد الناس الاستيـــاء والغضب . وطفق الناس يستقبلون جباة عشر صلاح الدين بالحجارة ، ولذا كان لا بدّ من الغائها كليا فى فرنسا . كذلك تفاقم التذمر من الضريبة بين رجال الدين اذ رأوا فى فرض مثل هذه الضريبة تطاولا على امتيازاتهم . وكان رجل الكنيسة والكاتب الفرنسى البـــارز بيار دى بلوا يعتبر : «اذا فرض الامراء بحجة حج جديد . . . دمغة العبودية على كنيسة المسيح ، مطالبينها بالضريبة ، فانه يجب على ابن الكنيسة البار ان يموت ولا يخضع» . وهنـــا وهناك اثار عشر صلاح الدين بعض الاستياء حتى فى اوساط الفرسان . وان الفارس والشاعر كونون دى بيتون الذى اشترك فيما بعد فى الحملة على الشرق ، اتهم اصحاب الحول والطول فى هذا العالم اتهاما حادا بانهم «اخذوا الصليب لقاء نقود وانهـــم يفرضون العشر على رجال الدين وسكان المدن والاقنان . ان دافعهم ليس الايمان بل الطمع» . اما دافع هذه الاقوال ، فهو الموقف السلبى من مشروع الحملة الصليبية ذاته ، وزوال الايمان السابق ، العام كليا تقريبا ، فى نزاهتها وقدرتها على الانقاذ .

لقى نداء روما الصليبى الدعم بصورة رئيسية فى الاوساط الاقطاعية ، — جزئيا بين الفرسان الصغار والمتوسطين ، وفى الاوساط الحاكمة فى الممالك الاقطاعية الغربية ، وكذلك فى اوساط الاشراف فى مدن ايطاليا الشمالية . وفى سنة ١١٨٨ انطلق الى سوريا اسطول صقلية النورمانى التابع للاميرال القرصان مرغريتون ، الذى سبق ان ذكرناه ، كما انطلقت بضع عشرات من السفن من بيزا وجنوه .

وفى انجلترا وفرنسا والمانيا ، طفقوا يؤلفون قوات برية . وقرر ملوك هذه البلدان — هنرى الثانى بلانتاجينه وفيليب الثانى ، الذى لقب فيما بعد

اوغست ، والامبراطور فريدريك الاول بربروسا اخذ الصليب . وكان لكل منهم اسبابه الخاصة للاشتراك فى الحملة .

سعى هنرى الثانى (١١٥٤-١١٨٩) على امتداد كل عهده الى كسب مواقع ثابتة فى منطقة البحر الابيض المتوسط لدولة انجو . وبعد الحملة الصليبية الثانية بوقت قصير ، تزوج فى سنة ١١٥٢ من ايليونور داكيتين التى طلقت زوجها لويس السابع وضم على هذا النحو الى ممتلكات سلالة بلانتاجينه فى فرنسا - كونتية انجو وكونتية بين - دوقية اكيتين التى كانت مدينة مرسيليا ضمن حدودها . وهذه الدوقية كانت تضطلع بدور كبير فى التجارة مع المشرق ، التى مارستها انجلترا ذاتها ايضا . وكانت السفن الانجليزية تبحر فى المعتاد فى البحر الابيض المتوسط ، اما بمحاذاة سواحل فرنسا واسبانيا ، - نحو جبل طارق ، واما فى عرض البحر حتى بوردو ؛ وهناك كانوا ينقلون مشحوناتها الى المراكب النهرية ، المنطلقة على نهر غارون الى تولوز . وهنا كانوا يشحنون البضائع الانجليزية على مواشى الجر الى ناربون ، حيث كانت تستقبلها السفن المتجهة الى الاسكندرية والموانئ السورية واللبنانية . وهذا الطريق هو الذى كان يمر عبر اراضى دوقية اكيتين .

فلا غرابة اذا كان هنرى الثانى قد حاول تأمين نفوذ انجلترا فى جميع البلدان الواقعة على البحر الابيض المتوسط . وكانت الزواجات السلالية وسيلة مهمة فى سياسته فى منطقة البحر الابيض المتوسط والى هذه «الديبلوماسية الزواجية» جر اولاده جميعهم تقريبا . فقد زوج احدى بناته ، ايليونور ، من ملك قشتاله ، الفونس الثامن ، وزوج بنتا اخرى ، هى حنّة ، من ملك صقلية ، غليوم الثانى (لم يسفر الزواج عن اولاد ، ولذا لم يكن فى صقلية وريث انجليزى لعرشها) ؛ وابنه البكر ، ريشار ، خطب له ابنة سانتشو السادس ، ملك نافار ، الاميرة بيرنجيز .

كذلك لم يكن هنرى الثانى يأنف من الأمل فى الاستيلاء على مملكة القدس . فاليها ايضا كانت تمتد خيوط قرابة بيت انجو من سلالة بلانتاجينه ؛ ذلك ان ملك القدس فولك (١١٣١-١١٤٣) كان ايضا كونت دانجو ، وكان ابنه جوفروا بلانتاجينه قد تزوج فى حينه من ماتيلدا ابنة ملك انجلترا هنرى الاول ، فكان فولك بالتالى جد هنرى الثانى . وليس عبثا كان ملك انجلترا الذى فعل الكثير لتوطيد التمركز السياسى فى بلده ، يهتم دائما بممتلكات اقاربه فيما وراء البحار . وغير مرة دفع مبالغ نقدية كبيرة لاجل حماية الارض المقدسة من «الكفار» ، كما كان قد اتفق ، قبل

سقوط القدس ، تارة مع لويس السابع ، وطورا فيما بعد ، مع صهره هو غليوم الثاني ملك صقلية ، بشأن الحملة الصليبية .

ان هنري الثاني ، الذي كان يدغدغ من زمان بعيد فكرة بسط سيطرة دولة آل بلانتاجينه الانجليزية الفرنسية على العالـــم اجمع ، قد وافق في الحال على الاشتراك في الحملة الصليبية التي اطلقت روما الدعوة اليها ، لأن حربا ناجحة في الشرق كانت تبشر بتوسيع منطقة نفوذ دولة انجو في البحر الابيض المتوسط توسيعا كبيرا .

كذلك اثرت جهود البابويـة في ملك آخر في ذلك الزمان كان يحبك خطط السيطرة العالمية هو الامبراطور الالمانـي فريدريك الاول بربروسا (١١٥٢-١١٩٠) ، ذلك الذي اشترك في الحملة الصليبية الثانية ، حين كان لا يزال دوق شوابيا . الا ان هذا الحاكم ذا المزاج العدواني المتطرف والمحب للقتال لم يتعلم شيئا من التجربة المرة والمخزية (ومما لـه دلالته ان النازيين الالمان سموا باسمه ، بعد مرور مئات السنين ، خطتهم الشريرة الحاقدة للاعتداء على الاتحاد السوفييتي) .

وكان اشتراك فريدريك الاول في الحملة الصليبية الثالثة ينبع بصورة منطقية من كل السياسة العدوانية الاغتصابية التي سلكها آل شتاوفن في جنوب اوروبا . ولقد امضى فريدريك الاول بربروسا زهاء نصف زمن حكمه في حروب من اجل بسط السيادة على مدن لومبارديـــا . وقد مني هناك بالهزيمة . وحين هزمه اتحاد المدن في معركة لنيانو سنة ١١٧٦ ، اضطر الى الاستسلام فيما بعد امام الكرسي الرسولي ايضا ووقع في سنة ١١٧٧ صلح البندقية المذل له . وحين ملك روعه بعد الهزيمة ، وجه انظاره الى ايطاليا الجنوبية وصقلية . فقد كان يدرك بوضوح اهمية صقلية في تجارة المشرق ، وتلك المنافع التي يبشر بها امتلاك هذه الجزيرة . وعبرها كانت تمر اقصر طريق من اوروبا الى افريقيا الشمالية . وفي ثغور صقلية المناسبة — مسينا ، باليرمو ، كاتانيـا — كانت تتوقف جميع سفن البلدان الغربية ، الموسوقة بالمشحونات الى المشرق ذهابا وايابا . وكانت السيادة على صقلية تؤمن لحكامها مصادر ضخمة لواردات الخزينـــة ؛ وكانت دول كثيرة معنية تقع في تبعية حكام صقلية .

ولاجل امتلاك صقلية وايطاليا الجنوبية ، لجأ فريدريك الاول ، مثل هنري الثاني ، الى ديبلوماسية الزواجات السلالية ؛ ففي سنة ١١٨٦ ، اقيمت في ميلانو احتفالات زواج ابنه ووريثه ، الامبراطور هنريخ السادس فيما

بعد ، من وريثة عرش صقلية ، كونستانسيا . وبذلك ضمن فريدريك الاول بربروسا انتقال صقلية الى سلالة شتاوفن .

واخيرا كانت بيزنطية تشغل مكانا مهما فى مشاريع الامبراطور الالمانى المغامرة ؛ وكان يسمى بقايا الامبراطورية الرومانية الشرقية باحتقار وازدراء «اليونان الصغيرة» . ويذكر مؤرخه البلاطى الاسقف اوتون من فريزينغون فى سيرة حياة فريدريك الاول الذى كان ابن اخيه ، فيما يذكر ، ان الامبراطور قد نعت نفسه غير مرة «سلطان العالم» واعلن على المكشوف عن عزمه الراسخ على توسيع حدود الامبراطورية الالمانية حتى حدود الامبراطورية الرومانية القديمة .

صحيح ان مبادرة الحملة الصليبية قد انطلقت من خصم سلالة شتاوفن السياسى فى الماضى غير البعيد ، البابا ، ولكن الحملة على الشرق كانت توفر – على الاقل كما كان من الممكن ان يبدو – فرصة مناسبة لاجل تحقيق مشاريع بربروسا الكلية الكونية الهذيانية . وقد نظر فريدريك الاول بربروسا الى المبادرة الباباوية نظرة ايجابية ؛ فان الاوساط الاقطاعية فى المانيا الجنوبية على الاغلب ، التى كانت تطلعاتها تحدد سياسته فى كثير من النواحى ، كانت لها مصلحة مباشرة فى الفتوحات فى الشرق . ولهذا السبب أخذ فريدريك الاول الصليب فى اواخر آذار (مارس) ١١٨٨ فى غوفتات ماينتس ، وذلك بصرف النظر عن عمره (كان يناهز الستين) .

وكان الملك الفرنسى فيليب الثانى (١١٨٠–١٢٢٣) الملك الثالث الذى اعرب عن رغبته فى السفر الى ما وراء البحار .

الا ان هذا المشروع شغل فرنسا ، بالطبع ، اقل بكثير مما شغل انجلترا والمانيا . فان ملكية الكابيتيين كان يعود لها فى ذلك الزمان مكان متواضع جدا فى لعبات الغرب السياسية . وفيليب الثانى الذى ورث العرش من لويس السابع لم يكن سوى سيد اسمى لتابعه الاقوى منه بكثير وعدوه اللدود هنرى الثانى بلانتاجينه .

كانت اراضى المملكة الفرنسية تقتصر فعلا على ممتلكات التاج ، ولذا لم يكن فيليب الثانى فى ذلك الوقت بعد ، عمليا ، ملكا حتى لنصف فرنسا . فان مقاطعاتها الغربية ، المطلة على المحيط الاطلسى كان يملكها الملوك الانجليز ؛ والملوك الانجليز كانوا ايضا كونتات انجو (مقاطعة من فرنسا) ، وعليهم كانت تتوقف كذلك الاراضى الجنوبية من فرنسا (كونتية تولوز) ؛ وكان قسم آخر من الاراضى الفرنسية – مملكة بورغونيا – خاضعا للامبراطورية الالمانية .

وكانت الواردات من ممتلكات التاج المفصولة عن البحر من جميع الجهات ، زهيدة جدا ، وهذا ما حمل فيليب الثاني على الاشتراك فى الحملة الصليبية . وكان هذا الملك منذ شبابه سياسيا مراوغا وداهية وحاذقا ، يعرف كيف يستغل الظروف . وكانت الحملة على الشرق تبدو له وسيلة مناسبة لاصلاح شؤون السلطة الملكية ، اى رفع مكانتها وسمعتها فى داخل البلد وفى المسرح الدولى ، وتكديس القوى والموارد الضرورية لاجل تسديد ضربة ماحقة الى العدو الرئيسى — سلالة بلانتاجينه — والشروع فى حل المهمة الاساسية التى تواجه سلالة الكابيتيين — اى جمع الاراضى الفرنسية وتوحيدها .

كذلك مفاهيم الشرف الاقطاعى لم تسمح للملك فيليب الثانى بان يواجه مبادرة البابا بعدم الاكتراث ، خصوصا وانه توضح فيها على الفور الدور البارز لتابع التاج الفرنسى هنرى الثانى . وهكذا استرشد الملك الفرنسى فى المقام الاول بدوافع المكانة والدوافع الكاثوليكية .

فى كانون الثانى (يناير) ١١٨٩ ، تلاقى عدوا الامس القريب فى جوار جيزور وتبادلا قبل السلام ؛ فقد كان ينبغى تامين الطمأنينة والهدوء فى دولتيهما اثناء الحملة . واتفق الملكان على السفن فى آن واحد ومعا . وبمثال الملكين اقتدى اتباعهما من على كلا جانبى المانش . واتخذ قرار بان يخيط الفرنسيون على اثوابهم صلبانا حمراء ، والانجليز صلبانا بيضاء والفلمنيون صلبانا خضراء . وكانت قد بدأت التجمعات لاجل الحملة ، واذا الحرب تنشب فجأة بين الملكين . اما الذريعة للحرب ، فهى ان الابن البكر للملك هنرى الثانى ، ريشار ، كونت بواتو ودوق اكيتين ، رفض ان يتزوج من اخت الملك فيليب ، اليس ، بحجة ان الملك الانجليزى قد اغواها . الا ان فيليب الثانى ، الفنان فى المؤامرات السياسية ، استطاع ان يستحث الابن على الاب ، واذا كل من الجانبين يمتشق السيف ، وتتوقف الحملة الصليبية . وفى ٦ تموز (يوليو) ١١٨٩ توفى هنرى الثانى . وحل محله على العرش ريشار الذى لقب فيما بعد «قلب الاسد» وصار البطل الرئيسى فى الحملة الصليبية الثالثة .

وهكذا لم تكن تتسم الاعتبارات الدينية بالنسبة لزعماء هذا المشروع الرئيسيين الثلاثة جميعهم باهمية جوهرية نوعا ما . فقد كانت الحملة الصليبية ١١٨٩-١١٩٢ منذ بادئ بدء مجرد حملة فتوحات ، وكان الدور القيادى فيها يعود بمعظمه الى سلطة الدولة . وهناك سمة مميزة طريفة : ان فريدريك الاول قد امر باعطاء كل من الفقراء الذين اعربوا عن الرغبة فى

الاشتراك فى الحملة ٣ ماركات ؛ اما الذين لم يكونوا يملكون هذا المبلغ ، كما كتب مدون الاخبار ، فقد «منعهم تحت طائلة الحرم من السفر ، لعدم رغبته فى ان يشكل العامة التى قلما تصلح للحرب عبئا على العساكر» .

الوضع فى البلقان والنزاع مع بيزنطية . مصرع فريدريك بربروسا واخفاق الفرسان الالمان

لم يهتم زعماء الفرسان الصليبيين برسم خطة مشتركة للحملة الحربية ، وتصرفوا منذ بادىء بدء بصورة منفردة احدهم عن الآخر .

فى ١١ ايار (مايو) ١١٨٩ تحركت القوات الالمانية برئاسة الامبراطور من ريغنسبورغ قبل غيرها . وكانت تتألف من قرابة ٣٠ الفا من الفرسان والمشاة . وقبل بداية الحملة كان فريدريك الاول قد اجرى مفاوضات ديبلوماسية مع المجر وبيزنطية ؛ فقد اراد ان يضمن عبور قواته فى اراضيهما بأمان . وكانت نتائج المفاوضات ، على ما بدا ، مؤملة . فان الملك المجرى بيلا الثالث (١١٧٣-١١٩٦) قد وافق على مرور الصليبيين عبر بلاده وحتى سمح لهم بشراء المأكولات . وبالفعل عبر الالمان المجر بسلامة ، دون تجاوزات كبيرة . كذلك امكن الاتفاق مع الرسل البيزنطيين الذين وصلوا الى ريخستاغ نورمبرغ فى كانون الاول (ديسمبر) ١١٨٨ (برئاسة موظف كبير هو اللوغوفت دروم يوحنا دوقاس) ؛ فقد اكد الروم ان بوسع الجيش الالمانى ان يعبر الممتلكات البيزنطية بلا عائق ، وان يتلقى المأكولات والاعلاف لقاء ثمن مناسب ، ولكنه غير رفيع جدا . كذلك فريدريك الاول اكد بدوره للسفراء بالقسم (وقد حمل القسم المناسب باسمه رئيس اساقفة فورتسيبورغ ، دوق شوابيا والنمسا) انه ليس لبيزنطية ان تخشى شيئا من المقاتلين الالمان . ولكن رغم ان الاوساط الحاكمة فى امبراطورية القسطنطينية * اقدمت على الاتفاق مع فريدريك الاول ، الا ان الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس (١١٨٥-١١٩٥) سرعان ما شرع يقيم امام الصليبيين شتى الحوائل والعوائق . ففى القسطنطينية كانوا يعرفون عن نزعة بربروسا الى القتال ولم يكونوا يثقون كثيرا فى وعوده .

---

* هنا وفى الاحوال المماثلة الاخرى نستعمل مصطلحى «امبراطورية القسطنطينية» و«امبراطورية الروم» اللذين استعملهما مدونو الاخبار اللاتين على نطاق واسع للاشارة الى بيزنطية .

وكانت تتوفر لحكومة اسحق الثانى انجيلوس جميع المبررات والدوافع للقلق . فان علاقات فريدريك الاول الوثيقة مع عدو بيزنطية المباشر فـي الشرق قلج ارسلان الثانى ، سلطان قونية السلجوقى (١١٥٥-١١٩٢) قد اثارت الشبهات . فقد تبادل الامبراطور الالمانى معه السفراء ، وحتى اخذ منه وعودا تتيح الأمل فى ان يتمكن الفرسان الالمان من عبور آسيا الصغرى بلا عائق : ذلك ان قلج ارسلان الثانى كان يعادى صـــلاح الدين الذى كان الصليبيون يعتزمون قهره .

وارتسمت اخطار جدية على بيزنطية من صوب الغرب ايضا ، من اوروبا الجنوبية الشرقية . فقبل بداية الحملة الصليبية بزمن وجيز ، فـى ١١٨٥-١١٨٧ ، ثار البلغار بنجاح ، بقيادة البوليارين (النبيلين) آسـن وبيوتر ، على النير البيزنطى . والى الشمال من جبال البلقان ، تشكلت دولة مستقلة ، اسميت بالمملكة البلغارية الثانية . كذلك كانت صربيا تسيـــر نحو بلوغ الاستقلال .

ولو اتحد حاكما بلغاريا وصربيا مع بربروسا ، لساءت احوال بيزنطية . والحال كان هذا الاحتمال واقعيا جدا . ففى عهــد ريخستاغ نورمبرغ جرت مفاوضات مع سفراء الجوبـــان (الحاكم) الصربى الاكبر اسطفان نيمانـــى (١١٥١-١١٩٥) . وفى الايام الاخيرة من شهر تموز (يوليو) ١١٨٩ ، عندما وصل الصليبيون الالمان الى مدينة نيش الصربية تقابل الامبراطور الالمانى شخصيا مع الجوبان الاكبر . وفى هذه المدينة ايضا جرت مفاوضات مـــع سفراء البوليارين البلغاريين آسن وبيوتر . وكانت العلاقات بيـــن بلغاريا وصربيا علاقات ودية . كل هذا خلق فى القسطنطينية حذرا من فريدريـــك الاول له مبررات عديدة . فقد كانوا يعتبرون هنا ان موضـوع المفاوضات فى نيش لم يكن من الممكن ان يكون سوى تحالف الامبراطورية الالمانية مع صربيا وبلغاريا ضد بيزنطية . الا ان هذا لم يكن يتطابق البتة مع الواقع . فان فريدريك الاول بربروسا قد تهرب من التحالف ، ولكنه هو الذى حرض بالفعل حكام الدولتين السلافيتين على امبراطورية الروم .

ان تقدم الفرسان الالمان فى اراضى البلقان قد رافقته اعمال العنـــف والاجتياح والنهب من جانب الصليبيين ، ولذا كانت الحملة بالنسبة للسكان المحليين بمثابة عدوان واقتحام معاد . والحال ، بقـــى الفرسان فى الارض البلغارية اكثر من ستة اشهر (من صيف ١١٨٩ الى الربيع الباكر من سنـــة ١١٩٠) . وفيما بعد افاد الكاهن الالمانى ابرهارد ، المرســل الى المجـــر بمهمة ديبلوماسية ، فى تقريره الى الامبراطور ، انه رأى ، اثناء مروره فى

بلغاريا ، جميع قبور الصليبيين الذين ماتوا فى الطريق ، منبوشة ؛ وكانت جثثهم مرمية من التوابيت ومبعثرة على الارض . ثم ان مدونى الاخبار اللاتين ، وفى المقام الاول بينهم مؤلف «تاريخ حملة الامبراطور فريدريك» المنسوب فيما مضى الى الكاهن انسبرت ، يروون بدورهم ان «قطاع الطرق» - الصرب والبلغار - كانوا يهاجمون الفرسان بين الفينة والفينة ويقتلونهم ، وينتزعون منهم خيولهم وعرباتهم . الا ان هذه الاعمال كانت تعبيرا عفويا عن غضب الشعب على جموح النهابين ذوى الصلبان المخيطة على البستهم .

وبالطبع ، كان تحقيق التحالف مع قائد الصليبيين الالمان فى هذه الظروف امرا عسيرا جدا على البوليارين البلغاريين وحتى موضع اشكال ، ولكنهما اتصلا غير مرة مع ذلك بالامبراطور فريدريك الاول ؛ فقد كان بيوتر وآسن يحسبان ان بلغاريا ستتمكن ، فى حال نشوب حرب بين الامبراطورية الالمانية والامبراطورية البيزنطية من توطيد استقلالها الذى نالته للتو .

ولكى نفهم كليا موقف بيزنطية من الصليبيين الالمان ، يجب ان ناخذ كذلك بالحسبان ان الاوساط الحاكمة فى الامبراطورية المستضعفة لم تكن تعتزم ، رغم وضع الامبراطورية الداخلى والخارجى الشاق جدا ، ان تستبعد القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط من مجال بصرها . ورغم ان نفوذ بيزنطية فى هذه المنطقة قد تقوض كثيرا فى اواخر القرن الثانى عشر بفعل مدن ايطاليا الشمالية التى توغلت فى مرافىء سوريا ولبنان وفلسطين ، وبفعل نورمانيى صقلية الذين تسربوا حتى الى اليونان وحتى استولوا فى سنة ١١٨٥ (لفترة من الوقت) على اكبر مدينة بيزنطية بعد القسطنطينية ، هى مدينة سلانيك ، بقيت القسطنطينية مع ذلك مركزا مهما لتجارة المشرق . ولم يكن بوسع بيزنطية ان تبقى عديمة الاكتراث بنضال الدول الغربية من اجل الهيمنة فى البحر الابيض المتوسط . وكانوا فى القسطنطينية يعتبرون ان الصليبيين قد انتهكوا حقوق الامبراطورية البيزنطية فى منطقة سوريا ولبنان وفلسطين ، هذه الحقوق التى كرسها واثبتها التاريخ نفسه .

ولجميع هذه الاسباب انتهجت الحكومة البيزنطية نهجا معاديا للصليبيين . فقد اقاموا فى وجههم شتى العوائق والموانع ؛ ولم يقدموا لهم المؤن التى وعد بها اسحق الثانى انجيلوس . والطرق التى سار عليها الصليبيون كانت شبه مدمرة ؛ فان خيول الفرسان المدرعين كانت تنزلق وتسقط ارضا ، وتتكسر قوائمها . وكانت فصائل الروم المسلحة تغلق

المعابر الجبلية . وكان الامبراطور يستبقى فى عاصمته افراد البعثات التى كان يرسلها فريدريك الاول اليها من الطريق . بل انه زج فى السجن بافراد البعثة الاولى . وكان مزاج العداء يتبدى فى لهجة رسل الامبراطور البيزنطى الى امبراطـــور الامبراطورية الالمانية (او ، كما كانـــت تسمى رسميا ، الامبراطورية «الرومانيـــة المقدسة») : فقد كان يتجنـــب كليا تلقيبه «بالامبراطور» وكان يخاطبه بوصفه «ملك المانيا» .

ثم ان الفرسان الالمان اثاروا بدورهم كره السكان المحليين بما اقترفوا من اعمال السرقة والنهب والعنف . ففى تراقيا احـــرق الصليبيون فى البدء ضواحى فيليبوبول (بلوفديف حاليا) ، واحتلوا المدينة عمليا فى اواخر آب (اغسطس) ١١٨٩ (فقد نسب الى انسبرت انه كتب : «تصرفنا فيها كأنمـــا فى مدينتنا بالذات») . وكانوا يهاجمـــون المدن والقرى البلغارية عـــلى المكشوف (وكانت تراقيا لا تزال تخص بيزنطية آنذاك) ، ويقتلون السكان ، ويمحون المساكن من على وجه الارض ، ويحرقون الكنائس . ويتباهى مدونو الاخبار الالمان بالغنائم الوفيرة التى نهبها الفرسان الالمان فى فيرويا (حاليا ستارا زاغورا) ، وسكريبنسيون (اسينوفغراد) وبرميس (بيروشتيتسا) .

وحين عاد رسل فريدريك الاول فى اواخر تشرين الاول (اكتوبر) ١١٨٩ الى فيليبوبول ، بلغوا عاهلهـــم (الامر الذى تناوله الكلام فـــى مدونات انسبرت) ان بطريرك القسطنطينية نعت المقاتلين الالمان فى مواعظه فـــى الكنائس بكلاب المسيح ، وانه كان يعد الروم بان المجرم ، مهما كان معتقا فى الاجرام ، وحتى اذا كان قد اقترف عشرات مـــن جرائم القتل ، سينال الغفران من ذنوبه اذا قتل مائة من الصليبيين . وبدأ فريدريك الاول مـــن جانبه يوجه التهديدات الى اسحق الثانى انجيلوس . وفضلا عن ذلك ، وقع اسحق الثانى فى صيف ١١٨٩ ، حين كان «جنـــود الرب» يعبرون المجر ، اتفاقية تحالفه مع عدو الصليبيين الاكبر — صلاح الديـــن ، ووعده بالدعم ضد قلج ارسلان الثانى . وهكذا كان كل مـــن الامبراطورين المسيحيين — الالمانى والبيزنطى — فى سنة ١١٨٩ متحالفا مع دولة اسلامية .

فى تراقيا ، دارت رحى الحرب ، من حيث جوهر الامر ، بين الصليبيين الالمان وبيزنطية . ولقد كانت ، والحق يقال ، حربا غير معلنة ، حربا بين حليفين . ولكن الاحداث تطورت بجلاء فى اتجاه اضفاء الصفة الشرعية عليها وتحويلها الى نزاع مسلح سافر . وفى اواخر خريف ١١٨٩ ارسل فريدريك الاول الى ابنه هنريخ (السادس) رسالة تتضمن ضربا من مشروع هجوم على بيزنطية . فقد طلب من هنريخ ان يجمع المقاتلين ، ثم ان يتفق مع جنوه

والبندقية وبيزا وانكون ، وان يجهز هناك اسطولا لاجل الشروع في ربيع السنة القادمة بمحاصرة القسطنطينية سواء من البر ام من البحر . وفي الوقت ذاته كان على هنريخ ان يحمل البابا على تنظيم حملة صليبية ضد الروم الذين يعرقلون حرب الكاثوليك ضد «الكفار» .

اقيمت خطط اخضاع بيزنطية لامبراطورية سلالة شتاوفن في تربة السياسة العملية . ولكن بابا روما لم يشأ اقامة سيادة الكنيسة الكاثوليكية على الكنيسة الارثوذكسية بسلاح عدو الكورية الباباوية في الأمس القريب ، فريدريك بربروسا . ففي روما لم يصدقوا فريدريك بربروسا . ولم تقم حملة صليبية ضد بيزنطية في سنة ١١٨٩ . وتجنبت امبراطورية القسطنطينية ضربات القطعان الصليبية ، رغم ان البعثة التي وصلت الى غاليبولي من بيزا عرضت السفن على فريدريك الاول بصورة سافرة لاجل فتح العاصمة البيزنطية . الا ان التأجيل ، كما سنرى ، كان قصير الامد .

بعد ان نهبت الجموع الالمانية المقاطعات البلغارية من بيزنطية ، وحصلت من اسحق الثاني على بعض التنازلات (بموجب اتفاق تم توقيعه في ٢٤ شباط — فبراير ١١٩٠) ، انطلقت في اواخر آذار (مارس) ١١٩٠ من اندريانوبول وعبرت الدردنيل الى آسيا الصغرى ، واتجهت في مناطقها الغربية (عبر لاودقية وفيلوميليا) التي سبق ان دمرها السلجوقيون . لم يقدم الروم لا المأكولات ولا الاعلاف . وكانت فصائل الخيالة من السلجوقيين تشن يوميا الغارات على الفرسان الالمان . فان وريث قلج ارسلان الثاني الذي تنازل عن السلطة لم يكن يميل الى التحالف مع الصليبيين خوفا من حرب مع صلاح الدين . وفضلا عن كل ذلك ، كابد الصليبيون عذابات القيظ والعطش والجوع . واضطروا الى اكل لحوم خيولهم .

في ١٨ ايار (مايو) ١١٩٠ ، استولى الصليبيون على سلطنة قونية . ووقعت في ايديهم غنيمة وفيرة . وفي ٢٣ ايار (مايو) عقدوا هدنة مع السلطان . وغادر الصليبيون سلطنة قونية ونصبوا معسكرا وراء البساتين التي تحيط بها . قال مؤلف «تاريخ حملة الامبراطور فريدريك» : «هنا وجدوا في السوق ما يكفي من كل ما يلزم ، وان كان يباع باثمان غالية . وقد بيع (من الصليبيين — **المؤلف**) ، كما اظن ، اكثر من ٦ آلاف حصان وبغل ، عدا الحمير» .

ومن هنا نزلت القوات الالمانية على دروب وعرة في جبال طوروس الى قيليقيا ، حيث حدث امر غير متوقع ؛ لقد تدخلت صاحبة الجلالة الصدفة في الاحداث . ففي ١٠ حزيران (يونيو) ١١٩٠ ، غرق فريدريك بربروسا اثناء

عبور نهر اللامس الجبلى العاصف ، غير بعيد عن سلوقية . وفى الحال شوش مصرعه صفوف الصليبيين . وقد كتب مدون الاخبار وشاهد العيان ذاتــه متذكرا : ان مصرعه «قد هز الجميع بحيث استحوذ على الجميع حزن كبيـر وبحيث ان البعض انتحروا مترددين ومتعذبين بين الرعب والأمل ، وبحيث ان البعض الآخر ، وقد يئسوا ورأوا ان الله كأنما لا يعنـى بهم ، جحدوا الايمان المسيحي ، واعتنقوا الوثنية مع رجالهم» ، الامر الذى يدل عـلى تذبذب وسطحية مشاعر الصليبيين الدينية .

بعد ذلك ، عاد قسم مـن الفرسان بحرا من سلوقية وطرسوس الى الوطن ؛ ومضى قسم آخر ، عابرا المناطـق الارمنية بالنهب والسلب ، الى انطاكية ؛ مات كثيرون بالطاعون فى صيف سنة ١١٩٠ . واقترب الباقون فى الخريف من عكا التى سرعان ما حاصرتها قوات دول الصليبيين التى سلمت حتى ذاك وفصائل الفرسان التى قدمت الى هنا بصورة تلقائية بعد ان احتلها صلاح الدين . وبعد فترة من الوقت هرعت الى عكـا فصيلة المانية اخرى ، بقيادة الدوق ليوبولد النمساوى . واخذ الدوق فى يده زمام قيادة جميـع الصليبيين الالمان حيـن مات فريدريك ، دوق شوابيا ، ابن فريدريك بربروسا (فى سنة ١١٩١) .

التناقضات الانجلو-فرنسية والمخاصمات فى مملكة القدس . فتح عكا . نتائج الحملة

فى ذلك الحين ، كان الاعيان والفرسان فى انجلتـرا وفرنسا قد بدأوا وحسب يستعدون للحملة ؛ فان الاستعداد لها لم ينته فى هذين البلديـن الا نحو صيف ١١٩٠ .

وقد وجد الملك الانجليزى ريشار الاول الاموال لاجل الحرب المقدسـة بسفالة نادرة ودون التورع عن اللجوء الى احقر الوسائل . ولم يكتف بابتزاز ضريبة «عشر صلاح الدين» من جميع من كان يتعين عليهم دفعها . فان هذا العاهل الذى تميز بجشع لا حد له ، قد عمد الى بيـع كل ما يمكن بيعه : الوظائف ، بما فيها الوظائف الاسقفية ، والحقوق ، والقصور والقرى . وسمح البابا كليمنت الثالث للملك باعفاء الناس الضروريين لاجل الخدمة فى انجلترا ذاتها من الاشتراك فى الحملة . وقد استغل ريشار هذا السماح كما يطيب له ؛ فلم يكن يمنح الاعفاء الا لقاء مبلغ كبير . وقـد استطاع الاثرياء ان يفتدوا انفسهم من الحملة . اما الفقراء الذين لم تترك ابتزازات جباة الملك

لهم شيئا ، فقد استكراهم ريشار بالنقود . ان قائد الصليبيين هذا ، الذى مدحه مدونو الاخبار والشعراء اللاتين (وبخاصة الشاعر المغنى النورمندى امبرواز الذى رافق الملك فى الحملة) على نبله وشهامته وحكمته قد صرح ذات مرة انه يبيع لندن ذاتها اذا ما وجد شاريا مناسبا !

فى ٤ تموز (يوليو) ١١٩٠ ، عبر ريشار الاول مع حاشيته ومعظم فرسانه مضيق المانش . واجتمعت الفصائل الانجليزية والفرنسية فى مدينة فيزليه البورغونية ، ومنها انطلقت فى الحملة . وهكذا لم تبدأ حملة الانجليز والفرنسيين الصليبية الا بعد مرور سنتين ونصف السنة على سقوط القدس وبعد مرور سنة على تحرك فريدريك الاول . ومن الجلى ان الملكين الانجليزى والفرنسى لم يكونا يتسرعان . واعرابا عن استياء قسم من الفرسان من هذا التباطؤ ، نعت هوغ دوازى التروبادور (الشاعر والمغنى الجوال) الملكين بالحانثين باليمين . كذلك كتب تروبادور آخر هو برتران دى بورن انهما «يخدعان الله ، لأنهما لا يقصدان المضى في الحملة رغم انهما يحملان الصليب» . ولكن الملكين اتفقا سلفا بالمقابل على تقاسم الغنيمة مناصفة .

فى البدء سار الصليبيون معا ، ولكن تأتى لهم فيما بعد ان ينقسموا ؛ فقد تبين ان من الصعب اطعام مثل هذا العدد الضخم من المقاتلين . قاد فيليب الثانى فرسانه الى جنوه التى تعهدت بان تقدم لهم ثلاثة سفن لنقلهم الى سوريا . وراح الانجليز الى مرسيليا . وهنا كان اسطول ريشار بانتظاره ، اى اكثر من ٢٠٠ سفينة تسنى لها ان تدور حول اسبانيا وترسو فى سواحل فرنسا الجنوبية . وفى ايلول (سبتمبر) ١١٩٠ وصل الفيلقان الواحد تلو الآخر ، الى صقلية ، وتوقفا غير بعيد من مسينا . وهنا تقرر قضاء الشتاء لاجتناب المخاطر التى يتعرض لها البحارة فى هذا الفصل من السنة .

استغل ريشار الاول الوقفة فى صقلية لكى ينفذ الخطط التى سبق ان حاكها والده للاستيلاء على الجزيرة . ولهذا الغرض تدخل فى خصام احزاب البارونات الذى نشب هنا بعد وفاة الملك النورمانى غليوم الثانى الصيقلى (سنة ١١٨٩) ، وانقض على حاكم الجزيرة تنكريد دى ليتشه . فرفعه البارونات الى العرش ، وليس بدون مشاركة البابا الذى كان يعارض قيام السيادة الالمانية فى الجزيرة . وارتدى ريشار الانجليزى حلة حامى الحقوق الشرعية لزوجة الملك الراحل واخته حنّة . ولكن رداء الفروسية هذا لم يستطع ان يخفى عن احد اهداف ابن سلالة بلانتاجينه الحقيقية ، اى الاغتصابية ، فى صقلية .

وقد اثار الصليبيون الانجليز فى الحال السكان ضدهم بما اقترفوا من اعمال العنف . ذات مرة ، اثار احد مرتزقة ريشار الاول جدالا مع بائعة خبز فى مسّينا . وتحول الجدال الى شجار بين جنود المسيح واهالى مسّينا المسيحيين . وفى الحال ، رأى ريشار الاول فى هذا الحادث ذريعة مناسبة للحرب ، فهاجم مسّينا من البحر والبر واحتلها . وكان اهالى مسّينا اوائل من خبروا «نبل» ريشار وصليبييه ؛ ففى غضون بضع ساعات ، نهب الصليبيون وقتلوا واغتصبوا . واهالى مسّينا بالذات هم الذين لقبوا ريشار الاول بلقب «قلب الاسد» لوصم قساوته بالعار .

وما ان احتدم النزاع بين الانجليز والصيقليين حتى عكف فيليب الثانى على معارضة حليفه سرا . وقد تظاهر بانه يقف على الحياد ، ولكنه دخل سرا فى مفاوضات مع تنكريد دى ليتشه وحاول حتى ان يحبط هجوم الاسطول الانجليزى على مسّينا . وقد اطلق الملك شخصيا بيديه النار على المجدفين الانجليز . فلم تكن البتة لفرنسا اية مصلحة فى تعزيز دولة آل بلانتاجينه باى شكل من الاشكال .

غضب الملك الفرنسى اقصى الغضب من افعال ريشار الاول . وظلت العلاقات بين قائدى جيشى الصليبيين تتردى . وفى ذلك لعب دورا لا يستهان به قصر نظر ريشار قلب الاسد فى حقل السياسة . فان هذا المقاتل المتحمس النارى لم يكن له حقا منافسين فى فن اكتساب الاعداء . كان هذا الملك ، كما كتب عنه احد مدونى الاخبار المعاصرين ، «يريد ان يتفوق على الجميع بالشهرة» و«استحق استياء الجميع» اثناء الحملة الصليبية .

اضطر ريشار الاول الى تسوية نزاعه مع تنكريد دى ليتشه . ووصل الى صقلية نبأ يفيد ان بربروسا قد مات وان ابنه هنريخ السادس قد تحرك مع جيش صوب روما لاجل التتويج . وكان واضحا انه سيتجه من روما الى ايطاليا الجنوبية وصقلية ؛ ذلك ان ابن فريدريك الاول كان الوريث الشرعى لغليوم الثانى . وكان هنريخ السادس يبدو لريشار الاول عدوا اخطر بكثير من تنكريد . واذا الخطر المشترك الناجم عن الامبراطور الالمانى يقرب الملك الانجليزى من اعيان صقلية النورمانيين . ومن باب المصالحة دفع تنكريد لريشار ٢٠ الف اوقية من الذهب . وما ان عرف الملك الفرنسى بذلك حتى طلب من حليفه نصف المبلغ (ذلك انهما اتفقا على تقاسم الغنيمة مناصفة) . ولكن ريشار ابن سلالة بلانتاجينه لم يعط فيليب الثانى سوى ثلث الغنيمة . ان شح المغامر المتوج الانجليزى قد انقلب عليه خطأ سياسيا ، اذ استثار فى نفس فيليب الثانى المزيد من الامتعاض .

تمهل الصليبيون اكثر من ستة اشهر فى صقلية ، ولم يركبوا السفن الا فى ربيع سنة ١١٩١ . ابحر فيليب الثانى من مسّينا فى ٣٠ آذار (مارس) دون ان ينتظر حليفه الذى لم يقلع الا بعد ١٠ ايام . وقد بينت احـــداث صقلية بكل جلاء ان الملكين ليسا رفيقى طريق .

مضى الفرنسيون بحرا الى لبنان – الى صور . اما ريشار الذى اراد ان يعوض عن اخفاقه فى صقلية ، فقد احتل فى طريقه الى الشرق جزيرة قبرص التى كانت من قبل خاضعة لسلطة بيزنطيا ثم انفصلت عنها ، وغنم فى قبرص غنائم لا تحصى . كما تزوج هناك بيرنجير دى نافار التى وصلـــت مع ريشار الاول الى صقلية .

وبالاستيلاء على قبرص ، أمن ريشار قلب الاسد ، من حيث الجوهر ، دون ان يدرك ذلك بنفسه ، اهم نجاح لعموم الحملة الصليبية . فان مملكة آل لوزيان التى نشأت بعد وقت قصير فى قبرص قد تحولت فيما بعد الى حصن بالغ الاهمية لممتلكات الصليبيين فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط التى لم تستطع الا بفضل الدعم العسكرى من قبرص ان تدوم فى الشرق زهاء مائة سنة اخرى .

وقد تبدت «وحدة» الصليبيين الانجلو – فرنسيين بقوة جديدة عندما نزلوا فى لبنان وانضموا الى الفرسان الذين يحاصرون عكا . وبين هؤلاء ، كان كذلك ، عدا فصائل الاسياد المحليين ، المـــان ، ودانماركيـــون ، وفلمنكيون وايطاليون . وقد استمر حصار هذه القلعة المنيعة اشهرا عديدة . واستعمل المحاصرون الاكباش ، ومدافع اطلاق الحجارة ، وابراج الحصار على العجلات .

ومن اهم اسباب استطالة الحصار نشوب الخلافات بين قادة العساكر التى طوقت المدينة ، اى بين البارونات المحليين والاسياد القادمين من الغرب . ومرد الخلافات الى الادعاءات بعرش القدس (والاصح القول بلقب ملـــك القدس) ، من جهة ، من قبل غى دى لوزينيان الذى اخلى سبيله مـــن اسر المسلمين ، ومن جهة اخرى ، من قبل المركيز كونراد مونفيرات . وهـــذا المركيز الذى كان قد اصبح آنذاك فعـــلا سيد صور ، رفض ان يسمـــح لسيدها الاسمى غى دى لوزينيان بدخولها . ورغم ان الخلاف دار حول لقب فارغ (اذ ان مملكة القدس لم يكن لها وجود بالفعل) ، خاض قادة الصليبيين غمار هذا الجدال بكل حماسة الفرسان . وبالنتيجة ، بدت قوات جنود المسيح مسمرة من حيث الجوهر .

ثم ان الخلاف بين الطامعين بعرش القدس جاء يعمق العداوة بين الانجليز

والفرنسيين فوق ما هى من عمق . فان ريشار قلب الاسد الذى لم يصل الى عكا الا فى ٧ حزيران (يونيو) ١١٩١ قد دعـــم ادعاءات قريبه غى دى لوزينيان ، بينما دعم فيليب الثانى ادعاءات المركيز مونفيرات . وعندما كان ملك يقترح فى المجلس الحربى اقتحام القلعة ، كان الملك الآخر يعارض ؛ فان النصر المحرز بمبادرة من ريشار الاول لم يكن يناسب فرنسا . والعكس بالعكس . ومع ذلك كانت الغلبة لرأى ريشار ؛ ففى ١١ تموز (يوليـــو) ١١١٩ ، بدأ هجوم عام ؛ وفى اليوم التالى استسلمت المدينة التى انهكهـا الحصار المديد . ولانقاذ حامية المدينة ، وافق صلاح الدين على دفع فدية كبيرة وعلى عدد من التنازلات الاخرى ؛ فقد اطلق مـــن الاسر الافرنـــج المأسورين سابقا واعاد الى الكاثوليك ذخيرة دينية يكرمونها هى ما يسمى بالصليب الشريف او الصليب المحيى (عود الصليب) .

بعد مرور اقل من شهر على فتح عكا ، اعلن فيليب الثانى انه مريض ، فذهب الى صور ومنها سافر فى اوائل آب (اغسطس) ١١٩١ الى فرنسا عبر ايطاليا . وبينما كان الملك الانجليزى يقاتل «الكفار» فى الارض المقدسة ، كان حليفه الفرنسى يسرع فى توطيد مواقع سلالة الكابيتيين فى بيته ؛ فقد انقض فيليب الثانى على ممتلكات سلالة بلانتاجينه فى القارة . وسلفا عقد حلفا ضد ريشار مع اخيه الاصغر ، الكونت جان (فيما بعد الملك جان بلا ارض) الذى كان يحكم انجلترا فى غياب اخيه . وفضلا عن ذلك ، تقابـــل فيليب الثانى فى كانون الاول (ديسمبر) ١١٩١ فى ميلانو مع الامبراطـور هنريخ السادس واتفق معه بشأن الاعمال المشتركة ضد ريشار . ويقول مدون الاخبار الانجليزى رودجر من هوفدن ان الملك الفرنسى حصل مـــن الامبراطور الرومانى على وعد بان يأسر الملك الانجليزى اذا عاد من فلسطين عن طريق الاراضى الخاضعة للامبراطور .

وهكذا اذا كان قائدا الحملة الصليبية قد صفيا حسابات احدهما الآخر بضراوة ، حارصا احدهما على مكانته وسمعته كفارس صليبى ، والثانى على توسيع وتعزيز مملكته ، فان كونراد مونفيرات كان مستعدا على العمـــوم لخيانة الصليبيين ، وللانتقال الى صف صلاح الدين والحصول منه على الحق فى حكم المدن الفلسطينية . بل ان كونراد كان يعتزم خوض النضال معه ضد حلفاء الامس اخوانه فى الدين . وكان ذلك ، من وجهة نظر مصالحه السياسية على كل حال ، عمليا اكثر من انتظار نجاح جدى نوعا ما يحرزه الصليبيون الذين كان يقودهم قائد عسكرى غير موهوب مثل ريشار قلب الأسد . وقد لاحظ مدون الاخبار امبرواز بامتعاض فى قصيدته الاخبارية ان كـــونراد

مونفيرات لم يساند القوات التى حاصرت عكا ، وان بالمؤن ؛ فقد فضل ان يحفظ الاحتياطيات فى صور ، ولم يكن يحرص الا على ابقاء المدينـــة فى قبضته . الا ان وفاة كونراد مونفيرات الذى قتله فى صورة فى اواخر نيسان (ابريل) ١١٩٢ اثنان من المتعصبين المسلمين من شيعة الحشاشين (وهم فريق من الاسماعيليين) حالت دون تحقيق مقاصده السرية .

رغم رحيل اغلبية الفرسان الفرنسيين (لم يبق سوى اتباع دوق بورغونيا وكونت شامبانيا) وخطر فقدان التاج ، واصل الملك الانجليزى مقاتلـــة المسلمين سنة اخرى . وقد اجترح هناك مآثر ليست البتـــة من مآثر الفرسان . فبأمر منه وتحت قيادته مباشرة ، جرت مذبحة قتل فيها رجاله اكثر من الفى مسلم اخذوهم من صلاح الدين بعد فتح عكا كرهائن لضمان تنفيذ السلطان صلاح الدين للعهود التى قطعها على نفسه (وهذه العملية اشرف عليها دوق بورغونيا ايضا) .

حاول ريشار الاول ثلاث مرات ولكن عبثا ان يقترب من القدس . وكان الصليبيون يركزون جل انتباههم على انتزاع المدن الساحلية من مصر . ولكن محاولات فتح يافا وعسقلان باءت بالفشل ايضا . وعندمـــا خيم الخطر على هاتين المدينتين ، امر صلاح الدين بمجرد هدمهما ، ولذا لم يبق للصليبيين منهما غير ركام من الانقاض .

ان ريشار لم يكسب البتة الشهرة لنفسه اثناء اقامته فى الشرق بمـــا ينسبه اليه مدونو الاخبار الميالون الى الدفاع عنه ،والى مديحه من طراز امبرواز من ايفرو او من طراز المداحين الانجلو-اميركيين المعاصرين * ، بل كسبها باعمال النهب والسلب واعمال القساوة التى لا تصدق ، التى اقترفها بكل برودة ورباطة جاش . وقد امسى ريشار قلب الأسد فى تصور المسلمين صورة مجسدة عن النزعة الى سفك الدماء . وباسم الملك الانجليزى كانت الام تحمل طفلها الباكى على الصمت : «لا تبك ، لا تبك ، ها هو ذا الملك

---

* كتب البروفسور سيدنى بنتر من جامعة جون هوبكينس الاميركية يقول : «هناك عدد قليل من القادة العسكريين فى التاريخ يصعب فهمهم مثلما يصعب فهم ريشار قلب الاسد . فبوصفه مقاتلا ، كان قريبا من الجنون ، وكان يتميز بشجاعة لا تصدق وكان مفعما بالجراة ؛ وبوصفه آمرا كان ذكيا ومحترسا وحذرا . كان بوسعه ان يجازف بحياته بلا مبالاة تامة ، ولكن لم يكن بوسع اى شيء ان يقنعه بتعريض قواته للضربات اكثر مما يكون ضروريا ضرورة مطلقة» . وهكذا دواليك بالروح ذاتها راجع :

S. Painter. The Third Crusade. A History of the Crusades. Vol. 2. The Later Crusades. 1189-1311. Madison-Milwaukee-London. 1969, p. 73.

ريشار آت !» . وهذا الاسم كان يتذكره الفارس باللعنات اذا خاف حصانه من شيء ما وجفل فجأة . وكان يسأله : «مـــا بك ، هل رأيت الملـــك ريشار ؟ !» .

وفي آخر المطاف ، حين منيت قوات الصليبيين العسكريـــة — وبين البارونات لم تنقطع الخصومات — بخسائر فادحـــة في الحروب ضد صلاح الدين ، وحين بدأ ريشار الاول يقلق جديا على شؤونه في الوطن ، دخل في مفاوضات مع عدوه وعقد معـــه الصلح في ٢ ايلول (سبتمبر) ١١٩٢ . وبموجب شروط الصلح ، احتفظ الاسياد الصليبيون بشريط ساحلي ضيق يمتد من صور الى يافا ، وبقيت القدس خاضعة لمصر . ولم يوافق صلاح الدين الا على السماح للحجاج والتجـــار بزيارة القدس في غضون ثلاث سنوات . ويقينا ان الاراضي الساحلية بما فيها صور وصيدا وطرطوس وغيرها من المرافئ كانت بالنسبة للبلدان الغربية اهم بكثير من القدس او من الناصرة الواقعتين بعيدا عن الساحل . ان امتلاك الشريط الساحلي كان يخدم في المقام الاول مصالح التجارة المشرقية . وبهذا المعنى احرز ريشار الاول حتى بعض النجاح . ولكن هذا النجاح الذي كان يطيب بقدر معين لتجار ايطاليا الشمالية لم يكن من الممكن اعتباره كافيا من وجهة نظر روما ، اذ ان خسارة القدس كانت اخفاقا جديا الى حد انـــه كان يبدو للباباوية من المستحيل التسليم به .

في تشرين الاول (اكتوبر) ١١٩٢ هرع ريشار قلب الاسد الى بلده بعد ان تلقى من اوروبا انباء غير مستطابـة . ولكن لم يتسنّ له الوصول الى انجلترا في وقت قصير . فقد اكتسب لنفسه عدوا ، لا في شخص فيليب الثاني وحسب ، بل ايضا في شخص قائـــد الصليبيين الالمان عند اسوار عكا ، الدوق ليوبولد النمساوي . فقد استعجل الدوق في رفع العلم الالماني في المدينة بينما كان الصليبيون يحتلونها . فأمر ريشار بنزق وحميـــة بنزع العلم ورميه في الوحل . لم ينس ليوبولد الاهانة . وفي جوار فيينا عرف ليوبولد الملك الانجليزي متسترا بلباس التجار ، واسره ؛ ثم سلم ليوبولد اسيره الى الامبراطور هنريخ السادس . وقد رأى هذا الحاكم البالغ من العمر ٢٥ سنة في الفاتح الانجليزي عدوا له في تطلعاته الى منطقة البحر الابيض المتوسط ، فابقاه في السجن سنتين .

وهكذا نرى ان الحملة الصليبية الثالثة قد اختلفت في كثير من النواحي عن سابقتيها . فبين المشتركين فيهـــا ، كانت تغيب الحماسة الدينيـــة السابقة ، كما انها لم تكن تنطوي على اي من عناصر العفوية والجماهيرية .

ولقد كانت حملة فتوحات قام بها فرسان وامراء ثلاث دول اقطاعية ونظمتها وحققتها السلطة الملكية . واثناء الحملة ، تكشف بجلاء ووضوح سعـــى الملكيات الاقطاعية الغربية الى فتح مختلف مناطق البحر الابيض المتوسط . وفى هذه التربة نشبت مضاعفات وتعقيدات ونزاعات دوليـــة بين الدول المسيحية (المانيا وبيزنطيـــا ، انجلترا والمانيا – فى صقلية ، فرنســـا وانجلترا فى صقلية وفلسطين ، انجلترا وبيزنطيا فى قبرص ، والخ .) ، وهى التى قررت المصير المخزى الذى آلت اليه الحملة بمجملها .

ومذ ذاك ، صارت حدود مملكة القدس اضيق من ذى قبل ، كما نقلت عاصمتها ذاتها الى عكا . فكانت ما يسمى بمملكة القدس الثانية .

كانت حملة ١١٨٩–١١٩٢ نقطة انطلاق لاجل تفاقم التناقضات الناجمة بين الدول عن توسع الغرب فى منطقة البحر الابيض المتوسط . وقد حاول هنريخ السادس (١١٩٠–١١٩٧) تحقيق مشاريع فريدريك الاول بربروسا غير المحققة . ففى سنة ١١٩٤ استولى على صقلية ونكل بسكانها الذين ثاروا عليه . وضم تركة النورمانيين (صقلية) الى المانيا وبذلك تحقق هدف سلالة هوهنشتاوفن القديم .

ان هنريخ السادس الذى كان بمقدوره اقل من ابيه ان يقايس بين نواياه التوسعية والاغتصابية وبين الامكانيات السياسية الفعلية ، بدأ يفكر جديا فى تأسيس ملكية عالمية بعد ان وطد قدميـــه فى صقلية . فاطلق سراح ريشار قلب الاسد من الاسر بعد ان اخذ منه قسم التابعية وفدية ضخمة جدا . وبذلك اراد هنريخ السادس ان يضع حدا للادعاءات الانجليزية فى البحر الابيض المتوسط . ثم اعتزم ان يركع فرنسا بمساعدة ريشار .

الا ان الامبراطور الالمانى جعل من فتح بلدان الشرق الادنى ، وفى المقام الاول بيزنطيا ، مهمته الاساسية . وبجميع الوسائـــل استثار الحرب ضد بيزنطيا . فقد طلب من الامبراطور البيزنطى اسحق الثانى ان يتنازل لالمانيا عن نصف الاراضى البيزنطية (اراضى البلقان) وان يعوض عن الضرر الذى لحق بالصليبيين الالمان التابعين لفريدريك الاول . وفيما بعد ، فى سنة ١١٩٥ ، حين اطيح بالامبراطور اسحق الثانى بنتيجة انقلاب فى القصر ، وحل محله على العرش فى القسطنطينية اخوه الكسيوس الثالث ، شرع هنريخ السادس فى تنظيم حملة صليبية جديدة كان من المرسوم ان تكون بيزنطيا ضحيتها الاولى . وللحصول على حجة رسمية لاجل الادعاء بالتاج البيزنطى ، زوج هنريخ السادس فى ٢٥ ايار (مايو) ١١٩٧ اخاه فيليب ، دوق شوابيا ، من الاميرة اليونانية ايرينا التى وقعت فى يده فى باليرمو ، ابنة اسحق

الثانى انجيلوس وارملة روجيه ، العاهل النورمانى الاخير فى مملكة صقلية (ابن تنكريد دى ليتشه) . وهكذا تناول الكلام ضم بيزنطية مباشرة الى قوام «الامبراطورية الرومانية المقدسة» .

واعدت المدن الايطالية السفن . وفى المانيا تشكلت جموع جديدة ؛ وفى فورمس قبل هنريخ السادس فى آذار (مارس) ١١٩٦ ، مع القاصد الرسولى ، خلال اربع ساعات ، فى الكاتدرائية ، النذور الصليبية من الفرسان .

اثار خطر حملة صليبية جديدة الذعر فى بيزنطيا . فوافق المغتصب الكسيوس الثالث على شراء السلام باى ثمن كان . وكان مستعدا لدفع مبلغ هائل ذهبا لهنريخ السادس . ولتحصيل وجمع الاموال اللازمة فى البلد الفقير البائس ، فرضت ضريبة استثنائية اسميت بالضريبة الالمانية (الامانيكون) .

فى آذار (مارس) ١١٩٧ تحركت نحو الشرق اولى الفصائل برئاسة رئيس اساقفة ماينتس ، كونراد فيتلسباخ ، والمارشال هنريخ من كالدن ، ومستشار الامبراطورية كونراد من كفيرفورت . ويقدر مدون الاخبار ارنولد من بولك عدد افرادها بـ٦٠ الفا . وفى ٢٢ ايلول (سبتمبر) نقلهم الاسطول الى عكا . وتوقف قسم من الصليبيين فى قبرص . واعتبر ملك قبرص آمورى دى لوزينيان نفسه تابعا للامبراطور الالمانى وسرعان ما انتخب ملكا على القدس رسميا بضغط من القوات المسلحة الالمانية . ثم بدأ الصليبيون العمليات الحربية فى لبنان وسوريا ، بل انهم استولوا على صيدا وبيروت .

الا ان كل هذا المشروع انهار فجأة بوفاة هنريخ السادس فى مسّينا فى ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١١٩٧ . فقد فتكت بهذا الامبراطور نوبة دورية من الملاريا ؛ واذا صليبيوه الذين بقوا فى لبنان وسوريا حتى صيف ١١٩٨ وعقدوا الصلح مع العادل (خليفة صلاح الدين) ، يسرعون فى العودة الى المانيا لكى يؤمنوا مصالحهم فى الحرب الاقطاعية التى نشبت هناك .

وبعد حقبة قصيرة ، تعالت فى الغرب من جديد صيحة باباوية : «الى الشرق !» . فان نتائج الحملة الصليبية الثالثة لم تتجاوب مع ابسط توقعات الكرسى الرسولى .

٥
الصليبيون فى القسطنطينية



تاريخ الحملة الصليبية الرابعة ومؤرخوها

تشغل الحملة الصليبية الرابعة (١١٩٩-١٢٠٤) مكانا خاصا فى تاريخ الحروب الشرقية التى شنها الفرسان الغربيون . فان بعض العلماء الغربيين يعتبرونها ضربا من صدفة تاريخية ، ضربا من مفارقة تاريخية ، ضربا من تناقض ، ولهذا الاعتبار اسس شكلية معينة ، ذلك ان هذه الحملة التى استهدفت تحرير «الاماكن المقدسة» من السيادة الاسلامية ، قد انقلبت فى آخر المطاف الى هزيمة منيت بها بيزنطية والى تشكيل امبراطورية لاتينية مكانها هى دولة الصليبيين ، اى دولة اخرى فى عداد دول الصليبيين التى سبق ان تشكلت فى الشرق .

ولكن ليس ثمة اى تناقض ، من حيث الجوهر ، فى مثل هذا المآل ، بل بالعكس . فان الحملة الصليبية الرابعة بالذات قد اظهرت بصورة خارقة الجلاء تلك من تطلعات الاقطاعيين والكنيسة الكاثوليكية ، التى ليس دائما تظهر على السطح ، والتى شكلت منذ بادئ بدء النابض المحرك الرئيسى والمشترك للمشاريع التى تحققت تحت رمز الصليب . الا ان الغلاف الدينى -

ولقد كانت الكنيسة تغلف به على الدوام حروب الفرسان فى الشرق ، اللصوصية من حيث الاساس - قد تمزق كليا فى هذا المشروع . فعوضا عن السعى الى استرجاع القدس من «الكفار» استولى الصليبيون ، الذين كانوا قد تحركوا ضد مصر الاسلامية ، على دولة مسيحية ، هى الامبراطورية البيزنطية ، ودمروا عاصمتها كليا وتماما ، واكتفوا بذلك كأنما لم ترد يوما قضية تحرير الارض المقدسة .

فكيف حدث ان مضى الاقطاعيون المسيحيون الذين تجمعوا من مختلف بلدان اوروبا (وبصورة رئيسية من فرنسا والمانيا وايطاليا) ، «الى ما وراء البحر» ، حسب تعبير مدونى الاخبار ، بحجة انقاذ الايمان المسيحى من نجس ودنس «الكفار» ، ولكنهم فتحوا ونهبوا عاصمة بيزنطية ، عاصمة دولة اخوانهم فى الدين المسيحيين ؟ وهل كان هذا الانعطاف نتيجة لتجمع من باب الصدفة ، لتجمع غير متوقع لظروف متشؤومة ، غير متوقفة على نوايا الصليبيين الاولية ؟ هكذا حاول ان يصور الامر المؤرخ الفرنسى الاول للحملة ، مارشال شامبانيا ، جوفروا فيللاردوان الذى ينتمى الى صف قادة الصليبيين ، فقد وصف افعالهم فى يومياته التى صارت فيما بعد اساسا لمؤلفه التاريخى «فتح القسطنطينية» .

او لربما تحولت الحملة الصليبية المعادية لمصر الى مشروع فتوحات ضد بيزنطية بفعل افعال متعمدة قام بها المشتركون فى هذه الحملة ؟ واذا كانت هذه الفرضية صحيحة ، فمن هم المسؤولون مباشرة عن «انحراف الصليبيين عن السبيل» (بهذه الكلمات حدد البابا اينوشنتيوس الثالث الوضع) ؟ اولم يكن تجار البندقية الحاذقون الذين يضمرون العداوة لبيزنطية من قديم الزمان مسؤولين عن ذلك ؟ هكذا على الاقل يصور وضع الاشياء السينكليتيك (السيناتور والمؤرخ البيزنطى نيقيتاس الخونياتى (Nicetas Choniates) الذى عانى من «البرابرة» الغربيين ومدون الاخبار السورى ارنول ، والمؤرخ الرومانى المجهول لسيرة حياة البابا ، الذى كتب «افعال اينوشنتيوس الثالث» ، وبعض المؤلفين القروسطيين الاخرين . او لربما يقع الذنب الرئيسى عن «الانحراف عن السبيل» على قادة الحملة انفسهم ، ومنهم ، مثلا ، الماركغراف الايطالى بونيفاسيوس دى مونفيرات ؟ فعليه يلقى مسؤولية الاحداث كاتب الشؤون المعيشية الفرنسى والمشترك فى الحملة الفارس روبر دى كلارى من اميان الذى ترك مذكرات طريفة جدا وصادقة فى كثير من النواحى وسماها كما سمى فيللاردوان يومياته «فتح القسطنطينية» .

واخيرا ، الا يجوز الافتراض ان مصير الحملة الصليبية ونهايتها «الغريبين» قد نجما عن تدخل قوى سياسية ما كانت تفعل فعلها سواء من وراء الكواليس ام من الداخل ، وكانت تدفع الصليبيين الى مغامرة القسطنطينية ، بصورة غير ملحوظة بالنسبة للفرسان انفسهم وبالنسبة للاسياد الاعيان الذين يترأسون العساكر ؟ ان المعاصرين قد اعربوا كذلك عن فرضيات من هذا النوع . فان بعض مدونى الاخبار ، بمن فيهم شاهد عيان روسى على فتح القسطنطينية من قبل الصليبيين (وحديثه الذى دخل فيما بعد تاريخ نوفغورود الاول هو عبارة عن مصدر تاريخى قيّم جدا) ، ينسبون دورا كبيرا فى انعطاف الحملة الصليبية الى دسائس الملك الالمانى فيليب من شوابيا وحليفه ، القائد العسكرى العام للصليبيين بونيفاسيوس دى مونفيرات ، لاعتقادهم ان احدهما كان يسعى سرا الى امتلاك عرش القسطنطينية ، وان الثانى كان يسعى سرا كذلك الى فتح اراضى الامبراطورية البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان .

ان مسألة الاسباب التى اتخذت الحملة الصليبية الرابعة بفعلها اتجاها جديدا وانتهت كذلك نهاية مدهشة هى مسألة مشوشة جدا ، وليس فقط من جراء تضارب اخبار المؤرخين . فان معاصرى استيلاء الصليبيين على القسطنطينية الذين وصفوا نهب العاصمة البيزنطية (واحدى المدونات اللاتينية تسمى بالضبط : «اجتياح القسطنطينية») وكذلك المؤرخين اللاحقين الذين حاولوا بعناد ومثابرة ان يحزروا لغز سنة ١٢٠٤ ، لم يكونوا براء من عدم التحيز . ان تاثير نزعات العلماء الدينية الطائفية واتجاهاتهم السياسية قد انعكس كذلك بصورة مباشرة وغير مباشرة فى نتائج دراساتهم فى القرنين التاسع عشر والعشرين لقضية الحملة الصليبية الرابعة ، الامر الذى صعّب حل القضية حلا صحيحا ، مناسبا ، حسب مصطلحات الاختصاصيين .

هناك كثرة من الكتب والمقالات والمنشورات الوثائقية المشروحة بالتفصيل التى تتناول استيلاء الفرسان الصليبيين على بيزنطية . وهذه الاعمال تعرض شتى التفسيرات بصدد العوامل التى غيرت اتجاه الحملة الصليبية . وغير مرة كانت الحملة الصليبية فى اوائل القرن الثالث عشر ومختلف وقائعها ، ولا تزال الى الآن ، موضع مناظرات حارة ومغرضة بين المؤرخين . بل انه من الصعب ان نتصور مقدار الجهود التى بذلها الباحثون فى السنوات المائة ونيّف الاخيرة (ان تاريخ الحملة الصليبية الرابعة قد اصبح موضع دراسة معمقة منذ الستينيات تقريبا من القرن الماضى) لتفسير

وتوضيح ظروف تغير اتجاه الصليبيين ، ومقدار الحبر الذى انفقوه ، ومقدار العمل الدقيق الذى قاموا به لتفهم تطورات هذه الحملة .

لقد جمع العلماء وحللوا عددا ضخما جدا من المصادر باللغات اللاتينية ، واليونانية ، والفرنسية القديمة ، والارمنية ، والروسيـــة ، وغيرها من اللغات ، ودققوا طائفة من التفاصيل المتعلقة باحداث ملموسة من الحملة الصليبية . وقد تسنى لهم سد الكثير من نقاط الفراغ والغموض فى تاريخ هذه الحملة . ومع ذلك ، لم يتم بعد حتى الآن الاتفاق التام بشأن المسائل المختلف عليها ، ولا تزال المناقشات قائمة .

ولكن رغم الغموض المتبقى بصدد بعض وقائع الحملة ورغم قابلية بعض المسائل للنقاش ، بلغت معارفنا اليوم درجة من الدقـــة والصحة بحيث نستطيع كليا ان نعيد بناء كل تاريخ احداث سنوات ١١٩٩-١٢٠٤ بخطوطه الكبرى .

شمولية سياسة البابوية واعداد الحملة على الشرق

كان البابا اينوشنتيوس الثالث (١١٩٨-١٢١٦) المبادر الى الحملـــة الصليبية الرابعة وروحها ، وفى عهده البابوى (حكمه) بلغت البابوية قدرا كبيرا من الجبروت . وفى ذلك اسهمت بقسط كبير شخصية البابا ذاته ، الرجل ذو المواهب الممتازة والطاقة النادرة . تحدر اينوشنتيوس الثالث من العائلة الاقطاعية النافذة دى سينيى ، وشغل الكرسى الرسولى فى السابعة والثلاثين من عمره . ولكن رغم انه كان الاصغر سنا فى هيئة الكاردينالات التى انتخبته ، كان لاختياره من قبل الشيوخ الشائبين الكاردينالات اسس جدية . ولا ريب ان اينوشنتيوس الثالث كان سياسيا بارزا فى زمنه . الارادة الراسخة ، المثابرة فى بلوغ الاهداف المنشودة ، القدرة على استغلال جوانب الضعف فى اخصامه بعد دراستها جيدا ، واخضاع نواياهم لمقاصده ، والتنبؤ بالاحداث وتوجيهها — هذه المواهب وحدها كانت تكفى لاستمالـــة اصوات الكاردينالات الى جانبه .

كان ذو عقل كبير ، وكان خارق الهمة ايضا . وكان ميالا للقتال وسريع الغضب ، وسياسيا حذرا ومحترسا وصافى الذهن فى تقديراته وكان فنانا خارق المهارة فى النفاق والسفسطة . ان احدا من الباباوات لم يستطع ان يخفى مثله ببالغ المهارة الاهداف الحقيقية للكورية البابوية تحت ستار الورع والتقوى ، ولم يستطع ايا من الباباوات ان يبرر مثله ببالغ الاقناع كل خطوة ديبلوماسية يخطوها كاهن الرب الاول ، وان كانت اقل الخطوات

لياقة بالمصالح العليا للكنيسة الكاثوليكية وبحجج لاهوتية او حقوقية ، مختارة دائما بنحو مناسب . وليس عبثا تعلم اينوشنتيوس الثالث فى سنوات شبابه فى جامعتي باريس وبولونيا (وكانتا آنذاك من خيرة المدارس العليا) ، حيث ، كما يقول مؤرخ سيرة حياته ، «تفوق على جميع اترابه بالنجاحات فى الفلسفة واللاهوت والقانون» ، وليس عبثا تعلم القانون الكنسى على يد الحقوقى الشهير من مدينة بولونيا اوغوتشو . وعدا المزايا الضرورية لرئيس الكنيسة الكاثوليكية ، كان هذا البابا يتحلى بمزية اخرى ، هى انه كان بارعا للغاية فى فن البلاغة والفصاحة . وباللجوء عند الاقتضاء الى معارفه الشاسعة فى الفلسفة ، وباستغلال الاستشهادات من التوراة والانجيل ، وباختلاق الحجج الدامغة ، كان يحدث فى معاصريه انطباعا قويا بالبولات (المراسيم) الرهيبة ، والرسائل المسهبة والمنمقة والخطابات الصارمة .

وغالبا ما يضع المؤرخون اينوشنتيوس الثالث فى صف واحد مع غريغوريوس السابع . الا ان هذا ليس صحيحا تماما . ان الفوارق من حيث طابع نشاط هذا وذاك لم تكن ، والحق يقال ، كبيرة جدا ، ولكنه من غير الصحيح اعتبارهما متشابهين ، فخلافا لغريغوريوس السابع ، المؤيد عن اقتناع لكلية سيادة البابا ، لم يكن للبابا اينوشنتيوس الثالث نظرات تيوقراطية * متماسكة بدقة . وغير مرة قال ان مهمات نائب الله فى الارض تنحصر فى الميدان الدينى . وعلى الاقل فى الاقوال لم يعرب اينوشنتيوس الثالث عن تعلقه الصريح بالتيوقراطية البابابوية الكلية الشمولية ، لاعتباره انه يجب على الحبر الاعظم الرومانى ان يملك كامل السلطة فى الشؤون الكنسية وان يمتنع عن التدخل فى صلاحيات الحكام الدنيويين ، للحيلولة دون خلط السلطة الدنيوية مع السلطة الدينية .

ولكن اينوشنتيوس الثالث طبق بكل غيرة وهمة ، فى سياسته العملية وفى ديبلوماسيته ، مذهب غريغوريوس السابع القائل بتفوق السلطة الدينية على السلطة الدنيوية ، وبحق البابوات فى التصرف بمصائر الدول وتيجان ملوكها . ان نشاط هذا السياسى فى التاج البابوى كان موجها بكليته بالفعل الى تحقيق الخطط التى تقدم بها غريغوريوس السابع ، خطط اخضاع جميع الدول المسيحية للحبر الاعظم الرومانى .

فى اواخر القرن الثانى عشر واوائل القرن الثالث عشر انتشرت المساعى الى تأسيس امبراطورية عالمية انتشارا واسعا فى الغرب . وقد نشأت فى

---

* تيوقراطية – نظرية تعتبر السلطة نابعة من الله ويمارسها وزراؤه .

تربة التوسع الاقليمي الذى مارسته الدول الاقطاعية الفتية فى ذلك الزمن . وهذه الميول الشمولية لازمت قبل كل شيء سياسة آل هوهنشتاوفن ، حكام الامبراطورية الالمانية ، الذين سعوا من زمان الى بسط زعامتهم فى اوروبا الغربية والوسطى والجنوبية ، ففى النصف التانى بالذات من القرن الثانى عشر ، صارت الامبراطورية الالمانية تسمى بالامبراطورية «المقدسة» باعتبار ان اباطرتها يتلقون السلطة ، كما يزعمون ، من الله .

كذلك لم تكن ميول الدولة الكبرى غريبة عن ملوك المملكة الانجلو — فرنسية — آل بلانتاجينه ، وعن ملوك مملكة الصقليتين النورمانيين ، وحتى عن ملوك فرنسا حيث المركزية السياسية كانت لا تزال تخطو خطواتها الاولى . فقد كان فيليب الثانى اوغست يعتبر نفسه وريثا لشارلمان (او شارل الاكبر) شأنه شأن امبراطور الامبراطورية المقدسة : «يكفي امرؤ واحد لحكم العالم بأسره» . هكذا كان يحب ان يقول فيليب الثاني اوغست ، اذا صدقنا مدون اخبار مجهول كتب مؤلفا اسمه «افعال ملوك الافرنج» .

وقد اكتسبت الميول الشمولية طابعها الاوسع فى سياسة الكورية الرومانية ، ذلك ان الكنيسة الكاثوليكية كانت مركزا عالميا حقا وفعلا للنظام الاقطاعى . وكانت مقاصدها ومشاريعها التوسعية تتميز بنطاق جليل شاسع . وفى شخص اينوشنتيوس الثالث وجدت ملهما ومنفذا خارق الهمة .

وهذا البابا ترك من بعده تراثا ادبيا ومكتبيا مهما وكبيرا جدا ؛ فان مراسلاته الرسمية وحدها (التى صدرت مؤخرا فى جمهورية المانيا الاتحادية) ، مثلا ، تشكل مجلدا ضخما جدا . ولكن ، مهما كتب وقال اينوشنتيوس الثالث نفسه بصدد اقتناعه بالطبيعة الدينية المحضة للسلطة البابوية (وغير مرة ابدى رأيه فى هذا الصدد) ، فان التاريخ يحكم عليه ، لا بموجب اقواله ، بل بموجب افعاله . والواقع انه من الجلى ان افعاله لم تكن تتطابق مع محاكماته وآرائه اللاهوتية والسياسية المنافقة . وللمناسبة نقول ان التحرق الى كلية السلطة كان احيانا يتبدى عند هذا البابا على المكشوف ايضا . ففى احدى مواعظه البابوية الاولى قال ان الرب مسحه بالميرون ، وزعم انه يقف ادنى من الرب بقليل — فى مكان ما بين الرب والناس ، وان البابا ليس بالطبع الرب ، ولكن الرب وضعه فوق جميع الناس .

كان الهدف الرئيسى الذى استهدفه اينوشنتيوس الثالث اقامة سيادة (زعامة) الكورية الرومانية بصورة تامة على عموم العالم الاقطاعى فى الغرب والشرق . وهذا الهدف بالذات هو الذى حدد الجهود العملية التى بذلها الحبر

الاعظم الرومانى الذى لا يعرف الكلل . وليس عبثا اتهم ولا يزال يتهم حتى انصار الكاثوليكية المقتنعون البابا اينوشنتيوس الثالث بانه اخضع الاعتبارات الدينية للمصالح السياسية ، وخالف المبادئ التى نادى بها بذاته . اما المؤرخون الكاثوليك فى ايامنا ، فانهم يبدون رأيهم فى هذا الصدد لاجئين الى صيغ اكثر مرونة ؛ فان البابا ، كما يزعمون ، ليس دائما استرشد بالدوافع الدينية ، اذ انه لم يستطع ان يتغلب فى نفسه على «التناقضات بين نائب المسيح ورجل الدولة» . ولكن الواقع يبقى واقعا وهو ان البابا اينوشنتيوس الثالث كان قبل كل شيء رجل دولة وضع فى المقام الاول المصالح السياسية لروما البابوية .

كانت الحملة الصليبية منذ بادئ بدء جزءا مكونا فى غاية الاهمية من اجزاء البرنامج الشمولى للحبر الاعظم . وكانت الفكرة الاولى والاخيرة عند البابا اينوشنتيوس الثالث . وفى كل مدة حكمه البابوى بذل جهودا كبيرة لاجل بعث روح الحملات الصليبية القديم . وما كاد الكاردينالات الذين تجمعوا فى دير القديس اندراوس ينتخبونه للكرسى الرسولى حتى وجه الى الغرب نداء مدويا دعا فيه الى القيام بحرب مقدسة جديدة ضد المسلمين لاجل تحرير القدس . فى الاقوال كان المقصود هنا ايضا مشروعا دينيا محضا ، فان البابا «المتحرق بالرغبة النارية فى تحرير الارض المقدسة من ايدى الكفار» ، قد دعا رعيته الى انقاذ «تراث السيد الرب» ، الى اعادة تلك الاماكن التى قدسها يسوع المسيح نفسه بحياته الارضية الى الكنيسة الكاثوليكية . وكانت جميع دعوات البابا اللاحقة الى الكاثوليك مفعمة بهذه «النغمات الربانية» . ولكن الاحداث بيّنت ان الاهداف السياسية كانت دائما تشغل المرتبة الاولى بالنسبة للبابا اينوشنتيوس الثالث ، وقوامها توسيع ممتلكات الكنيسة الرومانية فى الشرق وتعزيز جبروت كاهنها الاول ، حبرها الاعظم .

لم يضن البابا بالفصاحة والبلاغة لاجل تنظيم الحملة الصليبية . والى فرنسا والمانيا وانجلترا وايطاليا والمجر وغيرها من البلدان ارسل فى آب وايلول (اغسطس وسبتمبر) ١١٩٨ رسائل بليغة نادى فيها جميع «المؤمنين» الى النهوض للدفاع عن الارض المقدسة . وعين لاجل التجمعات مدة ستة اشهر (حتى آذار – مارس ١١٩٩) ، وكان على الذين فكروا فى السفر بحرا وعلى الذين اعتزموا السفر برا ان يجتمعوا حتى الصيف فى مرافئ ايطاليا الجنوبية وصقلية .[1]

وفى الحال اتخذت تدابير ملموسة دينية عملية ، ومالية وديبلوماسية – لاجل اعداد الحملة الصليبية .

امر البابا اينوشنتيوس الثالث جميع الاحبار بكل صرامة بان يطالبوا بمشاركة الكاثوليك في الحملة دون اى تردد واى شرط . ولاجل ايقاظ الحماسة الدينية امر رجال الدين من جميع المراتب بعدم التردد عن اصدار الحرم بحق المهملين والمقصرين حيال القضية المقدسة وحتى عن اصدار المنع (Interdit) على اراضيهم . ثم ان البابا اينوشنتيوس الثالث اعلن غفران الخطايا على اوسع نطاق لجميع المشتركين في الحملة الصليبية بموجب «السلطة التى منحنا اياها الرب ، وان نكن غير جديرين بها ، للربط والحل» (تعبير انجيلى مستعمل فى وثائق البابوية للاشارة الى حق رجال الدين فى غفران الخطايا او برفع الحرم) . كذلك اعلن ان الخلاص الابدى سيكون جزاء «سواء للذين لم يشتركوا شخصيا بل قدموا المقاتلين اللازمين على حسابهم ووفقا لاموالهم ام للذين اشتركوا شخصيا فى الحملة وان يكن على حساب الغير» . وأعفى الصليبيون من جميع الضرائب ، و«شخصيتهم وملكهم يوجدان ، منذ اخذ الصليب ، تحت حماية بطرس البار وحمايتنا» .

كان الجانب المالى من المشروع يقلق البابا اينوشنتيوس الثالث بصورة جدية جدا . ولاجل تأمين المبالغ النقدية الضرورية ، فرض فى اواخر سنة ١١٩٩ ضريبة صليبية خاصة على رجال الدين مقدارها جزء من اربعين جزءا من دخل الكنائس والاديرة السنوى . والضريبة ذاتها كان ينبغى ان يسددها بعض الجمعيات الرهبانية غير المميزة . وتحاشيا لاستياء الرهبان والكهنة الشحاح ، احاطهم البابا علما ببعد نظر ان هذه الضريبة خارقة للعادة ، وانه لا ينوى اللجوء اليها مستقبلا كضريبة دائمة على املاك المؤسسات الكنسية .

وتبين ان مخاوف البابا بصدد «سخاء» و«كرم» رجال الدين لم تكن باطلة . فان الاساقفة الفرنسيين ، مثلا ، لم يدفعوا الضريبة الصليبية ، رغم ان بعضهم وعد حتى بان يقدم للكرسى الرسولى اكثر مما طلب ؛ وبعد فترة قليلة ، فى سنة ١٢٠١ ، لام البابا اينوشنتيوس الثالث رجال الكنيسة الفرنسيين على انهم تعهدوا طوعا واختيارا بان يقدموا جزءا من ثلاثين جزءا من مداخيلهم ولكنهم لم يدفعوا حتى جزءا من اربعين جزءا ، اى هذا الجزء المستحق بموجب امره هو البابا . كذلك تذمر رجال الدين فى بلدان اخرى . وهنا وهناك ، اثار جباة البابا الريبة بهم : ألن تعلق المبالغ التى يجمعونها باصابع كبار رجال الدين فى روما ؟ ان مدون الاخبار الانجليزى ، الراهب ماتيو ، الملقب لسبب غير مفهوم بالباريسى ، يقول ان ضريبة البابا لا ترضى الرب . فهكذا كان ، اغلب الظن ، الرأى العام فى الاوساط الكنسية . كذلك قاومت بعض الجمعيات الرهبانية دفع النقود الصليبية ؛ فان الرهبان

السيسترسيين البخلاء قد ذادوا بعناد بالغ عن حريتهم واعفائهم من الضرائب ، معتبرين الضريبة الجديدة بمثابة اضطهاد او يكاد للجمعية .

وسعيا لضرب مثل حي على السخاء التقي لرجال الدين البخلاء ، تعهد البابا اينوشنتيوس الثالث بان يدفع عشر مداخيل الكورية الرومانية لحاجات الحملة .

كذلك بذل اينوشنتيوس الثالث نشاطا عاصفا في الميدان الديبلوماسي . في ذلك الوقت كانت تدور رحى الحرب بين فيليب الثاني اوغست وريشار قلب الاسد ، الامر الذي كان يمنع الفرسان والاسياد الفرنسيين والانجليز من الاشتراك في المشروع الذي دبره البابا . ولاجل مصالحة الجانبين المتعاديين ، ارسلت روما الى فرنسا قاصدا رسوليا ، هو الكاردينال الشماس في كنيسة القديسة مريم ، بطرس من كابوا . وقد تسنى لهذا الكاردينال ان يعقد هدنة بين فرنسا وانجلترا في كانون الثاني (يناير) ١١٩٩ (بعد ذلك ، باربعة اشهر لقي ريشار قلب الاسد مصرعه اثناء حصار قصر احد اتباعه في نورمنديا) . وفي الوقت نفسه ارسل قاصد رسولي آخر ، هو الكاردينال الشماس سوفريدو الى البندقية ، لانه كان بمقدورها وحدها ان تؤمن نقل الصليبيين المقبلين بحرا ، اذ ان جنوه وبيزا كانتا آنذاك في حالة حرب تجارية ، علما بان البابا حاول ، ولكن عبثا والحق يقال ، ان يصلح بين الخصمين السريعي الغضب (والى هاتين المدينتين ارسلوا كذلك كاردينالين) .

ولم تغب المانيا ايضا عن بال البابا اينوشنتيوس الثالث . فمنذ سنة ١١٩٨ كانت كتلتان اقطاعيتان تتعاديان هنا بضراوة – آل شتاوفن وآل فلف . وقد قدمت كل كتلة مرشحها الى التاج الملكي ، ولذا انتخب ملكان في آن واحد ، هما فيليب من شوابيا ، ابن فريدريك بربروسا ، واوثون من براونشفيغ (فلف) كان ابن اخت ريشار قلب الاسد . وفي الحال تدخل البابا في هذا الخصام الاقطاعي ، وبواسطة رسله وفي الرسائل الى الملكين الالمانيين والامراء الالمان ، نصح الحزبين المتعاديين بوضع حد للشقاق والخلاف . ان تدخل اينوشنتيوس الثالث في الشؤون الالمانية قد املته بصورة رئيسية اعتبارات تتعلق بالصراع الذي كان قد استمر اكثر من مائة سنة بين البابوية والامبراطورية الالمانية .

حاول الكرسي الرسولي قبل كل شيء ان يستغل النزاع الاقطاعي العاصف في المانيا لما فيه صالح روما السياسي ، وبخاصة لاجل توسيع اراضي الدولة البابوية في ايطاليا (على حساب ممتلكات آل شتاوفن) ولاجل توطيد مكانة البابوية المعنوية والسياسية في الاراضي الالمانية . وفي الوقت

نفسه اخذ الكرسي الرسولي بالحسبان حاجات الحملة الصليبية المقبلة . الا ان رسالة البابا اينوشنتيوس الثالث الهمام لم تسفر من وجهة النظر هذه عن اية نتيجة ايجابية ؛ فان الكتلتين الاقطاعيتين ، اللتين تدعم كل منهما احد الملكين ، ظلتا تتعاديان كما من قبل ، ولم يفعل البابا ، بتدخله ، داعما تارة احد الطرفين وطورا الطرف الاخر ، غير سكب الزيت على النار . واضطرت المانيالى دفع ثمن السياسة البابوية سنوات طويلة من الحروب الداخلية التى حالت بالتالى دون اشتراك عدد كبير نوعـا ما من الاقطاعيين الالمان اشتراكا مباشرا فى الحملة الصليبية .

واعدادا للحملة الصليبية ، توجه البابا اينوشنتيوس الثالث كذلك الى الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث . فقد كان على القسطنيطينية ، برأى البابا ، ان تحرك عساكرهـا لاجل تحرير القدس . هذا المطلب تلقـاه الامبراطـور البيزنطى فى رسالة باباويـة لام فيها اينوشنتيوس الثالث الامبراطور على انه من زمان لا يساعد الارض المقدسة . هذه الملامات لـم تكن سوى ورقة ديبلوماسية . فان اينوشنتيوس الثالث كان يحيك الخطط لسحب سيادة الكنيسة الرومانية على بيزنطية . وكان يهمه اشتراك بيزنطية فى الحملة الصليبية (مع ان البابا كان يريد بالتأكيد ان يستغل مواردها المادية والعسكرية لاجل فرض سيادة الكرسى الرسولى فى الشرق) اقل مما كان يهمه فى المقام الاول امر آخر هو اخضاع الكنيسة الارثوذكسية الشرقية للكنيسة الرومانية الغربية (اللاتينية) . وقد طرح البابا فى رسالته الى الامبراطور البيزنطى ، اول ما طرح ، مسألة اتحاد الكنيسة . وقد كان اتحاد الكنيستين صيغة قديمة لباباوات روما تتستر وراءهـا نوايا القضاء على استقلالية الكنيسة الارثوذكسية ، واستملاك ثرواتها ومداخيلها ، واخضاع بطريرك القسطنطينية ، رئيس الكنيسة الارثوذكسية ، ومن بعده الامبراطور نفسه .

وهكذا ظهرت الحملة الصليبيـة واتحاد الكنيسـة فى الحال وثيقـى الارتباط فى سياسة البابا اينوشنتيوس الثالث . وقد حدث ذلك لان البابا رأى فى الحملة الصليبية وسيلة مناسبة لاحراز نجاح مزدوج فى آن واحد : جعل القدس والقسطنطينية معا تابعتين لروما . ومن المؤكد ان اينوشنتيوس الثالث لم يكن يرى آنذاك فى الحملة الصليبيـة اكثر من وسيلة لتخويف الاوساط الحاكمة فى الامبراطورية البيزنطية بمختلف المضاعفات والتعقيدات المحتملة بالنسبة لها بالارتباط مع مشروع الفرسان الغربيين . وببساطة نقول ان البابا هوّل على الامبراطور البيزنطى لاجباره على اجراء تنازلات تتعلق

بالوحدة الكنسية . اما فى الواقع ، فان البابـــا لم يقتصر فى رسالته الى الكسيوس الثالث على النصائح «الابوية» وعلى الاستشهادات بالانجيل . بل المح بما يكفى من الوضوح الى ان بعض قوى الغرب ستعمل ، اغلب الظن ، ضد بيزنطية اذا رفضت القسطنطينية مطلب الكرسى الرسولى . وهذا التهديد الغامض كان مجلببا بجلباب ديبلوماسى .

ولكن القسطنطينية رفضت قطعا مطامع البابا اينوشنتيوس الثالث ، وفى شباط (فبراير) ١١٩٩ وجه الكسيوس الثالث اتهامات مقابلة الى البابوية بسبب سياستها حيال بيزنطية . وكل هذا لـــم يفعل غير ان اثار غضب البابا . وبقدر ما كانت تتطور الاحداث ، كان يحاول ان ينفذ تهديداتـــه لبيزنطية : فى ١١٩٨-١١٩٩ كانت سبل تنفيذ هذه التهديدات لا تزال ، والحق يقال ، غير واضحة ، ولكن البابا اعرب بكل وضوح عن جوهرها .

وهكذا بدأت تنعقد فى سنة ١١٩٨ تلك العقدة التى امتدت فى سنة ١٢٠٤ انشوطة مشدودة حول القسطنطينية .

ان تناحر البابوية وبيزنطية الذى كانت سياسة الباباوات الشمولية اساسه قد كان السبب الاول (من حيث زمن ظهوره) ، وان لم يكن السبب الرئيسى ، لتغير اتجاه الحملة الصليبية الرابعة . وسرعان ما انضمت اليه اسباب اخرى ، اهم .

الاستعدادات للحملة . دوافع الفرسان

لئن كان رجال الكنيسة بالكاد ساندوا بالنقود مبادرة حبرهم الاعظـــم الصليبية ، فانهم لم يضنوا بالمواعظ التى تطور بواعث الرسائل البابوية فى صالح الحملة الصليبيـــة . ففى كل مكان بدأ الاحبار الكاثوليك يلقون الخطابات النارية ، مدافعين عن الحرب المقدسة ، ومحاولين ان يجتذبوا بشتى الوسائل اليها اكبر عدد ممكن من المقاتلين ، ولم يكن الواعظون يضنون على المشتركين المقبلين فيها بالوعود بالنعم السماوية والارضية .

وهذه المرة قام بدور بطرس الناسك كاهن الرعية فولك من مدينـــة نويى الفرنسية الواقعة على نهر المارن . وباستغلال جهل الشعب ، استطاع ان يكسب لنفسه شهرة رجل الرب وشهرة التحلى بموهبة اجتراح العجائب والقدرة على شفاء المرضى والمقعدين . وفى غضون بضع سنوات ، بدءا من سنة ١١٩٨ حتى سنة وفاته ضمنا (توفى فى ايار - مايو ١٢٠٢) طاف فى دائرة باريس قرية قرية واعظا بالحملة الصليبية ومرفقا مواعظه (التى كان يشهر فيها بالمرابين والعواهر وشتى الخطاة) بشتى العجائب الممسرحة .

كان فولك ، كما كتب عنه مدون اخبار معاصر لا يخلو من بعد النظر ، «يعرف جيدا من وفي اى وقت يستطيع ويجب ان يشفيه» .

ان مواعظ فولك واضرابه من المتعصبين الذين كانوا يؤدون مثلـــه مهمتهم بتكليف مباشر من البابا اينوشنتيوس الثالث قد احرزت فى البدء بعض النجاح بين الفلاحين . ويؤكد مدون الاخبـــار الانجليزى رادولف كوغيسهيل ان فولك اجتذب الى درب الرب زهاء ٢٠٠ الف شخص – وهذا عدد من المؤكد انه مبالغ فيه بافراط وثمرة خيال مدون الاخبار . اما فى الواقع فان نجاح الكاهن الفرنسى كان اكثر تواضعا بكثير ، والرئيسى هو انه كان سريع الزوال ، فللحظة اغرت مواعظ المجنّدين البابويين الناريـــة الشعب البسيط ، ولكن نوبة الورع الصليبيى انقضت فيما بعد بسرعة . وظلت ازمان بطرس الناسك طى الماضى . . .

لقى نداء البابا صدى ، ولكن ليس فى الحال ، وبصورة محدودة جدا ، وعلى الاغلب فى الوسط الاقطاعى ، وقبل كل شيء فى فرنسا . ففى فرنسا استجاب لنداء البابا زهاء مائة من كبار الاسياد ومعهم اتباعهم الفرسان . اما الملوك ، فقد رفضوا هذه المرة الاستجابة لدعوة البابوية . ان ملك فرنسا فيليب الثانى اوغست ، الذى مر منذ عشر سنوات بتجربة فاشلة كان يتمسك برأى مفاده ان الحياة البشرية تكفيها حملة صليبية واحدة . ولم يأبه فيليب الثانى اوغست لنداء القاصد الرسولى بيار من كابوا الذى وصل الى فرنسا ، واستأنف الحرب ، بعد مصرع ريشار قلب الاسد ، ضد اعدائه ، آل بلانتاجينه ، اذ انقض على الممتلكات الفرنسية لخلف ريشار ، الملك الانجليـــزى الجديد جـان بلا ارض (Jean sans Terre) (١١٩٩–١٢١٦) . اما ريشار قلب الاسد ذو التأدب – وقد كان لا يزال حيا عندما بدأ فولك من نوبى مواعظه – فقد سخر على المكشوف مـن خطابـات هذا الكاهن النارية . ان بطل الحملة الصليبية الثالثة ، كما كتب مدون الاخبار الانجليزى جيرالد من كمبريدج ، قد قال لفولك ، ردا على دعواته ، ما يلى تقريبا : «انت تنصحنى بجحد ابنائى الثلاثة – التكبر والبخل والفجور . لا بأس . فانى اتنازل عنهم لمن هـــم اجدر منى ، تكبرى للهيكليين ، بخـــلى للسيسترسيين ، فجورى للكهنة» .

مرّ آذار (مارس) ١١٩٩ – الموعد الذى عيّنه البابـــا اينوشنتيوس الثالث لانجاز الاستعدادات للحملة – ولكن لم تكن هناك القوات الصليبية .

لم تقم الاستعدادت المباشرة للحملة الا منذ اواخر سنة ١١٩٩ . ففى تشرين الثانى (نوفمبر) اقيمت جولة بين الفرسان فى قصر اكرى بمقاطعة

شامبانيا (على نهر الاين ، منطقة الاردين) . وهنا تعهد كثيرون من المشتركين والحاضرين بالاشتراك فى الحملة الصليبية . وقد انتشرت فى الادب اسطورة تزعم ان فولك من نويى قد خطب فى الجولة ، وسحر الفرسان باقواله . ولكن مصدرنا الرئيسى الذى يروى بالتفصيل مجرى الاحداث ، وهو جوفروا فيللاردوان ، لا يذكر شيئا عن موعظة فولك ، ولو كان هذا الكاهن من نويى حضر الجولة فعلا ، لما كان تردد جرفروا فيللاردوان عن الاشارة الى ذلك . على كل حال ، استحوذت الحمّى الصليبية على الفرسان والاسياد منذ جولة تشرين الثانى (نوفمبر) . وبين الذين اخذوا الصليب ، كان طواغيت اقطاعيون بارزون ، اغلبهم من الشبان (لم يكن احد منهم تقريبا يتجاوز الثلاثين من العمر) .

يذكر فيللاردوان وروبر دى كلارى بالتفصيل الاسماء المدوية لاولئك البارونات «الاكابر جدا» الذين استجابوا فى اواخر سنة ١١٩٩ واوائل سنة ١٢٠٠ لنداء البابا ، وبينهم كان تيبو الثالث كونت دى شامبانيا ، ابن اخى الملك الفرنسى وابن اخى الملك الانجليزى ، وابن عمه لويس كونت دى بلوا وشارتر ، والكونت سيمون دى مونفور (فيما بعد ، قائد الحملة الصليبية ضد الالبيجيين) ، والكونت رينو دى مونميراى وغيرهم . وفى شباط (فبراير) ١٢٠٠ ، نذر النذر الصليبى بودوان التاسع ، كونت الفلاندر واينو ، واخوه هنرى ؛ كذلك تعهد بالاشتراك فى الحملة هوغ دى سان بول ، وايتيان دى برش ، وغيرهما . وقد كتب روبر دى كلارى : «هناك كان عدد من الآخرين كبير . . . الى حد انه ليس بوسعنا ان نذكر لكم جميع الفرسان ، الاجرياء والشجعان» . ومثل فيللاردوان يكتفى روبر دى كلارى بتعداد اشهر البارونات واتباعهم .

هؤلاء الفرسان جميعهم تقريبا لم تدفعهم البتة الدوافع الدينية الى الشرق ، مع انه لا مجال للشك فى توفرها . فقد كانوا من اهل زمانهم ، وكانوا على اقتناع بان .

من فتحوا اقطارا غريبة
بدوافع قضايا مقدسة ،
ينتظرهم فيما وراء القبر
غفران الخطايا .

فى هذه الابيات ، اعرب فيما بعد عن هذا الايمان احد المشتركين فى الحملة الصليبية الرابعة ، هو التروبادور (الشاعر المغنى الجوال) هاوسل فايديت (وللمناسبة نقول انه كان من كبار هواة الطعام اللذيذ والمقامرة

بالكعاب ، ولم يكن ينتمى ، اغلب الظن ، الى عداد الصليبيين ذوى الايمان العميق جدا) . وفضلا عن الذرائع الدينية ، لعبت التقاليد العائلية دورا معينا فى حمل عدد من كبار البارونات على اخذ الصليب . فان الاشتراك فى الحملة الصليبية كان يعتبر من زمان بعيد علامة حسن السلوك والسمعة فى عائلات النبلاء من الفرسان ، فقد كان يتعين على كل فارس شاب ان يزور حتما الارض المقدسة كصليبى . وهذا التقليد ترسخ فى سلالة كونتات دى بلوا (اشترك اسطفان دى بلوا فى الحملة الصليبية الاولى) . وكونتات دى شامبانيا (الكونت هنرى ، الاخ الاكبر للكونت تيبو الثالث ، كان من عداد المشتركين فى الحملة الصليبية الثالثة ومات حاكما للقدس سنة ١١٩٧) . وغوتيه دى بريان كان ابن وحفيد وابن حفيد صليبيين ، وكان جوفروا دى برش ، وميلون دى بريبان ، وتيبرى من الالزاس ابناء واحفاد مشتركين فى حملات صليبية .

ومع ذلك كانت اهم اسباب نزوة الطواغيت الفرنسيين الصليبية سياسية الطابع . فان هؤلاء البارونات الاكابر جميعهم تقريبا وقفوا الى جانب انجلترا فى الحرب التى دارت رحاها قبل ذاك بقليل بين فرنسا وانجلترا اى انهم قاتلوا فى معسكر اعداء فيليب الثانى اوغست وكانوا من انصار بيت انجو . والآن اخذ هؤلاء البارونات يتخوفون من انتقام الملك الفرنسى ، وقد خافوا قبل كل شىء ، بالطبع ، على اراضيهم فى فرنسا . ذلك ان فيليب الثانى نقل عداوته لريشار قلب الاسد ، بعد مصرعه ، الى جان بلا ارض . . . وقد قرر كونت دى بلوا ، وكونت الفلاندر ، وكذلك البارونات القريبون منهما ان يصبحوا صليبيين لكى يحرموا سيدهم الملك من امكانية الاستيلاء على ممتلكاتهم (بوصفهم حلفاء الملك الانجليزى) ، ذلك ان اموال الصليبيين كانت توضع فى حماية الكنيسة . وقد جاء بوضوح فى اخبار اينو ، مثلا : «ان بودوان ، كونت الفلاندر واينو حزن على وفاة الملك ريشار ، وخوفا من مكائد الملك الفرنسى ، اخذ الصليب مع كثيرين من البارونات لكى يتهرب من سلطته ويتجنب الحرب ضده» .

وليست الهموم والمقاصد الورعة ، بل الهموم والمقاصد الارضية المحضة - من باب المكانة والنفوذ او من باب النفعية المباشرة - هى التى دفعت ، كما من قبل ، الطواغيت الاقطاعيين الى المغامرات فيما وراء البحار . كانوا يحرصون على رفاههم وحفظ ممتلكاتهم ، وصيانتها من تطاولات عرش الكابيتيين ، واكثارها ، طبعا ، بفضل الفتوحات فى الشرق . كذلك كانت دوافع الفتح هى التى دفعت اساسا سواد الفرسان - الاتباع

واتباع الاتباع ، الذين انضموا تدريجيا الى الاعيان . وان الفارس روبر دى كلارى الذى انضم الى فصيلة سيده بيار داميان والذى صار فيما بعد مؤرخ الحملة ، قد اعلن بكل صراحة فيما بعد ان الصليبيين راحوا الى بيزنطية «لكى يستولوا على الاراضى» .

المفاوضات فى البندقية ، التجارة المشرقية وعلاقات جمهورية القديس مرقس مع بيزنطية

نحو صيف سنة ١٢٠٠ اجتمع فى فرنسا عدد ضخم بقياس ذلك الزمن من العساكر المستعدة للسفر بحرا . وقد انقسم الصليبيون الى زهاء ١٥٠ فصيلة بارونية (ترد فى مدونات الاخبار والوثائق اسماء زهاء ١٥٠ بارونا قائدا) ، تضم كل منها ٨٠–١٠٠ فارس . وعن اولى خطوات القادة العملية يحكى فى يومياته بالتفصيل جوفروا فيللاردوان الذى يحاول قصارى جهده فى كل سرده ان يبيض صفحة المشتركين فى الحملة وقادتهم .

اجتمع كبار البارونات بادىء ذى بدء فى سواسون ثم فى كومبيان (الى الشمال من باريس) — وقد حضر فيللاردوان بنفسه هذين الاجتماعين — وانتخبوا تيبو الثالث ، كونت دى شامبانيا ، البالغ من العمر ٢٢ سنة ، قائدا عسكريا اعلى للجحافل الاقطاعية . ثم اختاروا فى كومبيان ستة فرسان من الاعيان وارسلوهم رسلا الى البندقية . وكان على هؤلاء ان يتفقوا مع حكومة البندقية بشأن نقل القوات الصليبية بحرا . وفى عداد الرسل كان فيللاردوان نفسه ، كما كان الفارس الشاعر الشهير ببلاغته وفصاحته كونون دى بيتون ، الذى نظم قصيدتين عن الحملة الصليبية الثالثة . وصل الرسل الى البندقية فى اوائل شباط (فبراير) ١٢٠١ . وليس من المعلوم بدقة طول الوقت الذى اجروا فيه المفاوضات هناك : لربما ثمانية ايام ولربما زهاء شهرين (تختلف معلومات مصادرنا) . على كل حال ، تم التوقيع فى اوائل نيسان (ابريل) ١٢٠١ ، بعد بضعة لقاءات مع دوج البندقية الطاعن فى السن انريكو دندولو (١١٩٢–١٢٠٥) ، على معاهدة وافقت بموجبها البندقية ، بشروط معينة ، على تقديم السفن للصليبيين .

كان توقيع هذه المعاهدة واقعة مسؤولة جدا فى تاريخ الحملة الصليبية . فآنذاك بالضبط تم ، فى البندقية بالذات ، اعداد نابض آخر ، ناهيك بانه اكبر نوابض هذا المشروع ، نابض دفع الصليبيين فيما بعد ، حين استقام واستطال ، بعيدا عن الارض المقدسة . ولفهم دور «عروس

الادرياتيك» (هكذا كانوا يسمون البندقية احيانـا) فى الاحداث اللاحقة ، ينبغي ان نتصور مكانها فى علاقات الغرب التجارية مع الشرق ، وعلى الاخص فى العلاقات بين البندقية وبيزنطية .

منذ اواخر القرن الحادى عشر ، لعبت جمهورية القديس مرقس (كان هذا الرسول يعتبر حاميا لدولة البندقية) دورا من الدرجة الاولى فى التجارة المشرقية . ولكن كان لها منافسون جديون سواء فى ايطاليا ام فى خارجها . والمقصود هنا ، من جهة ، جنوه وبيزا ، ومن جهة اخرى ، بيزنطية ، التى كانت البندقية تعتبر منذ بضعة قرون تابعة اسمية لها . الا ان الاوليغاركية (الطغمة الحاكمة) الاقطاعية التجاريـة فى البندقية ، المعتمدة على جبروت الجمهورية الاقتصادى والبحرى الحربى ، كانت ، والحق يقال ، تتمتـع بامتيازات واسعة فى الامبراطورية البيزنطية . وقد اضطرت الدولة البيزنطية التى اخذ يتفاقم ضعفها اكثر فاكثر الى الاقدام على تنازلات فى صالح البندقية ، فان اسطول البندقية البحرى كان قوة انقذت القسطنطينية غير مرة من المصيبة .. ولكن بمـا انـه كان من الممكن ان تنقلب هذه القـوة ضد القسطنطينية ، فكان لا بدّ من اخذ ذلك بالحسبان .

وقبل ذلك بعشرات السنين ، انشأ البندقيون فى مرافئ بيزنطية محلات الوكالات التجارية والمكاتب ، وشرعوا ينقلون البضائع بلا رسوم ويتاجرون بها ، ونالوا الاعفاء التام من المراقبة الجمركية والحق فى الاقامة الدائمة فى القسطنطينية . ومع مر الزمن تحولت التبعية حيال بيزنطية بالنسبة للبندقية الى شكلية فارغة . ومع ذلك ، لم يكن وضع البندقية المميز فى الامبراطورية مأمونا كفاية . فان تصرف التجار واصحاب السفن والمرابين من البندقية بلا تكلف فى اراضى بيزنطية ، ولا سيما فى العاصمة ، كان غالبا ما يصطدم بمقاومة حازمة من جانب الاباطرة الذين كانوا يتخذون احيانا ضد «قطاع الطرق البحريين من الادرياتيك» (هكذا اسمى الكاتب البيزنطى يوستافى من سلانيك البندقيين) تدابير صارمة تضر بمصالح تجارة البندقية .

وفى هذه الاحوال كانت الاوساط الحاكمة فى بيزنطية تسترشد بمختلف الاعتبارات . وكان ثمة اعتبار يتسم باهمية لا يستهان بهـا هو ان تجار القسطنطينية كانوا يطالبون بالرد على تحكـم البندقيين لان هؤلاء كانوا منافسين مباشرين وخطرين على اهل التجارة والحرف البيزنطيين الميسورين . ففى آذار (مارس) ١١٧١ ، مثلا ، اعتقل فجأة ، بامر من الامبراطور مانويل كومنينوس ، تجار البندقية وجميع مواطنيها الاخرين المقيمين آنذاك فى اراضى الامبراطورية ، كما تعرضت اموالهم للمصادرة ، بما فيها البضائع والنقود

والاموال غير المنقولة . وبعد ذلك ، توقفت تجارة البندقية مع بيزنطية زهاء ١٥ سنة . وفى اوائل الثمانينيات فقط عاد البندقيون الى مدن بيزنطية ، واستؤنفت علاقات الاعمال . وفى سنة ١١٨٥ تسنى للبندقية حتى ان تتوصل الى عقد اتفاق مع حكومة اندرونيكوس كومنينوس تعهدت بيزنطية بموجبه ان تعوض الخسائر التى تكبدها البندقيون . وقد اكد الاباطرة اللاحقون من سنة ١١٨٩ الى سنة ١١٩٩ الالتزامات بتغطية الخسائر ، ولكنهم كانوا يماطلون فى دفع الديون . ولكن عندما بدأت الحملة الصليبية ، لم يكن مبلغ الدين يربو ، والحق يقال ، على ٦٠ كيلوغراما من الذهب ، ومع ذلك ، لم تكن بيزنطية قد سددت ديونها للبندقية . فهل كان بوسع ذلك الا يثير بحد ذاته الامتعاض فى البندقية ؟

والحال كان للامتعاض مبررات اكثر جدية بكثير . فان الاباطرة البيزنطيين الذين كانوا يقاومون بين الفينة والفينة تعسف البندقيين ، لم يكونوا يكتفون باعمال الاضطهاد المباشر او بالغاء هذه الامتيازات او تلك . وغير مرة قاموا بمحاولات لدفع البندقية الى الصدام مباشرة مع منافستيها بيزا وجنوه ، بفتح الاسواق البيزنطية امامهما .

ان تغلغل البيزيين والجنويين فى اقتصاد بيزنطية قد اسفر بالنسبة لكبار التجار والتجار الصغار والحرفيين فى بيزنطية عن عواقب ليست اشد وطأة من تصرف التجار والمرابين البندقيين بلا تكلف . وفى تربة استياء الروم العام ، وقع فى سنة ١١٨٢ حدث دخل التاريخ تحت اسم «حمام القسطنطينية» . ففى ايار (مايو) ١١٨٢ فكر الاعيان وكبار التجار القسطنطينيين ان يتخلصوا بضربة واحدة من المزاحمين الغربيين ، ويصرفوا عن انفسهم استياء اوسع الفئات الدنيا من اهالى القسطنطينية الذى كان قد نضج آنذاك ويوجهوه ضد اللاتين . ولهذا الغرض اثيرت فى العاصمة مذبحة ضد الغرباء . ان العامة التى انتفضت آنذاك فى العاصمة نهبت ودمرت دكاكين الجنويين والبيزيين وبيوتهم بكل قساوة وضراوة .

ومهما يكن من امر ، فان الحماية البيزنطية لمزاحمى البندقية ، وان تكن موقتة ، قد اقلقت واغضبت الاوساط الحاكمة فى جمهورية القديس مرقس ، فحاولت ان تمسك بيدها كليا زمام المراقبة على السواحل الشرقية من البحر الابيض المتوسط وتؤمن بالتالى للبندقية وضعا احتكاريا فى التجارة المشرقية الجارية عبر مرافئ بيزنطية فى البحر الابيض المتوسط والبحر الاسود ، الامر الذى كان يقتضى ازاحة بيزا وجنوه وسائر المنافسين الايطاليين من هناك ازاحة تامة . فاخذت تتكاثر المصادمات والمخاصمات مع بيزنطية ، وتصبح

اضرى فاضرى . وفى هذه الاحـوال ، كان توجّه الصليبيين الى البندقية بالنسبة لديبلوماسيتها اليقظة والعدوانية كنزا حقيقيا ناهيك بانه جاء من تلقاء ذاته الى يد البلوتوقراطية (حكم الاغنياء) البندقية .

فى الازمنة السابقة لم يبد البندقيون رغبة بالغة فى الاشتراك فى انتزاع المقدسات الفلسطينية ، رغم انه لم يكن بوسعهم ان يبقوا كليا بمعزل عن حملات الفرسان الغربيين الصليبية . ولكن بقدر ما كان يمر الزمن ، بقدر ما كان يتعين عليهم ان يتحلوا بمزيد من الحذر والاحتراس ، فان المنافسة مع بيزا وجنوه لم تكن تتفاقم فى بيزنطية وحسب ، فان مدن سوريا ولبنان وفلسطين كانت ايضا ميدانا للحرب التجارية ، وفى بعض منها (مثلا ، عكا ، صور) كان البندقيون يتمتعون بامتيازات لا يستهان بها . ونحو اوائل القرن الثالث عشر اتضح لفرسان الكسب والابتزاز من البندقية ان منافسيهـــم سيتمكنون من تقويض مواقع البندقية الاقتصادية والسياسية تقويضا تاما فى البلدان الشرقية وبخاصة فى بيزنطية اذا ما ظلوا يتوغلون كما من قبل ، بمثل هذه الهمة والمثابرة فى الاسواق الشرقية . والآن بالذات ، كما بدا ، حلت انسب فرصة لكي ينخرط كبار تجار البندقية بانشط من ذى قبل فى الحركة الصليبية . وعن هذا السبيل فقط كان يمكنهم ان يعززوا وضعهم المتقلقل فى امبراطورية الروم ، وان يقوا ارباحهم وامتيازاتهـم سواء من تطاولات الاباطرة البيزنطيين ام من منافسة البيزيين والجنويين اذا مـــا سددوا ، ان امكن ، ضربة ماحقة الى هذه الامبراطورية بمساعدة الصليبيين .

كان ساسة البندقية يحيكون افكارا من هذا النوع تدريجيا ، وكانت هذه الافكار تنضج مع تطور الاحداث . الا انها لم تكتسب شكلا ناجزا الى هذا الحد او ذاك الا نحو سنة ١٢٠٤ . ولكنه ليس من المستبعد ان يرقى ميلاد هذه الخطط الى سنة ١٢٠١ ، وان يكون الدوج انريكو دندولو «الحكيم والجرئ جدا» آنذاك (يستفاد من معطيات مدون الاخبار الايطالى مارينــو سانودو ان الدوج كان يبلغ من العمر ٨٥ سنة فى سنة انتخابه ، سنة ١١٩٢) ، البالغ الحنكة والذى لا يعرف الكلل ، قد فكر فى ان يجعل من القسطنطينية على وجه الضبط سندانا للمطرقة الصليبية . وبديهى ان هذا مجرد فرضية . ومن حق المؤرخ بالقدر نفسه ان ينسب الى البندقيين ، بنصيب متفاوت من صحة الاحتمــال ، نية امتلاك مصر ، ومشارف البحر الاحمر وسواحله . الا ان هناك امرا اكيدا هو ان فكرة استغلال اخلاق الصليبيين العدوانية والاغتصابية فى صالح البندقية قد راودت حكامها ، على الارجح ، فى سنة ١٢٠١ .

وهكذا كان اهم سبب اشترط انعطاف احداث الحملة الصليبية الرابعة لاحقا يكمن فى الوجهة التوسعية لسياسة جمهورية البندقية فى البحر الابيض المتوسط ، هذه السياسة التى كانت تستحثها التناقضات الاقتصادية الشديدة مع سائر المدن التجارية فى ايطاليا الشمالية . وهذه التناقضات اوجدها وحددها بصورة رئيسية تصادم المصالح التجارية فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط . وقد كان دوج البندقية ، حسب تعبير ريدفورد ، المتآمر الاول ، فى تلك المؤامرة التى شرعت تحيكها القوى السياسية فى اوروبا الغربية منذ بادئ بدء حول الحملة الصليبية .

معاهدة النقل . مقاصد البلوتوقراطية البندقية

بموجب الاحداث اللاحقة ، كانت خطة زعماء الصليبيين الاولية تتلخص فى دفع قوات الصليبيين الى مصر ، وسحق قلعة العالم الاسلامى الرئيسية ، ثم شن الحرب من هناك فى سبيل القدس . وعلى كل حال ، حين تجمع الصليبيون فى البندقية بعد سنة ، «اتفق» رؤساؤهم «بالاجماع على التحرك راسا صوب الاسكندرية ، ومحاصرتها بجرأة ، وتجربة حظهم فى الحرب اقل من تجربة قوة البأس الربانى» . هكذا ينقل الراهب من جمعية السيسترسيين غولنتر من دير بيريس فى الالزاس مقاصد الاسياد الستراتيجية ، وقد عرف هذه المقاصد من على لسان المشترك فى الحملة رئيس الدير المذكور ، مارتين .

ولكن الحرب ضد مصر لم تكن تطيب البتة للبندقية . فقد كانت لها علاقات تجارية منظمة جيدا مع مصر . ان تجار البندقية محبى النقود ، الذين كانوا يكسبون الارباح الطائلة من نقل الحجاج الى سوريا ولبنان وفلسطين ومن نقل الامدادات والحبوب من الغرب الى الافرنج فى الشرق ، كانوا فى الوقت نفسه يبيعون الاسلحة من السلطان المصرى بكسب ونفع . وكانوا كل سنة يكسبون الملايين من بيع مصر ، عدا ذلك ، الخشب والحديد ، ومن شراء العبيد فى مصر . صحيح ان السلطان المصرى كان يجبى مختلف الرسوم والضرائب عن البضائع التى يستوردها ويصدرها البندقيون ، ولكن التجار البندقيين كانوا بالمقابل يستطيعون ان يتاجروا فى عموم مصر وبدون اى قيد او عائق . ولكى تنمو التجارة وتتطور ، تعهد السلطان — كما جاء فى صك امان منحه السلطان — بعدم اخذ اى شيء نافل منهم . وفى الاسكندرية كان

للبندقيين حوش (خان) تجارى حيث كان بوسعهم ان يعيشوا ، كما جاء فى صك الامان المذكور ، بحرية وتقوى ، وان يكونوا حتى بحماية جنودهم بالذات .

وهكذا لم يكن التجار من البندقية ضد ابتزاز ارباح كبيرة من المسيحيين والمسلمين على السواء اذ كانوا يهتمون بالنقود فقط . اما من وجهة نظر البابوية ودول الصليبيين ، فان هذه كانت تجارة مع العدو . وفى الشرق الافرنجى كانوا يقولون ان الارباح التجارية بالنسبة للبندقية اهم بما لا قياس له من انتصار قضية الصليب (وليس من قبيل الصدفة نشأ عند احد مدونى الاخبار السوريين ، هو ارنول ، تفسير بصدد الحملة الصليبية انتشر فيما بعد واسع الانتشار ، ومفاده ان انحراف الحملة عن هدفها الاولى حدث لان السلطان المصرى اشترى من البندقية واجب توجيه الصليبيين فى اتجاه آخر !) .

وقد اضطر البابا اينوشنتيوس الثالث الى التنديد بالبندقيين تنديدا حادا بسبب لامبدئيتهم ، وقد سبق له ان منعهم فى سنة ١١٩٨ من بيع الاسلحة من المسلمين . وقد اعلن بشكل عام دون ان يسمى البندقية صراحة باسمها بل بالتلميح اليها بجلاء : «اننا نحرم من الكنيسة ونلعن اولئك المسيحيين الدجالين وعديمى التقوى الذين يحملون الى المسلمين ضد المسيح نفسه وضد الشعب المسيحى السلاح والحديد وخشب السفن ، وكذلك السفن ، او يخدمون ربابنة على سفن المسلمين القرصانية ، ويديرون آلاتهم الحربية ، او يقدمون لهم نصيحة ما او مساعدة ما لما فيه ضرر الارض المقدسة» . وامر البابا اينوشنتيوس الثالث بان يذكر الكهنة بهذا الحرم فى جميع المدن الساحلية البحرية فى ايام الاحاد والاعياد وبان يضيفوا قائلين ان الكنيسة لن تفتح ذراعيها للمسيحيين عديمى التقوى «اذا لم يمتنعوا فى صالح الارض المقدسة عن الطمع غير المشروع بالمال» . ان البابا قد وجه هذه التهديدات ، بالطبع ، الى البندقيــــة . ولكن البندقية تجاهلت موانع البابا كما تجاهلت قرارات المجامع الكنسية التى ابرق ورعد فيها الاساقفة ورؤساء الاديرة ضد اولئك الكاثوليكيين الذين لا يأنفون ، فى سبيل الربح ، من تقديم السلاح لاعداء الدين المسيحى .

وهكذا لم يكن ثمة بالنسبــة للبندقية اى معنى من تقديم الدعــم للصليبيين فى حربهم المفترضة العتيدة ضد مصر ، فقد كان العرب شريكا تجاريا موثوقا ، فى حين ان الاعتبارات الدينية كانت بخسة الثمن بنظر التجار واصحاب السفن من البندقية . ولهذا حرصت جمهورية القديس مرقس حين

تعهدت بنقل الصليبيين على ان تبقى لساستها حرية التصرف عند تحديد اتجاه الحملة .

بموجب المعاهدة ، تعهدت البندقية بان تقدم السفن لنقل ٤,٥ آلاف فارس و٤,٥ آلاف حصان ، و٩ آلاف سلاحدار و٢٠ الفا من المشاة ، وتؤمن لهم الغذاء طوال تسعة اشهر . وفضلا عن ذلك ، تعهدت البندقية ، «حبا بالله» ، ان تجهز بنفسها (اى على حسابها) ٥٠ مركبا مسلحا آخر . اما الصليبيون ، فقد تعهدوا ، من جهتهم ، ان يدفعوا لجمهورية القديس مرقس ، عن خدماتها ، ٨٥ الف مارك فضة («عن كل حصان اربعة ماركات ، وعن كل انسان ماركين») . وكان ينبغى دفع المبلغ بالتقسيط ، على اربعة اقساط على ان يدفع القسط الاخير فى موعد لا يعدو نيسان (ابريل) ١٢٠٢ . كذلك احتفظت البندقية لنفسها بنصف كل ما يستولى عليه الصليبيون بمساعدة اسطولها وقواتها المسلحة فى البر او فى البحر . جاء فى البند المعنى من المعاهدة : «النصف نحصل عليه نحن والنصف الاخر انتم» .

كانت هذه الشروط مفيدة جدا للبندقية من وجهة النظر التجارية البحتة . ولم يكن من الممكن ان يكون الحال آخر : فان تجار البندقية لم يتصرفوا يوما كيفما اتفق : وكل شىء كان محسوبا سلفا . التمويل السنوى لقوات من ٣٣٥٠٠ رجل و٤٥٠٠ حصان - يكلف زهاء ٧٠ الف مارك . هذه الحسابات حسبها ، اغلب الظن ، «قطاع الطرق البحريون من الادرياتيك» - مع النفقات على بناء الاسطول ، ونفقات الاستهلاك . وعادة كان التجار واصحاب السفن يكسبون من كل صفقة تجارية ما لا يقل عن ٢٠ بالمئة ، وكانت تلك ممارسة تجارية ثابتة عند البندقيين آنذاك . وكان مبلغ ٨٥ الف مارك يناسب معدلات الربح التجارى المألوفة بالنسبة لتجار البندقية .

فهل يفى الصليبيون بتعهداتهم ؟ من الممكن تماما ان يكون الدوج انريكو دندولو لم ينطلق الا من مقدار المبلغ الذى عينه ، فأخذ سلفا بالحسبان ان الصليبيين لا يستطيعون ان يدفعوا المبلغ المطلوب ، رغم انه من المشكوك فيه ، من جهة اخرى ، ان كان هذا المسنّ الذى كانت له خبرة جيدة فى العمليات التجارية الكبيرة النطاق ، يميل الى بناء الاوهام الباطلة . فان حكمة رجل الدولة البارزة كانت تجتمع عنده بنحو رائع مع بعد نظر التاجر المحنك فى الاعمال . ان المصيدة التى نصبها للصليبيين حاكم البندقية «الحكيم والمجيد جدا» كانت تتلخص قبل كل شىء فى امر آخر ، ومعاهدة النقل لم تكن صفقة تجارية عادية ، كما يظن بعض العلماء ، بل كانت تنطوى على

كل غدر الديبلوماسية البندقية التى تخدم نهج الجمهورية السياسى التوسعى فى البحر الابيض المتوسط .

فلا النقود بحد ذاتها ، ولا نصف الغنيمة المقبلــة ، كانت العنصر الاساسى ، الاول ، فى مقاصد دندولو . فبموجب المعاهدة ، كان على الصليبيين ان يدفعوا مبلغ ٨٥ الف مارك ، وفى هذا المجال يبدو كأن كل شىء واضح ولكن نص المعاهدة لم يكن ينبس ببنت شفة لا بصدد هدف الحملة الصليبية المباشر ، ولا – وهذا هو الاهم – بصدد كيفية العمل والتصرف فيما اذا لم يصل الى البندقية فى الموعد المعين – نحو نيسان (ابريل) ١٢٠٢ – عدد من الجنود يتطابق مع العدد المعين . فهل تتعدل التزامات الصليبيين اذا وصل اقل من ٤٥٠٠ فارس ، واقل من ٩٠٠٠ من السلاحدار واقل من ٢٠ الفا من المقاتلين المشاة ؟ لم ترد اية كلمة عن هذا فى المعاهدة . وفيها كان يغيب ، قصدا وعمدا ، الشرط الذى من شأنه ان يضبط بنحو ما مقدار المدفوعات عن النقل تبعا لعدد الصليبيين الفعلى . ومن هنا كان ينجم انه يجب عليهم ، مهما بلغ عدد الواصلين منهم الى البندقية فى الموعد المعين ، ان يدفعوا ٨٥ الف مارك عدا وتماما . وهنا بالذات كان يكمن مقلب ، وفى هذا البند بالذات خدع الدوج الرسل الفرنسيين ، الذين وقعوا المعاهدة ، ونصب الشباك لاصطياد جنود المسيح .

ان الديبلوماسى والتاجر البندقى الوقح قد حزر ما لم يمعن فيه الفكر ، والحق يقال ، فيللاردوان ورفاقه ، فان الدوج قد اخذ بالحسبان انــه من المشكوك فيه ان يجتمع فى البندقية جميع الصليبيين اذ ان الحماسة الدينية السابقة قد خفت نارها كثيرا ، وانه كان من الصعب جمع زهاء ٣٥ الف رجل تحت راية المسيح . ولكن اذا لم يجتمع ٣٣,٥ الف رجل ، بل اجتمع عدد اقل ، فان الحاضرين سيواجهون حتما مصاعب نقدية جدية فى حال تصفية الحسابات مع البندقية . واذ ذاك ، سيتوقف مصير الصليبيين اللاحق على حكومة البندقية ، عليه ، هو الدوج دندولو ، اذ سيكون بمقدوره ان يملى ارادة البندقية ، واذ ان الصليبيين سيجدون انفسهم كليا ، بوصفهم مديونين عاجزين ، غير مقتدرين ، فى ايدى البندقيين ، وسيضطرون بالتالى الى فعل ما يطلبه منهم الدوج . وعلى الدوج سيتوقف الاتجاه الذى ستتحول نحوه قوات الفرسان بحيث يعود ذلك باقصى النفع على البندقية .

من المشكوك فيه ان يكون الرسل الفرنسيون قد خاطرهم الشك فى هذه المقاصد الماكرة والغدارة التى حاكها الشيخ المسن الشائب والاجعد الوجه الذى تعاملوا معه والذى اقسم اليمين ، واضعا يده على الانجيل ، انــه

سيتقيد بالمعاهدة حرفا وروحا دون اى انحراف . ان الرسل لم يأخذوا بالحسبان تلك الملابسات والمضاعفات التى سيصطدم الصليبيون بها فيما بعد ، ولم يأخذوا بعين الاعتبار ان حماسة مواطنيهم وحميتهم قد تبردان . بل بالعكس . فان الرسل قد فرحوا ، عند توقيع المعاهدة ، لكونهم ادوا بمثل هذا النجاح المهمة التى عهد بها اليهم .

البابا اينوشنتيوس الثالث وحده استشف نوايا البندقيين الخفية ، فانه ، كما قال كارل ماركس (هكذا وردت هذه الفكرة فى مؤلفه «تسجيلات متسلسلة») «رأى خطة دندولو من طرف الى آخر» . ان البابا قد ادرك ان الدوج اراد ان يستغل الصليبيين فى مصلحة البندقية لاجل الفتوحات . ومع ذلك ، صادق البابا فى ٨ ايار (مايو) ١٢٠١ على معاهدة الصليبيين مع البندقية . «لقد فعل ذلك بكل طيبة خاطر» كما كتب فيللاردوان . هنا يخطىء هذا المؤرخ الفرنسي بعض الشىء ، او لربما يصور قصدا وعمدا موقف رئيس الكنيسة الكاثوليكية بهذه الصورة . يقينا انه لم يكن بوسع البابا ان يرفض المعاهدة ، اذ انه بدون اسطول البندقية كان يستحيل على الصليبيين ان يمضوا فيما وراء البحر ، وفضلا عن ذلك ، ارسل البابا اينوشنتيوس الثالث ، اثر المصادقة على المعاهدة (وهذا الواقع تؤكد صحته شهادة مرجع صادق كما هو عليه كتاب الاخبار «اجتياح القسطنطينية») ، رسالة الى رجال الدين فى البندقية اعرب فيها عن ارتياحه لكون «اولاده المحبوبين ، الدوج انريكو وشعب البندقية قرروا ان يقدموا للارض المقدسة مثل هذه المساعدة الجبارة» . بل ان البابا المنافق والمرائى مضى الى حد التظاهر بان كل شىء يسير حسب نواياه ، وبان كل شىء يتحقق تنفيذا لارادته ، فقد خاطب ، مثلا ، رجال الكنيسة فى انجلترا وفرنسا طالبا منهم ان يراقبوا بدقة وعناية امر ارسال الفرسان فى الحملة فى الوقت المناسب ، لاجل التقيد بالموعد «الذى عينه ابناؤنا المحبوبون كونتات الفلاندر وشامبانيا وبلوا» .

ومع ذلك ، تقدم البابا عندما صادق على المعاهدة ، بشرط مسبق كثير الدلالة ، مفاده ان الصليبيين الذاهبين على متن سفن البندقية لمحاربة «الكفار» «لن يرفعوا السلاح ضد المسيحيين» . فقد استشف اينوشنتيوس الثالث بجلاء فى البنود المكتوبة بدهاء ومكر من المعاهدة شيئا ما لا يرام ، ذلك انه كان يعرف جيدا جدا ان البندقيين ينقلون لقاء النقود اى انسان كان والى اى مكان كان . ومن المحتمل تماما ان ضمير البابا لم يكن نقيا عند

مصادقته على المعاهدة وان «الفأر لعب فى عبه» ، ولذا من المشكوك فيه ان يتطابق قول فيللاردوان «بكل طيبة خاطر» مع الواقع .

ان الهجوم على المسيحيين الذى كان البابا اينوسنتيوس الثالث يفهم جيدا جدا احتماله ، كان من شأنه ان يسيىء الى فكرة الحملة الصليبية . واذا كان البابا قد بارك معاهدة النقل ، فانه لم يفعل ذلك الا بربط مباركته بالتحفظ المذكور اعلاه والجوهرى جدا : الامتناع عن مهاجمة المسيحيين . ان اينوشنتيوس الثالث قد صادق بالفعل على القيام بمشروع الفتح ، الذى كان لا بدّ لمصالح البندقية الاقتصادية والسياسية ، فى المقام الاول ان تحدد موضوعه . ولقد كانت بيزنطية هذا الموضوع الاكثر احتمالا ، ناهيك بان اينوشنتيوس الثالث نفسه كان يسعى هو ايضا الى اخضاعها . ان خط البابوية الديبلوماسى فى الحملة الصليبية ومشروع البندقيين الاغتصابى قد تقاربا فيما بينهما وان لم يكن قد تطابقا كليا .

ومهما يكن من امر ، فان ربيع سنة ١٢٠١ قد اعد التربة لاجل تحويل الحملة الصليبية ضد مصر الى حملة لصوصية ضد بيزنطية .

الامبراطورية الالمانية وفرنسا ضد بيزنطية . بونيفاسيوس دى مونفيرات

فى الوقت ذاته تقريبا ، فعلت فعلها فئة اخرى من الاسباب التى حرفت الصليبيين فيما بعد عن الهدف الاولى واشترطت اتجاه الحملة الجديد ، هى التناقضات السياسية بين الامبراطوريتين الالمانية والبيزنطية . اما اساس هذه التناقضات التى تطورت فى القرن الثانى عشر ، فهو بصورة رئيسية تطلعات الاغتصاب والفتح الى البحر الابيض المتوسط من جانب تلك العناصر الاقطاعية فى المانيا (وعلى الاغلب فى اراضيها الجنوبية) التى تلاحمت حول سلالة هوهشتاوفن .

فان سياسة هنريخ السادس المعادية لبيزنطية قد واصلها اخوه الاصغر وخلفه فيليب من شوابيا (١١٩٨-١٢٠٨) . وتطبيق هذه السياسة كان يلائمه تقلقل الحياة السياسية فى بيزنطية ، الذى كان يعكس ضعفها الداخلى فى عهد ينتهى فيه فى الامبراطورية نشوء الاوضاع الاقطاعية . ففى سنة ١١٩٥ ، حدث انقلاب قصرى جديد فى القسطنطينية (وقد سبق ان اشرنا اليه) ، وبنتيجته حرم الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس من السلطة (وكذلك من البصر) ، واعتلى اخوه الكسيوس الثالث العرش (١١٩٥-١٢٠٣) .

ثم ان فيليب من شوابيا كان قد تزوج ، بفضل جهود هنريخ السادس ، من ايرينا ابنة اسحق الثانى . واذا الملك الالمانى الذى كان يفكر فى طريقة للمضى بالقضية التى قطعت وفاة هنريخ السادس المفاجئة حبلها — قضية امتلاك القسطنطينية — الى نهاية ناجحة يتصل بحميه المعتقل اسحق الثانى . والواقع ان الامبراطور السابق الذى اصيب بالعمى ، كما يشهد نيقيتاس الخونياتى الذى كان يعرف جيدا شؤون البلاط ، لم يكن فى عزلة خارقة الصرامة : «كان بوسع كل راغب ان يتقابل مع اسحق» . ويروى المؤرخ عن لقاءات اسحق انجيلوس السرية مع اللاتين ، حيث كان البحث يتناول «كيفية الانتقام من الكسيوس لاهانته والاطاحة به» . وبدون صعوبات كبيرة كان الامبراطور السابق يرسل (الى المانيا) الرسائل الى ابنته ايرينا وكان يتلقى بدوره من هناك اجوبة مع توصيات بكيفية تصرفه .

وهكذا اصبح بلاط آل شتاوفن فى السنوات الاخيرة من القرن الثانى عشر مركز مؤامرات سياسية غايتها الرسمية ، الشكلية ، اعادة اسحق الثانى انجيلوس الى عرش القسطنطينية . اما فى الواقع فان الخليفة الاصغر لفريدريك بربروسا ووريث هنريخ السادس كان يسعى بكل جلاء الى الاستيلاء على السلطة فى بيزنطية .

وهذه النوايا كانت بحد ذاتها تقترن بالمجازفة ، ذلك ان الظروف كانت تجبر دائما فيليب من شوابيا على الذود عن حقوقه فى التاج فى غمرة الصراع ضد آل فلف فى المانيا بالذات ، ومع ذلك انخرط الملك الجديد باسلافه فى مغامرة جديدة . فقد جاءت الاستعدادات التى بدأت فى الغرب للحملة الصليبية ، من وجهة نظر فيليب من شوابيا ، فى الوقت المناسب تماما ، ذلك انه كان يريد استغلال الصليبيين فى خدمة مصالحه .

ولهذا الغرض كان ينبغى الحصول على سند مباشر بين فرسان الصليب . وجاءت الظروف تساعد فيليب من شوابيا . ففى ٢٤ ايار (مايو) ١٢٠١ ، حين بلغت الاستعدادات للحملة الاوج ، توفى فجأة تيبو الثالث الشاب ، كونت دى شامبانيا ، المعترف به عموما زعيما للصليبيين الفرنسيين . وفور وفاته ، بدأوا يتكلمون فى الاوساط القيادية للقوات الصليبية عن ضرورة انتخاب قائد آخر عوضا عن القائد الراحل .

واذا المانيا الواقعة تحت حكم شتاوفن والتى وقفت حتى ذاك فى معزل عن شؤون الحملة الصليبية تشترك فيها مذ ذاك بانشط نحو . فان المركيز بونيفاسيوس دى مونفيرات السيد الغنى والانيس من ايطاليا الشمالية ، المشهور بحمايته للتروبادورين ، قد استرعى انتباه فيليب من شوابيا .

وكانت عائلة المركيز على صلة قربى وعلى صداقة قديمة مع آل شتاوفن . وكان بونيفاسيوس دى مونفيرات ذاته (وكان يناهز الخمسين من العمر) قائدا عسكريا وديبلوماسيا بارعا . ولا ريب فى ان الملك الالمانى اخذ بالحسبان هذا الظرف ، اذ انه بنى حسابات سياسية بعيدة المدى على الحملة الصليبية .

ولكن السبب الرئيسى الذى حمل فيليب من شوابيا على اختيار المركيز دى مونفيرات بالذات قد تلخص فيما يلى : بحكم التقاليد القديمة لبيت الماركغرافات مونفيرات ، كانت مصالح بونيفاسيوس قريبة من تطلعات اولئك الاقطاعيين الغربيين الذين كانوا حتى فى القرن الثانى عشر متسابقين الى سياسة الصليبيين الاغتصابية فى الشرق والذين استقروا فى الدول التى اسسوها . وكان غيوم الطويل السيف (غليوم الطويل) ، اخو بونيفاسيوس الاكبر ، متزوجا من سيبيل ، اخت ملك القدس بودوان الرابع ، وكان يعتبر كونت يافا وعسقلان بناء على ممتلكات زوجته ، التى كانت دوطتها . واخو بونيفاسيوس الآخر ، كونراد دى مونفيرات ، اشترك فى الحملة الصليبية الثالثة ، وقد سبق ان اشتهر فى سنة ١١٨٧ كمدافع صلب عن صور ضد صلاح الدين ، وفيما بعد ، فى سنة ١١٩٢ لم يكن بعيدا عن نيل تاج مملكة القدس . وكان اخوة بونيفاسيوس يشقون لانفسهم طريقا ، بكل همة وحزم ، وليس بدون نجاح ، الى المناصب العليا وامتلاك الاراضى فى المملكة البيزنطية ايضا . وذات مرة شغل كونراد دى مونفيرات مركزا بارزا فى بلاط اسحق الثانى انجيلوس الذى كان متزوجا من اخته فيوذورا والذى ساعده كونراد فى سنة ١١٨٦ على قمع الفتنة التى نشبت ضد الامبراطور . وفضلا عن ذلك ، كسب اخ آخر من اخوة بونيفاسيوس هو رينه الذى تزوج فى سنة ١١٨٠ من ماريا ، ابنة الامبراطور البيزنطى مانويل كومنينوس ، لقب «قيصر» ، كما نال ، كدوطة لزوجته ، حسب الاشاعات ، المدينة التجارية الثانية بعد القسطنطينية فى الامبراطورية البيزنطية — سالونكيى (سلانيك) . علاوة على ذلك كان بونيفاسيوس نفسه قد ابدى من زمان بعيد استعداده للاقتداء بمثال اقربائه رغم انه لم يشترك قبل ذلك فى الحملات الصليبية . وكان هذا المركيز يضمر النوايا العدوانية حيال سلانيك ذاتها (فقد كان يعتبر نفسه وريثا شرعيا لكنّته) وغيرها من الاراضى فى البلقان .

وهكذا كان لهذا الطاغوت الاقطاعى (وللاسياد اللومبارديين الآخرين السائرين وراءه ، وهم ادنى مرتبة ، وذوو مطامع اكثر تواضعا) مصلحة مباشرة فى تنفيذ المقاصد المعادية لبيزنطية والمخاكسة فى بلاط آل

هوهنشتاوفن ، فان الاستيلاء على بيزنطية كان يبشره هو ايضا بغنيمة كبيرة . اولم يكن يصح لفيليب من شوابيا ان يجهد لانتخابه زعيما لفصائل الصليبيين ؟ ففي حال انتخابه ، يغدو بمقدوره ان يسهم بقسط كبير في تطبيق خطط آل هوهنشتاوفن الاغتصابية التوسعية .

ولكن ما العمل لكي يوضع بونيفاسيوس دي مونفيرات في رئاسة الصليبيين الفرنسيين ؟ لبلوغ هذا الهدف ، راجع فيليب من شوابيا فيليب الآخر ، ملك فرنسا ، الذي كان آنذاك في علاقات تحالف معه . وهذا التحالف سبق ان اقيم في سنة ١١٩٨ ، ففي ذلك الوقت كان فيليب الثاني ملك فرنسا ، يقاتل ريشار قلب الاسد في فرنسا ، بينما كان ابن اخت ريشار ، اوتون من براونشفيغ ، الذي انتخبه قسم من الاقطاعيين الالمان ملكا بالمانيا ، يذود عن حقوقه في التاج في صراع ضار ضد فيليب من شوابيا . واتحد فيليب الفرنسي وفيليب الالماني ضد اعدائهما . وفي سنة ١٢٠٢ كان التحالف لا يزال ساري المفعول ، ويستفاد من المعطيات الواردة عند بعض مدوني الاخبار من اوائل القرن الثالث عشر (المائعة نوعا ما ، والحق يقال) ، ان فيليب الثاني اوغست قد تجاوب مع طلب سميّه الالماني .

وعندما تناول البحث في مجلس البارونات الصليبيين في سواسون قضية المرشحين لمنصب قائد قوات الفرسان (هذا المنصب عرضوه اولا على الدوق اودو الثالث من بورغونيا ثم على الكونت تيوبالد من بار — وقد رفضا كلاهما العرض) ، تدخل الملك الفرنسي بنشاط في الانتخابات . ويفيد مؤلف «افعال اينوشنتيوس الثالث» ان فيليب الثاني نصح رؤساء الجحفل بانتخاب بونيفاسيوس دي مونفيرات قائدا اعلى للصليبيين . وعن الشيء نفسه ، وان باسلوب آخر ، يكتب مدون الاخبار الايطالي سوزومن من بيستوا ، ومؤلف «اخبار موريه» اليونانية .

ويروي جوفروا فيللاردوان في مفكراته انه قد اشترك في مداولات سواسون واقترح فيها اسم الامير الايطالي الشمالي . وفي هذه الحالة ، لم يعرب مارشال شامبانيا الا عن ارادة ملك فرنسا . وقد قبل اقتراحه رغم انه من المشكوك فيه ان يكون ترشيح الايطالي الماركغراف دي مونفيرات ، الذي ظهر بصورة مفاجئة جدا قد طاب للاسياد الفرنسيين . لقد كانوا على علم ، والحق يقال ، بان عائلته تهتم من قديم الزمان بالشرق ، والمعلومات المناسبة في هذا الصدد كان من الممكن ان يحملها الى فرنسا اولئك الرسل الذين سافروا الى البندقية لعقد المعاهدة بشأن نقل الصليبيين (وقد عاد

ستة منهم الى فرنسا عبر جنوه التى كانت سلطاتها مرتبطة ببيت الماركغرافات دى مونفيرات) . ولكن البارونات لم ينسوا امرا آخر ، هو انهـم كانوا باغلبيتهم منذ امد قريب اخصاما سياسيين للملك فيليب الثانى اوغست ، وان بونيفاسيوس كان قريبه وصنيعه . وعدا ذلك ، كان بودوان ، كونت الفلاندر وغيره من الامراء الذين كانوا للتو يعارضون فيليب الثانى فى فرنسا بوصفهم حلفاء ريشار قلب الاسد ، يؤيدون فى المانيا آل فلـف الذين كانوا ايعارضون توطيد سلطة آل هوهنشتاوفن والذين كانوا متحالفين مع انجلترا . ثم ان ترشيح بونيفاسيوس دى مونفيرات ، المشهور بميله الى آل هوهنشتاوفن ، لم يكن بوسعه بهذا المعنى ايضا ان يطيـب لانصار الحزب الانجليزى - الفلفى .

ومع ذلك ، فعلت فعلها نصيحة فيليب الثانى ، والاصح القول ، ضغطه ، فى اتباعه فى سواسون . فبعد مهاترات طويلة («قيل كلام كثير مع وضد»- هكذا يفيد فيللاردوان بايجاز) انتخبوا بونيفاسيوس دى مونفيـرات قائدا عسكريا للقوات الصليبية . وفى ايلول (سبتمبر) ١٢٠١ وصل بونيفاسيوس الى فرنسا لترؤس الصليبيين . وهكذا صار احد انصار آل هوهنشتاوفن ، والامير الغنى ، المستعد بالتأكيد لمشاطرة مقاصد فيليب من شوابيـا المعادية لبيزنطية وللاسهام فى تحقيقها ، القائد الاعلى للفرسان الفرنسيين ؛ ففى هذه الحال كان بوسعه ان يأمل فى كسب معين ؛

وهكذا ، فى سنة ١٢٠١ ، تغلغلت مصالح سياسية جديدة فى قضية قيادة الحملة الصليبية ، فقد كان ينبغى ان يصبح بونيفاسيوس قبل كـل شىء منفذا لخطط آل هوهنشتاوفن الرامية الى اخضاع بيزنطية . وفى الوقـت ذاته ، كان بونيفاسيوس مرتبطا بمصالح القرابة والسياسة بفرنسـا الكابيتيين . وهناك مبررات للافتراض ان فيليب الثانى اوغست نفسه لم يكن غريبا عن الادعاءات بالعرش البيزنطى . فقد سبـق لوالده لويس السابع ان حاك مشاريع ما فى هذا المجال ، وحاول ان يؤمـن للكابيتيين حقوقا فى تاج القسطنطينية ، اذ ان اخت فيليب الثانى تزوجت فى سنـة ١١٨٠ من الكسيوس الثانى ، ابن الامبراطور مانويل كومنينوس . ولربما كان فيليب الثانى ينوى سرا ان يبعث مشاريع والده .

يروى مدون الاخبار الانجليزى روجر من هوفدن واقعة طريفة تلقى النور بقدر ما على هذا الجانب القليل الشهرة من السياسة الفرنسية فـى اواخر القرن الثانى عشر واوائل القرن الثالث عشر . ذات مرة ، بعد مصرع ريشار قلب الاسد ، جاء الى باريس لمواجهة فيليب الثانى اوغست قائد

القراصنة النورمانيين الصيقليين المذكور سابقا «الاميرال» مرغريتون ، كونت مالطة (ويسميه نيقيتاس الخونياتي «باله البحر») ، المغامر الذى حاول فى حينه حتى ان يفرض نفسه على صلاح الدين كحليف له ضد اخصامه من الاعيان الاقطاعيين المسلمين . وقد عرض مرغريتون على الملك الفرنسى ان يجعله «امبراطور القسطنطينية» . وقد وافق فيليب الثانى ، كما يفيد مدون الاخبار ، على ان يستفيد من خدمات القرصان الصيقلى ، ووعد بتزويد رجاله بالمؤن والسلاح والخيول - خلاصة القول - بكل ما يلزم لاجل شن حملة على القسطنطينية . وكان من المفترض ان تنطلق الحملة من بريينديزى . الا ان وفاة مرغريتون فجاة حال ، كما يزعم ، دون تحقيق هذا المقصد .

ولئن كانت قصة مدون الاخبار ضعيفة الصحة (والارجح انه هكذا بالذات حدث ، اذ ان مرغريتون مات فى سنة ١١٩٥) ، فانها على كل حال تشكل برهانا غير مباشر على كيفية تقييم المعاصرين لموقف المملكة الفرنسية من بيزنطية . ان الواقعة التي رواها روجر من هوفدن تؤكد بقدر معين صحة الفرضية القائلة ان فيليب الثانى كان يعتزم هو ايضا ان يمد يده الى بيزنطية المستضعفة . ولذا كان اسهامه فى انتخاب بونيفاسيوس دى مونفيرات حيلة سياسية ترمى بنحو او آخر الى الحصول على نفع مباشر لاجل السلطة الملكية فى فرنسا .

وعلى كل حال ، تشكلت نحو خريف ١٢٠١ ، فى سلسلة الاحداث التى ادت الى «انحراف الصليبيين عن السبيل» ، حلقة مهمة اخرى ؛ ففى اعداد الحملة المرسومة سرا ضد بيزنطية ، انخرطت فرنسا الكابيتيين ، والمانيا آل هوهنشتاوفن . ولكن جميع الخيوط السياسية الممتدة باتجاه القسطنطينية ظلت معزولة بعضها عن بعض . الا ان سنتى ١٢٠١ و١٢٠٢ حملتا شيئا ما جديدا فى هذا المجال .

الديبلوماسية السرية للكورية الرومانية

راح الماركغراف بونيفاسيوس دى مونفيرات الى المانيا بعد ان امضى بعض الوقت فى فرنسا ، وتفاوض مع فيليب الثانى وحصل منه على رسالة توصية سرية الى البابا اينوشنتيوس الثالث ، وحضر الكابيتول (الاجتماع العام) لجمعية السيسترسيين الرهبانية فى سيتو ، واستمع الى مواعظ فولك من نوييى . وفى اواخر كانون الاول (يسمبر) ١٢٠١ ، تقابل فى هاغيناو مع

فيليب من شوابيا واتفق معه ايضا على الاعمال اللاحقة . وفى اوائل آذار (مارس) من السنة التالية ، سنة ١٢٠٢ ، وصل بونيفاسيوس دى مونفيرات الى روما . وهنا مثل مصالح فيليب الفرنسى وفيليب الالمانى . ان معطيات المعاصرين المتناقضة والمراوغة تتيح الظن مع ذلك ان الماركغراف قد ألمح الى البابا اينوشنتيوس الثالث ، اثناء المفاضات معه حول مجموعة كبيرة من القضايا الديبلوماسية ، الى المشروع المتوفر لاستخدام الصليبيين فى اغراض معادية لبيزنطية .

فى ذلك الحين ، لم يكن البابا قد حصل على اية تنازلات من الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث فى شؤون الاتحاد بين الكنيستين البيزنطية (الارثوذكسية) واللاتينية ، ولذا ، كما يستفاد من جميع الدلائل ، دخل فى صفقة غير علنية مع قائد الصليبيين . الا ان مؤرخ سيرة حياة البابا ينكر هذا ، ولكن والحق يقال ، لم يكن من الممكن ان يتصرف تصرفا آخر . ان «افعال اينوشنتيوس الثالث» هى عبارة عن مديح تام للبابا . ثم ان مدون الاخبار يعرض المفاوضات بين بونيفاسيوس دى مونفيرات واينوشنتيوس الثالث باقصى الايجاز ، فمن الجلى انه لا يرغب فى الاساءة الى سمعة بطله وسيده . ولكن وثائق احدث عهدا بما فيها مراسلات اينوشنتيوس الثالث مع بونيفاسيوس دى مونفيرات تبيّن ان عروض الماركغراف قد لقيت فى بلاط البابا التفهم الواجب . ذلك ان البابا ذاته كان قد فكر فى بداية الحملة الصليبية باستخدام الصليبيين ضد الامبراطورية البيزنطية .

اثر الصفقة الاولى عقدت صفقة ثانية ، وهذه المرة مع الامير البيزنطى الكسيوس ابن اسحق الثانى انجيلوس واخى زوجة فيليبَ من شوابيا . وحين سنحت الفرصة ، فر الكسيوس من القسطنطينية . وقد ساعده فى الفرار مالك سفن من بيزا قدم لابن الامبراطور مأوى على متن سفينته واتاح له بالتالى ، كما قال المؤرخ نيقيتاس الخونياتى ، «اخفاء آثاره فى الماء» . وسرعان ما تبين ان الامير الشاب ، كما يروى هذا المؤرخ البيزنطى ، قد فر ، «فارسل الفاسيلفس يفتش السفينة ، ولكن الرسل لم يستطيعوا ايجاد الكسيوس . فقد قص شعره بشكل حلقة ، وارتدى البسة لاتينية ، واختلط فى جمع اللاتين وتوارى على هذا النحو عن الذين كانوا يفتشون عنه» .

وها هم الباحثون فى تاريخ الحملة الصليبية الرابعة يتجادلون منذ نحو مائة سنة لمعرفة زمان فرار الامير الكسيوس بالضبط ، فبعضهم يعيده الى سنة ١٢٠١ ، وبعض آخر يسوق حججا ليست اقل ظرافة وفكاهة فى صالح موعد احدث – سنة ١٢٠٢ . وفى الآونة الاخيرة اخذ يتغلب بكل جلاء

انصار الحل الاول ، ذلك ان الكسيوس وصل ، اغلب الظن ، الى مرفا انكون الايطالى فى ايلول - تشرين الاول (سبتمبر - اكتوبر) ١٢٠١ . ومن هنا ، كما يشهد فيللاردوان ، مضى الى ملك المانيا فيليب ، زوج اخته ، وفى ربيع سنة ١٢٠٢ ، ظهر الكسيوس فى روما ، فور زيارة بونيفاسيوس دى مونفيرات لروما .

اخذ الامير الكسيوس امام البابا وضعة الطالب الوديع والمستكين ، وفقا لتعليمات حاميه الالمانى ، فقد طلب من بابا روما مساعدته ضد عمه المغتصب الكسيوس الثالث ، اى مساعدته فى اعادة سلطة والده فى القسطنطينية . ومكافاة على هذه المساعدة ، - وكان ينبغى ، بالطبع ، ان يقدمها الصليبيون الذين سبق ان اتصل بهم الامير الشاب ، اغلب الظن ، فى طريقه الى المانيا ، اثناء توقفه فى لومبارديا - وعد الامير الكسيوس ابن اسحق الثانى انجيلوس ، البابا باخضاع الكنيسة البيزنطية للكنيسة الرومانية وبتأمين اشتراك بيزنطية فى الحملة الصليبية .

وهكذا توفرت للبابا اينوشنتيوس الثالث الامكانية التامة لستر نواياه الحقيقية حيال بيزنطية بحجة طيبة المظهر - حجة الدفاع عن «قضية عادلة» قوامها بعث سلطة الحكومة الشرعية فى القسطنطينية . وطبعا ، لم يفوته البابا مثل هذه الفرصة السانحة ، فان شتى المصادر - مدونات الاخبار ، معطيات المراسلات الرسمية ، وحتى آثار الفن النحتى والمعمارى - تدل على انه تم التوصل فى روما الى اتفاق تام بين البابا اينوشنتيوس الثالث والامير الشاب الكسيوس * بصدد استخدام القوات الصليبية لاجل اعادة اسحق الثانى انجيلوس الى العرش البيزنطى .

وكما فى حالة بونفياسيوس دى مونفيرات ، تنكر الوثائق التى صدرت عن ديوان البابا ، بالطبع ، وجود هذا الاتفاق . ان البابا اينوشنتيوس الثالث نفسه ينكر فكرة التواطؤ مع ابن الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس فى رسالته الى الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث بتاريخ ١٦ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٢٠٢ ، ويحدثه عن نتائج زيارة الامير الشاب الى روما فى تعابير ارادها غامضة («اعطينا الامير جوابا وفقا لما نراه ضروريا») سعيا منه بكل جلاء الى استثارة شعور القلق فى نفس الامبراطور البيزنطى

* مشهد اللقاء بين الشاب والبابا رسمه رسام فسيفساء مجهول من راقن بين تلك الوقائع التاريخية من الحملة الصليبية الرابعة التى زخرفت برسومها فى سنة ١٢١٣ ارضية كنيسة سان دجوفانى الانجيلى . وهذا واقع واسع الدلالة بحد ذاته .

(«ولربما ؟») . الا ان مدونة نوفغورود (الرجل الروسى الذى وصف احداث الحملة الصليبية كان شاهد عيان على الاحداث كما سنحت له فرصة التحدث مع المشتركين فى هذا المشروع فى اماكنهم) ، والمؤلفين البيزنطيين نيقيتاس الخونياتى وغيورغى اكروبوليت ، وعددا من مدونى الاخبار الغربيين (البريك دى تروافونتين ، مارتين دا كاناله من البندقية الذى كتب ، والحق يقال ، بعد ذاك بزمن طويل ، فى ١٢٦٧-١٢٦٨) ، مهما اختلفت الوقائع الواردة فى مدوناتهم ، يتفقون ، بالعكس ، على ان البابا اينوشنتيوس الثالث تعهد بدعم قضية الامير الكسيوس ابن الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس . وبعد فترة وجيزة ، فى نيسان (ابريل) وحزيران وتموز (يونيو ويوليو) ١٢٠٣ ، اكد فيليب من شوابيا بدوره فى رسالة الى البابا تعهد الامير الشاب بوضع الكنيسة الارثوذكسية تحت قيادة الكنيسة الكاثوليكية ، «اذا اعطانى الرب العلى الكلى القدرة» ، كما اعلن الطامح الى العرش الامبراطورى ، «او اعطى زوج اختى امبراطورية الروم» .

ومن هنا ينجم ان الخيوط الديبلوماسية التى تمتد من جوانب مختلفة بصورة مستقلة بعضها عن بعض وان يكن على مقربة بعضها من بعض اخذت فى اوائل سنة ١٢٠٢ تتشابك اكثر فاكثر فى كبة واحدة . ان البابا اينوشنتيوس الثالث قد حبذ ، من حيث الجوهر ، مقاصد البندقيين (وقد عارضها بالاقوال فقط) ، ومقابل الاتحاد الكنسى الذى وعد به ، بارك بونيفاسيوس دى مونفيرات والامير الشاب الكسيوس دفع القوات الصليبية الى القسطنطينية . ثم ان الاوساط الاقطاعية فى الغرب التى تمسكت بامكانية نهب الامبراطورية البيزنطية ، وبامكانية وضع ايديها عليها اذا سنحت الفرصة (بحجة اعادة اسحق الثانى انجيلوس ووريثه الى عرشها) كانت تحيك بلا كلل شباك المؤامرات حول الحملة الصليبية التى بادرت اليها روما . وكل هذا كان يجرى فى سرية عميقة . وفقط بعد قرون عديدة ، استطاع العلماء ، بمقارنة المعطيات الواردة فى المصادر وبجمعها فتائت فتائت ، ان يتحسسوا ويفكوا تدريجيا عقد «الديبلوماسية السرية» فى اوائل القرن الثالث عشر .

فى «اسر» البندقيين . الحملة على دلماسية

منذ خريف ١٢٠٢ ، اخذت نوايا منظمى وزعماء الحملة المخفية حتى ذاك ، تظهر اكثر فاكثر ، فقد قامت محاولات بيّنة لتجسيد مقاصدهم . ولعبت البندقية الدور الحاسم فى الاحداث اللاحقة . فنحو صيف سنة ١٢٠٢ ،

اخذت تتجمع شيئا فشيئا فى البندقية فصائل الصليبيين الفرنسيين والالمان والايطاليين . وقد جرى توزيعها بجوار البندقية ، فى جزيرة ليدو القليلة السكان (ويسميها مدونو الاخبار «جزيرة القديس نقولا» ، وكانت تقع ، كما يقول روبر دى كلارى ، على بعد نحو ٤ ك م عن البندقية) . وهناك نصب «الحجاج» خيامهم ودبروا امورهم بافضل ما استطاعوا .

كانت للبندقيين خططهم ، وقد عمدوا الى تحقيقها بتبصر وروح عملية . فقد حاول آباء المدينة-الجمهورية ان يضعوا الصليبيين فى وضع حرج ، لكى يشعروا بتبعيتهم «لشعب البندقية» ويجعلوهم بالتالى اسهل انقيادا . كانوا ينقلون احتياطيات المأكولات الى جزيرة ليدو بصورة غير منتظمة ، ولذا عانى الصليبيون عواقب ذلك ، فقد كان الجوع يعضهم بنابه فى المعسكر ، وبدأت الامراض تتفشى بينهم ، واخذ الموت يحصد افقرهم . ويقول مؤلف اخبار «اجتياح القسطنطينية» ان عدد الاحياء لم يكن يكفى لاجل دفن الاموات . اغلب الظن ان هذا المؤلف قد كثف الالوان وبالغ ، لاجل الطعن فى سمعة البندقيين ، ولكن وضع جنود المسيح كان ، حقا وفعلا ، لا يحسد عليه . وامسى الصليبيون ، على حد قول المؤلف نفسه ، اسرى البندقية . الا ان الاسياد والفرسان الذين كانوا يملكون الاموال ، لم يعتزموا ، والحق يقال ، الاستسلام لليأس ، فحتى ذاك ، كانت المسافة لا تزال بعيدة . وبانتظار الشؤون المقدسة التى تنتظرهم ، والتى ستغفر لهم ، على كل حال ، جميع خطاياهم السابقة ، حولوا المعسكر فى ليدو الى وكر للمقامرين بالكعاب وللعواهر . ولكن قسما من الصليبيين اسرع الى الفرار فى الوقت المناسب من الجزيرة وفى العودة الى الوطن ، نظرا لعدم الرغبة فى التسليم بوضع اسرى البندقية ، وتجنبا لمنغصات اسوأ فى المستقبل .

وفى هذه الاثناء حل الموعد المعين فى معاهدة نيسان (ابريل) ١٢٠١ لتصفية الحسابات نهائيا مع جمهورية القديس مرقس ، واتضح انه ليس بمقدور الفرسان ان يسددوا نقدا وعدا المبلغ المترتب عليهم . وهكذا حدث ما توقعه ، كما ينبغى الظن ، انريكو دندولو قبل سنة ، فلم يصل الى المدينة فى الاهوار (البيزنطى يوستافى السلانيكى يسمى البندقية «مستنقع الضفادع» و«افعى الماء والارض») سوى ثلث اولئك الصليبيين الـ ٣٣٠٠ الذين كان ينبغى ان يصلوا اليها والذين عناهم الرسل الفرنسيون الذين تسرعوا فى توقيع المعاهدة مع البندقية فى سنة ١٢٠١ . وقد فضل كثيرون من البارونات والفرسان الاستغناء عن خدمات البندقية ، لانها بدت لهم مفرطة فى الغلاء وموضع شكوك على العموم فى شىء ما . ولهذا ابحر بعضهم على

متن سفن فلمنكية من بروغة (Brygge) (الفلاندر) واستأجر آخرون (البورغونيون والبروفانسيون) سفنا في مرسيليا ، واتجه فريق ثالث (الفرسان من بلوا وشامبانيا) عبر لومبارديا ثم انعطف من بياتشينتسا الى جنوب ايطاليا . ثم ان كثيرين من الفرسان والمشاة ، كما كتب فيللاردوان ، لعدم ثقتهم في البندقية ، ورغبة منهم في عدم التعرض لاي خطر كان ، قد ابحروا رأسا الى سوريا متجنبين البندقية . ولكنه امكن ، والحق يقال ، صرف بعض الزعماء من الصليبيين عن هذا العزم ، ووقفهم في منتصف الطريق (مثلا ، الكونت لويس دي بلوا) ولكن عددا لا يستهان به من «الناس الطيبين سلكوا طرقا اخرى» ، الامر الذي «كان سبب مصيبة كبيرة» بالنسبة للذين وصلوا الى البندقية ، كما قال مدون الاخبار .

ولكن ، كما يعتقد العلماء ، لو ان جميع الذين اخذوا الصليب وصلوا الى البندقية ، لما كان عددهم تجاوز نصف العدد الذي نصت عليه معاهدة سنة ١٢٠١ . ويستفاد من معطيات روبر دي كلاري ان الفا من الفرسان الخيالة فقط تجمعوا في البندقية ، مع انه كان من المرسوم نقل ٤٥٠٠ فارس . ويحدد مدون الاخبار ذاته عدد المشاة بـ٥٠ الفا (وكان من المفترض ، كما يزعم ، وصول ١٠٠ الف . وهذا ، بالطبع ، من اختلاق مدون الاخبار الذي لم يكن في المعتاد على وئام مع الارقام) . اما في الواقع ، فلم يصل الى البندقية سوى ١٠-١٣ الف مقاتل عوضا عن المقاتلين المنتظرين البالغ عددهم اكثر من ٣٣ الفا * ، اي من حيث الجوهر ، حفنة من الناس ** وغني عن البيان انه لم يكن بمقدور القادمين ان يجمعوا المبلغ الضروري من النقود . ونحو صيف ١٢٠٢ ، لم يدفعوا للبندقيين سوى ٥١ الف مارك . والنقص لم تستطع ان تغطيه حتى التبرعات الاستثنائية التي تبرع بها زعماء القوات الصليبية الميسورون . كتب فيللاردوان بتحسر يقول : «كان بوسعكم ان تروا آنذاك كم وكم من الآنية الذهبية والفضية نقلت الى

* يبني الباحثون التقديرات المدققة لعدد الصليبيين الذي تجمعوا في البندقية على معطيات مائعة وغامضة اوردها مدونو الاخبار وتختلف فيما بينها ؛ يستفاد من حسابات المؤرخ الايطالي كاريلا ان عددهم بلغ ١٠٥٨٩ ، ومن حسابات الاختصاصيين الاميركيين كويللر وكومبتون وكمبيل الذين اصلحوا اخطاء العالم الايطالي الحسابية ١١١٦٦ او ١٣ الفا .

** يفترض المؤرخ الفرنسي لونيون ان عدد الفرسان الذين تجمعوا في البندقية تراوح بين ١٥٠٠ و١٨٠٠ ، اي اكثر من ثلث ، ولكن اقل من نصف عددهم المشروط في المعاهدة .

قصر الدوج لدفع المبلغ . وحين دفعوا ، تبين مع ذلك انه ينقص اربعة وثلاثون الف مارك لتسديد كل المبلغ المقرر» .

كان هذا المبلغ ضخما حقا . وبما ان البندقيين لم يتقاضوه ، فقد كفوا عن نقل المؤن الى ليدو ، بل انهم هددوا الصليبيين بالامتناع كليا عن اعطائهم السفن اذا لم يدفعوا المبلغ بكامله وفقا للمعاهدة . وذات مرة ، - كما يروى روبرد ى كلارى الذى عاش مباشرة جميع تطورات الاحداث ، - جاء الدوج انريكو دندولو بنفسه الى معسكر الصليبيين ، وقال لهم : ما دمتم لا تدفعون الدين ، «فاعلموا انكم لن تتحركوا من هذه الجزيرة الى ان تحل اللحظة التى نحصل فيها على مالنا ، وفضلا عن ذلك ، لن تجدوا احدا يجلب لكم الماء والطعام» . اكتأب الفرسان وحملة اسلحتهم وخدمهم . ولقد كان الوضع مؤلما جدا خصوصا وانه كان يتعين امعان الفكر فيه تحت اشعة شمس الصيف الحارقة .

وبينما كان الاسياد يحللون ويفكرون ، وصل الى البندقيـة فى آب (اغسطس) ١٢٠٢ القائد الاعلى للصليبيين الذين يسمونه احيانا بوهيموند الحملة الصليبية الرابعة - بونيفاسيوس دى مونفيرات . كان هذا المركيز الرفيع الحسب والنسب من ناحية واحدة على الاقل ، فى مستوى حكـام الجمهورية التجارية ، فكل ما كان يبشر بالنفع كان يقبله باستعداد لا يقل عن استعداد دندولو . ولذا لم يصعب على الاثنين الاتفاق والتواطؤ فيمـا بينهما . اغلب الظن ان بونيفاسيوس اطلع الدوج على خططه للحملة على بيزنطية . وهذا الانعطاف فى الامور كان يطيب كليا لدندولو ولكنه طلب المزيد من الوقت والاستعداد . ولم لا يساعد الصليبيون فى هذه الاثناء جمهورية البندقية على تلبية مصالحها التجارية والسياسية المباشرة ؟ وقد تثبت دندولو من انه لم يبق من الممكن ان يعتصر من «اسرائه» اكثر من ٥١ الف مارك . ولكنه كان يدرك ايضا جيدا جدا انه اذا تفرقت العساكر الصليبية (وكان الفرار من جزيرة ليدو قد اتخذ ابعادا منذرة بالمخاطـر) ، اسفر ذلك عن فضيحة كبرى بالنسبة لجمهورية القديس مرقس اذ ان البابا اينوشنتيوس الثالث سيتهم البندقيين حتما بانهم احبطوا الحملة الصليبية . «قال الدوج مخاطبا مواطنيه : اذا سمحنا لهؤلاء الناس بالعودة الى بيوتهم ، فاننا سنشتهر الى الابد كـكذابين ارديا» . هكذا يورد روبر دى كلارى قوله .

وبعد ان وزن الدوج جميع الظروف ، واخذ بعين الاعتبار فى المقـام الاول منافع البندقية التجارية ، عرض على الفرسان مخرجا لائقا من الوضع الصعب الذى وقعوا فيه بفضل كبار قادتهم وبفضل الرسل الذين مثلوهم

فى السنة الماضية . فقد اقترح دندولـــو : ليسدد الصليبيون بالسيف الدين المترتب عليهم . ولتسديد الدين ، والاصح القول ، لتأجيل موعـد دفعه ، ليحتلوا مدينة زادار (زارة) من اجل البندقية . وقد صاغ فيللاردوان فكرة الدوج كما يلي : «لنقترح عليهم ان يساعدونا فى الاستيلاء عليهـا ، فنمنحهم مهلة لدفع الماركات الـ٣٤ الفا المديونين لنا بها ، الى ان يتيح لنا الرب ان نكسبها معا نحن وهم» .

ومدينة زادار الواقعة على الساحل الشرقى من بحر الادرياتيكا ، فى دلماسية (حاليا يوغوسلافيا) ، كانت مركزا تجاريـــا كبيرا (وحين خاطب الدوج دندولو الصليبيين صورها بصورة وكر للقراصنة فقط) . وكانت آنذاك تخص المجر التى تصارعت عشرات السنين مع البندقية من اجل مراقبة السواحل الدلماسية . وكانت عمليات زادار التجارية على درجة من النشاط بحيث ان المدينة لم تكن منافسة رهيبة للبندقية فى نطاق بحر الادرياتيـــك وحسب ، بل ايضا فى خارجه . وكانت بلوتوقراطية (طبقـــــة الاغنياء) فى البندقية تنظر بحقد الى تعاظم جبروت زادار التجارى . وغير مرة قامـت محاولات للاستيلاء على زادار وبالتالى لخنق المنافسة المكروهة . فى الآونة الاولى ، اى فى القرن الحادى عشر ، حاربت البندقية الملوك الكرواسيين لاجل اخضاع زادار ، وفى القرن الثانى عشر ، صار المجريون اعداء البندقيـة . وكان الصراع يدور بنجاح متقطع ومتفاوت ، فقد كان البندقيون يستولون على زادار ، ولكن المدينة كانت تثور المرة تلو المرة على «عروس الادرياتيك» وسلطتها المستبدة . وفى سنة ١١٨٦ وضعت زادار نفسها فى حماية الملك المجرى بيلا الثالث . وما ان انتخب انريكو دندولو دوجا للبندقية (فى سنة ١١٩٢) حتى حاولت البندقية مرة اخرى ان تستولى على زادار ، ولكنها منيت بالفشل من جديد . والآن ، بعد مرور عشر سنوات ، ظهرت فرصـة جديدة لقهر المنافس ، وهل كان بوسع الطاعن فى السن ، والبالغ الحنكة دندولو ان يفوتها يا ترى ؟ كان سحق زادار يبدو لطغمة اشراف البندقية قضية مغرية خصوصا وان جمهورية القديس مرقس المسيحية تنال ، بموجـــب معاهدة سنة ١٢٠١ ، نصف الغنيمة . فأى شان والحالة هذه ، لكون زادار مـــن ممتلكات الملك المسيحى المجرى ايمره (١١٩٦-١٢٠٥) الذى اخذ الصليب هو ايضا استجابة لنداء البابا اينوشنتيوس الثالث ؟

وقد نسق دندولو مقترحاته الوقحة التى لقيت التحبيذ سلفا فى هيئتى الجمهورية العليتين (المجلس الصغير والمجلس الكبير) مع بونيفاسيوس دى مونفيرات . وهذا الماركغراف لم يكن مسيحيا حتى الضمير كثيرا . فقد

وجد من المقبول تماما ومن المناسب تماما مع قضية تحرير الارض المقدسة (التى كانت تشغل باله اقل ما يشغل باله) ان يعقد وينفذ صفقة اخرى تحول موقتا الصليبيين ، من حيث الجوهر ، الى مرتزقة فى خدمة البندقية . وعمليا تنازل بونيفاسيوس للدوج عن قيادة الفرسان . وبعد خدمة دينية احتفالية فى كاتدرائية القديس مرقس اخذ الطاعن فى السن انريكو دندولو هو ايضا الصليب ، وتعهد بان يأمر شخصيا الاسطول الذى سينطلق فى غارة ضد زادار . كان الدوج اعمى تماما تقريبا ، فلربما اصيب بجرح ذات يوم فى رأسه (الامر الذى يرويه فيللاردوان) ، ولربما ، كما ورد فى اخبار مدون الاخبار البندقى اندرى دندولو ومدونة نوفغورود ، اعموه بامر من الامبراطور البيزنطى مانويل كومنينوس بقطعة من الزجاج المتاجج عندما كان دندولو سفيرا فى القسطنطينية . ولكن الدوج ، رغم عماه ، ورغم تقدمه فى السن ، كان لا يزال يحتفظ بقدر كبير جدا من الهمة والانتعاش . كان صنديدا جسديا وفكريا ، وكان ، كما يروى معاصروه ، يحتفظ بعزيمة مدهشة ، وكذلك - كما نضيف نحن من جانبنا - بوقاحة ليست اقل مدعاة للدهشة .

يقول فيللاردوان : «سر حجاجنا كثيرا وتأثروا كثيرا لان الدوج اخذ الصليب سواء بسبب حكمته ام بسبب ما يلازمه من شجاعة» . اما فى الواقع ، فان مزاج الصليبيين لم يكن متفائلا بالقدر الذى يصفه به مارشال شامبانيا فيللاردوان . ان اقتراح البندقيين بالاستيلاء على زادار ، - وقد تقدموا به من الفرسان بواسطة بونيفاسيوس دى مونفيرات - قد استثار بادىء بدء الحيرة والارتباك فى صفوف الصليبيين وبعضهم ، وبخاصة من عداد الفقراء الذين ، كما قال غونتر من بيريس ، كان معهم قليل من النقود والذين انفقوها فلم يبق معهم مال لمواصلة الطريق ، «تركوا العساكر وقفلوا راجعين الى الوراء وعادوا الى بيوتهم» .

فى الادب العلمى ورد رأى يزعم ان رجال الكنيسة اوحوا بمعارضة الفقراء ، ذلك ان الفقراء ، كما قيل ، كانوا مفعمين بالحماسة الدينية ، ولذا رفضوا ان يشتركوا فى مشروع عدوانى واغتصابى ضد اخوانهم فى الدين المسيحى . ان وجهة النظر هذه صحيحة جزئيا فقط . ومن الاصح القول ان الفقراء الصليبيين الذين غادروا البندقية انما اعربوا بذلك عن احتجاجهم على الحرمانات التى فرضتها عليهم حكومة البندقية قصدا وعمدا فى جزيرة ليدو ، وفى المقام الاول على تحويل الحملة الصليبية الى اداة لسياسة البندقية . لماذا كان ينبغى ان تعود منافع المشروع الى تجار البندقية ؟ وليس جميع الصليبيين كانوا على العموم يرغبون حتى فى اصعب الظروف

عليهم ، فى خدمة مصالح البندقية بل ان بعضا من الاسياد البارزين عادوا الى بيوتهم مع الباعهم ، بمن فيهم ابن اخى وسمى" جوفروا فيللاردوان .

ان مدونى الاخبار الذين تحدثوا عن الخلافات والمخاصمات التى نشبت فى صفوف قوات الصليبيين ، عندما تقدم الدوج باقتراحه الوقح بصدد الاستيلاء على زادار ، يرسمون الوضع كأنما الامراء رفضوا اقتراحه لاعتبارات دينية محضة . «لانهم (اى الامراء - **المؤلف**) - كما يزعم غونتر من بيريس - كانوا يعتبرون من غير اللائق اطلاقا ومن غير الجائز ابدا للمسيحيين ان ينقض جنود صليب المسيح على المسيحيين بنفس اعمال القتل والنهب والحريق التى تحدث غالبا عند الاستيلاء على المدن» . وكان القادة الصليبيون العائشون فى خوف الله ، كما زعم غونتر ، قد امتلأوا رعبا لانه سيتعين عليهم اقتراف جريمة . ان الغاية من هذا التفسير لاسباب المعارضة التى نشأت بين كبار البارونات انما هى تبييض صفحة زعماء الصليبيين وان بعض الشيء

من الممكن تماما ، بالطبع ، ان يكون مشروع دندولو قد بدا لبعض الاسياد غير ملائم من الناحية الاخلاقية والدينية ايضا ، لان مدينة زادار كانت مسيحية من حيث سكانها . الا ان هناك امرا كان غير واضح : كيف يكون رد فعل الكنيسة على اعمال الصليبيين ضد المسيحيين ؟ اما السبب الرئيسى لاستياء بعض من الزعماء ، فقد تلخص فى عدم الرغبة فى القتال من اجل مصالح البندقية ، وليس فى خوف الله ، ذلك ان الاسياد لم يتمنطقوا بالسيوف لكى يسحبوا الكستناء من النار لاجل البندقية !

ولهذا السبب غادر فريق من الاعيان ومن الصليبيين البسطاء ليدو الى مناطقهم . اما السواد الاعظم ، فانه ، حسب كل احتمال ، لم يفهم شيئا مما يجرى . فان دندولو لم يجر جميع المفارضات بشأن الزحف على زادار ، كما يعترف الفارس روبر دى كلارى ، الا مع ذوى ارفع المقامات . وكان هؤلاء ، باغلبيتهم ، مثل دندولو ، محاربين لا يهمهم من ينهبونه وفى اى مكان ينهبونه . واى شأن كان يمكن ان تكون للشكوك الدينية بالنسبة للبارونات النبلاء من طراز رينو دى مونميراى ، او الكونت ايتيان دى برش ، او الفيدام (ممثل الاسقف فى القضايا المدنية وآمر قواته) غليوم دى فيريير من شارتر الذين سبق لهم ان نهبوا الاديرة فى ممتلكاتهم الفرنسية وتهكموا من الاكليريكيين ؟ وقبل الانطلاق فى الحملة الصليبية تعين عليهم حتى ان يرفعوا امام جمع كبير من الناس آيات الندم والتوبة على اعمال العنف التى اقترفوها بحق الرهبان وان يتعهدوا بالتعويض عن الضرر الذى الحقوه .

ولذا لم يكن من الممكن بالاحرى ان توقــف ايا من وخزات الضمير هؤلاء السفاحين المتأصلين حين اخذت ترتسم ، كبديل عن الحملة الصليبية ، حرب ضد مدينة مسيحية تخص الملك المجرى المسيحى . ولو لم يقبلـوا هذا البديل ، لما بقى للصليبيين غير التفرق وحسب . ان هذا الاحتمال لم يكن ليطيب البتة «للبارونات السامين» . ففضلوا قبول عرض انريكو دندولو . وهكذا تقرر الزحف على زادار .

نهج الكرسى الرسولى السياسى

ما هو الموقف الذى وقفه آنذاك الكرسى الرسولى المقدس ؟ هل حاول البابا اينوشنتيوس الثالث القضاء على مقاصد البندقيين ؟

ما كاد الدوج يتقدم باقتراحه وتختلف آراء الصليبيين المطلعين عـــلى الامر ، حتى عرج بعض من الذين سرعان ما قرروا العودة الى بيوتهم عـــلى روما لكى يطلبوا من الحبر الاعظم الاذن المناسب بالعودة . ولكنهم لـــم يحصلوا عليه الا بعد الحاحات طويلة . وفى الوقت نفسه ، جاء الى البابا فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٢٠٢ قاصده الرسولى ، الكردينال بيار من كابوا الذى سبق ان ارسله فى مأمورية الى قوات الصليبيين . الا ان دندولـو ومستشاريه الذين كانوا لا يرغبون فى ان تتدخل الكورية الرومانية فـــى المشروع الصليبى الذى صار فى ايديهم رفضوا صلاحيات الكردينال بيار . اما اذا شاء فيمكنه ان يرافق الفرسان فى الحملة كواعظ عادى ، ولكـــن ليس كرسول باباوى ! عاد القاصد الرسولى الغاضب الى روما واطلع هـــو ايضا البابا اينوشنتيوس الثالث على الحرب ضد زادار التى يهيئها الدوج وزعماء الصليبيين . ويؤكد مؤرخ سيرة البابا ان القاصد الرسولى «كشف للبابا» فى الوقت المناسب «وببالغ الوضوح نية البندقيين الشريرة» .

وهكذا صارت خطط قادة الصليبيين وحكام جمهورية القديس مرقـــس معروفة للكرسى الرسولى . وفى الحال ، وصل على جناح السرعة الى البندقية تحذير رهيب حمله رئيس الدير دى لوتشيديـــــو ، فان البابا قد منع الصليبيين ، تحت طائلة الحرم ، من الهجوم على ارض مسيحية . ولكن هذا المنع لم يكن سوى حيلة مرائية جديدة من رومـــا . فعندما كان بيار من كابوا فى معسكر الصليبيين ، كانت مسألة الزحـــف على زادار فى طور المناقشة ، وطلب عدد من الاسياد النصيحة من القاصد الرسولى : ما العمل ؟ الا يتعين على الصليبيين ان يتفرقوا لقطع دابر نية دندولو الشريرة ؟ جوابا

عن هذه المطالب ، اعلن القاصد الرسولى الذى كان يعرب بلا ريب عـــن ارادة الكرسى الرسولى : «ان التكفير عن شر صغير بعمل خير عظيم ادعــى الى الغفران واقل خزيا من ابقاء نذر الحملة الصليبية بدون ايفاء ومن العودة الى الوطن بالعار ناهيك عن الخطايا» . ومن هنا ينجم انه كان ينبغى ، من وجهة نظر البابا ، السير الى النهاية بالحملة الصليبية ، ايا كان الثمــن . ينبغى على القوات المسلحة بان تمتنع عن التفرق ، ايا كانت الظروف ، حتى وان ساقوها ضد زادار . هكذا كان ، من حيث الجوهر ، موقف البابا كما يكشفه ، مثلا ، مدون الاخبار الالمانى من هلبرشتادت ايضا . فهو يروى ان الاسقف كونراد فون كروزيغ (الذى كتب مدون الاخبار — ونقـــول هذا للمناسبة — مؤلفه نقلا عن لسانه) الذى لم يتجاسر على الانضمام الى مؤامرة زعماء الصليبيين مع دوج البندقية ، قد طرح هو ايضا امام القاصد الرسولى السؤال التالى : ماذا يتعين ان يفعله هو الاسقف ؟ كتب مدون الاخبـــار : «اجاب هذا (اى القاصد الرسولى) صراحة ان البابا يفضل ان يخفى عنهم (اى عن الصليبيين) شيئا ما غير لائق من ان يعفيهم من نذر هذه الحملة ، واعطاه نصيحة نهائية مفادها ان لا يبتعد (اى الاسقف كونراد) باى نحو كان ، عن القوات ، وان يحاول فعل ما يستطيعـــه لكى يتحمـــل الارجاس (ارجاس الصليبيين) التى قد يقترفونها» . وآنذاك ، كما واصـــل مدون الاخبار ، «انضم» الاسقف «(الى الاتفاقية) مثل رؤساء الاديرة الاربعة من رهبانيـــة السيسترسيين الذين عينهم البابا خصيصا لكى يترأسوا قوات الصليبيين بالكلمة والمثال» .

وهذا يعنى ان البابا اينوشنتيوس الثالث تغاضى عمليا ، على لسان قاصده الرسولى ، عن تحقيق خطط البندقية . شكلا اكد الآن منعه رفـع السيف على المسيحيين وبذلك ادى واجبه بوصفه الكاهن الكاثوليكي الاول . ولم يكن من الممكن ان يتصرف البابا على نحو آخر ، فلم يكن من شـــأن الهجوم على ممتلكات الملك المجرى المعتبر صليبيا سوى ان يحيط الحملة الصليبية بالشكوك ويقوض مبدأ السياسة الشمولية للباباويـــة الخارقة الاهمية ، ناهيك عن تقويض سمعة الباباوية التى تمسى مشبوهة جدا .

ولكن البابا لم يكن يرغب فى وقف الحملة الصليبية ، اذ ان النجاح كان يبشر روما ، لا بالقدس وحسب ، بل ايضا ، ولربما ، بالقسطنطينية . كان ينبغى ان لا يضر منع الهجوم على الاراضى المسيحية بقضية تحرير الارض المقدسة وقضية اخضاع بيزنطية . وعمليا لم يبق للبابا سوى مخرج واحد : لاجل مواصلة الحملة الصليبية («فعل الخير العظيم») تجـــب اجازة «الشر

الصغير» اى استيلاء الصليبيين على زادار المسيحية ، الامر الذى كانت البندقية تحثهم عليه . وبهذه الروح كان الحبر الاعظم الرومانى الداهية والمراوغ يطبق سياسته محاولا ان يجمع ما لا يمكن جمعه ، وان يستر «الشيطانى» «بالربانى» مانعا بالاقوال ، مباركا بالافعال .

يعترف المؤرخون الكاثوليكيون المعاصرون وغيرهم من المؤرخين الغربيين المعاصرين بان البابا اينوشنتيوس الثالث قد استسلم من حيث الجوهر امام البندقيين . ولتبرير البابا ، يسوقون مختلف الحجج . يستشهدون بانه لم يكن بمقدوره ان يجبر البندقيين على التخلى عن نواياهم وعلى تنفيذ ارادة الكرسى الرسولى ، ويشيرون الى ان دندولو لم يكن يتأثر بتأثير الكنيسة المعنوى ، ويزعمون ان الكردينال البابوى وقع فى فخ نصبه دوج البندقية بحذق امام الصليبيين فوجد هؤلاء انفسهم بين المطرقة والسندان : اما ان يدافعوا عن الدين ، واما ان يمضوا الى الحرب ضد زادار ، ويعتبرون ان الكردينال القاصد الرسولى وقع فى ضلال الشيخوخة حين برر العمل ضد زادار ، والخ . . .

كل هذه الحجج وما ماثلها ليس بمقدورها ان تبيض صفحة المنظم الرئيسى للحملة الصليبية الرابعة . فمن الجلى ان البابا اينوشنتيوس الثالث قد تغاضى عن البندقيين باسترشاده فى هذه الحال بالمصالح السياسية الانانية للكنيسة الرومانية . فلو ان البابا حرص بكل جدّ على انقاذ زادار المسيحية ، اولم يكن من الاصوب تأجيل الحملة الصليبية لمدة معينة ؟ ولو فعل ذلك ، لبقيت سمعة الكرسى الرسولى لا تشوبها شائبة . اولم تكن الموافقة حتى على حل الجمع الصليبى موقتا اصوب من السير مع التيار والسماح للفرسان المسيحيين بنهب الممتلكات المجرية المسيحية ؟ ثم ان البابا كان يملك وسائل اخرى ايضا للحيلولة دون فتح زادار ، اشد فعالية بكثير من الموانع الكلامية التى لم يكن يوليها احد اهمية جدية . ولو ان البابا اينوشنتيوس الثالث كان يجهد بصدق لانقاذ الاراضى المسيحية مما حدث لها بعد ذلك بقليل ، لما لقى كبير عناء في دفع ديون قواته المفلسة للبندقية ؛ فقد كان بمقدور خزينة الكورية الرومانية ان تتحمل هذه التضحية . ان ٣٤ الف مارك لم تكن بالطبع مبلغا زهيدا ، ولكنها لم تكن مبلغا ضخما جدا بالنسبة للبابا خصوصا وان خزينته كانت تتلقى ، كما يجب الظن ، شيئا ما من الرسوم الصليبية التى كانت تجبى فى جميع البلدان الكاثوليكية . ومعلوم ، مثلا ، ان المبالغ التى جمعها الواعظ – «صانع العجائب» فولك من نويى قد احيلت الى كنز جمعية السيسترسيين الرهبانية .

ويذكر احد مدونى الاخبار ان الملك الفرنسى فيليب الثانى قد احال هذه النقود ، قبل وفاة فولك وبواسطة فيكونت ديجون اودو دى شامبليت والكاستيلان دى كوسى لتلبية حاجات الحملة الصليبية . خلاصة القول ان كيس البابا ما كان خلا من النقود لو ان البابا فكه وانفق منه لاجل انقاذ الاراضى المسيحية . ولكن اينوشنتيوس الثالث لم يخطر له حتى فى البال ان يضحى بثروات الكرسى الرسولى المقدس لاجل انقاذ اولاده المحبوبين «اسرى» البندقية . وهكذا تجلت مرة اخرى العلاقة السرية بين سياسة البابا فى الحملة الصليبية الرابعة وبين مقاصد البلوتوقراطية البندقية .

فتح زادار . التغير الثانى فى اتجاه الحملة

فى ٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٢٠٢ ، ابحر اسطول الصليبيين من البندقية ، وكان يتألف من ٧٠ قادسا وزهاء ١٥٠ نفا ويوسيا (سفن شاحنة) ، وكان يحمل المؤونة والخيول وادوات دك الاسوار ، والمنجنيقات والباليستات لاجل اطلاق الاسهم الثقيلة والحجارة والعوارض الخشبية الملفوفة بالحديد ، والبراميل المليئة بالسائل الوقودى . كانت القوادس عبارة عن سفن ضيقة وطويلة تتميز بالسرعة والقدرة على المناورة فى المعارك . وعلى جانبى كل قادس كانوا يركبون صفوفا من المجاديف ، واذا هبت ريح مؤاتية ، رفعوا الاشرعة ايضا . وعدا الطاقم — البحارة والمجدفين الذين كان البندقيون يستأجرونهم فى المعتاد للخدمة لقاء اجر من آذار (مارس) الى تشرين الثانى (نوفمبر) — كانت القوادس تحمل فرقا مسلحة من حملة الاربالت (قوس فولاذى ذو مقبض يشد بنابض) وحملة المقاليع ، المرتزقة هم ايضا . وكان النف عبارة عن سفينة كبيرة ، رحبة ، ذات متون ملوية صوب القارينة ، ومزودة ببضعة من الصوارى ومن الاشرعة العريضة . وفى مقدمة النف ومؤخرتها كانت تنتصب شاتو (ابراج) خشبية . وخلافا للقادس ، كانت سرعة النف خفيفة وكانت خرقاء متثاقلة . اما اليوسى فقد كانت سفينة شراعية للنقل ، وكانوا ينقلون الخيول فى عنبرها العميق .

فى ١١ تشرين الثانى (نوفمبر) دخل اسطول الصليبيين — زهاء ٢٠٠ سفينة — بالقتال مرفأ زادار المغلق بسلسلة حديدية .وفى ٢٤ تشرين الثانى ، بعد هجوم دام خمسة ايام ، احتل الفرسان زادار ، التى كانت ، على حد قول فيلاردوان ، محصنة باسوار عالية وابراج عالية ، محطمين المقاومة

العنيدة التى ابدتها الحامية المجرية وسكان المدينة ، الذين ، كما لاحظ روبر دى كلارى ، «تسلحوا بافضل نحو مثل اناس قرروا ان يدافعوا عن انفسهم» . وخرب الفرسان زادار بما فيها كنائسها . واقترف الغزاة فى المدينة مذبحة وحشية ودمروا الكثير من المبانى وغنموا غنائـــم وفيرة . ووقعت تحت حكم البندقية — ولكن ليس فى الحال والحق يقال ، ففى البدء نشب خناق بين البندقيين وبين الحجاج البسطاء من الصليبيين . وقد استمر الخناق ، كما يروى روبر دى كلارى ، ليلة بكاملها ونصف نهار وكان «عظيما الى حد ان الفرسان لم يتمكنوا من تفريقهم الا بعد جهد جهيد» . ويعتقد فيللاردوان انه لو استمر هذا الخناق وقتا اطول قليلا لكانت جميع العساكر هلكت لان كلا من الاطراف المتحاربة تكبد خسائر كبيرة جدا .

فتح وتدمير مدينة مسيحية فى دلماسية . ذلك كان اول «نجاح» احرزه الصليبيون فى الحملة الصليبية الرابعة .

اعرب الكرسى الرسولى عن غضب يليق بالحادثة . وقد تظاهر البابـا اينوشنتيوس الثالث «بجزع لا حدّ له» لان الصليبيين سفكوا «دماء الاخوة» وخالفوا منعه الهجوم على الاراضى المسيحية . واعدّ البابـا رسالـــة الى الصليبيين اعلن فيها انه مستعد لغفران خطاياهم . ذلك انهم ، باستيلائهم على زادار ، لم يتصرفوا بمشيئتهم ، بل بحكم الضرورة فقط . ونصح البابا الفرسان «بالا يزيدوا الخطايا على الخطايا» وبان يمتنعوا عن مواصلة التدمير والتخريب فى زادار ويعوضوا الضرر الذى لحق بالملك المجرى . واذا خرجوا على الطاعة ، فلا مناص لهم من الحرم من الكنيسة . ومن الجلى ان رئيـس الكنيسة الكاثوليكية قد تهرب عن اتخاذ اية عقوبات جدية حيال قواتـــه المسلحة ، فانه قد ذكر امكانية الحرم من الكنيسة فى نهاية الرسالـــة فى صيغ متمالكة جدا . اغلب الظن ان النتائج العملية لغضب البابا كانت قد اقتصرت على ذلك لو ان الصليبيين المتهورين لم يستثيروا اجراءات اقسى واحدّ كان البابا اينوشنتيوس الثالث نفسه لا يعتزم بادئ ذى البدء اللجوء اليها .

ان الخوف من المقترف قد بعث فى نفوس الصليبيين اليقين بانهـــم سيتلقون مع ذلك على «مآثرهم» ما يستحقون . ذلك ان جنود الرب ، كما كتب غونتر من بيريس ، «قد رفعوا ايديهم على اموال الملك المجرى التى ، وضعها بقبوله راية الصليب تحت حماية القديس بطرس والحبـر الاعظم» . وخوفا من الاسوأ ، ارسل الفرسان فى كانون الثانى (يناير) ١٢٠٢ الى روما وفدا من اربعة اشخاص برئاسة الاسقف نيفيلون من سواسون ، ظهر امام

البابا معترفا بالذنب . عرض اعضاء الوفد على البابا ظروف القضيـــة ، والمبررات ، وابلغوا فى النهاية ان اولاد اينوشنتيوس الثالث المحبوبين لن يشقوا من الآن وصاعدا عصا الطاعة عليه وسيواصلون السير الى الارض المقدسة . ومن المؤكد ان الصليبيين لم يخامرهم اى شك فى الدور الحقيقى الذى لعبه الكاهن الرومانى الاول نفسه فى الاحداث التى جرت ، اذ انه ، كما رأينا ، قد اسهم فعلا فى الاستيلاء على زادار .

واجه اينوشنتيوس الثالث وضعا مزدوجا . فقد كان ينبغـى ان يحدد على المكشوف موقف الكرسى الرسولى مما جرى ويجرى ؛ فبما ان الصليبيين اعتبروا انفسهم جديرين بالحرم من الكنيسة ، فلم يكن بمقدور البابا ان يتظاهر بانه لا يرى شيئا ! والرسالة التى كتبهـــا فى حينه لم يرسلها . والرسل استقبلوهم فى روما بصرامة وحرموا جنود الصليب من الكنيسة . الا ان اينوشتنيوس الثالث احل الرحمة على الفور محل الغضب ، وعهد الى الكردينال بيار من كابوا ، قاصده الرسولى ، نائبه ، برفع الحرم ، على ان يأخذ من الصليبيين وعدا بانهم سيخضعون مستقبلا بكل دقة لمشيئـــة الكرسى الرسولى . واكتفى البابا ، كما كتب فيللاردوان بالاعراب عن أسفه بصدد «الاثم الكبير» الذى اقترفوه .

وعلى هدى اعتبارات المكانة والسمعة ، حرم البابا اينوشنتيوس الثالث مع ذلك البندقيين من رحمته ، فقد بقى الحرم من الكنيسة الصادر بحقهم سارى المفعول . هذه القصة التى قوضت سمعة الكورية البابوية لم يكن يجوز ابقاؤها بدون اية عواقب . ولكن البابا وجد فى الحال التحفظات اللازمة لتجنب سوء الفهم : اجل ، ان البندقيين قد تعرضوا للعنة والحرم مــــن الكنيسة ، ولكن لا يجوز لهذا ان يمنع الصليبيين من استعمـــال اسطول جمهورية القديس مرقس ومن اقامة الاتصال معها على العموم . وحين تعاقب الكنيسة رب العائلة ورب البيت (والمقصود هنا دندولو) فان هذا لا يعنى انه ممنوع على اعضاء العائلة ان يشاطروه المأوى (سفن البندقية) وان يقيموا اتصالات معه (اى قبول خدمات البندقيين) . ولاجل بلوغ «الاهداف العليا» ، يجب ، كما كتب البابا المنافق الى الصليبيين ، «تحمل الكثير» . فليغفـر لهم الرب ! كانت تلك الحجج السفسطائية التى تذرع بها الحبر الاعظم وممثل المسيح الذى وجّه عساكره الى «الاهداف العليا» . الا ان حججه بدت واهنة وموضع شك لزعيم الصليبيين الاكبر بونيفاسيوس من مونفيرات ، اذ انه اعتبر انه من الافضل الامتناع بين الفينة والفينة عن اعلان مضمون الرسالة البابوية التى عرضت ارادة البابا — لكى لا تؤخر الرسالة الحملة كلهـــا !

وهكذا لم يعرف الصليبيون بحرم البندقية . وبرفع الحرم عن الصليبيين انفسهم ، اطلق البابا ايدى جنود الرب لاجل الاعمال اللاحقة .

بعد ان اجتاح الصليبيون ، حماة الدين المسيحى ، زادار ، امضوا الشتاء فى المدينة . وفى اوائل سنة ١٢٠٣ وصل الى زادار مبعوثو فيليب من شوابيا والامير الشاب الكسيوس . وقد عهد اليهم بان يدعموا مطالب الامير الشاب امام زعماء الصليبيين . اعرب الدوج انريكو دندولو والمركيز بونيفاسيوس وبعض القادة الآخرين عن تأييدهم لمشروع الملك الالمانى . فان الزحف على القسطنطينية كان يتجاوب مع مصالح تجارالبندقية واصحاب السفن وجميع رجال المال الذين كانوا يدركون انهم سيتمكنون ، اذا كان الامبراطور البيزنطى حليفهم ، من ان يعززوا مواقع البندقية فى المشرق ، ولربما من ان يقضوا نهائيا على مملكة الروم ذاتها باجبارها على الاستسلام التام . ولم يضطر رسل المانيا الى بذل جهود كبيرة لاقناع كبار زعماء الصليبيين ايضا بالموافقة على توجيه الحملة الى البوسفور ، ذلك ان الحملة قامت «لاجل بعث العدالة» اى ، كما يزعم ، لاجل الاستعاضة على عرش القسطنطينية عن المغتصب الكسيوس الثالث بقريبه الشرعى من آل انجيلوس . كانت الحجة حسنة المظهر ، كما ان مطالب الامير الكسيوس دعمتها وعود نقدية وسياسية مغرية . وتبين انه لم يكن بمقدور قادة الصليبيين ان يصمدوا امام هذه الاغراءات فقرروا مساعدة الامير الشاب .

فى شباط (فبراير) اعدوا الوثائق ، ووقعها قادة الصليبيين . وقد تعهد الامير الكسيوس بان يدفع للصليبيين ، مقابل المساعدة التى سيقدمونها له ولوالده ، ٢٠٠ الف مارك فضة . وفى حال نجاح المشروع ، وعد الكسيوس باخضاع الكنيسة البيزنطية للكنيسة الرومانية ، وان يشترك شخصيا فى الحملة الصليبية او بان يرسل ١٠ آلاف من العساكر لمدة سنة كما تعهد بان يبقى على حسابه فى الاراضى ما رواء البحر خمسمئة فارس يتمكنون من حمايتها .

كان بونيفاسيوس دى مونفيرات ، الذى اشترك بنشاط فى المؤامرات السياسية السابقة ، التى خصص فيها للصليبيين دور المنفذين المباشرين للمشاريع التى حاكها القادة ، اول من وقع الاتفاقية بصدد الزحف على العاصمة البيزنطية . ثم ان المبلغ الكبير الذى وعد به وريث العرش البيزنطى اجتذب الى جانب الخطة بعض الزعماء الآخرين من زمنيين ودينيين ، فقد سبق ان تعهد بونيفاسيوس بالحصول على موافقتهم قبل ان احتاج الامر

الى توقيع الوثائق . كذلك وقع اساقفة تروا وسواسون وهالبرشتادت على اتفاقية الزحف على القسطنطينية المسيحية .

اما الفرسان البسطاء ورجال الدين من المرتبة الدنيا فقد لقيت بينهم مقترحات فيليب من شوابيا ومحسوبه البيزنطى التى نقلها المبعوثون قبولا مزدوجا . كان البعض منهم على استعداد للسير وراء القادة بلا تحفظ ، بينما احتمال التحول الى اداة عمياء فى يد الطغمة البندقية ردع البعض الآخر مع ذلك .

وارتفع فى المعسكر عدد لا يستهان به من اصوات الاحتجاج . وقد قال الفرسان انهم «لن يوافقوا ابدا ، وان هذا يعنى العمل ضد المسيحيين وانهم لم ينطلقوا البتة فى الحملة لهذا الهدف وارادوا ان يمضوا الى سوريا» . ويفيد فيللاردوان ان كثيرين من بسطاء الناس فضلوا حتى الرحيل ، فكانوا يفرون على سفن التجار . وذات مرة غادر المعسكر زهاء ٥٠٠ شخص وهلكوا جميعهم فى البحر . ومضى فريق آخر فى البر . هكذا انخفض عدد الصليبيين .

ومع ذلك ، استمر تحقيق مقاصد القادة . فقد كان سواد الفرسان لا يبالى اجمالا باى شىء ، عدا تلبية مصالحه الارضية ، الدنيوية ، ناهيك بان قسما كبيرا من الفرسان لم يكن يعرف على العموم اى شىء عن المؤامرة ، التى كانت بمثابة انحراف آخر عن هدف المشروع . ذلك لان احدا لم يكشف امام الصليبيين البسطاء سر مطبخ الاحداث الجارية الديبلوماسى .

الخطط الجديدة وموقف البابوية

وهكذا غيرت الحملة الصليبية للمرة الثانية اتجاهها . ومن المؤكد ان المسيرة المعادية لبيزنطية قد اختيرت لا من باب الصدفة ولا بنتيجة تجمع ظروف عابرة من نوع فرار الامير الكسيوس ، ونشوء ديون الصليبيين للبندقية وما شاكل . فان هذه العوامل الصدفية والعابرة كانت تتطابق كليا مع عموم جو العلاقات المتبادلة المتأججة نيرانها بين الغرب وبيزنطية .

كانت امبراطورية الروم تسترعى منذ اكثر من ١٠٠ سنة انظار الصليبيين . وقد نهبوها سواء فى زمن غودفروا دى بويون ام فى زمن الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة . وغير مرة ، كما رأينا ، تعرضت القسطنطينية لخطر الغزو والفتح . وقد كانت للنزاعات مع بيزنطية ، التى رافقت الحملات الصليبية الثلاث الاولى (وحتى فى الحقبات الواقعة بين هذه الحملات ، كانت العلاقات بين الدول الغربية وبيزنطية علاقات عدائية

اساسا) اسباب عميقة تلخصت فى تصادم مصالح الطرفين فى البحر الابيض المتوسط . كذلك كان الاسياد والفرسان الغربيون يمتعضون ويتهيجون لان بيزنطية التى قلما ساعدت الصليبيين قد استخلصت لنفسها منافع كثيرة من مشاريعهم . وكانت تنتهج سياستها الخاصة الهادفة الى اضعاف الغرب الكاثوليكي والشرق الاسلامى سواء بسواء .

وكل هذا اسفر عن رأى متحيز تجذر بصورة راسخة جدا مفاده ان الروم الغدارين هم المذنبون كليا عن اخفاقات الحملات الصليبية ، وانهم يتحدون مع «الكفار» ويتآمرون معهم ضد جنود المسيح وضد دول الصليبيين في سوريا ولبنان وفلسطين .

وقد اسهمت الكنيسة الكاثوليكية بقسط معين فى تدعيم تقاليد الحذر وعدم الثقة . ففى سياق القرن الثانى عشر كله ضخمت روما الحقد الدينى ضد المنشقين الروم ، محاولة بهذا النحو ان تعزز ادعاءاتها بالسيادة على بيزنطية . بل ان الاوساط الكنسية العليا فى الغرب اختلقت نظرية خاصة مفادها ان الحرب ضد المنشقين الارثوذكسيين ضرورية وشرعية بقدر الحرب ضد الهراطقة . وكان البابا اينوشنتيوس الثالث يشاطر وجهة النظر هذه ؛ يستفاد من اقوال مدون الاخبار الانجليزى رودجر من ويندور ان المسيحيين الذين رفضوا الخضوع لسلطة القديس بطرس وعرقلوا تحرير الارض المقدسة كانوا بنظر البابا شرا من المسلمين . ونحو اوائل القرن الثالث عشر ، عندما نهضت مسألة العلاقات بين بيزنطية والدول الغربية بخارق الحدة نظرا لاشتداد توسع هذه الدول فى البحر الابيض المتوسط ، وعندما صارت امبراطورية القسطنطينية ذاتها فى عداد مواضيع الغزو والفتح التى يستهدفها المعتدون الاقطاعيون المسيحيون الاوروبيون ، اوتيت دعاية الكنيسة الكاثوليكية أكلها . وقد هيأت هذه الدعاية التربة المعنوية والروحية لكى تبرر مسبقا الضربة التى سرعان ما انزلها الفرسان بالقسطنطينية بمباركة البابا وية عمليا .

وبديهى ان البابا اينوشنتيوس الثالث لم يبخل فى توجيه التحذيرات الى الصليبيين حتى بعد التوقيع فى معسكر زادار على الاتفاقية بصدد الزحف على القسطنطينية . فقد ارسل اليهم البابا رسائل عديدة ، وارسل اليهم ممثليه وهدد جنود المسيح بالحرم واللعنة اذا ما تسببوا للامبراطورية البيزنطية بضرر . ولكن لم يكن بوسع البابا ان يتصرف بنحو آخر : فمن جديد صارت سمعة الكرسى الرسولى المعنوية والسياسة موضع شك . وقد اقنع اينوشنتيوس الثالث الصليبيين بشتى الصور والاشكال بان يمتنعوا عن

الاستيلاء على ممتلكات الروم ونهبها ، وبان لا ينساقوا وراء الصدفة والضرورة الموهومة اذ ليس من شأنهم ان يحكموا فى خطايا الكسيوس الثالث ومقربيه .

هذا بالقول . اما بالفعل ، فان البابا ظل وفيا لنفسه ، فبين اسطر الرسائل الرهيبة بصدد الامتناع عن مهاجمة الاراضى المسيحية ، كان الحبر الاعظم المنافق يترك دائما فجوة لقادة الصليبيين تكفى لكى يفهموا ان بوسعهم ان يأملوا فى دعمه الفعلى فى حال مخالفة اوامر روما القاسية . وفضلا عن ذلك ، استحثهم البابا ، من حيث الجوهر ، على مهاجمة القسطنطينية . فكيف يمكن على غير هذا النحو فهم تحريمه المبهم والمكرر مرارا لالحاق الضرر بالمسيحيين والمرفق بهذا التحفظ : « الا اذا شرعوا (اى المسيحيون - المؤلف) يقيمون بدون تبصر العوائق امام حملتكم او اذا ما ظهر سبب ما آخر عادل او ضرورى ، تعتبرون بموجبه ان من اللازم التصرف تصرفا آخر» ؟

كل شىء فى موقف اينوشنتيوس الثالث واضح اقصى الوضوح بنظر المؤرخ . فان ابن اسحق الثانى انجيلوس ، الذى اتفق مع زعماء الصليبيين فى شتاء سنة ١٢٠٣ قد قطع على نفسه جملة من الالتزامات المتطابقة كليا مع نوايا البابوية ومشاريعها . لربما لم يكن اينوشنتيوس الثالث يتوقع من الامير الكسيوس الايفاء بوعوده . اغلب الظن ان البابا قد فهم ان المدعى الشاب بالعرش قد وافق على كل شىء دون ان يدرك ما اذا كان بمقدوره ان يفى بالتزاماته . واذا كان لم يدرك ، فان هذا لسوء حظه ! وعلى كل حال ، لن يخسر الكرسى الرسولى حين يظهر الصليبيون قرب عاصمة المغتصب المتشدد ، فاذا لم يتسنّ الحصول على تنازل فى صالح روما من ابن الاخ الطائش ، فعلى الاقل من عمه ، لان هذا لن يرغب طبعا فى خسارة التاج .

وكل هذا المشروع فتح بهذا النحو او ذاك آفاقا جديدة امام الالعاب الديبلوماسية مع القسطنطينية فى صالح الكورية البابوية . فان موانع اينوشنتيوس الثالث المنافقة الموجهة الى الصليبيين - بعدم الحاق اى ضرر واهانة بالروم - لم تكن تساوى فى الواقع اى فلس . وهذا ما كان يدركه جيدا ابعد معاصرى الاحداث نظرا . فان الراهب الالزاسى غونتر من بيريس الذى كتب مؤلفه من على لسان رئيس ديره مارتين الذى تطوع للاشتراك (ولكن ليس رسميا) فى وفد الصليبيين المرسل الى روما من زادار ، قد اعترف بكل صراحة بان الحبر الاعظم كان يكره القسطنطينية منذ زمن بعيد وكان يرغب شديد الرغبة فى ان «يستولى عليها الشعب الكاثوليكى بدون

اهراق الدماء (؟ – **المؤلف**) اذا امكن» . اذن ، الاستيلاء على القسطنطينية بدون اهراق الدماء – مصطلح باباوى نموذجـــى – تلـــك كانت افكار اينوشنتيوس الثالث السرية ! ولقد صاغ الشاعر غيو البروفانسى من فرنسا الجنوبية افكاره بمزيد من الاستقامة حين قال فى قصيدته الهجائية «التوراة» ان البابا البخيل اينوشنتيوس الثالث سمح بالحملة الصليبية ضد المسيحيين الارثوذكس . وهذا الرأى كان اقرب بكثير الى الحقيقة ، وعلى كل حال من حيث الجوهر .

فى نيسان (ابريل) ١٢٠٣ مضى الصليبيون من زادار الى جزيرة كورفو . وفى ٢٥ نيسان وصل الى جزيرة كورفو الامير الشاب ولى العهد ايضا قادما من زادار حيث وضعوا تحت تصرفه قادسين . وقد وقع الامير بيده على المعاهدة التى عقدها رسله من قبل باسمه ، ثم عكف على الرشوة لكى يوطد البارونات فى عزمهم . لم يكن المال متوفرا لوريث العرش الفار ، فأخذ يهب رؤساء الصليبيين بالتسليف . فقد وعد كونت الفلاندر ، كما جاء فى اخبار مدون الاخبار السورى ارنول ، بـ٩٠٠ مارك ، والكونت سان بول بـ٦٠٠ مارك والخ . . . وقد اعطى كمبيالات من هذا النوع بمبلغ لا يستهان به . وكان لا بدّ لسخائه ان يحرك قلوب البارونات المليئة «حنانا ورحمة» .

وهنا ايضا حاول بعض من بسطاء الصليبيين وبعض من وجهائهم ان يقاوموا الانعطاف الجديد فى سير الامور . فبعد صياغة المعاهدة مع الامير الشاب الكسيوس بدأ التذمر والاستياء من جديد فى صفوف المقاتلين . لم يشأ الفرسان العاديون ان يسلموا بان تعود جميع ثمار الحملة الى بعض كبار الاسياد والبندقيين فقط . ثم ان واقع ان خيوط المشروع القيادية كانت فى يدى بونيفاسيوس دى مونفيرات وقلة من القادة من محيطه لم يكن ليرضى قسما من القادة العسكريين الآخرين . وقد سبـــق ان غادر البارون البارز سيمون دى مونفور مع فريق من اتباعه قوات الصليبيين فى زادار * . وفى كورفو حيث اقام الصليبيون ثلاثة اسابيع تكرر وضع مماثل ، فان كثيرين اعلنوا عن عزمهم على البقاء فى الجزيرة لان القضية تبدو لهم «طويلة جدا جدا وخطرة جدا جدا» . وفيما بعد ، حسب الفرسان الذين التحقوا بالمعارضة

---

* وانها لباطلة تماما محاولات عدد من المؤرخين الغربيين تصوير مسلكه ناجما عن العقائد الدينية والتمسك بالاخلاق الكاثوليكية . فمعلوم ان الخوف من الله لم يمنع سيمون دى مونفور بعد بضع سنوات من ذبح واحراق مواطنيه فى فرنســـا الجنوبية !

(ويذكر فيللاردوان اسماء ١٤ بارونا كانوا يترأسون المعارضة) ان يبحروا الى ايطاليا الجنوبية ومنها الى سواحل سوريا ولبنان .

لا مبرر للظن ان اخصام الاتفاقية الموقعة مع الرسل الالمان قد عارضوا لاعتبارات دينية ، تغيير اتجاه الحملة الصليبية . فان المعارضة ، كما يشير العالم البلغارى بوريسلاف بريموف عن حق وصواب ، انما مردها فى المقام الاول الى مخاوف قسم من الفرسان والاسياد من ان تستولى حفنة من القادة والبندقيين بصورة رئيسيـــة على الخيرات المادية التى ستقـــع فى ايدى الصليبيين فى حال النجاح ، الامر الذى تحقق فيما بعد بالفعل .

وقد دعا رئيس الدير دى لوتشيديو ممثل البابا ووكيله المفوض ، بكل حزم وعزم ، الى الاعتراف بالمعاهدة مع وريث العرش البيزنطى ، واجبر المستائين على ان يؤكدوا ويدعموا بالقسم موافقتهم على شروط المعاهدة ، اذ ان مساعدة الامير وريث العرش خير وسيلة لمساعدة الارض المقدسة . وتواجد محبذون آخرون لمشروع القسطنطينيـــة . فان بونيفاسيوس دى مونفيرات وبودوان من الفلاندر ولويس من بلوا ، وغيرهم ، اقنعوا انصار المعارضة واستمالوهم . ويصف فيللاردوان باسلوب حى مشهدا دراميا وقع فى كورفو عندما تلاقى قسما القوات الصليبية فى احد الاودية . ركع البارونات الذين يؤيدون الزحف على القسطنطينية امام اقدام الذين كانوا يعارضون هذا الزحف : «وبكوا كثيرا وقالوا انهم لن يفارقوا اماكنهم طالما الباقون لا يعدون بعدم التخلى عنهم» .

فى حاصل المفاوضات (التى جرت ببالغ التوتر ، كما يستفاد من جميع الدلائل) اتخذ حل وسط ، فقد وافق صليبيو المعارضة على البقاء مع الآخرين حتى انتهاء مدة المعاهدة مع البندقية اى حتى ٢٩ ايلول (سبتمبر) ١٢٠٣ . وبعد ذلك ، «دخل الفرسان السفن وسيقت الخيول الى اليوسيـــه» وفى ٢٤ ايار (مايو) ١٢٠٣ غادر الاسطول الصليبى كورفـــو . وبعد ان تجاوز البيلوبونيز ، اتجه من جزيرة اندروس الى القسطنطينية .

استقرار الصليبيين فى القسطنطينية .
النزاع مع الامبراطورين . انتفاضة الفقراء

كان امام الصليبيين خصم ضعيف نسبيا . فان الخراب كان قد حل بسكان بيزنطية الكادحين من جراء الاتاوى والضرائب المتصاعدة ، وتعسف الجباة ، والحروب اللامتناهية . وكانت واردات الدولة تتناقص بلا توقف . وادى تحكم

التجار الايطاليين الى انحطاط تجارة بيزنطية بالذات (وكان ذلك ملحوظا فى القسطنطينية اكثر مما فى اى مكان آخر) التى كانت مصدرا مهما لتدفق الاموال على الامبراطورية . وكان كبار الموظفين يمدون ايديهم الى خزينة الدولة بلا حياء مفرغين خزانة الاباطرة فوق ما هى عليه من هزال . وكل هذا ادى حتما الى ضعف جيوش الامبراطورية البيزنطية . وكان البيزنطيـــون قد اعتادوا الاستعانة باسطول البندقية ، ونحو اوائــــل القرن الثالث عشر لم يكونوا يملكون او يكاد اسطولا خاصا بهم . ويروى نيقيتاس الخونياتى ان ميخايل ستريفنا ، قائد الاسطول آنذاك ، وقريب الكسيوس الثالث ، «كان يملك عادة تحويل المراسى والدفات وحتى الاشرعة والمجاديف ايضا الى ذهب ، وقد حرم اسطول بيزنطية من السفن الكبيرة» . كذلك كانت قوات بيزنطية البرية قليلة التعداد . وعندما وصلت الى الكسيوس الثالث الخامل الانباء القائلة ان اللاتين احتلوا زادار ، اكتفى باصدار الاوامر «باصلاح ٢٠ سفينة عفنــة نخرها الدود» .

ومنذ اواخر القرن الثانى عشر كانت الآلة الادارية فى الامبراطورية مختلة تماما ، - وهذا فى جو من النضال الاجتماعى المتوتر فى داخل البلاد ، فى الوسط وفى الاطراف ، وفى جو من المخاصمات المتواصلة بين مختلف كتل كبار الموظفين وكبار ملاكى الاراضى ، وفى جو من الخسائر الاقليميـــــة المتواترة فى اوروبا وفى الشرق . ولم يكن امتلاك انقاض دولة كانت جبارة فيما مضى ليواجه الصليبيين بمصاعب كبيرة جدا . صحيح ان عددهم كان قليلا - نحو ١٠-١٢ الفا - ولكن القسطنطينية لم تكن تستطيع ، والحــق يقال ، ان تأمل الا فى تحصيناتها .

وفى ٢٣ حزيران (يونيو) ظهر اسطول البندقية الذى يحمل المحاربين فى مكلأ القسطنطينية . وفيما بعد ، تذكر فيللاردوان الانطباع الباهــر الذى احدثه فى نفوس الصليبيين منظر المدينة الذى تكشف لهم : «وهكذا ، لو تعرفون ، حدقوا طويلا فى القسطنطينية ، اى اولئك الذين لم يروها يوما من قبل ، لانه لم يكن بوسعهم ان يتصوروا انه يمكن ان توجد فى مكان ما من الدنيا مدينة بمثل هذا الغنى . . . ولم يكن بوسع احد ان يتصور ، لو لم ير بام عينيه ، طول وعرض المدينة التى كانت تهيمن بين جميــع المدن» . مضى الاسطول بمحاذاة الساحل الاسيوى من البوسفور وتوقف على بضعة كيلومترات من العاصمة البيزنطية ، قرب سكوتارى . وحاول الامبراطور الكسيوس الثالث بواسطة رسوله اللومباردى نيكولو روسى ان يستبعد بالوسائل الديبلوماسية الخطر الوشيك ووعد الصليبيين بالاسهام فى استرجاع الارض المقدسة اذا

تركوا بيزنطية وشأنها . ولكن لا الوعود ، ولا التهديدات اسفرت عن النتيجة المنشودة . ووجه البارونات ، بواسطة الرسول الامبراطورى ، انذارهم : يجب على المغتصب ان يتنازل عن العرش والا فلا يلومن الا نفسه .

فى ٥ تموز (يوليو) ١٢٠٣ ، اخترقت قوادس البندقية السلسلة التى تسد مدخل القرن الذهبى (وهو خليج يدخل عميقا فى البر كأنما يقسم القسطنطينية الى قسمين) ، وابادت السفن البيزنطية العفنة والمنخورة ، ودخلت هذا المركز الستراتيجى المهم من دفاع المدينة . ونزلت فصائل الصليبيين فى ضاحية غلطة وهاجمت تحصينات العاصمة ، التى كانت تدافع عنها قوات جمعت بتسرع . وفى اليوم الثانى تسنى للصليبيين ان يحتلوا برج غلطة . وعمليا لم يقبل جنود الكسيوس الثالث القتال ، بل اسرعوا فى التخفى وراء اسوار المدينة .

قسم مجلس البارونات جميع الصليبيين الى سبع فصائل وقرر ان يهاجم القسطنطينية من البر ومن البحر فى آن واحد . ولم تستمر العمليات الحربية اكثر من عشرة ايام . والى جانب الانجليز والدانماركيين من مرتزقة الروم ، اشترك فى الدفاع عن القسطنطينية المعمرون البيزيون ، اخصام البندقيين .

لم يستطع حماة المدينة ان يصدوا ضغط الفرسان . وقد دارت رحى الاشتباك الحاسم فى ١٧ تموز (يوليو) . واستطاع المقاتلون المتواجدون فى السفن التى سيقت الى السور لصقا (علما بانهم ربطوا السفن اثنتين اثنتين لاجل التأكد من الامانة) احتلال زهاء عشرين برجا . ولدرء هجمات مرتزقة البيزنطيين المعاكسة ، احرق الصليبيون اقرب الانشاءات ، فقضى الحريق على بضعة احياء . وسرعان ما وجه الكسيوس الثالث ضد المهاجمين احتياطياته الاخيرة من الفرسان والمشاة . وواجه الصليبيون واعداؤهم بعضهم بعضا وجها لوجه استعدادا للقتال ، ولكن فصائل الامبراطور البيزنطى تخلت عن مواقعها فجأة لما فيه دهشة الفرسان الصليبيين ، حتى دون ان تحاول الدخول فى القتال . واصبح واضحا للامبراطور ان مرتزقته لن يصمدوا امام الغزاة الذين وطدوا العزم ، فساقهم الى المدينة . ثم اخذ الامبراطور قيم الدولة وفر من المدينة .

وعمليا استسلمت القسطنطينية التى يبلغ عدد سكانها ١٠٠ الف امام عصابة من اللصوص والنهابين الغربيين الذين قاموا باعمالهم اللصوصية بحجة حسنة المظهر ، حجة اسقاط المغتصب .

فى اليوم التالى ، فى ١٨ تموز (يوليو) ١٢٠٣ ، اخلى سبيل اسحق الثانى

انجيلوس الاعمى من السجن ، ونودى به امبراطورا ورافقوه الى قصر فلاخرنا . وفى القسطنطينية كانوا يفترضون انه يمكن ، بتنصيبه على العرش ، تجنب فظائع زحف «البرابرة» . وبالفعل ، ماذا بقى لهم الآن ان يفعلوه فى العاصمة؟ ذلك انهم ، حسب زعمهم ، كانوا لا يريدون غير اعادة الحاكم الشرعى الى العرش !

ولكن الوضع تعقد لانه كان على هذا الحاكم ان يدفع للفرسان لقاء الخدمات التى قدموها له ، بيد ان خزينة الدولة كانت فارغة . ولهذا لم يقدم اسحق الثانى نفسه فى الحال على الاستجابة لحماته فى مسائل النقود . فبعد مرور بضعة ايام على المناداة باسحق الثانى امبراطورا ، دخل ولى العهد الكسيوس المدينة برفقة الامراء الصليبيين . وفى اول آب (اغسطس) نودى به شريكا فى الحكم لوالده الاعمى . واقنع الامبراطور الشريك الذى اتخذ اسم الكسيوس الرابع والده بايفاء الالتزامات التى قطعها على نفسه فى شباط (فبراير) بجوار زادار ، ولكن لم يكن لدى اسحق الثانى والكسيوس الرابع مع ذلك ما يدفعانه «لباعثى العدالة» . فاقام الصليبيون معسكرهم فى احدى ضواحى القسطنطينية . واستطاع الامبراطوران ان يجمعا نصف المكافأة الموعود بها — ١٠٠ الف مارك — عن طريق المصادرات والابتزازات وفرض الضرائب الجديدة وباتخاذ اجراءات استثنائية اخرى . ولكن هذه الاجراءات كانت عصا ذات طرفين ، سيفا ذا حدين ، فقد استثارت فى العاصمة المزيد والمزيد من الاستياء ، وكان رجال الدين الارثوذكس يهيجون بصورة خاصة . بينما كان الفرسان ، مثلهم مثل البندقيين ، يتحرقون للحصول على النقود الباقية . ولما لم يجد اللاتين اى نفع من الامبراطورين ، شرعوا يفتشون بانفسهم عن الوسائل لتلبية شهواتهم .

كانت القسطنطينية مدينة فخمة وغنية . كتب روبر دى كلارى : «كان هناك وفرة من الثروات ، وكثرة من الآنية الذهبية والفضية ، وكثرة من الحجارة الكريمة الى حد انه كان يخيل من باب العجائب حقا نقل مثل هذه الثروة الرائعة الى هنا . منذ خلق العالم (يصيح هذه الفارس من بيكارديا بدهشة ساذجة) لم ترَ ولم تجمع كنوز مماثلة بمثل هذه الروعة والقيمة . . . وفى اغنى مدن الارض الاربعين ، كما اعتقد ، لم تكن ثمة من الثروات بقدر ما كان منها فى القسطنطينية !» . ان الصليبيين الذين لا يميلون الى التمتع بالنوادر المتحفية فى القسطنطينية ، شرعوا ، بموافقة العاهلين البيزنطيين العاجزين الضمنية ، فى نهب كنائس القسطنطينية . وفى اواخر آب (اغسطس) احرقت عصابة من الفرسان كانت تنهب فى القسم الشرقى من المدينة جامعا

قائمـا هناك فانتشرت النار وقضى حريق جديد على نصف القسطنطينية او يكاد . كتب فيللاردوان : «ما كان بوسع احد ان يعدد لكم الضرر الذى الحقه الحريق ، ولا الاموال ولا الثروات التى هلكت ودفنت هناك ، او ان يحكى عن الرجال والنساء والاولاد الكثيرين الذين احترقوا هناك» .

ان الروم الذين امتعضوا سابقا من سياسة الامبراطورين الاب والابن اللذين باعا نفسيهما من اللاتين قد انفعلوا واضطربوا ، حسب تعبير نيقيتاس الخونياتى «مثل بحر متموج ولا حد له فى حال ريح قوية ، مهددين بالفتنة» . واخذت تتكاثر المصادمات فى المدينة بين السكان المحليين والغرباء . واهتز عرش العاهلين الذى اعاده الفرسان . وفى آخر المطاف ، اضطر الكسيوس الرابع الذى كان يقضى معظم اوقاته فى التسلية ، بينما كان والده الذى لم يكن يتمتع فعلا باية سلطة ينفرد مع الرهبان والمنجمين ، الى ابلاغ زعماء الصليبيين على المكشوف انه يرفض تنفيذ شروط اتفاقية زادار . ناهيك بانه توقف تزويد الصليبيين بالمؤن . فاذا الدوج دندولو الغاضب ، كمـا يروى روبر دى كلارى ، يرمى فى وجه الكسيوس الرابع كلمات غاضبة : ذات مرة سحبه الفرسان من الوحل ، ولكنهم سيدفعونه الآن من جديد الى الوحل . وهكذا اعلن الفرسان عمليا الحرب على حليفيهم الامبراطورين اللذين لم يبررا الآمال المعقودة عليهما . وامام جنود المسيح لم يبق سوى سبيل واحد هو ان يستخلصوا بانفسهم «حقوقهم» بالاساليب التى يستطيعون اللجوء اليها . لقد استعجل زعماء الصليبيين فى حل المشكلة .

وفى هذه الاثناء وقعت فى العاصمة احداث عاصفة . ففى اواخر كانون الثانى (يناير) ١٢٠٤ نشبت فيها انتفاضة شعبية ضد الكسيوس الرابع كان سببها «حرق المدينة ونهب الاديرة» ، كمـــا يحكى شاهد العيان الروسى للاحداث فى مؤلفه «قصة فتح تسارغراد من قبل الفرياغ» (هكذا كانوا فى الروسيا يسمون البندقيين) . وقد حاول الامبراطوران القابعـان وراء اسوار قصر فلاخرنا ان ينقذا العرش فى اللحظة الاخيرة بمساعدة الصليبيين . فطلبا من زعمائهم توجيه الفصائل الى المدينة لاعادة النظـام . ولكن الطلب وصل متأخرا جدا . فقد تعاظمت الانتفاضة فى المدينة .

ان الاعيان الذين كانوا لامد قريب يؤيدون آل انجلوس قد تخوفوا من «ادخال الفرياغ» . وبنتيجة مؤامرة ، تم اسقاط اسحق الثانى والكسيوس الرابع . اما المبادر الى المؤامرة فكان اقرب مستشارى الكسيوس الثالث وصهره ، الموظف الكبير الطموح ، الكسيوس دوكا الملقب مورسوفل (المقطب الحاجبين — فقد كان حاجباه مقطبين دائما ، كما يوضح نيقيتاس الخونياتى) ،

واجلست الاريستقراطية مورسوفل على العرش بأمل ان يستطيع رجل البلاط الهمام هذا ، اذ يحتذى جزمة الفاسيلفس الحمراء ، ان ينظم المقاومة المسلحة فى وجه اللاتين . وقـــد اتخذ الامبراطور الجديد لنفسه اسم الكسيـــوس الخامس .

ان الوضع الذى اضطر الكسيوس الخامس الى العمل فيه كان معقدا جدا . فقد دفع الشعب الى العرش صنيعته ، المقاتل البسيط نيقولا كاناف . وبارادة الشعب توجوه فى كنيسة آجيا صوفيا ، — ولكن ، والحـــــق يقال ، بدون اشتراك البطريرك ، اى «ليس حسب الشكل» . وانقسمت القسطنطينية ، — كما يروى نيقيتاس الخونياتى الذى وصف بالتفصيل انتفاضة كانون الثانـــى ١٢٠٤— الى معسكرين : من جهة ، الاعيان الذين التفـــــوا حول الكسيوس الخامس مورسوفل ، ومن جهة اخرى ، الشعب ، الفئات الدنيا فى المدينة ، المائلة الى نيقولا كاناف . وفى هذا الوقت بالذات ، لم يكـــــن الصليبيون يقفون معسكرا عند اسوار المدينة وحسب ، بل كانوا كذلك يتواجدون فى داخل العاصمة حيث كانوا ينصرفون الى اعمال النهب والسلب .

فى البدء حاول الامبراطور الجديد الكسيوس الخامس ان يكسب ثقة فقراء القسطنطينية . وقد اقترح على نيقولا كاناف تقاسم السلطة معـــه . الا ان هذه الخطوة الديموغاجية لم تؤثر فى الشعب . ولكـــن حدث امر آخر : فان سكان المدينة الميسورين الذين كان يعود اليهم ، على ما يبدو ، الدور القيادى فى انتفاضة القسطنطينية ، قد اقدموا على الخيانة . واذ ذاك استغل الكسيوس الخامس الارتباك الذى شمل الفقراء فاعتقل كاناف الذى حمـــــل اللقب الامبراطورى ثلاثة ايام فقط ووضع حدا «للرعاع» المتمردين . وقبل ذاك اعتقلوا الكسيوس الرابع . وبأمر مـــن الكسيوس الخامس ، خنقوا فى السجن نيقولا كاناف والامبراطور السابق . اما اسحق الثانى انجيلوس ، فقد مات ، اذ انه لم يتحمل المصائب التى حلت به .

بعد ان نكل مورسوفل بالاخصام وقمع انتفاضة العامة — (وهذه الانتفاضة بالذات تفسر الكثير فى سقوط بيزنطية الذى حدث بعد ذلك بقليل من جراء التناقضات الاجتماعية والسياسية التـــــى كانت تمزقها) عكف على ترميــــم تحصينات القسطنطينية ، كما حاول ان ينشئ قوات مدنية من سكان المدينة المتطوعين . واقترح على اللاتين بشكل انذارى مغادرة ارض بيزنطيـــة خلال اسبوع .

كل هذا العزم الظاهرى لم يكن يفعل غير ان يموه ضعف سلطة الدولة الشديد . ففى الاوساط العليا لم تتوقف الخلافات والنزاعات . ولم يكن ثمة

نقود . والمرتزقة الذين لم يقبضوا اجورهم زمنا طويلا ، لم يكونوا يبدون اية رغبة فى القتال رغم وعدهم بدفع الاجور قريبا . اما الشعب البسيط فلم يكن يعتزم بالاحرى ان يدعم خلف الامبراطورين من آل انجيلوس . ان معلمى الحرف ، والصناع ، والتجار الصغار ، وفقراء العاصمة قد كابدوا الكثير من الملوك المستبدين ، وتعذبوا كثيرا من تعسف السرابين الموظفين وتجاوزاتهم . ان سكان القسطنطينية الذين دفعهم الى حد اليأس نير الطغمة الاقطاعية البيروقراطية الحاكمة قد تملكتهم اللامبالاة الكاملة حيال مصائر الامبراطورية . ولم تسفر محاولات انشاء قوات مدنية عن اى شىء . وان الصليبيين الذين سبق ان سنحت لهم الفرصة فى سنة ١٢٠٣ للتحقق من ضعف قدرة حامية القسطنطينية على الدفاع ، كانوا مطلعين كذلك ، بلا ريب ، على الوضع الجديد فى العاصمة ، فاجروا الاستعدادات الاخيرة لاقتحامها لتسرعهم فى «اخذ ما لهم» .

مشروع تقاسم بيزنطية . الاستيلاء على القسطنطينية

ان منظر المدينة الشاسعة والغنية المنبسطة امام الفرسان قد الهب رغائبهم الاغتصابية والعدوانية . وقبل الهجوم الاخير ببضعة اسابيع ، وقع انريكو دندولو وبونيفاسيوس دى مونفيرات وغيرهما من قادة الصليبيين ، فى آذار (مارس) ١٢٠٤ معاهدة بشأن تقاسم التركة البيزنطية التى كانوا يرونها فى ايديهم . وفى هذه الوثيقة رسموا بالتفصيل شروط تقاسم الغنيمة المقبلة - الاموال المنقولة ، والاراضى ، والسلطة فى الدولة الجديدة التى ازمع الاسياد الغربيون تأسيسها عوضا عن بيزنطية . وقد حرص البندقيون فى المقام الاول على اكثار امتيازاتهم التجارية القديمة وعلى تأمين حصة الاسد لانفسهم - ثلاثة ارباع الغنيمة كلها ، بينما كان ينبغى على الصليبيين الباقين بموجب المعاهدة ، ان يكتفوا بالربع .

كانت معاهدة آذار (مارس) تنص على اسس بناء الدولة وعلى جميع التفاصيل المتعلقة بتقسيم بيزنطية اقليميا . وقد تقرر ان يكون للدولة الجديدة بعد فتح القسطنطينية امبراطور منتخب ، وان يكون حق انتخابه من صلاحية لجنة من ١٢ شخصا - ستة بندقيين وستة فرسان . فان رجال المال من جمهورية القديس مرقس لم يرغبوا فى يأخذوا على عاتقهم اعباء شرف شغل التاج الامبراطورى . وكانت تروق لهم كليا المناصب القيادية فى الادارة الكنسية الغنية الدخل ، ولهذا ادخلوا فى المعاهدة ، بناء على الحاح الدوج ،

شرطا مفاده ان الجانب الذى لن ينتخب الامبراطور من عداده يشغل منصب بطريرك القسطنطينية الكاثوليكي الروماني . وجميع الاسياد ، ما عدا الدوج ، سيكونون ملزمين بحلف يمين التبعية للامبراطور الجديد .

نصت المعاهدة على منح الامبراطور ربع اراضى بيزنطية ، وعلى تقاسم الارباع الثلاثة الباقية مناصفة بين البندقيين والفرسان الصليبيين (ثلاثة اثمان لكل من الفريقين) . وهكذا ابقى البندقيون للصليبيين اللقب الامبراطورى الفارغ واعباء السلطة التى كان من المستحيل تطبيقها ، واحتفظوا لانفسهم ، كما لاحظ ماركس فى «مقتطفات متسلسلة» ، بمنافع المشروع الفعلية .

لقد عنى عقد المعاهدة ان الاعداد الديبلوماسى لفتح القسطنطينية قد انتهى . وسرعان ما انتهت الاستعدادات العسكرية . وضعت آليات الحصار على اهبة الاستعداد ، وتم ترسيخ السلالم وتوزيع المجانيق ، والمقاليع . ولم يعد زعماء الصليبيين يخفون نيتهم فى الاستيلاء على القسطنطينية بالقوة .

فى ٩ نيسان (ابريل) ١٢٠٤ قام الفرسان باول محاولة لاقتحام المدينة . وهذه المرة قرروا ان يوجهوا الضربة الى القسطنطينية من البحر . رد البيزنطيون الضربة . فمن اسوار المدينة انصب على المهاجمين سيل من السهام والحجارة . وقد زعم فيللاردوان يتبجح فى يومياته ان الفرسان لم يخسروا طوال زمن الحصار كله سوى رجل واحد . اما فى الواقع ، فقد تكبدوا خسائر افدح . ففى ٩ نيسان وحده ، مثلا ، القى زهاء مائة مقاتل صليبى مصرعهم ، كما يشهد شاهد عيان روسى ، لدن محاولة الاستيلاء على احد الابراج . واخفق الهجوم .

بعد ثلاثة ايام قام الفرسان بعملية انقضاض ثانية ، فعادت عليهم بالنصر . فبواسطة عبّارات القيت على الاسوار ، تسنى للفرسان ان يصعدوا اليها ، وفى الوقت نفسه احدث مقاتلون آخرون ثغرة فى السور ثم حطموا ثلاث بوابات من الداخل . واقتحم الصليبيون المدينة واجبروا جنود مورسوفل على التراجع . اما مورسوفل نفسه ، فقد فر من المدينة تحت جناح الليل . وللمرة الثالثة احرق «باعثو العدالة» القسطنطينية .

فى اليوم التالى ، فى ١٣ نيسان ١٢٠٤ ، سقطت القسطنطينية ضحية الغزاة الغربيين . لم يلق الصليبيون فيها اية مقاومة . ويروى روبر دى كلارى ان الفرسان الذين دخلوا العاصمة البيزنطية وظنوا ان القتال سيحتدم بمزيد من الحدة ، قد تخندقوا فى معسكر قرب الاسوار ، ولم يتجاسروا على التقدم نحو وسط المدينة . ولكم كانت دهشتهم عظيمة عندما راوا فى اليوم التالى ان سكان المدينة لا ينوون الدفاع عن عاصمتهم ! وبالخطوط نفسها

القسطنطينية سنة ١٢٠٤

تقريبا يصف فيللاردوان ايضا الوضع الذي نشأ في اليوم التالي بعد دخول الصليبيين القسطنطينية . فهو يقول ان الجميع في صفوف القوات المسلحة اعدوا الاسلحة — الفرسان وحملة اسلحتهم-كان كل يفكر في المعركة المقبلة مفترضا انه ستدور رحى قتال لا سابق لضراوته . ولكن ماذا حدث ؟ لم يلق الصليبيون في المدينة احدا يقاومهم . وبالفعل لم يكن ثمة في المدينة من يقاتلهم . فان العامة في القسطنطينية لم يرغبوا في الذود عن دولة تجسد بالنسبة لهم الظلم الاجتماعي . وعندما حاول الاريستقراطي البيزنطي قسطنطين لاسكار الذي نادى به رجال الدين بتسرع امبراطورا ان يدعو السكان مع ذلك الى حمل السلاح ، اصطدم بسور من اللامبالاة .

وهكذا تسنى لزهاء اقل من خمسة عشر الفا من الصليبيين في نحو ثلاثة ايام ان يستولوا على مدينة من اعظم مدن العالم آنذاك . وحتى الغزاة انفسهم الذين كانوا يعرفون اي عدو ضعيف يواجهون قد اذهلهم هذا النجاح الذي احرزوه بمثل هذه السرعة وهذه السهولة النسبية . وفيما بعد كتب جوفروا فيللاردوان : «واعلموا انه لم يكن ثمة شجاع لم يرتعش فؤاده ، ولم يبد له من باب العجائب ان يتحقق مثل هذا العمل العظيم بمثل هذا العدد من الناس الذي لا يصعب تصور عدد اقل منه» .

ويقدر فيللاردوان النسبة بين قوى الغزاة الذين حاصروا واحتلوا العاصمة البيزنطية وبين قوى المدافعين عنها بنسبة ١ الى ٢٠٠ ويلاحظ انه لم يحدث قط من قبل ان حاصرت مثل هذه الحفنة من المقاتلين مثل هذا العدد الضخم من الناس في اية من المدن . كذلك يعتبر روبر دي كلاري الاستيلاء السهل على القسطنطينية عملا غير عادي ، وينعته مرتين بالمعجزة .

ان سر «المعجزة» التي اذهلت ايضا الكثيرين من المؤرخين اللاحقين كان بسيطا . فان تفاقم الصراع الاجتماعي والسياسي في الامبراطورية البيزنطية الذي بلغ آنذاك الذروة انما هو التفسير الحاسم لسقوط القسطنطينية غير المتوقع من الوهلة الاولى ولسحق الامبراطورية بمجملها . من المؤكد انه كانت ثمة اسباب اخرى ، ملموسة تماما أمنت النصر للصليبيين . فقد ساعدهم بعض الاريستقراطيين الروم وفريق من تجار القسطنطينية . وكان قسم من ملاكي الاراضي المحليين يبيعون من زمان بعيد منتوجات ضياعهم من التجار اللاتين ، وكان بعض التجار البيزنطيين يقومون بدور الوساطة في هذه الصفقات . وهؤلاء الناس كان اكثر ما يهمهم هو الاحتفاظ في المستقبل بالعلاقات التجارية مع اللاتين . وبالضبط في دعم هؤلاء البيزنطيين الذين كانت مصالحهم الاقتصادية ترتبط بمصالح اللاتين وتتشابك بها بوثوق ،

كان يأمل الصليبيون ولاسيما منهم ، بالطبع ، البندقيون ، حين تقاسموا فيما بينهم سلفا بمثل هذا اليقين ثروات القسطنطينية في آذار (مارس) ١٢٠٤ وهذه الآمال تبررت .

حظى فتح العاصمة البيزنطية بمصادقة الكنيسة الكاثوليكية . وعشية اقتحام القسطنطينية غفر الاساقفة والكهنة المرافقون للمقاتلين ، بدون اى اعتراض ، خطايا المشتركين فى المعركة المقبلة ، وعززوا بالتالى ايمانهم فى ان الاستيلاء على العاصمة البيزنطية انما هو عمل مشروع ويرضى الرب . وينقل جوفروا فيللاردوان بالتفصيل خطابات رجال الدين فى مجلس الزعماء المنعقد عشية الهجوم . كتب مدون الاخبار الفرنسى ، المتمالك عادة حين يسلط النور على موقف الباباوية : «الاسافقة وجميع رجال الدين ، جميع من كانوا يخضعون لاوامر الحبر الاعظم ، كانوا متفقين – وقالوا ذلك للبارونات والحجاج – على ان من اقترف هذا القتل (قتل الكسيوس الرابع – **المؤلف**) لا يحق له امتلاك الاراضى» . واكد رعاة القوات الصليبية الروحيون بالحاح ومثابرة ان الحرب المقبلة حسنة وعادلة . وجميع الذين كانوا يعتزمون فتح هذه الارض واخضاعها لروما وعدوهم بغفران جميع خطاياهم . ويضيف فيللاردوان مخاطبا القراء : «واعلموا ان هذه المواعظ كانت دعما كبيرا سواء للبارونات ام للفرسان» .

«اجتياح القسطنطينية» . ذلك اسم مدونة من مدونات الاخبار اللاتينية تصف افعال الفرسان الغربيين اللصوصية فى العاصمة البيزنطية . وبالفعل ، ما ان استولى الفرسان على القسطنطينية ، حتى انقضوا على القصور والكنائس ومستودعات التجار ، وقد احقدهم الانتظار الطويل للغنيمة وشجعهم رعاتهم الروحيون . ونهبوا البيوت ، ونهبوا المدافن والاضرحة ، وهدموا آثارا فنية تفوق التقدير ، واحرقوا كل ما كانت تطاله ايديهم . لقد احرق الغزاة البيوت لكى يطردوا منها سكانها ويسرأوا بالتالى معارك الشوارع . ودام جنون المقاتلين العاصف ، واغتصاب النساء ، وحفلات السكر والعربدة ثلاثة ايام . وقتلوا بضعة آلاف من سكان القسطنطينية .

فيما بعد حاول كثيرون من مدونى الاخبار ان يخففوا بجميع الوسائل من حدة اجتياح المدينة المسيحية ، ويبرروا الصليبيين . فان روبر دى كلارى ، مثلا ، قد حاول ان يؤكد للقراء انه «عندما تم الاستيلاء على المدينة بمثل هذه الروعة ودخلها الافرنج ، تصرفوا هناك بكل هدوء» ، ولم تحدث ، حسب زعمه ، اية من اعمال الشطط ، فان الافرنج لم يتسببوا باى ضرر واية اهانة ، لا للفقراء ولا للاغنياء . ويزعم غونتر من بيريس ان الفرسان

كانوا يعتبرون على العموم من المعيب وغيــر الجائز للمسيحيين الهجوم على المسيحيين وارتكاب اعمال القتل والنهب والسلب والحرق بينهم .

ولكن كثيرين من شهـــود العيان يشهدون بالعكس . فان فيللاردوان يكتب بوضوح ان الصليبيين استولوا على غنيمة هائلة وقتلوا كثيرين مـن الناس ، وهو يقول : «لم يكن ثمة للقتلى وللجرحى عدد ومقياس» . وهناك شاهد عيان آخر ، روى بالتفصيل عـــن مذبحة سنة ١٢٠٤ ، هو نيقيتاس الخونياتى ، وقد كتـــب فيما بعد ، كأنما تذكر بعجب وذهول المشاهـــد الوحشية التى توالت آنذاك فى القسطنطينية : «لا اعرف بما ابدأ وبما انهى وصف كل ما فعله هؤلاء الناس الكفار» .

وحقا وفعلا لم يعرف جشع الفرسان حدودا . وكـــأن البارونات الاعيان وتجار البندقية والفرسان وحملة الاسلحة اخذوا يتنافسون ويتبارون فى نهب وتبديد ثروات العاصمة البيزنطية . وقد قال نيقيتاس الخونياتى انهم لـــم يرحموا احدا ولم يتركوا لاحد ما كان عنده . بل انهم مسوا مدافن الاباطرة البيزنطيين بما فى ذلك تابـــوت الامبراطور قسطنطين الاول ، حيث سرقوا مختلف المجوهرات . ولم تتجنـــب ، لا الكنائس ولا اشياء العبادة ، ايـدى الصليبيين الجشعة . وكان الصليبيون كما يروى مدونـــو الاخبار ، يحطمون المدافن والنعوش حيث ترقد رفات القديسين ويأخذون منها الذهب والفضة والاحجار الكريمة ، «ولم يكونوا يأبهون للرفات» ، فقد كانوا يرمونها ، كما كتب نيقيتاس الخونياتى ، «فى اماكن كل خساســـــة وسفالة» . ولم تستثن حتى كنيسة آجيا صوفيا . فقد نهب الفرسان كنوزها التـى تفوق التقدير . ومنها سلبوا «الآنية المقدســـــة ، والمصنوعات الفنية الرائعة ، والفضـــة والذهب اللذين كانت ملبسة بهما الكراسى والابواب والبوابات» .

وعن السفاكين والجزارين المجلببين بدروع الفرسان لم يتخلف النهابون فى جبب الرهبان والكهان . فان الرهبان والكهنة الكاثوليك كانوا يجوسون المدينة بحثا عن ذخائر القسطنطينية الشهيرة . وبقيت اسماء بعض من انشط خدم الرب الذين اندفعوا فى السرقة «التقية» دون اى وخز فى الضمير وكأن الحمى تملكتهم . فان مارتين ، رئيس دير لينتس ، مثلا ، الذى انضم الى عصابة من الفرسان ، قد نهب معهم دير بانتوكراتور الشهيـــــر الواقع فى القسطنطينية . ويستفاد من اقوال غونتر من بيريس الذى روى الاخبار عـن افعال هذا الاب المحترم المجيدة فى مؤلفه «تاريخ القسطنطينية» ان رئيس الدير مارتين هذا تصرف باكبر قدر من الجشع والبخل ، فقد كان يمســـك «بكلتا يديه» . ويروى مدون اخبار مجهول من هالبرشتادت انه عندما عاد

اسقف هذه المدينة كونراد فى سنة ١٢٠٥ الى موطنـــه ، تورينغيا كانوا يسوقون امامه عربة محملة للحافة بذخائر القسطنطينية . وفيما بعد ، وصف الاحبار الكاثوليك بصورة مفصلة للغايـــة ما سرقوه فى القسطنطينية من الاشياء المقدسة على وجه الضبط . وهذه الاوصاف جمعها فى السبعينيات من القرن التاسع عشر العالم الكاثوليكى الفرنسى ريان وشكل منها مجلديـــن اسماهما بدون سخرية «الغنيمة المقدسة مـــن القسطنطينية» . وفى اوروبا الغربية ، كما لاحظ المعاصرون ، لم يبق ، على الارجح ، اى دير واية كنيسة لم يغتنيا من الذخائر المسروقة .

ان اعمال النهب الشاملة والكاسحة المقترفة فى القسطنطينية التـــى تتاكلها النار ، لم تؤكدهـــا شهادة نيقيتاس الخونياتى وحسب (فقد تضرر شخصيا من مآثم اللاتين وبالكاد نجا مع عائلته بفضل المساعدة الودية التى قدمها له احد معارفه من البندقيين) . وحتى اذا وافقنا اولئك المؤرخين الذين يعتبرون ان الكاتب البيزنطى نيقيتياس الخونياتى قد كثف الاصباغ وبالـــغ بصورة لا مناص منها فى معرض حديثه عن هيجان الفرسان وفحشهم ، فقد بقيت كثرة من اخبار مؤلفين غير بيزنطيين وصفوا بأقبح النعوت الاعمال التى اقترفها الصليبيون فى العاصمة البيزنطية . وخلافا للكاتب البيزنطى نيقيتاس الخونياتى الذى شهر بمرارة وغضب بعنف اللاتين ، كان شاهد العيان الروسى على اجتياح القسطنطينية ، مؤلف «قصة الاستيلاء على تسارغراد من قبـــل الفرياغ» ، غير متحيز نسبيا فى وصف ما رآه بام عينيه او سمعه من شهود العيان والمشتركين فى الاحداث . ولكنه هـــو ايضا لم يستطع ان يلزم الصمت عن وقائع انتهاك حرمة المقدسات الدينية ونهبها من قبل الصليبيين . وقد كتب : «الكنائس فى المدينة وخارج المدينة نهبت جميعها ، ولا يسعنا لا ان نذكر عددها ولا ان نصف جمالها» .

كذلك تحدث جوفروا فيللاردوان عن اعمال النهب التى اقترفها زملاؤه . ومن الجلى ان فيللاردوان لزم الصمت عن مآثمهم او خفف من غلوائها ، وحتى اورد على لسان البارونات كلمات الاسف على مصير المدينـــة ، على «هذه الكنائس الرائعة والقصور الغنية التـــى التهمتها النيران وانهارت ، وهذه الشوارع التجارية الكبيرة التى تلقفها اللهيب الشديد» ، ولكنه لم يستطع امتناعا عن ابداء العجب من الغنيمة الوفيرة المنهوبة فى القسطنطينية . فلقد كانت عظيمة الى حد انهم «عجزوا عن حسابها» . وكانت هذه الغنيمة تنطوى على «الذهب والفضـــة ، والاحجار الكريمة ، والآنيـــة الذهبية والفضية ، والالبسة الحريرية ، والفراء ، وكل ما فى هذا العالم مـــن جميل وبديع» .

وليس بدون اعتزاز اكد مارشال شامبانيا ، فيللاردوان ، ان هذا النهب لم يسبق له مثيل منذ خلق العالم . وبتعابير مماثلـــــة تحدث كذلك الفارس البسيط روبر دى كلارى الذى تملكه العجب والابتهاج لجمع «ثلثـى ثروات الارض» هناك .

كذلك بقيت شهادة رفيعة المكانة على موبقات ومآثم الصليبيين ، عنينا بها رسالة البابا اينوشنتيوس الثالـــث . فليس بدون مبرر تخوف من ان يشكل عنف الصليبيين فى القسطنطينية عقبة فـــى وجه اتحاد الكنيســـة الارثوذكسية مع الكنيسة الكاثوليكية ، لانـــه سيكون «من حق الروم ان ينظروا الينا باشمئزاز كما الى الكلاب» . ولهذا انفجر البابا برسالة غاضبة دورية . فأعرب عن استيائه من لصوصيات الصليبيين الذين فضلوا ، عـلى حد قوله ، خيرات الارض على نعم السماء ، ولهـــذا سعوا ، لا الى فتـح القدس ، بل الى فتح القسطنطينية حيـــث «سلبوا الصغار والكبار» . ناهيك بانهم «مدوا ايديهم الى املاك الكنائس وما هو اسوأ الى مقدساتها ، اذ سحبوا من المذابح الالواح الفضية ، وحطموا غرف المقدسات ، واستولوا عـــلى الايقونات والصلبان والذخائر» . ان الغنيمة التى اجبر القادة الفرسان عـلى حملها الى الاماكن المخصصة لها كانت حقا وفعلا كما فـــى الحكايات . فان البندقيين ، اذا صدقنا فيللاردوان ، قد عرضوا على الصليبيين لقاء حصتهم وحدها من الغنيمـة ، ٤٠٠ الف مارك ، ولكن هذا العرض اعتبر غير مفيد وقوبل بالرفض .

لم تتحمل القسطنطينية خسائر مادية فادحة بفعـــل للصوص وقطاع الطرق الذين وشحوا بالصلبان عباءاتهم وستراتهم وحســـب . ففى حفلات التهتك والسكر المدمرة ، ضاعت واندثرت كذلـــك منتوجات رائعة لقدماء الرسامين والنحاتين بقيت محفوظة فى القسطنطينية مئات السنين . لم يكن البرابرة الصليبيون يفهمون شيئا فى الفن . كانوا لا يعرفون ولا يستطيعون ان يقدروا غير المعدن . اما المرمر والخشب والعظم التى صنعت منها فيمـا مضى آثار بديعة من الهندسة المعمارية والنحت ، فقد تعرضت للابادة التامة . وفضلا عن ذلك لقى المعدن ايضا عندهم تقييما فريدا .

فلكى يعيّن الصليبيون قيمة الغنيمة بمزيد مـــن السهولة ، حولوا الى سبائك مجموعات كبيرة من المصنوعات الغنية الفنية المعدنية التى نهبوها . وهذا ما حل ، مثلا ، بالتمثال البرونزى الرائع للآلهة هيرا من سآموس الذى كان منصوبا فى احدى ساحات القسطنطينية . فقد حول الصليبيون تمثال هيرا ، زوجة سيد الالهة واله الرعد زفس ، الى فتائت . وخلعوا عن القاعدة

وحطموا تمثال هرقل البرونزى الهائل الذى ابدعه الفنان العبقرى ليسيب (الفنان فى بلاط الاسكندر المقدونى) والذى يمثل البطل اليونانى الشهير تعبا من المآثر وجالسا ، ملقيا على كتفه جلد اسد نيمه الذى قتله . ولا المقاييس ولا الجمال انقذت تمثال بطل اسطورى آخر من ابطال اليونانيين هو بيلليروفون الراكب على الحصان المجنح بيغاس والمندفع الى مقام الالهة - جبل الاولمب . كان هذا التمثال على درجة من الضخامة ، بحيث «كان عشرة من طيور مالك الحزين» ، كما يروى روبر من كلارى ، «تبنى اعشاشها فى كفل الحصان ، وكانت الطيور تعود كل سنة الى اعشاشها وتضع البيض» . ولم يعفّ البرابرة والهمج الغربيون لا عن تمثال الذئبة التى تغذى بحليبها رومولوس وريموس ، التوأمين الاسطوريين ، مؤسسى الدولة الرومانية ، ولا عن تمثال الشاب الجميل باريس الذى رمى التفاحة الى فينوس ، فصارت سببا للشقاق ، ولا حتى تمثال العذراء مريم المنصوب فى وسط المدينة .

وحول الصليبيون الى رماد وغبار عددا لا يحصى من الآثار التى كانت بفضلها العاصمة البيزنطية من قديم الزمان متحفا للفن القديم ، فقد قل ما سلم من ايديهم . وما سلم ، نقلوا معظمه (ولاسيما البندقيون) الى اوروبا لاجل تزيين الكنائس والقصور . مثلا ، بامر من دندولو ، ارسلوا الى البندقية مجموعة نحتية عجيبة من صنع ليسيب ايضا - مجموعة برونزية مطلية بالذهب من اربعة احصنة واقفة على المنصة الامبراطورية فى ميدان سباق الخيل . كم وكم من الاماكن ظهرت فيها هذه الاحصنة المسكينة ! ومَنْ من الغزاة فى مختلف الازمنة استطاع ان يبقى عديم الاكتراث بمنتوج الفنان اليونانى العظيم ! فى اواخر القرن الاول ، حمله من الاسكندرية فى مصر الى روما الامبراطور اغسطس اوكتافيوس لكى يزين قوسه ، قوس النصر . ثم نصبوا الاحصنة تارة على قوس نيرون ، وطورا على قوس ترايان ، الى ان نقلها الامبراطور قسطنطين نهائيا الى ميدان سباق الخيل فى عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية (امبراطورية الروم او الامبراطورية البيزنطية) ، وقد اقيمت على بوابة ميدان سباق الخيل وبقيت هناك ثمانية قرون . ولكن اسفار تحفة الفنان اليونانى لم تنته . ففى سنة ١٢٠٤ اقيمت مجموعة الاحصنة الاربعة على البوابة الرئيسية بكاتدرائية القديس مرقس فى البندقية . وكان ذلك مكانا مشرفا كان الدوج والخاصة يشاهدون منه فى المعتاد الاعياد المقامة فى المدينة . وبعد ستة قرون اغرت الاحصنة البرونزية الابية والقوية ، اللامعة بالذهب نابليون الطموح . وحين احتل

البندقية فى سنة ١٧٩٧ نقل الاحصنة الى باريس حيث زينت فى البدء مدخل قصر التويليرى ثم قوس النصر فى ساحة كاروسل ، وبعد ١٨ سنة فقط ، عندما سقطت امبراطورية نابليون ، أرسلت مجموعة الاحصنة الاربعة من جديد الى البندقية . وابان الحربين العالميتين فى القرن العشرين اضطرت هذه الاحصنة الى مفارقة مكانها ، فمرتين انزلوها فى ملجأ خاص لوقايتها من قصف الهتلريين . ولا تزال الى الآن على مصطبة القديس مرقس . . .

فى سنة ١٢٠٤ ، لم يكتف البرابرة الغربيون ، العاملون تحت ستار الصليب ، بابادة آثار الفن . فقد حولوا كذلك الى رماد المكتبات الفائقة الغنى فى القسطنطينية . ان الفرسان الاميين والجهلة كانوا يرمون ، دون تردد ودون تفكير ، الى المواقد المتأججة ، برزم المخطوطات التى كانت تفوق التقدير – مؤلفات الفلاسفة والكتاب القدماء ، والنصوص الدينية ، والاناجيل المزينة . . . ماذا كانت تعنى بنظرهم كنوز العبقرية البشرية ومنتوجات عملها ؟ فقد احرقوها بكل بساطة كما احرقوا جميع الاشياء الاخرى . يقول كاتب ذلك الزمن رومانين الذى وصف معركة القسطنطينية : «بتتبع الحديث عن هذه المآثم ، يرتعش العقل ويحمر وجه البشرية خجلا» .

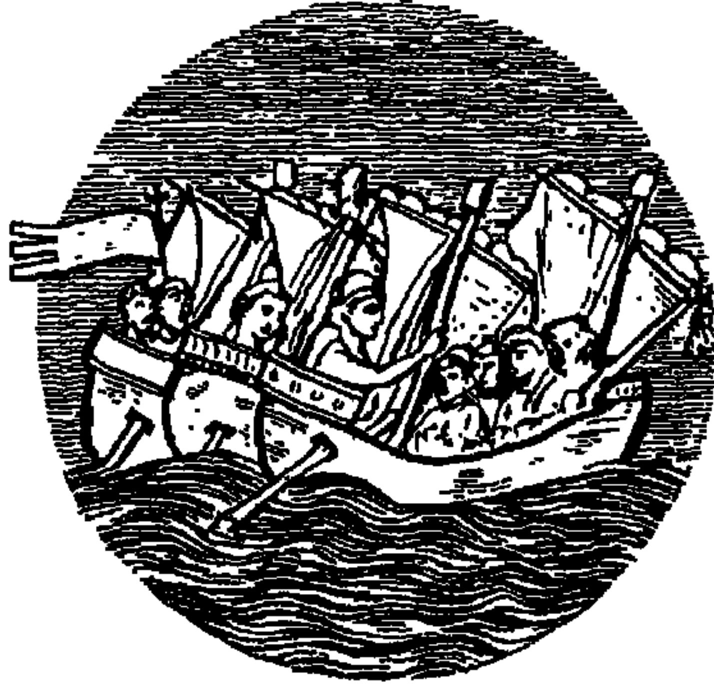
كذلك «اجتياح القسطنطينية» الذى جرى تحت راية الصليب بدا لبعض من المعاصرين الاوروبيين عملا مخالفا لارادة الرب ، فهكذا قدّر احداث سنة ١٢٠٤ مثلا ، مدون الاخبار اوجيريو بانه من جنوه فى مؤلفه «الحوليات» . وحين اعطى هذا التقدير لاجتياح العاصمة البيزنطية ، كتب طبعا بروح العداء لمنافسى جنوه ، البندقيين ، ولكنه لم يفترق فى الراى من حيث الجوهر ، مع جميع الشرفاء فى ذلك الزمن . بل بالعكس . فقد اعرب عن وجهة نظرهم .

تجدر الاشارة الى ان مآثم الصليبيين الوحشية كانت تتناقض بحدة مع مسلك الفاتحين المسلمين المتمالك نسبيا حيال المقدسات المسيحية فى الشرق . وحتى مسلمو اوروبا وافريقيا ، كما قال نيقيتاس الخونياتى ، كانوا اكثر شفقة ورحمة . وبالفعل تجاوزت مآثم الصليبيين وجرائمهم الوحشية فى العاصمة البيزنطية جميع ما سبقها فى التاريخ . ولقد اجتاح الغزاة الكاثوليك المدينة كما لم يفعل ذلك احد من قبل . ان ابادة القيم الثقافية المكدسة خلال قرون وقرون ، هذه الابادة التى اقترفها الفرسان ورجال الكنيسة على نطاق شاسع ومكثف ، قد الحقت ، بالطبع ، ضررا فادحا بالحضارة الاوروبية . وقد كتب المؤرخ الانجليزى المعاصر غودفرى ان اوروبا والمسيحية قد اصيبتا ، من جراء مأساة سنة ١٢٠٤ بجراح استعصت

على الشفاء ، كما اتضح مع مر الزمن . وبالفعل ، لم تستطع العاصمـــــة البيزنطية بعد ذاك يوما ان تتخلص من عواقب زحف الصليبيين اللاتين .

ان تاريخ الحملة الصليبية الرابعة كان تاريخ انتهاك ملهميها وقادتها والمشتركين فيها انتهاكا سافرا للاهداف الدينية التى اعلنوها . لقد داس الصليبيون راياتهم الدينية ، وشعاراتهم «التحريرية» . وبرهنوا عن ازدراء وقح لبرنامج الحملة الصليبية الرسمى واظهروا انهم ليسوا حماة اتقياء للدين المسيحى ، بل مغامرون جشعون وغزاة لامبدئيون . ان احداث ١٢٠٢-١٢٠٤ تبدد كليا تلك الهامة من القداسة والورع والتقوى التى احاطت بها الكنيسة الكاثوليكية فى سياق القرون هذه المشاريع الاغتصابية .

٦
انحطاط الحركة الصليبية



الامبراطورية اللاتينية . سنوات الهدئة فى الشرق

كانت الحملة الصليبية الرابعة الحملة الاخيرة التى عادت على الغرب بنتائج مهمة متميزة ، ولكنها ، والحق يقال ، لا تمت باية صلة الى الاهداف المعلنة رسميا لمشروع من هذا النوع . وبالفعل اسفرت مغامرة الفرسان فى سنوات ١٢٠٢-١٢٠٤ عن تاسيس دولة اسميت بالامبراطورية اللاتينية واتخذت القسطنطينية عاصمة لها . فى البدء انحصرت حدود دولة الصليبيين الجديدة فى العاصمة فعلا ، ثم تسنى للغزاة ، عن طريق الفتوحات ، توطيد دعائمهم فى كثير من اراضى شبه جزيرة البلقان وفى جواره . وقد استولوا على تراقيا ، ومقدونيا وفيساليا والاتيك وبيوتيا والبيلوبونيز وجزر بحر ايجه . وجميع هذه المناطق تقاسمها الصليبيون فيما بينهم ، واطلقوا على انفسهم القابا مفخمة — كونتات ودوقات آثينا وادريانوبول وفيليبوبول ، وامراء اخايا ، وملوك تسالونيكى ، والخ . .

وقد حصل البندقيون ذوو الهمة والمبادرة اكثر من الجميع فى حاصل الفتوحات ومختلف الصفقات . فقد انتقلت اليهم ثلاثة من احياء القسطنطينية

الثمانية ، ومدينة ادريانوبول ، والمرافئ على شاطئ بحر مرمره ، وجزيرة كريت ، وكثير من الجزر الاخرى . ومذ ذاك اصبح دوجات البندقية يلقبون باسياد «ربع وثمن الامبراطورية البيزنطية» .

دامت سيادة اللاتين فى الاراضى المحتلة اكثر من خمسين سنة بقليل . فقد خاض السكان اليونانيـــون نضالا عنيـــدا ضد العسّافين والنهابين الصليبيين . كذلك نشأت بؤر مهمة للمقاومة فى الدول المتشكلة على انقاض بيزنطية (دسبوتات * ابيروس ، امبراطورية نيقية وامبراطورية طرابزون) . وعندما نشبت فى ربيع ١٢٠٥ فى مقاطعات تراقيا انتفاضة عامة ضد النير اللاتينى ، تلقى اليونانيون المساعدة من الدولة البلغارية الفتية ايضا ؛ ففى ١٥ نيسان (ابريل) ١٢٠٥ هزمت الخيالة البلغارية الخفيفة الفرسان المدرعين بالدروع والخوذات شر هزيمة فى معركة ادريانوبول . واسر البلغار الامبراطور اللاتينى بودوان الاول بالذات . ولكن بلغاريا لم تستطع ان تستغل كليا ثمار النصر بسبب النزاعات والحروب الداخلية ، الا ان الامبراطورية اللاتينية قد تلقت آنذاك ضربة قوية محسوسة . ثم ان نضالات السكان المحليين التى لم تتوقف بعد ذلك ضد سيطرة البارونات الغربيين ، واخفاقات هؤلاء فى الحروب ضد بلغاريا وضد الدول اليونانية التى اكتسبت بينها امبراطورية نيقية اهمية خاصة ، قد زعزعت فى آخر المطاف مواقع الغزاة اللاتين .

فى سنة ١٢٦١ زالت الامبراطورية اللاتينية القصيرة الاجل من الوجود ؛ فان امبراطور نيقية ميخايـــل الثالث باليولوغ قد استولى على العاصمـــة القسطنطينية بمساندة الجنويين وبالتوكل على اهالى القسطنطينية . واثر ذلك ، طرد الصليبيون من كثير من المناطق التى كانوا يحتلونها . ولم يبق لهم غير بعض مناطق اليونان الوسطى والجنوبية . وفيما بعد ، كانت الحملات الصليبية من حيث عواقبها العملية عقيمة تماما .

بعد فتح القسطنطينية ، صمتت النداءات الى تحرير القدس صمتا تاما لحقبة من الوقت . فان الوضع الذى نشأ فى الشرق اللاتينى بعد انتقال القدس الى المسلمين قد اجبر البارونات والامراء الذين كانوا لا يزالون يحتفظون بممتلكاتهم فى سوريا ولبنان وفلسطين على الامتناع عن القيام بمحاولات للبحث عن المساعدة فى الغرب . وفى آب وايلول (اغسطس وسبتمبـــر) ١١٩٧ ، اى بعد مرور اربع سنوات على وفاة صلاح الديـن الايوبـى ، مدد

* دسبوتات Despotat – رتبة الدسبوت Despote . الدسبوت منذ القرن الثانى عشر – لقب فى الامبراطورية البيزنطية يولى حامله مكانة كبيرة جدا وسلطة سياسية فعلية .

الحاكم الفعلي لمملكة القدس هنري الاول ، كونت شامبانيا ، مدة الصلح مع وريث وابن صلاح الدين ، المنتصر في معركة حطين ، السلطان المصري العزيز (١١٩٣-١١٩٨) . الا ان الوضع تأزم من جديد لمناسبة وصول اولى فصائل الصليبيين الالمان التابعين للامبراطور هنريخ السادس الى فلسطين . وكانت هذه الفصائل تعتزم مهاجمة جبلة ولاودقية ولكن امير حلب ، الزاهر (ابن صلاح الدين) ، حزر نواياها ، فارسل الى هاتين المدينتين ، كما افاد المؤرخ العربي كمال الدين ، تشكيلتين (من سلاح الهندسة وخبراء المتفجرات ، كما نقول بلغة اليوم) اجلتا سكان المدينتين ثم دمرتاهما . وفي الوقت نفسه ، ارسل امير دمشق ، اخو صلاح الدين ، العادل ابو بكر ، الذي صار فيما بعد سلطانا على مصر (١٢٠٠-١٢١٨) ، قواته الى يافا واجبر الصليبيين الالمان على الانسحاب من عكا . وبعد اقل من شهر على وفاة هنري الاول (١٠ يلول - سبتمبر - ١١٩٧) ، كونت شامبانيا ، المفاجئة ، سقطت يافا . وفي سنة ١١٩٨ استطاع الافرنج من جهتهم ان يحتلوا بيروت . وحاصروا طورون (تبنين حاليا) ولكن وصول امدادات من مصر ارسلهـــا السلطان العزيز بناء على طلب عمه وضع حدا لهذا الحصار خصوصا وان الالمان قد اوهن عزمهم نبأ وفاة الامبراطور هنريخ السادس ، فعادوا الى بلادهم في ربيع سنة ١١٩٨ .

وساد في الشرق اللاتيني جو من الهدوء المتقلقل . فان كلا من الطرفين المتحاربين كان مستغرقا كليا في بلبلاته واضطراباته السياسية بالذات ، الامر الذي اكره المسلمين والصليبيين سواء بسواء على التوقيع في اول تموز (يوليو) ١١٩٨ على معاهدة للصلح مدتها خمس سنوات وثمانيـــة اشهر وتعترف بالستاتو-كو (الوضع القائم) الذي استقر منذ رحيل الفصائــــل الالمانية . اخضع امير دمشق ، العادل ، يافا ، لسلطته ، وصارت بيروت تابعة لمملكة القدس . وبين الفينة والفينة كانت تستانف العمليات الحربية . وفي سنة ١٢٠٤ عندما حل الجوع في مصر من جراء الجفاف ، مضى ملك القدس اموري دي لوزينيان (١١٩٨-١٢٠٥) الى حد القيام بمحاولة لاحتلال مصر ؛ ففي ايار (مايو) ١٢٠٤ ، تحرك اسطول من ٢٠ سفينة الى دمياط ، ولكن المصريين والصليبيين على السواء ابدوا القدر نفسه من العجز وفضلوا بناء علاقاتهم في المستقبل على اساس التنازلات المتبادلة والاتفاق الحبي . وبموجب المعاهدة الجديدة التي وقعها العادل في ايلول (سبتمبر) ١٢٠٤ تنازل السلطان للصليبيين عن يافا والرملـــة واللد ونصف صيدا . واستغلت الجمهوريات الايطالية التجارية ولاسيما البندقية وضع الهدوء ، ووسعت امتيازاتها ، سواء

فى مملكة القدس ام فى مصر . وكانت تزود المسيحيين والمسلمين بالخشب والحديد وغير ذلك من المواد ؛ فان الاعتبارات الدينية لم يكن لها وزن بنظر رجال الاعمال من البندقية وغيرها من المدن .

وفى السنوات التى اعقبت الحوادث المذكورة ، تحاشت مملكة القدس ومصر النزاعات المسلحة .

وبما ان البابا اينوشنتيوس الثالث كان على اقتناع بان قضية الصليبيين لا يمكن ان تنتصر الا باللجوء الى القوة ، فقد اهمل هو ايضا القدس فى غضون بضع سنوات ، واستغرق كليا فى الشؤون الاوروبية المعقدة والمشوشة . لقد استرعى انتباهه النزاع الانجليزى الفرنسى المستطيل ، والصراع بين الاحزاب الاقطاعية فى المانيا ، وتنظيم عدوان الفرسان الالمان على شعوب منطقة البلطيق ، ولاسيما خنق الهرطقة الالبيجية فى فرنسا الجنوبية (١٢٠٩-١٢١٢) . ولم يستأنف البابا دعواته الصليبية الا فى سنة ١٢١٣ ، بعد ان قضى على الالبيجيين .

نضالات عامة الناس الجديدة – الحملتان الصليبيتان الطفوليتان

منذ فشل الحملة الصليبية الثالثة ، كانت فكرة الحرب المقدسة لاجل تحرير القدس من «الكفار» معلقة فى هواء البلدان الاوروبية الغربية ، ولكنها تلقت بثة جديدة بعد استيلاء الفرسان على القسطنطينية ، وان يكن فى بيئة اجتماعية مغايرة تماما ، – اى فى بيئة الفلاحين الفقراء . فان استيلاء الفرسان على بيزنطية كان فى نظر الفلاحين الفقراء الذين وصلت اليهم انباء هذا الحدث ، وان يكن بصورة متأخرة ، برهانا جديدا على فشل الحملات الصليبية ضد المسلمين ، لأن هذه الحملات كان يوجهها اصحاب الحول والطول . ان امانى الفلاحين التحررية التى كانت تتجلى فيما مضى ، وعلى الاغلب ، فى التحرق الى المأثرة الدينية التكفيرية ، قد همدت نارها كثيرا فى غضون القرن الثانى عشر ؛ فان الجماهير الشعبية لم تشترك البتة تقريبا ، لا فى الحملة الصليبية الثانية ولا فى الحملة الثالثة . ومع ذلك ظلت التربة قائمة لاجل انبعاث هذه الامزجة بصورة عرضية . وفى السنوات التى كانت فيها المصائب التى يتسبب بها نير الاسياد للجماهير ، وقحط الغلال ، والمجاعات (والمعلومات عنهـــا تملأ اخبار اوائل القرن الثالث عشر) تمسى مرهقة للغاية ، كانت المشاعر الدينية فى صفوف الشعب تتأزم الى الحد الاقصى ، وكانت الجماهير تصبح

خارقة التحسس بافكار الحملة الصليبية مع تفسيرها كما من قبـــل على طريقتها .
وقد نشأ وضع كهذا عشية استئناف البابوية لمواعظها الصليبية ، اى فى سنة ١٢١٢ ، عندما قام ما يسمى بالحملتين الصليبيتين الطفوليتين . وكانتا صدى متاخرا لتلك التطلعات التحررية التكفيرية التى اسفرت قبل ذلك باكثر من مائة سنة عن حملة الفقراء الصليبية بقيادة بطرس الناسك . وفى اوائل القرن الثالث عشر ، كان فلاحو اوروبا الوسطى يعانون البلايا ، كما من قبل ، بسبب مضايقات الاسياد ، وكانوا يعانون على الاخص من المنازعات الدامية بين الاقطاعيين ومن الحروب الداخلية . وشرعوا يقولون فى الريف من جديد ان الفلاحين الفقراء الذين لا ترهقهم خطيئة الطمع ، والذين لا يسعون لا وراء السلطـــة ولا وراء الثروة ، هم انقياء امام الرب فى ايمانهـــم ، وسيتمكنون ، اسرع من غيرهم بالاحرى ، من الحصول من الرب العلى على تلك الرحمة – تحرير القدس – التى لم يرغب الرب العلى فى وهبها للفرسان والامراء والملوك الطماعين .
وهذه الفكرة تجذرت فى الفئات الاجتماعيـــة الدنيا ، ولكن ليس بدون تأثير مواعظ رجال الدين البعيدى النظر من مختلف المراتب ، الذين عكفـوا على الوعظ فى اواخر القرن الثانى عشر واوائل القرن الثالث عشر فى فرنســا بصورة رئيسية وجزئيا فى ايطاليا والمانيا وغيرهما من البلدان . والمقصود هنا ذوو المراتب الكنسية مثل الارشيدياكو المذكور سابقا بيار من بلوا ، واللاهوتى آلان من ليل ، والكاهن المذكور سابقا فولك من نويى ، ومعلمه ، اللاهوتى المعروف ، بيار كانتور . وفى هذه الفئة من الوعاظ ، يمكن ان نصنف فرانسوا داسيز الذى تحدر من عائلة من التجار ولكنه رفض الثروة ، وكثرة من الوعاظ المتجولين .
وبما ان جميع هؤلاء الاحبار واللاهوتيين والوعاظ قد رأوا تفاقم الاستياء الشعبى (وكان الدليل عليه نمو عدد الهراطقة الذين «صاروا مثل رمل البحر» ، كما قال احد مدونى الاخبار) ، فقد حرصوا على اطفاء الحريق المتاجج ، ولذا اخذوا ينشرون ببالغ الجهد الفكرة القائلة انه ينبغى للكنيسة ان تعود الى حالتها الاولية ، «الرسولية» ؛ وجميعهم طفقـــوا يمدحون الفقر على العموم ويطرونه بشتى الصور والاساليب . وفى مؤلفات الكتاب الكنسيين المتبصرين الى هذا الحد او ذاك ، كانت تتردد البواعث ذاتها تقريبا ، القائمة على اساس الحقائق الانجيلية : «يعسر على الغنى دخول ملكوت الله» ، «انه لاسهل ان

يدخل الجمل فى ثقب الابرة من ان يدخـــل غنى ملكوت الله» . بل ان بيار كانتور ندد ببناء كاتدرائية نوتر دام (السيدة العذراء) فى باريس .

وفى كتابات ومواعظ اللاهوتيين المتعلمين وبسطاء الوعاظ المتجولين الذين نقلوا بشكل مبسط مبتذل تمجيدهم للفقر وللفقر الرسولى ، اخذت تتردد كذلك اكثر فاكثر الفكرة الصليبية المطروحـــة بروح اطراء الايمان الغريب عن كل نفع . ان بيار من بلوا الذى كتب مؤلف «ضرورة تعجيل حملة القدس» قد ندد فيه بالفرسان الذين حولوا الحملة الصليبية الى مغامرة دنيوية ؛ فان هذه المغامرة ، كما اكد ، محكوم عليها بالفشل . ولن يفلح فى تحرير القدس غير الفقراء ، الاقوياء باخلاصهم للرب . وتحسّر آلان من ليل فى احدى مواعظـــــه على سقوط القدس وفسره بكون الرب قد تخلى عن الكاثوليك . «انه لا يجد لنفسه ملجأ لا عند الكهنة لأن السيمونية (الرشوة - المؤلف) وجدت لنفسها ملجأ بينهم ، ولا عند الفرسان لأن النهب هو ملجأ من اجلهم ، ولا بين سكان المدن لأن الرباء يزدهر عندهم ، ولا بين التجار لأن الكذب يزدهر عندهم ، ولا بين رعاع المدن حيث بنت اللصوصية لنفسها عشا» . ومن جديد ، اللازمة نفسهـا : القدس سيخلصها الفقراء اى فقـــراء الروح الذين تحدث عنهم انجيل متى . واخذوا يصورون الفقر بصورة ينبوع جميع الفضائل وعربون النصر المقبل على «الكفار» .

وهكذا ، سعيا الى صرف الاستياء المتراكم فى صفوف الفلاحين من الاوضاع القائمة فى مجرى مأمون بالنسبة للكنيسة ، اخذ بعض رجالها بالحسبان بنحو اصيل تجربة الحملات الصليبيـــــة فى القرن الثانى عشر . والدرس الذى استخلصوه من هذه التجربة لاجل بسطاء الناس قد تلخص فى ان جنـــود المسيح سيحرزون النصر ، لا بفضل النقود ، ولا بقوة السلاح ، وانهـــم سيحرزونه على العموم ، لا فى المعارك ، بل بسبيل واحد فقط ، هو الاتكال على رحمة الرب . وللبرهنة على صحة هذه الموضوعة ، اعتزم فرنسوا داسين حتى ان يقوم فى سنة ١٢١٢ بجولة دعاية وحج الى الشرق ؛ ولكنه عاد بعد ان غرقت سفينته قرب سواحل دلماسيه .

اصغى الفلاحون الاقنان ، بالطبع ، الى مثل هذه المواعظ التى يلقيها الوعاظ المتجولون ، واستجابوا فى آخر الامر لمواعظهم ؛ ففى سنة ١٢١٢ تحرك الاقنان ، كما فى سنة ١٠٩٦ ، - ولكن باعداد اقل بكثير ، والحق يقال - الى «انقاذ القدس» .

دخلت الحملتان الصليبيتان فى سنة ١٢١٢ التاريخ باســـم «حملتى الاطفال» . اغلب الظن ان الاطفال اشتركوا بالفعل فى هذين المشروعين ،

ولكن الانباء عن عمليات حج الاطفال ، الباقية فى المدونات وغير ذلك من المؤلفات التاريخية من القرن الثالث عشر اسطورية باكثر من نصفها .

يذكر اكثر من ٥٠ مؤلفا قروسطيا حملتى الاطفال (احيانا بايجاز ، بسطر او سطرين ، واحيانا بتخصيص نصف صفحة لوصفها) ؛ وبين هؤلاء المؤلفين ، اكثر من ٢٠ بقليل فقط جديرون بالثقة لأنهم رأوا بام عيونهم الصليبيين الصغار ، واما سجلوا ما سجلوه ، بالاعتماد على احاديث شهود العيان ، فى سنوات قريبة من احداث سنة ١٢١٢ . ثم ان معلومات هؤلاء المؤلفين متقطعة هى ايضا . والسرد الاكثر تفصيلا عن الحملتين الصليبيتين الطفوليتين يرد فى مدونات الراهب السيسترسيانى البريك دى تروافونتين (دير فى جوار شالون على المارن) ، ولكن هذا السرد ، كما اوضح العلماء ، هو الاقل اهلا للتصديق .

ان تاريخ الحملتين الصليبيتين الطفوليتين لم يتلقّ توضيحا متكاملا نوعا ما الا فى المؤلفات المكتوبة بعد مرور ٤٠-٥٠ سنة على الاحداث الموصوفة فيها - فى المؤلف الجامع للراهب الدومينيكى الفرنسى فنسان من بوفه «المرآة التاريخية» ، وفى «المدونات الكبرى» للراهب الانجليزى من سانت البانس متى الباريسى ، وفى بعض المؤلفات الاخرى التى تذوب فيها كليا تقريبا الوقائع التاريخية فى خيال المؤلفين .

واذا فرزنا جميع الاخبار التى يمكن التحقق من صحتها وجمعناها فى كل واحد ، فمن الممكن تصوير لوحة الحملتين الصليبيتين الطفوليتين على النحو التالى تقريبا .

بدأت حركة الاطفال الصليبيين بين ٢٥ آذار (مارس) و١٣ ايار (مايو) ١٢١٢ فى مناطق المانيا المجاورة لنهر الراين ، غير بعيد عن كولونيا . فان الآلاف من الرعاة والاولاد الآخرين الذين يساعدون آباءهم فى الشؤون المنزلية تركوا فجاة قطعانهم ومسالفهم ، واندفعوا الى الجنوب ، بمحاذاة نهر الراين ، مزدرين بنصائح الآباء والامهات وسائر الاقارب ، لكى «يحرروا القدس» . وحين كانوا يسألون المشتركين فى هذه الحركة عن الذين حثهم على هذا المشروع الجرىء ، - ذلك ان جيوش الفرسان بقيادة الملوك والدوقات قد منيت بالفشل منذ ٢٠ سنة فقط - كانوا يجيبون انهم يخضعون لمشيئة الرب . ويفيد مدون الاخبار الراهب رينه من لييج ، الذى عاصر الاحداث ، ان المشتركين فى الحملة كانوا على اقتناع بانهم سيتمكنون من تحقيق ما عجز الملوك والامراء عن تحقيقه . وتقول مدونات كولونيا ان الاوباش المجرمين قد انضموا الى الصليبيين الصغار ؛ فقد كان اللصوص

يسرقون من الحجاج الصغار ما كان يتصدق بـــه عليهم الناس فى القرى والمدن (واحد هؤلاء اللصوص من رفاق الطريـــق شنقوه فى كولونيا) .
ويروى بعض مدونى الاخبار ان صبيا فى العاشرة من عمره اسمـــه نيكلاس كان يقود جموع الصليبيين ، وكان يؤكد للجميع انه رأى فى المنام ملاكـا انبأه بانه هو نيكلاس سيحرر مع رفاقه الارض المقدسة من الوثنييـــن المسلمين ، وان الله نفسه سيقـــدم للاولاد الدعم ؛ فان البحر سينشق امامهم ، كما حدث لشعب التوراة بقيادة موسى ، وانهم سيعبرونـــه باقدام جافة . ويذكر مدون اخبار من ترير رأى بام عينيه نيكلاس حسب جميـــع الاحتمالات والقرائن ، التفصيل التالى : كان نيكلاس يحمـــل شارة من طراز الصليب ، تشبه من حيث منظرها الحرف «T» ولكنه «كان من المستحيـل تعيين المعدن الذى صنعت منه» .
فى ٢٥ تموز (يوليو) عبر الصليبيون شبيير ، ومنها اتجهوا الى الزاس . فى الطريق مات كثيرون من القيظ والجوع والعطش . وقفل بعضهم راجعا من ماينتس . واجتاز هذا الجمع الذى يضم الالوف ، جبال الالب ، — وقد عبر ، اغلب الظن ، جبل سان برنار الكبير او ربما جبل برينّر (هناك فرضية مفادها ان طريق الصليبيين كانت تمر فى شوابيا وبافاريا والنمسا الى لومبارديا) . وفى ٢٠ آب (اغسطس) ، تجنب الصليبيون بياتشنتسا وبلغوا جنوه بعـد خمسة ايام . والموعد الدقيق لوصولهم الى جنوه —٢٥ آب ١٢١٢— يذكره شاهد عيان ، هو مدون الاخبار الجنوى اوجيريو بانه . وقد قال ان عددهم كان ٧ آلاف ، رجالا ونساء واولادا .
ومن جنوه ، تفرق جمع الصليبيين كل حسب هواه . بعضهم ادركوا انهم اقترفوا حماقة ، على حد تعبير مدون للاخبار مجهول مـــن مارباخ (الالزاس الجنوبية) فراحوا الى روما ؛ ومضى آخرون الى مرسيليا . واتجه فريق ثالث نحو الجنوب ، الى بريندیزی . وهناك منعهم الاسقف المحلى من ركوب السفن لارتيابه بان والد نيكلاس ، الذى يوجه اعماله ، كان يفكر ببيع الصليبيين عبيدا من «الوثنيين» . ومع ذلك ، ركب قسم من الصليبيين السفن ، وسرعان ما وقع بالفعل فى ايدى القراصنة فباعوا هذه البضاعة الحية من المسلمين . ولم يستطع سوى عدد قليل من المشتركين فى الحملة ممـــن وصلوا الى ايطاليا ان يعود الى دياره . ولربما لقى نيكلاس هـــو ايضا مصرعه فـــى بريندیزی ، وانتحر والده ، كما تقول بعض الاخبار . ولكن نبأ آخر يفيـد ان رئيس الصليبيين الصغير قد سلم ، وحتى اشترك بعد خمس سنوات فى حملة الفرسان الصليبية على مصر .

وقامت حركة مماثلة فى حزيران (يونيو) ١٢١٢ فى فرنسا الشمالية . هنا فى قرية كلوا ، بضواحى فاندوم ، ظهر الراعى ايتيان البالغ من العمر ١٢ سنة واعلن نفسه رسول الرب . ومثل نيكلاس حكى عن الرؤيا السماوية التى رآها . وزعم ايتيان انه رأى الله فى المنام مرتديا البسة الحاج ؛ وقد طلب منه الله كسرة خبز واعطاه شهادة الى الملك الفرنسى . ومن كل مكان ، اخذت تتوافد الى ايتيان جموع الفقراء وبلغ عددهم اكثر من ٣٠ الفا . ان النشوة الدينية التى كانت تتستر وراءها ، كما فى زمن بطرس الناسك ، آمال الاقنان الفقراء المنتعشة من جديد ، مثل الوباء ، قد شملت جمهورا كبيرا من الناس . وجميع هذه الجموع اتجهت الى باريس حاملة الرايات والصلبان والشموع والقناديل ، منشدة الاناشيد الكنسية ، وتوقفت قرب دير سان دينى . ويروى مدونو الاخبار ان الملك فيليب الثانى تشاور مع شيوخ باريس وامر الصليبيين بالتفرق فورا والعودة الى بيوتهم . ويقول خبر انهم خضعوا لامره ؛ ويقول خبر آخر انه «لم يكن بوسع اى شىء ان يكبح جماحهم» . ولكن الجوع وحده اجبرهم على التفرق .

ان ايا من المراجع التاريخية المعاصرة لا يشير الى عزم هذه الجموع على الذهاب الى تحرير الارض المقدسة . ان المدونة الوحيدة التى تصور اهدافهم بهذه الصورة هى قصة البريك دى ترافونتين . فهو يحكى بكثير من التفصيل كيف اجتاز «اولاد بلا خطيئة» يعتزمون تحرير قبر السيد ، مدينتى تور وليون وبلغوا مرسيليا واندفعوا الى الارصفة . ولكن البحر لم ينشق امامهم . ولكن تواجد بالمقابل محتالان هما هوغ فيريئوس وغيئوم بوركوس ، اعلنا عن استعدادهما المنزه ، واكراما للرب فقط ، لنقل الصليبيين الى الارض المقدسة . وركبوا الصليبيين فى سبع سفن . سفينتان منها واجهتهما عاصفة وغرقتا مع الركاب قرب جزيرة القديس بطرس (سردينيا) ، بينما وصلت السفن الاخرى الى سواحل افريقيا الشمالية حيث باع التجار الهمامون الصليبيين فى اسواق النخاسة . الا ان النخاسين المجرمين لم يفروا من العقاب ؛ فقد قبضوا عليهم (بحجة انهم اشتركوا فى مؤامرة المسلمين ضد الامبراطور فريدريك الثانى فى صقلية) وشنقوهم .

ان قصة البريك دى ترافونتين هى مجرد اختلاق من اولها الى آخرها . وليس فيها من صحيح غير الاشارة الى وصول الصليبيين الى مرسيليا ، ولكن المؤلف خلط ، على ما يبدو ، بين ابطال الاحداث الفعليين . فقد وصل الى مرسيليا قسم من الصليبيين الالمان ؛ ولربما حل بهم ذلك المصير الذى كتب عنه البريك ، قاصدا رفاق الراعى ايتيان .

يوجد فى الادب العلمى زهاء عشرة من الكتب والمقالات عن الحملتين الصليبيتين الطفوليتين . وقد اعرب العلماء عن شتى الآراء فى هذين المشروعين اللذين يبدوان اليوم غير معقولين ولا يصدقان . وبذل الباحثون الكثير من الجهود لفصل الوقائع التاريخية الحقيقية عن الاساطير والاختلاقات كما بذلوا الكثير من الجهود لتفسير حملتى سنة ١٢١٢ . ان المؤرخين ذوى الاتجاه الكاثوليكى والعلماء القريبين منهم يميلون الى القول ان الحملتين الصليبيتين الطفوليتين كانتا تعكسان ، على حد زعمهم ، ذلك الاحترام الملازم للقرون الوسطى فى اوروبا الغربية ، — احترام البراءة التى تضحى بنفسها لخير المسيحية (وهذه هى وجهة نظر الكاثوليكى الفرنسى الفانديرى) . اما العقلانيون من طراز العالم النفسانى الالمانى من القرن الماضى هيكر ، فقد كانوا يعتبرون هذه الحركة ظاهرة مؤلمة مرضية (ظاهرة مرضية غير طبيعية) ؛ فان النزعة الدينية القروسطية والهوس الدينى القروسطى يبدوان لهيكر تشويها مرضيا . ويرى المؤرخ الالمانى الغربى المعاصر ماير جذر الحملتين الصليبيتين الطفوليتين فى التصور القروسطى القائل ان الاطفال موسومون بخاتم الاختيار الربانى لانهم ابرياء ولانهم لا يملكون اية اموال ، اى انهم يقفون اقرب من الجميع الى المسيح . وفى الوقت نفسه يستخرج ماير الحركة كلها من افكار الفقر الرسولى المنتشرة فى اوائل القرن الثالث عشر ، ويربط هذه الافكار بهذا التصور . الا ان مؤرخين غربيين معاصرين اثنين فقط اقتربا نوعا ما من فهم احداث سنة ١٢١٢ فهما صحيحا هما العالم الايطالى المتخصص بتاريخ القرون الوسطى ميكولى والعالم الدانماركى ردس . وقد كان ميكولى اول من لاحظ ان المصادر لا تصور البتة المشتركين فى الحملة الصليبية بصورة اولاد بلا مناص وبوجه الحصر . وقد طور ردس هذه الملاحظة . فبتحليل جميع المصادر التى تتضمن معلومات ما فى هذه المسالة تحليلا عميقا وباللجوء الى تحليل مصطلحاتها تحليلا لغويا دقيقا ، خلص الى استنتاج ثابت مفاده ان الحملتين الصليبيتين الطفوليتين لم تكونا البتة طفوليتين ، بل كانتا عبارة عن حركات لفقراء الارياف («للبروليتاريا الريفية» ، حسب تعبيره) . ففيهما اشترك الكبار ، من رجال ونساء وفتيات وشيوخ ، وكذلك الاطفال . ولكن هذا المؤرخ ايضا لم يستطع ، فى سعيه الى تفسير الاحداث الفاجعة لسنة ١٢١٢ ، ان يتخطى اطار فهمها المثالى . فان الحملة الصليبية التى قام بها الفقراء فى سنة ١٢١٢ ليست بنظره سوى نتاج ثانوى للميول الكنسية الاصلاحية فى ذلك الزمن ، وصيغة لحركة اخلاقية محضة للفقر الرسولى

تؤكد وتدعم المثل العليا الانجيلية وتشمل جميـــع طبقات المجتمع . وهى ، حسب ردس ، مجرد محاولة لاعادة الحملات الصليبية الى منابعها الاولية ، التى يزعم انها كانت دينية بحتة .

اما فى الواقع ، فان حملتى سنة ١٢١٢ اللتين لفتهما الاساطير اللاحقة بالغموض قد كانتا عبارة عن حركة اجتماعية فى غـــلاف دينى ؛ والى هذا الظرف لفت الانتباه للمرة الاولى المؤرخ الماركسى فرنر (جمهورية المانيـــا الديموقراطية) . وبالفعـــل ، كانت الحملتان الصليبيتان فى اوائـــل القرن الثالث العشر ، المسماة «بالطفوليتين» ، تعنيان ، من حيث الجوهر ، انفجار تلك الحماسة الدينية التى دفعت الى الشرق عشرات الآلاف من الزراع الاقنان فى اواخر القرن الحادى عشر . وكانت كذلك حركة معادية للاقطاعية من حيث الجوهر املتها بواعث تحررية . وليس من قبيـــل الصدفة لزمت البولات (المراسيم) البابوية الصمت عن احداث سنة ١٢١٢ ، وتحدث مدونو الاخبار من الاديرة المزدهرة عن المشتركين فى الحملتين باقصى النفور وحتى باقصى العداء . كتب مدون الاخبار من مارباخ : «قضية فارغة وعقيمة» . ومثل بعض المؤرخين الآخرين فى ذلك الزمن ، يصور الحملـــة بصورة مبادرة مجانين ولدت من احابيل الشيطان وليس بوحى الرب . وقد احسّ المؤلفون الكنسيون بالغريزة فى حركة الفقراء شيئا اجتماعيا خطرا ، ولم يخطئوا فى هذا . وقد اضطر ردس الذى ابدى اقصى الموضوعية بالنسبة لباحـــث برجوازى ، الى الاعتراف بان صليبيى سنـــة ١٢١٢ انما هم «طاقة الريـــف التمردية» ، و«احتياطى للهرطقة» .

ان ما اسمى بالحملتين الصليبيتين الطفوليتين ، هو احد المظاهـــر الاخيرة للتفكير الصليبى الجماهيرى بوصفه شكلا معكوسا لاحتجاج الفلاحين الاقنان على الاقطاعية ؛ وما هلاك الآلاف والآلاف من الفقراء (بمن فيهـــم الاطفال) ممن الهمهم وحمّسهم الحلم الخيالى بتحرير القدس بقوة ايمانهـــم بغية الخلاص من البلايا الارضية ، غير صفحة مأساوية اخرى فى تاريـــخ الحملات الصليبية .

تحويل الحملات الصليبية الى مؤسسة

فى سنة ١٢١٣ استأنف البابـــا اينوشنتيوس الثالث الدعوة الى حملة صليبية الى الشرق . والى جميـــع البلدان الكاثوليكيـــة أرسل مفوضون باباويون — فيلق من وعاظ الحرب المقدسة المتعصبين ، بينهم اكبر وارفع احبار الكنيسة (مثل القاصد الرسولى الذى أرســـل الى فرنسا ، روبر دى

كوروسون ، وجاك دى فيترى ، اسقف عكا ، الذى طـــاف فى مدن ايطاليا الشمالية ، واوليفر السكولاستي الذى وعظ فى مقاطعات المانيا الشمالية) ، ورهبان عاديون . وامر البابا بتجنيد الصليبيين فى كل مكان .

ان حملة الوعظ والتجنيد التى قام بها الكرسى الرسولى قد دامت زهاء سنتين . ثم انعقد فى روما فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ١٢١٥ المجمع اللاترانى الرابع ، واتخذ سلسلة من القرارات الميدئية التى تتعلق بتنظيم الحملات الصليبية على العموم . فى القرن الثانى عشر كان البولا" (المرسوم) الباباوى التدبير الوحيد فعلا الذى يبدأ رسميا هـــذه الحملة او تلك الى الشرق ؛ اما فى اوائل القرن الثالث عشر ، حين نضبت الحماسة الصليبية فى الغرب بصورة ملحوظة ، فقد تقرر فى الاوساط العليا الكنسية وضع تنظيم هذه المشاريع على اساس امتن بتحويل الحملات الصليبية الى ضرب مـــن مؤسسة دائمة .

ومذ ذاك ، أُمر الاسياد والمدن ، وفقا لوضعهم الاقتصادى والمالى ، بان يقدموا للحملة مجموعة حربية ذات عدد معين من العناصر ، ويؤمنوا لهـــا الاموال لمدة ثلاث سنوات . وأمر الاساقفة بمراقبـــة سلوك الذين نذروا النذر الصليبى ، وباتخاذ العقوبات الكنسية القاسية بحق الخارجين عـــلى الطاعة .

وقد اولت قرارات المجمع اللاترانى فى سنة ١٢١٥ الجانب المالى مـن الحملات الصليبية مكانا مهما ؛ فقد كـــان المقصود انشاء قاعدة مالية ثابتة ضرورية للقيام بهذه الحملات لأنه اصبح اوضح فأوضح ان تأمين المحاربين الذاتى – كانوا حتى ذاك ، على العموم ، يجهزون انفسهم بالمعدات ويؤمنون انفسهم بالاموال على حسابهـــم بالذات – لا يكفى . ومع مر الزمن ، اخذت تتبدى اكثر فاكثر النواقص والعيوب فى الاعداد المالى للحرب من اجل قبـر السيد المسيح . وبمبادرة من البابـــا اينوشنتيوس الثالث قرر المجمـــع اللاترانى ضريبة استثنائية الزامية لتأمين حاجات الحمــــلات ، هى المال الصليبى . وكان على رجال الكنيسة ، – ما عدا الذيـــن يعتزمون الاشتراك شخصيا فى الحملة ، – ان يدفعوا فى غضون ثلاث سنوات جزءا من عشرين جزءا من دخلهم السنوى . وكان على الباباوات والكرادلة ان يدفعوا ضريبـــة مزدوجة – اى جزءا من عشرة اجزاء من دخلهم .

ثم نظمت قرارات المجمع اللاترانى الوعظ للحملات الصليبية . فقد تعين على الاساقفة وسائر رجال الدين القيام به بانتظام . وفى كل بلد تم تعيين كبير للواعظين ، يخضع له الواعظون من مرتبة ادنى من بيئة اوفـر الاكليريكيين

والرهبان فصاحة وبلاغة . وفي بادئ الامر عهدوا اليهم بجمع المال الصليبي ايضا وكذلك بتوزيعه على الصليبيين (بعد فترة من الوقت ، اى منذ اواسط القرن الثالث عشر ، عهدوا بجباية الاموال الى جباة عامين كان يقوم بدورهم في المعتاد القاصد الرسولى فى البلد المعنى) .

وعدا ذلك ، نصت قرارات المجمع اللاترانى على عدد من التدابير الثانوية الهادفة الى توفير انسب الظروف لاجل القيام بالحملات الصليبية . ومنذ اعلان الحج المقدس ، اعلن «سلام الرب» لمدة اربع سنوات ؛ واثناء هذه الفترة كانت تمنع الحروب الداخلية ايا كانت ، كما كانت تمنع حتى جولات الفرسان ؛ كذلك كانت تمنع كل تجارة مع المسلمين لكي لا تستعمل سفن «المؤمنين» الا لنقل الصليبيين وكل ما يحتاجون اليه — السلاح والاحصنة والمؤن . .

وبمبادرة من البابا ذاته ، اينوشنتيوس الثالث ، بدأوا مذ ذاك يضعون الكتب التعليمية لاجل وعاظ الحملات الصليبية — مجموعات من الرسائل الصليبية البابوية ومن بولاّت (مراسيم) البابوات ، ومن نصوص مواعظ الاساقفة وما الى ذلك من الوثائق التى كان بوسع الاكليريكيين والرهبان ان يقتبسوا منها الذرائع الضرورية لاجل الوعظ الناجح . وتدريجيا تمت صياغة ضرب من قالب للبولاّت (المراسيم) الصليبية البابوية ايضا . واكتسب الوعظ للحملات الصليبية سمات شكليات معينة . وكان بولاّ (مرسوم) البابا اوجينوس الثالث (سنة ١١٤٦) المذكور سابقا يشكل ، على العموم ، مثالا لاجل الدعوات البابوية . وعادة كانت الوثائق التحريضية من هذا النوع تنقسم الى ثلاثة اقسام . كان القسم الاول يسمى «السرد» او «القصّ» ؛ وكان يصف وضع الاماكن المقدسة المحزن ، و«مآثم الكفار» ، وما شاكل . وكان القسم الثاني يسمى «النصح» او «الدعوة» ، وكان يتضمن النداء الذى يستنهض الى الحملة الصليبية . وكانت ضرورة هذه الحملة تعلّل بواسطة المجموعة التقليدية ، المبتذلة ، من المفاهيم والمصطلحات التى كانت تصاغ بها مهمات الكاثوليك : فعليهم هم ، «مناضلو المسيح» ، يتعين ان ينتزعوا» الارض المقدسة من سلطة الوثنيين ، وان «يحرروها» من «النير» الاسلامى الذى لا يطاق ، وان يحموا الاخوان المسيحيين ، وان يناضلوا بشجاعة وينقضوا بكل قواهم على الخصم . وهذا القسم من البولاّت (المراسيم) الصليبية كان مفعما كليا بالامثلة والذكريات من التوراة والاناجيل التى كانت الغاية منها إضفاء الوزن والجد وقوة الاقناع على الدعوات البابوية . وكان القسم الختامى من الرسالة البابوية يعدد الخيرات والامتيازات المادية

والروحية التي يهبها الحبر الاعظم للمشتركين فى الحرب الصليبيـة ؛ وكان غفران الخطايا النقطـة الاساسية والمركزية ، علما بانـه يشمل سواء المشتركين فى الحرب ام الذين يدعمـون الصليبيين بالاموال . وعلى هذا المنوال بالذات تقريبا كانت تبنى كذلك مواعظ رجال الكنيسة عـلى اختلاف مراتبهم .

وقد عرضت البولاّت (المراسيم) والمواعظ بالتفصيل مذهب الكنيسـة بشأن «المآثر» و«الافضال» التى يجترحها امام الله جميع الذيـن يتمنطقون بالسيوف ، او يستشهدون فى القتال لاجل انتصار قضيـة الصليب . ان الاشتراك فى الحملة الصليبية - وذلك هو مغزى هذا المذهب - هو اسلوب موثوق لاكتساب رحمة الرب العلى التى تساعد بنحو مأمون واكيد فى بلوغ النعيم السماوى . وكأنّ الصليبى الذى ينذر النذر يعقـد «صفقة موفقة» (وهذا التعبير سبق ان استعمله برنار من كليرفو) مع الرب ؛ فهو اذ يتعهد بالقيام «بعمل خير» ارضى الطابع - مقاتلـة «اعداء السيد» قتال حياة او موت - انما ينال على سبيـل المكافأة «الخلاص السماوى» . وقد حاكـت البولاّت والمواعظ حول الصليبيين اكليل الشهادة ؛ فان موت الفارس فـى القتال ضد «الكفار» كانت تلفه هالة صوفية وهالة من القداسة بوصفه عذابا يمهد السبيل الى الجنة .

ومع مر الزمن ، انشئت فى الدوائر (الابرشيات) الكنسية «مكاتـب الدعاية الصليبية» ؛ فمنها كانوا يوزعون بصورة مركزية ادبيات الوعظ الى المحال . وقد بقى كتاب من الرسائل الصليبية من اوائل القرن الثالث عشر موضوع فى رومرسدورف (المانيـا) ، كمـا بقى منذ سنة ١٢٦٦ مؤلف الجنرال السابق للرهبان الدومينيكان اومبرتو دى رومانو : «مواعظ الصليب المقدس ضد المسلمين» ، الذى جمع فى كل واحد جميع الحجج السارية فى صالح الحملات الصليبية .

اذن . لقد قام البابا اينوشنتيوس الثالث بمحاولـة جديدة لاستنهاض الحركة الصليبية ببناء قاعدة مالية وتنظيمية وتحريضية صلبة تحتها .

وفضلا عن ذلك اعير الجانب المالى من القضية اهمية خاصة ؛ فان المال الصليبى سرعان ما اصبح موردا من اغزر موارد الخزينة البابوية .

الحملات الى مصر والسياسة الدولية

ان النشاط الشديد الذى بذله الحبر الاعظم لاجـل دعم روح الحملات الصليبية ونشره عمقـا وسعة ، وارساء اساس متيـن لتنظيم الحروب

المقدسة ، وتأمين الدور القيادى فيها للباباوية ، لم يسفر عن النتائج التى كان يأمل فيها البابا اينوشنتيوس الثالث .

فى معرض اتخاذ الخطوات الاولى لتنظيم حملة صليبية جديدة ، اصدر اينوشنتيوس الثالث بولا" (مرسوما) خاصا ، اعاد فيه الى الاذهان ما يعانيه آلاف المسيحيين فى سجون المسلمين . وفى هذه الوثيقة تحدث البابا عن القلعة الاسلامية الرهيبة التى بناها المسلمون قصدا وعمدا على جبل الطور ، فى المكان الذى حدث فيه (كما جاء فى الانجيل) ما يسمى بقيامة يسوع المسيح . هذه القلعة تهيمن على عكا وتتيح للمسلمين الظن انهم من هنا «سيتمكنون من ان يقتحموا بلا عائق الارض المتبقية من مملكة القدس» . كذلك كان يتضح من الرسالة التى دعا فيها البابا الى الحملة الصليبية انه لم يكن يعتزم الاكتفاء بالاعمال الدعائية المحضة ، بل كان ينوى كذلك ان يحضر بشخصه عملية صعود الصليبيين الى السفن . وكان من المرتأى تكليف نائب البابا (القاصد الرسولى) بالاشراف على عملية انشاء القوات البرية وارسالها . وقد ضحى البابا اينوشنتيوس الثالث على حاجات الحملة بـ٣٠ الف مارك ؛ وبعد فترة من الوقت اعتمد ايضا ٣ آلاف مارك . وتعينت سنة ١٢١٧ موعد بداية الحملة .

لم يشر المرسوم الباباوى باية كلمة الى من يوصى به البابا او يقترحه لمنصب قائد القوات الصليبية . اغلب الظن ان انسب مرشح لهذا المنصب المسؤول كان الملك الالمانى الشاب والهمام ، وملك صقلية فى آن واحد ، فريدريك الثانى هوهنشتاوفن . وفى ١٥ تموز (يوليو) ١٢١٥ ، اعلن فريدريك الثانى ، حين كان فى آخن حيث جرت حفلة تتويجه «ملكا رومانيا» ، انه يأخذ الصليب . ولكن هذا الاعلان كان من جهته اجراء ديبلوماسيا صرفا . فقد كان براء تماما من التعصب الاعمى الصليبى ؛ وما هو اهم بكثير ، هو ان الملك الالمانى ، المستغرق فى الهموم السياسية الداخلية فى ممتلكاته الاوروبية الجديدة ، قد شغل ، من حيث الجوهر ، منذ بادئ بدء ، موقف الانتظار والتربص حيال الحملة الصليبية التى نادى بها البابا . ومع ان فريدريك الثانى كان خاضعا لوصاية البابا اينوشنتيوس الثالث الذى وافق على الاعتراف به ملكا المانيا مقابل تنازلات سياسية معينة للكرسى الرسولى ، الا انه لم يكن بوسع البابا ، بالطبع ، ان يرشح هذا الملك لقيادة المشروع الذى حاكته روما .

وفى عداد الملوك ، اخذ النذر الصليبى ، عدا فريدريك الثانى ، ملكان آخران هما اندراش (اندره) الثانى (المجر) ويوحنا بلا ارض (انجلترا) ، تابع

البابا اينوشنتيوس الثالث . وهذان الاخيران ، السيد-البابا ، والتابع-الملك ، ماتا احدهما تلو الآخر ، الاول فى ١٦ تموز والثانى فى ١٦ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٢١٦ .

انتقلت قيادة تنظيم الحملة الصليبية الى خلف اينوشنتيوس الثالث ، البابا هونوريوس الثالث (Honorius) (١٢١٦-١٢٢٧) . وقد واصل هونوريوس الثالث سياسة سلفه وسعى الى تحقيق نواياه ، متمسكا ببرنامج المجمع اللاتراني الرابع . واول خطوة اتخذها البابا الجديد كانت تعيين القاصد الرسولى فى قوات الصليبيين التى كانت تستعد للسفر بحرا . وهذا المنصب شغله الكردينال بيلاجيوس من البانو ، الاسبانى الاصل .

اخّر موت اينوشنتيوس الثالث الحملة الصليبية بعض الشىء . وفى سنة ١٢١٧ لم ينطلق الى الشرق غير اندراش المجرى ، والاسياد الذين التحقوا به واغلبهم من اراضى المانيا الجنوبية ، والدوق ليوبولد النمساوى ، - وعلى العموم ، قوات مسلحة ، كبيرة نسبيا ، وان مبرقشة من حيث تركيبها . وبواسطة رئيس الاوسبيتاليين المجريين ، تسنى الاتفاق مع البندقية على تقديم عشر سفن كبيرة بسعر مقبول -٥٥٠ ماركا فضيا بكل سفينة . وللحصول على المبلغ الضرورى - وقد تعين دفعه على ثلاثة اقساط - لجأ الملك المجرى الى الطرائق التى ألفها قادة الصليبيين - تزييف العملة ، بيع بعض الضياع الملكية ، نهب الكنائس والاديرة . ويستفاد من معطيات مدونى الاخبار ، المبالغ فيها على ما يبدو ، ان نحو ١٠ آلاف فارس خيال وكثيرين من المقاتلين المشاة قد انضموا تحت لوائه . على كل حال ، لم تكف السفن التى وصلت فى ٢٥ تموز (يوليو) ١٢١٧ الى سبليت ، ولذا عاد قسم من الصليبيين الى بيوتهم وقد وطدوا العزم على السفر فى ربيع السنة القادمة . ووصل الملك اندراش الثانى نفسه الى سبليت فى ٢٣ آب (اغسطس) ، ولكنه اضطر الى الانتظار بعض الوقت هناك حتى يبحر الصليبيون اخيرا الى عكا .

بدأت الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٧-١٢٢١) . ففى ايلول (سبتمبر) ١٢١٧ اجتمعت فى عكا فصائل اندراش الثانى المجرى ، وليوبولد النمساوى ، والدوق اوتو من ميرانو ، كما وصلت الى عكا فصائل ملك قبرص ، غى دى لوزينيان ، وفصائل الفرسان التابعة للاسياد اللاتين فى سوريا ولبنان وفلسطين - ملك القدس يوحنا دى بريان ، وامير انطاكية بوهيموند الرابع ، والاوسبيتاليين بامرة الاستاذ الاكبر غارن دى مونتيغيو ، والهيكليين بامرة الاستاذ الاكبر غيوم من شارتر ، والفرسان التوتونيين

بامرة غرمن فون زالتس . وكان المعاصرون يعتبرون ان عدد المشتركين في الحملة الصليبية الخامسة الذين توزعوا ورابطوا في جوار عكا وفي المدينة ، بلغ ٢٠ الف فارس و٢٠٠ الف من المشاة ، وهذا ايضا من باب المبالغة الشديدة .

استقبل الاسياد اللاتين المحليون الصليبيين القادمين من الغرب الى عكا بدرجة كبيرة من البرودة ، إن لم يكن بعداوة سافرة . فقد كانت البلاد الخاضعة لهم تعاني المجاعة ؛ ففي السنة السابقة ساد الجفاف . بل ان كثيرين من الصليبيين ماتوا جوعا ، - وحسب معطيات لمدوني الاخبار مبالغ فيها جدا مات نحو ١٠٠ الف . اما الاهم ، فهو ان الافرنج في سوريا ولبنان وفلسطين لم يكونوا البتة بحاجة الى حملة صليبية . فقد كانوا منذ زهاء ٢٠ سنة يعيشون بسلام مع مصر ، ويتاجرون معها ، بينما الحرب لم يكن بوسعها غير ان تخل بالوضع القائم وتضر بمصالح الطرفين الاقتصادية .

امضى الصليبيون المجريون والالمان سنة بكاملها في عكا بلا جدوى . وقد حاولوا ان يشنوا غارات على دمشق ونابلس وبيسان ؛ وكان الافرنج ، كما يقول المؤرخ العربي ابن الاثير ، يعرفون ان عساكر السلطان العادل كانت آنذاك موزعة في مختلف انحاء دولته المترامية الاطراف ، كذلك حاول الصليبيون الاستيلاء على قلعة الطور مع ابراجها الـ٧٧ وقهر حاميتها المؤلفة من الفي رجل . ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل - وذلك بقدر كبير من جراء الخلافات بين الزعماء العسكريين للصليبيين . فان بوهيموند الرابع ، امير انطاكية ، مثلا ، كان يعارض قطعا اقتحام قلعة جبل الطور بينما كان يوحنا دي بريان يصر من جهته على ذلك .

حاول الصليبيون ثلاث مرات اقتحام القلعة ، ولكنهم ردوا على اعقابهم في كل مرة . وفي آخر المطاف تراجعوا وعادوا الى عكا . وكان الملك المجري اندراش الثاني يفضل التخفي والاحتماء في المدينة ، وطفق في اواخر سنة ١٢١٧ يستعد للعودة الى اوروبا ؛ فقد اقتنع بعقم المشروع كله ناهيك بانه مرض . وفي كانون الثاني (يناير) ١٢١٨ ، ابحر اندراش الثاني مع فصيلته الى الوطن رغم تهديدات بطريرك القدس باصدار حرم بحقه . واضطر الباقون الى ارجاء العمليات الحربية ضد المسلمين والى انتظار وصول فصائل جديدة من الصليبيين من اوروبا ، والانصراف حتى ذاك الى تحصين القلاع الباقية للبلرونات والفرسان الافرنج . وكان قسم من جنود الرب - الفرسان من فريزيا (هولندا) برئاسة الكونت غليوم ، والفرسان الالمان - قد تأخر في

الطريق ؛ فان هؤلاء الصليبيين قد توقفوا في ليشبونة واشتبكوا فــي حرب ضد المسلمين . ولم يصلوا الى عكا الا في ٢٦ نيسان (ابريل) ١٢١٨ .

لم يكن لصليبيي الحملة الخامسة قائــــد عسكري يتمتع باية مكانـــة ومعترف به عموما . فان ملك القدس يوحنا دي بريان لـــم يكن يتميز لا بالمواهب العسكرية ولا بالمواهب السياسية ، ولم يكن يملك سلطة فعلية على سائر البارونات البارزين ناهيك بان معارضة قوية كانت قائمـة ضده . وبعد مهاترات طويلة قرر قادة فصائل الفرسان ارسال العساكر الى مصر ، قلعة العالم الاسلامي الرئيسية التي كان من المزمـــع الاستيلاء عليها اثناء الحملة الصليبية الرابعة . اختار الصليبيون المدينة-القلعة الكبيرة ، ومنافسة الاسكندرية في التجارة ، دمياط ، الواقعة على احد سواعد دلتا النيل هدفا مباشرا لاجل الهجوم . وكانت دمياط بمثابة مفتاح مصر . وكانت تطوقها ثلاثة احزمة من الاسوار ، وكان يحميها برج جبار قائم فـــي جزيرة صغيرة وسط نهر النيل . ومن هذا البرج الموصول بجسر بالمدينة كانت تمتد عبر النهر سلاسل حديدية تسد الطريق الى المدينة من جهة النهر .

استمر حصار دمياط التي وصلت اليها اولى فصائل الصليبيين في ٢٧ ايار (مايو) ١٢١٨ زهاء سنة ونصف سنة . في البـــدء استطاع الفرسان ، بتحويل سفنهم الى ضرب من آليات حصارية عائمة وباستعمال السلالــــم الاقتحامية الطويلة ، ان يستولوا على برج القلعة ، ولكن قوات العدو التـي انضم اليها ضغط عناصر الطبيعة – فيضان النيل – وكذلـــك الوباء الذي انتشر بين الصليبيين المحاصرين ، – اوقفت نجاحهم وتقدمهم . وخلال بضعة اشهر لم يحرز لا هذا الجانب ولا ذاك قصب التفوق . وقد يئس كثيرون من الفرسان من النصر ، فتركوا العساكر في ربيـــع وصيف ١٢١٩ وعادوا الى اوروبا (وفي عدادهم ليوبولد النمساوي) . ولكـن الآخرين ظلوا يحاصرون دمياط بعناد .

عانت المدينة المقطوعة الاوصال من جميع الجوانب الجوع ، بل ان الجوع هدد بهلاك الحامية بالذات . وآنذاك كان السلطان العادل في دمشق ؛ وحين تلقى نبأ استيلاء الصليبيين على برج دمياط ، مات . واخذ ابنه الاكبـــر الكامل زمام الحكم . ولانقاذ دمياط ، اقترح السلطان الجديد على الصليبيين – وكانت تهدده فضلا عن ذلك مؤامرة رجال البلاط ، رفع الحصار عـن دمياط على ان يسلمهم بالمقابل مملكة القدس في حدود سنة ١١٨٧ (بدون الكراك وكراك دي مونريال) ويعقد الصلح معهم لمدة ٣٠ سنة .

كان يوحنا دي بريان واغلبية البارونات الافرنج يميلون الى قبول هذه

الشروط المفيدة جدا ولكن نائب البابا بيلاجيوس الـــذى كان قد وصل الى دمياط فى ايلول (سبتمبر) ١٢١٨ تدخل فى الاحداث . وقد تسنى لـه ان يحمل الى حد ما على الوفاق كتل زعماء الصليبيين المتعادية حتى ذاك ، وآنذاك اضطلع بدور لا يناسب البتة رجل الدين ، هو دور القائـــد الاعلى للقوات المسلحة . وكانت «ستراتيجيته» تنحصر فيما يلى : لا صلح مع «الكفار» . وقد حظى نائب البابا بمساندة الاساتذة الكبار الثلاثـــة لجمعيات رهبان الفرسان وبعض القادة الآخرين . فقد بدا لهم التنازل عن القدس غير كاف . وكان بيلاجيوس يعتقد انه ينبغى فتح دمياط باى ثمن كان ثم فتح سائـر مصر . وقوبلت مقترحات السلطان السلمية بالرفض . وحتـــى الاقتراح بايجاد واعادة قطع «الصليب المقدس» الذى استولى عليه صلاح الديــن اعتبره القائد الاعلى غير مقبول .

فى ليلة الرابع الى الخامس من شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ١٢١٩ احتل الصليبيون دمياط بانقضاض خاطف ونهبوها وغنموا غنائم بلغت ، بتقديـر جاك دى فيترى ، ٤٠٠ الف بيزانط . واثناء الحصار انقرض سكان المدينة عمليا ؛ فمن اصـــل ٨٠ الف نسمـــة لم يسلم ، كما حسب اوليفـــر السكولاستى ، سوى ٣ آلاف . وفـــى ٢٤ شباط (فبراير) هنأ البابـــا هونوريوس الثالث الصليبيين بالنصر ، ولكن الفرح ، كما تبين بعد فترة وجيزة ، كان قصير الامد .

فبين المنتصرين نشبت الخلافات والمخاصمات . فان يوحنا دى بريان ، ملك القدس الرسمى ، طالب بضم دمياط الى ممتلكاته . الا ان الكردينال بيلاجيوس ، المتغطرس والطموح ، عارض هذا المطلب . فقد كان يرى انـه يجب ان يبقى المكتسب للكورية الرومانية . كذلك لم يكن ثمة اجماع بصدد خطط خوض الحرب لاحقا . فان نائب البابا قد اصر بعناد على نقل العمليات الحربية فى الحال الى اعماق وادى النيل . الا ان هذا الاقتراح الباطل بكل جلاء لم يلق التعاطف من جانب السواد الاعظم من الفرسان . وقد ادرك اكثر القادة العسكريين رشدا وتبصرا ان القوى لا تكفى الصليبيين لاجل هذا المشروع .

شرع بيلاجيوس يفتش بتسرع عن الحلفاء لاجل فتح مصر . بل انه بدأ مفاوضات . . . مع جنكيز خان التى كانت جحافله قـــد اقتحمت آنذاك بلاد فارس ، مهددة العالم الاسلامى كله ، كما كتب ابن الاثير . الا ان الخطـــر الناجم عن الصليبيين بدا الآن للعرب اشد بكثير من الخطر الناجم عـــن الجحافل المغولية الزاحفة . وعندما تلقى الاشرف ، حاكم ارمينيا العظمى ، فى آن واحد ، طلبا بالعون من الخليفة الناصر ، ضـــد المغول ، ومن اخيه ،

سلطان مصر ، الكامل ، ضد الصليبيين ، قرر الاشرف انه يجب ان يرسل جيشه ضد الصليبيين بالذات .

فى ربيع سنة ١٢٢١ ، اخذت تصل الى مصر فصائل الحجاج الصليبيين الجديدة ، وعلى الاغلب من المانيا الجنوبية — لويس ، دوق بافاريا ، وغيره من الامراء مع فرسانهم . وفى هذه الاثناء استطاع الكامل ان يبنى مواقع محصنة تحصينا منيعا جنوبى دمياط بعض الشىء ، قرب مدينة المنصورة . ومع ذلك كرر مقترحاته السابقة للصليبيين بصدد الصلح . فارتفعت بين صفوف العساكر اصوات تشير على القادة بقبول شروط العدو ؛ ذلك انه سلم قبر السيد ! ولكن نائب البابا ابدى ايضا هذه المرة التشدد . وتلقى السلطان جوابا سلبيا . وعندما عرف الملك الفرنسى فيليب الثانى اوغست الذى كان يتميز عادة بسلامة الفكرة فى تقدير هذا الوضع السياسى او ذاك ، انه سنحت الفرصة للصليبيين لكى ينالوا «مملكة مقابل مدينة» وانهم حرموا انفسهم هذه الفرصة ، لم يستطع تمالكا عن نعتهم «بالاغبياء والسذج» .

وبالفعل ، لعب تشدد بيلاجيوس دورا مشؤوما فى الاحداث اللاحقة . اغلب الظن ان هذا العامل يدفع الباحث الكاثوليكى المعاصر بويل (الولايات المتحدة الاميركية) الى البحث عن حجج من شأنها ان تبرر تصرفات نائب البابا اثناء الحملة الصليبية الخامسة . ان جميع محاكمات هذا المؤرخ الاميركى (ولدعمها ساق مصدرا جديدا هو مراسلات البابا هونوريوس الثالث الرسمية غير المنشورة والمحفوظة فى ارشيفات البندقية) تتلخص فى ان بيلاجيوس لم يكن البتة ، من وجهة نظر البابا ، قائدا عسكريا للصليبيين ، وانه لم يكن يتصرف الا بوصفه راعيهم الروحى ، محاولا ان يصلح بين الاحزاب المتعادية ، وما شاكل . اما منصب القائد العسكرى الاعلى ، فان هونوريوس الثالث كان ، منذ بادىء بدء ، ينوى تعيين فريدريك الثانى هوهنشتاوفن فيه ، ولكن التأجيلات والمماطلات اللامتناهية التى لجأ اليها هذا الاخير لكى يتهرب من الوفاء بالنذر الصليبى خلقت وضعا وجد فيه الصليبيون انفسهم بدون قائد جدير فمنوا من جراء ذلك بالهزيمة . ومن هنا ينجم ان مغزى البحث الذى قام به بويل يتلخص فى التبرير المتأخر لسياسة الكرسى الرسولى الصلبة فى الحملة الصليبية . ان ضعف الحجج التى اوردها العالم الاميركى جلى للعيان : فرغم ان فريدريك الثانى تهرب بالفعل — وليس بدون اساس — من الاشتراك فى المغامرة الصليبية التى لم تكن تبشره لا بالمكتسبات من الاراضى ، ولا بالحل المنشود لتلك المسائل التى كانت تهمه فى المقام الاول (مستقبل تاج صقلية ، وغير ذلك) ، كان بيلاجيوس ،

بالفعل ، وليس اى آخر ، هو الذى يحدد خط رؤساء الصليبيين فى مصر .
وللمناسبة نقول ان مؤلفين اميركيين آخرين ، ومنهم مثلا دونوفن ، يمدحون بكل حمية واجتهاد نائب البابا على اشتراكه النشيط والفعال بالذات فى الاحداث . الا ان الباحث الالمانى الغربى ماير والبروفسور فى جامعة اوكسفورد فان كليفه يبديان فى هذا المجال قدرا كبيرا من الموضوعية اذ يلقيان المسؤولية عن مآل الحرب المصرية على الكردينال بيلاجيوس .

ان هذا الرأى يتطابق كليا مع وجهة نظر المعاصرين . فبعد فترة وجيزة من انتهاء الحملة الصليبية الخامسة ، كتب الشاعر الفرنسى يوون دى سان كنتان (Saint Quentin) فى مؤلفه «شكوى القدس على الكورية الرومانية» : «يا روما ، ان القدس تئن من الجشع الذى استحوذ عليك ، وتئن عكا ودمياط ايضا ؛ بسببك هذا الوضع ، وهو انهم كفوا فى هذه البلاد عن خدمة السيد وقديسيه ، دمياط تبقى كما من قبل فى ايدى اعدائنا ، بينما المسيحيون هالكون لأنهم خانوا الملك يوحنا الذى تعيش فيه الشهامة والمروءة» . وهناك معاصر آخر للاحداث ، هو الشاعر غليوم كليريك ، استنكر قطعا ادعاء نائب البابا بالقيادة العسكرية : «اجل ، حين يأخذ رجال الدين على عاتقهم رسالة امر الفرسان ، فان هذا مخالف للقانون ، لأن واجب الكهنة قراءة الكتاب المقدس والمزامير ، وترك ميدان القتال للفرسان» .

فى اواسط تموز (يوليو) ١٢٢١ ، هاجم الصليبيون المنصورة . وقد حاول الملك يوحنا دى بريان ان يقنع بيلاجيوس مرة اخرى بان تصرفه مجازفة وبانه يجب اعادة النظر فى القرار المتخذ بالهجوم . ولكن كان قد فات الاوان . فان سواد الفرسان المتعطشين الى الغنائم اندفعت الى امام . وامام انظارهم كانت تتراءى «بابل» اى القاهرة . ويلاحظ مؤرخ مسلم من ذلك الزمن كتب «تاريخ بطاركة الاسكندرية» : «لو ان الملك يوحنا لم يوافق على مواصلة الهجوم ، لكان الافرنج قتلوه» . ويرى مدون الاخبار الكاثوليكى اوليفرالسكولاستى بدوره ان «نصائح الفكر السليم غريبة عن قوادنا» .

استمر الهجوم . وفى ذلك الوقت بالذات بدأ فيضان النيل فيضانا عاصفا ، واغرق معسكر الصليبيين . وكان المسلمون قد استعدوا لمقابلة الفيضان ، فقطعوا طريق التراجع على الصليبيين . وسرعان ما هبطت معنويات عساكر نائب البابا ، فولت الادبار بلا انتظام ، ولكن القوات المصرية حاصرت العدو من جميع الجهات وامطرته وابلا من السهام نهارا وليلا . وقد اتحدت ضد الصليبيين فى منطقة المنصورة قوات السلطان الكامل وقوات

اخويه اللذين قدما من سوريا ، – الاشرف ، حاكم ارمينيا العظمى ، والمعظم ، حاكم دمشق . فمن الخيالة مثلا ، كان لدى المسلمين ٤٠ الفا .

طلب الصليبيون الصلح . وقد وافق الكامل بكل طيبة خاطر على مقترحات الصلح المعروضة عليه ، خلافا لمقاومة اخويه اللذين كانا لا يريدان قبول الصلح قبل انزال الهزيمة بالعدو ، وادراكا منه ان خطرا جديا جديدا يخيم ويقترب هو الزحف المغولي . وفي ٣٠ آب (اغسطس) ١٢٢١ تم التوقيع على الصلح لمدة ثماني سنوات . وكان على الغزاة ان يغادروا دمياط . وبسرور نفذ الصليبيون هذا المطلب في اوائل ايلول (سبتمبر) ١٢٢١ متنهدين الصعداء .

ضاعت دمياط على الصليبيين . وفارق الصليبيون مصر . ومنيت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل التام ، ومعه تبددت جميع الآمال في استعادة الارض المقدسة . ان الرب ، كما كتب المؤرخ العربي ابن الاثير ، لم يحفظ دمياط للمسلمين وحسب ، بل ابقى في حوزتهم ايضا المدن السورية والفلسطينية واللبنانية . وقد كلفت الحملة الغرب غاليا ، وانزل اخفاق هذا المشروع ضربة جديدة بمكانة البابوية .

بعد مرور اقل من عشر سنوات على هذا ، بدأت الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨–١٢٢٩) . وقد ترأسها الامبراطور فريدريك الثاني هوهنشتاوفن الذي تزوج في صيف ١٢٢٥ من ابنة ملك القدس يوحنا دي بريان واخذ يطالب بعرش مملكة زالت من الوجود من زمان في فلسطين . وقد اراد فريدريك الثاني ان يحقق مقاصده دون ان يسحب السيف من قرابه . فاستغل الحرب بين مصر ودمشق ودخل في مفاوضات مع السلطان الكامل (١٢١٨–١٢٣٨) ، الامر الذي اثار غضب روما ؛ فآنذاك بالضبط ، في اواسط العشرينيات من القرن الثالث عشر ، احتدم الصراع بين البابوية والامبراطورية الالمانية بقوة جديدة حول الزعامة في العالم الاقطاعي . واذا البابا هونوريوس الثالث الذي كان حتى ذاك ينظر بعدم الرضى ، ولكن يتساهل مع ذلك ، الى التأجيلات العديدة ، المتكررة سنة بعد سنة تقريبا ، لايفاء فريدريك الثاني بالنذر الصليبي ، قد قيّم هذه المرة مسلك هذا الامبراطور بكل قساوة . وفي سياق مواصلة المفاوضات مع فريدريك الثاني بصدد الحملة الصليبية (جرت المفاوضات في سان دجرمانو بواسطة الكردينال غوغولينو من اوستي الذي صار فيما بعد البابا غريغوريوس التاسع) اتهم البابا المسن الامبراطور باهمال «قضية الرب» . بل ان اونوريوس الثالث هدد الامبراطور بالحرم وبفرض غرامة قدرها ١٠٠ الف

اوقية من الذهب اذا لم تقم الحملة الصليبية فى آخر المطاف ؛ وقد ارجئ البدء بها الى آب (اغسطس) ١٢٢٧ .
بامر من فريدريك الثانى شرعوا فى ثغور صقلية وايطاليا ببناء السفن . واستانفت روما الدعوة الى الحرب المقدسة ، ولكن دعوتها قوبلت فى كل مكان بما يكفى من اللامبالاة . ولو شاء فريدريك الثانى لما كان استطاع ان يجمع فى الوقت المعين ما يكفى من الناس لاجل «البعثة فيما وراء البحار» . وفى هذه الاثناء توفى هونوريوس الثالث قبل الموعد المعين بخمسة اشهر .
نحو صيف ١٢٢٧ ، تجمع بضع عشرات الآلاف من الناس ، المجندين بصورة رئيسية فى المانيا ، وجزئيا فى فرنسا وانجلترا وايطاليا ، فى معسكر بجوار بريندیزی ، وابحر بعضهم الى صقلية . ولكن الامراض بدأت بالجملة فى صفوف العساكر الصليبية التى كانت تعانى من قلة المؤن ومن الحرارة الشديدة . ومرض فريدريك الثانى ايضا . وارجئت الحملة من جديد .
الا ان البابا الجديد ، غريغوريوس التاسع ، البالغ من العمر ٨٠ سنة (١٢٢٧-١٢٤١) ، وابن عم البابا اينوشنتيوس الثالث ، والمتمسك عن قناعة بمثل التيوقراطية البابوية ، حرم فريدريك الثانى من الكنيسة بوصفه عدوا غادرا للايمان المسيحى . وتشفيا من البابا ، ابحر الامبراطور المحروم فى صيف ١٢٢٨ مع فصيلة كبيرة من بريندیزی الى سوريا . وآنذاك منع غريغوريوس التاسع الحملة الصليبية كليا . واعلن ان فريدريك الثانى ليس صليبيا بل قرصان ، «خادم محمد» ، وانه راح الى الشرق ، لا لاجل الحرب ضد الاسلام بل لاجل «سرقة المملكة فى الارض المقدسة» . وكان ذلك ، اذا تكلمنا بلطف ، موقفا لا يدل على الذكاء ، اذ انه لم يفعل غير ان قلل من حظ البعثة الصليبية فى النجاح واساء الى فكرة الحملة الصليبية ، هذه الفكرة التى كانت قد فقدت فى الغرب جاذبيتها السابقة . ولم تصبح الحملة الصليبية فى يد البابوية سوى ورقة فى لعبتها السياسية - اى فى النضال ضد الامبراطورية الالمانية . اما فريدريك الثانى الذى كان يبتغى على العموم اهدافا سياسية محضة ، فانه لم يكن يرى من جهته فى الحملة الصليبية سوى وسيلة لبناء دولة آل شتاوفن «العالمية» (ولذا كان يتطلع الى ملوك القدس) . وكان الامبراطور يبدى على الدوام اللامبالاة بالمسائل الدينية .
وحين وصل فريدريك الثانى الى عكا (وفى الطريق استولى على جزيرة قبرص) ، بدأ المفاوضات من جديد مع السلطان . وآنذاك كان السلطان فى وضع صعب ، لأنه كان يحارب ضد اميرى دمشق (اولا ضد اخيه ، ثم ضد

ابن اخيه) . وعمليا لم يقم الصليبيون اثناء وجودهم فى فلسطين باية عمليات حربية تقريبا ، واكتفوا ببعض الغارات . وانتقل مركز الثقل فى النضال ضد «الكفار» الى ميدان الديبلوماسية . وفى شباط (فبراير) ١٢٢٩ تسنى لفريدريك الثانى بعد مناقشات طويلة ان يعقد فى يافا صلحا مع السلطان الكامل لمدة ١٠ سنوات . بموجب معاهدة الصلح ، تنازل السلطان عن القدس (باستثناء الحى الذى كان فيه الجامعان الرئيسيان) وبيت لحم والناصرة وجميع القرى الواقعة على الطرق المؤدية الى القدس ، وقسم من دائرة صيدا ، وطوروون (تبنين حاليا) للامبراطور الذى كان من حقه كذلك ، حسب اقواله (وهى معروفة من رسائله الى الملك الانجليزى) ان يعزز بعض الحصون والقلاع ويعيد تنظيمها . كذلك تم التوقيع مع مصر على اتفاقيات تجارية مفيدة . وتعهد فريدريك الثانى بدوره بمساعدة الكامل ضد اعدائه ، ايا كانوا ، سواء من المسلمين ام من المسيحيين ، وضمن للسلطان بان القلاع السورية الباقية فى ايدى الصليبيين - كراك دى شيفاليه (قلعة الاوسبيتاليين) ، وشاتل بلان ، وقلعة طرطوس (وكانت فى ايدى الهيكليين) لن تتلقى اية مساعدة من اى مكان .

بعد شهر ، فى ١٨ آذار (مارس) ١٢٢٩ ، دخل فريدريك الثانى القدس ، ووضع بنفسه على راسه التاج الملكى فى كنيسة قبر السيد (فقد رفض رجال الدين تتويج الملك المحروم من الكنيسة) .

اغتاظ البابا من سياسة خصمه فى الشرق شديد الغيظ (وما فائدة الكورية الرومانية من انتزاع قبر السيد من ايدى «الكفار» ؟) ، فاتهم فريدريك الثانى بخيانة المسيحية . وباشارة من بطريرك القدس ، فرض على المدينة المنع (Interdit - قرار يمنع ممارسة الطقوس فى مكان معين) . ففى جميع الكنائس منعوا ممارسة الشعائر الدينية ، ذلك ان امبراطورا محروما يقيم فى المدينة المقدسة !

وفى الوقت نفسه ، دفع البابا غريغوريوس التاسع فصائله من الفرسان نحو ممتلكات فريدريك الثانى فى ايطاليا الجنوبية . فاسرع هذا فى مغادرة سواحل فلسطين واندفع الى ايطاليا حيث نشب صراع مسلح ضد الحبر الاعظم . منيت قوات البابا غريغوريوس التاسع بالهزيمة ؛ وفى سنة ١٢٣٠ ، الغى البابا ، بموجب شروط صلح سان دجرمانو ، الحرم عن فريدريك الثانى ، «خادم محمد» منذ زمن قريب ، وصادق فى السنة التالية على معاهداته مع المسلمين ، وامر جميع الاحبار وبخاصة الهيكليين والاوسبيتاليين بمراعاة الصلح مع السلطان الكامل .

ولكن النتيجة العملية من الحملة الصليبية السادسة — استعادة القدس سلميا — لم تدم طويلا . فبعد رحيل فريدريك الثانى الى اوروبا ، نشبت المخاصمات بين الاسياد فى ممتلكاته الجديدة ، الشرقية . وكثيرون منهم استاؤوا من زعامة الامبراطور فريدريـــــك الثانى هوهنشتاوفن ، وكانوا لا يريدون الانصياع للسلطات التى اقامها . وبعد فترة وجيزة ، دخل الامبراطور من جديد فى نزاع مستطيل مع الكورية الرومانية ؛ وصدر حرم باباوى آخر . واستأنف غريغوريوس التاسع الدعوة الى الحرب المقدسة . وهذه المرة كان القصد من الحملة الصليبية ان تكون اداة لنضال الباباوية ضد فريدريك الثانى ، وكذلك وسيلة لاملاء الخزينة الباباوية . فقد طالب البابا الكاثوليك بتبرعات نقدية كبيرة . ثم ان الوعاظ الباباويين الذين كان يهمهم ، اكثر ما يهمهم ، الجانب المالى من رسالتهم ، كانوا يغفرون خطايا المتبرعين بالذهب والفضة ، الذين كانوا يفدون انفسهم بهذا السبيل من الاشتراك الشخصى فى المشروع الصليبى الجديد .

عارض فريدريك الثانى البابا فى تنظيم الحملة الصليبية . وعندما تجمعت مع ذلك ، عند انقضاء صلح السنوات العشر مع مصر ، فصائل قليلة من الصليبيين فى ليون بقيادة الملك تيبو دى نافار والدوق هوغ الرابــــع البورغونى وغيرهما من الاسياد ، اعلن البابا غريغوريوس التاسع ان القدس لم تبق هدف الحملة ، وان على الصليبيين ان يساعدوا الامبراطورية اللاتينية . وهكذا زحزحت الاعتبارات السياسية ، من حيث الجوهر ، الاعتبارات الدينية زحزحة كلية فى اعمال الكورية الرومانية المتعلقة بشن الحملات الصليبية .

وخلافا لنوايا البابا ، ابحر القسم الاكبر من الصليبيين فى خريف ١٢٣٩ الى سوريا بدون حماسة كبيرة . ان هذه الحملة الصليبية — وفى عداد قادتها كان كذلـــك الايرل (لقب انجليزى ادنى من مركيز وارفـــع من فيكونت) الانجليزى ريشار بلانتاجينيه من كورنويل — لا يدرجها المؤرخون عادة فى سلسلة المشاريع الصليبية الرئيسية (مثلا ، «تاريخ الحملات الصليبية» من عدة مجلدات ، الصادر فى الولايات المتحدة الاميركية ، اولاها اكثر من ٢٠ صفحة بقليل فقط) ، لأنها لم تسفر فعلا عن اية عواقب . فان قادة الصليبيين الذين كان يحدوهم التعطش الى الغنائم فقط والذين منوا بعدد من الاخفاقات ، قد دخلوا ، باصرار من الفرسان الهيكليين ، فى حلف مع دمشق ضد مصر ؛ ولكن المصريين هزموهم فى جوار عسقلان (تشرين الثانى — نوفمبر ١٢٣٩) مع قوات حليفهم الذى وعدهم بجملة من التنازلات الاقليمية فى فلسطين ؛ وبعد ذلك احتدمت المخاصمات بين الصليبيين ، وبخاصة بين الاوسبيتاليين

والهيكليين ، بضراوة مزدوجة . فقد عاد ملك نافار وغيره من قادة الحملة الى ديارهم بخفي حنين . وقد استغلت حكومة مصر جميع هذه الظروف بافضل نحو . ففي ايلول (سبتمبر) ١٢٤٤ اشرف الملك الصالح نجم الدين ايوب (١٢٤٠-١٢٤٩) مع ١٠ آلاف من الفرسان الخوارزميين على القدس واحتلها ، وذبح السكان المسيحيين عن بكرة ابيهم . وهذه المرة انتقلت المدينة برسوخ الى المسلمين .

ومن جديد قلقت البابوية وارتعبت . وبناء على اقتراح من اينوشنتيوس الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤) اصدر مجمع ليون في سنة ١٢٤٥ قرارا بحملة صليبية جديدة . ولكن البابا ، مثل اقرب سابقيه ، كانت تشغله ، اكثر ما تشغله ، شؤون الكورية الزمنية اي الحرص على نشر وتوسيع ممتلكات الكرسي الرسولي . وواصل البابا اينوشنتيوس الرابع الصراع ضد فريدريك الثاني . وفي مجمع ليون لعن البابا وحرم من الكنيسة الامبراطور . ونادى بحملة صليبية ضده وضد كل آل هوهنشتاوفن . واستبدل مفوضو البابا المطلقو الصلاحية واجب شن حملة على الامبراطور العديم التقوى بنذر القتال من اجل قبر السيد المسيح . ان الاستغلال السافر لشعار الحملة الصليبية لاجل تحقيق هدف البابوية المباشر لفرض الزعامة والهيمنة في اوروبا ، قد رافقه ، كما من قبل ، ابتزاز الاموال الى ما لا نهاية ، علما بان قسما كبيرا من المبالغ المجموعة كان ينصب مباشرة في جيوب الوعاظ انفسهم . كذلك استعمل البابا اينوشنتيوس الرابع التبرعات لاجل تنشيط النضال ضد فريدريك الثاني . واذا اخذنا بالحسبان ان الحركة الصليبية كانت بسبيل الانحسار بصرف النظر عن كل ذلك ، اتضح لنا لماذا لم تحرز الدعوة الى الحملة الصليبية نجاحا كبيرا .

ومن زمان كان الفلاحون قد انصرفوا عن الحركة الصليبية . فان الحوافز السابقة للفرار الى البلدان البعيدة زالت عند الاقنان . الا ان النير الاقطاعي ، والحق يقال ، لم يصبح أخف . ولكن تأثير الكوارث الطبيعية الفتاك خف مع ذلك نظرا لتحسين المعدات الزراعية ، ونشر الدورة الزراعية الثلاثية ، واستعمال الاسمدة على نطاق اوسع . وفي اوروبا نشأت المدن وكبرت ، وعند الاقتضاء ، كان يمكن الاحتماء وراء اسوارها . واستطاعت السلطة الملكية المتوطدة ان تكبح الى هذا الحد او ذاك جماح تصرفات الاقطاعيين الاعتباطية التي كان سكان الريف يعانون منها فيما مضى . ولم يعد يرى الاقنان اية ضرورة ملحة للبحث عن الخلاص «فيما وراء البحر» . واكثر فاكثر اخذ الفلاحون

ينخرطون فى طريق آخر هو طريق النضال من اجل الحرية والارض فى ديارهم بالذات .

كذلك لم يعد الفرسان ، من جهتهم ، يرون اى مغزى فى الحملات المضنية الى الشرق . ومع توطد السلطة الملكية ، تواجدت لاخلاف «المعدمين» النبلاء شؤون مؤملة ، واسعة الآفاق فى ديارهم ، قوامها الخدمة المشرفة والمفيدة فى القوات الملكية ، وفى بلاطات الملوك . فما الفائدة من سفك الدم فى مشاريع محفوفة بالمخاطر فيما وراء البحار ، خصوصا وانها فى خدمة البابوية واهدافها السياسية ؟

ان البارونات الانجليز الذين حضروا مجمع ليون رفضوا قطعا الموافقة على الاشتراك فى الحملة الجديدة ؛ فان الكورية الرومانية تتلقى من انجلترا قدرا مفرطا من الاموال بصورة «المال الصليبى» — كل سنة كانت الخزينة البابوية تجبى ٦٠ الف مارك اى اكثر من كل دخل التاج الانجليزى ، ومن حيث الجوهر احتج البارونات الانجليز مباشرة على الحملات الصليبية الجديدة التى تنظمها البابوية . واجاب الملك الانجليزى هنرى الثالث مبعوثى البابا بكل صراحة ان وعاظ الحملات الصليبية كانوا فى احيان كثيرة اكثر من اللزوم يخدعون رعايا التاج الانجليزى وان هؤلاء الرعايا لن يسمحوا بعد الآن بخداعهم !

وحتى بين رجال الكنيسة الانجليز ، ارتفعت اصوات الشك فى صواب الحروب الجديدة فى الشرق . فان اللاهوتى رادولف نيغر قد اعتبر من باب الجنون التدخل فى الشؤون الفلسطينية حين تتعرض المسيحية فى الغرب بالذات للخطر من جراء انتشار الهرطقة . اليكم اين كان يكمن بنظره الخطر الرئيسى ، وهو خطر افدح بكثير بالمقارنة مع ما يجرى فى الشرق . «فى الوقت الذى يداس فيه الايمان هنا ، فى الغرب وضاعت اورشليم السماوية (مجاز عادى بالنسبة للمؤلفين الكنسيين القروسطيين ، مرادف لمدينة الرب — المؤلف) ، وتعشش الهرطقة فى كل مقاطعة تقريبا علنا او سرا ، لأى سبب يجب على الغرب المنشق (بفعل هذه الهرطقة) ان يساعد الشرق (المسيحى) ؟» . ويستطرد اللاهوتى الانجليزى قائلا : اى ثمار من شأن الجهود الرامية الى بعث اورشليم الارضية ان تعود بها ما دامت امنا — صهيون قد هلكت (ومن جديد يستعمل المؤلف صورة من التوراة الى الايمان المسيحى) ؟ وكتب رادولف نيغر ايضا : «اى معنى لتحرير فلسطين من المسلمين حين يتجذر الكفر فى الوطن ؟ لنفترض حتى ان الكفار سيُقهَرون (من جانبنا) ، ولكن الايمان الحقيقى فى ديارنا بالذات يتعرض للاهانات !» .

ان الحملة الصليبية تبدو حتى فى عينى اللاهوتى خرافة تامة .

وهذا الموقف من الشعارات الصليبية التى كانت تنادى بها البابا وية لم يظهر فى انجلترا وحدها . فان تجنيد الصليبيين ، وبخاصة ابتزاز الاموال بلا نهاية لاجل حاجات الحملة الصليبية كما كان يزعـــم ، قد استثار التذمر والاستياء . فيما مضى ، فى الازمنة الغابرة ، كان الشعراء المغنون الجوالون ينشدون الحروب المقدسة ، وفيما مضى ، كانـــوا يذمّون اولئك الذين يتذبذبون (أيمضون الى القدس ام يبقون فى ديارهم ؟) . والحال ان الشاعر المغنى الجوال الالمانى الذى لقى مصرعه فى الحملة الصليبية الثالـــــة فريدريك فون هاوزن كان قد كتب بازدراء منذ امد غير بعيد نسبيـــا عن الفرسان الذين يرفضون بانانية التضحية بانفسهم فى الحملات الصليبية :

ان من يريد ان يصون حياته
لا يأخذ الصليب المقدس .

اما هو ، فريدريك فون هاوزن ، فليس هكذا :

مستعد انا للموت فى القتال ،
فى القتال من اجل السيد المسيح .
جميع من ضميرهم غير نقى ،
من يتخفون في وطنه ،
ابواب الجنة مغلقة امامهم .
اما نحن ، فان الرب سيستقبلنا فى الجنة .

هذه الابيات كتبت قبل مجمع ليون بخمسين سنة فقط . اما الآن ، فان شعراء الفرسان طفقـــوا ، على العكس ، ينددون ويهزأون بالمشتركين فى الحملات الصليبية التى يدبرها الكرسى الرسولى . ولقد اعرب الشاعر المغنى الجوال الفرنسى ريمون جوردان بخارق البلاغة عن الموقف السلبى المتعاظم فى اوساط الفرسان من الحملات الصليبية ؛ ففى احدى قصائده ، قال انه يفضل ليلة مع حبيبته على جميع اطايب الجنة التى يعـــد بهـا الاشتراك فى حملة صليبية !

وقد اضطلعت اخفاقات الحملات الصليبية بدور كبير فى ضعف الحماسة فى اوساط الفرسان ايضا . فان كثيرين ممن كانوا من قبل مقتنعين حقـــا وصدقا بان الحملات الى الشرق تجرى استجابة «لنداء الرب» ، اخذوا يشعرون بخيبة الامل وبالشكوك .

من صلاح الدين شبعنا ،
ارض الوطن عزيزة على الناس !

هكذا هتف الشاعر المغنى الجوال بيرول ، معربا عن عدم رغبة الفرسان فى الذهاب الى الشرق . وهناك شاعر مغن آخر ، هو غيلييم فيغيرا ، يلقى على البابوية صراحة ذنب هزيمة الصليبيين فى مصر ابان الحملة الصليبية الخامسة :

روما ! انت المذنبة
فى خسارة دمياط
لصائحك تهددنا
دائما بالمصيبة

كذلك الشاعر الالمانى فرايدانك الذى اشترك فى حملة فريدريك الثانى على فلسطين انتقد الحملات الصليبية انتقادا حادا . فلم ير اى مبرر لمصرع آلاف الصليبيين من اجل عكا . ومن حيث الجوهر لم يأبه احد لموتهم : «فى مكان آخر يبكون على موت الحمار اكثر بكثير !» .

كذلك يعرب الشاعر المغنى الجوال البافاوى نايدهارت فون رويننتال عن خيبة أمل عميقة مما عاشه فى الشرق كما يعرب عن الفرح العاصف لكونه عاد اخيرا الى الوضع المألوف ، الى البيت .

وقد اشتدت مشاعر المرارة والاسى نحو اواخر القرن الثالث عشر ، عندما تحول اخفاق الحملات الصليبية الى واقع ثابت كان يستحيل التغاضى عنه ، كما كان يستحيل عدم امعان الفكر فيه .

«آن لى ان اضع حدا للاغانى !» — بهذه الابيات (التى تعود الى سنة ١٢٩٢) اعرب غيراوت ريكيير عن خيبة أمله فى مآل الحملات الصليبية المشؤوم :

آنت ساعتنا —
عسكرا بعد عسكر —
لنغادر الارض المقدسة !

وقد أثر تأثيرا قويا جدا فى مزاج الفرسان وحالتهم الفكرية والنفسية واقع ان الحملات الصليبية قد فقدت بكل جلاء مضمونها السابق ، «المثالى» ، الذى كان كثيرون لا يزالون يؤمنون بحكم التقاليد فى وجوده ، علما بان هذا الواقع اخذ يتضح اكثر فاكثر . فان هذه المشاريع قد انحطت امام الابصار ، اذ ان البابوية كانت تستغلها بمثابة سلاح سياسى فى يدها ، لاهدافها السياسية ، لاجل اقامة وتوطيد سيادة الكرسى الرسولى ، — واحيانا فى النضال ضد الاعداء الشخصيين ، الامر الذى كان يثير الاستياء والغضب واللوم فى اوساط الفرسان . واحيانا كانوا ينادون من اجل الصليبيين

بمواضيع لا تمت باى صلة الى اهداف الحركة المباشرة ، مثلا ، صقلية التى حاول البابا كليمنت الرابع انتزاعها من آل هوهنشتاوفن . وكان هذا البابا يعتبر الحرب ضد اخلاف فريدريك الثانى موازية او يكاد للحملة الصليبية لاستعادة القدس . وفى الثمانينيات من القرن الثالث عشر ، اعلن البابا مارتين الرابع حملة صليبية ضد الملك بدرو الثالث من اراغون ؛ وبعد فترة من الوقت ، اعلن البابا بونيفاسيوس الثامن حملة صليبية ضد عائلة كولونا الاريستقراطية الرومانية محولا نزاعا داخليا عاديا الى حملة صليبية .

وبالنتيجة نشأ وتعمق ضرب من تنافر ، او توتر ، حسب تعبير برسل ، بين التصورات المنشورة فى اوساط الفرسان عن الحملة الصليبية بوصفها حربا مقدسة لانقاذ الرب وانقاذ النفس ، من جهة ، وبين تحقيق هذه الفكرة عمليا من جهة اخرى . ففى الازمنة السابقة كان مفهوم وواقع الحملات الصليبية يتواجدان ، على الاقل شكليا ، فى تناسق بينهما ؛ اما فى القرن الثالث عشر ، فقد زال هذا التناسق . فان البابوية ، كما كتب برسل ، اساءت الى الفكرة التى سبق لها ان تقدمت بها فيما مضى . واذا غضب الشعراء المغنين الجوالين الذين يعربون عن الرأى العام فى اوساط الفرسان ينصب اكثر فاكثر على روما البابوية التى بذنبها يتقاتل الصليبيون تارة مع المسيحيين الارثوذكس ، وطورا يشهرون السيف على مواطنيهم (الحروب الالبيجية) .

يا روما ! سقت انت الى الحملة
خيرة الفرنسيين .
راحوا ، لا الى الشرق .
بل ضد الاخوة سحابة سوداء ،
وفى الخطيئة مات
صف القادمين الجبار .

هكذا لعن غيلييم فيغيرا الحملة الصليبية الالبيجية التى دبرها البابا اينوشنتيوس الثالث .

انتشرت الشكوك فى شرعية الحملات الصليبية انتشارا واسعا جدا فى اوساط الفرسان . فان الافكار التى بنت البابوية على الوعظ بها فى غضون اكثر من مائة سنة دعواتها الصليبية وقامت بافعالها الصليبية ، قد تعرضت مذ ذاك لنقد ماحق ، بل ان بعض الفرسان ذهب الى حد الاعراب عن فكرة مفادها انه من المشكوك فيه على العموم ان يكون من العدل قتل ذوى الاديان الاخرى لمجرد انهم وثنيون ؛ وهذا الضرب من الشكوك اعرب عنه صراحة الشاعر المغنى الجوال الالمانى فولفرام فون ايشينباخ فى احدى قصائده .

ونظرا لتدفق «موجة النقد» اضطرت البابوية الى اخذ جانب الدفاع عن المقدمات اللاهوتية لممارستها الصليبية ؛ ففي اواسط القرن الثالث عشر كتب الكاردينال اومبرتو دى رومانو ، بتكليف من الكرسى الرسولى ، مؤلفا ضخما بثلاثة اجزاء خصيصا لاجل دحض جميع الحجج الموجهة ضد فكرة الحملات الصليبية . ولكن اومبرتو دى رومانو وغيره من اصوب اللاهوتيين تفكيرا فى القرن الثالث عشر من طراز غليوم الطرابلسى ، كانوا يعتبرون ان الحركة الصليبية فقدت كمالها الداخلى ، ولذا رأوا من الضرورى واقترحوا اصلاح قضية تنظيم الحملات الصليبية بحيث لا تستغل شعاراتها فى اهداف «غريبة» .

وفى هذه الاحوال ، امسى اصعب فاصعب على روما ان تنظم حملات صليبية جديدة . فعندما بلغ البابا اينوشنتيوس الرابع هدفه مع ذلك (ففى سنة ١٢٤٨ استطاع ان يستنهض الفرسان للحرب المقدسة ، وينظم الحملة الصليبية السابعة) ، اشترك عدد قليل نسبيا من الاسياد واتباعهم (مقطعيهم) ، وكانوا اساسا من فرنسا وجزئيا من انجلترا . ناهيك بان الفرنسيين انخرطوا فى الحملة ، بمقدار كبير ، تحت ضغط ملكهم لويس التاسع (١٢٢٦–١٢٧٠) ، الذى سار على رأس الصليبيين .

بعد مرور ٥٠ سنة ، ادرجت الكنيسة الكاثوليكية لويس التاسع فى قائمة القديسين . وبلقب القديس دخل لويس التاسع التاريخ ؛ والى الآن لا تزال عبادة لويس التاسع مرعية الاجراء فى الاوساط الاكليريكية والموالية للاستعمار فى الغرب . والى الآن لا يزالون ينسبون اليه تقوى خاصة والتعلق بالافكار الدينية الخالصة ، ولا يزالون يكرمونه ويبجلونه كملك واصل التقاليد الحقيقية للحملات الصليبية فى مظهرها الاولى . وفى سنة ١٩٧٠ ، احتفلوا فى باريس وروما (فى آن واحد) على نطاق واسع بذكرى مرور ٧٠٠ سنة على وفاة الملك الصليبى الفاجعة (فقد لقى مصرعه اثناء الحملة الصليبية الثامنة ، التى سنتحدث عنها ادناه) ؛ فقد جرت مؤتمرات علمية ، واقيمت حفلات موسيقية تذكارية ، ومعارض للذخائر التاريخية وعقد المعهد الفرنسى الكاثوليكى فى روايامون مداولة لمناسبة اليوبيل .

فى ٤ حزيران (يونيو) ١٩٧٠ ، عقدت جمعية العلماء التى تهتم بقضايا تاريخ آسيا ، جلسة احتفالية فى كوليج دى فرانس لمناسبة اليوبيل ؛ وكان موضوع الجلسة «القديس لويس والشرق» . وقد اعلنت الوزارة الفرنسية لشؤون الثقافة سنة ١٩٧٠ «سنة القديس لويس» ودعمت كليا مبادرة الجمعية الآسيوية . خلاصة القول انه بذلت جهود متنوعة لاجل تذكير

الفرنسيين من الاجيال الحالية بصورة الملك المثالى «النقــى» ، «التقى» ، «الصادق» ، الجدير باحترام اخلافــه ، مثال الصليبى من الطراز الباكر ، الاولى ، الذى لا يسترشد ، كما يزعم ، الا بالدوافع الدينية - بافكار تحرير القدس وحمل «الكفار» على اعتناق المسيحية . وقد كتب البروفسور ستراير من جامعة برينستون : «كان الغرور والسعى وراء النفع غريبين بالقدر نفسه عن طبيعته» . ولكن هل يتطابق هذا التصوير مع الواقع التاريخى ؟

ان الحملة الصليبية السابعة قد سارت فى اتجاه الحملة الخامسة ؛ فقد كانت مصر هدفها المباشر . ففى الغرب ادركوا منذ زمن نجاحات صلاح الدين . ان مفتاح القدس موجود فى مصر على وجه الدقة . والملك لويس التاسع لم يكن البتة حالما يسبح بالفكر فى عالم الاوهام . وحملته الصليبية ، كما يجمع الباحثون على القول ، كانت منظمة افضل من الحملات السابقة . ففى الوقت المناسب ، عنى الملك بالاسطول (فقد استأجر ٦٠ سفينة فى جنوه و٢٠ سفينة فى مرسيليا) . واستطاع ان يجد ما يكفى من النقود . فبموجب قرار من مجمع ليون ، دفع رجال الدين الفرنسيون مبالغ ضخمة - على امتداد بضع سنوات (وقد اضطروا الى دفع زهاء مليون ليرة) . وفى سياق الحديث عن الحملة الصليبية السابعة ، اعرب المؤلفون المسلمون عن الدهشة من ضخامة كمية النقود الذهبية التى جلبها «الفرنسيس» (اى «ملك الافرنج») معه فى الحملة . كذلك فكر لويس التاســع فى ضمان المؤن للصليبيين ؛ فقد جمعت فى قبرص احتياطيات من الحبوب والخمور وغير ذلك من المؤن . وبلغ عدد الصليبيين الاجمالى زهاء ١٥-٢٥ الفا ، وبينهم زهاء ٣ آلاف فارس .

لقد حدد لويس التاسع ومحيطه اتجاه الحملة اثناء الاقامة المديدة فى قبرص الى حيث اوصلت سفن جنوه ومرسيليا رجال الحملة الصليبية (فقد نزلوا هناك فى ١٧ ايلول - سبتمبر ١٢٤٨ وبقوا حتى ٣٠ ايار - مايو ١٢٤٩) .

كان لويس التاسع يرفع الصلوات الى الرب العلى بكل حمية واجتهاد وكان يعمد الى جلد نفسه بنفسه من باب التوبة والندم (ولهذا الغرض كان للملك سوط خاص !) ، ولكن الاهتمامات الزمنية لم تكن تغيب البتة عن باله . فقد كان سياسيا واقعيا جدا ، اعاد تنظيم الادارة بحذق ومهارة فى المملكة الفرنسية بسبيل النمو والرسوخ ، ورجلا لا يعرف الكلل ، وحافلا بالهمة . وقد حمل البارونات والفرسان على ارتداء البسة الحجاج ، وترأس شخصيا الصليبيين لكى يؤمن لفرنسا ، عن طريق الفتوحات الجديدة فى الشرق ، مواقع

اصلب واثبت فى منطقة البحر الابيض المتوسط ، التى كانت ترتبط بها مدن مقاطعة لانغيدوك التى انضمت مؤخرا ، فى سنة ١٢٢٩ ، الى املاك الملك . ولكن حسابات لويس التاسع ظهرت فى هذه الحالة خاطئة ، اذ ان الوضع فى الغرب في اواسط القرن الثالث عشر لم يكن ملائما للحملات الصليبيـــة الجديدة . وكان الخصام بين الامبراطورية والباباوية يمزق ايطاليا والمانيا ، ولذا لم يكن البابا اينوشنتيوس الرابع ، ولا فريدريك الثانى ، يفكران فى اى دعم جدى كان لحملة صليبية الى الشرق .

زد على ذلك ، كما افاد مؤلف مسلم ، ان الامبراطور فريدريك الثانى الذى علم بنوايا القديس لويس وحتى تعاطف معه ، حذر الملك الصالح نجم الدين ايوب بالحملة الجارى اعدادها ضد مصر . وبديهي ان الكنيســة الكاثوليكية اتهمت الامبراطور بخيانة القضية المسيحية . ولكن هذه الاتهامات لم تكن ترتكز على اى اساس ؛ ذلك انه لم يكن ثمة ما يحمل فريدريك الثانى على فتح عيون المصريين ليروا «سر» اعداد الحملة الصليبية ، اذ ان مئات التجار والبحارة من الاسكندرية ممن كانوا يمضون سنويا الى جنوه قد رأوا بام عيونهم ان الاستعدادات تجرى هناك على قدم وساق .

ان الخبر الذى ارسله الامبراطور الى الملك المصرى (اذا كانت معطيات المؤرخ فى هذا الصدد ثابتة) كان بمثابة خطوة ديبلوماسية . كتب فريدريك الثانى الى الملك الصالح : «احترس ! اعلم ان الفرنسيين – وعددهم ٦٠ الفا ! – ينوون ان يفتحوا القدس ، وان يستولوا اولا على مصر» . وبابلاغ هذا ، كان الامبراطور يقصد (على كل حال) ، اغلب الظن ، ضمان حقوقه فى الشرق ، فسعى الى وقاية نفسه من اية تطاولات قد تحدث من جراء الحملة الصليبية . والاكثر احتمالا كذلك ، ان فريدريك الثانى اراد ان يحمل لويس التاسع ، بصورة غير مباشرة ، على الاحتراس : ينبغى عدم الاقتحام والتهور ، وعدم اللجوء الى القوة الفظة ، بل يجب الاستفادة بدقة من الظروف لاجل التوصل بالوسائل الديبلوماسيـــة الى الاهداف المنشودة . وهذا يعنى ان الامبراطور حاول ان يدفع الملك الفرنسى على السير فى الدرب الذى سبق ان بنى عليه فريدريك الثاني نفسه علاقاته مع الكامل والد الملك الصالح ، وبلغ عليه الكثير . ومهما يكن من امر ، يعكس هذا الواقع بنحو معبّر الوضع الدولى فى الغرب عشية الحملة الصليبية .

كذلك لم يلاحظ ميل خاص ، شديد ، فى البلدان الاخرى الى الاشتراك فى هذه الحملة . وقد سبق ان اشرنا الى الموقف السلبى الذى وقفه الملك الانجليزى هنرى الثالث . ثم ان العداوة بين البارونات والملك حالت بدورها

دون تضافر الجهود فى انجلترا الاقطاعيـــة . وبقيت اسبانيـــا فى معزل عن الشؤون الشرقية ، اذ كانت ، كما من قبل ، تواجه مشاكلها الخاصة . واكتفى ملك النروج هوكون الخامس بالوعود الفارغة .

وهكذا لم يكن لويس التاسع مع حملته الصليبية بالفعل سوى اداة فى يد الكرسى الرسولى الذى كان لا يزال يحوك مشاريعه التيوقراطية الكلية ويجددها ويحاول تحقيقها . وان العالـــم الفرنسى المعروف فى الشؤون البيزنطية ليمرل الذى قدر على العموم نشاط لويس التاسع كرئيس دولة رفيع التقدير ، قد كتب فى تقييم سياسته الشرقية : «انا لسيت واثقا مـن ان لويس التاسع ابدى فى هذا الصعيد ايضا صفات ابرز ملك فى الغرب الاقطاعى» .

ولهذه الشكوك تتوفر بالفعل مبررات جدية . فان الحساسية الواقعية قد غابت عن لويس التاسع فى مشاريعه الصليبية . فان الملك ومستشاريه كانوا يجهلون ما يجرى فى الشرق ، بل انهم كانوا لا يعرفون البتة اى شيء عنه . فان اسم «بيزنطية» لم يرد ولو مرة فى سيرة حياة لويس التاسـع التى وضعها فيما بعد جان دى جوانفيل ، الذى كان قريبا منه !

اما فيما يخص المغول الذين كانوا فى ذلك الزمن بالضبط يوسعون فتوحاتهم فى آسيا الامامية ، فان بمعلومات طفيفة جدا كانت تصل عنهم سواء الى باريس ام الى عموم اوروبا الغربية . وكانت آسيا تتراءى للاوروبيين الغربيين بصورة مائعة ، وكانت تصوراتهم عنها شبه خيالية . وحتى الراهب الرحالة الفرنسيسكانى دجوفانى دل بلانو كاربينى الذى توغل فى اعمـاق آسيا بتكليف من البابا اينوشنتيوس الرابع (فقد مضى الى هناك قبل مجمع ليون بزمن قليل وعاد الى ليون فى تشرين الثانى — نوفمبر — ١٢٤٧) ، قد اسهب فى الحديث فى يوميات سفره عن مملكة اناس ذوى رؤوســـ كرؤوس الكلاب ، وافاد عن ممالك جوفية فى آسيا ، — خلاصة القول انه ملأ اوصافه باختلاقات باطلة . ومن الممكن ان يكون لويس التاسع ايضا قد اطلع على حكايات دل بلانو كاربينى .

ومهما يكن من امر ، لم يحاول الملك الفرنسى ، هذا الصليبى «النقى» «التقى» ، ان يحمل المسلمين على مقاتلة المسلمين (المماليك فى مصر على مقاتلة الايوبيين فى سوريا) وحسب ، بل حاول ايضا ان يعقد ضدهـــم احلافا . . . مع المغول . فقد كان يأمل ، على الارجح ، فى توطيد انقاضـ الممتلكات الصليبية بهذا السبيل .

فى اواسط القرن الثالث عشر ، عندما تقرر مصيـــر الشرق فى سياق

الفتوحات المغولية ، عوّل حكام عدد من الدول المسيحية فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، بما فيها دول الصليبيين المتبقية ، على المغول بالفعل ؛ فقد عقدت كل من مملكة ارمينيا الصغرى (قيليقيا) وامارة انطاكية اتفاقية مع المغول . وقرر لويس التاسع ايضا ان يسير على منوالهمـــا . وعملا بنصيحة ملك قبرص هنرى دى لوزنيان (١٢١٨-١٢٥٣) الذى عرف بهاتين الاتفاقيتين ، قرر لويس التاسع هو ايضا الاتصال مع الغزاة المغول . الا انه سار فى طريق مطروق ؛ واول من سار فى هذا الطريق من الغرب لم يكن غير البابا اينوشنتيوس الرابع الذى سبق له ان سعى وراء التحالف مع المغول . ولهذا الغرض أرسل الى الخان الاعظم للاوردة الذهبية (مملكة اسسها المغول . وكانت تشمل سيبيريا الجنوبية وجنوب روسيا . زالت فى القرن الخامس عشر) دجوفانى دل بلانو كاربينى . وفى سنـــة ١٢٤٧ ارسل البابا الى آسيا ، لاجل عقد حلف مع المغول ، بعثة اخرى برئاســة الراهب الدومينيكانى انسلم اسيلين ، — وهذه المرة الى القائد العسكرى المغولى بيدو . وكانت الذريعـــة الرسمية لارسال هاتين البعثتين «اطلاع الوثنيين على الدين المسيحى» . اما من حيث الجوهر ، فقد كان المقصــود التقارب مع الحكام المغول لاجل انقاذ بقايا السيدة الافرنجية فى الشرق — اى الامبراطورية اللاتينية التى كان يهددها اليونانيون والاتراك . كذلـك كان البابا يعلق الآمال على ان يكتسب فى شخص «الانجاس» حليفا ضـــد الامبراطور الالمانى فريدريك الثانى ، وان يتمكن ايضا من اقامة وتوطيـد سيادة الكورية الرومانية فى الاراضى الروسية التى وقعت مؤخرا تحت النير المغولى .

ان لويس التاسع الذى انطلق فى حملة صليبية واقام اتصالات مـع المغول قد تصرف ، اغلب الظن ، بالاتفاق مع البابا . ففى ٢٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٢٤٨ ، استقبل فى قبرص الرسل المغول . وقد طرح الملك ، بحضور اعضاء مجلسه ، الكثير من الاسئلة على القادمين المجهولين ، دون ان يخطر فى باله ، اغلب الظن ، ان بعثتهم كانت تتسم بطابع استكشافى صرف ، رغم انهم انحنوا حتى الارض امام ملك فرنسا . ان واحدا من اقرب كبار رجال الكنيسة الى الملك — هو اودو دى شاتورو — قد نصح الملك ، بدوره ، بالجواب عن رسالة الخان الديغاى . وقبل الملك النصيحة ؛ ففى اواخر كانون الثانى (يناير) ١٢٤٩ ، راحت بعثة فرنسيـة مؤلفة من ثلاثة رهبان دومينيكيين (برئاسة اندرى لونجومو) ، واكليريكيين وفارسين الى مقر قيادة الخان الاعظم . وفضلا عن رسالة الملك المتضمنة اقتراحا باعتناق

الدين المسيحي ، حمل الرسل الفرنسيون الى المغول الهدايا ، ومن بينهـا «كنيسة صغيرة» — اى خيمة كبيرة طرزوا عليها بحذاقة وتفنن مشاهد من حياة يسوع المسيح .

ومن اجراء المفاوضات بصدد اعتناق المغول للدين المسيحى ، حاول لويس التاسع ، مثل البابا ، ان يوجه قوى المغول ضد المسلمين وضـد امبراطورية نيقية .

وغنى عن البيان ان آمال لويس التاسع انقلبت الى وهم باطل تماما . فعندما وصل لونجومو ورفاقه الى المكان المقصود خلال سنة او يكاد ، بعد ان عبروا كل آسيا الوسطى (هكذا يروى جان دى جوانفيل عن ذلك) ، اتضح ان ديبلوماسية ملكهم الحكيم مبنية على الرمال ؛ فان المغـول لم يكونوا يعتزمون اعتناق الدين المسيحى ، وليس هذا وحسب ، بل طالبوا كذلك من جهتهم لويس التاسع . . . بالخضوع . ولكن الملك لم يعرف بهذا المطلب الا بعد مرور وقت طويل ، اذ انه لم يتقابل مع اندرى لونجومو الا فى سنة ١٢٥١ . ونحو ذلك الزمن ، كانت الحملة الصليبية قد جرت وانتهت بالفشل التام .

وقد تطورت الاحداث كما يلى .

فى اوائل حزيران (يونيو) ١٢٤٩ نزل الصليبيون فى مصب نهر النيل ، واشاعوا الذعر بين سكان دمياط واحتلوا المدينة عنوة وعمليا بدون اى قتال جدى ، وغنموا غنائم وفيرة . ولكن الغزاة لم يستغلوا الوضع الملائم ، وتوقفوا خمسـة اشهر ونصف شهر فى دميـاط . وكان حكـام مصر يعتقدون انه سيتأتى للصليبيين ان يحاصروا المدينة زمنا طويـلا ، ولذا قوى سقوطها السريع حالة الذعر فى بلاط الملك المحتضر الصالح . وبعد مناقشات مديدة ناجمة عن كون قسم من القادة العسكريين الصليبيين قد اقترح الزحف على الاسكندرية ، حاصر الفرسان قلعة المنصورة ، واستولوا عليها فى اوائل شباط (فبراير) ١٢٥٠ . وساعدتهم الخيانة . واستشهـد الأمير المصرى فخر الدين .

ولكن سرعان ما افلح المسلمون فى حصر الغزاة فى المدينة ؛ فقد رأى الغزاة امامهم جيشا لجبا على راسه الملك المعظم طوران شاه (١٢٤٩—١٢٥٠) الملك الاخير من سلالة الايوبيين . وقد لقى كثيرون من الفرسان الصليبيين ممن لم يتسنّ لهـم اللجوء الى القلعة مصرعهـم . وسقط بضع مئات من المقاتلين الصليبيين اثناء القتال ، وبينهم اخو الملك ، الكونت روبردارتوا .

ان الصليبيين ، كما اتضح الآن ، قد احرزوا نصرا على طريقة بيروس.

(اى نصرا كلّف غاليا جدا) ، باحتلالهم المنصورة . فان هذا النصر قد اضعفهم غاية الضعف . وبعد فترة من الوقت اغرق المصريون الاسطول الصليبي الذى كان يرسو قرب المنصورة ، وقطعوا طريق الفرسان مع دمياط التي كانت قاعدة لتموينهم . وتحت طائلة الموت جوعا اسرع الصليبيون في الجلاء عن المنصورة ؛ فقد فروا منها برا وبحرا ونهرا وكان العدو يطاردهم ويفتك بهم . وقد زال جيشهم من الوجود كقوة مقاتلة . ووقع في الاسر آلاف الفرسان وحملة سلاحهم . وفي عداد الاسرى كان لويس التاسع ذاته مع اخويه . وسرعان ما صار المقاتلون الصليبيون الاسرى ضحية الامراض – الملاريا والزحار (الدوسنطاريا) والاسقربوط (الحفر) . وقد ضعف الملك ، كما تشهد المصادر ، الى حد ان اسنانه اخذت تسقط ، بل انه تعين حمل الملك على حمالة ، كما يفيد مدون سيرة حياته غليوم دى نانجى ، لاجل قضاء حاجته . وفي ايار (مايو) ١٢٥٠ ، اخلى سبيل لويس التاسع لقاء فدية ضخمة (٨٠٠ الف بيزنط او ٢٠٠ الف ليرة) وشرط ان يغادر الصليبيون دمياط . ووصلت بقايا العساكر الصليبية الى عكا كيفما اتفق .

خلافا لرأى البارونات الذين نصحوا بالعودة الى الوطن (وهكذا فعلوا باغلبيتهم) ، قرر لويس التاسع ان يواصل الحملة الصليبية ، وبقى في فلسطين اربع سنوات . وارسل الى فرنسا رسائل تحمل دعوات الى التحرك في ربيع ١٢٥١ من أجل مساعدة الملك ضد «الكفار» . ولكن الكونتات والدوقات والبارونات والفرسان تجاهلوا هذه الدعوات . فقد كفاهم الدرس الذى تلقوه في مصر .

ترددت دعوة الملك في صفوف الشعب الفرنسي ، ولكن هذا الصدى لم يكن ذاك الذى كان يأمل فيه لويس التاسع . فان الوعظ بالحملة الصليبية اعطى ذريعة لانتفاضة قوية ضد الاقطاعية قام بها الفلاحون وعامّة المدن . وقد كان للخطابات التعصبية التي القاها واعظ مسنّ سمّاه مدونو الاخبار «المعلم من المجر» تاثير كبير جدا في بسطاء الناس . ومع الدعوة الى الحرب ضد «الكفار» ، طوّر الفكرة القائلة ان الرب امر بعدم الشفقة على الفرسان المغرورين ، اى ان انقاذ القدس هو شأن الفقراء . ونحن نعرف ان شعارات مماثلة قد انتشرت ذات مرة بين فقراء الريف ؛ وكان ذلك في سنة ١٢١٢ .

تقبل الجمهور على طريقته مواعظ «المعلم من المجر» وغيره من الوعاظ الشعبيين . ذلك انهم كانوا يؤكدون على ان الرب العلي لا يميل الى الاعيان ولا يحسن اليهم ، ويشهّرون ببخل رجال الكنيسة وجشعهم . ولهذا اتجه

غضب الفلاحين وفقراء المدن ، لا ضد «اعداء الايمان المسيحي» البعيدين ، بل ضد اسيادهم وحماتهم من رجال الدين . ومن مقاطعات فرنسا الشمالية حيث وعظ فيما مضى بطرس من مدينة اميان ، تحرك نحو باريس ومنها الى اورليـــان عشرات الآلاف من الصليبيين الفقراء لـــم يتحركوا لانقاذ قبر السيد المسيح ، ولم تكن اعمالهم فرارا هامدا «الى ما وراء البحر» . وشملت نيران الاستياء الشعبي مناطق كثيرة من فرنسا . وقد احتج المنتفضون على نير البارونات والاساقفة . وسمى الفرسان «المتمردون» انفسهم «بالرعاة» . وانتقلوا الى الجنوب جموعا كبيرة ، فاتكين في الطريق بالناس الميسورين ، والكهنة والرهبان . وقد اشترك في الانتفاضة زهاء مائة الف شخص . وكانت الانتفاضة بشيرا بعيدا بانتفاضة الفلاحين (الجاكرى) في مقاطعة ايـــل دي فرانس عام ١٣٥٨ . وقد بينت هذه الانتفاضة ان الدعاية للحملات الصليبية لم تصبح عقيمة بالنسبة للاقطاعيين وحسب ، بل امست كذلـــــك خطرة اجتماعيا لأنها تستتبع امكانية نشوب تمردات «الرعاع» .

عبثا انتظر لويس التاسع في فلسطين الامدادات ، فغادر عكا فـــــي نيسان (ابريل) ١٢٥٤ وعاد الى فرنسا .

منذ الخمسينيات من القرن الثالث عشر ، اخذت مستعمرات الصليبيين في سوريا ولبنان وفلسطين ، التي كان يمزقها الصراع الاجتماعي والسياسي الداخلي المتوتر ، تبدي المزيد والمزيد من العجز امام اعدائها في الشرق — السلجوقيين والعرب والمغول . وفي اواخر الخمسينيات انزل المغول هزيمة شنعاء بالخليفة البغدادي ، وامتلكوا — لزمن غير طويل ، والحق يقال ، المقاطعات الداخلية من سوريا . اما الخطر الرئيسي على الصليبيين ، فقــد كانت ترتسم معالمـــــه من جهة مصر ، حيث وصلت الى الحكـــم في سنة ١٢٥٠ ، بعد اغتيال المعظّم طوران-شاه ، سلالة جديدة هي سلالة المماليك . وكانوا يسمون بالمماليك المقاتلين الذين كان يتألف منهم منذ زمن الملك الصالح نجم الدين ايوب (١٢٠٧-١٢٤٩) معظم الجيش المصري . وكانوا من حيث انتماؤهم الاثني من البولوف . وكانوا يترحلون في السهوب المشرفة على البحر الاسود ؛ وقد وقع عدد كبير منهم في اسر المغول ، فباعهم هؤلاء عبيدا من التجار الايطاليين ، ثم باعهـــم هؤلاء من جديد في مصر (وكلمـــة «مملوك» تعني «عبد») . وتدريجيا ارتفع الآمرون المماليك الى وضع الشريحة السائدة في صفوف الاريستقراطية الاقطاعية . وممثلوها هم الذين قاموا في سنة ١٢٥٠ بانقلاب في البلاط ، حملوا به الى الحكم ملكهم المعزّ ايبـك (١٢٥٠-١٢٥٧) الذي بدأ منه بالفعل حكم سلالة المماليك .

استطاع المماليك ان يستبعدوا الخطر المغولى عن البلاد . فقد اوقفوا طليعة الجحافل المغولية فى ايلول (سبتمبر) ١٢٦٠ فى معركة عين جالوت . وكان بطل المعركة رئيس الحرس الملكى الذى ترقى فى البلاط ، العبد السابق ، الظاهر ركن الدين بيبرس بندقدارى . وفى سنة ١٢٦٠ صار ملكا . وفى عهده قويت مصر كثيرا . وكان بيبرس (١٢٦٠-١٢٧٧) يعتبر نفسه باعتزاز صلاح الدين الثانى . وقد وحد الملك الجبار ، الذى سار على خطوات سلفه الشهير ، مصر وسوريا . واعاد بناء الحصون ، وملأ مستودعات الاسلحة ، وبنى اسطولا كبيرا ، وضبط المواصلات البريدية المنتظمة . وبعد ذلك ، وجه بيبرس همته ضد الافرنج . وكان قد تقرر وضع حد لبقايا ممتلكاتهم فى سوريا ولبنان وفلسطين . وفى سنة ١٢٦٥ استولى على قيسارية وارسوف ، وفى سنة ١٢٦٨ على يافا ، وبعد شهرين - فى ايار (مايو) على انطاكية ، اغنى مدن الصليبيين . كانت سيادة الافرنج فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط تقترب بكل جلاء من نهايتها .

«انتزاع تونس من المسلمين»

فى صيف ١٢٧٠ قامت حملة صليبية اخرى ، كانت الحملة الاخيرة . وقد قام بها البارونات والفرسان الفرنسيون . وكان عددهم قليلا جدا ؛ اذ قل من كانوا يفكرون آنذاك هى استئناف الحروب فى الشرق التى منيت بالفشل بكل جلاء والتى انحطت سمعتها كليا .

وهذه المرة ايضا كان الملك الفرنسى لويس التاسع ، او القديس لويس ، حليف البابوية القديم ، والذى سبق له ان احرق اصابعه مرة فى مغامرة صليبية ، صاحب المبادرة الى الحرب المقدسة وقائد هذه الحرب . كان هذا الملك عنيدا ومثابرا فى بلوغ اهدافه السياسية ، تقيا بنحو تعصبى اعمى ، وكان يحيط نفسه بمستشارين من الرهبان الدومينيكان ؛ وقد اعلن للبارونات عن عزمه ، الذى كان يضمره من زمان ، فى ٢٥ آذار (مارس) ١٢٦٧ ، فى كنيسة سان شابيل فى باريس . وقد رأى الاسياد فى الكنيسة ذخائر من «الآلام الربانية» وسمعوا من فم الملك بالذات انه سيأخذ الصليب . وان جان دى جوانفيل ، مؤرخ سيرة حياة لويس التاسع ، الذى كان من رجال البلاط ، والذى عاش مع الملك جميع تطورات حملته المصرية ، يروى ان نبأ الحملة الصليبية الجديدة كان مفاجئا للغاية بالنسبة

له شخصيا وبالنسبة للاشخاص الآخرين المقربين من الملك ، وانه اذهل البارونات .
ولكن الحملة الصليبية لم تبد لجان دى جوانفيل وحده خاطئة . فهكذا كان يعتقد الجميع تقريبا فى محيط الملك ، فان الحملة الصليبية الجديدة الى الشرق التى اعتزم الملك على القيام بها كانت تبدو للبارونات سخافة لا معنى لها ومفارقة تاريخية اكبر من تلك الحملة التى انتهت بكارثة منذ زهاء ٢٠ سنة . بل ان مدون الاخبار الفرنسى يزعم ان المجلس الملكى قد عارض الحملة الصليبية بالاجماع تقريبا . على كل حال ، لم يشعر الفرسان باية حماسة . فقد اضطر الملك البالغ من العمر ٥٣ سنة ، والذى كان فضلا عن ذلك يعانى من امراض لم يتخلص منها اثناء الحرب المصرية فى الاربعينيات ، الى شراء حماسة الاسياد بالنقود ؛ فمن الاموال المحصلة لسد حاجات الحملة الصليبية من الضرائب المفروضة بصورة رئيسية على الكنيسة ، وهب كبار الاقطاعيين الفرنسيين والانجليز عشرات الآلاف من الليرات . ومع الملك نذر النذر الصليبى ابناؤه الثلاثة وصهره ، تيبو ، ملك نافار ، وابن اخيه ، تيبو الخامس ، كونت شامبانيا ، وروبر ، كونت دارتوا ، وغى ، كونت الفلاندر ، وبعض تابعى الملك الآخرين . وقد تهرب جان دى جوانفيل من الاشتراك فى الحملة الصليبية ، متذرعا بان املاكه قد تضررت كثيرا حين كان فى الارض المقدسة فى المرة السابقة ، ولهذا من الافضل له ان يبقى لكى «يساعد رجاله ويحميهم» .
صحيح ان الحفلة الرسمية لاخذ الصليب قد انتهت على هذا النحو فى آذار (مارس) ١٢٦٧ ، ولكن الامر اقتضى ثلاث سنوات اخرى للانتقال من الاقوال الى الاعمال . فان الوضع السياسى لم يكن ملائما لتحقيق المقاصد الصليبية . ثم ان حماسة الاعيان الفرنسيين الدينية قد تناقصت كثيرا ؛ اما الرئيسى ، فهو ان الاخ الاصغر للويس التاسع الذى كان يأمل فى مساعدته ، ملك مملكة نابولى (او ، بتعبير آخر مملكة الصقليتين — وكانت تتألفُ من بلاد نابولى وجزيرة صقلية) ، شارل كونت انجو ، لم يستطع ان يأتى الى مساندة اخيه وسيده ، ناهيك بانه لم يكن يتحرق الى تقديم هذه المساندة ؛ فان ايطاليا الجنوبية صارت من جديد مسرح عمليات حربية تقوم بها القوى السياسية المتعادية فى اوروبا .
وكان البابا كليمنت الرابع قد صادق فى سنة ١٢٦٥ على انتقال مملكة نابولى الى شارل ، كونت انجو وبروفانس ، اذ ان شارل وعد بان يصبح تابعا للكنيسة الرومانية . وفى ٢٦ شباط (فبراير) ١٢٦٦ ، هزم فرسان

شارل الذين اقتحموا ايطاليا الجنوبية ، وحلفاؤهم الايطاليون ، قوات الملك مانفرد هوهنشتاوفن ، وريث فريدريك الثانى ، فى معركة جرت فى ضواحى مدينة بينيفنت . وفى هذه المعركة لقى مانفرد نفسه مصرعه . ومذ ذاك ، رسخ شارل الاول قدميه ، على ما بدا ، فى مملكة نابولى .

ان هذا الحاكم الفرنسى الاسمر ، الذى استقر فى المملكة ، والذى كان من حيث المزاج اسبانيا اكثر منه فرنسيا ، كان مفعما بنوايا ذات ابعـــاد كبيرة جدا فى سياسته الخارجية . فلم يكن يعتزم الاكتفاء ، لا بايطاليـــا الجنوبية ، ولا بواقع انهم رفعوه فى روما الى رتبة السيناتور ، وانه صار زعيم عصبة غلف واكتسب لقب فيكير توسكانا الامبراطورى . كان شارل الاول يطمع باكثر بكثير . وبعد ٥٠ سنة ، كتب المؤرخ الواسع الاطلاع من البندقية ، مارينو سانودو ، بكل حق وصواب ، ان ملك نابولى كان يسعى الى انشاء ملكية عالمية ، والاصح القول ، الى توحيد بلدان البحر الابيضـ المتوسط تحت سلطته . وبهذا المعنى ، واصل شارل الاول سياســــة النورمانيين الصقليين واباطرة هوهنشتاوفن . كان شارل الاول بخيـلا ، سليم التفكير ، ومشغوفا فى الوقت ذاته بشتى الاوهام السياسيـــة ، شرط ان تلبى طموحه اللامحدود ؛ وكان متولعا ، اكثر ما كان متولعـــا ، بفكرة اعادة السيادة الفرنسية فى بيزنطية التى طرد منها فى سنة ١٢٦١ آخر امبراطور لاتينى هو بودوان الثانى . ولهذا الغرض قام شارل الاول بنشاط عاصف فى الحقل الديبلوماسى . وفى ايار (مايو) ١٢٦٧ عقد ملك الصقليتين فى فيتربو ، مقر البابا كليمنت الرابع ، معاهدتين مع بودوان الثانى والامير غليوم فيلاردوان ، حاكم امارة موره . وقد تعهد الامبراطور اللاتينى السابق ، مقابل المساعدة السنوية بالفى فارس يتم ارسالهم فى غضون ست سنوات لاجل استرجاع القسطنطينية ، ان يحيل الى شارل ثلث الاراضى التى يستعيدها هؤلاء الفرسان بقوة السلاح ، كما تنازل لملـــك نابولى عن السيادة على امارة موره المقطعة ، وجزر الارخبيل ، والاراضى فى ابيروس وكورفو . واذا توفى وريث بودوان الثانى بدون ان يخلف اولادا ، فان كل الامبراطورية اللاتينية تعود الى بيت انجو . «فى مصلحة المسيحية والارض المقدسة» وافق امير موره ايضا على ان يحيل ممتلكاته فى جنـــوب البيلوبونيز الى شارل الاول . وقد ختمت المعاهدتان بالاختام بحضور البابا كليمنت الرابع والكرادلة وكبار الاعيان ، ودعمتهما ، كما كانـــت العادة آنذاك ، عرى الزواج بين اقارب وانسباء الاطراف المتعاقدة : فلكى يعلل

شارل الاول ويدعم حقوقه فى القسطنطينية بمزيد من الوثوق زوج ابنته بياتريس من فيليب ، ابن بودوان الثاني .

من الممكن ان تكون مشاريع ملك نابولى قد شملت ، فيما شملت ، الحصول على تاج مملكة القدس . على كل حال ، كسب لقب ملك القدس بعد مرور عشر سنوات ، فوضعه قبل لقب ملك الصقليتين وسمى نفسه «شارل ملك القدس وصقلية بنعمة الله» . كانت اعتبارات المكانة تتسم بالنسبة لهذا الرجل الطموح باهمية من الدرجة الاولى . بل ان المؤرخ الالماني نوردان سماه «سلف نابليون في القرن الثالث عشر» .

قبل بداية المفاوضات بزمن قليل ، وصل الى هنا ، الى فيتربو ، رسولا لويس التاسع ، الماريشال هنرى من كوزا والارشيدياكر (كاهن له حق زيارة كل كهنة رعايا ابريشية) غليوم من باريس . فقد اراد الملك الفرنسى ان يعرف مدى المساعدة التى سيلقاها فرسانه من مملكة الصقليتين .

تبين محاضر اللقاء بين شارل ورسولى اخيه المتوّج (١-٣ ايار - مايو - ١٢٦٧) ان ملك نابولى لم يعرب البتة عن موافقته الصريحة على الاشتراك فى الحملة الصليبية . لقد اضطر ، والحق يقال ، الى التعهد بتقديم السفن والقوات المسلحة والمؤن ، ولكنه لم يستطع ان ينفذ هذه التعهدات فى أجل قصير . اما فيما يخص النقود - وقد طلب لويس التاسع زهاء ٥٠ الف ليرة - فان شارل الاول لم يحرك ساكنا لتأمين هذا المبلغ .

وبينما كان ملك نابولى يعلل نفسه بالاحلام بصدد القسطنطينية ، تلبدت الغيوم من جديد فوق رأسه في ايطاليا . وفى تشرين الاول (اكتوبر) ١٢٦٧ اجتازت قوات سليل آل هوهنشتاوفن ، البالغ من العمر ١٦ سنة ، كونرادين ، حفيد فريدريك الثانى ، جبال الالب ودخلت ايطاليا . واذ ذاك ، لم يبق للملك شارل الاول حتى الوقت للتفكير فى الحملة الصليبية .

فى ٢٣ آب (اغسطس) ١٢٦٨ استطاع شارل الاول ان يهزم قوات عدوه فى معركة تالياكوتسو ، ولكن اعضاء كتلة غيبيلين ، انصار آل هوهنشتاوفن ، تخفوا ، فى ايطاليا وفى خارجها . ومذ ذاك وجه شارل الاول جميع جهوده الى القضاء على اعدائه السياسيين الذين يدعمون حزب هوهنشتاوفن . وفى ذروة الصراع ، توفى البابا كليمنت الرابع . وبعد شهر ، وقع كونرادين الفتى فى يد شارل الاول ، فأمر بقطع رأسه . وقد أعدم كونرادين فى ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٢٦٩ .

جميع هذه الاحداث أخرت لزمن طويل بداية الحملة الصليبية . ففى شباط (فبراير) ١٢٦٨ ، عيّن لويس التاسع ، وقد اقتنع بانه لا داعى الى

انتظار العون من اخيه ، موعد الشروع فى الحملة فى ايار (مايو) ١٢٧٠ واجرى مفاوضات مع البندقية ومرسيليا وجنوه بصدد نقل الصليبيين بحرا ، واقنع بعض البارونات الانجليز وعلى رأسهم ابناء الملك ادوارد وادموند بأخذ الصليب .

اما شارل الاول ، فقد استأنف ، من جهته النشاط الديبلوماسى باتجاه القسطنطينية ، بعد ان قضى على المتمردين من كتلة غيبيلين فى ايطاليا . فارسل مفوضيه الى دوج البندقية ، «آمر ربع ونصف ربع رومانيا» ، لورنسو تيوبولو ، لعقد حلف ضد «المنسق» ميخايل باليولوغ . ولكى يعزز شارل الاول مواقعه فى منطقة الادرياتيك ، دخل فى علاقات تحالفية مع الملك اسطفان المجرى (الذى كان يملك ساحل دلماسية) ومع الملك اوروش الصربى وكذلك مع القيصر قسطنطين البلغارى . وفى اواخر سنـــــة ١٢٦٩ فقط ، بدأت الاتصالات من جديد مع لويس التاسع .

فى ١٤ آذار (مارس) ١٢٧٠ اخذ لويس التاسع من يد نائب البابا العكاز والصليب ، وانطلق مع فرسانه من باريس الى جنوب البلاد ، الى بروفانس . وفى ثغر اغمورت ركب المقاتلون الصليبيون – وبالكاد كان عددهم يربو على ١٠ آلاف – السفن . وكان مرفأ كاليارى فى سردينيا نقطة التجمع . واليه وصل الملك فى ٨ تموز (يوليو) ؛ وفى ١١ تموز وصلت السفن الباقية .

فى ١٢–١٣ تموز ، عقد لويس التاسع مع البارونات مجلسا ؛ فقد كان ينبغى حل المسألة التالية : الى اين يمضون ؟ يفيد بريمات ، الراهب من دير سان دينى الملكى فى مدوناته انه ظهرت فى المجلس آراء مختلفة ، وانهم اتفقوا فى آخر الامر على دفع الاسطول نحو تونس ، لما فيه خير الكنيسة . وقد صادق نائب البابا على هذا القرار واعلن ان من يمضى «ضد ملك تونس» سينال غفرانا تاما عن الخطايا كما لو ان الصليبيين انطلقوا الى الارض ال

لماذا اختاروا تونس بالذات هدفا ؟ عن هذا يفيد بالتفصيل شخص اشترك فى الاحداث هو معرّف الملك ، الدومينيكانى جوفروا دى بوليه ، الذى رافق الملك فى الحملة . فهو يورد اساسا دوافع دينية محضة ألهمت ، على حد زعمه ، الملك الفرنسى . فقبل بداية الحملة الصليبية ، تبادل لويس التاسع ، حسب رواية دى بوليه ، الرسل مع «ملك تونس» المستنصر ، الذى كان على استعداد ، كما اوحى الرهبان الدومينيكان ، «الجديرين بالثقة» ، للويس التاسع ، لاعتناق الدين المسيحى بكل طيبة خاطر اذا كان فى وسعه ان يفعل ذلك دون ان يتعرض لنقمة مواطنيه المسلمين . وحسب رواية جوفروا دى بوليه كان لويس التاسع يفترض هو ايضـــا ان يجمد قوات

المسلمين بهجومه المفاجئ على تونس ، ويؤمن لامير تونس ومقربيه امكانية اعتناق الدين المسيحى بلا عائق ، وبدون التعرض لاى خطر .

بعد مرور مئات السنين تلقف بعض الباحثين الفرنسيين من ذوى الميول المحافظة رواية جوفروا دى بوليه الذى اكد بكل الوسائل على الاعتبارات الدينية التى قامت ، حسب زعمه ، فى اساس الاختيار الستراتيجى . وبعض منهم لا يزالون يدافعون الى اليوم عن هذه الرواية ، مفتشين عن الجديد تلو الجديد من الذرائع فى صالحها . فان المؤرخ الفرنسى المعاصر لونيون ، مثلا ، الذى يتبنى رواية جوفروا دى بوليه بكل حماسة ، يصور لويس التاسع بصورة ملك‌مرسل ، يتحرق ، اكثر ما يتحرق ، الى استمالة المستنصر الى الدين المسيحى ، والى تأمين انبعاث الدين المسيحى وانتصاره فى بلد عاش فيه ووعظ فيما مضى احدآباء الكنيسة ، القديس اوغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠) .

اما فى الواقع ، فان مدونات جوفروا دى بوليه تتضمن اوصافا اكثر واقعية بكثير لتلك الدوافع التى دفعت الملك لويس التاسع او القديس لويس الى تحريك اسطوله نحو تونس ؛ فان الرهبان الدومينيكان الذين كانت لهم ارسالياتهم هناك قد اقنعوا الملك بانه من السهل الاستيلاء على تونس ، وابلغوا لويس التاسع كذلك عن الثروات الطائلة فى مدينة تونس ، وقالوا له انه يمكن استعمالها لاجل استعادة الارض المقدسة ، وان ملك مصر ذاته يغرف من تونس مقادير كبيرة من الاموال ؛ فمنها يرسلون الى القاهرة الخيالة والاسلحة .

اغلب الظن ان هذه الذرائع بالذات هى التى كانت فى المقـــام الاول السبب الذى حمل الملك على توجيه السفن من كالياري الى سواحل تونس . ويجب الظن ان زعماء الحملة استخلصوا الدروس من اخفاقات الصليبيين السابقة ؛ فان الهجوم المباشر على مصر مشروع لا امل فى نجاحه ، فلم لا يحاولون العمل بطريق غير مباشر ، ببدء النضال فى سبيل فلسطين من اخضاع تونس حيث سيكون من الممكن انشاء رأس جسر لاجل بلوغ الهدف الرئيسى ؟

يتبين من الوثائق المحفوظة ان لويس التاسع اعلم شارل الاول بمقصده . وقد فعل ذلك قبل المجلس فى كالياري ؛ وفى ١٣ تموز (يوليو) ، امر شارل الاول ، اثناء وجوده فى باليرمو ، بشراء الفى قالب من الجبنة فى ابولى ونقلها الى مرفا ترابانى فى صقلية «لاجل سفرنا البحرى الموفق من صقليـــة الى تونس» . وفى اوامر اقدم عهدا مؤرخة فى ايار (مايو) - حزيران (يونيو) ١٢٧٠ ، ومرسلة الى نابولى ، طالب شارل الاول بشراء الفـــى رأس من الخنازير و٦٠٠ بقرة وخروف فى كالابرى وشراء الخبز فى ابولى تأمين كل

هذا بوفرة للملك لويس التاسع . الا ان تونس لم ترد فى هذه الوثائق بوصفها هدف الحملة : فقد تناول فيها الكلام ببساطة عن بعثة «فيما وراء البحر» . وفى ٢١ تموز ، منح شارل الاول تجار مملكته الحق فى تصدير احتياطيات المآكل بدون رسوم الى «ملك فرنسا الذى سيمضى بحرا الى تونس لعزمه على انتزاع هذه الارض من المسلمين» .

ولكن ملك نابولى نفسه لم يتسرع الى الانضمام الى قوات اخيه . فقد كان شارل الاول يفكر قبل كل شيء فى مشاريع يونانية لم تسفر عن اية نتيجة . فان نحو عشرين سفينة — لم يفلح فى جمع اكثر منها — لم تكن كافية لاجل الحرب ضد «المنشقين» ؛ ورفض دوج البندقية لورنسو تيوبولو التحالف مع المغامر من انجو ضد الامبراطور البيزنطى ميخايل باليولوغ . واستطاعت البندقية ، حتى بدون حرب ، ان تستعيد امتيازاتها السابقة فى امبراطورية الروم . ولم تكن عند شارل الاول اية نقود — فان حيله الزواجية كانت تتطلب نفقات كبيرة — فغرق ملك نابولى فى الديون .

وحتى عندما انطلق اسطول لويس التاسع فى ١٥ تموز ١٢٧٠ باتجاه تونس ، وعندما نزل الصليبيون هناك فى ١٨ تموز دون ان يلقوا مصاعب جدية نوعا ما ودون ان يتكبدوا اية خسارة تقريبا ، لم يتسرع شارل الاول فى الالتحاق بهم . ولم يبحر الى تونس مع فصيلته الا فى ٢٤ تموز ، ولكن افكاره ظلت مشغولة حتى فى ذلك الوقت ايضا بالقسطنطينية وموره . ولم يكن شارل الاول يرغب فى حرب ضد تونس ، وقد ارجأ الى الحد الاقصى اشتراكه فى الحملة ، رغم ان لويس التاسع كان ينتظر منه العون بفارغ الصبر . وفضلا عن ذلك ، يتبين من رسالة لكابيللان لويس التاسع ، بيار دى كونده ، مؤرخة فى تاريخ لاحق ، ان «ملك صقلية طالب باروناتنا فى بداية الحرب بعدم التفكير فى الاشتباك فى حرب ضد ملك تونس» . لماذا ؟

كان شارل الاول يفضل على العموم ان يقيم علاقات حسن الجوار مع البلدان الاسلامية فى افريقيا الشمالية . وكانت التجارة مع المشرق تعود على خزينته بارباح لا يستهان بها . كان دوق بروفانس وكان بالاضافة يسود على مدن ايطاليا الجنوبية ومدن صقلية . وكانت تونس تستورد الحبوب من صقلية بانتظام . وكانت الحرب تهدد بالاخلال بهذه العلاقات التجارية القائمة من زمان بعيد .

وعدا ذلك ، كانت للملك شارل الاول نظرات خاصة تماما الى تونس ؛ فقد سبق له ان اجرى خلال زمن طويل مفاوضات مفعمة بروح الصبر مع المستنصر لكى يدفع له المستنصر جزية كانت تونس تدفعها فيما مضى

للامبراطور فريدريك الثانى . وكان الطرفان يتبادلان الرسل بين الفينة والفينة . وشيئا فشيئا سارت المفاوضات اشواطا الى الامام . الامر الذى حمل ملك نابولى على المماطلة فى الجواب عن عروض لويس التاسع للاشتراك فى الحملة الصليبية .

ولكن سرعان ما تعقدت العلاقات بين شارل الاول وامير تونس . فان ملك الصقليتين ، المستغرق فى الديون ، قد طلب من امير تونس ، علاوة على الجزية العادية ، دفع متأخرات عنها متراكمة منذ اواسط القرن الثالث عشر . وحين نزل صليبيو لويس التاسع فى تونس ، دخلت المفاوضات مع المستنصر طريقا مسدودا . وآنذاك فقط التحق شارل الاول بالصليبيين لفهمه انه ليس له ما يخسره .

بعد ان نزل الصليبيون الفرنسيون فى تونس ، استولوا على قلعة قرطاجا القديمة . وهب بيبرس ، ملك مصر ، الى مساعدة المستنصر . وكانت الشمس الافريقية اللاهبة تضنى الفرسان . وفى اواخر تموز ، دب فى صفوف قواتهم وباء – أمّا وباء الطاعون ، واما وباء الكوليرا . وفى ٣ آب (اغسطس) ، لزم لويس التاسع الفراش . وفى الوقت نفسه تقريبا شملت العدوى ابنيه اللذين كانا معه (فيليب الذى خلفه فيما بعد ولقب بالجرئ ، وجان دى نيفر) وابنته ايزابيل وزوجها ، ملك نافار ، واخا هذا الاخير ، والفونس دى بواتيه وزوجته جان ، – خلاصة القول – كل العائلة الملكية . ولم يعودوا الى فرنسا ، باستثناء ابن الملك البكر فيليب ، الذى شفى .

فى ٢٥ آب (اغسطس) ١٢٧٠ ، توفى لويس التاسع ؛ فان جسمه الذى اضعفته الامراض السابقة ، لم يصمد للمحنة الجديدة . وفى اليوم ذاته ، وصل اسطول شارل الاول الى سواحل تونس . فوجد ملك نابولى جثمان اخيه البارد . وقد فسدت معنويات العساكر كليا بسبب وفاة قائدهم المفاجئة . وكادت الحملة الصليبية تنهار وتفشل .

بعد وصول فصيلة شارل الاول الى تونس ، خاضت مع الصليبيين الذين ترأسهم خليفة لويس التاسع ، ابنه فيليب ، بضع معارك ناجحة ضد قوات امير تونس ؛ وانتهى الامر . فقد اعتبر شارل الاول من غير المعقول مواصلة الحرب فى تونس . وفى اول تشرين الثانى (نوفمبر) ١٢٧٠ ، تم التوقيع على معاهدة صلح مع المستنصر ، الزمته باستئناف دفع الجزية لملك الصقليتين ، ودفعها بمقدار الضعفين ، وبطرد افراد كتلة غيبيلين من تونس التى لجأوا اليها وتخفوا فيها ، وبالتعويض على الملكين المسيحيين عن النفقات الحربية ، علما بان ثلث المبلغ الاجمالى – ٧٠ الف اوقية من الذهب – يعود الى شارل

الاول . اما اهم شرط تضمنته المعاهدة ، فهو انها آمنت الحصانة فى تونس للتجار من رعايا مملكة صقلية ؛ فانهم «سيكونون بحماية السيد اى هـم بالذات واموالهم ، سواء عند دخولهم البلد ام فى زمن تصريف امورهم» . واخذ الطرف الثانى ايضا على عاتقه التزامات مماثلة . وهكذا انشأت هذه المعاهدة ضمانات حقوقية معينة لاجل تطور التجارة بين تونس وصقلية تطورا طبيعيا ، عاديا . وبعد ١٧ يوما على توقيع المعاهدة ، ركب الصليبيون السفن وغادروا تونس .

الا ان باباوات روما واصلوا دعوة الغرب الى تحرير القدس حتى بعد اخفاق حملة سنة ١٢٧٠ . وفى سنة ١٢٧٤ طالب البابا غريغوريوس العاشر فى مجمع ليون (فرنسا) بتنظيم حملة صليبية جديدة . ولكن نداءاته ظلت معلقة فى الهواء : فلم يتواجد راغبون فى القتال من اجل قبر السيد المسيح . الموقف السلبى من الحملات الصليبية قد تجذر وترسخ الى حد ان مدون الاخبار الايطالى التقى ساليمبينه فسر حتى وفاة البابا بسياسته الشرقية التى لا تطيب للرب : «ان الرب لم يشأ استعادة القبر المقدس من جديد ، ولذا دعا البابا اليه» .

واستمرت زمر الفرسان غير المنظمة تشن حملات منفردة حتى اواخر القرن الثالث عشر ، ولكن هذه الحملات لم تسفر عن اية نتائج جدية نوعا ما . وتوقفت الحركة الصليبية . وقد سحق مماليك مصر وابادوا آخر ممتلكات الافرنج فى الشرق الواحدة تلو الاخرى . وفى ٢٦ نيسان (ابريل) ١٢٨٩ استولت قوات الملك الاشرف خليل ابن قلاوون على طرابلس . وفى ١٨ ايار (مايو) ١٢٩١ ، اى فى ١٦ جمادى الثانى ٦٩٠ هجرية سقطت عكا ، وحولها المصريون فيما بعد الى انقاض . وزالت مملكة القدس الثانية من الوجود .

ان مؤلف «البكاء على سقوط عكا» ، الراهب الدومينيكانى ريكولدو دى مونتى كرونشه ، قد فسّر فى اواخر القرن الثالث عشر فشـل الحملات الصليبية بكون الغرب رفض ان يقدم للارض المقدسة دعما فعالا ، لأن فكرة الاستشهاد من اجل القدس لم تعد ، برأى هذا الراهب ، تحمـل الارتياح المعنوى . اما فى الواقع ، فان الحروب الصليبية قد توقفت لأنها قدمت البرهان الجلى الساطع على عقمها ، كما ان الحوافز الاجتماعية التى استثارتها فيما مضى ، فى القرن الحادى عشر ، قد فقدت قوتها فى غضون ٢٠٠ سنة .

وغير مرة ، قامت ، فى القرون التاليـة ، محاولات مصطنعة لاستئناف الحروب من اجل الارض المقدسة ، ولكنها اخفقت جميعها ؛ فان عهد الحملات الصليبية قد انتهى .

٧
نتائج الحملات الصليبية



أهى صوة في التاريخ العالمى ؟

هل اسفرت الحملات الصليبية عن عواقب طويلة الأمد نوعا ما ؟ هل كان لها ، الى حد ما ، تاثير خيّر فى حياة شعوب الغرب والشرق ؟ وهل حملت شيئا ما ذا قيمة وفائدة ؟ وهل يمكن على العموم اعتبارها صوة مهمة فى التاريخ العالمى ؟ خلاصة القول ، اى مكان تشغل فى هذا التاريخ ؟

من الصعب اعطاء جواب صريح وبيّن بنحو قاطع ، وشاف وواف فى مدلوله الواحد . الا ان هناك على الاقل امر واضح ، هو ان الحملات الصليبية التى دامت زهاء ٢٠٠ سنة ، لم تمر دون ان تترك اى اثر . ولكن هناك امر آخر غنى عن البيان هو ان الاهداف المباشرة التى طرحها ملهموها ومنظموها والمشتركون فيها لم تتحقق ، وان النتائج المحرزة كانت قصيرة الامد جدا .

فان الدول الاقطاعية التى أسسها الاقطاعيون الغربيون فى المنطقة الشرقية من البحر الابيض المتوسط قد دامت بالفعل ، فى اغلبيتها ، حقبة قصيرة نسبيا . كانت تمزقها التناقضات الاجتماعية والدينية والاثنية الداخلية ، فلم تستطع ان تصمد لضغط العالم الاسلامى ثم لضغط عالم

الروم ، وسرعان ما خرجت من الساح . وحسب التعبير المجازى الذى ساقه المؤرخان التشيكيان فيرا وميروسلاف غروخوف ، «طمر رمل النسيان آثار الفرسان المدرّعين قبل ان تبهت فى الغرب الذكريات عن افعالهم القاسية والبطولية بزمن طويل» .

ان البابوية التى شنت الحروب المقدسة لم تحصل منها الا على كسب قصير الأمد ، علما بان هذا الكسب هو من حيث رفع مكانتها وهيبتها او بالاحرى من حيث تنفيذ المشاريع التيوقراطية العالمية التى حاكها «نواب القديس بطرس» اقل مما فى ميدان آخر ، بصورة رئيسية ، هو ان الكرسى الرسولى استطاع ان يعزز قاعدته المالية ، اذ اتسعت هذه بفضل الضرائب الصليبية وابتزاز الاموال الصليبية . وفى آخر المطاف ، ادى اخفاق الحملات الصليبية وما ارتبط به من فشل اصاب خطط الاتحاد الكنسى الى تقويض سمعة البابوية نحو اواخر القرن الثالث عشر بصورة شديدة والى اطراد تدهورها لاحقا .

ان مشاريع الفرسان الاغتصابية التى قامت تحت الراية الدينية قد انعكست بصور مختلفة فى مصائر مختلف الدول الاوروبية الغربية . فان تدفق عدد كبير من «العراة» ومن «المحرومين من الارض» الى بلدان الشرق ، وكذلك كبار السادة الذين كانوا يحمون استقلالهم باكبر قدر من الغيرة والحماسة ، قد ساعد ، بقدر معين ، فى توطيد فرنسا سياسيا تحت حكم ملوكها . وهذا ما اسهم فيه ايضا نمو الوعى الذاتى القومى الذى اشترطته كذلك جزئيا الحملات الصليبية ؛ ذلك ان الفرنسيين بالذات هم الذين كانوا يشكلون المجموعات الاساسية من المشتركين فيها . وان الحملات الصليبية ذاتها التى كانت جزءا عضويا لا يتجزأ من النهج التوسعى الذى كانت تسير عليه امبراطورية آل هوهنشتاوفن الساعين الى اقامة السيطرة العالمية ، قد قوت ، على العكس ، واكثر من ذى قبل ، عواقب هذا النهج السلبية بالنسبة لالمانيا ، معززة عودة الميول اللامركزية فيها ، ومعجلة انقسام المانيا الى امارات اقليمية مستقلة . ولكن دول شبه جزيرة البيرينه احرزت – وليس بدون دعم الصليبيين – نجاحات معينة فى استعادة الاراضى من العرب ؛ فان الحملات الصليبية كانت بين الفينة والفينة تتشابك بوثوق مع الريكونكيستو ، كما ان المشتركين فيها كانوا يتحولون احيانا الى قوتها الضاربة ، كما حدث ، مثلا ، فى سنة ١١٤٧ (الحملة الصليبية الثانية) .

ولا ريب فى ان البندقية وجنوه قد كسبتا من الحملات الصليبية . الا

انهما ، والحق يقال ، فقدتا نحو اواخر القرن الثالث عشر ، نقاط الارتكاز على الساحل الفلسطيني اللبناني السوري ، ولكن بقيت لهما خلال زمن طويل دولة استعمارية شاسعة استطاع رجال المال من الجمهوريتين الايطاليتين الشماليتين ان يبنوها بمساعدتهم الفرسان الصليبيين في فتوحاتهم . بيد انه لا يندر ان تتشوش الرؤية في تقييم هذا العامل بحكم التقاليد ؛ فان كثيرين من المؤرخين يعتبرون ان ازدهار التجارة المشرقية الذي لوحظ في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كان يقترن على وجه الضبط بالهيمنة التجارية الايطالية في البحر الابيض المتوسط ؛ وان الوضع المميز لمستوطنات التجار من ايطاليا وفرنسا الجنوبية وكاتالونيا في سوريا قد أمن لها ، كما يزعمون ، افضليات تجارية مهمة وامكانيات للكسب ، وان تكن عابرة .

من الصعب الموافقة على هذا الرأي . فان التجارة كانت بالفعل تشغل مكانا مهما في الحياة الاقتصادية في الدول التي اسسها الصليبيون . وكان المسلمون يتحدثون بسخر عن حب التاجر الغربي للمال : فلو فقد حتى عينا واحدة ، لواصل المجيء الى الشرق لاجل تسيير اعماله . ولكن النشاط التجاري الكثيف الذي كان يقوم به رجال المال من جنوه والبندقية ومرسيليا وكاتالونيا وغيرهم في المشرق كان مدينا بنطاقه الشاسع ، بصورة رئيسية ، للتطور الاقتصادي الداخلي في اوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وبدرجة اقل بكثير للنظام المميز الذي كانت تتمتع به مستوطناتهم التجارية في دول الافرنج . مثلا . يستفاد من حسابات المستشرق الفرنسي كاين ان عدد الصفقات التجارية المعقودة في سنوات ١١٠٠–١١٧٠ بين تجار البندقية وتجار الشرق في الاسكندرية كان اكبر من عدد الصفقات المعقودة في عكا ، بينما كان مماثلا تقريبا في القسطنطينية . وهذا يعني ان الاسكندرية والقسطنطينية اى المدينتين غير الخاضعتين لحكم الصليبيين كانتا ، في القرن الثاني عشر ، تتفوقان من حيث اهميتهما – بوصفهما مركزين للتجارة المشرقية – على المدن المينائية في دول الافرنج . ومما له دلالته ان التجار الاوروبيين الغربيين اخذوا مع مر الزمن يوقعون اكثر فاكثر على اتفاقيات تجارية متبادلة النفع مع مصر وغيرها من الدول الاسلامية اذ كانوا يرون في ذلك اساسا اوثق وآمن (بالمقارنة مع الامتيازات الاستعمارية) لاجل نجاح اعمالهم . وليس من قبيل الصدفة ان اهتمام التجار بالمشاريع الصليبية اخذ يقل تدريجيا كذلك لأنها لم تكن تفعل غير ان تعرقل كسب الارباح بصورة منظمة من التجارة المشرقية .

هل كانت للحملات الصليبية عواقب اجتماعية مباشرة ؟ كان الفرسان المشتركون الرئيسيون فى هذه الحروب . وكانت فرقهم الصليبية شاسعة جدا بالاجمال . اما عدد اشهر العائلات الاقطاعية التى اقامت علاقات ثابتة مع الارض المقدسة ، فانه يبدو ، بالعكس ، غير كبير نسبيا ؛ وعلى العموم لم يكن عدد الصليبيين «الاشراف» الذين استقروا بثبات فـى الشرق ، حسبما يبدو ، متطابقا مع توقعات ملهميهم . ومنذ اواخر القرن الثانى عشر وبخاصة منذ بداية القرن الثالث عشر ، كانت الاراضى البيزنطيـة تغرى كثيرين من الاسياد اكثر بكثير ؛ واخذ تدفق الاريستقراطيين من الغرب الى دول الصليبيين فى سوريا ولبنان وفلسطين يقل اكثر فاكثر . وعدا ذلك ، وجد عدد لا يستهان به من الفرسان ، مع مر الزمن ، مخرجا من الرغبة فى القتال والحرب بالانتماء الى الجمعيات الرهبانية العسكرية التى لم يكـن نشاطها يرتبط بالدفاع عن الشرق اللاتينى فقط . وعلى كل حال ، كانـت الحملات الصليبية تعنى بالنسبة للطبقة الاقطاعية فى اوروبا الغربية سفك الدماء بمقادير هائلة ؛ ذلك ان النجاحات فى الشرق ، بما فيها حتى ابسطها واصغرها ، كانت تكلف ضحايا كبيرة . وبالنتيجة — وهذا هو الرئيسى — استتبعت الحملات الصليبية تغيرات ، ملحوظة جدا احيانا ، فى توزع ملكية الارض فى بلدان الغرب . وعلى الاخص ، اسهم رحيل الفرسان «الى ما وراء البحار» فى توسيع ملكية الكنيسة للاراضى .

ومن عواقب اشتراك الاقطاعيين فى الحركة الصليبية ، ارتفاع مستوى وعيهم الذاتى الطبقى ؛ فباشتراكهم فى المعارك ضد العدو المشترك بوصفهم القوة الحاسمة ، ادركوا بجلاء انتماءهم الى فئة اجتماعية واحدة ذات مصالح مشتركة . وليس من باب العبث اذا كانت مدونات الاخبار ، وبصورة رئسية مدونات اولى الحملات الصليبية التى اشتركت فيها كذلك جماهير غفيرة من اهل الريف ، تعارض الفرسان بكل جلاء بالفلاحين ، بالعامة ، «التى لا تصلح للحرب والجبانة» . وان مدون اخبار الحملة الصليبية الاولى فولهير مـن شارتر ، يبرز على الخصوص بجميع الوسائل نبل مسلك الاقطاعيين اثنـاء معركة انطاكية ؛ فبعد الاستيلاء على المدينة ، «عمد الشعـب بلا رادع ولا كابح الى نهب كل ما كان فى الشوارع او فى البيوت» ؛ اما الفرسان ، فقـد بقوا ، حسب زعم فولهير ، مخلصين للشرف الفروسى .

خلاصة القول ان الحملات الصليبية شقت ثلما اعمق يفصل الاسياد عـن الفلاحين الفقراء : فان الفرسان قد اضطروا رغم انوفهم الى رص صفوفهم ، وليس فقط امام الاعداء الكفار ، بل ايضا امام «الرعاع المتمردين والذين

يستحيل اصلاحهم» (البر من آخن) . وفى انطاكية ، اضطر الامير ريمون من تولوز ، والامير بوهيموند من تارنتو ، اللذان كانا يتنافسان بضراوة ، الى التصالح فى اواخر سنة ١٠٩٨ حين واجها خطر فتنة فلاحيــــة فى صفوف القوات المسلحة . وهكذا اسهم النضال من اجل الاهداف المشتركة والنزاعات التى رافقته مع «القرويين ذوى الاخلاق الفظــــة ، المنفلتين ، الذين لا انضباط عندهم» فى توطيد تفهم الفرسان لتميزهم الاجتماعى ولمصالحهــم الخاصة التى تتطلب التلاحم والتراص .

ثم ان التعرّف على الشرق اسهم فى احداث تغييرات فـــى نمط حياة الاسياد فى الغرب . فان الفارس الصليبى كانت تستحوذ عليه ، بعد عودته الى الوطن ، مطامع جديدة ، وكانت تظهر عنده ادلة تقييمية جديدة . ولــم يكن ليعارض الاستعاضة عن اللباس الخشن المغزول فى البيت بالالبســة الشرقية الناعمة والجميلة ؛ وتزيين جدران بيته بالسجاجيد ؛ والاستعاضة عن المرآة من البرونز المصقول او من الفولاذ بالمرآة من الزجاج . ولماذا لا يستكمل المائدة القروية البسيطة بمآكل متأنقة من المطبخ الشرقـــى ، وبالتوابل ؟ ولماذا لا يشرب هو نفسه ، ولماذا لا يقدم لضيوفه بعـــد الصيد ، الخمر الشرقى العاطر ؟ ولماذا لا يبهر فى جولة الفرسان او اثناء حفلة فى القصر بسيف ذى قبضة مطعمة ومرصعة باناقة وبخناجر من الذهب والعاج ؟ واى خير اذا ما قدّم لضيف امضى معه النهار بشكل مستطاب الى مائدة فاخرة سلة من الفواكه النادرة الواصلة للتو من وراء البحار ؟

خلاصة القول ان حاجات الاقطاعيين تزايدت ، وان بنيتها تغيرت ؛ وفى الوقت نفسه اخذت تدخل حيز الخدمة اكثر فاكثر وسيلة موثوقة لتلبيـــة الحاجات هى النقود .

ونظرا لذلك ارتسمت تطورات وتغيرات معينة فى وضع الفلاحين الاقنان ايضا . ففيما مضى لم يستطع مئات الآلاف منهم ان يصمدوا لاغراء سراب ارض القدس «التى تسيل عسلا ولبنا» واشتركوا ببالغ الهمة والنشاط فى الحملات الصليبية . وفى افضل الاحوال كان هؤلاء الفلاحون يزدادون فقرا وبؤسا بعد عودتهم الى الوطن . فان نير الاسياد لم يضعف من جراء الحملات الصليبية ، وليس هذا وحسب ، بل اشتد ايضا . ذلك ان الاشتراك فـــى الحروب ما وراء البحار وفى رحلات الحج قد تطلب من الاقطاعيين نفقـــات كبيرة ؛ وهذه النفقات كان الاسياد يلقونها بالطبع على كواهـل الاقنان . واذا ابقى السيد ، عند انطلاقه فى «درب السيد» ، شيئا ما لفلاحيه من اجل سد رمقهم ، فاثر وكيله الذى كان يطالب بالاتاوى والفرائض العينيـــة

والنقدية ، كانت تنقض عصابات الجباة البابا ويين ، محصّلي النقود الصليبية . اما السواد الاعظم من الفلاحين الصليبيين ، فقد لقوا مصرعهم في الشرق (في المعارك او من جراء الامراض) . ولم يفلح سوى عدد قليل جدا منهم في تحقيق امانيهم في حياة افضل فيما وراء البحار .

ومع ان الاستثمار الاقطاعي في الغرب لم يقل البتة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، الا ان اشكاله اخذت تتغير هنا وهناك . وان رحيل الفلاحين الى الشرق (في زمن الحملات الصليبية الاولى) كان بحد ذاته يستتبع احيانا في العقارات الاقطاعية نقصا في الايدي العاملة ، فاضطر الاسياد رغم انوفهم الى التخفيف نوعا ما من حياة الفلاحين . ومن جراء تعاظم حاجات الاقطاعيين الى النقود ، اخذ حق القنانة يتلاشى شيئا فشيئا ، واخذت الاقساط النقدية تحل تدريجيا محل الفريضة العينية ، بل ان بعض الفلاحين كانوا ينالون الحرية الشخصية مقابل فدية نقدية . وقد جرت هذه الظاهرات بالطبع ، وقبل كل شيء — وبصرف النظر عن الحملات الصليبية — بقدر ما كانت تتطور الحرفة والتجارة والمدن والعلاقات النقدية في اوروبا .

والشيء نفسه تقريبا يصح ايضا على التغيرات في اوضاع المدن في الغرب . فان الاسياد ، سعيا منهم الى التزود بالاموال قبل انطلاقهم في الحملات ، كانوا احيانا يقدمون على التنازل عن حقوقهم حيال المدن : فمقابل النقود كانت بعض المدن الواقعة في ممتلكات الكونتات والدوقات تشترى لنفسها اصنافا متنوعة من الحريات . ولكن — ونؤكد مرة اخرى — خلافا لرأى المؤرخين الذين ينسبون نهوض الحياة في المدن وتحرر المدن من حكم الاقطاعيين الى الحملات الصليبية بالذات ، جرت هذه العملية في المقام الاول الى جانب الحركة الصليبية وبدأت قبلها بزمن طويل . وهذا يعني ان الحملات الصليبية ، ما دمنا نمعن الفكر في عواقبها الاجتماعية ، لم تسهم الا بصورة غير مباشرة في العمليات التقدمية في تطور الغرب الاقطاعي ، ولم تكن في اى حال من الاحوال عاملها الحاسم . ان اساس التغيرات التي طرأت في حياة المجتمع الاقطاعي قد تجذر في التطور الداخلي للاقتصاد الاوروبي والاوضاع الاجتماعية . ومن هنا ينجم ان الحملات الصليبية لم تحمل اى شيء جديد مبدئيا وبالاحرى اى شيء جديد جوهريا الى المجرى العام لنمو اوروبا الاقطاعية الاجتماعي .

يبقى ان ندرس النتائج الثقافية التاريخية للحملات الصليبية . في الادب الغربي لا يزال يشيع رأى كان واسع الانتشار فيما مضى ، مفاده ان الحملات الصليبية كانت في هذا المجال مثمرة على وجه الخصوص ، وانها ، بادخال

الاوروبيين الغربيين الى عالم جديد بالنسبة لهم من القيم الثقافية ، قد أدت الى ارتفاع مستوى الثقافة ، وحتى عنت فيها مرحلـــة جديدة . هذا الرأى متحيز وسطحى ، ولا يرتكز على وقائع كافية وقابلة للتصديق نوعا ما .

لا ريب فى ان الشرق العربى وثقافته (باوسع معانى هذا المفهوم) قد اثرا تأثيرا بالغا فى شتى جوانب الحياة المادية والروحية فى المجتمع الاقطاعى الاوروبى الغربى . فقد اقتبس الغرب الكثير من الشعوب الشرقية فى مضمار التكنيك . ومن الشرق الى اوروبا راح الطاحون الهوائى ؛ ففى الغرب بدأوا يبنون الطواحين الهوائية منذ القرن الثانى عشر بعد ان شاهدها الصليبيون فى سوريا . ومن سوريا ايضا اخذ الغرب الدولاب المائى المحسّن ؛ وقد كان معروفا فى الشرق منذ ازمان روما ، وحسّنه الميكانيكيون العرب وكان فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر يُستعمل على نطاق واسع فى سوريـا حيث اشتهر على الاخص حرفيو انطاكية بمهارة صنع هذا المحرك . وتتوفر المبررات للاشارة كذلك الى بعض المقتبسات الاخرى من المنجزات التكنيكية فى الشرق . فمنذ اواخر القرن الثانى عشر ، مثلا ، شرعوا فى اوروبا يربون ويستعملون (للاغراض الحربية فى بادئ الامر) الحمام الزاجــل الذى كان مستخدما من قديم الزمان فى بلدان المشرق ؛ ففى القرن التاســع ، كان الحمام يؤمن «خط البريد» بين الموصل وبغداد وغيرهما من المدن .

ثم ان الاوروبيين اقتبسوا فى الشرق بعضا من مزروعـــات الحقـــول والبساتين والقرعيات لم يكونوا يعرفونها (الحنطـــة الســـوداء ، الرز ، البطيخ ، المشمش ، الليمـون الحامض) وبعض اصناف الزهـــور (الورد الدمشقى) . وخلال زمن طويل كان العسل المنتوج الغذائى الحلو الوحيد فى الغرب ، ولم يدخل سكر القصب قيد الاستهلاك الا منذ القرن الثانى عشر . وللمرة الاولى تعرّف المقاتلون الافرنج على قصب السكر عندما جاءوا فى انطاكية سنة ١٠٩٨ . ويروى فولهير من شارتر ان رجال فصيلة بوهيموند من تارنتو وبودوان من بولونيا (ايطاليا) ، وعددهم ٢٥ الفا ، قد اضطروا ، اثناء مسيرتهم من انطاكية والرها الى القدس ، عندما رفض المسلمـــون تزويد الصليبيين بالمؤن ، الى الحفاظ على قواهم بقصب السكر : «كنا نحن الجياع نمضغ طوال اليوم كله باسناننا عيدان قصب السكر العسلى التـى كانت تشبه القصب العادى والتى كانت تنمو فى الحقول المحروثة التــى اجتزناها . والشعب البسيط يسمى هذه النباتات بعسل القصب» . ودخلت كلمة «السكر» العربية محورة الى كثير من لغات الشعوب الاوروبية . وفى القرن الثانى عشر ايضا تطور صنع الاقمشة حسب النمط الشرقى ومنهـــا

نوعا الداما والموصلين (نسبة الى مدينتى دمشـــق والموصـــل) ، ونوع الاطلس .

كذلك انعكس تأثير الشرق على نطاق واســـع جدا فى ميدان الآداب والمعيشة . فمنذ الحملات الصليبية شرع الاوروبيون يربون اللحى ويرتدون العمائم على الطريقة الشرقية ، ويأخذون الحمامات الساخنة ، ويغيرون احيانا كثيرة نسبيا الالبسة التحتانية والفوقانية (ففى القرون الوسطى الاولى كانوا فى اوروبا لا يغتسلون الا بالماء البارد ، ونادرا فقط ، وكانوا يلبســون الاثواب حتى تبلى) .

كل هذا صحيح ، وكل هذا معروف من زمان على العموم ، ولكننـــا نتساءل : ما شأن الحملات الصليبية هنا ؟ هل يمكن اعتبارها ، كما فعل بعض المؤرخين ، «اسفارا تعليمية لاوروبا الفتية الى الشرق» ؟ هـــل يمكننا ان نتصور ان فرسان الصليب الذين قاتلوا استجابة لنداءات باباوات روما ، قد قاموا بنقل منجزات شعوب الشرق الى تربة الغرب ، وان جشـــع جنود الصليب الافظاظ فى الشرق قد ادى او يكاد الى بناء ثقافة جديدة فى الغرب ؟

لا ريب فى ان بعض الجوانب من الثقافة المادية والروحية ، من المعيشة فى اوروبا الغربية ، قد تأثرت مباشرة بالحملات الصليبية . فان الفرسان ، مثلا ، كانوا مدينين ، اغلب الظن ، بشعاراتهم المرسومة على الدروع وغير ذلك من الشعارات لاولئك العرب والسلجوقيين الذين تقاتلوا معهم اثنـاء الحملات الصليبية (ومن الممكن ان يكون الرمـــز الشعارى — النسر ذو الرأسين — مثلا ، الذى كان العرب والسلجوقيون يعرفونه جيدا قد انتقل الى الغرب عبر بيزنطية) . كذلك نقـــل الغزاة الغربيون الى اوروبا سمات الاسلوب الشرقى فى الهندسة المعمارية . وقد كان جامع الخليفة عمر فى القدس الموديل والمثال الاولى للهياكل ذات القبب — وقد بدأ بناء الهياكل من هذا الطراز فى الغرب فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ فنقلا عن جامع عمر ، بنيت القبب فى كنائس الرهبان الهيكليين ؛ وفى القرن الثانى عشر بنى عدد كبير آخر من المعابد ، وبخاصة فى فرنسا ، نقلا عن كنيسة القبر المقدس فى القدس .

ثم ان الصليبيين حملوا الى اوروبا بعض الادوات الموسيقية . ومنذ زمن الحملات الصليبية قامت عادة عزف المؤلفات الموسيقية العسكرية فى مجرى القتال فى مكان تواجد القائد ؛ فان اصوات الموسيقى كانت دليلا لاجل المقاتلين . ومن الشرق اخذ الغربيون بعض اشكال المعاملة فى المعيشة .

ولكن الوقائع من هذا النوع ليست كثيرة جدا ؛ والرئيسى ان اهميتها

من حيث تقدم المجتمع الاوروبى ليست عظيمة بالقدر المظنون ؛ فهى تنحصر فى اطر ضيقة ، ناهيك بانها اطر قروسطية بحتة . وفضلا عن ذلك ، من الضرورى ان يؤخذ بالحسبان ان المنجزات الثقافية التى حققها الغزاة بالذات فى تربة الاتصالات مع الشرق كانت قليلة جدا . فقد طفقوا يربون اللحى ويرتدون العمائم ، بل ان بعض ممثلى البيوت الاقطاعية الاوروبية كانوا احيانا يعاشرون الاعيان المسلمين عن كثب . بل انهم دخلوا فى علاقات زواج مع السريانيات والارمنيات او مع المسلمات المعمّدات وكانوا ، كما قال فولهير من شارتر ، «يعيشون حسب عادة زوجاتهم» . خلاصة القول ان الاسياد الافرنج قد تكيفوا خارجيا للوضع الجديد عليهم ، و«نسوا وطنهم» ، كما كتب مدون الاخبار المذكور («من كان رومانيا او فرنسيا ، صار هنا جليليا او فلسطينيا ، ومن جاء من ريمس او من شارتر صار هنا صوريا او انطاكيا») . ورغم هذا ، بقوا عنصرا غريبا فى الشرق . فقد كان الاسياد الغربيون هناك فى بيئة غريبة عليهم .

فى دول الصليبيين ، لم يطرأ البتة تقريبا تفاعل او تأثير متبادل بين الثقافة الروحية الشرقية والثقافة الروحية الغربية ؛ فقد كان المناخ الاجتماعى والسياسى (الحروب ، تمردات السكان المحليين ، وضع المعسكر) لا يصلح ابدا لهذا الغرض . ومن المكتبات التى سلمت فى الشرق اللاتينى وصلت الينا ٢٧ مخطوطة فقط . ان رجال الكنيسة الكاثوليكيين المتعصبين ، وهم ، على ما كان يبدو ، اكثر اقسام الصليبيين تحصيلا ، لم يكونوا يهتمون بثروات العالم العربى الروحية ، بل بالعكس تماما ؛ فان مكتبة طرابلس ، مثلا ، قد احرقها الصليبيون كليا بعد استيلائهم على المدينة ؛ وكيف لا ؟ فقد وجدوا فيها بضع نسخ مخطوطة من القرآن !

اجل ، ان تبادل القيم المادية والروحية بين الغرب والشرق كان يجرى ، ولكنه ، اولا ، بدأ قبل الحملات الصليبية بزمن طويل ؛ ثانيا ، لعبت اسبانيا العربية وصقلية العربية وبخاصة المناطق الغربية لبيزنطية الدور الاول فى نقل منجزات الشرق الاقتصادية والثقافية والتكنيكية الى الغرب . فمن خلال هذه الاقطار بالذات «لقّن» الشرق ، حسب قول المؤرخ الفرنسى ايبرسولت ، «الغرب درسا مديدا من التعليم قبل الحملات الصليبية بزمن طويل جدا» . وفى مرحلة الحملات الصليبية ، احتفظت اسبانيا وصقلية وبيزنطية كذلك بقدر كبير باهميتها كوسيطة فى التعاشر بين الغرب والشرق . وحتى فى زمن ذروة ازدهار دول الصليبيين ، تقبلت اوروبا الغربية من التأثيرات الشرقية

(والتقاليد القديمة) من الامبراطورية البيزنطية بسبيل الاضمحلال اكثر بكثير مما من بلدان المشرق .

وبالفعل ، اخذت حياكة الحرير ، مثلا ، تنتشر اكثر فاكثر فى الغرب منذ القرن الثانى عشر . طيب ، وما فى الامر ؟ لا شأن البتة للحملات الصليبية فى هذا المجال ؛ فان العرب واليونانيين قد نقلوا الى اوروبا فن صنع الاقمشة الحريرية الغالية ؛ وكانت صقلية حلقة الوصل . وعندما استولى ملك صقلية ، روجه الثانى الصقلى ، فى اواخر الاربعينيات من القرن الثانى عشر ، على كورنتوس وثيبة وغيرهما من المدن اليونانية ، التى كانت منذ القرن الحادى عشر مراكز صناعة الاقمشة الحريرية ، اسكن فى باليرمو المعلمين فى حياكة الحرير وبدأ يشجع بجميع الوسائل انشاء مؤسسات الاقمشة الحريرية . او اليكم واقعا آخر ثابتا ايضا كل الثبات : منذ القرن الثانى عشر شرعوا فى البلدان الغربية يستعملون الورق ، ولكن ليست دول الشرق اللاتينى ابدا هى التى نقلت هذا المستحدث الى اوروبا . فقد سبق ان تعلم العرب من الصينيين صنع الورق فى القرن الثامن ؛ وفى القرن العاشر ، كانوا يستعملون الورق على نطاق واسع فى مصر وسوريا ولبنان وفلسطين . وكانت اسبانيا العربية وصقلية العربية الوطن الاوروبى لهذه المادة الكتابية ؛ فمن صقلية انتقل انتاج الورق الى ايطاليا (لا قبل سنة ١٢٧٠) ، ومن اسبانيا انتقل الى فرنسا ومنها فى القرن الرابع عشر الى المانيا .

وفى التجارة مفاهيم ومصطلحات كثيرة عربية الاصل ايضا ، ولكنه يوجد فى ميدان التجارة عدد لا يستهان به من المصطلحات ومن الاحكام الحقوقية المقتبسة من اسبانيا وصقلية وليس البتة من مناطق شرقى البحر الابيض المتوسط . ففى القرن العاشر ، مثلا ، انتقل سند الدين (الحوالة ، الكمبيالة) الذى اصبح فيما بعد جزءا لا يتجزأ من العمليات التجارية والنقدية فى اوروبا الغربية .

وكانت لوحة مماثلة تظهر فى ميدان المعيشة . لقد ذكرنا اعلاه الاغتسال بالماء الساخن وتدبير الحمامات التى استوعبها الغزاة الصليبيون فى سوريا ولبنان وفلسطين وبيزنطية . ولكن اوروبا الغربية تلقت كذلك فى اسبانيا العربية ايضا دروس الاستحمام فى الحمام .

ولكن القضية لا تقوم فى زمان ومكان انطلاق التأثيرات الشرقية . فهناك امر اهم بكثير ؛ فان قنوات التأثير المتعدد الجوانب الذى عرفه الغرب من جانب الشرق الاسلامى والبيزنطى الاكثر تطورا قد حدثت فى المقام الاول

العلاقات الاقتصادية العالمية التى ترسخت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بمعزل عن الحملات الصليبية ، والتبادل التجارى الشديد مع المشرق الذى اخذت تشترك فيه بنشاط متزايد ابدا المدن التى قامت فى اوروبا الغربية على اساس انفصال الحرفة عن الزراعة . ان التجارة بالذات ، وليس الحروب الدموية دفاعا عن «الدين القويم» ، تبادل البضائع ، وليس الابادة المتبادلة لاجل اهداف دينية ، — ذلك ما ادى الى تماس مع الشرق مثمر بالنسبة للغرب . واذا كانت خيرات ما من الثقافة المادية والروحية فى الشرق (ومن خلاله من الثقافة القديمة) قد صارت ملك اوروبا الغربية من جراء الحملات الصليبية ، فان هذه المكاسب قد تحققت بفضل العنف القاسى .

وغنى عن البيان ان الحملات الصليبية قد لقيت صدى فى الادب الاوروبى القروسطى — فان المواضيع الصليبية قد اغنت تدوين الاخبار (التاريخ) اللاتينى ، والشعراء المغنين المتجولين ، والملحمة الفروسية . ونشأت الحكايات عن الحملة الصليبية الاولى — «اغنية عن انطاكية» ، «اغنية الاسرى» (التى تصور بجملة من التفاصيل المختلقة مصير الصليبيين الذين وقعوا فى اسر كربقا) . واكتمل الا ب الحقوقى ايضا بنصوص جديدة ؛ فان الحق الاقطاعى الاوروبى الغربى قد طرأ عليه تطور معين فى الشرق ، فى سياق تكيفه للخصائص السورية اللبنانية الفلسطينية ، الامر الذى انعكس فى اسيز دى جيروزالم («اسيز القدس») وفى قوانين دول الصليبيين الاخرى . واشهر اثر من هذا النوع ، «اسيز انطاكية» ، وهو مبحث موضوع بطلب من احد امراء انطاكية ، فى ١٢٥٢–١٢٥٣ ، وترجم الى اللغة الارمنية ثم ادرجه كونيتابل ارمينيا الصغرى سمبات فى مؤلفة «كتاب القضاء» بوصفه مقابلا للحق البيزنطى .

وسعت الحملات الصليبية آفاق تصورات الاوروبيين الغربيين الجغرافية والاثنوغرافية . وحملت علاقات اصحاب السفن والتجار والاسياد الإقطاعيين والفرسان من الشرق وبيزنطية الى الغرب معارف اكثر دقة وتنوعا عن الجيران ، عن بلدان آسيا الامامية وافريقيا الشمالية . فان اسقف غكا ، جاك دى فيترى ، مثلا ، قد ترك فى مؤلفه «تاريخ الشرق» وفى رسائله اوصافا مفصلة مفعمة بالاهتمام الحى بالطبيعة ، بعالم الحيوانات وعالم النباتات فى بلدان شرقى البحر الابيض المتوسط . وهو يعرض كل المادة المتعلقة بتاريخ مملكة القدس من وجهة النظر الجغرافى والاثنوغرافى اكثر مما من وجهة نظر المؤرخ ؛ فقلما تهمه افعال الصليبيين ، ولكنه بالمقابل يدخل فى

السرد ، بدأب وانتظام ، معطيات احصائية عن الاحوال الطبيعيـــة والحياة الاقتصادية فى مملكة القدس . ثم ان البحث الذى كتبه الراهب الدومينيكانى غليوم الطرابلسى فى سنة ١٢٧٣ عن «اوضاع المسلمين والنبـى الدجال محمد وعن طقوسهم وايمانهم» يتضمن هو ايضا معلومات كثيرة ذات طابع اثنوغرافى .

ولا ريب ايضا فى ان نظام العلاقات الدولية بين الغرب والشرق اجمالا قد ازداد تعقدا وصار اكثر تشعبا من جراء الحملات الصليبية .

ومع ذلك ، يتعين علينا ، اذ نستخلص النتائج ، ان نرفض قطعـــا النظرات التى شاعت من زمان بعيد بين ايديولوجيى الطبقات السائدة فى الغرب والتى لم تندثر حتى الآن ومفادها ان الحملات الصليبية اضطلعت بدور تمدينى معين ، وان هذه الظاهرة قد اتسمت باهمية عالمية تاريخية ، وان الصليبيين كانوا «رواد عظمة الغرب» ، وان ممالك الصليبيين فى الشرق ، كما يزعم المؤرخ الاميركى داغتْن ، كانت دولا ازدهرت فيها الحرية والعدالة ، وان الصليبيين ادوا رسالة التبادل الثقافى بين الغرب والشرق .

اما فى الواقع ، فان المنافع من الحملات الصليبية بالنسبة للغرب ، حسب التعريف الصائب الذى ساقـــه العالم الروسى المعروف فى الشؤون البيزنطية اوسبنسكى ، كانت اقل بما لا يقاس من الخسائر والاضرار وان «تأثير الحملات الصليبية فى تقدم المجتمع القروسطى يتعرض (فى وعينا — **المؤلف**) لتذبذب كبير اذا اخذنا بعين الاعتبار عملية التطور الطبيعية التى كان بمقدورها ، بدون الصليبيين ، ان تحمل الشعوب القروسطية الى النجاحات فى طريق التطور السياسى» ، وكذلك — كما نضيف نحن — فى طريق التقدم الاجتماعى والاقتصادى والثقافى .

ان الحركة الصليبية قد كلفت شعوب اوروبا قوى هائلة ؛ ففى سياق هذه الحروب المضنية ، هلـــك مئات الآلاف من الناس ؛ وانفقت الملايين والملايين من الاموال التى ترسب قسم لا يستهان به منها فى خزائن باباوات روما . ان الحملات الصليبية قد تركت فى وعى الجماهير الشعبية فى اوروبا عن نفسها ذكرى حزينـــة ومشؤومة ؛ ففى الاغانى الشعبية الفرنسيـــة القديمة المؤلفة فى زمن الحملات الصليبيـــة ينداح الأسى على الذين لقوا مصرعهم بلا داع ولا معنى ، ويدوى الاحتجاج على تكرار مثل هذه الحروب مستقبلا .

فى الحملات الصليبية لم يهلك كثيرون من اولئك الحجاج الذين اصبحوا هم بالذات ضحية التعصب الدينى الاعمى او ضحية لجشعهم بالذات وحسب ،

ولم يهلك اولئك الذين ، كما كتب مدون الاخبار الالمانى اكهارد من اورا ، «تخلوا عن اموالهم بالذات وسعوا بطمع وراء اموال الغير» وحسب . فبسيوف الفرسان الصليبيين الذين اشتركوا فى الحملات الاربع الاولى ، أبيد ايضا عشرات الآلاف من الناس فى اوروبا الشرقية الجنوبية . وبتعبير آخر نقول ان الحروب الدينية عنت ، من وجهة نظر التقدم الاوروبى العام ، تبديد القيم المادية والموارد البشرية بمقادير كبيرة وعبثا وعلى المكشوف .

وتزداد صحة ما قيل اذا اخذنا بالحسبان تقدم البشرية على العموم .

ذلك ان الاكتفاء بوصف العواقب السلبية او الايجابية للحملات الصليبية ، مع الانطواء فى اطار المنطقة الاوروبية الغربية وحدها ، سيكون احادى الجانب الى اقصى حد . فان التقييم الموضوعى لمثل هذه العواقب يتطلب كذلك تحليلا الزاميا للمسألة من موقع آخر ، من وجهة نظر تطور الشرق الاسلامى والبيزنطى لاحقا . وفى هذا المجال ، قد يكون تقييم اهمية الحملات الصليبية وحيد المدلول تماما : فان الحملات الصليبية كانت بالنسبة لبلدان شرقى البحر الابيض المتوسط كارثة حقيقية . ذلك ان الصليبيين حملوا اليها الخراب فى سياق عشرات السنين ، واجتاحوا ونهبوا المدن والقرى فى آسيا الصغرى وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر ، واستحقوا عن جدارة فائق كره وازدراء شعوب الشرق الامامى .

لقد تسبب الغزاة بالانحطاط لمراكز الشرق الادنى المزدهرة اقتصاديا وثقافيا . اما فيما يخص مناطق العالم الاسلامى النائية ، فان الحملات الصليبية لم تمسها . ان الاعتداءات والفتوحات الصليبية لم تشمل سوى اطرافه ، ناهيك بان دول الصليبيين التى بسطت حدودها على نطاق واسع نسبيا فى غضون حقبة من الزمن لا تربو على مائة سنة ، نادرا جدا ما كانت عاملا سياسيا موزونا وفعالا نوعا ما . وان التغيرات التى طرأت فى هذه المناطق ، سواء قيام وتوطد السيادة السلجوقية ، وانهيار الخلافة الفاطمية ، وارتقاء المماليك ، او بالاحرى غزو المغول ، قد تحققت بصورة مستقلة عن الحملات الصليبية ، واستغلتها دول الصليبيين فى مصلحتها فى افضل الاحوال .

ان سحق بيزنطية فى سنة ١٢٠٤ واقامة سيادة الاقطاعيين الاوروبيين الغربيين والتجار الاوروبيين الجنوبيين كانا اهم ثمرة او يكاد – وعلى الصعيد العالمى التاريخى بالذات – من الثمار المشؤومة للحروب الصليبية . فان الامبراطورية البيزنطية التى تعرضت للنهب والاجتياح ، لم تستطع يوما ، رغم انبعاثها كدولة مستقلة (بمساحة اقل بكثير من ذى قبل) بعد مرور بضعة

عقود من السنين ، ان تستعيد مواقعها الاقتصادية والسياسية السابقة . ثم ان بيزنطية السابقة ، المستضعفة داخليا ايضا ، والمقسمة فضلا عن ذلك ، امست ، بعد مرور حقبة قصيرة من الزمن ، غنيمة للعثمانيين ، ومن جراء ذلك اقترب خطرهم لصقا من اوروبا الغربية . ان الصليبيين قد دمروا بيزنطية التي كانت على امتداد مئات السنين حصنا للغرب فى الجنوب الشرقى ضد ضغط جحافل البرابرة من كل شاكلة وطراز ، وبذلك فتحوا الطريق امام الاجتياح العثمانى .

وهكذا اضطلعت الحملات الصليبية بالاجمال على الصعيد التاريخى العالمى بدور سلبى ولم تضطلع البتة بدور ايجابى .

الخرافات السياسية الدينية والواقع التاريخى

تشكل الحملات الصليبية صوة مهمـــة فى تاريخ العلاقات بين الغرب الكاثوليكى والشرق الاسلامى ، التى كانت تتسم آنذاك على الاغلب بالمواجهة . وفى سياق وفى تربة هذه المواجهة ، نشأ فى قلب الكاثوليكية نظام خاص من نظرات تحبذ على الصعيد الايديولوجى والصعيد الاخلاقى الحروب الاغتصابية التى تشنها اوروبا الاقطاعية ضد الشعوب التركية والعربية فى شرقى البحر الابيض المتوسط وافريقيا الشمالية . وهذه النظرات كانت تؤلف بمجملها ، اذا جاز القول اصطلاحيا ، الايديولوجية الصليبية . وهذه الايديولوجية كانت ايديولوجية العداء والكره للمسلمين ، وكانت لا تبرر كل قساوة حيالهم وحسب ، بل تجعل كذلك من الصليبيين انفسهم ابطالا وشهداء يجترحون ، بابادة «الكفار» ، افعالا ترضى الله («افعال الرب بواسطة الافرنج») ، ويؤمنون لانفسهم الخلاص الابدى فى السماء بالموت فى سبيل انتصار «الايمان القويم» ، وبالتضحية بانفسهم لهذا الغرض .

فى القرن الثانى عشر وبخاصة فى القرن الثالث عشر طرأت على ايديولوجية الحملات الصليبية جملة من التحولات الخطيرة بقدر ما كانت الحياة الاجتماعية والسياسية تزداد تعقدا . فان هذه الايديولوجية التى نشأت وتكونت فى سياق حروب الفرسان فى الشرق الاسلامى ، قد اصبحت تدريجيا ، بمعنى ما ، ذاتية الفعل كأنما انفصلت عن الواقع التاريخى الملموس الذى ولدها واطعمها ، وفارقت حدود نظام العلاقات المتبادلة بين الغرب والشرق ، وصارت ميدانا مستقلا نسبيا من ميادين البناء الفوقى السياسى الدينى للاقطاعية الاوروبية

الغربية . ولهذا لقيت جميع العناصر الاساسية لهذه الايديولوجية والشعارات العملية النابعة منها تطبيقا شاملا كليا سواء فى سياسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ام فى مجال النشاط الاجتماعى والسياسى لمختلف طبقات المجتمع الاقطاعى .

فتحت رايات الحملة الصليبية شنت البابوية فى القرن الثالث عشر النضال ضد خصومها السياسيين بالذات . وتحت الوية الدفاع عن الكاثوليكية ، كانوا يكرسون ويقدسون القمع العنيف لكل معارضة للاوضاع القائمة كانت فى تلك الازمنة تبرز وتعمل ، كقاعدة ، بصورة هرطقات دينية . ومن هنا الحملات الصليبية ضد الهرطقة فى القرن الثالث عشر . هكذا كانت الحملة التى نظمها البابا اينوشنتيوس الثالث ضد الالبيجيين فى فرنسا الجنوبية (١٢٠٩-١٢١٢) ، والحملة التى قام بها الاقطاعيون الالمان الشماليون استجابة لنداء البابا غريغوريوس التاسع الى اراضى فلاحى فريسلند - الشتيدينيين - الذين ثاروا على العبودية القنية التى كانت تتهددهم ، والذين رفضوا ان يدفعوا العشر للكنيسة . وكل عدوان يشنه الفرسان ويباركه الكرسى الرسولى كان يتخذ شكل الحملة الصليبية . وهكذا ، الى جانب مشاريع الفرسان الاوروبيين الغربيين الحربية الاستعمارية فى الشرق الاسلامى وفى اراضى الروم ، كان الفرسان الالمان يطبقون «درانغ ناخ اوستن» («الزحف على الشرق») ضد شعوب منطقة البلطيق الشرقية والجنوبية وكذلك ضد شعوب الروسيا الشمالية الغربية . والى جانب رهبنة فرسان القديس يوحنا ورهبنة الفرسان الهيكليين اللتين وطدتا بالسيف سيادة الفرسان والتجار فى سوريا ولبنان وفلسطين ، نشرت رهبنة الفرسان التوتونيين ورهبنة حملة السيف الالمانية التى نشأت سنة ١٢٠٢ «نور الايمان الحقيقى» ؛ فلاجل انتصار الصليب سفك فرسان هذه الرهبنات دماء السلافيين والبروسيين والليتوانيين والاستونيين .

ان الطابع «العالمى» «الكلى» الذى اكتسبته القيمة الذاتية للايديولوجية الصليبية قد بقى فى القرون التالية - سواء فى القرون الوسطى ام فى الازمنة الجديدة وحتى فى احدث الازمنة . وفى القرون الوسطى استغلت الطبقة السائدة شعارات الحملة الصليبية على نطاق واسع وفى المقام الاول لاجل التنكيل بحركات التحرر للجماهير الشعبية . وفى سنة ١٣٠٥ نادى البابا كليمنت الخامس بحملة صليبية ضد فلاحى ايطاليا الشمالية الذين ثاروا بقيادة الاخ دولتشينو على الاسياد . وفى سنوات ١٤٢٠-١٤٣١ شن البابا مرتينوس الخامس والامبراطور سيغيزموند ، تحت الراية ذاتها ، خمس حملات تأديبية

بقوات الفرسان الالمان ضد المنتفضين الهوسيين الثوريين التشيكيين ، الفلاحين والحرفيين ، الذين هبوا الى القتال لاجل الخلاص من النير الاجتماعي والقومي ، لاجل استقلال بلدهم .

وفي الوقت نفسه لم تندثر في اوروبا حتى القرن السادس عشر ضمنا تقاليد الحملات الصليبية الشعبية . فان الايديولوجية الصليبية المفسرة بروح متطلبات الفئات الدنيا قد تجلت غير مرة في الفتن الفلاحية . وقد تكررت الحملة الصليبية من طراز حملتي الاولاد وحركة «الرعاة» في سنة ١٣٠٩ عندما احتشدت جموع الحرفيين الفقراء والفلاحين واندفعت في فرنسا والمانيا وانجلترا ، بتأثير دعوات البابا كليمنت الخامس الصليبية ، الى تحرير الارض المقدسة ، ولكنها لم تذهب الى ابعد من مدينة افينيون (فرنسا) . وفي سنة ١٥١٤ ، ارتدى المشتركون في الحرب الفلاحية العظيمة في المجر - انتفاضة ديورده دوجا - البسة الصليبيين وانضووا تحت راية الصليب لكي يقوموا بحملة ضد العثمانيين استجابة لدعوة رئيس الكنيسة المجرية الكاردينـال تاماش باكوتسي ولكنهم حولوا اسلحتهم فيما بعد ضد الطواغيت الاقطاعيين في بلدهم بالذات .

ثم ان الايديولوجية الصليبيـة قد طُبّقت ، بقـدر متفاوت مـن الدأب والانتظام ، وبمعنى واحد ، وفضلا عن ذلك بروح اقرب ما يكون الى ممارسة الحملات الصليبية في القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر ، في ميدان السياسة الخارجية في دول اوروبا الغربية ، - فيما يسمى الحملات ما بعد الصليبية . ففي القرن الرابع عشر ، قامت هذه الحملات ضد المماليك وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر ضد العثمانيين . وقد ترسخت فكرة الحملات الصليبية في الوعي الديني السياسي في الغرب الاقطاعي الى حد ان سقوط عكا في سنة ١٢٩١لم يعتبر نهاية لهذه الحملات . وعلى امتداد بضعة قرون ، كانت السياسة الشرقية للانظمة الملكية الاوروبيـة تتلون بلون الايديولوجية الصليبية ، وكانت تفسّر على انها استمرار للحملات الصليبية القديمة ، المألوفة ، رغم ان هذه الايديولوجية كانت تتكيف في كل حالة بعينها للظروف الفعلية المتغيرة .

في اواخر القرن الثالث عشر واوائل القرن الرابع عشر انعكست هذه الايديولوجية في الادب الاجتماعي السياسي ، وموضوعه مسألة السبيل الذي سيتمكن الغرب بالسير عليه من دخول الارض المقدسة المفقودة وامتلاكها من جديد . كان اصحاب البحوث الاجتماعية السياسية يصوغون ويطرحون المشاريع لاخضاع الشرق من جديد . وابرز انصار هذه الفكرة بيار دوبوا ،

الحقوقي الفرنسي ، مستشار الملك فيليب الرابع الجميل ، الذي عرض خطته في مبحثه «استرجاع الارض المقدسة» (سنة ١٣٠٧) ؛ الشاعر والفيلسوف الاسباني ريمون لول الذي رسم في مؤلفه «كتاب النهاية» خطة حملة صليبية ، ودعا فيما بعد ، في مبحثه «جدال المسيحي ريمون مع المسلم عمر» ، الى اعتناق المسلمين للمسيحية بصورة سلمية (بل انه قام في الثالثة والثمانين من عمره برحلة الى تونس لغاية تبشيرية) ؛ مارينو سانودو تورسيلو من البندقية ، الذي ألف في الموضوع الصليبي مبحثه «كتاب اسرار المخلصين للصليب» (سنة ١٣٠٩) .

ولكنه كان مكتوبا لجميع هذه المشاريع ان تبقى حبرا على ورق . فلم يكن بمقدور الاسياد الاقطاعيين الغربيين ان يحاربوا دولة المماليك التي كانت لها قوات مسلحة قوية وحسنة الانضباط ، فاكتفوا بغارات القرصنة على سواحل مصر وسوريا ولبنان ؛ ولكن هذه الغارات لم تكن تفعل غير ان تثير الامتعاض في صفوف تجار المدن الايطالية الشمالية الذين كانوا يتكبدون الخسائر . ولم تقم حملة صليبية ضد المماليك الا في سنة ١٣٦٥ . وقد ترأسها ملك قبرص ، بطرس الاول لوزينيان (١٣٥٩-١٣٦٩) . ففي قبرص استقر عدد كبير من الفرسان الافرنج ممن فقدوا اقطاعاتهم في سوريا ولبنان وفلسطين . واليهم انضمت فصائل الفرسان ، ولاسيما منها فصائل الفرسان الفرنسيين التي جمعها بطرس الاول اثناء جولته التجنيدية في اوروبا قبل ذاك بثلاث سنوات . وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٣٦٥ ابحر من ورودوس الى الاسكندرية اسطول من ١٦٥ سفينة . وفي ١٠ تشرين الاول ، احتل الفرسان الاسكندرية بهجوم خاطف ودمروها . ولم يبق الصليبيون حتى على كنيسة المسيحيين الاقباط . ان المذبحة المقترفة في هذه المدينة اعادت الى الاذهان «حمام الدم» الذي عانته القدس سنة ١٠٩٩ . وبعد ان غنم الفرسان غنيمة وفيرة ، ركبوا السفن وعادوا من حيث اتوا . وهكذا تحولت حملة سنة ١٣٦٥ الى غارة قرصانية كبيرة الابعاد ، الحقت الضرر بمصالح البندقية التجارية . وقد انقض الحكام المماليك باعمال القمع على المسيحيين المحليين لارتيابهم في تعاونهم السري مع الصليبيين . وفي سنة ١٤٢٦ احتل المصريون قبرص .

في القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر قامت حملات صليبية ضد العثمانيين الذين اقتحموا شبه جزيرة البلقان وهددوا اوروبا الشرقية الجنوبية . وفي سنة ١٣٩٦ هزم العثمانيون في جوار نيكوبول جيش الفرسان المتحد من بلدان مختلفة الذي كانت قوات الملك سيغيزموند المجرية تشكل

نواته . وفى سنة ١٤٤٤ تراس الملك البولونى فلاديسلاف الثالث حملة صليبية ضد العثمانيين ؛ وقد منى الصليبيون بالهزيمة فى معركة فارنا . وفى ٢٩ ايار (مايو) ١٤٥٣ استولى السلطان محمد الثانى على القسطنطينية . وبعد عشر سنوات انهارت الخطط الصليبية التى حاكها البابا بيوس الثانى . وفى سنة ١٥١٧ استولى العثمانيون على دولة المماليك المصرية السورية ؛ وفى سنة ١٥٢٩ اقتربت قوات سليمان الاول من فيينا . وفى هذه الاوضاع ، ظهر غير مرة على سطح الحياة السياسية الجديد تلو الجديد من المشاريع لتنظيم حملة صليبية اوروبية عامة برئاسة الملك الفرنسى «الاكثر مسيحية» . وفى سنة ١٦١٧ تقدم الديبلوماسى المعروف ، الاب الكبوشى جوزف ، المقرب من الكاردينال ريشيليو ، بمشروع ائتلاف هائل يضم الدول الكاثوليكية بقصد شن حملة صليبية ضد العثمانيين ، ولكن مشروعه ، مثل الكثير من المشاريع الاخرى من الطراز نفسه ، ظل معلقا فى الهواء ، من جراء التنافس بين فرنسا و«الامبراطورية الرومانية المقدسة للامة الالمانية» اللتين كانت تسعى كل منهما الى الزعامة والهيمنة فى اوروبا . ومنذ بداية حكم فرنسوا الاول ، ارتبط ملوك فرنسا بالدولة العثمانية بالمعاهدات التجارية وحتى بالمعاهدات التحالفية ، فلم يضمروا اى اهتمام بالحملات الصليبية ضد العدو الشرقى لاخصامهم ، آل هابسبورغ . عندما عرض الفيلسوف الالمانى ليبنيتس على «الملك-الشمس» («Le Roi-Soleil») لويس الرابع عشر مجموعة من المشاريع الموضوعة والمعللة بصورة مفصلة لفتح مصر ، «هولندا الشرق» هذه كما سماها ، رد الوزير بومبونى على صاحبها بان الحملات الصليبية لم تعد تتسم باية اهمية منذ زمن لويس التاسع .

كان كثيرون من باباوات روما من المبادرين الى الحملات الصليبية ضد العثمانيين ؛ وكانوا يدعمون مختلف ائتلافات الدول الاوروبية بالنقود والقوات المسلحة . وان النصر على العثمانيين فى معركة ليبانتو فى سنة ١٥٧١ لم يكن نصرا لاسبانيا والبندقية وحسب ، بل كان ايضا نجاحا للباباوية .

كذلك الهمت فكرة الحملة الصليبية اولى البعثات الاستعمارية لدولتى شبه جزيرة البيرينه — الكونكيستو (Conquisto) (الفتح ، الاحتلال) . فان شعارات الحملة الصليبية لم تعد تتجه ضد الاسلام وحسب ، بل صارت تتجه ايضا ضد كل العالم غير المسيحى . وحتى اكتشاف كولومبوس للعالم الجديد قيموه بمصطلحات الحملة الصليبية ، واعتبروه «فعل ايمان» . وفى انجلترا ايضا شاعت افكار مماثلة . فقد كتب الفيلسوف الانجليزى المشهور بيكون فى سنة ١٦٢١ مؤلفه «حوار حول الحرب المقدسة» ؛ وقد اشار فيه الى

ضرورة اضفاء الصفة القانونيـــة على الحروب الاستعمارية والحروب ضد الاتراك ، متذرعـــا فى ذلك سواء بحجج دينية ام بحجج مستقاة من مذهب الحق الطبيعى .

وجاء عصر النهضة ينزع عن الحملات الصليبية مجدها وبهاءها . فقد رأى المنورون فيها وليدا مسخا فظيعا للقرون الوسطى «السخيفة» و«الجاهلة» ، «جنونا دمويا» ، «وباء الكلب» ، «نصبا غريبا للغباوة البشرية» . ووســم روسو وفولتر وغيبن وروبرتسون بالعار افغال الصليبيين ، ونددوا بوحشيتهم واعتبروا حروبهم نتيجة لتعكر الذهن بنشوة الدين ، وسخروا سخرا مرا من تاريخها . كذلك نعت هردر الحملات الصليبية بالحملات الطائشـــة وجادل وعارض الثمار الايجابية التى كان ينسبها المؤلفون الكاثوليك آنذاك اليها ؛ وكان يعتبر ان الجنـــون الصليبى «كلف اوروبا من الاموال ومن الارواح البشرية ما لا عدّ له» .

ومع ذلك ، لم يقض حتى مثل هذا التنديد الماحق بالحملات الصليبية على الايديولوجية الصليبية ، رغم انه نسف من الاساس «اشراقها» الدينى . ففى اشكال متغيرة خدمت كذلك فيما بعد القوى الرجعية اى خناقى الشعوب ، والغزاة ، والمستعمرين فى عهد الرأسمالية مـــا قبل الاحتكار وفى عهد الامبريالية .

فمنذ اواسط القرن التاسع عشر ، مثلا ، وضع تمجيد الحملات الصليبية فى خدمة السياسة الاستعمارية التى انتهجتها الدول الاوروبية فى آسيـــا وافريقيا — لا فرنسا وبلجيكا الكاثوليكيتين وحسب ، بل ايضا المانيـــا البروتستانتية . وفى فرنسا تاسست لهذا الغرض فى سنة ١٨٧٥ جمعية دراسة الشرق اللاتينى . ومنذ النصف الثانى من السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر ، اخذت الاوساط الحاكمـــة فى المانيـــا ، وقد تخلت عن «الكولتركامبف» («الكفاح الثقافى») الذى نادى به بيسمارك ، تقترب اكثر فاكثر من الكنيسة الكاثوليكية . وفى الثمانينيات تأسس امتياز سكة حديد برلين — بغداد ، وراحت الى تركيا بعثة عسكرية برئاسة فون در غولتس . وفى سنة ١٨٨٩ أسس القيصر الالمانى غليوم الثانى المعهـــد الانجيلى فى القدس . وقد تحسّر هذا القيصر بنفاق ورياء بصدد ان «شعورالايمان الحقيقى الذى يحمل المسيحى على التوجه الى حيث عاش وتعذب المخلص ، قد زال كليا تقريبا فيما يسمى بالطبقات العليا» ، وقام فى سنة ١٨٩٨ بالحج الى فلسطين وسوريا . وفى ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٩ راح الى القدس وانبأ العالم انه ، هو الامبراطور ، لم تحمله الاعتبارات الدينية وحدها الى

هناك : «ليس للمرء مــا يفعله هنا ، فى الشرق ، بالخطابـات الفارغة» .
وفى دمشق كرم القيصر الالمانى ذكرى صلاح الدين واعلن نفســه عند قبره صديقا وحاميا للملايين الـ ٣٠٠ من المسلمين فى العالـم . وكل هذه المسخرة الحجية كانت تستر خطط الرأسمال الاحتكارى الالمانى الاستعمارية البعيدة المدى .

وفى سنوات الحرب الامبريالية العالمية الاولى ايضا ، وضعت الدعاية الصليبية موضع الاستعمال . فان كلا من الكتلتين المتحاربتين لجأت الى التمويه الدينى . ان مداحى وحماة «الحرب المقدسة» لم يرتبكوا البتة لواقع ان الدول المسيحية التى تحارب بعضها بعضــــا كانت ، مثل الصليبيين القروسطيين ، مرتبطة بقوى الاسلام . ففى بداية الحرب ، مجّد الكاهن ياكوبكيتّر من بريمن (المانيا) انتصارات السلاح الالمانى معلنا ان «روح الرب تحل علينا» . ودفعت دول الوفاق (فرنسا وانجلترا وروسيا) «للمناضلين من اجل الايمان» الالمان والنمساويين والعثمانيين بالعملة ذاتها ؛ فان الحلفاء قد زعموا فى دعايتهم انهم يخوضون الحرب من اجل «القيــم العليا للاخلاق المسيحية» ، ودفاعا عن الديموقراطية . وعندما احتلت قوات انجلترا القدس فى ٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٧ ، اعربت الصحافة الانجليزية عن فرح خاص : «من جديد يملك المسيحيون المدينة المقدسة . ان هذا النصر يعنى بنظر الملايين من المؤمنين العائشين فى خوف الرب انجازا عظيما اهم من ولادة الامم وابادتها» .

الا ان انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى الذى دشن عهد انتصار الاشتراكية على الصعيد العالمى قد سدد ضربة الى المذاهب الصليبية بوصفها تعليلا ايديولوجيــا للنزاعات بين الامبرياليين . وبتأثير ثورة اكتوبــر الاشتراكية نهضت فى العالم موجة عاتية للحركة الثورية . ومذ ذاك شغلت «الحملة الصليبية ضد البلشفية» المقام الاول فى الدعاية الامبريالية ، اى ان هذه الدعاية اخذت تتستر بالجمل والمصطلحات الصليبية المكيفة باسلوب جديد وللعهد الجديد من اجل نضال الاوساط الحاكمة فى الدول الامبريالية ضد اول دولة اشتراكية فى التاريخ ، وضد الحركة العمالية والحركة الشيوعية وحركة التحرر الوطنى العالمية . وفى هذا النضال لقى الساسة البرجوازيون المحترفون والكتاب السياسيون والاجتماعيون الرجعيون الذين يبذرون بذور الحقد والكره العون الكلى من رجال الدين من مختلف الطوائف . وفى سنوات ١٩١٨-١٩٢٠ ، دعم البابا بنديكتوس الخامس عشر (١٩١٤-١٩٢٢) ، بحجة الدفاع عن الدين ، التدخل الاجنبى المسلح ضد الجمهورية السوفييتية .

وفى الثلاثينيات ، تسلحت الفاشية واتباعها من عداد كبار رجال الدين بالايديولوجية والمصطلحات «الصليبية» المعادية للشيوعية ، واخذوا يبرزون فى دعايتهم ، بدرجات متفاوتة ، تارة الدوافع «المسيحية» وطورا الدوافع «التمدينية» ، تبعا للظروف . وفى شباط (فبراير) عام ١٩٣٠ دعا بابا روما بيوس التاسع الى حملة صليبية ضد الاتحاد السوفييتى . وتبريرا للاستيلاء على اثيوبيا (الحبشة) فى سنة ١٩٣٥ ، زعم الفاشيون الايطاليون ان ضرورة اطلاع الاحباش والهراطقة والمنشقين والوثنيين على الايمان الحقيقى هى التى أملته . وبالتعاون مع الفاشية الالمانية والايطالية خنقت زمرة فرنكو الجمهورية الاسبانية فى سنوات ١٩٣٦-١٩٣٩ تحت شعار «الحملة الصليبية» ايضا .

وجاءت الحرب العالمية الثانية تكهرب من جديد القاموس «الصليبى» . فان النازيين قد سموا خطتهم للهجوم على الاتحاد السوفييتى «خطة بربروسا» ، على شرف احد قادة الحملة الصليبية الثالثة فى سنة ١١٨٩ ، الامبراطور الالمانى فريدريك الاول ذى اللحية الصهباء («barba rossa») . وعلى بكلات احزمة الجنود الهتلريين كان يظهر الشعار «الله معنا !» ، وذلك بكل جلاء تقليدا لصيحة الصليبيين القروسطيين القتالية «هكذا يريد الرب !» .

وبعد الحرب العالمية الثانية بفترة وجيزة ، وضعت المفاهيم القروسطية من جديد فى خدمة سياسة الدول الامبريالية . فالى كليشهات الايديولوجية «الصليبية» لجأ الزعماء السياسيون والعسكريون الانجلو-اميركيون . وكان ونستون تشرشل اول من استغل هذه الكليشهات . ففى خطاب القاه فى فولتون فى آذار (مارس) ١٩٤٦ دعا حلفاء الاتحاد السوفييتى فى الأمس القريب «الى حملة صليبية ضد الشيوعية» . وفى سنة ١٩٤٨ قام ايزنهاور بمحاولة لتفسير مفهوم «الحملة الصليبية» تفسيرا مصطنعا واستغلاله فى السياسة ، وذلك فى كتابه «الحملة الصليبية فى اوروبا» .

ومن ابرز سمات الاعمال الهدامة التى تقوم بها الرجعية الامبريالية ، التفنن المتعاظم فى اعمالها التخريبية الايديولوجية الهادفة الى تسميم الجو الدولى ، والنفخ فى نار الحرب النفسية (واحيانا يعرفونها بالصيغة التالية «الحملة الصليبية ضد التعايش السلمى») ، وتشديد هستيريا العداء للشيوعية والعداء للاتحاد السوفييتى .

اما قوى السلام فانها تناضل بدأب وثبات ضد تسعير الحقد والكره بين الشعوب ، وضد الاوهام السياسية ، معارضين السياسة البالية القائمة على الحملة الصليبية بالافكار الانسانية ، افكار توطيد السلام وامن الشعوب ،

افكار تجنيب البشرية سباق التسلح المضنى الذى تفرضه الامبريالية وخطر الحرب الحرارية النووية ، افكار تعزيز مبادئ التعايش السلمى والتعاون المتبادل النفع بين الدول على اختلاف انظمتها الاجتماعية والسياسية ومواصلة تعميقها . ان هذه القوى تناضل ضد سياسة الحملة الصليبية ، ضد هذه السياسة التى ولى عهدها واستنفدت قواها . ولكن لا يزال لها انصار فى الاوساط الامبريالية الرجعية . ان تاريخ الحروب الصليبية الحقيقى يبيّن وهن وبطلان اضفاء الصفة المثالية على هذه الحروب ، وعقم المحاولات ، ايا كانت ، لاستعمال سيوف الصليبيين القروسطيين ودروعهم الصدئة لما فيه الاضرار بقضية توطيد السلام .

محتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم إذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ، وترجمته ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو — الاتحاد السوفييتي

Заборов Михаил Абрамович

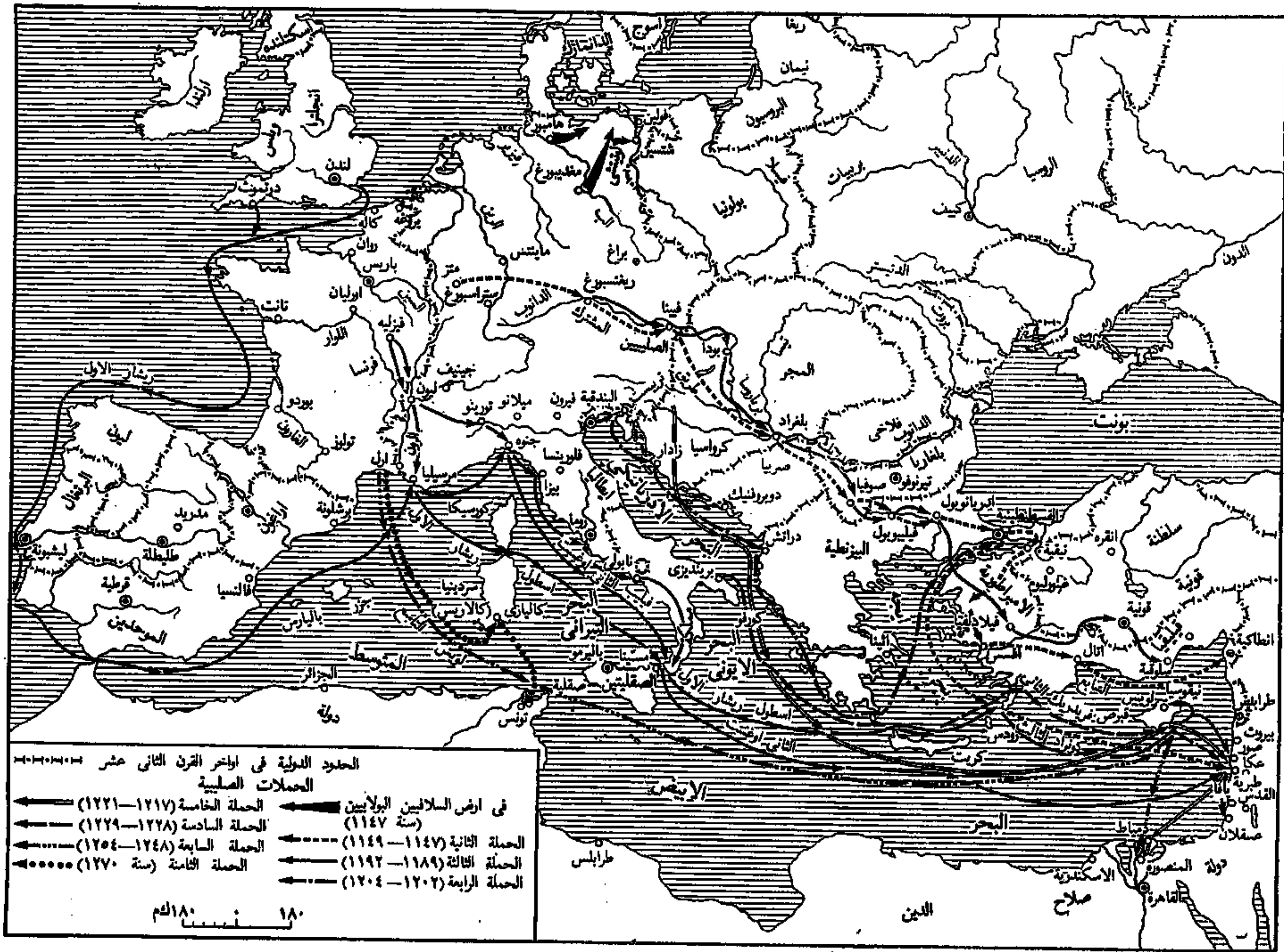
КРЕСТОНОСЦЫ НА ВОСТОКЕ

На арабском языке

Редактор русского текста *В. Д. Гапанович.* Контрольный редактор *Л. Д. Жигалева.* Художник *П. Кондрашов.* Художественный редактор *И. М. Чернышева.* Технические редакторы *Д. Я. Белиловская, Л. Ф. Шкилевич.*

ИБ № 16522

Сдано в набор 23.06.87. Подписано в печать 07.01.88. Формат 60×84 1/16. Бумага тип. № 1. Гарнитура «арабская». Печать высокая. Условн. печ. л. 20,46+0,93 печ. л. вклеек. Усл. кр.-отт. 26,61. Уч.-изд. л. 31,21. Тираж 7430 экз. Заказ № 360. Цена 2 р. 70 к. Изд. № 43918. Ордена Трудового Красного Знамени издательство «Прогресс» Государственного комитета СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли 119841, ГСП, Москва, Г-21, Зубовский бульвар, 17. Орд[illegible] Мос-ковская типография № 7 «Искра революции» [illegible] комитета СССР по делам издательств, полиг[illegible] 121019, пер. Аксакова, 13.



الحدود الدولية فى اواخر القرن الثانى عشر
الحملات الصليبية
فى ارض السلافيين البولابيين (سنة ١١٤٧)
الحملة الثانية (١١٤٧ — ١١٤٩)
الحملة الثالثة (١١٨٩ — ١١٩٢)
الحملة الرابعة (١٢٠٢ — ١٢٠٤)
الحملة الخامسة (١٢١٧ — ١٢٢١)
الحملة السادسة (١٢٢٨ — ١٢٢٩)
الحملة السابعة (١٢٤٨ — ١٢٥٤)
الحملة الثامنة (سنة ١٢٧٠)
١٨٠ ١٨٠كم
لندن
درتموث
كاليه
روان
باريس
اورليان
نانت
فيزليه
ليون
جينيف
بوردو
تولوز
مرسيليا
ارل
برشلونة
مدريد
طليطلة
لشبونة
قرطبة
فالنسيا
الموحدين
باليارس
الجزائر
تونس
صقلية
باليرمو
كالياري
سردينيا
كورسيكا
جنوه
بيزا
روما
نابولى
برنديزى
ميلانو
تورينو
فيرون
البندقية
زادار
كرواسيا
صربيا
دوبرونيك
درانش
البيزنطية
فيلبوبول
ادريانوبول
القسطنطينية
نيقية
انقره
قونية
انطاكية
طرابلس
بيروت
صور
عكا
يافا
القدس
عسقلان
دمياط
المنصورة
القاهرة
الاسكندرية
كريت
رودس
قبرص
اتاليا
سلوقية
صوفيا
تيرنوفو
بلغاريا
بلغراد
المجر
بودا
فيينا
ريغنسبورغ
ستراسبورغ
ميتز
ماينتس
براغ
مغديبورغ
هامبورغ
بولونيا
كييف
الروسيا
الدون
الدنيبر
الدانوب
بونت
البحر الايونى
البحر الابيض المتوسط
صلاح الدين
طرابلس

ميخائيل زابوروف





يرسم ميخائيل زابوروف في كتابه
تاريخ الحروب التي شنها الفرسان
وكبار الاقطاعيين من اوروبا الغربية
على آسيا الصغرى وسوريا ولبنان
وفلسطين ومصر في القرون الحادى
عشر والثانـي عشر والثالث عشر
والتي اتخذت شكل الحملات والحروب
الصليبيـة . ولقد حقق الفرسان
الغربيـون فتو رق
متسترين بحجة دين
المسيحي من «ال ن .
والكتاب مكتوب اب
وبالاعتماد على م من
الوقائع الواردة لفة
من اخبار تاريخي ـة
ومؤلفات ادبية ، على
عدد كبير من احا في
الموضوع المعني



دار التقدم
موسكو

ISBN 5-01-000748-7